تمام الفيض في باب الرجال

رجال ومشايخ الطريقة الجلوتية

تأليف

الشيخ العلامة إسماعيل حقي بن مصطفى
الإسلامبولي الحنفي الخلوتي البروسوي
المتوفى ١١٣٧هـ

تحقيق
أحمد فريد المزيدي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales @al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	: **Tamām al-fayḍ fī bāb al-rijāl** (A book in Sufism)	تمام الفيض في باب الرجال	الكتاب :
Classification	: Sufism and Biographies	: تصوف وتراجم	**التصنيف**
Author	: Ismāʻīl Ḥaqqi ben Musṭafā	: إسماعيل حقي بن مصطفى البرسوي	**المؤلف**
Editor	: Aḥmad Farīd al-Mizyadi	: أحمد فريد المزيدي	**المحقق**
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	: دار الكتب العلميـــة – بيروت	**الناشر**
Pages	: 552	: 552	**عدد الصفحات**
Size	: 17*24	: 17*24	**قياس الصفحات**
Year	: 2010	: 2010	**سنة الطباعة**
Printed in	: Lebanon	: لبنـــان	**بلد الطباعة**
Edition	: 1st	: الأولى	**الطبعة**

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-5618-1
ISSN 2-7451-5618-7

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وأنعم علينا، وجعلنا من أمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وأتحفنا بحقائق الإيمان، وكرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، ورقَّى بنا مراقي الإحسان، وحبَّب إلينا أولياءَه العارفين، والعلماء الموقنين، وسلك بنا مناهج المتَّقين الصديقين.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله سرُّ الوجود، وإكسير هذا العالم الموجود، وسلِّم كثيرًا.

وبعـــد..

فهذا الكتاب من أنفس الكتب التي تظهر صورة العلاقة التي بين الشيخ والمريد، ومدى اتصالها الروحي، وأنها باقية لا تفنى.

فجمع العلامة شيخ الإسلام سيرة شيخه سيدي عثمان الفضلي، وبيَّن مناقبه، وأحواله الدينية والدنيوية، فذكر كراماته العلمية، والكونية، ومواقفه مع السلاطين والأمراء والحالة السياسية وقتئذٍ.

وذكـــر ارتحالـــه في طلـــب العلم، وأشار لبراعة تصانيفه، وأثرها في المجال العلمي، والمدرسة الصوفية.

وكـــذلك تكلـــم علـــى آداب الطريق، والسلوك ولباس الخرقة الصوفية، وبالأخص الجلوتية، وبيَّن سلسلة الطريق، وفوائد التربية على يدي الشيخ.

فلذا قمنا بتحقيق هذا الكتاب الواسع في مجاله، العالي القدر في مقاله، الفريد في حاله.

فتم نسخ مخطوطه، وضبطه وتصحيحه، بعد الإشارة للمواضع الغير عربية، منها ما كان باللغة التركية، ومنها ما كان بالفارسية، موضحًا ذلك بالهامش، وقد ذكرت بعض هذه النصوص الواضحة في المخطوط بنص الكتاب.

ثم قمت بتخريج الأحاديث، وعزو الآيات، والتعليق من كلام المصنف في كتابيه: روح البيان، ومرآة الحقائق، وكذا من كلام العارفين والعلماء العاملين، لتتم الفائدة للطالبين، وكذلك توثيق بعض ما أشار إليه المصنف، والترجمة لبعض الأعلام الوارد ذكرهم، وذلك بالتعريف بهم ونقل بعض أحوالهم، وأقوالهم.

وما كان تحقيق هذا الكتاب إلا بدعوة من شيخي سيدي مصطفى بن عبد السلام – قدس الله سره العزيز – وقد كان هذا الكتاب من آخر ما قرأه عليه الإخوان في مجالسة بساحة مجلسه الشريف.

هذا ونسأل الله التوفيق والسداد لما فيه صلاح العباد، وهو الهادي وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

العبد الفقير لربه

أبو الحسن والحسين

أحمد فريد المزيدي الأكبري القادري المصطفوي

في ثالث أيام عيد الفطر سنة 1427 هـ

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ العلامة الإمام الكبير إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء: متصوف مفسر. تركي مستعرب.

ولد في آيدوس Aidos سنة 1063 هـ، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الجلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، وأوذي وامتحن. وعاد إلى بروسة فمات فيها سنة 1137 هـ.

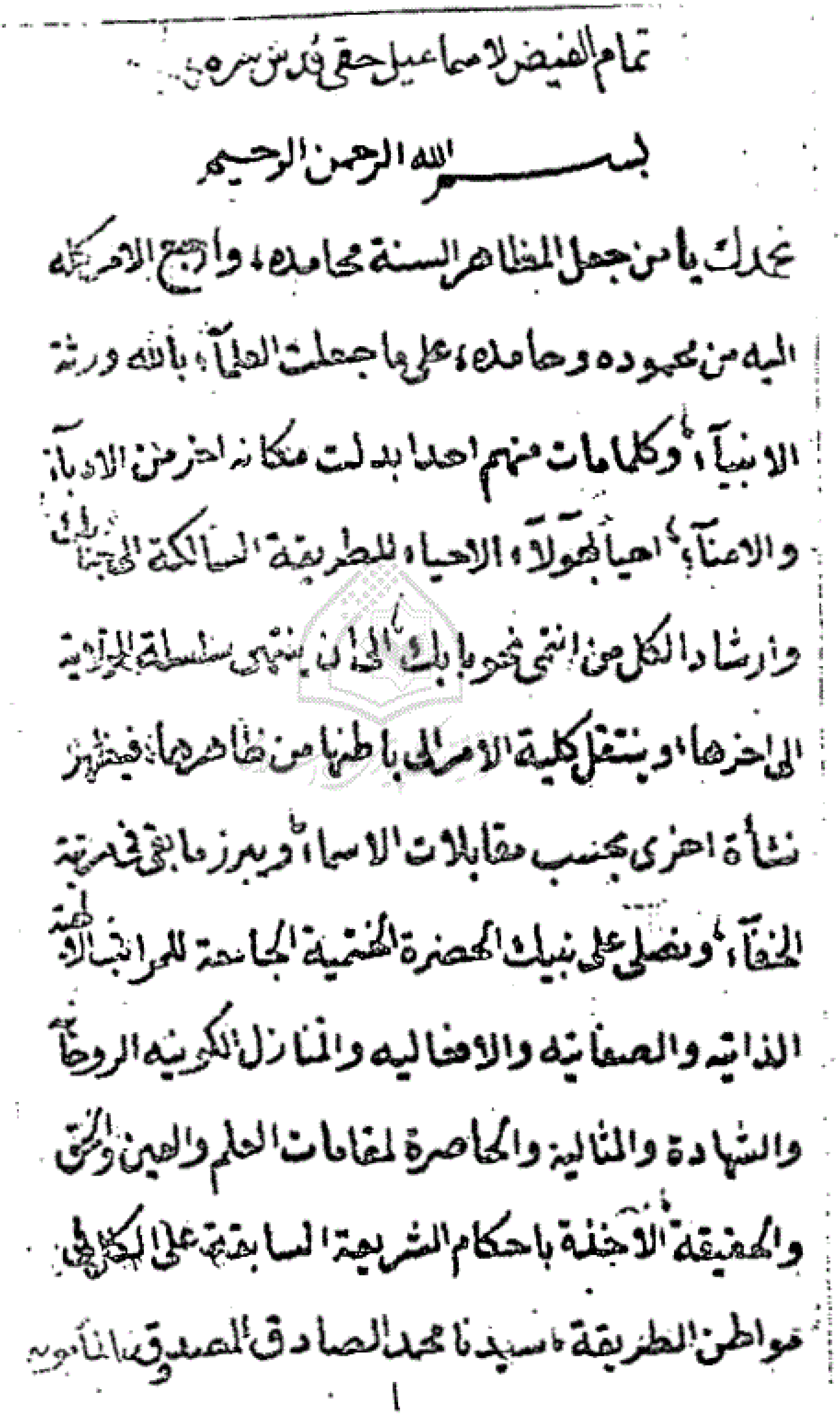
من مصنفاته:

- روح البيان في تفسير القرآن.
- تمام الفيض (كتابنا هذا) لأول مرة.
- الرسالة الخليلية في التصوف.
- تسهيل طريق الأصول لتيسير الوصول في التصوف.
- كتاب التوحيد.
- كتاب النجاة.
- شجرة اليقين في التصوف تركي.
- الفروقات.
- مرآة الحقائق (بتحقيقنا).
- روح الكلام في شرح صلوات المشيشي عبد السلام.
- فرح الروح في شرح المحمدية ليازيجي زاده ثلاثة مجلدات.
- شرح الآداب.
- نخبة اللطائف.
- نفائس المسائل.
- نقد الحال.
- نوادر الصوم.
- واردات حقي من سنة 1114 إلى آخر سنة 1115
- شرح بند نامة للعطار.
- شرح شعب الإيمان للقيصري.
- شرح الكبائر.

- شرح نخبة الفكر لابن حجر.
- الأنوار في شرح منظومة كتاب التوحيد.
- الكنـــز المخفي.
- أسرار الحج.
- التحجي في حروف التهجي.
- تحفة إسماعيلية.
- تحفة خاصكية.
- تحفة خليلية.
- تحفة رجبية.
- تحفة عطائية.
- تسهيل طريق الأصول.
- جامع مهمات الطلاب.
- مزيل الأحزان.
- حاشية على تفسير سورة النبأ للبيضاوي بجلدين.
- الحجة البالغة.
- الحق الصريح والكشف الصحيح.
- ديون شعره تركي.
- الرسالة البرقية.
- الرسالة الجامعة.
- كتاب الخطاب.
- روح المثنوي.
- سلوك الملوك.
- مجموعة الأبرار.
- وسيلة المرام.

انظر: هدية العارفين للبغدادي (118/1)، إيضاح المكنون (702/2).

نماذج من صور المخطوط


تمام الفيض لاسماعيل حقي قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من جعل المظاهر السنة محامده، وارجع الامر كله
اليه من محموده وحامده، على ما جعلت العلما، بالله ورثة
الانبيا، وكلما مات منهم احدا بدلت مكانه اخر من الاوليا
والاصفيا، احيا لهولاء الاحيا للطريقة السالكة الى جنابك
وارشادا لكل من انتمى نحو بابك الى ان ينتهي سلسلة الولاية
الى اخرها، وينتقل كلية الامر الى باطنها من ظاهرها، فيظهر
نشأة اخرى بحسب مقابلات الاسما، ويبرز ما بقي في مرتبة
الخفا، ونصلي على نبيك الحضرة الختمية الجامعة للمراتب الالهية
الذاتيه والصفاتيه والافعاليه والمنازل الكونيه الروحانية
والشهادة والمثالية والحاصرة لمقامات العلم والعين والحق
والحقيقة الاجلة باحكام الشريعة السابقة على الكل في
مواطن الطريقة، سيدنا محمد الصادق المصدق ...

1

صورة الصفحة الأولى من تمام الفيض

الامين الذي كان نبيا وآدم بين الماء والطين فانقسم الارواح
العالية المجردة عن الغواشي الخلقية واللابس الكونية من نبوته
وولايته المطلقتين وهيآتهم وهم قوم اراد الله بيد الاختصاص
مشاربهم ومآكلهم فسبحان من جمع الجمع في فرد اسمه الجامع
ومسماه ثم فرقهم في عين جمعهم بالنظر الى اول الامر وحاله
وعلى آله واصحابه الداعين الى الله على بصيرة تامة من
شأنهم ويقظة كاملة في ارشاد اخوانهم ومن راهم من
القبول والاعتقاد وبخطوا تحت رايتهم الى يوم التناد صلاة
وصلاة وسلاما لا ينقطع اثرها ويدوم في الاذهان
وفي الالسنة حديثها وخبرها وبعد فيقول الفقير الموضوع
كالتراب المقرون بقيد الذل والاغتراب الشيخ [illegible]
اسماعيل حقي الجلوتي بالجيم نزيل البلدة الفائقة على البلاد
المحمية على ما قد كثرة من خواص العباد . بيت
لو زرتها لرأيت الارض في داره والنشور في تربة والخير في جار
[illegible] البلدة بروسه حماها الله تعالى عن الآفات في جميع الاوقات

٢

وجعل ساكنيها كسكان البيت المعمور الى يوم ينفخ في الصور قد
ساقني الى هذه البلدة الطيبة الرب الغفور وسائق التقدير
واورد في هذا المورد بلا رأي مني ولا تدبير نفس رحماني
وجدته من قبل اليمن اعني حضرة شيخي وسندي الآتي
ذكره في هذه الاوراق وهو العلة الغائية لسرد هذه
الالفاظ والكلمات على الاطلاق وقد كان بيننا سابقة
صحبة مدة عشرين سنة فوجدته حسنة من حسنات
سيد المرسلين وآية حسنة بل لسانا من السنة الحق في
العلوم الكشفية والنظرية وآية من آياته الكبرى في هذه
الدورة القمرية ورأيت ان الله تعالى ما هدى الى صحبته
الا لعناية سابقة ليس لها علة وافاض علي بواسطته
ما ليس له قلة وكنت اصم في زمنه النورانية ان اقطر من
يراعته نقاطا سودا تكون كالخيلان لوجوه المعاني حرصا
الالهام الرباني لكن الله تعالى يحول بيني وبين ما اريد
لحكمة يعلمها ذلك الحكيم الوحيد فلم اجد وسيلة لاقتناص

٣

صور الورقة الثانية من تمام الفيض

فيه فانت ظالم والمدعو عليه مظلوم وان عدلت وساويت
فهو رخصة كما قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها
وان عفوت فهو اولى لا ترى الى قوله تعالى فمن عفى
واصلح فاجره على الله ولا يجوز الشكاية من الحق الى الحق
ولا من الخلق الى الخلق واللازم مشاهدة المؤثر الحقيقي فانه
هو الفاعل لا غير قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض الجاة
التركيه حسنى امرنه هب جملا اشيا دخل فيه الامير والوزير
والواعظ والشيخ وغيرهم قال حضرة الشيخ ان الانسان
افكارا مختلفة فان فكرا غلب عليه فهو على صورته يموت
ويغلب عليه في حال احتضاره والانسان الكامل يختم له
بالانس بالله اذ ليس له فكر غير الله وهو الذي يراد
بحسن العاقبة وحسن الخاتمة وهذا اخر كلمات الشيخ
روح الله روحه في الزيارة القبرسية وقد اختصرت
في كل زيارة على ايراد بعض كلماته كلها اذ لا تضيعه
الاوراق وقبل هذه الزيارة اخر لم اكتب كلماتها اه

واذا اردت ان اكتب ما هو انموذج الكلمات درر انت ساق
الشيخ والقطرة تدل على الغدير وقد كتب قبلي حضرة
الهدائي الكلمات الواقعة بينه وبين شيخه افتاده البروسوي
لكنها تشتمل على حشو وتكرار كثير والحمد لله على انعامه
على في الباب فان كتابي هذا جاء مشتملا على فوائد كثيرة
من انواع فان افتخر الاماثل بشيوخهم وكما افتخروا انا
افتخر بفضل الله تعالى وقد ارانى ساداتي الاولياء ولو كانت
الهدائي وافتاده في الشيوخ لكانا اول التابعين له رضي
الله عنهم وعمن سلك مسلكهم وتابعهم في طريقتهم
وفهم رائحة من بساتين معرفتهم وحقيقتهم وجعلنا واياكم
من الواصلين الى العين دون الساعين الى الاثر وارانا في
واياكم ايات الافاقيه والانفسيه بالبصيرة والبصر انه
الهادي ومنه التوفيق الخاص والالحاق باهل الاختصاص

وقد وقع الفراغ من كتابة هذا الكتاب في غرة
جماد الاخر من سنة ١٣٣٢
على يد كاتب الحقير
المكنى بالرحيم

صور الورقة الأخيرة من تمام الفيض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

نحمدُك يا مَن جعل المظاهرَ السنيّة محامدَه، وأرجع الأمرَ كله إليه من محموده وحامده، على ما جَعلتَ العلماء بالله ورثةَ الأنبياء، وكلّما مات منهم أحدٌ بدّلت مكانَه آخر من الأدباء والأمناء، أحيا بهؤلاء الأحياء الطريقةَ السالكة إلى جنّابك، وإرشاد الكل من انتمى نحو بابك إلى أن تنتهي سلسلةُ الولاية إلى آخرها، وينتقل كليةً الأمر من ظاهرها إلى باطنها، فيظهر نشأة أخرى بحسب مقابلات الأسماء، ويبرز ما بقي في مرتبة الخفاء.

ونصلي على نبيِّك الحضرةِ الختامية الجامعةِ للمراتبِ الإلهيّة الذاتية والصفاتية والأفعالية، والمنازلِ الكونيةِ الرُّوحانيةِ والشهادة والمثالية، والحاصرةِ لمقاماتِ العلم والعين والحقّ، والحقيقةِ الآخذةِ بأحكام الشريعةِ السابقة على الكلّ في مواطن الطريقة، سيدنا محمد الصادقِ المصدقِ، والمأمون الأمين الذي كان نبيًّا وآدم بين الماء والطين، فاقتسم الأرواحَ العاليةَ المجردة عن الغواشي الخلقية والملابسِ الكونية من نبوتِهِ وولايتِهِ المطلقتين وهيباً لهم، وهم قومٌ أراد اللهُ بيد الاختصاص مشاربَهم ومآكلَهم، فسبحان مَن جمع الجمع في فردِ اسمه الجامع ومسمّاه، ثم فرَّقهم في عينِ جمعِهم بالنظر إلى أوّل الأمرِ وحِماه، وعلى آله وأصحابه الدَّاعين إلى الله على بصيرةٍ تامةٍ من شأنِهم يقظةً كاملةً في إرشاد إخوانِهم ومَن رآهم بعين القبولِ والاعتقادِ، ودخلوا تحت رايتِهم إلى يوم الثناء حمدًا وصلاةً وسلامًا لا ينقطع أثرُها، ويدوم في الأذهان والألسنة حديثُها وخبرُها.

وبعد؛

فيقولُ الفقيرُ الموضوعُ كالترابِ، المقرونُ بقيدِ الذُّلِّ والاغترابِ، الشيخُ عبد الحق إسماعيل حقي الجلوتي بالجيم، نزيلُ البلدةِ الفائقةِ على البلاد، والمحتويةِ على مَراقدَ كثيرةٍ من خواص العباد:

لو زرتَها لرأيتَ الأرضَ في داره   والنشورَ في برِّهِ والخير في جاره

بلدة بروسّه، حماها الله تعالى عن الآفاتِ في جميعِ الأوقاتِ، وجَمَّل ساكنيها كسكان البيت المعمورِ إلى يومٍ ينفخُ في الصورِ.

قد ساقني إلى هذه البلدةِ الطيبةِ الربُّ الغفورُ وسابقُ التقدير، وأوردني هذا الموردَ بلا رأيٍ مني ولا تدبير، [بل هو] نَفَسٌ رَحْمَانِيٌّ وجدتُهُ من قِبَلِ اليُمنِ- أعني: حضرةَ شيخي وسندي الآتي ذكرُه في هذه الأوراقِ- وهو العلةُ الغائبةُ لسردِ هذه الألفاظِ

والكلماتِ على الإطلاقِ، وقد كان بيننا سابقةُ صحبةٍ مدةَ عشرين سنة فوجدتُه حسنةً من حسناتِ سيدِ المرسلين، وآيةُ حسنة، بل لسانًا من ألسنة الحقِّ في العلوم الكشفيةِ والنظريةِ، وآيةً من آياته الكبرى في هذه الدَّوريةِ القمريةِ.

ورأيتُ أنَّ الله تعالى ما هداني لصَحْبته إلا لعنايةٍ سابقة، ليس لها علَّة وأفاضَ عليَّ بوساطته ما ليس له قِلَّة، وكنتُ أصمم في زمنه النوراني أن أُقطر من يَراعه نقاطًا سودًا تكون كالخيلاني لوجوهِ المَعاني وديباجةِ الإلهام الربّاني، لكن الله تعالى يحولُ بيني وبين ما أريد لحكمة يعلمُها ذلك الحكيمُ المؤيد، فلم يعد وسيلةً لاقتناصِ المطلوبِ سوى قطع مخلبِ الإرادةِ والطلبِ، فطرت إلى فِطرتي الأولى منقطعًا عن السبب، وقلت في نفسي: ليس لك من الأمر شيء ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:30]، وإذا أراد الله شيئًا يهيئُ أسبابَه ويُوصِلُ العبدَ إلى مُناه.

ثم لَمَّا آل لديَّ الأمرُ إلى خطبٍ جليلٍ وشأنٍ فظيعٍ، بحيث يُورثُ ذكرُه الألَمَ الوجيعَ أعني: انتقل حضرة الشيخ - قدس سره - من موطن هذه النشأة، ورجع الأمر بعد الظهورِ إلى البطونِ، وكان الذي قَضى أنَّه سيكون، ضمَّني بيتُ الحزنِ والفُراقِ إلى نفسِه كأني يعقوب، وأكلَت ديدانُ البلاءِ والمصيبة وجودي كأني أيوب، أو كأني إسماعيل أُحْضِرَ للذَّبح بسكينِ القضاء، أو الخليلُ أُلقِي في النار فلم يجد غيرَ التسليمِ والرضا، لكني وإن كنت منفجعًا من الدهر، فالدهر هو الله، إذ لا أثر لشيء سوى الله، فالمُشتكَى إلى الله الذي خلقَ الموتَ والحياةَ، وجعل الظلماتِ والنورَ.

وبينما أنا في هذا البيتِ وكان مِن الأمرِ كيت كيت إذ دخلَ عليَّ بعضُ الرجالِ.

فقال بطريق الإلحاح والارتحال بتصنيفِ شيءٍ يُستَضاءُ به في الطريق، ويتجدّدُ به العهدُ لأهلِ التوفيقِ والتحقيقِ، فرأيتُ الله تعالى أنما جعل ذلك السؤال في فِيه لما كنت أخفيه، وإن ألّفته بعد هذا كالتفقّر مع وجود الغنى، وكنـــزُ الله لا ينفد ولا يفنى.

فشرعتُ في سَودِه ليمُنَّ بمزيدِ العيانِ، ونظمتُه ببيانِ بديع البيان، بقدر ما فتح الله عليَّ من فتوح الوقت الصافي عن المَقت، كالعَسْجَد البحت سواء، ووقع في خير الأخذ والقبول، ومجَّه القاصرون مجَّ المرورِ الشهدَ، وعافه مُؤفُ المشاعر إعافة مَن لم يفرّق بين نظمِ القرآن وشعرِ الشاعرِ، ونِعم ما قِيل:

عليَّ نحتُ المعاني مِن معادِنِها وما عليَّ إذا لم يفهم البقر[1]

وذلك لأنَّ الغيث ينـــزلُ على الترابِ القابلِ فيُبدي الأثرَ، وعلى الشجرِ والسبخة فلا يزيدهما إلا صلابةً، فكلٌّ ميسرٌ لِما خُلِقَ له، وإنْ لم يتــنبَّه له الأبله.

وجعلتـــهُ على فصولٍ شتى زيَّلتُها بعضَ الكلمات التي تُلُقِفَتْ مِن شَيخي الأجلِّ في المجلس الذي ليس معنا [فيه] إلا الله ﷻ.

وألبستُها الكسوةَ العربيةَ اتّباعًا للقرآن، وتركتُ في خَزانة الجِنان ما إظهارُه بين الناسِ يَقدحُ النِّيران.

وسمَّيت هذا الكتاب بـــ «**تمام الفيض في باب الرجال**» على ما أشير إليَّ بين النومِ واليقظةِ، والله بتسميته بهذا المقال - وليس فيه المزجُ من مقولٍ ومنقولٍ- إلا أن يستدعيه المقامُ ويقتضيه سوقُ الكلام، ومِن الله إلهامُ الحقِّ والصوابِ، وبيدِهِ كاساتُ التجلّي مِن وجه الاسمِ الفيَّاض الفتَّاحِ الوهابِ.

(1) البيت في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري التلمساني ص (5434)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» لليوسي ص (1909).

الفصلُ الأولُ /
في بيانِ طُرقِ الحقِّ وسرِّ تعددِها وتكثرِها

اعلمْ أنَّ الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق؛ إذ لكلِّ أحدٍ وجهٌ خاصٌّ في توجّهه إلى الله تعالى، ولأمر ما أمرَ هذه الأمة المرحومة بسؤالِ الوسيلةِ لنبيِّهم السابق الذي فاضت منه كلُّ الأسباب والوسائل، فهم معه كالرعية مع السلطان، فالأمر والنهي والقبض والبسط بيد السلطان، والإجلاسُ على سريرِ السلطنةِ بيدِ الرعيةِ، فافهم العبرةَ الإلهيّة، وقلما يتفق التوجهان من شخصين، ولذا لم يجد حضرةُ الشيخِ الأكبرِ والمسكُ الأزفرِ – قُدِّس سرُه – أي: في زمانه – مَن يوافقُه في سلوكِه، على ما يُحكى عنه، وكذا ولدُه الوارثُ حضرةُ صدرِ الدين القونوي – قُدِّس سرُه الزكي– فتعددت الطرقُ الواصلةُ إلى الله تعالى رحمةً منه على السُّلاك، كما تعددتْ لغاتُ القرآن رحمةً على القبائلِ العربيةِ.

أعني أنَّ سببَ نزولِ حضرةِ القرآن مِن المقام الجمعي الأحدي الغيبي إلى المقام الفَرقي الواحدي النهاري على سبعةِ أحْرُف، وهي لغةُ قريش وهُذَيل وهَوازِن واليَمن وبني تميمٍ وطيئٍ وثَقيف؛ تسهيلاً للأمرِ وتيسيرًا؛ إذ لو لم يكن كذلك لشقَّ على العرب مع اختلافِهم في لحونِهم أن يأخذوا بلغةٍ واحدةٍ.

والنبيُّ ﷺ بُعِثَ ميسرًا من كلِّ وجه لا معسرًا.

وقِسْ على هذا اختلافَ المجتهدين، فإنَّه أدَّى إلى تعددِ المذاهبِ الحقَّةِ في بابِ الأعمالِ وفروعِ الأحكامِ دون الاعتقاداتِ وأصولِها، فكان تفاوتُهم في ذلك كتفاوتِ الأنبياء – عليهم السلام – في شرائعِهم كما قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [1] [المائدة: 48] وذلك التفاوت ليس من جانب الأنبياء – عليهم السلام –

---

(1) قال المصنف: اعلم أنه كما أن في الآفاق شرائع ومناهج بالنسبة إلى أهل الآفاق بها يتديَّنون، وعليها يَجرون، فكذا في الأنفس شرائع ومناهج بالإضافة إلى أهل الأنفس؛ لأن المشارب مختلفة، ومن عين الرحمة تنوعت التجليّات، واختلفت المشارب.
كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الآية:48]: أي على مشرب واحد لا يُعطي إلا فيضًا أُحاديًا؛ لكن الله تعالى لم يشأ ذلك؛ بل كان من الواجب في الحكمة اختلاف المشارب، وتباين التجليّات، وتفاوت الفيوض، وتكثير الواردات؛ لأنه تعالى واسع لا ضيق في تجليّاته، ولا حصر في فيوضه؛ بل يجري تجليّاته المتنوعة أبد الآباد في كل موطن ومقام دنيويًا،

بحسب أنفسهم، بل من جانب أُمَمِهم المختلفةِ في استعداداتِهم، وأُشير إلى هذا التفاوت بالطرقِ الصورية المتعددة.

فإنَّ مقاصدَ الحُجاجِ من جميع أقطارِ الأرض إنمَا هي الكعبةُ لكنَّ جهاتهم مختلفة، فمِن قاصدٍ غَربي، ومِن قاصدٍ شَرقيٍّ، وكذا من سائرِ إليها مِن البر ومن البحرِ، ولو اتَّحد

وأخرويًا، وبرزخيًا، أو حشريًا، أو جنانيًا، أو كثيبيًا.

وإليه يشير قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: أي كل خلق من المخلوق يتنفَّس بنفس مخصوص من الأنفاس الرحمانية لا يشاركه فيه غيره، وذلك من باب الغيرة الإلهية حتى لا يطَّلع أحد على أحد في طريقه؛ لأنه ليس هناك إلا السير الأحدي حقيقيًا كان أو نوعيًا، فافهم هذا السرَّ جدًا.

فالشرعة هي: شرعة الأعمال التي يردها السالك؛ لتهديه إلى عين الأجر الأخروي، المنهاج هو: منهاج السير الأحدي الذي يرده السائر؛ ليوصِّله إلى عين النور؛ وهو نور السماوات والأرض، وضياء الأجسام والأرواح.

فاختلاف المناهج الشرعية؛ يستلزم اختلاف المناهج السيرية؛ لأن الظاهر عنوان الباطن، والمجاز قنطرة الحقيقة؛ لكن لأكامل الناس أحوال غريبة في شرائعهم ومناهجهم يخفونها عن الناس؛ لأن اختلاف المذاهب ليس من حيث الحقائق؛ بل من حيث الصور، فلهم سير أحدي من حيث الصور والحقائق جميعًا لا يوقعهم في الاختلاف؛ اختلاف الناس.

وإن كانوا يتأدَّبون بالأدب التي تُدب إليها ظواهر الشرائع، كمَن كان متقلدًا بمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى؛ فإنه يجرى على مذهبه في الصورة من غير إخلال بشيء من اجتهاده وفروعه؛ لكنه ليس بمتقيِّد بواحد من المذاهب في الحقيقة؛ بل يجري سنن واحد في السير على المنهاج النبوي، فله حكم الأدلة، وحكم الصدر الأول.

فإن مرتبة الصحابة رضي الله عنهم باقية إلى يوم القيامة:

أي لمَن كان من الخواص لا لمَن كان من العوام، فإن العام إخوان النبي ﷺ، كما أن الخواص أصحابه، ولما كانت مراتب الكشوف متباينة؛ وقع بعض الناس في بعض من أهل البداية والتوسُّط فيما يخالف مرتبة كشوفهم.

وأمَّا أهل النهاية فلمَّا كانت مشاربهم من نهايات المشارب، وكشوف من غايات الكشوف؛ سلَّموا الأمور إلى أربابها، وسكتوا عن الطعن، والعراض لما علموا من أن الوصول إلى الحقيقة لا يعطي ذلك، وأن الواصل الحقيق بكل أفراده؛ كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها؛ فلذا كان كلماتهم مناسبة؛ بل ربما كانت متوافقة لِما إنها من عين الجمع الأحدي، وليس وراءه غاية؛ ولذا سلَّم بعضهم عن لسان بعض؛ لأن الإنسان لا يطعن في نفسه، فاعرف هذه الإشارة المفصحة عن المراتب وتباينها. انظر: مرآة الحقائق (ص 179).

طريقُها لشقَّ على الناسِ، إذْ لا يجد الكلُّ ما يكفي مؤنةَ البر بل تعذَّر لمن جاء من جزائرِ البحور مثلاً.

فإنْ قلت: فإذا كان الوصول حاصلاً للكلِّ، فهل لهم تفاوتٌ في طبقات سيرهم أم لا؟ قلنا: نعم، ألا ترى أن سيرَ البحرِ أحدَيٌّ بخلافِ سيرِ البرِ، وصاحبُ الاسمِ الباسطِ أوسع علمًا، وبالعلم تتفاوتُ درجات العلماء بالله دون غيره، فمَن سارَ في جُنحِ الليالي بشمعةٍ ليس كمن سار بفَتيلة؛ إذ الأول أوسع نورًا وإحاطةً، كما أنْ مَن سارَ وشمسُ الضحى مرتفعةٌ ليس كمن سار على نورِ القمر؛ لأنْ نورَ القمر مستفادٌ من الشمس، وظلمةُ تعيُّنه - أي: القمر- أنزلته عن مرتبةِ الأصلِ، فامتيازُ الأصلِ منه بحسبِ نورِه الذاتي كامتياز الحقِّ من الخلق بحسب الوجوبِ الذاتي وكم بينهما!؟.

فاعرفْ حدَّك وسرَّك يا مسكين، فإنْ المراتبَ متفاوتٌة في طريقِ التلوينِ والتمكينِ، ولا تدّعِ ما ليس لك حتى لا تَهلك، ثم إنْ عامة المؤمنين واصلون إلى الله تعالى، لا من طريق اسم كلي، بل من طريق اسم جزئي وهو المؤمن، إذ ليس لهم نَفَسٌ كُلِّيٌّ مِن مظهرٍ كليٍّ ولا توجه جمعيٌّ من قلبٍ جمعيٍّ، وإنما لهم عمومُ التوحيدِ ورخصةُ الفتوى والترددُ بين الدنيا والعقبى، وأمرُهم إلى الله فيما يَشتمِلون به.

فليس الكلامُ فيهم؛ إذ ليسوا على بصيرةٍ من أمرهم ولو كانوا على البصيرة لوجدوا الحقَّ في عَين ما كانوا عليه من الأمر الذي يدَّعونه، و لغَيَّروا ما يحبونه من الدنيا كالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها.

ويبقى الكلامُ في أهلِ خُصوص التوحيد، وهم صنفان: صنف أهل التَّلقِينِ العامِ، وصِنفُ أهل التَّلقينِ الخاص.

أما الأول: فمثلُ السلاطين والوزراء والوكلاء وعامة المؤمنين الذين التزموا الطريق من وجهٍ عام، فنِسبَتُهم إلى الذين التزموها من وجهٍ خاص كنِسبة ذوي الأرحام إلى أصحاب الفرائض، كما أنْ نسبةَ عامة المؤمنين الذين التزموا الطريق ولو من وجه عام، ولكن أحبُّوا الملتزمين واعتقدوهم وحضروا مجالسهم وشاهدوهم، كنسبة الأيتام والمساكين الأجانب إلى ذوي الأرحام، هم محجوبون بأصحاب الفرائض والعَصَبات، كذلك الأيتام والمساكين محجوبون بذوي الأرحام، وقد كان لهم شيء عند قسمة الميراث في أوائل الإسلام ثم نُسخ ذلك، والنسخ يطرأ على ظاهر القرآن ومعانيه لا على باطنه وحقائقه، فللمحب المعتقد حصةٌ مِن أنوار الملتزمين بحسب قوته وضعفه في اعتقاده.

لأن الاعتقاد يقبل الشدة فيكون كشجرةٍ أصلُها ثابت محكمٌ لا يزول بالرياح الشديدة المختلفة، أمَّا الضعف فيُخاف منه كما يُخاف على أصله القريب من وجه الأرض عند هبوب العواصف، وهي فيما نحن بصدده الابتلاءات المتلوّنة؛ فافهم.

ولو تأملت في هذا الزمان لوجدتَهم على شَفا جُرفٍ هارٍ ليس لأُسسِهِمْ رصافةٌ ولا لبنيانِهم رصانةً، فهم أعمُّ العوام وأذمُّ الأنعام ولولا قول الشاطبي – رحمه الله تعالى: يعدّ جميع الناس مولى. لأنهم على ما قضاه الله تعالى يجرون أفعالاً لأطلت الكلام في حقهم وبلغت الغاية في دقّهم.

وإنما قلنا بنسخ ظاهر القرآن دون باطنه؛ لأنَّ باطنه باطن الإنسان الكامل، وهو الآن عابدٌ على ما كان عليه. إذ لا يتغير الحقُّ إلا بالنسبة إلى الخواطرِ والتجلّيات المتنوعة الواردة عليه.

وتحقيقه أنَّ عالم الكون والفساد الذي هو ظاهر الملكوت المعبر عنه بالعرش العظيم على التبدّل دائمًا، بخلافِ عرش العظيم الكريم الذي هو الإنسان، فإنَّ ظاهرَه على الثبات من أوَّلِ عُمره إلى آخره، وباطنُه لا يخلو عن التقلباتِ، وهذا معنى ما قالوا: «باطن الحق» – وهو الوجود الأحديُّ النَّفَسِيُّ الرَّحمانيُّ الجامعُ، عين ظاهر الإنسان المتبدّل، نِسَبُ تَعَيُّناته حسبُ تبدّل أسبابها آنــًا وشأنــًا.

وأمَّا الصنف الثاني: مثلُ خواصِ العبادِ السالكين على طريقةِ السلوك والتسليك؛ غالبًا لأنَّ منهم مَن لم يلتزم طريقةً من الطُرقِ المسلوكة المعروفة، وهو مثلُ الأويسيّ وطريقتُه أعزُّ من المسكِ الأزفر والكبريتِ الأحمرِ، ولا علينا أن نشير إلى نبذ ما يتعلق بالطريقة الأوسية والخلوتية؛ إذ أنَّ بيانَ غيرِها مِن الطرق الكثيرةِ متعسرٌ جدًّا لكونه خارجًا عن الضبطِ.

وإنْ كان الكلُّ حقًّا موصلاً إلى الله تعالى إلا ما اشتهر بالفساد في الجملة، كالحيدرية والجوالقية والقلندرية وغيرها؛ إذ ليس لها أصل يعتني بشأنها، أو فروع يعتبر بمكانها، وأهلها خارجون عن حدِّ الطريقة بل عن حدِّ الشريعة، أمَّا الأويسية فنسبتُها إلى «أوسٍ» ﷺ وهو من كبار التابعين على الأصح، بل من أكابرها، بل من أكبر الأكابر وأفضل أهل زمانه، وتكفي لنباهةِ شأنه شهادةُ الرسول ﷺ وهو لم يأخذ الطريقة من أحدٍ، لا من رُوحانيةٍ ولا من جسمانية – أي: بدخوله في صحبته – وإنما أخذ ما أخذ من الفيضِ الإلهيِّ والذوقيِّ الكلي من الله تعالى بغير واسطة، وكذلك من كان على سيرته، فانتسابه إليه في الحقيقة إلى الله.

وسَلَكَهُ مسلكُ النبي ﷺ كما قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1].

ثم أمرني بمكارم الأخلاق؛ فقال: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199] كما في «المقاصد الحسنة»، وكما قال: «كنت يتيمًا في الصغر وغريبًا في الكبر»[2] انتهى.

ولا صاحب لليتيم والغريب في الحقيقةِ سوى الله تعالى، فهو مربيهما وكافيهما بالذات، ألا ترى أن اليتيم إذا لم يكن له مَن يقوم عليه ويحتضنه يُوضع عند باب المسجد؟ ونحوه، فيجعله الله في يدي مَن يريد، والغريبُ يأوي إلى المسجد غالبًا، وهو بيت الله.

فمعنى اليتيمُ هو أنَّ الله مربيه، ومعنى الغريبُ هو أنَّه انفصل عن منـــزل معارفه، وبَعُد عن حيِّز معرفةِ الناس أجمعين، واتصلَ بمكانٍ لا يعرفُه فيه إلا الله كما ورد: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[3] وهو كالسائر في البحر المحيط منفردًا، وفي حقٍّ مثله ورد: «فطوبى للغرباء»[4] واليتيمُ والمهاجرةُ - أي: الغربةِ الصوريةِ - مِن لوازمِ اليتم كذلك والغربة المعنوية غالبًا، ألا ترى حال يوسف الصديق عليه السلام من فِراقه أبيه في صغره؟ ومقاساة شدائد الجبِّ والسجن، وإلى حال نبينا ﷺ في ذينك المعنيين، وهو الظاهر، وإلى اغترابِ سائر الأنبياء - عليهم السلام.

وذلك أنَّ ظهورَ كمالِ الإنسان تدريجيٌّ لا دفعيٌّ. فابتلاءُ الذهبِ بالنار لا يزيده إلا حسنًا وصفاءً، فإذا بلغ إلى معنى اليتم والغربةِ مِن غير واسطةٍ بمقاساةِ الشدائد ومعاناة النوائب في دهرٍ طويلٍ، كانت أحبَّ إليه من القرآن سورةُ الضحى والانشراحِ والنَّصرِ لكونِها واردةً على حسبِ حاله في سلوكه.

ثم بعد الأويسي مَن يأخذُ عن «روحانية واحدة من أهل الولاية» كالشيخ فريد الدين العطار - قدس سره - فإنه أخذ من الحلاجِ - قُدس سرُه - مع ما بينهما من طول المدة مقدار مائة وخمسين سنة، ثم بعده من يأخذ بواسطة «الصحبة الصورية» وهو أسهل وأغلب، لغلبة التركيب والكثافة على طباع أكثر السُّلاك، وقلّما يوجد مَن له بساطةُ

(1) ذكره السخاوي في المقاصد (ص 16، 264)، والعجلوني في كشف الخفاء (70/1).

(2) لم أقف عليه.

(3) ذكره الجرجاني في «التعريفات» (676/1).

(4) رواه مسلم (208).

جوهر ولطافةُ طبع، ولذا قلَّ الأويسيون والروحانيون، فعليك بالاجتهاد؛ فإنه مبادئ الوصول إلى المراد فهذه الطريقة الأويسية طريقةٌ حقةٌ ولها أهل ولو على الندرة - صاحبت واحدًا من أهلها والحمد لله تعالى - فالأُويسي كتعيُّن آدم عليه السلام ليس من الأبوين، والذي بعده كتعيُّن عيسى عليه السلام فإنَّه من الأمِّ فقط، والذي بعده كتعيُّن نبينا ﷺ فإنَّه من الأبوين، فتعيُّنه في غاية الاعتدال لكونه واقعًا على غالبِ العادة الإلهيّة، وكذا أكثر المحمديين أي: السالكين وفقَ سرِّ التعيُّن المحمدي؛ فافهمْ جدًّا.

وأمَّا الخلوتية فنسبتُها إلى الخُلوةِ؛ لأنَّ مِن سنَّتِهم التخلِّي عَن الناسِ في صومعةٍ مفردةٍ أربعين يومًا أخذًا من ميقاتِ موسى عليه السلام على ما ورد في النصِّ الكريم، وربما اشتدَّتِ الحاجةُ إلى أربعيناتٍ فيتخلون إلى أنْ يظهر في مرآتِهم وجهُ المقصود.

وذلك مع رعايةِ سائرِ الشرائط جَمة، وقد تخلَّى النبي ﷺ قبل بعثته في جبل حراء، وكان أكثر غذائه الزيت والزيتون، ومنه أخذ أصحاب الرياضة الاكتفاء ببعض الأغذية المرققة للحجب، المتراكمة المانعة للسالك من مشاهدة المقصود في مرآة القلب، فمنه الزيتُ والزيتون واللاكثة ونحوها - بخلاف السمن واللحم ونحوهما - ووجهُ الخُلوةِ هو وجهُ الاعتكافِ، وهو تفريغُ القلبِ عن الشواغلِ مطلقًا، والتوجُّه إلى الحضرةِ العَليَّة المفيضة لكل خيرٍ وجودٍ.

فما دام لم يتجردْ السالكُ عن الملابسِ الصوريةِ والمعنوية، ولم ينقطع عن الأسباب الضعيفة والقوية، ولم يتهيأ محلُه تهيئةَ الحارثِ لمحل البذر - لم يجد سبيلاً إلى الفيض الإلهي.

وانقطاع الصوري مدار للانقطاع المعنوي؛ لأن الحواس والمشاعر جواسيس وسرادق، وكثرةُ الألفةِ بالمحسوسات مانعةٌ عن التوجّه إلى جهة الوحدة.

والحاصلُ أنَّ أوَّل الخلوة: تركُ اختلاطِ الناسِ صورةً ثم معنًا، وآخرُها: محادثةُ السرِّ مع الحقِّ حيثُ لا أحد ولا مَلَك، وإنما يحصل هذا بالأنس بالذكر والاشتغال بالفكر، والانخلاع عن كل صورة ولباس، والتجرّد عن كلِّ اسمٍ ورسمٍ ووصفٍ وحُكمٍ، فعليك بتأدية الأماناتِ إلى أهلِها في عروجِك كما أخذتها في نزولِك.

لأنَّ الإنسانَ إلى أن ينــزل إلى رتبةِ الصورةِ الإلهيةِ يمرُّ على المواطنِ والمقاماتِ كلها فينصبغ بأحكام كل مَوطن ومَقام، ويتلبس بلابس التعيُّنات إلى آخرها، فيلزم عليه حين عروجِه أن يغسل هذه الأصباغ بماء الفناء، ويتعرّى عن هذه الغواشي العارية.

فإنْ قلت: ما معنى التَّلَبس ثم التَّعَرّي؟.

قلت: في ذلك فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ هبوط الأرواح مِن أعلى عليين القربِ إلى أسفلِ سافلين البعد إنَّما هو؛ لتحصيلِ الهدى الذي يشير إليه قولُه تعالى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] فإنَّ التجليات الشهودية نتائجُ التجلياتِ الوجوديةِ، فوجودُ الخلائق الإمكانيةِ وتنـــزّلُ حقيقةُ الإنسانِ إلى أحكامِها محضُ لطفٍ ورحمةٍ من الله تعالى، فالإنسانُ لا يرى وجهَه إلا في المرآة فلو بقي في التعيُّنِ العليِّ ما شمَّ وردًا بين العين ورياضِ الشهود - وهي التعيينات الأسمائيّة المتجليةُ بصورٍ شتى - ثم التعرّي من هذه التعيينات الشّهادية وغيرِها إنما هو بالتلبسِ بأفضلِ مِمَّا كان عليه.

وهو الوجود الحيواني الذي يترتّب على الانسلاخِ من الوجودِ المجازي - فإذا وصل إلى الفناء التامِّ لا يرى في مرآة الحقِّ إلا النفسَ العاريةَ عن لباسِ المجازِ، المتحققةُ بالوجودِ الحقّاني وحقائقِه؛ فافهم تَعزّ.

فالأول: نتيجةُ الخُلوة، والثاني: نتيجةُ الجُلوة، وسيأتي مزيدٌ إنْ شاء الله تعالى.

فإنْ قلتَ: الخُلوة بالوجه الذي يتعارفه صوفيةُ زمانِها محدثةٌ لم تكن في القَرنِ الأول

قلت: نعم، لكن وجودَ أصلِها المشروعِ كافٍ لنا الآن، ولكل عصرٍ حكمٌ مغايرٌ لِمَا قبله، والــناس عـــن ســـرِّه غافلون، فتراهم يريدون الانتساب إلى النبيِّ ﷺ، وإلى الأصحاب والمجتهدين برفع الوسائط عن البين - وهي مشايخ السنة وسننهم - التي أخذوها إلهامًا من الله تعالى، وتحقيقًا بسرِّ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] وقد أبقى النبي ﷺ لهم بقايا تعظيمًا لكلِّ أمةٍ، وإشارةً إلى اتحاد حقيقتهم بحقيقته.

ألا ترى أنَّ الولاية المطلقة المحمدية عينٌ واحدةٌ، و لكلِّ واحدٍ من عُرفاء أمّته شِربٌ خاصٌ منها: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: 160] (1).

---

(1) فائدة: قال الشيخ ابن ناصر الكيلاني في شرح الفصين: (وإن اختلفت الملل والنِّحل لاختلاف الأمم) قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:118] فما زلنا من الخلاف؛ لأنهم: أي أهل التحقيق قد خالفوا المختلفين، ولذلك خلقهم، فما تعدّى كل خلقٍ ما خلق له، فالكل طائع في عين الخلاف.

كما ورد الحديث الصحيح، والنص الصريح: «كلٌّ ميسَّر لما خلق له» فافهم.

فقال ﷺ: وإن اختلفت وبانت كثيرة ولكن لا تناقض الكثرة الموهومة الأحدية الحقيقية، كما أن كثرة الأعيان الثابتة، والمظاهر الخارجية لم تمنع وحدة الوجود والحال كالحال.

ويكفيك قوله ﷺ: «ما رآه المؤمنون حسنًا؛ فهو عند الله حسن»(1) أتظن أنَّ المراد بالمؤمن في هذا الحديث هو العامي المقلد؟ مِن سوقيٍّ وجنديٍّ ونحوهما؟ لا، بل الفردُ المطلقُ المحققُ الجامعُ للعلمِ والعينِ.

فهو ورأيُه حسنٌ عند الله تعالى، لفنائه عن نفسه وتدبيرها، وبقائه بهويةِ الحقِّ الساريةِ وتقديرِها، فإذا نطقَ نطقَ بالله، وإذا سكت سكت بالله وإذا وضع وضع بالله، وإذا رفع رفع بالله، والعجبُ أنَّ السلطان الذي هو ظلُّ الله - أي: ظلُّ الحقيقةِ الجامعةِ

=

وأمَّا الاعوجاجات الوهميَّة لا تناقض الاستقامة؛ لأن الكل في أحدية صراط الله أخذٌ بناصيةِ كلِ دابةٍ وهو على صراطٍ مستقيم، فأين المفر؟ وهكذا الأمر؛ لأن استقامة القوس في اعوِجَاجِهِ، فافهم، فإذا كان الأمر هكذا.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:4] فتفرَّقوا بعلمٍ وبينةٍ.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 61].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:4] ونحن معه بكونه آخذًا بنواصينا وأنه على صراطٍ مستقيم، فافهم.

وهنا مسألة دوريَّة ذكرها الشيخ ﷺ في «الفتوحات»:

وهي إن الشرائع اختلفت لاختلاف النسب الإلهية.

واختلاف النسب لاختلاف الأحوال.

واختلاف الأحوال لاختلاف الأزمان.

واختلاف الزمان لاختلاف الحركات الفلكيَّة.

واختلاف الحركات الفلكية لاختلاف التوجهات.

واختلاف التوجهات لاختلاف المقاصد.

واختلاف المقاصد لاختلاف التجلْيات.

واختلاف التجلْيات لاختلاف الشرائع.

واختلاف الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، فدار الدور، وانتهى كلامه ﷺ.

ثم نرجع ونقول: إن اختلاف الأمم باختلاف الاستعدادات والقابليات المختلفة كالماء فإنها حقيقةٌ واحدة تختلف في الطعم باختلاف البقاع، فمنها عذبٌ فراتٌ ومنها ملحٌ أُجاجٌ وهو ماءٌ واحدٌ في جميع الأحوال لا يتغيَّر عن حقيقته وإن اختلفت الطعوم، كذلك أحديَّة الطريق أنها حقيقةٌ واحدةٌ تختلف أحكامها باختلاف القوابل، يَعرفُ ما قلنا مَنْ عَرِفَ وحدة الوجود مع الكثرة المشهودة بالذوق، فافهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (ص 133) بتحقيقنا.

(1) رواه أحمد (453/7)، وابن مردويه في أماليه (18)، والآجري في الشريعة (1128).

المتجليةِ للإنسان الكامل - إذا صدر عنه شيءٌ من قولٍ أو فعلٍ يجعله الناس قانونًا فيما بينهم ويراعونه زعمًا منهم أنّه صادرٌ من السلطانِ، والصادرُ من العظيم ينبغي أن يُعتنى بشأنه؛ فانظر يا أعمى أنَّ السلطان إذا وضع هذا القول والفعل، واكتسب التعظيم والقبول بين رعيته مع أنه ظلٌّ ومضافٌ إلى تلك الحقيقةِ الجامعةِ مكتسبٌ للشرف من هذه الإضافاتِ اكتسابَ الظلِ ذلك من الشمسِ، فما ظنُّك بالمضافِ إليه ووضعه وقانونه؟ كيف لا يُوضعُ له سريرُ القبولِ بين الخواص؟ وكيف تَرفعُ الواسطةَ وأنت في حَرق حجبِ أنانيتك محتاجٌ إليها؟ ولا ينفعك مجردُ معرفةِ البرهانِ الأني واللُّمي من غيرِ أنْ يكونَ لك عروجٌ مِن الخلقِ إلى الحقِّ، ونزولٌ من الحقِ إلى الخلقِ، واستعدادٌ بالفَرق والجمعِ وجمعِهما؟ وكيف تُبطلُ لسانَ الجرحِ إلى أولياء الأمة، وأنت قاصرٌ عن فهمِ كلامهم فضلاً عن الوصولِ إلى مَقامِهم.

أما قرأتَ أو سمعت أن تدوين الكتب إنما حدث بعد مائة وعشرين سنة من الهجرة؛ لإبقاء صورة العلم في مرآة العالم وعليه بنى بناء المدارس، فإذا كان هذا الوضع الحادث محمودًا في باب ظاهر الدين لأجل الفرض الصحيح المذكور، فما ظنك بما وضعه العلماء بالله في باب باطنه؟ لإبقاء معنى العلم وعليه يبتني بناء الخانقاة؛ ولو كنتَ رقيق الحجاب مفتوح الأبواب لما احتجب المتلطفُ بهذه السنن الموضوعة المحمودة، والأسباب المشروعة الممدوحة عند الله تعالى وعند الأنبياء وعند أهل الكشف واليقين، ولا شكَّ أن الحق ظاهر متميز من الباطل كتميز الحال من العاطل، فعليك بالحق وإياك والباطل، ولا يغرنك الجاهل، ولا تقنعن بحثالات البحر وزَبَدِهِ عن دُرَرِهِ ولآليه؛ فإن الله يبغض سفاسف الأمر ويحب معاليه.

ثم من الأوضاع الخلوتيّة الدور الذي أكثر العلماءُ القول فيه، فمن نافٍ ومن مثبتٍ.

والحق هو القبول بشرائطه وأركانه المثبتةُ في صحائفِ وصايا المشايخ - قدس الله أسرارهم - إذ فيه أسرار عزيزةٌ لأهلِه، التائب منه إنما هو المنتهي كالجنيدِ - قُدس سره - إذ تنتقل الحركة من الظاهر إلى الباطن، ومثل هذا الوضع إنما هو للمبتدئ والمتوسط اللذين يحتاجان إلى الأخذ من الأسباب والوسائط، والعمل بالظاهر قبل العمل بالباطن؛ إذ هو وسيلة، وبابه: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:190].

ولا بدَّ لسلطانِ الباطن أن يستخدمَ أمراء الباطنةِ وهي القوى، وأمراءه الظاهرةِ وهي الحواس، والجوارح في إقليمِ الوجود إلى أنْ يحصل المقصودُ، وعند ذلك تتعطل الآلات

وحقٌّ لها أنْ تتعطل بما ثبت أن تحصيل الحاصل غير ممكن.

وأمَّا العملُ بالشريعة وأحكامها فباقٍ إلى آخر العمر؛ إذ أهلُ الحقيقة في ذلك تابع لأهل الشريعة، ولكل موطنٍ حكم خاص، ومن مشى على التراب لم يعثرْ فائدة، تذهبون على الضلال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس: 32].

وهاهنا سرٌّ عظيم يمنع من إذاعته العهدُ المأخوذُ من أصحابِ الطريقةِ، ثم أن الدوران إمَّا على هيئةِ السكونِ، وإمَّا على هيئة الحركة.

فالجلوتيَّة - بالجيم - اكتفوا بالأول؛ وذلك لأن حلقةَ الصوفيَّة عينُ الدور.

والخلوتيَّة أخذوا بالثاني، ولا بدَّ للدائرة من المركز، وهو سرُّ الله المحيط الذي تعيَّن الشيخ صورته.

ولذا كان مقامه وَسْطَ الحلقة غالبًا وكان وجوه القوم من القُوَّال وغيرهم إليه - إذ لا قفاء هاهنا كما قال تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 79] أي: خلقَ سموات القلوب والأرواح وأرض النفوس والأشباح، وكما أن الحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها؟ كذلك حلقة جمعية القوم، وهو إشارة إلى قوة الاتحاد فيما بينهم، ولو وجد فُرجة لزال اسمُ الاتحاد، ولكون اتحاد الجمعي من مبادئ الاتحاد المعنوي بل من نتائجه.

أمر النبيُّ بتراصِّ الصفوفِ في الصلاة، وفرَّق بين توجّه الوحداني والتوجّه الجمعي؛ إذ قد يحصلُ للأول الفوز فيقطفُ قبل أن يحصل المقصود لا الثاني؛ لأنَّ بعض التوجهات رِدء للبعض ومُعِين كالمطر إذا أمدَّ النهرَ الضعيفَ يشتدُّ جريُه، ولا ينقطع دون الوصول إلى البحر، مع أنّه إذا أُخذ من كل التوجه جزءٌ مقبول بحيث صار للمجموع صورةً شخصيةً متميزةً كان شفيعًا عند الحضرة الإلهية ليكمل له من التوجهات، وذلك بحكم لَمِّ الجزء المشتمل تلك الصورة عليه، فيكون كالأكسير في السريان في الأجساد.

وفي الدورِ سرٌّ آخر، وهو اتحادُ البداية والنهاية، وقد سُئِلَ بعضهم: ما النهاية؟ فقيل: الرجوع إلى البداية، فإذا وصلَ السالك إلى النهاية اتّحدت له البداية والنهاية والأولية والأخرية والظاهرية والباطنية.

وفيه أيضًا أنَّ الحركة تفرق الخواطر الغالبة على القلب كالذكر الجهري؛ فإذا اجتمعا كانا أعمل في التفريق وركضُ الرجلِ مستفادٌ مِن قولِهِ تَعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا

مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[1] [ص:42] فكما أن ضرب الأرض بالأرجل سبب لخروج الماء المزيل لألم البدن فكذا سبب لظهور الفيض الغاسل لأوساخ الجهاتِ القلبيةِ ومُمدٌّ للحياة الروحانيةِ؛ هذا بالنظر إلى أهله وشرائطه كما أُشير إليه.

فإياك والعمل بخلاف شرائط الطريق؛ فإنه عقيم وصاحبه سقيم، وقد تم أمر هذا الشأن في هذا الزمان، فكن ابن الوقت، واعرف حدَّك، ولا تخالف يا بني أباك وجدك، فإن اخترت الدور والحركة فمن طريق آدابه وجدت الخير والبركة، وإن اخترت السكون ففي الليل سباتٌ لك كما لا يخفى على أهل اللُّمع والحُلك.

وأما الجلوتية: فنسبتها إلى الجُلوة، وهي خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية أي: التلبس بملابس الصفات الحقيقية بعد التعرّي عن ملابس الصفات الاعتبارية الخلقية، وهو معنى الخلوة والجلوة، وليس بينهما فرق إلا بوضع النقطة في الفوق والتحت، وصدر هذا الفرق أولاً من الزاهد الكيلاني - قدس سره - كما سيأتي في بيان السلسلةِ؛ فإنه نزل النقطة من الفوق إلى التحت فحصل به تعيُّن جديد هو الجلوة.

---

(1) قال الشيخ المصنف: روي أنه قيل له يوم الجمعة عند السحر أو وقت زوال الشمس: ارفع رأسك فقد استجيب لك، (اركض برجلك) أي اضرب بها الأرض، فركض فنبعت من تحتها عين ماء فاغتسل منها، فلم يبق في ظاهر بدنه دودة الا سقطت ولا جراحة إلا برئت، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى، فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلاخرج وعاد صحيحًا، ورجع إلى شبابه وجماله ثم كُسي حلة.

قال بعض الكبار: السر في ابتلائه تصفية وجوده بالرياضات الشاقة، وأنواع المجاهدات البدنية لتكميل المقامات العلية فأمر بضرب أرض النفس ليظهر له ماء الحياة الحقيقية متجسدًا في عالم المثال، فيغتسل به فتزول من بدنه الأسقام الجسمانية، ومن قبله الأمراض الروحانية، فلما جاهد وصفا استعداده وصار قابلاً للفيض الإلهي ظهر له من الحضرة الروحانية ماء الحياة، فاغتسل به فزال من ظاهره وباطنه ما كان سبب الحجاب والبعد عن ذلك الجناب الإلهي انتهى.

وأراد الله تعالى أن يجعل الدود عزيزًا بسبب صحبة أيوب فإن الدود أذل شيء وصحبة الشريف تعزه كما أعز الحوت بيونس، فلما تناثرت منه صعدت إلى الشجرة، وخرج من لعابها الإبريسم ليصير لباسًا ببركة أيوب

قالوا من كان مجاورًا للعزيز والشريف صار عزيزًا شريفًا، ومن كان مجاورًا للذليل والوضيع كان ذليلاً ووضيعًا، ألا ترى أن الصبيّة إذا مرت بالأزهار والورود تحمل الرائحة الطيبة، وإذا عبرت على المستقذرات تحمل الرائحة الخبيثة، وقس على هذا من كان مصاحبًا لأوصاف النفس، ومن كان مجاورًا لأخلاق الروح، انظر: تفسير حقي روح البيان (327/8).

وسرُّ النـــزولِ أن تلك النقطة إشارة إلى رسول الله ﷺ فإنَّه نقطةُ مدار العالم وقطبه، وخلوته: هو عروجُه ليلةَ المعراج وتحلِّيه وغيبوبته عن عينِ الكثرةِ الخَلقيةِ مطلقًا لطيفةً كانت، أو كثيفةً روحانيةً كانت، أو جسمانيةً وهو المراد بوضعِ النقطةِ القدم على العرش تلك الليلة، وهو السيرُ الأولُ المعبّر عنه بالفناءِ الكليِّ، وهو مرتبةُ لا إله إلا الله[1]،

(1) قال الشيخ المصنف واردًا في كلمة التوحيد: نفي أُلوهية الغير مع أنه لا تحقق لها في نفس الأمر، إنما هو بالنسبة إلى الأوهام نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، فإن إثبات الأحدية إنما هو نفي لزعم المشركين من الشركاء، وإلا فقوله: (هو الله) بل لفظ هو منفردًا يكفي في إثبات المقصود، ولذا قالوا: إنه ليس في العالم إلا سر الوحدة، سواء علمه الخَلق وأثبتوه، أو جهلوا به، فإن من جهله لا يتغير الأمر عما هو عليه، ولما خلق الله النور الأحمدي.
فإن أول ما قال: لا إله إلا الله، شرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمدٌ رسول الله، فظهر أن الرسالة إنما هي تعيينٌ من الله تعالى، ونحوها الخلافة المتوارثة بين أهل الطريقة، فإنها إنما تتعيَّن من الله تعالى، إما بلا واسطة وذلك نادرٌ، وإما بواسطة وهو الشيخ؛ لأنه صورة النبي، فأمره أمرٌ من الله، ومن الرسول، فإنه تعالى قال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، فإن الرسول يدخل فيه ورثته من طريق الإشارة، ثم إن إثبات الأُلوهية ماض من أول دور السنبلة إلى آخره، وهي جمعة من جميع الآخرة.
وأما إثبات الرسالة المحمَّديَّة بخصوصها، فلا يجري إلا في الألف الأخير من السبعة، وقد يتحقَّق واحد من هذه الأمة المرحومة ببعض الأسرار، فيكون في حكم من عاش من أول الزمان إلى آخره، فيكون ورده في تلك المدة: لا إله إلا الله، وفي الألف الأخير: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.
فانظر ما أشرف هذا المقام، فالعمر القصير قد يمدُّه الله ويبسطه، بحيث يستوعب الدهر، والله على ما يشاء قدير، فالآخر يحيط بالأول، والأخر دون الأول، وإن بعض الأولية سارية في الأزمنة كلها، ولذا عمل الشافعي بقوله أول الوقت: رضوان الله، فبكر بالصلوات غير المغرب، فاعرف هذا الشيء الجليل. لا إله إلا الله: نفي الأُلوهية عن الغير يستلزم وحدة الوجود؛ لأنه إذا كان الإله متعددًا كان الوجود أيضًا كذلك، فصحَّ أن المعبود بالحق إله واحد، لا إله غيره، ولا وجود سوى وجوده، وهو سرُّ قول مَن قال: ليس في الدار غيره ديار.
ومَن ألحق هذا القائل بالنصارى فقد تنصَّر في المعنى؛ لأن من رضى لأخيه المؤمن ما رضي فقد اشترك فيه، وعلى ما ذكرنا يدور سرُّ قول مَن قال من الأكامل: (عقد الناس في الإله عقائد)، وأنا اعتقدت لجميع ما اعتقدوا.
فإن مراده ليس إثبات الشريك لله تعالى، بل إثبات أن الأشياء مظاهر الأسماء، فالأُلوهية ثابتة لله تعالى، وليست هذه النسبة لغيره، ومن نسبها إلى غيره ألحد وأشرك، ولم يعرف أن المسمَّى إذا كان واحدًا كانت الأسماء كلها خدامه، ومن مظاهره بحسب المراتب، فالوزير اسمٌ من أسماء

وجلوتُه نزولُه نزولَ النقطةِ إلى أحكامِ أليفاتِ الطبيعيةِ والعنصريةِ، وظهورُه في عالم الكون والشهادة – وهو السير الثاني المعبر به بالبقاء – وهو مرتبةُ محمدٌ رسول الله ﷺ فقد فنى عن الكل فناءً كليًّا، وبقي بالحق بقاءً خفيًّا وجليًّا، وتحقق قرب النوافل والفرائض ومقام (قاب قوسين[1]) الصفات أو أدنى الذات فله الرتبةُ العُليا والفضيلةُ العظمى والجمعيةُ الكُبرى.

السلطان، ولا يلزم منه أن يكون السلطان متعددًا، فإن الوزارة مرتبة من مراتب السلطنة، وكذا الفتوى والقضاء.

فإن الاسم العليم الذي اتصف به المفتي، والقاضي الذي اتصف به الحاكم، كل واحد منهما من أسماء السلطان في الحقيقة، وإنما ظهر حكمهما في ملخصين مختلفين؛ إظهارًا للمراتب التي يقتضيها مرتبة السلطنة الجامعة، فكثرة الوجودات لا تغرنك، فإن تحتها وحدة إمَّا إضافية، وإمَّا حقيقية، وأردنا بالوحدة الإضافية التي تقتضيها كل كثرة، وبالحقيقة الوحدة التي تجمع الوحدات كلها، فالوزير مثلاً واحد بالنسبة إلى سائر المراتب، لكن مرتبة السلطنة التي وحدتها وحدة حقيقية، تجمع وحدته ووحدة غيره، ونظيره أيضًا النواة، فإنها نواة واحدة حقيقية، وبدن الشجرة واحد إضافية، وكذا الأغصان كلها، وقد آل هذا التكثر إلى وجود الوحدة التي هي النواة في كل ثمرة.

فظهر أن كل ثمرةٍ مثمرة تحوي نواة على حدة، ووحدة النواة الأولى هي وحدة كل نواة متفرعة على ذلك، فمن رأى بالنظر الظاهري ما رأى في ظاهر الشجرة إلا الكثرة، ومن نظر بالنظر الباطني ما رأى في باطن الشجرة إلا الوحدة، فإذا الوجود وجود واحد ظاهر في صورة الكثرة، كما إذا قام إنسانٌ في بيتٍ من زجاجٍ، فإنه يرى من كل جانبٍ، مع أنه لا يقدح في وحدته، وعلى هذا سرُّ التمثُلات الواقعة من الروحانيين، فتلك التمثلات بمنـــزلة الظل لذي الظل، فالظل مع أنه يُرى اثنين، وليس الظل معه إلا في صورة الخيال.

وإنما قلنا في صورة الخيال؛ لأن الكون خيال، وهو حقٌّ في الحقيقة، يعني في مرتبته؛ لأنه من التجليات، ولا باطل في التجليات إلا الباطل الإضافي؛ إذ الباطل الحقيقي هو عدم المحض.

ومن هنا قال الحلاَّج: أنا الحق؛ لأنه رأى الحق في صورة الخلق، وذلك الظل في صورة الظل، فسجد ومن آثار سجدته أنه أثبت إلهًا واحدًا، هو إلهية الظاهر، فهو: أي المتصور خارج من البين، وإنما الظاهر صورة العين، كشف الله عن بصائر وبصائركم الغين، وحفظنا وإيَّاكم عن الرَّين. انظر: مرآة الحقائق، قسم الواردات (ص 760) بتحقيقنا.

(1) النبي ﷺ صاحب قاب قوسين أو أدنى: أي صاحب قرب الله منه ليلة الإسراء، كقرب قاب قوسين بل أدنى من ذلك.

والقاب: ما بين المقبض: أي المحل الذي يُقبض القوس منه، وقوسين بكسر السين وتخفيف الياء: أي محل عقد الوتر بالقوس، وذلك أول الوتر، فلكل قوس قابان، وحينئذ ففي الكلام قلب،

وتحقيقُ المقامِ أنْ أوَّل التعيُّن الإلهيِّ هو «الهُوية الذاتية»، وآخره «الكلام»، والجامع لهاتين النسبتين «الكمال الإلهي»، وأول التعيُّن الكوني هو «الرُّوح المحمديُّ»، وآخره «النشأةُ الإنسانية»، والجامع لهاتين النسبتين «الكمال الإنساني»، فإذا صار المبدء معادًا، وذلك في السير الأول يظهر الكمال الإلهي، فهما معراجان عروجًا ونزولا يقطعهما الكمل، ويقف أهل البرزخ في البين غائبين في ظلمة الغبن، محرومين عن رؤية العين، فلهم نقصان بالنسبة إلى من فوقهم. وإن كان لهم كمال بالنسبة إلى من تحتهم، والمعبر هو «الكمال الإطلاقي الحقيقي دون التقييدي الإضافي» وقطع جميع التعيُّنات مختصٌّ بالأنبياء وكل الأولياء، واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون مظهر الاسم «الجامع الكلي» قليلاً في كل عصر، واحد بعد واحد في كلِّ قرنٍ؛ ولذا كثر المؤمنون المحجوبون، وقلَّ العارفون والمكاشفون.

والمقصود من النشأة كلِّها ظهورُ الإنسانِ الكاملِ، وقد وجد - وهو السواد الأعظم - وهو الواحدُ الذي كالألفِ، وهو الذي مَن سقطَ عن نظرِه سقطَ عن نظرِ الله تعالى، ومن أهانه أهانه الله.

ثم نرجع ونقول: إن وعاظ الخلوتية يبتدئون حين الشروع في الوعظ بالحديث الشريف إشارة إلى السير الأول؛ فإن الحديث إشارة إلى مقام الفرْق، والترقي أنما هو من الفرْق إلى الجمْع.

ووعاظ الجلوتية - بالجيم - يبتدئون بالقرآن العظيم إشارة إلى السير الثاني.

ولكلٍّ وجه؛ إذ الأول يفصح عن المطلع، والثاني يقطع عن المقطع، ولا يلزم منه تفاوتهم في سلوكهم إذ كلٌّ مِن الفِرقَتين مَن تحقّق بالسيرين - سواءَ بدأ بالحديث أو بالآية - نعم سلوك الخلوتية أنما هو بالأسماء السبعة المرتبة، فإذا اشتغلوا على وجه التحقيق بحقائق كل

=

والأصل كقابي قوس: أي كقرب أحد القابين من الآخر، والتشبيه بذلك جريًا على عادة العرب إذا أراد، والمبالغة في قرب شيء من آخر.

وقيل: الكلام على ظاهره، والمراد بالقاب: الجنس الصادق بالقابين: أي مقدار ما بين قابي القوس من المسافة.

فكانت عادة العرب إذا أراد أحدهم عقد المودة بينه وبين صاحبه يمد قوسه، ويوصله بقوس صاحبه، بأن يلصق مقبضه بمقبض الآخر، فيلتصق قابا كل قوس بقابي الآخر، ويكون ذلك عندهم دليل النفع والمحبة، ولم يحصل هذا القرب لأحد إلا لنبينا ﷺ.

اسم حصل لهم الفناء عند الاسم الحق، والبقاء عند اسم القيوم - وهو السير في كونهما اسمًا أعظم، ولما كان وجود الفناء والبقاء على الكمال موقوفًا على دهر طويل - وهو أربعون سنة أو ما دون ذلك قليلاً ما جرت عليه عادة الله الغالبة - كان سيرهم في مراتب أسمائهم التأنّي والتدريج؛ إذ لا يكون الدم لبنًا إلا بعد مدة مصححة للاستحالة والانتقال، ولهم الذوق الكامل في طريقهم؛ إذ هم في تفرّج رياض المراتب وبساتين الأطوال في الليل والنهار، ولهم كشفُ الضمير وكشفُ القبور، وكشفُ الجن وكشفُ المَلك، ورؤيةُ صور الأعمال والصفاتِ الغالبة الإنسانية، يقظةً وحسًّا منامًا ومثالاً غالبًا.

وأمَّا سلوك الجلوتية - بالجيم - فباشتغال الذكرِ والمجاهدة الصوريةِ والمعنوية، ولهم المحنة الكاملة في طريقِهم؛ إذ ليس لهم التفرّج المذكور غالبًا إلى أن يتجلّى الله لهم، فيُعطى معرفةُ سرِّ الحياة السارية في جميع الأكوان.

وبعضهم يوافق الخلوتية في السلوك المرتب؛ فإن قلت: السلوك المرتب أفضل أم غير المرتب؟ وأعني بالمرتَّب: ما يكونُ بمكاشفة أحوالِ المواليد ثم العناصر ثم الطبيعيات ثم الروحانيات ثم عالم الحقائق والمعاني، وبغير المرتب: ما يكون مبدأ مكاشفتهم تجلّي سرُّ الحياةِ الذي عنده يحصلُ الفناء.

قلت: المرتب أفضل عند وجود المرشد الكامل الخبير بالمقامات كلِّها، وغيره أفضلُ عند فُقدانه، والغالب في طريق الأسماء الترتيب، والغالب في طريق غيرها غيره.

ومرجعهما إلى حصول الكمال الإنساني، لكن كم قُطِع دون أهل السلوك المرتب الطريق، وذلك لعزة أهل الإشارة في طريق الأسماء.

وطريق الجلوتية - بالجيم - أسهلُ؛ إذ فاقد المرشد منهم يصير أويّسيًّا إن كان كامل الاستعداد، وإلا بقي في الطريق كأنه ثكلةُ أمِّه، ومثله الخلوتي، لكن الفرق أنَّ للأسماء برازخَ كثيرةً تمنع السالكَ عن العبور إلى ما فوقها إلا أن يساعده إرشادُ مرشدٍ كاملٍ، فإن قطع القيود بغير مساعدة الله تعالى أمر مشكل، وقيود الجلوتي أقل بالنسبة إلى الخلوتي.

وليس في طريقِهم - أي: الجلوتية بالجيم - دورٌ ورقصٌ؛ لأنَّ سلسلتَهم كما سيأتي تنتهي إلى حضرةِ الشيخ حاجي بيرام ولي - قدس سره - وليس في طريقه ذلك، فإذا عرفت ما ذكرتُه لك عرفتَ أنَّ الوصولَ إلى الله تعالى أصعبُ الأمورِ كلِّها سواء كان من طريق الخلوتية أو طريق الجلوتية، فلا تطمع أيها البطّال أن تجد في برهة من الزمان ما يجده المجتهدون في دهر طويل، فأين تكميلُك قبل إصلاح الطبيعة؟ والنفس والروح

والسير في مرتبة الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة بترك الشهوات والهوى، وإزالةِ الجهل، ورفع الميل إلى ما سوى المولى قابلاً لا معبود ولا مقصود ولا معروف ولا موجود إلا الله، وأراك مسحورًا بسحرها روث النفس وصفاتها الرذيلة، منكوسًا معلقًا في حب الطبيعة ومقدودًا قميصُك في يد زليخا الدنيا، فلا يظهر صدقك إلا بعد الخروج من باب الموت، وأين الموت لأمثالنا؟ ونحن في تربية الطبيعة بلبان شهواتها من الطعام والشراب والمنام، وليس لنا هوى إلا حبُّ الدنيا والشهوة والرياسة، والاحتظاظ باجتماع المُردِ المِلاح واطّلاع النساء حبال الشيطان الوقاح، ومثل هذا الكلام عندك يا مغرور من قبيل الطعن والجرح والملائمة، وعندي مِن قبيلِ بيان الحقِّ وطريقِ السلامة: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29] ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:7] أي: لعباده المتشرفين بشرف الإضافة إلى جنابه - فإن من حق ذلك الشرف أن يقبلوا وصية الحق ويؤمنوا بالله ويكفروا بالطاغوت كما قال سبحانه وتعالى:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ [1] [البقرة: 256].

---

(1) قال الشيخ المصنف: رأيت في المنام: كان العلماء اختلفوا في أن الفعل أَولى أم الترك، ثم لقيت في الطريق بعض مَن يَعدُّ نفسه من الأولياء، فقلت له: الفعل أَولى أم الترك؟ فقال: الفعل؛ فأعرضت عنه؛ لأن هذا الجواب مخالفٌ للواقع.

ألا ترى أن الله تعالى قدَّم الكفر بالطاغوت؛ وهو من باب الترك الذي يُقال التخلية بالمهملة؛ فكان الترك أقدم وأَولى من الفعل، ومن ثم قال بعض الكبار: ما لم يكن كافرًا؛ لم يكن مؤمنًا، وما لم يكن مؤمنًا؛ لم يكن كافرًا، فعليك بالأول، وإياك والثاني انتهى كلامه.

ومن ثَم أيضًا قُدِّم التسبيح على التحميد في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:130]، فإن التسبيح الذي هو التنـزيه من باب التخلية بالمعجمة، والنفي والتحميد من باب التخلية بالمهملة والإثبات. ولا شك أن النفي مُقدَّم على الإثبات في كلمة التوحيد.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:2]، فإنه اكتفى بالإنذار في أول الأمر؛ لكونه أقدم، ثم قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:119]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنـزيل أيضًا، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

وهذا المعنى الذي ذكرناه، عناه مَن قال: وجنة الفردوس للكافر، فخصَّ بالذكر جنة الفردوس التي هي أعلى الجنّات، ومقام المقرَّبين؛ لأنه لا ينالها إلا أهل الكفر بالطاغوت؛ وهم أقل القليل؛ لأنهم الذين أُشير إليهم بقوله: ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91].

فتأملْ في هذه الشرطية؛ ليظهر لك ما فيها من كليّات المعاني والحقائق، وجملة الأوضاع التي وضعها أهل الناسوت والطاغوت لا أهل الملكوت والجبروت.

واللاهوت ينبغي الكفر بها؛ لأنها من قِبل الطاغوت، كالدور في طريق الجلوتية - بالجيم - فإنه مُحدَثٌ مخالفٌ للأوضاع الجلوتية القُدمَى، وإن كان له أصل صحيح في طريق الخلوتية كما أسلفناه، وخلط أوضاع بعض الطريق كخلط بعض المراتب ببعض وهو يخالف سر تعدد الطريق؛ إذ يلزم أن يكون الجلوتي خلوتيًّا وبالعكس، وهو كقلب الحقائق وخلاف الموضوع.

ولو كان اتحاد الجملة واتفاقهم في أوضاعهم موافقًا للحكمة الإلهية لما باين الله في استعداداتهم، ولما خلقهم وخالف بينهم في صورهم وخالف أيضًا في سيرهم، وهو سرُّ البث المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1] كما أنَّ الأولاد الصورية مجتمعون في تلك النَّفَس الواحدة، متميزون بالأشخاص والصور، فكذلك الأولاد المعنوية، مجتمعون في الحقيقة الأحمدية، يتشخصون بالسيور، فأين تذهبون؟

واعلم أنَّ أهل الطُرق إخوانٌ في الله، ومِن شأنِ الإخوان أنْ يتحابوا ولا يتباغضوا

وبقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:8]، وبقول مَن قال: خُطوتان، وقد وصلت؛ حيث أراد بالخُطوة الأولى: الإعراض الكلي عمَّا سوى الله تعالى الذي هو من باب الترك، بالثانية: الإقبال على الله تعالى الذي هو من باب الفعل.

فهاتان الخُطوتان نوران بينهما نار هي نار العشق، فإنه لا يتم الإعراض والإقبال إلا بهذه النار، فمَن لم يذق من العشق والمحبة شيئًا؛ فهو لم يذق شيئًا من الحلوى، ولم يدر ما هي، فإن مَن لم يذق؛ لم يعرف، فبعض أهل الرسوم تتبَّعوا كتب أهل الأذواق، وضبطوا المقامات بقدر وسعة عقلوهم، كما رأينا بعضهم في الشام وفي غيرها، فشرعوا في التكلُم من اصطلاحاتهم، ووقعوا في الدعوى العريضة، وهم كما هم على حالهم الأولى لم يذوقوا شيئًا من الحالات أصلاً.

فكانوا بعلومهم بمنـــزلة الجهل؛ لأنه لا يفيد العلم بلا عمل، والعمل إذا صحَّ على وجه السُّنة، وانضم إليه السلوك؛ أدَّى إلى العلم بالله الذي ذاقه أهل تلك الاصطلاحات، وإنما قلنا بانضمام السلوك؛ لأنه لا يصحُّ الكفر بالطاغوت إلا بتسليك المسلك، وبعزٍّ مَن ناله بلا واسطة من الوسائط؛ وهم المجذوبون على أن المجذوبين محتاجون إلى السلوك أيضًا، نعم إذا كان المجذوب أُويسيًا؛ فرب العالمين مربيه ومعلمه إلى أن يحصل له التمكين والرسوخ في الطريقة، فعليك بالاعتقاد، ثم بالعمل، كما ذكرنا حتى تنال إلى ما آل إليه الخوص، ومن الله الرشيد التوفيق والاختصاص. انظر: مرآة الحقائق (ص 48)، بتحقيقنا.

حتى لا يكونوا كالذين حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: 113].

فإن قلت: ما معنى قول رويم - رضوان الله عليه - من كبار المتقدمين: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، أي: تباغضوا؟.

قلت: هو محمول على ترك مؤانسة بعضهم ببعض؛ فإن الاستئناس بالخلق استيحاش عن الحق بالنظر إلى المبتدئ.

وأمَّا حال المنتهي فخارج عن البيان وهذا - أي: ترك السلوك إلى الخلق لا سيما المجانس منهم - لا ينافي الأخوة والمحبة.

فخالفِ الجمهور - أي: في مرتبة الطريق - ووافقْهم - أي: في مرتبة الشريعة - وكن وسطًا، وامش جانبيه، ولا تكن كأخوة يوسف حيث حسدوه في حُسْنِه ومحبةِ أبيه له أكثر من محبته لهم، فوقعوا في موقع الذم، فمَن ألبسه الله كسوة نور جماله وجلاله، وحببّه في قلب الأبُ المعنوي - وهو الشيخ المُسلِّك - ينبغي لإخوانه ألا يحسدوه في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:73] بل يفوضوا الأمر إلى التقدير، ويأخذوا بعروة التوحيد حتى لا يَرِدوا مورد التعيير، بل قد يؤدي التخطّي عن حدِّ الأدب إلى السقوط عن النظر في طريق الطلب، كما وقع لكثير من أهل الإرادة، وليس جرح بعض أهل الطريق لبعض إلا كجرح بعض أصحاب المذاهب الحقيقية لبعض، كما هو معتاد الناس في هذا الزمان.

والواجب على الحنفيِّ أن يحبَّ الشافعي ويذكره بالخير ويرجو شفاعته، وكذا غيره، وعلى الشافعيِّ أن يودَّ الحنفيَّ ويذكر محاسنه ويعظِّمه بما يليق بشأنه وكذا سايرهم؛ فإن اختلافهم رحمة كما مرَّ، والاختلاف الصوري لا يقدح في الاتفاق المعنوي.

فيأيُّها الجلوتية، أمسكوا عن الخلوتية، ويأيُّها الخلوتية، أقلعوا عن الجلوتية، ويا أرباب الدَّعاوى، أين المعاني؟ ويا أصحاب المعاني، أين الحقائق؟ ولله درُّ صوفيٍّ لزم بيته، وأغلق عليه بابه، ومنع نفسه من الإصماخ إلى الناس ووساوس الخناس؛ فإن شياطين الزمان قد تلبَّسوا بملابسِ البشر، وتجاوزوا عن حدِّ المروءةِ في إثارةِ الفساد والشر؛ فلعمري، وجب الخلوة، وإن كنت جلوتيًّا ذا ماء لا يتغير؛ فإن السيل قد بلغ الرُّبى وعمَّ الوباء الأربى، ومن نجا برأيه فقد ربح وأربى.

الفصل الثاني / في بيان فائدة الطريق

اعلم أنَّ الشريعةَ طريقةٌ مسلوكةٌ، أولُها العملُ بالأحكام وآخرُها الوصولُ إلى دار السلام، وللطريقةِ آدابٌ ومجاهداتٌ وسلوك وسير وطير؛ فمن لا شريعة له لا دين له، ومن لا طريقة له لا آداب له، والمجاهدات من السلوك بمنـــزلةِ الاستنجاء من الوضوء فمن لا استنجاء له، لا وضوء له وكذا مَن لا مجاهدةَ له لا سلوك له، والسلوك من السير بمنـــزلة الوضوء من الصلاة؛ فمن لا وضوء له لا صلاة له، فكذا من لا سلوك له لا سير له، وآخر السير الطير، وهو وصول السالك إلى قاف القُربة، والوصول عند مَقام الوصلة كما: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

فأول الطريقة الآداب وما يتبعها مع رعاية أحكام الشريعة، وآخرُها مرتبةُ العِندية وهي خارجة عن صورة الجنة داخلةٌ في مَعناها.

ولذا قال الله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:108] فانظر إلى هذا الاستثناء وما يحويه من المعنى الجليل، وتأملْ في أنَّ الإنسان الكامل لا يَسعُه الجنة، وإنما يسعُه جنةُ قلبه، وهو المراد بقوله تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي التقي»(1) وذلك لأنَّ الأرض والسماء من عالمِ الملك والشهادةِ، والقلبُ من عالمِ الملكوت والغيبِ، وإحاطتُه أوسعُ من إحاطة الأول؛ إذ ليست مظاهر الأسماء الجزئية كمظاهر الأسماء الكلية.

والتحقيقُ أنَّ مَن خرج من منـــزله قاصدًا الكعبة - شرفها الله تعالى - فهو على سعة العلم في كل مرحلة بحسب رؤية الآثار وسماع الأخبار وصحبة الأخيار إلى أن يصل إليها، وعند الوصول ينتهي الطريق ولا يبقى إلا العود، فكذا من خرج من منـــزلِ المُلك بحسب السلوك قاصداً الهوية الذاتية، فهو في إحاطةِ العلمِ وتوسيعِ الدائرةِ في كلِّ مَقامٍ من مَلكوتِه وجبروتِه من حيث الإطلاع على أسرار التعيُّنات، وكشفِ سرادقات الأسماء والصفات إلى أن يصل إليها، وعند ذلك الصعود الكلي يتم الأمر، ولا يبقى إلا الهبوط لتحصيل؛ ولذا قال بعضهم: الصوفي من لا مذهب له؛ فإنه إلى أين يذهب بعد نهاية الطريق؟ وفيه معنى آخر ذوقي لا يُكشفُ قناعهُ، فإذا تم سير السالك وجد في النهاية ما لا

---

(1) ذكره المناوي في «فيض القدير» (4969/2)، و العجلوني في «كشف الخفاء» (431/2).

نهاية واجده، وهو القلب لا غير من الحواس الظاهرة والقوى الباطنة.

ولذا جاء العلم الإلهيُّ الذي هو مُتعلَّقُ القلب أشرفَ جميعِ العُلوم، والقلب المتعلق به أفضل جميع الحواس والقوى، إذ شرف المكان بالمَكين ومَن غفل عن هذا المعنى أسرف العمرَ في تحصيلِ الفاضلِ والمفضولِ، وأتلف النقدَ في مساومة الفضولِ.

نعم، ينبغي أن يُتعلم من علم التجويد مثلاً الذي هو متعلق اللسان قدرَ ما يتخلص به من اللحن والخطأ.

وقسْ عليه سائر متعلقات الأعضاء ويصرِف باقي الوقت إلى معرفة الله تعالى بالاجتهاد التام والسلوك بإشارة دليل يفرق بين اليمين واليسار، فإنَّ البرازخَ كثيرةٌ، والعبور عليها ليس بسهل، وأشدُّها قطعًا عالمُ الملك لكثرةِ الإلف والعادة، وانحباس النظر في المحسوسات.

لذا وصَّى الحكماءُ أن يكون الاشتغال في موضع خالٍ مظلمٍ، بحيث لا يجد السمع والبصر سبيلاً إلى السماع والرؤية أصلاً؛ فإذا داوم على هذا الحال مع رفع الخواطر النفسانية ودوام الذكر والإفطار على الحلال بالاعتدال، ارتفع حجاب الكثرة عن وجه المقصود، وصار شاهدًا للآيات الآفاقية بعينِ البصيرةِ عن وجه المقصود، وصار مشاهدًا للآيات الآفاقية بعين البصيرة بقدر قوة حاله وضعفه وهو السير في عالم الأجسام، وكثير من السُّلاك وقفوا عند هذا وصاروا من أهل الفرقة بالنسبة إلى من فوقهم.

قال المثنويُّ: «فرُقْني لو لم تكن في ذا السكون لم يقل إنا إليه راجعون».

وهذا المقام بالنسبة إلى أهل الملكوتِ الذي سيُرهم في الأرواح – كالمناصب الدنيوية – لا قدر له عندهم، وكذا عند أهل سير الحقيقة، فالسير في عالم الأجسام توحيد، وفي الأرواح تجريد، وفي الحقيقة تفريد، وهو أفضل من التوحيد والتجريد المطلقين، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**سبق المفردون**»(1) فالسبقُ لا يكون إلا بالحركة، وحركةُ السكونِ معنويةٌ، ولكن مع إمدادِ الجوارحِ والقوى بالأعمال الصالحةِ، والنيّات الصادقةِ؛ فهل سمعت حركة في سكون؟ ورؤية وسمعًا بدون الإسماع والعيون فهي هذه.

واعلمْ أن من مات في صباوته، فهو كمن مات في طريق الغزو قبل أن يصل المعركة، فلا فضيلة له؛ ولذا عدَّه الكبار نقصًا؛ إذ المقصود من المجيء إلى عالم الشهادة

---

(1) رواه مسلم (4834).

حضور موارد المحاربةِ مع النفسِ وصفاتِها والشيطان، ثم الظفر بغنائمِ الروحِ وقوّاه بعون الله تعالى الملك المنّان وحدّه بعد البلوغ إلى مبلغ الرجال لا قبله، فلا تسمع قول من قال: ليتني مت قبل حدِّ البلوغ، وأمّا قول بعض العارفين: أقول تارة: يا رب زدني، وأخرى: ليت أمي لم تلدني فواردٌ من مقام القبضِ والبسطِ، ولا يلزم منه تمني العدم في الحقيقة؛ لأنَّ الوجود خير من العدم، لكن لما كان ظهور الكمال تدريجي بالنسبة إلى الإنسان؛ لأن ظهور أحكام أسماء الله تعالى مترتبة على وجودِ الشؤونِ المتعاقبة في أزمنةٍ متفاوتةٍ ظهر الانقباض حين الوقوف عن الحركة إلى طرف المبدأ الأصلي؛ لأن الإنسانَ خلق عجولاً فحصل تمني الموت والعدم بحسب الوطن والمقام، فأين هذا من ذاك؟

وإنما قلنا بتدريج الكمال في الإنسان احترازًا عن الملك؛ لأن كماله دفعي - أي: حاصل له مع وجوده وتعيُّنه الخارجي لا بعده، كما كان لآدم ﷺ، ألا ترى أنَّ الله سبحانه وتعالى تعرَّف له بالإيجاد، فناداه: يا قدير، ثم تعرَّف له بتخصيص الإرادة، فناداه: يا مريد، ثم تعرَّف له بحكمةٍ في نَهيه لما نهاه عن أكلِ الشجرة، فناداه: يا حكيم، ثم قضى عليه بأكلِها، فناداه: يا قاهر، ثم تاب عليه، فناداه: يا تواب، ثم أنزله إلى الأرض، ويسَّر له أسباب المعيشة، فناداه: يا لطيف، ثم قوّاه على ما اقتضاه منه، فناداه: يا معين... وهكذا.

وكمالُ المَلَكِ بالنسبة إلى كمالِ آدم على النصف، كالجنِّ فإنَّه ليس للمَلَكِ إلا مظهرية الجمال، وليس للجنِّ إلا مظهرية الجلال، وآدم جامعٌ بينهما وهو الكمالَ.

ثم مَن مات في طريقِ المجاهدةِ مع النفسِ والشيطان؛ فهو كمن حضر محلَّ القتال، وقاتل حتى قُتل في سبيل الله الملك المتعال، ففيه إعلانٌ للدين الحق، وإظهارٌ لشعائرِ الإسلامِ، ومن كان أسيرًا في يدِ الهوى والقوى الشرير، فهو كمن كان أسيرًا في أيدي الكفار، ومن ارتد عن الطريقة بعد الوقوف على حقيقتِها أو محاسنِها ومنافعِها، والتحق بالمنكرين فهو كمن ارتدَّ عن الشريعة - عياذًا بالله - بعد الوقوف على حقيقتها والتحق بالكافرين، ومن جاهد حتى غلب على أعدائه الباطنة، واغتنم بمغانم الحق في قلبه وروحه وسره، فهو كمن قاتل في سبيل الله، وغلب على أعدائه الظاهرة، ورجع إلى داره بغنائم جليلة ونوافل كثيرة.

فهذه خمسةُ أقسامٍ من الجهادِ الأكبرِ متقابلةٌ بخمسة أقسام من الجهاد الأصغر، وأعلى الكل المقاتلةُ والفتحُ والغنيمةُ، وهي صورةُ سير الكلِّ وسلوكهم بالنسبة إلى مبدئهم ومعادهم، فقد اتضح عندك فائدةُ الطريق كلَّ الاتضاح، وأغناك الإصباحُ عن

المصباح، فويل للمرتدّ والأسير، ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 9 – 10] وبين أهل الشريعة وبين من هو جامع بينهما وبين الحقيقة تفاوت كثير.

لأنَّ جملة المواطن البرزخية والحشرية والدركات النيرانية أعدت لإصلاح أهل الوجود المجازي الذين لم ينقوا جوهرة وجودهم الحقيقي عن لوث الشرك الخفي.

بخلاف أهل الوجود الحقيقي؛ فإنهم قد عبروا عن تلك المواطن في النشأة الدنيوية بقدمي العلم والعمل على وفق الشريعة والطريقة، فلم يبق لهم إلا مفارقة أرواحهم من أبدانهم ثم وصولهم إلى مقامهم المهيأ لهم عند مليك مقتدر، وذلك لأنهم ماتوا عن أوصاف وجودهم بالاختيار، ورجعوا إلى الحق من غير أن يجرهم سلسلة الاختيار والاضطرار.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] على قراءة مَن قرأ بفتح التاء، و«**من مات فقد قامت قيامته**»[1] وذلك من حيث الظاهر أن زمان الموت آخر زمان من أزمنة الدنيا، وأول زمان من أزمنة الآخرة؛ فمن مات قبل القيامة، فقد قامت قيامته من حيث اتصال زمان موته بزمان القيامة كاتصال أزمنة الدنيا، بعضها ببعض من حيث الحقيقة فمَن فني عن إضافة الوجود إلى نفسه، فقد قامت قيامةُ العشق له، وحصل العبورُ عن جسر المجاز، وقيامةُ العارفين دائمةٌ، ثُمَّ الموت الصوري الذي يدهشه الغافلون أسهل شيء عندهم، بل أحلى من المنِّ والسَّلوى، وإليه الإشارةُ بقوله ﷺ: «**من بشرني بخروج صفر بشرت له بالجنة**»[1]، وكيف يتألم من الموت من خرج عن كل شعرة منه موت؟ قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس:64].

ولئن سلِّم أن في الموت ألما لهم لكنهم لا يحسون به، لشغلهم عنه وقتئذٍ بمطالعة أنوار الجمال ومكاشفة لطائف صنع الله الملك المتعال من النعيم الصوري والمعنوي المتنوع حسبما تتنوع الأسماء الجمالية؛ فهم ليسوا بأقل مرتبة من النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولم يكن لهن حسٌّ وشعور بذلك، لفرط انسلاخهن عن لباسِ الحسِّ، وغيبوبتهن عن أنفسهن بمطالعة الجمال اليوسفي، ثم ليس لهم فتنة القبر؛ لأنهم حققوا إيمانهم بشواهد الإحسان والإيقان والشهود والعيان، وثبتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وحفظهم عن التزلزل في طريقتهم المستقيمة، وسرى حالهم من باطنهم إلى

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (236/2).

ظاهرهم، فحفظ صور أبدانهم عن الأغلال.

لأن التوحيد الحقاني يفسخ العقوبة الموجبة للتفسخ، ويبقي أجسادهم على الاعتدال، ثم لا ميزان لهم؛ لأنهم أوفوا حقَّ الميزان - أي: ميزان الطلب - بالسير على قَدمي الشريعة والطريقة - كما قيل - خطوتين، وقد وصل؛ فإن خطوت خطوة دونهما، فقد نصصت من الميزان، فمن ليس له نقصان في ميزانه كيف يقام له الوزن؟ وإن أقيم فلإظهار الفضل؛ فافهم.

ثم لا صراط لهم، فإن الصراط المستقيم في الدنيا هو الاستقامة الاعتدالية المرادة بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112]، وما أمر الله بشيء إلا وفَّق للعمل به، فهم مستقيمون في حركاتهم، عاملون بالاعتدال في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وجميع أحوالهم، الاعتدال ميزانهم من حيث الجمال والجلال واللطف والقهر والرحمة والغضب، فمن مشى على هذا الصراط في الدنيا مع رقته وحدته سلم من مشيه عليه في الآخرة مَشْي غير الماشين عليه في هذه النشأة.

ثم الجنة قلبهم لكونه محل النعيم الصفاتي والتجلي الذاتي، والكوثر علومهم الحقيقية ومعارفهم الإلهية، وما في الجنان شيء إلا هو آثارهم القولية والفعلية والحالة، فمن اتخذ سبيلَهم وصل إلى ما وصلوا إليه في كل المواطن، فإذا استبان عندك معاملة الله بهم في جميع المواطن استبان معاملته بغيرهم كذلك، فمن وجد خيرًا فليحمد الله وليتق بالحق عن نفسه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، وليتق بنفسه عن الحق فقد وعظت لك، فلا تكن من الذين قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: 136]، والمخلص: قطع المهالك على يدي دليل يعرف المسالك، وعدم القناعة باليسير من الطلب؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:36] يشير إلى أنه لا بدَّ للسالك من صرف ثلث عمره في طريق الطلب - إذ الأربعة ثلث الاثنى عشر، ومعنى كون تلك الأربعة حُرُمًا أنَّه يحرم فيها طلب غير الله، بل يتعين طلب الحق تعالى، ولم يتعين أن ذلك الثلث من أول الأمر وعنفوان العمر أو من أوسطه أو من آخره لإبقاء الاختيار؛ وليتسارع العبد إلى التحصيل مسارعته إلى التكبير مع الإمام، فإن آخر العمر ووقت حلول الأجل ليس مضبوطًا ومعلومًا كأوله فلعله لو أخر الطلب لوجد الوقت قد فقد حين أقدم.

ولذا ورد: «أول الوقت رضوان الله»[1].

---

(1) رواه البيهقي في الكبرى (435/1)، والدارقطني (84/3).

وحمل الأمر على الفور في الحج ونحوه، وإن خرج عن عهدته بالحج في آخر العمر.

فأولُ وقت السلوك ما بعد البلوغ، وآخره وقت الفتح باعتبار، وعند انتهاء أربعين سنة باعتبار والرطوبة البدنية، وكذا الحرارة الغريزية مُعينَة على التحصيل، وهما حالُ الشباب أقوى ما يكون؛ لأنهما بعد سبع وعشرين أو ثلاثين أو ثلاث وثلاثين تأخذان بالانتقاص إلى أغلب اليبوسة والبرودة عليهما؛ ولذا قيل: «الصوفي بعد الأربعين بارد» أي: إن كان ابتداء سلوكه بعدها، وإنما إنْ تقدم مجاهدته؛ فإنه يجد الفتح ولو بعدها.

ثم هذا باعتبار الغالب، وإلاَّ فقد فتح الله على بعض المتقدمين المستعدين في حالِ كبرِهم، ولا راد لفضله، كما حُكي أنَّ القفال والقدوري اشتغلا بعد كبرهما ففاقا على علمهما، وراقا بمنظرهما، وإنَّ إبراهيم الأدهم والفضيل بن عياض وعبد الله بن مبارك وذا النون ومالك بن دينار ونحوهم كانوا من محرومي البدايةِ ثم أنقذهم الله من الشهوات التي اعتلقت الخيرات وأخرجهم من وجود الفضلات التي شملت في جميع الحالات وخصهم بعنايته وجذبهم بسليلة هدايته، وكان الله على كل شيء مقتدرًا، وهذا بالنسبة إلى من قام أربعين سنة أو أكثر ثم تنبَّه.

وأما من كان ابن ما دون الأربعين؛ فعليه التيقّظ في وقته الكامل، وألاَّ ينام نومة عبود.

وفي الحديث: «**من قرأ القرآن قبل أن يحتلم؛ فقد أوتي الحكم صبيًا**»[1] ومعناه بعبارته: قبل أن يَصل إلى حدِّ البلوغِ الذي هو وقتُ الاحتلام - وهو خمس عشرة سنة غالبًا - وبإشارته قبل أن يَصل إلى حدِّ العقل الكامل - وهو أربعون سنة - لكن المراد على الأول القرآن الصوري، وعلى الثاني القرآن المعنوي.

فمن دون خمس عشرة سنة صبي بالنسبة إلى من هو ابن أربعين؛ باعتبار نقصان العقل وكماله، وكما أن باب الفيض مطلقٌ مفتوحٌ لمن دون سن البلوغ المعنوي، ألا ترى أن سهل بن عبد الله التستري[2] وعبد القادر الجيلاني؛ فإنهما وصلا إلى المكاشفة في

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (481/4).

(2) هو الشيخ الأمين، الناصح المكين، الناطق بالعقل الرصين، من أعاظم المشايخ والمشهورين، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله وأطلعه على عدد مريديه وأسمائهم وأنسابهم، ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل الفتح.

خير تجمل الإسلام بوجوده، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده.

=

وكان أوحد زمانه في علوم الرياضات، صحب خاله محمد بن سوار ولقي ذا النون وأخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة، وطبق الأرض من علوم الحقائق، فحسده فقهاء بلده فقاموا عليه ونسبوه على عظائم وقبائح بسبب قوله: «التوبة فرض على العبد في كل نفس»، ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من بلده إلى البصرة، فمات بها.

وحفظ القرآن وهو ابن سبع، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة، وهو ابن عشر فيحسن الإجابة.

وكان لا يفطر إلا كل خمسة عشر يومًا.

وإذا دخل رمضان يأكل أكلة واحدة في أول ليلة منه ثم يطوى بقيته لكنه يفطر كل ليلة على الماء القراح أوعلى زبيبة ليخرج عن الوصال المنهي عنه.

وكان يكفيه لطعامه في السنة كلها درهم، وإذا جاع قوى وإذا شبع ضعف، وكان إذا دخل عليه ضيف يأكل معه وإن لم يكن له شهوة إلى الأكل ذلك الوقت.

وكان يسمع القرآن وغيره فلا يتحرك، فلما كان أواخر عمره صار يتواجد ويقول: ضعفنا والله عن التحمل، وصار واردنا أقوى منا.

وكان يطوى ثلاثين وأربعين، وقيل سبعين ليلة لا يأكل شيئًا.

وقال الغزالي: «وقد انتهى إلى ذلك جماعة يكثر عددهم منهم محمد بن عمرو المغربي، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، وإبراهيم التميمي، وحجاج بن قراقص، وحفص العابد المصيصي، وزهير وسليمان الخواص، وإبراهيم الخواص.. كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة، وذكر بعضهم أن من طوى أربعين يومًا من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت -أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية» انتهى.

قال ابن عربي: وكان بدأ سهل في هذا الطريق سجود القلب- وكم من ولي كبير الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب، ولا علم أصلاً أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها- وكان سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبدًا من سجدته، فهو ثابت على تلك القدم الوحدة التي تتفرع منها أقدام كثيرة، وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال- ولهذا سمي قلبًا- وصاحب هذا المقام، وإن تقلبت أحواله، فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأي سهل في ابتداء دخول طريق أن قلبه سجد، وانتظر أن يرفع، فبقي حائرًا فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدق لا ينطلقون إلا عن ذوق محقق.. فقيل له: إن في عبادان شيخًا معتبرًا لو رحلت إليه؟

ففعل فقال له: أيها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد.

فوجد شفاءه عنده فلزم خدمته.

فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من يشاء من عباده، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:15].

ومن فوائده: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا انتبهوا ندموا، فلم ينفعهم ندم.
وقال: من الأولياء من إذا مرّ على قوم عصاة فسلم عليهم أوسلموا عليه فيغفر الله لهم جميع ذنوبهم وأمنهم من عذابه، ومنهم من لا تأكل النار من جالسهم ولو لحظة أو حضر جنازتهم.
وقال: الصبر عن النساء خيرٌ من الصبر عليهن، والصبر عليهن خيرٌ من الصبر على النار.
وسئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجدة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهرًا في ملكه وقدرته، وقد حُجب الخلق عن معرفة كنة ذاته، ودلّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.
وقال: الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصر هالك.
وقال: ما من ساعة إلا والله يطلع على القلوب، فأي قلب وجد فيه غيره سلط عليه العدو.
وقال: التائب من يتوب من غفلته في كل لمحة.
وقال: لا يستحق الرجل الرئاسة على الناس إلا إن احتمل أذاهم، وبذل لهم ما بيده، وزهد فيما بيدهم.
وقال: دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر.
وقال: لا يرى في القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام والاقتداء بالمصطفى ﷺ في أكله.
وقال:لم ير الأكياس شيئًا أنفع من الجوع للدين والدنيا.
وقال: لا أعلم شيئًا أضر على طلاب الأخرة من الأكل.
وقال: جعل العلم والحكمة في الجوع، وجعل المعصية والجهل في الشبع.
وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال.
وقد قال في الحديث «**ثُلثٌ للطعام**» فما زاد فإنما يأكل من حسناته.
وقال: إنما صار الأبدال بإخماص البطون والصمت والسهر الخلوة.
وقال: رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع.
وقال: إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله.
وقال: لو كانت الدنيا دمًا غبيطًا كان قوت المؤمن منها حلالاً؛ لأن أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط.
وقال: من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله.
وقال: من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة وسماع كلام أهل الغفلة، وكل عالم خاض في الدنيا فلا تُصْغِ لقوله، بل يتهم فيما يقول: الآن كل إنسان يدفع ما يوافق محبوبة.
وقال: أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو جاهل به.

وقال: قد أيس علماؤنا من ثلاث: لزوم التوبة، ومعانقة السنة، وترك أذى الناس. وقال: العيش أربعة: عيش الملائكة في الطاعة، والأنبياء في العلم، وانتظار الوحي والصديقين في الاقتداء، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم.

وقال: الولي من توالت أفعاله على الموافقة.

وقال: خلق الله الخلق ولم يحجبهم عنه، فجاءهم عنه الحجاب عن تدبيرهم واختيارهم معه، وذلك هو الذي كدر عليهم عيشهم.

وقال: مخالطة الفقير للناس ذل وبعده عنهم عز.

وقال: ما من ولي صحت ولايته إلى يحضر إلى مكة كل ليلة جمعة لا يتأخر.

وقال: اجتمعت برجل من أصحاب المسيح عليه السلام فرأيت عليه جبة صوف فيها طوارة، فسألته عنها فقال: هذه من أيام المسيح سبعمائة سنة، فعجبت فقال: الأبدال لا تخلق ثيابهم، وإنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السحت.

ولذلك قيل: إن للخضر عليه السلام إزارًا ورداءً لا يبليان ولا يخلقان.

وقال: إذا أصابتكم مصيبة فلا تقولوا: أخ؛ فإنه اسم الشيطان وقولوا: آه فإنه اسم الرحمن، وكذا وه فإنه مقلوب هو.

وقال: إن الله سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم.

وقال: إياكم ومعاداة من أشهره الله بالولاية؛ فإنه كان بالبصرة ولي فعاداه أهلها وآذوه فغضب الله عليهم فهلكوا أجمعين في ليلة.

وقال: طوبى لمن تعرف بالأولياء، فإنه ربما استدرك ما فاته من الطاعة، وإن لم يستدرك شفعوا فيه لأنهم أهل فتوة.

وقال: الدنيا حرام على صفوة خلق الله لا يتناولون فيها إلا بقدر الضرورة.

وقال: إذا قام عبد بما يجب الله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق.

وقال: من لم يكن مطعمه من حل لم يكشف عنه حجاب.

وقال: أعظم ما يحجب به العبد عن مشاهدة الملكوت وعن دخول حضرة الله وسوء المطعم وأذى الخلق.

وقال: ما دامت النفس تشتهي المعصية فلا يصل للقلب شيء من نور الطاعة، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش.

وقال: حياة القلوب الذي يموت بذكر الحي الذي لا يموت.

وقال: علامة المؤمن الكامل ألاّ يخاف أحدًا دون الله.

وسئل عمن لا يأكل أيامًا أين يذهب لهب جوعه فقال: يطفئه نور القلب.

وقال: كل عبد يفعل طاعة أومعصية بغير اقتداء فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله باقتداء فهو عذاب على النفس.

وكان يداوي الناس ولا يداوي نفسه من الأمراض، فعوتب فيه فقال: ضربة الحبيب لا تؤلم.

وقال: لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم، ولكن فتش عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره في نفسك وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق. وقال: إن الله قال لآدم: «أنا الله لا إله إلا أنا، فمن رجا غير فضلي وخاف غير عدلي لم يعرفني».

وقال: ما أعطى عبد شيئًا أفضل من علم يزداد به يقينًا وافتقارًا إليه.

وقال: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

وقال: البلوى قسمان: بلوى رحمة، وبلوى عقوبة.

- فبلوى الرحمة: تبعث صاحبها على إظهار فقره وفاقته إليه تعالى وترك تدبير نفسه واختياره.

- وبلوى العقوبة: تبعثه على اختيار نفسه وتدبيرها.

وقال: الابتلاء كالمرض.. يمرض الواحد مائة سنة فلا يموت، ويمرض آخر ساعة فيموت.

وقال: ما نظر واحد إلى نفسه فأفلح ولا ادّعى لنفسه حالاً فتم له، والسعيد من صرف نفسه عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل الفضل والإفضال، ورؤية منة الله عليه في جميع الأفعال.

وقال: السرور بالله هو السرور، والسرور بغيره الغرور.

وقيل له: ما القوت؟ قال: ذكر الحي الذي لا يموت.. قال: هذا قوت الأرواح، فما قوت الأشباح؟ قال: دع الدنيا لبانيها إن شاء عمرها، وإن شاء خرمها.

وفي رواية عنه قيل له: ما القوت؟ قال: الله ؟

قيل له: سألتك عن قوت هذا الجسد.

قال: الله الذي به يقوم كل شئ.

فلما ألحوا قال: ما لكم وله، دع الديار إلى مالكها وبانيها، إن شاء عمرها وإن شاء خربها.

ويقول: ليس من شأن اللطيفة الإنسانية صحبة هذا الشكل الخاص، فلا بدّ أن تشتغل بما هو عين حياتها ووجودها، وأي بيت أسكنها فيه سكنته.

وقال: ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب.

وقال: أصفى ما يكون ذكري له إذا كنت محمومًا.

وقال: التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد.

وقال له رجل: دخل لص داري وأخذ متاعي.

فقال: اشكر الله، لو دخل اللص قلبك - وهو الشيطان - وأفسد التوحيد، ماذا كنت تصنع؟

وقال: العلوم ثلاثة: علم ظاهر يبذل لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يظهر إلا لأهله خوف الفتنة،

وعلم بين العبد وربه يستحيل إظهاره لأحد من الخلق. وسئل عن الاسم الأعظم فقال: أروني الأصغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمة، خذ أي اسم شئت يفعل معك.

وقال: من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أوضرورة.

وقال: من أكل الحرام غصت جوارحه شاء أم أبى علم أولم يعلم.

وقال: اجتنب صحبة ثلاثة أصناف: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

وقال: المرء يعصي الله مائة سنة ثم يطيعه ويختم له بخير وينجو، وآخر يتكلم بكلمة في ساعة فتجره للكفر فيهلك، ومن ذلك عظم الحذر واشتد البلاء وأصله حديث:

«**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة... إلى آخره**».

وقال: الغضب أشد على البدن من المرض؛ لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل من المرض، ولهذا قال المصطفى ﷺ «**لا تغضب**» وكرره.

وقال: الفرح كله في تدبير الله لعباده.

وقال: ليس بين العبد حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إلى الله من الذلة والافتقار، ونحوه قول البسطامي: نوديت في سري: خزائننا مملوءة من الخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار.

وقال: أول دلائل المحبة دوام ذكر المحبوب، ولا يستقر ذلك في صميم القلب إلا بعد أن يكون التصديق والتحقيق زاده، والتسليم والرضى مراده.

وقال: من ثقلت عليه الوحدة فهو بعيد من باب الله.

وقال: من خان الله في السر هتك ستره في العلانية.

وقال: لما دخلت البصرة وجدت بها أربعة آلاف يتكلمون في علم المعرفة.

وقال: من تمام المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك وتكره ما يكرهه.

وقال: دع التدبير والاختيار لله الواحد القهار، فإن تدبير الخلق لأنفسهم هو المكدر لمعيشتهم.

وقال: من علم أن الله قريب منه فقد بعد عن كل ما سواه.

وقال: من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه.

وقال: إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة، فحجب العلماء عنه بالعلم، والزهاد بالعمل، والحكماء بلطائف الحكمة، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشئ.

وقال: يا مسكين، كان الله ولم تكن، ويكون الله ولا تكون، فلما كوّنك اليوم صرت تقول أنا وأنا؟! كن الآن كما كنت قبل تكوينك، واعرف فاقة نفسك وحقارتها ونـزّلها منـزلتها من الذلة والاحتقار.

وقال: الهجرة فرض إلى يوم القيامة، من الجهل إلى العلم، ومن النسيان إلى الذكر، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الإصرار إلى التوبة.

وقال: ليس خوفنا من النار ولا رضاؤنا للجنة، بل خوفنا من الحجاب ومطلبنا لقاء الله.

وقال: طوبى لمن عرف الحق وأهله فإن يتدارك ما فرط منه، فإن لم يتدارك كانوا له شفعاء.

وقال: الدنيا حرام على صفوة الله من خلقه؛ كما أن صيد الحرام حرام على المحرم.

وقال: أكبر الكرامات أن تبدل خلقًا محمودًا بمذموم.

وقال: أجمع العلماء على تفسير العاقبة بألاّ يكل الله العبد إلى نفسه وأن يتولاه وهو قول المصطفى ﷺ: «**لا تكلني إلى نفسي**».

وقال: الأنفاس معدودة، فكل نفس يخرج بغير ذكر الله فهو ميت.

وقال: يتفاضل الناس يوم القيامة بقدر يقينهم، فمن كان أغزر يقينًا كان من دونه في ميزانه، وأدنى مراتب اليقين الثقة بالله، وأدنى مراتب التوكل ترك الاختيار.

وقال: إنما منع الله الغافلين لذة مناجاته لأنه لم يرض عقولهم لمعرفته، ولا أبدانهم لخدمته، فأذلهم وجعلهم عبيدًا للدنيا.

وكان يقول: الرجل من يصلي في فلاة، فينصرف من صلاته فينصرف معه أمثال الجبال من الملائكة على مشاهدة منه إياهم..

وقال ابن عربي: وأنا أقول: «الرجل من يصلي في فلاة، فينصرف بالحال الذي هو في صلاته. فلا ينصرف معه أحد من الملائكة، فإنهم لا يعرفون أين يذهب.. وهؤلاء هم رجال الغيب» انتهى.

وقال: صعدت جبل قاف ورأيت سفينة نوح مطروحة فوقه.

وقال: لله عبد يرفع رجله وهو بالبصرة فيضعها على جبل قاف.

وقال: أعمال البر كلها في صحائف الزاهدين.

وقال اليافعي: هذا في نهاية التحقيق، فإن أهل الدنيا يخرج بعضهم عن بعض ماله في عمل البر، والزهاد خرجوا عن الكل لله، وجمعوا بين العبادة البدنية والقلبية والمالية.

وقال: لي أربعون سنة أكلم الله والناس يظنون أني أكلمهم.

وقال القيصري: وله كلمة شأنها عظيم «قليل من يفهم حقيقتها، فإن فهمت فاحمد الله، وإلا فسلم كل صنع لأهلها، ولا تنكر مالا تفهم تخسر أول أنصبة المؤمنين وهو التصديق، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال: تحاججت أنا وإبليس في القضاء والقدر من طلوع الشمس للغروب فكان من آخر ما قاله لي: هل أنا شيء؟ قلت: نعم. قال: قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فبأي دليل لا تنالني الرحمة؟ فأوقفني وغضضت وولى، فتدبرت الآية فرأيته عقبها بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فصحت به ارجع أجبك، فرجع متبسمًا، فقلت: قد خرجت بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف:156].

وقال: ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل إلى ما أرى.. ليتك سكت، من أين أعطيت أني لا أتقي وقد غياني بيوم الدين وانتفاع أهل الأعراف بسجداتهم، هناك أطمعني في قبول توبتي، وأيضًا أما =

=

علمت أن التقييد صفتك لا صفته.

وقال: إن آخذ عنه طريق المعرفة، كان له تلميذة لها ولد، فأخبره بأنه غرق، فدخل عليه فتكلم في الصبر والرضا فقالت: ما تريد بهذا؟ فقال: ابنك غرق، قالت: ما غرق، فقوموا، فقاموا معها حتى انتهوا إلى النهر فقالت: أين غرق؟ قالوا: هنا، فصاحت به فأجابها، فنـــزلت فأخذت بيده ومضت به فبهت الحاضرون، فقال السري: إن المرآة مراعية لما لله عليها، وحكم من كان مراعيًا لذلك ألاّ تحدث حادثة حتى يعلم بها، فلما لم تكن حادثة لم يعلمها بشيء، فأنكرت أن ربها ما فعل ذلك.

ومن كراماته: أنه حصل له فالج آخر عمره، فكان إذا حضر الصلاة زال عنه فإذا فرغ منها عاد إليه، ومنها أنه احتاج في سياحته إلى الوضوء وفقد الماء، فاغتم فأتاه دب بجرة خضراء مملوءة ماء فوضعها بين يديه وانصرف.

ومنها أن رجلاً دخل إليه يوم جمعة قبل الصلاة فرأى في بيته حية عظيمة فوقف، فقال: ادخل لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه، ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقال: بيننا وبين الجامع مسيرة يوم، فأخذ بيده فأدخله إليه فورًا فصليا ثم خرج ينظر الناس خارجين فقال: أهل لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل.

وكان السباع يأتونه زائرين، وعنده بيت يسمى بيت السباع فينـــزلهم فيه ويضيّفهم باللحم جهارًا ثم يأذن لهم بالانصراف.

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد: يا سيدي، وبم أتوضأ؟ فالماء الذي يسيل من أعضائي يصير قضبانًا من الذهب والفضة، فقال له: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة يشتغلون بها.

وسأله رجل الصحبة فقال: إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبني.

وله ذكر عظيم الشأن جربه أهل العرفان.

وقال ابن عربي: دخلت به الخلوة ففتح لي به في ليلة واحدة.

وفيه أسرار عجيبة وأذواق غريبة، ومن أكثر ذكره حبب إليه الطاعات وبغضت إليه المنكرات.

قال بعضهم: ومن تعلق به لم يعجزه شيء من الموجودات، ومن ذكره كل ليلة سبع مرات وهو في فراشه وجد له حلاوة في سره وهو هذا: «الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهد علي».

وحكي عن نفسه أنه في بدايته توضأ للجمعة وذهب للجامع فوجده امتلأ بالناس والخطيب يخطب، فتخطى الرقاب حتى وصل للصف الأول فقعد فأخذته حرقة البول فأكربه وقد قربت إقامة الصلاة، وبجنبه شاب لا يعرفه فالتفت إليه وقال: يا سهل أخذك البول، ثم نـــزع بردته عن منكبه وغشاه بها وقال: اقض حاجتك وأسرع إلى الصلاة، ففتح عينه فإذا بباب مفتوح فدخله، فإذا بقصر ونخلة بجانبها مطهرة، فأراق الماء وتوضأ، فنـــزع الشاب بردته عنه فإذا هو قاعد في محله ولم يشعر به أحد.

=

صغرهما، وإن يوسف وعيسى ويحيى - عليهم السلام - أُوحي إليهم قبل الأربعين؛ فإذًا لا دخل في السن فلا أثر للشيخوخة إلا في الأمور الظاهرة.

وقد كنت في أوائل حالي جعلت الأربعين نصب العين، كأنَّ الفيضَ الكلي لا يحصل إلا بعد البلوغ إليها؛ فقيل: «لا دخل لسن رسول الله ﷺ في صديقيته، وكان سنه ثلاثًا وستين ناظر إلى الشرع؛ فافهم».

ثم انقطع عني ملاحظةُ الوقتِ، وفوّضت أمري إلى الله، وأسأل الله لي ولجميع المعتقدين المنصفين أن يجعلنا عبيده حقًّا كما عرَّفنا ذاته بكونه ربًّا. فإن قلت: قد ظهر مما ذكرت أنَّ الفتح قد يكون قبل الأربعين، وقد يكون فيها، وقد يكون بعدها، فهل له اختصاصٌ بهذه النشأة الدنيوية أم لا؟ بأنْ يحصل الترقّي والتيقظ بعد الموت الصوري، كما قال ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»(1) .

قلت: هاهنا مقامان:

الأول: إن السالك الصادق في طلبه إذا سافر من مقام طبيعته ونفسه، فمات في الطريق - أي: الموت الاضطراري - قبل أن يصل إلى مراده بالموت الاختياري؛ فله نصيب من أجر الواصلين إليه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (2) [النساء:100].

=

وله تصانيف نفيسة منها «رقائق المحبين»، و«مواعظ العارفين»، و«جوابات أهل اليقين» وغير ذلك، مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين،عن ثلاث وثمانين سنة.

انظر: الحلية (189/10)، وسير أعلام النبلاء (532/11)، وطبقات الصوفية (ص 206)، ووفيات الأعيان (273/1)، وصفوة الصفوة (46/4)، وشذرات الذهب (182/2)، والطبقات الكبرى للشعراني (90/1)، والكواكب الدرية (254).

(1) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص 20).

(2) قال المصنف: أي من بيت بشريته وطبيعته، وفيه إشارة إلى أن السالك الخارج الأجر الآتي، وإن لم يخرج من بلد وجوده المجازي بالكلية، فإن الخروج من بلد الوجود بالكلية، والدخول في بلد الوجود الحقيقي إنما يحصل في الدنيا لواحد بعد واحد.

والله تعالى يمنُّ على عباده السالكين؛ فيوصلهم إلى مقاصدهم، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في البرزخ، وإمَّا في الحشر؛ وهو المراد بقولة مَن قال: مَن لم يصل إلى مراده؛ فمراده يجئ إليه، وهذا الإيتاء في

=

قول مَن قال: إن كل كمال لم يحصل في الدنيا؛ فهو لا يحصل في الآخرة.

وذلك فإن عدم الحصول إنما هو لغير السالك، وأمَّا السالك فتدارك بفضل الله سبحانه، كما قلنا آنفًا، وإلى حال غير السالك دلَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72].

وإلى حال السالك أشار قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾ [النساء:100]، وهذا المبحث قد حققناه في كتابنا المسمَّى: «بتمام الفيض» بما لا مزيد عليه، والله الموفِّق.

قوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ﴾ [الآية:100] في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ [الآية: 100] في الظاهر.

ودخل فيه وارث الرسول؛ لأن مسكنه المدينة الثانية، وهو نفسه وحسنه من حسنات الرسول؛ فهو الرسول المرسل بالرسالة التحقيقية لا النبي المبعوث بالنبوة التشريعية، فإنه منقطع أبدًا، ولم يبقَ إلا المبشرات، وإنما قال: إلى الله؛ لأن نهاية المعجزة، إنما هي مقام الأُلوهية، وهي منتهى العلم أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿فَاعلم أنهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ [محمد:19]، وعند هذا المقام يخلص السالك من الحجب الجسمانية الظلمانية، والحجب الروحانية النورانية؛ لأن الأُلوهية ليست مأخوذة من حيث كونها صفة من صفات الله تعالى؛ بل من حيث هويتها أيضًا.

ولا شك أن الهويَّة غاية الغايات لا غاية ورائها، ولا مرمًا غير الحق تعالى عن الهُويَّة بالأُلوهية؛ إذ مقام البقاء بالله يقتضي الارتباط بالحق، فالحق إله واحد، والعبد مألوه أبدًا على اصطلاح القوم دلَّ على هذا أن النبي ﷺ لمَّا دخل على الله تعالى ليلة المعراج قال: «لا إله إلا الله أنا العبد»، مع أن ذلك المقام الخطير يقتضي الفناء بالكلية فافهم جدًا.

وقال تعالى: ورسوله، فعبَّر عنه بالرسول؛ لأن ارتباط الأمة بالنبي إنما هو من حيث رسالته، وإلا فهو القائل: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل»: أي لا يدخل فيه غيره، فكل تابع منقطع عنه هناك.

والحاصل أن لكل عبد وجهًا إلى الله تعالى بخصوصه، فهو من هذه الخصوصية لا ارتباط له بغيره أصلاً؛ ولذا يقال: أخبرني ربي، ومن هذا الباب أنه ﷺ لم يُعين الخليفة بعده لمَّا علم إن من أصحابه وأمته مَن يأخذ عن الله بلا واسطة، ففوض الأمر إلى أهله من كل الوجوه، وهو أكمل الناس وأعلمهم.

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ [الآية:100]: اي الموت الطبيعي قبل الفناء الكلي المعنوي: بأن يخرج من أرض بلد الوجود بالكلية؛ كما خرج من أرض بيته البشري الطبيعي.

قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ﴾ [الآية:100]: أي عُدت هجرته هجرة كاملة أذلاً هنالك، فإنه عبد في سلوكه، وخُذ منه لا أجير؛ لكن الله سبحانه من حيث فضله الواسع يعامل معه معاملة الأجير في الظاهر؛ فيعطيه وجوده الباقي بدل وجود العبد الفاني؛ فهو ثمرة علمه، وما

وعده الله في مقابلة فنائه عن نفسه، فإذا هو عند الفناء ساقط على الله؛ ولذا قال: على الله.
وفي الحديث: «لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى؛ لهبط على الله»، فاعرف الإشارة.
وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ [النساء:100] بوجوده الحقيقي الباقي.
وقوله ﷻ: ﴿غَفُورًا﴾ [الآية:100]؛ ساترًا لوجود عبده المجازي الفاني، وقوله ﷻ: ﴿رَّحِيمًا﴾ [الآية:100] بما يفيض عليه من أنواع فيوض أسمائه وصفاته غير وجوب الوجود، فإن الماهية الإمكانية لا تقتضيه، ولا يجتمع الوجوب والإمكان في صورة واحدة؛ فهو تعالى هو والأشياء أشياء، وليست إلا عكوس الأسماء والصفات.
فمن حيث إن الظل صورة ذي الظل قال مَن قال: أنا الحق، وبينه وبين الحق بون بعيد، فالمتجلِّي هو الحق بصور أسمائه وصفاته، والعبد عبد أبدًا ليست له شائبة الربوبية أصلاً، ومَن فهم هذا المقام وتحقق به؛ نجا من ظلمات أهل الإلحاد، والله ولي الإرشاد.
ومنه: نور التمام في المبدأ والمعاد، ولو قال: هو الحق، وأخرج نفسه عن البين؛ لكان أليق بمقام المعرفة والشهود الكامل، ثم إنه ولي الفقر والستر على أن هناك مغفورًا ومستورًا؛ وهو الوجود الإمكاني الاعتباري الظلِّي، فهو وجود في الجملة؛ ولذا تعلَّق به الستر بخلاف الشرك، فإنه لا وجود له إلا في الوهم.
ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48]؛ إذ الموهوم لا يتعلَّق به الستر؛ لكونه لا وجود له أصلاً، ومن هنا قال تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:19].
فلو ارتفع الوهم؛ انتفى النفي والإثبات، وبقي الله الواحد بالذات، وحسبك للإرشاد، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65] يعني: ليس له سميٌّ وشريك في الاسم لما ليس له شريك في الذات، ووجوب الوجود فظهر أن الشريك باطل صورة ومعنى، والحق حق واحد صورة أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، قل: الله ثم ذرهم فمن لم يقل: الله؛ بل أضاف إليه ما سواه، فهو في خوض يلعب.
ومَن معه أيضًا في خوض يلعبون، والله الهادي.
وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:180].
فقد أضاف الأسماء إلى الجلالة، فكما أنه ليس له شريك في الألوهية، فكذا ليس له شريك في الأسماء المضافة إلى الألوهية، فله ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة إلهية، وله أيضًا ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة كونية؛ لكن الأسماء الحسنة الكونية إنما تضاف إلى المظهر الكوني تأدُّبًا معه تعالى، وإعطاء لكل حقه.
وهذا المظهر الكوني واحد أيضًا، وإن كان له أسماء وصفات كثيرة؛ لأن الواحد لا يقابله إلا الواحد، وفيه قد تحيَّرت العقول، وزلت أقدام أهل النقول ولكن الله تعالى له أفعال وصفات.
فأفعاله مستندة إلى صفاته، وصفاته مستندة إلى أسمائه، وأسماؤه مستندة إلى ذاته، فليس إلا ذات واحدة متجلِّية في صفة كلية قد تجلَّت هي أيضًا في فعل كلي ظهرت منه الآثار والشواهد ظهورًا

كما قال في «الواقعات المحمودية»: «من مات قبل الكمال، فمراده يجيء إليه، كما أن من مات في طريق الكعبة تكتب له أجر حجتين» انتهى.

فمثل هذا وإن مات أعمى في الدنيا بالنسبة إلى من فوقه من الرجال ذوي البصائر، فهو ليس بأعمى في الآخرة؛ لأن عماه في الدنيا كان مجازيًا لا حقيقيًا؛ إذ لو لم يكن له استعداد انفتاح البصيرة لما هداه الله تعالى إلى طريق السلوك، فإن أمر السلوك أمر عظيم عند الله، وإن كان الغافلون الميتون في أوطانهم الطبيعية القاطنون في أكنانِهم القسانية يحسبونه هينًا، بل الله قادر على أن يكملّه في عالم البرزخ بوساطة روح من الأرواح أو بوساطة فيضه الخاص الجائي من الاسم الفياض الفتاح، فيصير أمره من النقصان الموهوم إلى الكمال المعلوم.

وقد ثبت في الشرع أن الله تعالى يوكل ملكًا لبعض عباده في القبر فيقرئه القرآن ويعلمه إن كان قد مات قبل أن يحفظه ويتعلمه على التمام، فإذا كان هذا ثابتًا في الشرع جائزًا عند العقل، فما يمتنع السالك عن التربية مع مجانسة اللطافة؛ وإن كان بينهم من الفرق كما لا يخفى؛ فاحفظ هذا.

والثاني: إنَّ غير السالك لا يجد الترقي بعد الموت - أي: بالنسبة إلى معرفةِ الحق - إذ من المتفق شرعًا وعقلاً وكشفًا أنَّ كل كمال لم يحصل للإنسان في هذه النشأة، وهذه الدار فإنَّه لا يحصل له في الدار الآخرة كما في «السلوك» للشيخ الأكبر - قدس سره: فما يدل على عدم الترقي بعد الموت من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ

وحدانيًا في صورة كثيرة.

ألا ترى أن الكلام صفة المتكلم في ذاته، فإذا ظهر؛ كان قولاً من حيث إنه مقول، وكتابًا من حيث إنه مكتوب، وعلى هذا فقس، فلكل ظهور ثلاث مراتب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:82]؛ فالكون الحادث أثره المستند إلى الفعل القولي؛ فإنه اللقاء في الحقيقة فافهم جدًا.

وذلك القول مستند إلى صفة الإرادة المضافة إلى الهُويَّة المضاف إليها الأمر، وإنما قال: أمره؛ لأن الخلق يلي الأمر، كما أن القدر يلي القضاء، ومن هنا إن النتيجة في القياس ثالث ثلاثة، فهذا أمر الوجود أبدًا؛ بل وكل فكر رسُم في القلب؛ فهو من شيئين؛ لأن له وجودًا في الذهن، وعليك بالتأمُّل في الزوجين، وما تبنَّى عليهما من الآثار في الكونين. وانظر: مرآة الحقائق (ص 147) وفيه أشار المصنف إلى تمام الفيض، لهذا الموضع منه.

﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72] إنما هو بالنسبة إلى معرفة الحق لا بالنسبة إلى من لا معرفة له أصلاً، فإنه إذا انكشف الغطاء ارتفع العلماء بالنسبة إلى الدار الآخرة ونعيمها وجحيمها والأحوال التي فيها.

وأمَّا قوله ﷺ: «**إذا مات ابن أدم انقطع عمله**»[1] فهو يدلُّ على أنْ الأشياء التي يتوقف حصولها على الأعمال، لا تحصل إلا بالأعمال وما لا يتوقف عليها بل يحصل بفضل الله ورحمته، فقد يحصل في ذلك من مراتب الترقي كما في «شرح الفصوص» للمولى الجامي - قدس سره - فقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: 39] ليس معناه أن ما يحصل للإنسان مقصور على سعيه بل معناه: ليس للإنسان إلا ما يمكن أن يكون بسعيه، فما يمكن أن يكون بسعيه فهو بسعيه والباقي فضل الله تعالى كالسعي في مرتبة المُلك، أمَّا الملكوت فلا يمكن إلاّ بمحضِ فضل الله تعالى فلا مدخل فيه للسعي كما في «الواقعات المحمودية».

فإن قلت: قد تبيَّن مِما سبقَ أنَّ فائدةَ الطريقِ هو الخروج عن الوجود المجازي، والدخول في الوجود الحقيقي، فهل فائدة غير هذا؟ قلت: قد جاء مثلٌ سائر: كلُّ الصيد في جوف الفراء؛ وذلك أنَّ التوحيد الحقيقي كما أنه يوصلك إلى من له حقيقة الوجود كذلك يوصلك إلى الرحمة المطلقة؛ إذ حينئذ تتخلص نفسك من المغضوبية، فيحل لك الفني الصوري أيضًا؛ لأنه من آثار الرحمة، والمغفرة من آثار الغضب، وتتخلص أيضًا من التأذي بأذى الأنام؛ إذ لا تغيب عن شهود الجمال الحقيقي في كل مرآة، وعن مطالعة كل تأثر من نسخة الفاعل الإطلاقي.

ويظهر عند ذلك سر ما ورد: «**لسان الخلق لسان الحق**»[2].

وهذا المعنى والوصول إليه مما افتقده الناس، بل السُّلاك والتأذّي بلاءٌ عظيم لا يندفع إلا بمعالجة التوحيد لا يرفع إلا بمساس القلب لعالم الغيب والتجريد، وقد غابت النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن الحسِّ في رؤية مخلوقٍ، فمَا ظَنُّك بمن استغرقَ في بحر الشهود للجمال الأزلي؟ كيف لا يغيب عن التألم والتأذي؟ فعليك بتحصيل الوجدان؛ فإن كل البلاء في الفقدان، وإياك وترك شرائط الطريق حتى لا تحرم عن التوفيق والوصول إلى مقام التحقيق.

---

(1) رواه مسلم (4843).

(2) حديث ذكره السادة الصوفية في بعض كتبهم.

الفصل الثالث /

في تلقين الذِّكر وما يتعلق به

اعلم أنه قد سبق في الفصل الأول أن التلقين عام وخاص، وعلى كلا التقديرين، فهو توفيق خاص وعناية اختصاصية للمريد الأخذ بالتلقين، فإن العناية تورث الاعتقاد الخاص الذي هو أسُّ الطريقة، وهو كمخِّ الرأس الذي يقال له الدماغ، والاعتقاد يورث المحبة وهي تورث الإرادة.

أخذ التلقين وأصله ما رُوي عن شداد بن أوس وعبادةَ بن الصامت قال: «كنَّا عند رسول الله ﷺ إذ قال هل فيكم غريب؟ - يعني: أهلَ كتابٍ - قلنا: لا، يا رسول الله، فأمر بغلق الباب؛ فقال: ارفعوا أيديكم، فقولوا: لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا ساعةً ثم وضع رسول الله ﷺ يدَه ثم قال: الحمد لله، اللهم إنَّك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنةَ إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: أبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد غفر لكم»[1] كما في «ترويح القلوب» لعبد الرحمن البسطامي - قدس سره.

وعن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة؛ فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ - وكنا حديث عهد ببيعة - فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، قال: ألا تبايعون رسول الله، فبسطنا أيدينا، وقلنا: علامَ نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا سرًّ كلمة خفية، ولا تسألوا أحدًا يناوله إيَّاه»[1] رواه مسلم والترمذي والنَّسائي كما في «الترغيب» ولقد لقن الصحابةُ التابعين، والتابعون المشايخَ شيخًا بعد شيخٍ إلى عصرنا هذا وإلى أن تقوم القيامة.

وقد لبس المشايخُ الخرقةَ وألبسوها فهو من سنة المشايخ الآخذين عن روحانية النبي ﷺ ومشكاة روحانيته وولايته، وإن لم يكن له أصل صحيح عند الحفَّاظ والمحدِّثين؛ فإنه إذا ثبت أخذ النفس والتلقين فقد ثبت غيرهما بطريق المقايسة بجهة أنَّ المراد من الكل التبرك والتيمن - وهو أمرٌ لا ينكر عند أحد أصلاً - وقد فرَّق النبي ﷺ شعرات رأسه بين الأصحاب.

---

(1) رواه مسلم (251/5)، وأبو داود (451/4).

وروي: أن النساء اجتمعن عند النبي ﷺ وطلبن أن يعاهدهن باليد؛ فقال: «**لا تمس يدي المرأة، ولكن قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة**»[(1)] فبايعهن بالكلام، ثم طلبن منه البركة فوضعَ يده الشريفة في الماء ورفع إليهن فوضعن أيديهن فيه، كذا ذكره الشيخ عبد العزيز الديريني في «الروضة الأنيقة»، وقال في «إنسان العيون»: «بايعه عليه السلام ليلة العقبة الثانية سبعون رجلاً، وبايعه المرأتان من غير مصافحة؛ لأنه كان لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن فإذا أخذ قال: «**اذهبن فقد بايعتكن**»[(2)] انتهى.

فقد ثبت بهذا المذكور بيعة الرجال والنساء، وأنها مبنية على أصل صحيح، ومعنى المبايعة من جهة الرسول ﷺ هو الوعد بالثواب، ومن جهة الآخر التزام طاعته، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهًا بالمعاوضة المالية من حيث الإيجاب والقبول، وهي في الحقيقة سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111] فالله هو المشتري - اسم فاعل - والأنفس والأموال: المشتراة، والجنة: الثمن، والبائعون هم المؤمنون المقاتلون في سبيل الله - أي: المجاهدون لإعلاء كلمة الله بالجهاد الأصغر - وهم الذين قُتلوا بسيف الكفار.

وأمَّا المجاهدون بالجهاد الأكبر؛ فهم المقتولون بسيف الغفار، فلهم بمقابلة ذلك جنة في جنة كما ورد: «**من قتلته فأنا ديته**»[(3)] ثم التلقين ينبغي ألا يكون بالإكراه والإجبار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256] بل بالإرادة والاختيار؛ فإنه كما لا يجبر أحد على قبول الإسلام إبقاءً للاختيار.

كذلك لا يُكرَه على قبول التلقين؛ إذ ليس على الرسول ووارثه الإبلاغ ثم الله تعالى يفعل ما يفعل من العطاء والمنع.

قال الله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11] فتكثير الصوفية بالإجبار كما يفعله بعض مَن في زيِّ المشايخ من الأشرار إنما هو للاحتشام في ديوان الخلق غفلة عن ديوان الحق والحضور فيه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46] وما روي في طريق الأخيار أثرًا: ألم يكف لصيد قلوب الناس ومنعها عن الهوى وربطها في سلسلة

---

(1) رواه أحمد في مسنده (25766)، والترمذي (1523)، والنسائي (4110).

(2) رواه البخاري (339/16).

(3) لم أقف عليه.

محبة المولى حلقة الذكر والتوحيد، وما يتلى عليه من الآيات الحقيقية من غير تقليد، وما تترنم به بلابل ألسنة العشاق من الكلمات المشوقة على الإطلاق وذلك: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37] فإنَّ من قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:168].

كيف ينجع فيه الزواجر والوعيد؟ وكيف يصلح ويقوم ذلك المعوج اليابس حرارة اللهب الشديد؟ وكيف ينبت بذرُ الإقرار في قلوب المنكرين، وبثمرة التين شجرة يقطين؟

اللهم اعصمنا من معاملات أهل الهوى والبدع واصطحابهم، واجعلنا من المتسارعين إلى بابك ومن اصطحابهم.

فإذا عرفت أنَّه إذا جلس المريدُ الجلوتي - بالجيم - لأخذ العهد والتلقين بين يدي الشيخ الملقِّن كما يجلس عند التشهد بالوقار والسكينِ ويداه على ركبتيه ويقول مع الشيخ: أستغفرُ الله - ثلاث مرات - من كل ذنبٍ قولاً وفعلاً وعملاً واعتقادًا، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهذه هي التوبة والاستغفار المطلق المندرج فيه الرجوع عن الكبائر والصغائر والأوزار القديمة والحادثة والسرية والجهرية والليلية والنهارية، كما أن الإيمان يندرج والتفصيل المذكور في كتب الكلام والتوبة غير الاستغفار؛ فإن الاستغفار الذي مورده اللسان على ما ذهب إليه علماء الرسوم قد يكون بدون التوبة التي هي رجوع القلب إلى الله تعالى بالكلية.

ألا ترى أن العبد الجاني يطلب العفو من سيده، وهو يضمر العود فلم يكن له رجوع إنما إقلاع عن معصيته؛ فهذه أول مراتب التوبة، وإذا آل الأمر إلى النهاية يحصل التوبة من التوبة - أي: الفناء منها - لكونها قيدًا من القيود - أي: في الحقيقة - وأما قيد الشريعة، فلا ينحل إلى أن يأتي اليقين بل قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**»[1] يدل على أن ورد الاستغفار لا يسقط عن ذمة الأنبياء والأولياء وجميع المؤمنين أبدًا في الظاهر والباطن؛ لأن استمرار أمر التجلي بالترقي، وذلك إلى الاختصار موجب للغين المشار إليه في عين الحديث الشريف المذكور

---

(1) رواه مسلم (4870).

وهو التنزل الذي ما ظهر إلا بظهور ترقية؛ فافهم[1].

ثم يوصي الشيخ ذلك المريد الجلوتي بالاستغفار كل يوم مائة مرة؛ لأنها مفتاح القبول إذ الرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه، فلا بدَّ من الاستفتاح من روحانيته بتقديم الوسيلة إليه لِيُفْتَح الباب ويرتفع الاضطراب، وفيه أيضًا شكر له، وفي شكر

(1) الاستغفار: هو طلب المغفرة من الله تعالى للذنوب فإن العبد إذا أذنب ذنبا فقال: رب اغفر لي يقول الله تعالى قد علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له وأحسن أوقات الاستغفار الأسحار فإن الرب يتنزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: «**هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟**» ولا يزال يقول ذلك حتى يطلع الفجر.

فيا من رفع السماء بروح قدرته وفتح أبواب المغفرة بأرواح رحمته أسألك المغفرة العامة والستر الجميل وكيفية الاستغفار اللهم اغفر لي وارحمني برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله الذي لا إله إلا إلا هوالحي القيوم وأتوب إليه ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

ومن الأرواح المحمدية روح فرقاني في أرواح الاستغفار: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: 10] من عادته الغفر فإذا استغفرتموه والاكم بأرواح الغفران وعمكم بأنواع الإحسان فروح الاستغفار فيها روح وصل بذكر الله، وروح فصل عن محارم الله فإن الاستغفار فيه روح كراهة لأرواح الذنوب.

وذلك بروح فصل يفصل الأرواح الظلمانية من الأرواح الشيطانية المتعلقة بالفلك السفلاني وهو فلك المخالفات بأرواح المحرمات والمكروهات.

فانظر ما في الاستغفار من أرواح الأنوار التي يرفع الله بها أرواح العذاب عن أرواح الأحباب؛ فإن أرواح المستغفرين من أرواح المتطهرين والله لا يضيع أرواح المحسنين ولو بالاستغفار في روح من ليل أو نهار، وفي روح الثلث الآخر من الليل له روح طلب من الله ففي الروح المحمدي، والفضل الأوحدي: «**ينـــزل ربكم كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه**».

روح نعيم بعد روح تخصيص فإن روح التائب على روح القبول طالب فهو سائل من الرب الرحيم الخلاص من روح الجحيم والمستغفر طالب لروح الغفران لأن روح الجناية من أرواح العصيان والسؤال أعم فهو من الأرواح العامة في أرواح الحاجات وأرواح الأعظم قد تكف بأرواح القبول لأرواح الدعوات.

ففي روح الاستغفار روح وصل بروح العطف، وروح فصل من الأرواح الظلمانية، وروح حركة باللسان وروح سكون بالجنان إلى روح الغفران.

الواسطة تأكيد العبودية والقيام بحق الحكمة، ويقدم الاستغفار؛ لأنه من باب تقديم التخلية بالعجمة على التحلية بالمهملة، ومن ترتب البقاء على الفناء[1].

وأما السر في كون كل منهما مِائة فناظر إلى الأسماء التسعة والتسعين واحديتها، وللعبد حظ من كل اسم، حققه الإمام الغزالي - قدس سره - في «شرح الأسماء الحسنى» وسر العبد سر الحق، كما أن سرَّ الحق سرُّ العبد، وعنه يفصح الحديث القدسي: **«سر الإنسان سري، وسري سره»**[2] يعني سره: وهي حقيقته الإنسانية بالظاهر على صورة الحقيقة الإلهية ظاهر سري، وسري باطن وصورة سري، وسري باطن سره وحقيقة سره، والصورة هاهنا على حقيقتها لا على مجازيتها كما يزعم علماء الرسوم في قوله ﷺ: **«إن الله تعالى خلق آدم على صورته»**[3] وذلك؛ لأن المراتب متفاوتة والصورة واردة على

---

(1) قال الشيخ المصنف: «**استغفر الله**»: هذا طلب المغفرة، والستر للمعصية إن كان المستغفر من أهل الشريعة. وطلب المغفرة والستر للتلوين إن كان المستغفر من أهل الطريقة.
وطلب المغفرة والستر للهيئات المظلمة إن كان المستغفر من أهل المغفرة.
وطلب المغفرة والستر للوجود الخلقي الفرقي إن كان المستغفر من أهل الحقيقة.
ومنه ما في سورة النصر من قوله تعالى: (**واستغفره**): أي اطلب من ربك ستر الوجود الخلقي الفرقي، فإنه قد تمّ أمر التبليغ، وانقطعت العلاقة بينك وبين الخلق، ولو كان الخلق سبّحك الشريف اللطيف النوراني الروحاني، فكن بعد ذا معي بالوجود الحقي الجمعي؛ لدنو انتقالك من عالم الملك، ورجوعك من الصورة إلى المعنى، ومن الجسد إلى الروح.
وهكذا حكم الكُمّل من الورثة، إذ انتقالهم من هذه الدار إلى الدار الآخرة، ولما كان السين للطلب، والطلب قد يكون باللسان، وهو لا يتم إلا بالرجوع القلبي حقيقةً أُضيف إلى الاستغفار التوبة.
فقيل: أستغفر الله وأتوب إليه على ما نطق به القرآن، حيث قال تعالى في سورة المائدة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: 74]، وعلم ما قرَّرنا أن الاستغفار، ورد لا ينقطع، ولا يسقط إلى آخر العمر، لا عن نبيٍّ، ولا عن وليٍّ، فإنه أمر جارٍ في كل مقامٍ بحسب كل حال.
سبحان الله: تنـزيه لله تعالى عن ملابسته للكون، وملابسة الكون له، وهو في تجلياته غنيٌّ عن العالمين، فالله هو هو، الأشياء أشياء، فالله لا يكون عبدًا، كما أن العبد لا يكون ربًّا.
ولذا قال بعض الأكامل: كُنْ عبد رب، ولا تكنْ رب عبد؛ إشارة إلى التنفير عن الظهور بالصفات الإلهية بين الخلق، كما عليه أهل المكر، ولا يعرفه إلا أهله، فقد اختار الكُمّل الستر، وترك التصرف، والظهور بالعجز والضعف والافتقار.

(2) حديث ذكره الصوفية في بعض كتبهم.

(3) رواه البخاري (5759)، ومسلم (5075).

أمر التنـــزلات والاسترسالات؛ فهي حقيقته، والله تعالى منـــزه عن الصورة المطلقة على المحسوسات، فلا تلبس لي في هذا الأمر جلد النمر، فقد ألبستك لباس الصورة والمعنى، وهو لك، عن فرد المجادلة أغنى.

ثم يُوصي بأفضل الذكر الذي هو «لا إله إلا الله»[1] وينفتح نُور التلقين به في فيه؛ لإخراج ما في قلبه من هواه، على أن يكون الورد كل يوم سبعمائة مرة بعدد أصول الأسماء، وهي السبعة المجملة المفصلّة إلى سبعمائة بما سبق في الاستغفار والتصلية؛ إذ كل منها حاو لما حوته التسعة والتسعون، فيكون لكل واحد حكم المائة، ولا مشاحة مع المكثر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:10].

وأما قولهم: «الزيادة على العدد المطلوب إسراف، والنقص منه إخلال»، فبالنسبة إلى المواد المخصوصة أو إلى تعيين الشيخ العارف الواقف على الحال، والأسماء السبعة هي لا إله إلا الله، والاسم الله، والاسم هو، والاسم الحق، والاسم الحي، والاسم القيوم، والاسم القهار، ثم الوهاب، والفتاح، والواحد، والأحد، والصمد، وهي اثنا عشر اسمًا، ومعرفة ترتيب بعضها على بعض تحتاج إلى معرفة المراتب بالسلوك والسر والطير؛ فاجتهد تظفر[2].

---

(1) أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا ﷺ.

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

(2) قال الشيخ المصنف: اعلم أن الذكر الكثير هو: ما كان بالقلوب، والأعمال، والأحوال، كما كان النبي ﷺ يذكر الله تعالى في كل الأحيان، فإن مَن كان مع الله تعالى في جميع حالاته؛ فهو ذاكر له تعالى سواء قارنه الذكر اللساني أو لاَ.

فالكثـــرة هـــنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعـــالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:142] عبارة عن العدم: أي لا يذكـــرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر =

وقد أظهرنا لك الأسماء الاثنى عشر الدائريين الجلوتية - بالجيم - رغمًا لمن لم يضن بها، وذلك لأنه لا معنى لإخفاء اللفظ إذا كان الوصول إلى المعنى مما يحتاج إلى قطع المسافات البعيدة كعلم الإكسير؛ فإن العمل به صعب لمن علمه فضلاً عمَّن لم يعلمه، فما فائدة معرفة الأسماء، وقد احتجب المُسمى تحت الاستار وتستر الملوك تحت الأطمار؟! وألغز المنشئ في مقاله، فلم يُفهم شيء من ميمه ورائه وداله، وينبغي أن يبتدئ النفي من التهليل من جانب اليسار، ويحول الوجه إلى اليمين ثم يوقع الإثبات على اليسار أيضًا، وذلك لأن الظلمة في اليسار، فبابتداء النفي منعه تطرح تلك الظلمة إلى طرف اليمين، وهو التخلية التي هي سر الخلوتية، وإن النور في اليمين، فبتحويل الوجه إلى جانبه ثم الميل في الإثبات إلى اليسار تلقي ذلك النور في جانب اليسار، وهو التجلية التي هي سر الجلوتية، ولا ينافي هذا ما اشتهر أن موضع الإيمان صدر اليسار، وكذا لا ينافي قولهم: النفي من طرف اليمن إلى طرف اليسار؛ لأن النفي من طرف اليمين حقيقة، وإنما الابتداء من اليسار، وهذا الابتداء لا ينافي كونه من طرفه؛ فاحفظه.

وإنما تركبت هذه الكلمة الطيبة من النفي والإثبات؛ لأنها جاءت لمعالجة القلوب المرضى، وفي معالجة الحكيم الحاذق شرب مسهل ومصلح، ويقدم الأول لما ذكر آنفًا من السرّين، فما أشرف هذه الكلمة! وما أجمعها! وما أحسنها! وما أبدعها! وكيف يسع العاقل أن يتطير بالنفي في بدء الكلام؟

وقد ابتدت هذه الكلمة بالنفي مع أنها أحسن الكلمات، وسر من تطير بقوله: لا

= اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

ومن هنا كان يرفع لبعضهم في يوم واحد عمل أهل الأرض كلها؛ بل عمل أهل السماء؛ لأن الكامل منا إنما يذكر الله تعالى بكل أسمائه بخلاف الملائكة؛ فإن ذكرهم مخصوص بأسماء مخصوصة؛ ولذا قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]؛ وهو مقام الروحانية بحسب أسماء الروح إذ ليس لهم الترقّي إلى مقام السرّ، وسرّ السر. ولذا ذهب بعضهم إلى أنه ليس لهم مقام الرؤية، والظاهر أن لهم ذلك من مرتبتهم الروحانية؛ فهم يرون الله تعالى بأبصار الأرواح لا بأبصار الأسرار، وأبصار الأسرار أكشف وأجلى من أبصار الأرواح؛ لأنه كلما حصل الترقّي؛ ازداد التجرُّد، وكلّما ازداد التجرُّد؛ حصل كمال الوصول؛ بل الحصول فافهم جدًا، واعبد ربك إلى أن يأتيك اليقين الذي ليس فوقه يقين. وانظر: مرآة الحقائق (ص 309).

تقل بشرى، ولكن بشريان: عزة الداعي، ويوم المهرجان، أن النفي كالسيف القاطع لأعناق النفوس، والموت صعب بالإرادة، ولكنه باب كل الناس داخله، وأفضل الأوقات لإحصاء الأوراد المذكورة والاشتغال بها أول النهار إلى وقت الضحوة الكبرى، ولا يفوت بفوات الوقت بل يقضي في الليل ما فات بالنهار، ويقضي في النهار ما فات بالليل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**﴾ [الفرقان:62] وهذا القضاء ليس بواجب لا في الشرع ولا في الطريقة، ولكنه كالواجب؛ لأن في القضاء معنى المدد الذي يصل الفيض المنقطع عن المشتغل بالفيض المتصل به، كالمطر الواقع على الجبال والتلال، فإنه إمداد للأنهار الضعيفة الجري، ولو انقطع المدد وقفت دون الوصول إلى الدماء مع أن ظلمة الأوقات الفارغة إنما ترتفع بأنوار الأوراد المتداركة، وإنما كان وقت المذكور أفضل؛ لأنه زمان تجليات القوم وانكشافاتهم غالبًا، ومواطأتهم في الوقت من أسباب الفتح والفيض، كما دل عليه قوله ﷺ: «**إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا آمين؛ فإن الإمام يقولها، والملائكة يقولون، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1].

قالوا: المراد الموافقة في الوقت؛ لكن هذه الموافقة المجردة لا تجدي نفعًا ما لم ينضم إليها حضور القلب وجمعية الخاطر؛ إذ الاشتغال مع تورع البال وتشتت الباطن مجرد ولولة على الباب، فالغفلة كصداء المرآة يمنع عن انطباع الصور فيها. فيأيها الذاكر خذ هذا المحل ثم ترقب التجلي الأجل، ولا يغرنك الورد المجرد والانتساب؛ فقد جاء عن بعض الكبار: صاحب الورد ملعون، وتارك الورد ملعون.

أما كون تارك الورد ملعونًا، فظاهر لأنه مطرود عن درجة أهل الترقي، وأما كون صاحب الورد ملعونًا، فالمراد صاحب الورد الخالي عن الحضور، فإنه لكونه كالمستهزء بربه، مطرود عن باب القبول، وقد قال في الحديث القدسي: «**من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا**»[2] وهذا التقرب العبدي يحتاج إلى الحركة المعنوية، وهي بالحضور لا غير، فما دام لم يتقرب إليه بالجمع والحضور لم يجد تقرب الفيض إليه من الرب الغفور؛ لأنه كما تدين تدان، وبالكأس الذي تسقى به تشرب، ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾

---

(1) رواه البخاري (740)، ومسلم (612).

(2) رواه مسلم (4927).

[النساء:113] حيث أقبل إليك بفيضه أكثر من أفعالك إليه.

وقال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:1].

ومن تنـــزيه اسمه أن يُصان عن ذكره بالغفلة وعند التثاؤب، وما يخل بالخشوع الظاهري والباطني، وكم ترى من صوفية الزمان من سبحته في يده مشتغل بورده بلسانه، وأُذنه مستمعة إلى حديث الناس، وربما يقطع الذكر ويتكلم ببعض في المجلس، ثم يعيد الاشتغال، فما أبعد هذا عن طريق الصوفية! وما أغفلَه عن مراعاة العهود الوفية!.

ومن أغرب أحوال هذا الزمان أن لبعض الأعيان من العوام صوفيًا يصاحبه كالمولوي والكناشي والقلندري، ولو كان صوفيًا لانقطع عن التردد إلى بابه صباحًا ومساءً، وتبتّل إلى الله تبتيلاً تامًا، ولكن المجانسة جذبته إليه، واعتمد بذلَ التوكل عليه أولئك حزب الشيطان: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19] في تجارتهم التي حسبوها رابحة، واكتسبوا عليها هاجرةً وبارحةً.

ثم نرجع ونقول: إنَّ المشتغل بذكر (لا إله إلا الله) يقول: (محمدًا رسول الله ﷺ) في كل عشرين أو ثلاثين مرةً رعايةً لمقامين: مقام الفناء ومقام البقاء، وإلا فالإيمان بالرسالة مندرج في الإيمان بالله في الحقيقة، وتحقيق المقام أنَّ النبي ﷺ صورة تعيُّن سرّ الأعظم ومَعلَم الباطن تنـــزّل هذا التعيُّن النبوي ومَعلم الظاهر تنـــزّل التنـــزل، والمجموع موجود في الوجود الإنساني الذي هو أجمع الحقائق كلها، فالقوة العاقلة تعيُّن معلم الظاهر، والقوة الروحانية تعيُّن مَعلم الباطن، والقوة العرفانية تعيُّن النبي ﷺ والسرُّ تعيُّن سر الله تعالى.

ولذا مَن رأى من الصوفية في المنام أستاذه الظاهر، فقد رأى صورةَ قوته العاقلة.

ومَن رأى شيخه ومرشده، فقد رأى صورة قوّته الروحانية.

ومَن رأى النبي ﷺ فقد رأى قوته العرفانية.

ومن رأى الله فقد رأى قوةَ سرّه، فالحقيقة واحدة والتجليات متنوعة.

والله تعالى يتجلَّى للمرء من وراء وصف الإمكان على صور شتى باعتبار الصفة الغالبة عليه حين الرؤية ولا خارج عن وجوده.

ولذا ورد: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»(1) ولا تفاوت بين العرفانين إلا أن البعض يعرف نفسه ثم يعرف ربه، والبعض بالعكس؛ فالناظر بعين التفصيل والفرق يجد

---

(1) ذكره المناوي في «فيض القدير» (4969/2)، والعجلوني «كشف الخفاء» (431/2).

التعدد والاختلاف، والناظر بعين الجمال والجمع يجد الوحدة والاتفاق، ومن أنكر من المشايخ حياة الخضر عليه السلام فإنما أنكر لهذا المعنى بحمله على الصفة الغالبة، وهو الأظهر؛ فرؤية الخضر في أمكنة مختلفة وصور متعددة كرؤية النبي ﷺ كذلك، فإنما وقع التجلي في هذا المكان، وذاك في هذه الصورة وتلك، باعتبار تعدد الرائي وتنوع الصفة الغالبة عليه،[فاحفظ][1] هذا؛ فإنه ينفعك إن كنت مؤمنًا وإلا فـ ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: 44].

وأول ما أقررتَ به في عالم الأرواح هو التوحيد، وكذا أول ما كلفتَ به بعد البلوغ هو الإيمان؛ ولذا أول ما سئلتَ عنه في قبرك هو التوحيد والإيمان، وقبرك الآن جسدك فأنت مسؤول في وقتك هذا، فإن كنت متحققًا بحقائق الإيمان والتوحيد، فقد أجبت وأمنت من الوعيد، وسهلت لك الأمر في حضرتك، وأرخيت للمكين سجاف غرتك، فالأمر معجل ومؤجل، وهما كالمرآتين المتقابلتين فما انعكس في إحديهما انعكس في الأخرى، فأين أنت من سر الأزل والأبد؟ ما عرفت قدرك عند الله الأحد!، فإن لم تعرف فهو ذا، أي: بقدر قدره عندك من التعظيم، وترك الأذى، وأراك بعد هذا البيان كأنك طفل صغير بمهده يزداد نومًا وحركة ومن الله الإيقاظ، ثم إن المريد لا يشتغل إلا بما عينه الشيخ، على حسب الوقت والحال، وليس له أن يشتغل بكل ما أراد من الأسماء السبعة أو الإثني عشر؛ فإن لها نيرانًا لا يأمن المشتغل برأيه أن يقع فيها كالفراش، والطريق طريق الإتباع لا طريق الاستبداد والعمل بالفعل والرأي.

ومعنى كون المرء صُوفيًّا انسلاخه عن الإرادة، كما قال بعضهم: «المريد من لا إرادة له» وتجرده عن لباس العقل الجزئي الذي يقال له: (عقل المعاش)، ليخلع عليه خلعة العقل الكلي الذي يقال له: (عقل المعاد)، والإضافة في كليهما بمعنى اللام أي: العقل المخصوص بالمعاش والمعاد، وعقل هو سبب لمعرفة أحوال المعاش، وعقل هو سبب لمعرفة أحوال المعاد، وبين الشين والدال مقاربة في المخرج، فإذا خرج عن المعاش وفكره، وسلّم البناء إلى بانيه، إن شاء هدمه، وإن شاء أبقاه؛ فقد دخل في دائرة المعاد، ووصل إلى النقطة التي خزائن السموات والأرض – أي: تعيناتهما – أخذت من ذلك،

(1) ما أثبتناه لاستقامة السياق.

والنقطة إذا نقرت بمنقار سكين الذكر يحصل [خاتم][1]، فهو الهوية التي يدل عليها الاسم (هو).

واعلم أن هذا الاسم قد جُهِل أمره، وما رأى تجليه إلا من كحلت عين بصيرته بنور الهداية، وقد اشتهر من بعض المنكرين في هذه الإعصار أنه ليس باسم، بل هو ضمير ما، فاشتغال الصوفية به ضائع.

وأقول بتوفيق الله تعالى: إن ضمير المنكِر المُنكَر لم يحط باسميته خُبرًا، وقد عُلِم في محله أن كون الشيء ضميرًا لا ينافي في اسميته؛ فإن المضمرات من قبيل الأسماء لا من قبيل الحروف والأفعال، وكل مضمر فهو معرفة، وأما قول: «جاءني رجل هو عالم»؛ فضمير (هو) فيه راجع إلى الموصوف بالمجيء، فإن الفعل منسوب إلى الفاعل، والنسبة من أحوال الشيء التي يتعين بها، لا إلى رجل منكر كما لا يخفى، وقد أشار إليه الرضي في «شرح الكافية» فقال: اجتمع في (هو) الاسمية والتعريف، فهو كالاسم الله؛ لأنه المراد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [البقرة:163]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [الحشر:22] والعارف لا يرى في الوجود إلا هو؛ لأن ما سواه هالك في نفسه، كما صرح به قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88] فلم يتعين لمرجع هو إلا هو، وإثبات الألوهية له تعالى بنفيها عن النفس إنما يحصل بالاشتغال به، فمعناه هو الإله لا غيره، والنفس تدَّعي الربوبية كما قالت نفس فرعون كما ذكر الله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24] وهواها يدَّعي الإلهية كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]؛ فافتح عين بصرك وبصيرتك كعين ها هو، لتكون من المشاهدين الحق في الأنفس والآفاق.

ثم يندرج فيه حال المبتدئ والمنتهي، فحاله الغيبة لا الحضور، فيناسبه الاشتغال به إلى أن ينفتح الباب ويرتفع الحجاب ويُؤَوِّل الغيبة إلى الخطاب، وقد أشارت إلى حال الغيبة والخطاب سورة الفاتحة، فتفطَّن، وأمَّا المنتهي فحاله عكس حال المبتدئ؛ فهو بالنسبة إليه الهوية، ولذا يقولون: عالم للهو - باللام - إشارةً إلى عالم الهوية ولا مناقشة فيه؛ لأنَّه من اصطلاحاتهم واستعمالاتهم الخاصة، فلهم أن يفعلوا ما شاءوا بحسب عرفهم فيما بينهم؛ فإنهم أصحاب القوانين الحقة.

---

(1) كذا بالأصل.

ثم التوحيد على ثلاث مراتب:

الأولى: لا إله إلا هو. وهي مرتبة المبتدئين.

والثانية: لا إله إلا أنت وهي مرتبة المتوسطين.

والثالثة: لا إله إلا أنا وهي مرتبة المنتهي لكنه في الحقيقة لله تعالى.

وكونه مرتبتهم باعتبار انكشاف حقيقة الحال لديهم في مرتبة الفرائض لا يستدعي أن يكون العبد حقًا؛ فإن مرتبة العبودية غير مرتبة الربوبية، ولله درُّ مَن راعى المراتب، وهو - أي: التوحيد - لكونه باعتبار توهم وجود الغير شرك؛ إذ ليس في الوجود سوى الله، فكيف يوحد من وحدته بذاته؟ وليس فيه كثرة في نفس الأمر، فكونه توحيد إنما هو بالنسبة إلى المحجوبين القائلين بوجود الغير، كما أن الذكر إنما هو بالنسبة إلى الغافلين؛ ولذا قالوا: «ليس في الجنة ذكر» لأنه طرد الغفلة.

فحال العارف المنتهي ليس بتوحيد ولا ذكر، وإنما جاء التوحيدُ والذكر من ضيق العبادة، بل هو عين توحيدٍ وذكرٍ بجميع أجزائه وصورةٍ وعلمٍ بكل أعضائه يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:64].

فإنَّ الحياة الدنيوية إذا كانت حياة أخروية بتبدّل الأوصاف المجازية إلى الأوصاف الحقيقية بظهر سر الله الأزلي في مرآة الوجود الأبدي، فيكون القلب قالبًا والقالب قلبًا والدنيا آخرة والآخرة دنيا، فيشمل الإحاطة الظاهرة والباطن والأول والآخر، ولا يبقى سوى الوحدة، والحقيقة السارية في جميع التعينات في كل المواطن، فكيف الذكر هناك والتوحيد وهما نسبتان بين الذاكر والمذكور والموحِّد والموحَّد واللتان على الكثرة والتعدد قطعًا مع أن الذكر والتوحيد باللسان إنما يكون بالأسماء، والأسماء عند سادات الصوفية - قدس الله أسرارهم - مجازية وحقيقية.

فالأولى: ما دارت في الألسن وسُمِعَت بالأذان، وكتبت في الأوراق.

والثانية: ما ليست كذلك وهي التعيُّنات الوجودية الظاهرة في العوالم كلها.

فذكرهم لا يختصُّ باللسان لمجاوزتهم عن المجاز إلى الحقيقة، فاعرف هذا؛ فإن الجماد الذي ليس له شعور عندك، فله حياة حقيقية عند أهل الله تعالى كما يجيء في محله ثم إن قوله ﷺ: «لقِّنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله»[1].

(1) رواه مسلم (1523).

محتملٌ لاحتمالين:

الأول: إنه محمولٌ على التلقين بعد الدفن كما ذهب إليه الشافعي.

والثاني: إنه محمول على تلقين المحتضر لأنه قرب من الموت.

فأطلق عليه «الميت» باعتبار أوله ورجوعه إليه.

كما ذهب إليه أبو حنيفة وأيًا ما كان ففي التلقين فائدة عظيمة هي طرد الشيطان، ولا يكون إلا بالجهر لإسماع المخاطب وغير المحتضر محتاج إلى هذا التلقين، والجهر لأنه على شفير بئر الهلاك كان النفس والشيطان آتيان من خلفه ليدفعاه؛ لأن يُكتب في حفرة البوار، فيحتاج إلى أن يُقال: «إيَّاك إيَّاك والطريق الطريق».

وأيضًا هو مقبور في قبر جسده لا بدَّ له من التذكير، فالشيخ يلقّنه نفسَه فيسمع ذكره إياها؛ ليرفع الغفلة عنها وعن السامعين كلِّهم فما أنفعَ حليةُ الصوفية المحققين، وذكرُهم الجهري على ملأ الناس وعيونهم، والكلام فيهم لا فيمن لا يعرف الأدب، فعليك بإطلاق اللسان على الخارجين عن دائرة الأدب إنكارًا للمنكر المتفق عليه بين الكل، وإياك والطعن للموصوفين بمحاسنِ الأدب من مقام الصفات، فإنك عند الفناء في الذات تجد نفسك كالليل الساكن، فتخلص عن الاضطراب في المجالس والمساكن، ومن هذا ظهر الجواب لقول من قال: [...][1] فإنه ناظر إلى حال المنتهي الواصل إلى عين الجمع، لا إلى حال المبتدئ الحاصل عند التفرقة، هذان صدر هذا القول من العارف، فإنه يعرف أن بين العبد بين الرب حجابًا أعظمَ وهو الإضافةُ إلى الكون، فإذا حرقه لم يبق إلا الحضورُ فكيف يصح أن يصيح على وجه الحاضر؟ وإن صدر من الغافل فلا اعتبار به، إذ ليس عنده معرفة مراتب الوجود، فهو كالحطب الجبلي يحتاج إلى الفأس الكبير ثم إلى الصغير إلى أن يصير خشبًا منحوتًا صالحًا للاستعمال، فافهم المقام؛ فإنه يغنيك عن سائر الكلام، وقد انتهى المقال المتعلق بالأذكار على الإجمال.

من وصايا الشيخ

فنقول بعون الملك المتعالي ثم يوصي الشيخ المريد أن يشتغل بالذكر والفكر بعد صلاة الصبح إلى أن ترتفع الشمس مقدار رُمحٍ أو رُمحين، فيصلّي عند ذلك صلاة الإشراق وهي ركعتان أو أربع يقرأ في الأولى: سورة الشمس، وفي الثانية: سورة الليل، وفي الثالثة:

(1) كلام فارسي.

سورة الضحى، وفي الرابعة: سورة ألم نشرح هذا إذا كان قارئًا وإن كان أميًّا فيعمل بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمّل:20]، وكذا في كل صلاة نافلة ورد فيها تعيين سورةٍ كصلاةِ ليلة القدر مثلاً؛ فإن المشايخ التزموا فيها قراءة سورة القدر لكن الذي لا يعرف غير سورة الكوثر وسورة الإخلاص أو لا يجيدها يكتفي بها.

وفي الحديث: «**من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم يصلي ركعتين كانت كأجر حجة وعمرة تامة تامة**»[1]، وفيه دلالة على أنَّ المستحب في هذا الوقت إنما هو ذكر الله لا القراءة.

وفي «الغنية» الصلاة على النبي ﷺ والدعاء والتسبيح أفضل من قراءة القرآن في الأوقات التي نُهِي عن الصلاةِ فيها.

أقول: فيه إشارة إلى أن القرآن له مزيد اختصاص بالصلاة، فهو أفضل في أوقات الصلاة، وأمَّا الذكر بأنواعه فعام لكل وقت صلاتي، كان أو غير صلاتي، ولهذا اتفق الصوفيةُ من لدن القرون الأولى إلى الآن على الاشتغال بأوراد أكثر من الاشتغال بتلاوة القرآن مع أن الذكر أيضًا من القرآن؛ لأنه إما عينُه أو مستَنْبَطٌ منه.

فإنْ كان عينُه فهو مشتغلٌ بعين القرآن إلا أنَّ تخصيصَه بالوردِ من بين سائر الآيات والسور لفضلٍ فيه على غيره، فإنْ قلتَ: هل يتفاضل بعض القرآن على بعض مع أن الكل كلام الله؟ قلت: نعم، ألا ترى إلى قول مَنْ قال: [...][2].

وقد حققناه في تفسيرنا الموسوم بـــ «روح البيان» في قصة نوح عليه السلام، وإن كان مستنبطًا منه؛ فهو كالقرآن ألا ترى أنَّهم ألحقوا التفسير بالقرآن، لأنه تفصيل معناه وتبيين ما أُجمل فيه، فاعرفه؛ فإن من تلقاه بالقبول عُدَّ من ذوي العقول، وإن كان مما رغَّب فيه النبي عليه السلام، فهو إنَّما قالَ وفعلَ ذلك للعملِ به، وهو قد كان أعلم منك بأن القرآن لكونه كلام الله أفضل بالاشتغال من كلام المخلوق، ومع ذلك أوجب الثواب للمشتغل به ولو تركوه على العموم في جميع الأقطار لضاع الأمر، وجاءت المخالفة المستتبعة للخسارة العظيمة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

---

(1) رواه الترمذي (535).

(2) كلام غير عربي

[الحشر:7] (1).

فنحن نأخذ بالقرآن والحديث وكلمات الكبار طمعًا في العنايةِ والشفاعةِ والهمةِ وجمعًا بين المراتب كلِّها، ونَنشغل بما قاله سادات الصوفية - قدس الله أسرارهم - أكثر من الاشتغال بغيره؛ ليكون ذلك وسيلةً إلى الوصول إلى فهم معاني الأحاديث النبوية ثم نشتغل بالعمل بالأحاديث؛ ليكون ذريعةً إلى الوصولِ إلى فهمِ حقائق القرآن ثم نشتغل بالكل على حدٍّ سواء إلى أن يأتي الموت.

إنما نفعل ذلك قصدًا للتدّرج والترقي من الأدنى إلى العُلا ثم منه إلى الأعلى، وتحصيلاً للمناسبة المعنوية.

والدرجات متفاوتة لا يمكن قطعها إلا بالتدريج فبكثرة الأوراد والأعمال يترقى المرء من المقال إلى الحال.

قال بعض العارفين: «نهاية الأنبياء بداية الأولياء الطاعة والعبادة، والأنبياء مشتغلون بالطاعة في بدايتهم ونهايتهم تقرُّبًا إلى الله تعالى وشكرًا على نعمه الظاهرة والباطنة وترغيبًا للأمة».

وقد أشار قولُه تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف:35] إلى أن القلب بعد ظهور آثار عناية الله فيه، وهي عصمة من الالتفات إلى ما سواه؛ ليسجن في سجن الشرع إلى حين قطع تعلُّقه عن الجسد بالموت الصوري، والنبي ﷺ مع كماله في الدين من كل وجه مأمورٌ من محبوبه بأن يكون مسجونًا في سجن الشرع حتى حين موته، فكيف مَن دونه؟

فالمنفردُ بالجمع زنديق، والمنفرد بالفرق معطل، والجامع بينهما كاملٌ مكملٌ، فهذه الجملة التي ذكرناها وحررناها على ما ألقي في الروع تُعِينُك على جواب المُنكرين في هذا الشأن، وتخرجك من ظلمات الطاعنين لك من غير حجةٍ وبرهانٍ وتنجيك من بحرِ الحيرة المتموجة برياح أنفاسِ أقوام هم بمنـــزلة الفلاسفة، وإنْ كانوا بحسب ظنونِهم من أهل الذات والصفات.

ثم يُوصِي بصلاة الضحى، وقد كان النبيُّ يصلي هذه ﷺ الصلاة عند ارتفاع الشمس إلى ثُلث قُبة السماء وهو الضحوة الكبرى، ويقرأ فيها ما يشاء من الطوال

(1) انظر: تفسير روح البيان للمصنف (208/15).

والقصار على حسب انقطاعه واشتغاله؛ لأنَّ الله تعالى عين التحصيل المعاد والمعاش وقتًا، ينبغي أن يراعي ذلك الوقت بحيث لا يفوت كل من الأمرين وإلا جاء الإفراط والتفريط المذمومان إلاّ أن يكون تبتُّله كليًّا على وجه استوعب أوقاته بالطاعة.

ثم يُوصِي بصلاة الأوَّابين وهي ستُّ ركعاتٍ بعد ركعتي المغرب، كما في الأشباه أو معها وهو الظاهر من ظاهر الحديث، وهو قوله ﷺ:

«**من صلى بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوءٍ عَدْلن بعبادةِ اثنتي عشرةَ سنةً، ويقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل يأيها الكافرون مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات**»(1)، وبهذه الصلاة يحصل ما بين العشائين مِن إحياء الوقت والذكر واستعمالهم يحصل إحياء القلب واستغاثته.

فإنَّ النورَ في الاستعمال، والظلمة في الإهمال، فإن قدر على أن يؤخر عَشَاءَه أي طعامه وقت العِشاء إلى أن يفرغ العوام الغافلون من أكلتهم، فيفعل - أي: الاشتغال بالذكر والتوحيد إلى الحضرة العليا - عند اشتغال الناس الناسين بالمعاش، وشهوات الدنيا.

فذلك من أعظم أسباب الفتح والظفر بالمقصود، وقليل من يفعل هذا فينبغي التقليد إلى أن يحصل التحقيق.

وفي الحديث: «**بعثت لرفع العادات، ودفع الشهوات**»، والعادة تُغاير العبادة ومجاهدتُك وقتئذ مع طبيعتك خيرٌ لك من مَلاذُ الدنيا ألفَ مَرةٍ.

ثم يُوصِي بصلاةِ التهجد وهي اثنا عشرَ ركعةً يقرأ فيها ما أراد، وهذه الصلاة من المناجاة الغالبةِ ويصلّيها في الثلث الأخير من الليل، بل في السُّدس الأخير منه، وذلك بعد أن ينام من الليل لا قبله، إذ لا مجاهدة فيه بل المجاهدة في أن يقوم من فراشه الذي استغرقته راحةُ النوم، ففي القيام رفعٌ لظلمة المنام وتنويرُ القلب بالاشتغال بالصلاة، وذكر الله الملك العلام مع أن فيه إعطاء حق البدن من الاستراحة المشروعة وتنشيطًا له للعبادة؛ إذ النعاس يمنع الحضور، ولا صلاة إلا بالتيقظ؛ ولذا لو نام قبل صلاة العشاء؛ لينشط لها ويقيمها بعد إزالة الفتور الطارئ على البدن كان مأجورًا خارجًا عن حدِّ الغافلين.

وللتهجد فضائلٌ كثيرةٌ كفى مؤنتَها كتبُ القوم، لا سيَّما الشريعة تكفلت ببيانها وقيل لي وأنا مراقبٌ بعد صلاة الفجر: مَن لم يترك النوم أي: مَن لم يترك الراحة الظاهرة

---

(1) رواه الترمذي (535)، وابن ماجه (1157).

مطلقًا لم يتخلصْ من الغفلةِ عن الله تعالى، فسبب الخلاص من هذه الغفلة، ومدار قطع حبلها، هو ترك الراحة والعمل بسكين مخالفة نبض النفس والطبيعة، وذلك مرٌّ على القلب، كالبرق الخاطف مع كلامٍ مسموع هناك، والله المنبّه عن رقدة الغفلة، ولكُمَّلِ الأولياء نصيبٌ من سرِّ قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:255].

إذ المقصود من أخذ السنة طريان الغفلة، وهما مظاهر لسرِّ قوله ﷺ: **«تنام عيناي ولا ينام قلبي»**[1]، فإذا كان القلب مستيقظًا دائمًا ارتفعت الغفلة المعنوية، فالنوم الذي هو من أحوال البدن غفلة عارضة صورية.

والتميز بين الربِّ والعبد إنما هو بهذه الغفلة الجزئية.

ولذا قالوا: إن الله يحفظ الصور في جميع الحضرات بالأصالة، بخلاف العبد؛ فإنه يحفظ ما أراد من الصور بالتبعية مثلاً إذا غاب عن شيء صورتُه الحسية بالمنام، فإن أراد حفظ تلك الصورة في حضرة المثال أو الخيال يحفظ صورته التي في الحضرة المشاهدة بعد حصولها.

إذ لكلِّ شيء صورة خاصة به في كل حضرة، فإذا شُهِد ذلك الشيء بصورته المخصوصة بالحضرةِ المشهودة، فقد شهدَه في ضمن ذلك بصورته المخصوصة بالحضرة الحسية التي نام عنها، فحفظُ الصورةِ الحسيةِ مخصوص بتبعية حفظ الصورة المتبوعة المثالية أو الخيالية، فأين الحفظ بالتبعية والتضمين من الحفظ بالأصالة؟

ثم إنَّ المراد بالصلاة الأركان المعلومة والأفعال المخصوصة، وذلك في الشريعة والتوجه والحصول والحضور عند الله الغفور، وذلك في الحقيقة، والجامع بينهما هم أهل النورين، نور القمر (الشريعة)، ونور الشمس (الحقيقية)، ومن هنا ظهر أن الشريعة

---

(1) رواه البخاري (1079)، ومسلم (1219).

فائدة: فهو نائمٌ حسًّا ليس نائمًا معنىً كما أن موته كذلك، وهذا مقام ما ناله بشرٌ سواه، مع أنه ببشريته قد وقع له تخلل بهذا المقام دون روحانيته.

وذلك أنه ﷺ من حين ظهر مظهره الشريف إلى أبد الأبدين قلبه ملتفت إلى ربه تعالى، ما تخلل بين ذلك حاجب ولا مانع، وإن تخلل بحسب الظاهر فهو باعتبار حيوانيته لا باعتبار لطيفته الروحانية، فإذا نام بقي قلبه ملتفتًا إلى اسمه الجامع، وكذا إن مات فإنما يموت بالحس لا بالمعنى، وهذا المقام ما ناله أحدٌ سواه.

وقد قال الشيخ في الفتوحات: هذا المقام مقام التقديس الذاتي، وما علمنا أنه ناله أحد وإن نيل، فمحمد ﷺ أحق به، لا أقول ذلك على القطع، قد تقدم شيء من ذلك قبل فارجع إليه.

والحقيقة متقابلان تقابل القمر والشمس، فالتأثير من الحقيقة والتربية.

مثلاً: إنَّ الأعمال البدنية مُمدة لحياة الروح لأنَّها غَذاؤه، وتأثير الروح بالحياة مُمدة للبدن، فقابلُ الشريعة على الكمال قابلٌ للحقيقة على كلِّ حال؛ ولذا كانت الشريعة محبوبة والحقيقة أحب، وأراك فهمت مرادي والله الهادي[1].

---

(1) ولمَّا كانت الشرائع مقدمات علميات وعمليات، وعلمها يفيد معرفة وظائفها، والعمل بوظائفها يزيل الحظوظ النفسانية، ويميت الشهوات البدنية، ويقطع الروابط العادية، ويجرد الإنسانية، ويكشف الحضرة الرحمانية: وهي حضرة الحق، وحضرة الحق: هي الحضرة الجامعة لحقائق الأكوان، وهي بد كل شيء ووجوده، وهي الماهية التي توجد فيها كل ماهية من حيث التقويم والتتميم، قال: فيها نتيجة الشرائع.

وتقول: علم الشريعة: مقدمة العمل بوظائفها، والعمل بوظائفها: مقدمة لرضوان الله يقيم العبد في حضرته، فعلم الشريعة، والعمل بها؛ يقيم العبد في حضرته، فحضرته هي نتيجة الشرائع، وحضرته فيها كل شيء، فهي الحقيقة الجامعة.

ونقول: الشريعة: تحمل لرضوان الله، ورضوانه؛ صفته، والصفة لا تفارق الموصوف، والموصوف: هو الله، فالشريعة تحمل إلى الله؛ فالله هو نتيجة الشرائع بالوجه الذي ذكرنا.

ونقول: الأعمال الشرعية إذا عُمل بها على التمام؛ تفيد التخلق بالأسماء الحسنى، والمتخلق بالأسماء إذا تجوهر بها؛ تكون الأسماء ذاته وروحه، والأسماء صفات الله، وصفاته غير زائدة على ذاته، فالمتخلق بالأسماء ليس بزائد على ذات الله، فالظفر بالحق والاتصال به هو نتيجة الشرائع.

ونقول: أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا ﷺ.

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة؛ يزيل الجهل المذكور، ووظائفها؛ ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه: هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: ألا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف =

قال مرجع طريقتِنا الجلوتية - بالجيم - حضرة الشيخ محمود الشهير بهدائي الإسكداري - قدس سره: رعايةُ الظاهرِ سببٌ للصحةِ مطلقًا، وأرى أنْ فَوتَ مَن فاتَ إنما هو من تركِ الصلاة انتهى.

أقول: هذا على سبيل الفرض والتقدير، فمرادُه أنه لو فُرض للمرء ما يكون سببًا لبقائه في الدنيا؛ لكان ذلك إقامةُ الصلاةِ، فكأنْ وفاته إنما كانت مِن تركها، كما أن الصدقةَ والصلةَ تزيدان في الأعمار يعني: لو فرض ما يزيد العمر، لكان ذلك هو الصدقة وصلة الرحم، ففيه بيان لفضيلة رعاية الأحكام الظاهرة خصوصًا الصلاة والصدقة والصلة من بينها، وجرينا في هذا على مسلك أهل الظاهر.

ولكنَّ التحقيقَ الذي عليه أهل التوفيق: هو أنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مسمًّى عند الله تعالى حيوانًا أو جمادًا عُلِّق ذلك بانقطاع الذكر عنه؛ لأنَّه ما مِن شيء إلا ويسبح بحمده، فالحيوان لا يموت ولا يقتل ولا يذبح إلا عند انقطاعه عن الذكر، والشجر مثلاً لا يقطع إلا عند انقطاعه عن الذكر، وإلى هذا المعنى أشار قوله ﷺ: **«إن لكل شيء أجلاً، فلا تضربوا إمائكم على كسر إنائكم»**[1].

وهو من أحاديث المقاصد الحسنة، فمعنى ترك الصلاة ترك الذكر، وترك التوجه إلى الله تعالى، فإذا غفلت النفس عن التوجه، ونامت عن الإقبال، والشهود الذي هو غذاءٌ للروح الممد لهذا الوجود؛ فقد تعرضت لتكسر الآلات وفاتت من أجل تفويت الصلاة.

وأمَّا ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] فما ماتوا في الحقيقة ولا يموتون، بل ينقلون من دار إلى دار من دار النار، إلى دار الأنوار ومن دار الآثار إلى دار الأسرار، ومن دار الأشباح إلى دار الأرواح، ومن دار التقلبات إلى دار التنعمات، ومن دار البلايا إلى دار العطايا، ومن دار المكر والغم إلى دار السرور والكرم، ومن دار التحصيل إلى دار الجزيل، ومن دار الفراق إلى دار التلاق، ومن دار المرض والكهولة إلى دار الصحة والسهولة.

= الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق قد تخلص، فافهمه.

(1) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (34/5)، وذكره السخاوي في المقاصد (ص 241).

أين الله؟ لا أين له ولا بين.

فارفع عن العين الغشاوة والغين، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:4] وهو أينيةٌ شاملةٌ لجميع الحضرات، ومعيةٌ دائمةٌ في كل المواطن والمقامات؛ فإنْ تحققت بدوام الصلاة والحضور تخلصت عن الظلمة ووصلت إلى النور، والله تعالى نور سموات القلوب والأرواح وأرض النفوس والأشباح، وفيضه الأقدس مفتاحٌ لجميع الأرواح والأشباح، وهو الفتَّاح.

ثم يُوصِي بما وصَّى به المشايخ في كتب الطريقة من صوم الإثنين والخميس وصوم الأيام العشرة من ذي الحجة والمحرم وصوم رجب وشعبان وستٌّ من شوَّال ومن الاحتماء والاجتناب عن كل الشبهات فضلاً عن الحرام، وعن صحبة أهل الإنكار، وعن تعريف حاله ورؤياه إلى الأجانب ونحوها، إن كان يريد التلقين الخاص، وإلا فيكتفي بما يتحمله ويفي مؤنته، ويخرج عن عهدته.

ويكفي لك أيُّها الشيخ في هذا الزمان أنْ يتوبَ أحدٌ على يديك توبةً صحيحةً صادقَة فأين الصوفيُّ عن الحقيقة؟ فإنه قلَّ الآخذون بكلام الشريعة فضلاً عن المتأدبين بآداب الطريقة.

فإن قلت: أليس يكفي ميثاق عالم الأرواح؟ فما معنى تجديد العهد بالنسبة إلى الغافل كأخذ الميثاق ابتداء.

وإن قلت: ما تقدّم قد جُعل نسيًا منسيًا ولا يتذكره إلا العارفون الكاشفون.

ثم أخذُ النفس وقبوله كأخذ الرحم النطفة وتربيتها؛ فإن كان الأخذ أي: رحم استعداده قابلاً لتربية النفس، حصل له الولادةُ الثانية، كما أشار إليه عيسى عليه السلام بقوله: لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين، وإلا بقي مع الولادة الأولى، وحُرم عن المولود الثاني الذي هو طفل خليفة الله في أرض الوجود، وهو الذي يسجد له ما في السموات والأرض، ومادام لم يحصل له هذه المرتبة، فهو ناقص في إنسانيته وآدميته سيرة، وإن كان كاملاً فيها صورةً.

فليحترزِ المريد عن نقض العهد والبيعة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: 13] وقد قالوا: مرتدُّ الطريقة أعظم ذنبًا من مرتد الشريعة؛ فإنه ليس مَن يعلَم كمَنْ لا يعلَم، ومَن عرف طريقًا إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله بعذاب لم يعذِّب به أحدًا من العالمين.

قال سيد الطائفة الجنيد – قدس سره[1]:

---

(1) هو سيد الطائفتين المزين بفنون العلم، المتوشح بجلابيب التقوى والحلم، المنور بخالص الإيقان، المؤيد، العالم بمودع الكتاب، العامل بمحكم الخطاب، الموفق فيه للبيان والصواب.

كان كلامه بالنص مربوطًا، وبيانه بالأدلة مبسوطًا.

وهو نهاوندي الأصل، بغدادي المنشأ، القوارين الزجاج نسبة لحرفة أبيه، سيد الطائفة، ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريق التصوف، بهلوان العارفين، مرجع أهل السلوك في زمنه فمن بعده.

رزق من القبول وصواب القول ما لم يقع لغيره، بحيث كان إذا مر بشارع بغداد وقف الناس له صفوفًا كالملوك. ولم ير في عصره من اجتمع له علم ومال غيره.

وكنت إذا رأيت علمه رجحته على ماله وعكسه، وناهيك بجعلهم من العقائد الدينية والأصول الإسلامية أن نعتقد أن طريقه وصحبه طريق مقوم.

وقال ابن عربي في الفتوحات: هو سيد هذه الطائفة.

وكان من الفقهاء المعتقدين الشافعية، تفقه على أبي ثور وكان يفتي بحضرته وهو ابن عشرين سنة، ولم تزل أعناق الفريقين له خاضعين، وعلى تبجيله مجتمعين في كل عصر وحين.

وقد نقل شيخ الشافعية في الروضة عنه: قبيل الصيام، فإن أخذ المحتاج من صدقة التطوع أفضل من أخذه من الزكاة.

أخذ التصوف عن خاله السري وحارث المحاسبي الذي قال: نعم، خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه للكلام ورده على المتكلمين، ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفيًا لا جعلك صوفيًا صاحب حديث.

قال الغزالي: أشار إلى أن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ممن تصوف قبل العلم وانتهى.

وكان يقول: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

قال ابن عربي: يقصد أنه نتيجة عن العمل عليهما، وهما الشاهدان العدلان.

وصحب الجنيد من هذه الطائفة أربع طبقات، كل طبقة ثلاثين رجلاً، وانتهت إليه الرئاسة.

وكان صائم الدهر لا يفطر إلا إذا دخل عليه إخونه فيأكل معهم وهو ساكت ويقول: ليست المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم.

وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، ووِرده كل يوم ثلثمائة ركعة.

وكانت الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والمتكلمون لتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه.

ودخل عليه إبليس في صورة نقيب وقال: أريد أن أخدمك بلا أجرة فقال له: افعل، فأقام يخدمه عشر سنين فلم يجد قلبه غافلاً عن ربِّه لحظة واحدة، فطلب الانصراف، وقال له: أنا إبليس، فقال: عرفتك من أول ما دخلت، وإنما استخدمتك عقوبة لك، فإنه لا ثواب لأعمالك في

الآخرة، فقال: ما رأيت قوتك يا جنيد، فقال له: اذهب يا ملعون، أتريد أن تدخل علي الإعجاب بنفسي؟ فخرج خاسئًا.

وكان إذا طلب أحد من الطريق يقول: اذهب فاخدم الملوك ثم تعال، فإن بداية طريقنا نهاية مقام بعض الملوك.

ومن فوائده وحكمه: لو أقبل على الله ألف سنة ثم أعرض لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله.

وقال: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه.

وقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، بل عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف.

وسئل ما الفرق بين المريد والمراد؟ فقال: المريد تولته سياسة العلم، والمراد تولته رعاية الحق، فإن المريد يسير والمراد يطير، وأين السائر من الطائر؟!.

وقال: الإخلاص سر بين العبد وبين الله، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيهلكه.

وقال: الصادق ينقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وقال: الاستئناس بالناس حجاب عن الله، والطمع فيهم فقر الدارين.

وقال: لا يسمى عبدٌ عاقلاً حتى لا يظهر على جوارحه شيء ذمه ربه.

وقال: بني الطريق على أربع: لا تتكلم إلا عن وجود، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تنم إلا عن غلبة، ولا تسكت إلا عن خشية.

وقال: صفاء القلوب على صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب.

وقال: كلام الأنبياء عن حضور، والصديقين عن المشاهد.

وقال: من زعم أنه يعرف الله وهو كاذب ابتلاه بالمحن وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن تنبه وانقطع إليه وحده كشف عن المحن، وإن داوم السكون إلى الخلق نـزعت من قلوبهم الرحمة عليه، وألبس لباس الطمع فيهم، فتصير حياته عجزًا وموته كمدًا وآخرته أسفًا، نعوذ بالله من الركون لغيره.

وسئل عن العارف فقال: لون الماء لون إنائه. أي هو بحكم وقته.

وقال: مكابدة العزلة أشد من مداواة الخلطة.

وقال: التصديق بعملنا هذا ولاية، وإذا فاتتك المنة في نفسك فلا تفتك أن تصدق بها في غيرك، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:265].

وقال: يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة!

وقال: كنت بين يدي السّري ألعب وأنا ابن سبع، والجماعة يتكلمون في الشكر، قال رجل: يا غلام، ما الشكر؟ قلت: ألاّ يعصي الله بنعمة، فقال: ما أحسن هذا! أخشى أن يكون حظك من الله لسانك.. فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

وسئل ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون ولا يتحركون بخلاف ما إذا سمعوا

=

الرباعيات؟ فقال: لأن القرآن كله أحكام ومواعظ كلفوا بالعمل بها، ومن كلف بشيء لا يطرب به، وليست كذلك الرباعيات؛ فإنها كلام جنسها ومما عملته أيديهم بخلاف القرآن، فإنه حق صدر عن حق، فلا مجانسة بينها بينه.

وقال: ما أخرج الله علمًا إلى الأرض وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وجعل لي فيه حظًا ونصيبًا.

وقال: القرآن الكريم كلام الله، وهو صعب الإدراك، والرباعيات كلام المحبين المخلوقين.

وقال لأبي بكر الشبلي: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد ثانيًا؛ فإنه لا يجيء منك شيء في الطريق.

وقال: لو رأيتم الرجل قد تربع في الهواء ومشى على الماء فلا تلتفتوا إليه حتى تنظروه عند الأمر والنهي، فإن كان عاملاً بالأمر مجتنبًا لما نهى عنه فاعتقدوه.

وقال: من ادّعى أن له حالاً مع الله أسقط عنه التكليف وهو حاضر العقل فهو كاذب، ومن يسرق ويزني أحسن حالاً ممن يقول ذلك.

وقال: ما بلغ أحد درجة الحقيقة إلا وجب عليه التقيد بحقوق العبودية وحقيقتها، وصار مطالبًا بآداب كثيرة لم يطالب الله بها غيره.

وقال: الروح شيء استأثر الله بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود.

وقال: أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب جل جلاله من القلب، والقلب إذا عري من الهيبة عري من الإيمان.

وقال: ما دام الشاكر يطلب من الله المزيد بشكره فهو غريق في حظ نفسه، إنما الشكر أن يرى العبد أنه ليس بأهل أن تناله الرحمة لشهوده كثرة معاصيه.

وقال: إذا صدق المريد أغناه الله عن حفظ النقول بنور يجعله في قلبه، يفرق به بين الحق والباطل.

وقال: الطريق مسدود إلا على المتبعين آثار المصطفى ﷺ

وقال: طريق التصوف عنوة لا صلح فيها.

وقال: التوحيد الذي انفرد به الصوفية انفراد القدم من الحدث، والخروج عن كل محبوب يقطعهم عن الله، وترك الاعتماد على كل ما علم وجهل، وأن يكون الحق مكان الكل لا يعول إلا عليه.

وقال: قد طوي علم التوحيد منذ زمان، وإنما الناس يتكلمون في حواشيه.

وقال: سبب اضطراب القلب والجوارح عند السماع أنه تعالى لما خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] استفرغت عذوبة سماع كلامه الأرواح، فإذا سمعوا نغمًا طيبًا حركهم لذكرة وقال: تنـزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع والطعام ومجاراة العلم.

وقيل له: ممن استفدت هذا العلم الذي لم يسمع من مشايخك؟ قال: من قعودي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة.

وقال: لا يصفو قلب الآخرة إلا إن تجرد عن حب الدنيا.

=

=

وقال: حقيقة المشاهدة وجود الحق مع فقدانك.

وقال: المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلب من الدنس، وخلوصة من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق من صفاء المعرفة وبرد اليقين.

وقال: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك.

وقال: لولا أنه روي أنه: «**يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم**» ما تكلمت عليكم.

وقال: إن بدت ذرة من عين الكرم والجود ألحقت المسيء بالمحسن، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم فقال: ابن عطاء متى تبدو؟ فقال: هي بادية، قال تعالى: « **رحمتي سبقت غضبي**».

وقال: لو كان العلم الذي أتكلم به من عندي لفني، لكنه من حق بدأ، وإلى الحق يعود.

وقال: من الأعمال مالا يطلع عليه الحفظة وهو ذكر الله بالقلب، وما طويت عليه الضمائر من الهيبة والتعظيم لله واعتقاد الخوف وإجلال أوامره ونواهيه.

وقال: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وقال: التواضع خفض الجناح ولين الجانب.

وقال: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله في ميدان فكر التوحيد.

وقال: احفظوا ساعاتكم، فإنها زائلة غير راجعة، والحسرة على الغفلة من فوتها واقعة، وصلوا أورادكم تجدوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا؛ فإن قليلها يشغل عن كثير الآخرة.

وقال: حكايات الصالحين جند من جنود الله، تقوم بها أحوال المريدين، وتحيا بها معالم أسرار العارفين، وحجة ذلك من الكتاب ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [هود:120]

وقال: من فارق الجماعة بجسمه وقع في الضلال، ومن خالط الناس بسره أفتتن بهم، ومن افتتن حجب عن الحق بالطمع في الخلق.

وقال: أول مقام التوحيد قول المصطفى ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

وقال: مؤاكلة الإخوان رضاع، فانظروا من تواكلون.

وقال: لا يصلح السؤال إلا لمن العطاء عنده أحب إليه من الأخذ.

وقال: الشفقة على الناس أن تعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا تحملهم مالا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

وقال: قد ينقل العبد من حال إلى حال أرفع منها، وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقية، فيشرف عليها من الحالة الثانية فيصححها.

وكان إذا سأل سائل عن مسألة يجيبه، ثم يسأله آخر عنها فيجيبه بجواب آخر ويقول: على قدر السائل يكون الجواب.

وقال: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة.

=

وقال: إذا أراد الله عبدًا للمحبة كشف له عن قدم إنعامه عليه، وبره، وكثرة الأيادي القديمة عنده.

وقال: تنتهى عبادة أهل المعرفة إلى الظفر بنفوسهم.

وقال: على العاقل ألا يفقد نفسه من ثلاثة مواطن: موطن يعرف فيه حاله أفي زيادة أم نقص، وموطن يستحضر فيه عقله لرؤية مجاري التدبير عليه وكيف تغلب عليه الأحكام، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها ما لزمها.

وقال: إن الله كشف لعباده معايبهم في ذكر الطين لهم، وعرفهم مقاديرهم بذكر النطفة، وأشهدهم على عجزهم في تقلبهم ليعرفوا فاقتهم إليه في كل حال.

وقال لابن شريح: طريقنا أقرب إلى الحق من طريقكم، فطالبه بالبرهان، فقال الجنيد لرجل: ارم حجرًا في حلقة الفقراء، ففعل فصاحوا كلهم: الله، ثم قال: ألقه في حلقة الفقهاء فألقاه، فقالوا: حرام عليك، أزعجتنا.. فقبل رأسه واعتذر، وقال: لا يرتقى في الدرجات من لم يحكم بينه وبين الله أول البداية- وهي الفروض الواجبة، ثم الأوراد الزاكية، ومطايا الفضل، وعزائم الأمر- فمن أحكمها منَّ الله عليه بما بعدها.

وقال: التصوف تجنب كل خلق دني، واستعمال كل خلق سني، وأن تعمل لله من غير رؤية العمل.

وقال: من سكن أو شكا إلى غير الله ابتلاه الله بحجب سره عنه.

وقال: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفة.

وقال: من عرف الله أطاعه، ومن عرف نفسه ساء بها ظنه وخاف على حسناته ألاّ تقبل.

وزاره الحريري فوجده يصلي فأطال، فلامه فقال: طريق عرفنا بها ربنا لا نقتصر على بعضها، فالنفس ما حملتها، والصلاة صلة، والسجود قربه، ومن ترك طريق القرب أوشك أن يسلك طريق البعد.

وقال: لا تيأس من نفسك ما دمت تخاف من ذنبك وتندم عليه.

وقال: الورع في الكلام أشد منه في الكسب.

وقال: العلم يوجب لك استعماله، فإن لم تستعمله في مراتبه كان عليك لا لك.

وقال: المرء لا يعاب بما في طبعه.

وسئل: العناية قبل أم البداية؟ فقال: العناية قبل الطين والماء.

وقال: أعلى درجة الكبر وأشدها أن ترى نفسك، وأدناه في الشر أن تخطر نفسك ببالك.

وقال: إن الله يعطي القلوب من برّه بحسب ما أخلصت له في ذكره.

وقال: رأيت في النوم كأني أتكلم على الناس، فجاء ملك فقال: ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إلى الله؟ قلت: عمل خفي بميزان وفي، فولى وهو يقول: كلام موفق.

وقال: لقد مشى رجال باليقين على الماء، ومات بالعطش أفضل منهم يقينا.

=

وقال: لا تقوم بما عليك حتى تترك جميع مالك، وليس شيء أعزّ من الدنيا.
وقال: اليقين استقرار العلم الذي لا يحوّل ولا يتغير في القلب.
وقال: إذا صدقت الله فاصدقه في سرك، فإنه تعالى جعل لإبليس على كل شيء طريقًا إلا صدق الأسرار.
وقال: ما رأيت من عظّم الدنيا فقرّت عينه بها، وما حقّرها أحد إلا أتته وهي راغمة.
وقال: التواضع عند أهل التوحيد تكبر.. وقال الغزالي: ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه أولاً ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها ويرفعها.
وقال: أتيت مسجد الشونيزية فوجدت جمعًا من الفقراء يتكلمون في الآيات، فقال فقير: أعرف رجلاً لو قال لهذه الإسطوانة كوني ذهبًا كانت كذلك فصارت.
وقال: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت، وسبب لطهارة القلوب.
وقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.
وقال: اليقين ألاّ تهتم لرزقك الذي كفيته، وتقبل على عملك الذي كلفته، فإن اليقين يسوق إليك الرزق سوقًا حثيثًا.
وقال: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجر الخلق في جنب الحق شديد، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد.
وقال: الصبر تجرع المرارة من غير عبوس، والرضا رفع الاختيار.
وقال: الفتوة كف الأذى وبذل الندى.
وقال: الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب.
وسأله جمع: أنطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم أي محل هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله فيه؟ قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه،قالوا: فندخل البيت ونتوكل؟ قال: التجربة شك، قالوا فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.
وقال: اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب.
ولما جلس يتكلم على الناس بأمر المصطفى ﷺ كان أول مجلسه أن وقف عليه غلام نصراني متنكرًا فقال ما معنى قول النبي: «**اتقوا فراسة المؤمن**» قال: معناه أنك تسلم، فقد حان وقت إسلامك فأسلم.
وكان يقول في مجلسه: لولا أنه ﷺ قال: «**يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم**» ما تكلمت عليكم.
وسئل عن التوحيد فأجاب بكلام لم يفهم فقيل له: أعد الجواب فإنا ما فهمنا فقال جوابًا آخر، فقيل له: هذا أغمض، فأمله علينا حتى ننظر فيه ونعلمه، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، وقال ابن عربي: أشار إلى أنه لا تعمد له فيه، وإنما هو بحسب ما يلقي الله مما يقتضيه وقته، ويختلف

«لو أقبل صدِّيق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة؛ فإن ما فاته أكثر مما ناله».
فالبيعةُ لازمةٌ إلى أن يلقى الله تعالى، فمن نكث الاتباع أخذ بعذاب الدنيا والآخرة،

=

الإلقاء باختلاف الأوقات، والقوم إنما يوردون ما يعطيه الكشف ويمليه الحق.
وقيل له: أبو يزيد يقول «سبحاني، أنا ربي الأعلى» فقال: الرجل استهلك فنطق ما هلك به؛ لذهوله في الحق عن رؤيته إياه فلم يشهد في الحق إلا الحق.
وقال: صحبت قومًا بالبصرة فأكرموني، فقلت يومًا أين إزاري فسقطت من أعينهم، ودخل عليه الشبلي متواجدًا فقال: إن كنت ترى نفسك في حضرة الله فهذا سوء أدب، وإن كنت خارجها فماذا حصّلت حتى تتواجد؟ فقال: التوبة يا إمام.
وقال: أرقت ليلة فقمت لوردي، فلم أجد ما أجد من الحلاوة، فأردت النوم فلم أقدر، فأردت القعود فلم أطق، ثم ارتج البيت للسقوط فخرجت، فإذا برجل ملتف ببرد مطروح بالطريق فرفع رأسه وقال: إلى الساعة يا أبا القاسم؟ قلت: بغير موعد يا سيدي؟ قال: بلى، سألت محرك القلوب أن يحرك قلبك للخروج متى يصير داء النفس دواءها؟ قلت: إذا خالفت هواها، قال: اسمعي، اسمعي يا نفس، قد أجبتك بهذا سبعًا فأبيت ألاّ تسمعيه إلا من الجنيد.. ثم انصرف فلم أعرفه.
وقال: لا أتشبع ما يرد علي من العالم فإني أصلت أصلاً وهو أن الدار دار غم وبلاء وفتنه، والعالم كله شر، فحكمه أن يلقاني بكل ما أكره، فإن تلقاني بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل الأول.
وجاءه رجل في وقت كدره فقال: ادع لي، فقال جمع الله همك ولا شتت سرك، وقطعك عن كل قاطع يقطعك عنه، ووصل بك إلى كل واصل يوصلك إليه، وجعل غناك في قلبك وشغلك به عمن سواه، ورزقك أدبًا يصلح لمجالسته، وأخرج من قلبك ما لا يرضى به، وأسكن في قلبك رضاه، وذلك عليه من أقرب الطرق إليه.
وقيل له عند النــزع: قل (لا إله إلا الله) فقال: ما نسيته فأذكره.
مات ببغداد سنة سبع أو ثمان وتسعين ومائتين، وأحرز من صلى عليه فكانوا نحو ستين ألفًا، ورؤي في النوم فقيل: ما فعل بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، وبليت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في السحر.
وقال الإمام الرازي: فكل أحد يظن أن ما معه من العلوم والأعمال وسيلة إلى وجدان ملك الجنة والوصول إلى عتبة حضرة الحق تعالى، فإذا جاء وقت الموت بطلت تلك الأوهام وزالت تلك الأفكار وبقي المسكين على تراب الحرمان، وموضع الذلة والعجز انتهى.
ووقع له -أعني الجنيد- أنه قال: الأرض محتاجة للمطر، فلما مات قيل له ما فُعل بك؟ قال: خيرًا، لكنه عاتبني على كلمة قلتها فذكرها وقال: أتنبئني بأرض وتقول محتاجة للمطر وأنا العليم الخبير ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (240)، وروضة الحبور لابن الأطعاني، وكتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

أما عذاب الآخرة في جهنم البعد والقطيعة خالدًا فيها لا يكلمه الله تعالى كلام الأحباب ولا ينظر إليه بعين التجلي ورفع الحجاب وله عذاب أليم يصل ألمه الفؤاد.

وأمّا في الدنيا فقد قال أبو يزيد البسطامي - قدس سره -[1] في حق تلميذ لما

---

(1) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي، أشهر من أن يُذكر، وأعرف من أن يُعرف.
كان نادرة زمانه حالاً وأنفاسًا وورعًا وعلمًا وزهدًا واتقاءً وإيناس، وناهيك بقول الخواني (هو سلطان العارفين)

وكان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر وهو القائل:

أُرِيــــدُكَ لاَ أُرِيــــدُكَ لِلــــثَّوَابِ وَلَكِنّــــي أُرِيــــدُكَ لِلْعِقَــــابِ
وَكُــــلُّ مَآرِبِــــي قَــــدْ نِلْــــتُ مِــــنْهَا وَسِــــوَى مَلْــــذُوذِ وَجْــــدِي بِالْعَذَابِ

فانظر إلى هذا النفس ما أسماه! وإلى هذا المقام ما أسناه!

أوحشه السراج ليلة فقال لأصحابه: إني أجد وحشة في السراج، قالوا: يا سيدنا استعرنا قارورة من البقال لنسوق فيها الدهر مرة واحدة فسقناه فيها مرتين، فقال: اعرفوا البقال وارضوه، ففعلوا فزالت عنه الوحشة.

قال ابن عربي: وكان حاله التجريد وعدم الادخار. قال يومًا: فقدت قلبي فاطلبوا البيت، فوجدوا فيه معلاق عنب فقال: رجع بيتنا بيت البقالين.. فتصدقوا به، فوجد قلبه.

وذكر - أعنى ابن عربي- أنه كان القطب الغوث في زمانه حيث قال: «من الأقطاب من يكون ظاهرًا لحكم ويحوز الخلافة الباطنة من جهة المقام: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عبد العزيز، ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة ولا حكم له في الظاهرة كأبي يزيد» انتهى.

وقال في موضع آخر: «أبو يزيد كان على قلب إسرافيل، له الأمر ونقيضه، جامع للطرفين، وهذا المنصب لا يكون في الزمان إلا لواحد فقط» انتهى.

قال الذهبي: نقلوا عنه أشياء كبيرة الشأن في صحتها منها:

-«سبحاني».

-«ما في الجنة إلا الله»

-«ما النار لأستند إليها، وأقول اجعلني لأهلها فداءً وإلا بلغتها»

-«ما الجنة إلا لعبة الصبيان».

-«هب لي هؤلاء اليهود، ما هؤلاء حتى تعذبهم»

ومن الناس من يصحح هذا عنه ويقول: قاله حال سكره انتهى.

قال ابن حجر -بعد حكايته ذلك عنه- قلت: أبو يزيد يسلم له حاله والله متولي السرائر انتهى.

ولما تكلم في علوم الحقائق لم يفهم أهل عصره كلامه، فرموه بالعظائم ونفوه من بلدهم سبع مرات، وهم في كل مرة يختل أمرهم وينـــزل لهم البلاء حتى أذعنوا له وأجمعوا على تعظيمه، وكان إذا ذكر الله يبول الدم، وصلى الجمعة فسمع الخطيب يقرأ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى =

الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ [مريم:85]، ففرح فطار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر، وقال: يا عجبًا! كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ فإن الله يقول: «أنا جليس من ذكرني» والمتقي ذاكر الله ذكرًا حذرًا، فلما حشر إلى الرحمن وهو مقام الأمان مما كان من الحذر فرح بذلك.

قال ابن عربي: فكان دمع أبي يزيد دمع فرح -لا دمع ترح- كيف حشر منه إليه حتى حشرُ غيره إلى الحجاب.

قال: وكان يحتج على مواجيده بالقرآن وما تقدم له به حفظ، ومن لم يعط ذلك لم يحكم عليه بقبول ولا رد،كأهل الكتاب إذ أخبرونا عن كتابهم بأمور لا نصدق ولا نكذب، هكذا أمرنا رسول الله ﷺ – فنتركه موقوفًا.

قال – أعنى ابن عربي-: قال أحد المحجوبين لأبي يزيد: شربت شربة فلم أظمأ بعدها أبدًا، فقال أبو يزيد: الرجل من يشرب البحار ولسانه خارج على صدره من العطش، فأشار إلى أن الحب شرب بلا ريّ.

قال ابن عربي: جربت المخبرين عن الله إذا ضربوا الأمثال لأمر ما، فإنه لا بد من وقوع ذلك المضروب به المثل.

كان أبو يزيد البسطامي يشير عن نفسه أنه قطب الوقت، فقيل له يومًا عن رجلٍ يقال فيه أنه قطب الوقت فقال: الولاة كثيرون، وأمير المؤمنين واحد، لو أن رجلاً شق العصا وقام ثائرًا في هذا الموضع – وأشار إلى قلعة هناك- وادّعى أنه خليفة قُتل، ولم يتم له ذلك، وبقى أمير المؤمنين.

فما مرت إلا أيام حتى ثار في تلك القلعة ثائر ادّعى الخلافة فقتل وما تم له ذلك، فوقع ما ضرب به أبو يزيد المثل عن نفسه.

وكان إذا رآه الناس يتمسحون بمرفقته تبركًا، فلاموه على ذلك فقال: هم لا يتبركون بي، إنما يتبركون بخلعة ربي التي خلعها علي.

وكان المسيح عليه السلام قتل نملة خطأ، فنفخ فيها فأحياها خوفًا من المطالبة.

وقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا أبا يزيد بأي شيء جئتني؟ قلت: بالزهد في الدنيا، قال: إنما مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة، ففيم زهدت؟! قلت: إلهي، أستغفرك من ذلك، جئت بالتوكل إليك، فقال: عند ذلك قبلناك.

وقال: وقفت مع العابدين فلم أر لي معهم قدمًا، فوقفت مع المجاهدين فلم أر لي معهم قدمًا، فوقفت مع المصلين والصائمين فلم أر لي معهم قدمًا، فقلت: يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال لي: اترك نفسك وتعال.

قال الخواص: فاختُصر له الطريق بألطف كلمة، فإنه إذا ترك حظ نفسه من الدارين قام الحق معه.

ومن فوائده التي لا تكاد تحصى: سر في ميدان التوحيد حتى تصل إلى دار التفريد، وطر في دار التفريد حتى تلحق وادي الديمومية.

وقال: ليس الرجل من يسير مع القافلة، إنما الرجل من ينام إلى الصباح فيصبح أمامها في المنـــزل.

وقال: علامة العارف أن يكون طعامه ما وجد، ومبيته حيث أدرك، وشغله بربه.

وجاء رجل بابه فدقه، فقال: من تطلب؟ قال: ليس في البيت غير الله.

وطرق طارق بابه وقال: هاهنا أبو يزيد؟ فصاح: إن أبا يزيد في طلب أبي يزيد منذ أعوام فما رآه-يشير إلى ذهابه عن الخلق بلا رجوع-

وقال: أمر الله العباد ونهاهم فأطاعوه، فخلع عليهم خلعًا فاشتغلوا عنه بالخلع، وأنا لا أريد من الله إلا الله.

وذكر عنده الزهد فقال: ما أهونه! زهدت في اليوم الأول في الدنيا وما فيها، وفي اليوم الثاني في الآخرة وما فيها، وفي الثالث فيما سوى الله.

وقرئ عليه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:12] فقال: بطشي أشد..

ووجهه -كما قال ابن عربي- إن بطش العبد معرًى عن الرحمة، فليس عنده حال بطشه من الرحمة شيء، وبطش الحق وجه فيه رحمة بالمبطوش به فهو الرحيم له في بطشه.

وسئل من أين تأكل؟ فقال: مولاي يطعم الكلب والخنـــزير، أفترى أنه لا يطعم أبا يزيد؟

وقال: انسلخت من جلدي فرأيت من أنا ؟.. قال: السهروردي أشار إلى النفس الناطقة.

وصلى خلف إمام الجامع فلما سلم الإمام قال: يا أبا يزيد، من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتي، فإنك شككت في رزق المخلوق، ولا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرازق.

وقال: غلطت في بدايتي أني توهمت أربعة: أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما نظرت رأيت ذكره لي ومعرفته بي وحبه لي وطلبه إياي كان أولاً حتى طلبته.

وقال: قلت يومًا: سبحان الله! فناداني الخالق في سري: هل في عيب تنـــزهني عنه؟ قلت: لا يارب، قال: فنفسك نـــزه عن ارتكاب الرذائل، فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنـــزهت عن الرذائل وتحلت بالفضائل، فصرت أقول: سبحاني ما أعظم شأني.. من باب التحديث بالنعمة.

وقال: ليس العالم أن يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً، بل من يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس.. وهذا هو العالم الرباني.

وقال: إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذا الطريق فقل له يدعو لك؛ فإنه مجاب الدعوة.

وقال: قال لي الحق اخرج إلى خلقي بصفتي فمن رآك رآني..

قال ابن عربي: هو ظهور صفات الربوبية عليه، ألا ترى خلفاء الحق في العباد لهم الأمر والنهي والحكم والتحكم؟.. وهذه صفة الإله.

وقال: حظوظ كرامات الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم من اسم منها: الأول، الآخر، الظاهر، والباطن.

فمن كان حظه من اسمه «الظاهر»: لاحظ عجائب قدرته.

أو «الباطن»: لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره.

أو «الأول»: كان شغله بما سبق.

أو «الآخر»: كان مرتبطًا بما يستقبله.

وقال: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وقال ابن عربي: علماء الرسوم يأخذون خلفًا عن سلف إلى يوم القيامة، فبعد النسب، والأولياء يأخذون عن الله، ألقاه في صدورهم من لدنه رحمةً منه وعناية سبقت لهم عند ربهم انتهى.

وقال: كنت في حالة توهمت أني وصلت إلى غاية الوصال ففاجأني شيخ وقال: يا أبا يزيد، نهايتك بداية القوم.

وقيل له: هل بلغت جبل قاف؟ قال: جبل قاف ليس بغريب، بل الشأن جبل كاف وجبل صاد وجبل عين. هذه جبال محيطة بالأرض حول كل أرض جبل بمنـــزلة حائطها.

وقال: رأيت الحور في النوم، فنظرت إليهن وقد سلب وقتي، ثم رأيتهن فأعرضت عنهن فأنعم علي بوقتي.

وقال: الأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات، كالمشي على الماء والهواء وطي الأرض وركوب السماء، فإن أدعيه الكفار تجاب، والأرض تطوى للشياطين والدجال، والهواء مسخر للطير، والماء للحوت، فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن المكر.

وقال: ما وجدت المعرفة إلا ببطن جائع وبدن عار.

وقيل له: حدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال: دعوتها إلى الله فتكلت علي، فعزمت عليها ألاّ أشرب الماء ولا أذوق النوم سنة فأذعنت.

وقال: إنما نالوا ما نالوا بتضييع مالهم وشهود ماله تعالى.

وقال: حركات الظواهر توجب بركات السرائر.

وقال: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد، بل من حبك لي وأنت ملك قدير!

وقال: لله عباد لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار من النار.

وقال: لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أغسل فمي ولساني إجلالا لله. وقال له رجل: بلغني أنك تمر في الهواء فقال: أي عجب؟ فطائرٌ يأكل الميتة يمر في الهواء، المؤمن أشرف من الطائر.

وقال: طلقت الدنيا ثلاثًا وصرت إلى ربي وحدي فناديته: إلهي، أدعوك دعاءبن لم يبق له غيرك، فعلم صدقي فأنساني نفسي بالكلية ونصب الخلق بين يدي مع إعراضي عنهم.

وقال: في الطاعات من الآفات ما لا يحتاج أن تطلبوا المعاصي.

وقال: ما دام العبد يظن في المسلمين من هو شر منه فهو متكبر.

وسئل متى يكون الرجل متواضعًا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه.

وقال: للخلق أحوال، ولا حال للعارف؛ لكونه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره.

وقال: أشد المحجوبين عن الله ثلاثة: الزاهد بزهده، والعابد بعبادته، والعالم بعلمه، مسكين الزاهد لو علم أن الدنيا كلها سماها الله قليلاً ما زهد فيها، مسكين العالم لو علم أن جميع ما أوتيه من العلم بعض سطر واحد من اللوح المحفوظ ما نظر لعلمه، وقال: طوبى لمن كان همه واحدًا ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه.

وقال: أكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه.

وقال: أقرب الناس من الله أكثرهم شفقة على خلقه.

وقال: لا يحمل عطاياه إلا مطاياه المذللة المروضة.

وقال: العارف من لا يفتر عن ذكره ولا يمل من حقه، ولا يأنس بغيره.

وقال له رجل: علمني الاسم الأعظم، قال: ليس له حد محدود، وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيته، فإذا كنت كذلك فارجع إلى أي اسم شئت تسير به من المشرق إلى المغرب.

وقال: الجوع سحاب فإذا جاع عبد أمطر القلب الحكمة.

وقال: إذا صفت لي تهليلة ما باليت بعدها بشيء.

وقال: إذا وقفت بين يدي ربك فاجعل كأنك مجوسي يريد قطع الزنار بين يديه. وقال: دعوت الناس إلى الله أربعين سنة فما أجابوني، فلما تركتهم ورجعت إليه وجدتهم قد سبقوني.

قال ابن عربي: فقيل له في هذا المقام: أيعصي العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وقال-أعني ابن العربي-: وهذا غاية في الأدب حيث لم يقل نعم أو لا ، وهذا كمال حاله وعلمه وأدبه ﷺ .

وكان يقول: الطريق تقتضي ألاّ ينسى الشيخ أهل زمانه، فكيف مريده المختص به؟! فإنه من فتوة أهل الطريق.

ومعرفته بالنفوس أنه إذا كان يوم القيامة وظهر ما لهم من الجاه عند الله خاف ممن أذاهم في الدنيا، فأول ما يشفعون فيمن أذاهم.

قال ابن عربي: هذا نصه، وهو مذهبنا فإن الذين أحسنوا اليهم يكفيهم عين إحسانهم، فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدموه في حق ذلك الولي.

وقال: الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه لعله يقول لي: يا عبدي. فأقول: لبيك، ثم بعد ذلك يفعل بي ما شاء.

وقال له رجل: دلني على علم أتقرب به إلى الله، قال: أحبب أولياءه ليحبوك، فإنه يَنظر في قلوبهم، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.

وقال: لو أذن لي في الشفعة لشفعت أولاً فيمن آذاني وجفاني، ثم فيمن يراني وأكرمني.

وقيل له: شهادة أنّ (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة؟ فقال: صحيح، لكن لا يفتح المفتاح إلا مغلقًا، ومغلاق (لا إله إلا الله) أربعة أشياء:

=

- لسان بغير كذب ولا غيبة.
- وقلب بغير مكر ولا خيانة.
- وبطن بغير حرام ولا شبهة.
- وعمل بغير هوى ولا بدعة.

وسمع رجلاً يكبر فقال: ما معنى الله أكبر؟ فقال: أكبر من كل ما سواه. قال: ليس معه شيء فيكون أكبر منه، قال: فما معناه؟ قال: معناه: أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أوتدركه الحواس.

وقال: لم أزل أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى ساقتني إليه وهي تضحك.

وقال: خصصت رجالاً فأكرمتهم فأطاعوك، فلم يبلغوا ذلك إلا بك، فكان رحمتك إياهم قبل طاعتهم جل جلالك ما أعظم شأنك.

وقال: لا يشكو قلب العارف وإن قرض بالمقارض، ولا ييأس منه ولا يأمن مكره إن نودي بالغفران.

وقال: هلاك الخلق في شيئين: ترك الحرمة، ونسيان المنة.

وصلى ليلة فأضاء البيت كأنه نهار فقال: إن كنت شيطانًا فأنا أمنع جانبًا من أن يُطمع في، وإن كان من عند الله فأسأله أن يؤخره من دار الخدمة إلى دار الكرامة. وقال: حسب المؤمن أن يعلم أن الله غنيٌّ عن عمله.

وقال:

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ ... وَالبُعْدُ عَنْهُمْ سَفِينَة
وَقَدْ نَصَحْتُكَ فَاخْتَرْ ... لِنَفْسِكَ الْمَسْكِينَة

وقال: ضحكت زمانًا وبكيت زمانًا، وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي.

وقيل: أأصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة، وأنا لا صفة لي.

وقال: عرفت الله بنور صنعه وعرفت صنعه بنوره.

وقال: الدنيا للعامة والآخرة للخاصة، فمن أراد أن يكون من الخاصة فلا يشارك العامة في دنياهم.

وقال: إنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة، فمن نظر فيها للآخرة نجا، ومن شغل بها عن الآخرة أظلمت مرآته وهلك.

وقال: لا عقوبة أشد من الغفلة؛ لأن الغفلة عن الله طرفة عين أشد من النار.

وقال: لا يكون العبد عاملاً على معنى العبودية حتى تكون إرادته وأمنيته وشهوته تابعة لمحبة الله.

وقال: من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم، ومن نظر بعين الحقيقة عذرهم.

وقال: الدنيا لأهلها غرور في غرور، والآخرة لأهلها سرور في سرور، ومحبة الله لأهل محبته نور

=

على نور.

وقال: من اختار الدنيا على الآخرة غلَب جهلُه علمَه، وفضوله ذكره، وعصيانه طاعته.

ودخل الجامع فوقف على فقيه، فسأل عن رجل مات وخلف كذا فأخذ يصحح المسألة ويضرب الأعداد، فصاح به: يا فقيه، ما تقول فيمن مات ولم يخلف إلا الله؟ فبكى القوم وأبكوا، فقال: العبد لا يملك، وإذا مات لا يخلف إلا مولاه كما كان أولاً، فإن آخره يرجع إلى أوله؛ لأن أوله فرد ومعه الشهادة، فإذا كان آخره كأنه لم ير مع الله سواه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:94].

وقال: إن لله عبادًا لو بدت لهم الجنة بزينتها مع حجبهم عنه لضجوا منها.

وقال: أقمت عشرين سنة أكابد المجاهدة وأكافح المراقبة ولا أجسر أن ألبس مرقعة ولا أتظاهر بالطريق.

وقال: متى وجدت قلبك مستريحًا ودمعك جامدًا وعقلك حاضرًا، فأنت بعيد عن المحبة.

وقال: من أراده وفقه، ومن أحبه قربه.

وقال: الفائز في محشر الساعة، من قام بأوامره وتلقاها بالسمع والطاعة.

وقال: معرفة العوام: معرفة العبودية والربوبية والطاعة والمعصية والعدو والنفس، ومعرفة لخواص: معرفة الإجلال والعظمة والإحسان والمنة والتوفيق، ومعرفة خواص الخواص: معرفة الأنس والمناجاة والتَّلطف ثم معرفة القلب ثم السر.

وقال: خلق الله الخلق لإظهارقدرته، ورزقهم لإظهار جوده،وأماتهم لإظهار قهره ويحييهم لإظهار عظمته.

وقال: محال أن تعرفه ثم لا تحبه.

وقال: حاصلهم بعد الغاية رجوعهم إلى شيء واحد وهو طلب العفو.

وقال: التوحيد اليقين، واليقين معرفتك أن حركات الخلق وسكناتهم فعل الله. وسئل ما علامة العارف؟ فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:34].

وقال: أمل الزاهد في الدنيا الكرامات وفي الآخرة المقامات، وأمل العارف في الدنيا بقاء الإيمان معه وفي الآخرة العفو.

وقال: اختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

وقال: لا يعرف نفسه من صحبته شهرته.

وقال: لله عباد لو حجبهم عنه طرفة عين ثم أعطوا الجنان ما قبلوها.

وقال: كانت أمي لما حملت بي إذا قدم لها طعام حلال امتدت يدها له، أوحرام انقبضت، فالعناية من الأزل.

ورأى تفاحًا أحمر فقال: هذا تفاح لطيف، فقيل له: أما استحييت أن تضع اسمي على ثمرة؟! فنسي الاسم الأعظم أربعين يومًا.

وقال: حسبك من التوكل ألاّ ترى لك ناصرًا غيره، ولا لرزقك رازقًا غيره، ولا لعملك شاهدًا غيره.

وقال: الناس تظن أن الطريق أشهر من الشمس وأبين وأنا أسأل الله أن يفتح علي منها ولو قدر رأس إبرة.

وقال: النفس تنظر إلى الدنيا، والروح إلى الآخرة، والمعرفة تنظر إلى الله، فمن غلبت نفسه عليه فهو من الهالكين، ومن غلبت روحه عليه فهو من المجتهدين، ومن غلبت معرفته عليه فهو من المتقين.

وقال الغزالي قال أبو يزيد: رأيت الحق في منامي فقال: سلني قلت: وعزتك، تعلم أنه ليس لي لسان يقدر على النطق الآن، فقيل له: لِمَ لا تسأله المعرفة؟ فصاح وقال: اسكت المعرفة معرفتان: معرفة حقيقة ومعرفة حق، أما معرفة الحق فقد عرفها المؤمنون بنور الإيمان والإيقان، وأما معرفة الحقيقة فلا سبيل إليها ولا يحيطون بها علمًا.

وكان يعظ نفسه فيقول: يا أمارة بالسوء، المرأة إذا حاضت طهرت بعد ثلاث أو سبع، وأنت منذ ثلاثين سنة ما طهرت؟! فمتى تطهرين؟ إن وقوفك بين يدي الله لا بد منه، فاجتهدي أن تكوني طاهرة.

وقال: كنت أظن لي بري لأمي أني لا أقوم فيه لهوى نفسي، بل لتعظيم الشارع حيث أمر ببرها، فكنت أجد في نفسي لذة عظيمة أتخيل أنها من تعظيم الحق عندي، لا من موافقة نفسي، فقالت لي في ليلة باردة: اسقني، فثقل علي وقمت بمجاهدة، وجئتها بكوز فوجدتها نامت، فوقفت به حتى انتبهت فناولتها- وقد بقي في أذن الكوز قطعة من جلد أصبعي انقرضت لشدة البرد- رجعت إلى نفسي فقلت لها: حبط عملك لكونك كنت تدعين النشاط في عبادتك ورأيتك تثاقلت عن ذلك، فعلمت أن كل ما نشطت فيه من عمل البر وفعلته لا عن كسل وتثاقل، بل لذة، فإنما هو لهواك لا لله.

وقال: أوقفني الحق بين يديه مواقف في كلها يعرض على المملكة فيقول: أتريد التحف؟ قلت: لا.. قال: الظرف؟ قلت: لا، قال: الغرف؟ قلت لا، قال: ما تريد؟ قلت: أريد ألاّ أريد، فإنك المراد وأنا المريد، قال لي: أنت عبدي حقًا.

وقال: قال لي الحق: تقرّب إلي بما ليس الذلة والافتقار.

وقال: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله.

وقال: إنما خلع الله على عباده ليرجعوا بها إليه، فعكسوا واشتغلوا بها عنه.

وقال: رأيت رب العزة فقلت: يارب كيف أجدك، قال: اترك نفسك وتعال.

وقال: صفة العارف صفة أهل النار.. لا يموت لا يحيى.

وقال: أولياء الله عرائس في الدنيا والآخرة.. لا يراهم إلا من كان منهم.

وقال: إنما لم يكن العارف صاحب حال؛ لأن هويته قلبت في هوية غيره، وآثاره غيبت في آثار

غيره، فالعارف طيار والزاهد سيار.

وقال: لو شفعني الله في كل أهل عصري، لم يكن عندي تكبر؛ لأنه شفعني في قطعة طين.

وكتب إليه يحيى بن معاذ: «إني سكرت من كثرة ما شربت من كأس المحبة» فكتب إليه: «هنا رجل - يعني نفسه - شرب بحار السموات والأرض وما روي بعد».

قال له فقيه: علمك هذا أخذته عن من؟ قال: علمي من عطاء الله وعن الله، ومن حيث قال رسوله: «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعمل**» وسئل الجرجاني عن الكلام المنقول عن أبي يزيد مما لا يفهم فقال: يسلم له حاله، وأيكم بمجاهدة نفسه كما جاهد، ودعا نفسه يومًا إلى عبادة فأبت، فمنعها الماء سنة، فجاهدوا وتفهموا إشاراته.

قال ابن معاذ: رأيته في بعض مشاهداته كالغريق ضاربًا بذقنه على صدره شاخصًا بعينيه من العشاء إلى الفجر، ثم سجد عند السحر فأطال سجوده، ثم قعد فقال:

«اللهم طلبوا منك فأعطيتهم طي الأرض والمشي على الماء وركوب الهواء وانقلاب الأعيان، وإني أعوذ بك منها».

ثم التفت فرآني فقلت: يا سيدي، حدثني بشيء فقال:

أحدثك بما يصلح لك، أدخلني الحق في الفلك الأسفل فدوَّرني في الملكوت الأسفل فأرانيه، ثم أدخلني الفلك العلوي وطوّف بي السماوات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه.. فقال: سلني أي شيء رأيته حتى أهبه لك.. قلت:

يا سيدي، ما رأيت شيئًا حسنًا أسألك إياه.. فقال: أنت عبدي حقًا، تعبدني لأجلي صدقًا، لأفعلن بك وأفعلن، وذكر أشياء.

قال ابن معاذ: فهالني ذلك وقلت: لِمَ لم تسأله المعرفة؟ قال: غرت عليه مني، لا أحب أن يعرفه سواه.

وقال الديلمي: سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل فقال:

إذا أدخلت يدك في فم التنين لا تخاف مع الله غيره.

فخرجت قاصدًا أبا يزيد لأسأله عنه، فدققت عليه الباب، فقال: أليس لك من قول عبد الرحمن: كفاية ما جئت زائرًا؟ وقد أتاك الجواب من وراء الحجاب.

فلبثت سنة ثم قصدته فقال: مرحبًا، الآن جئت زائرًا.

ودخل مدين، فهرع إليه جميع أهلها فقال: من هؤلاء؟ قيل قوم رغبوا فيك، فقال: اللهم إني أسألك ألاّ تحجب الخلق بك عنك، فكيف تحجبهم عنك بي؟ ثم صلى بهم الفجر والتفت فقال: إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون.. فتركوه وقالوا: مجنون مسكين.

وصحبه رجل من الشهود ثلاثين سنة مع الصيام أيامها وقيام لياليها، فقال له: يا سيدي، خدمتك وأطعتك ولم يظهر لي شيء مما يودع الحق قلوبكم. قال: يا ولدي، لو صمت وقمت ثلثمائة سنة ما تجد منها ذرة؛ لأنك محجوب بنفسك منقطع برؤيتك طاعتك. فقال: ألا تدلني على

خالفه: دعوا من سقط من عين الله فرئي بعد ذلك مِن المخنَّثين، وسَرَقَ فقُطِعت يده هذا لما نقض.

أين هو ممن وفَّى بيعتَه؟ مثل تلميذ الداراني - قدس سره -[1].

دواء؟ قال: اذهب فاحلق لحيتك وانــزع لباسك، وعلق بعنقك مخلاة فيها جوز، وقل للصبيان: من صفعني صفعة أعطيته جوزة، ثم دار الأسواق كذلك عند من يعرفك، فقال: سبحان الله! لمثلي يقال هذا؟ قال: جمعت الأسباب الدنيوية فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ورميتها في بحر اليأس.. فاسترحت.

وأمر تلميذاً له فخالفه فلاموه، فقال: دعوه، فإنه سقط من عين الله، فما لبث أن سرق، فقطعت يده.

وقال أحمد بن خضرويه: رأيت رب العزة في النوم فقال: يا أحمد، كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد.. فإنه يطلبني.

مات سنة إحدى وستين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة، وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة.. وفي هذا القدر كفاية. وانظر: الكواكب الدرية (257)، وروضة الحبور.

(1) هو عبد الرحمن بن عطية أبو سليمان الداراني، بنون بعد ألف الثانية - ويقال بهمز بدل النون وبالنون أشهر وأكثر- ذكره السمعاني.

وهو الإمام الكبير الشأن في علوم الحقائق ومعاني بديع البيان، ارتفع قدره وعلا ذكره حتى صار تشد إليه الرحال لإقامة شعار الدين ونصره حزب الموحدين على حزب النفوس الأمارة والشياطين.

قال النووي في بستانه: كان من كبار العارفين وأصحاب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والحكم المتناظرة، وهو أحد مفاخر بلادنا دمشق وما حولها.

ومن فوائده: لا ينبغي للفقير أن يزيد في نظافة ثوبه على نظافة قلبه؛ ليشاكل باطنه ظاهره.

وقال: ليت قلبي في القلوب كثوبي في الثياب.

وقال: من صارع الدنيا صارعته، وإذا سكنت الدنيا قلبًا ترحلت منه الآخرة.

وقال: من أظهر الانقطاع إلى الله فقد لزمه خلع ما دونه من عنقه.

وقال: يارب، إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبر أهلها بحبِّي إياك.

وقال: أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبه فيراه لا يريد أحدًا غيره في الدارين.

وقال: من أحسن في نهاره كفي ليله، ومن أحسن في ليله كفي نهاره.

وقال: إذا بلغ العبد غاية الزهد أخرجه إلى التوكل.

وقال: كلما ارتفعت منــزلة العبد كانت العقوبة إليه أسرع.

وقال: أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه، لا يسأل عمّا يفعل.

وقال: القناعة أول الرضى، والورع أول الزهد.

وقال: مفتاح الآخرة الجوع، ومفتاح الدنيا الشره، وأصل كل خير الخوف من الله.

وقال: هانوا عليه فعصوه، لو كرموا عليه لمنعهم.

وقال: إذا وصلوا إليه لم يرجعوا أبدًا، وإنما رجع من رجع من الطريق، وإنما حرموا الوصول فتضييع الأصول، ومن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صح وصوله الخروج عن الطبع، والأدب مع الشرع، واتباعه حيث سلك.

وقال: من عرف الدنيا عرف الآخرة، ومن لم يعرفها لم يعرف الآخرة.

وقال: كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما عمله عطية من الله ونعمة منه عليه شكرها.

وقال: من أكل لِيَسُرَّ أخاه لم يضره أكله.

وقال: إذا فتح لك باب فالزمه.

وقال: من حسن ظنه بالله فقد فُتِحَ عليه باب الرحمة.

وقال: القلب بمنـــزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة، فأي باب فُتح له عمل فيه.

وقال: عليك بالجوع؛ فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ويورث العلم السماوي.

وقال: أحلى ما تكون العبادة إلي إذا لصق ظهري ببطني.

وقال: القلب إذا جاع وعطش صفا ورق، وإذا شبع عمي وثار.

وقال: من شَبِع دخل عليه خمس آفات: فقد حلاوة العبادة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق – لظنه أن الخلق كلهم شباع – وثقل العبادة، وزيادة الشهوة.

وقال: من ترك الدنيا للآخرة ربحهما، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما، وكل أُمٍّ يتبعها بنوها.

وقال: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية.

وقال: إن الله يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلي.

وقال: ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش في الدنيا والآخرة.

وقال: إذا لذّت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذّ لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، والأمر الذي يفتح لك فيه الزمه.

وقال: من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان.

وقال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت في القلب لم تزاحمها الآخرة؛ لأنها كريمة والدنيا لئيمة، واللئيم يزاحم الكريم والعكس لا.

وقال: إذا تكلف المتعبدون ألاّ يتكلموا إلا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم.

وقال: سمعت من أحد الأمراء شيئًا، فأردت أن أنكره، فخفت أن يقتلني، ولم أخف من الموت، بل خفت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فسكت.

وسئل على النكاح، فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

=

وقال: الوحيد يجد من حلاوة العمل، فراغ القلب ما لا يجد المتأهل.

وقال: ما رأيت أحدًا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى.

وقال: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشًا، أو زواجًا، أو كتب الحديث.

وقال: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك، فاحرزه ثم تعبد.

وقال: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلاً ترفق به في دنياك، أو رجلاً تنتفع به في آخرتك. والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

وقال: إذا واخيت أخًا فلا تعاتبه على ما تكرهه؛ فإنك لا تأمن أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول. قال الغزالي: جربته فوجدته كذلك.

وقال مرة أخرى: لا تعاتب أحدًا من الخلق في زمننا فإنه إن عاتبته أعقبه بأشد منه، دعه بالأمر الأول. وقال ابن أبي الحواري: جربته فوجدته كذلك.

وقال: أي شيء يزيد عليكم الفاسقون إن كنتم إذا اشتهيتم شيئًا أكلتموه؟

وقال لأم هارون: أتحبين الموت؟ قالت: لا. قال: لِمَ ؟ قالت: لو عصيت آدميًا ما اشتهيت لقاءه، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته؟

وقال: واحزناه على الحزن في دار الدنيا.

وقال: إذا سمّاك الله باسم فكن عندما سمّاك وإلا هلكت.

وقال: كنت ذات ليلة بالمحراب فأقلقني البرد، فخبأت إحدى يدي وبقيت الأخرى ممدودة فغلبتني عيناي، فقيل لي: وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى مكشوفة لوضعنا فيها، فآليت ألاّ أدعو إلا ويداي خارجتان.

وقال: إنما يُحيِي الوسواس وكثرة الرؤيا إلى كل ضعيف، فإذا خلص انقطعت عنه الرؤيا.

وقال: وربما أقمت سنين لا أرى رؤيا.

وقال: العيال يضعفن اليقين.

وقال: ما رأيت صوفيًا فيه خيرٌ إلا واحدًا.

وقال: أوحى الله إلى داود: أنذر صاحبك أكل الشهوات؛ فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني.

وقال: إنما أحذر صغير الدنيا فإنه يجر إلى كبيرها.

وقال: الرضا عن الله والرحمة للخلق درجة المرسلين.

وقال: ما عمل داود عملاً أنفع له من خطيئته، ما زال خائفًا حتى لحق بربه.

وقال: أرجو أن أكون رزقت من الرضا طريقًا لو أدخلني النار كنت بذلك راضيًا.

وقال: كلما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم.

وقال: إذا تعبد الرجل ثم ترك العبادة، ثم عاودها لم يبلغ ما كان فيه أبدًا، لأنه دخلها ومعه آلةُ

=

قيل له: ألقِ نفسك في التنور، فألقى نفسَه فيه [وهو جمر يتوقد]، فعاد عليه بردًا وسلامًا هذا نتيجة الوفاء.

فالأنبياء – عليهم السلام – معصومون، والأولياء محفوظون، فهم مؤتمرون وآمرون بالمعروف، وأما السلاطين فمن لحق منهم بالشيوخ الواصلين الآخذين عن الله تعالى كان محفوظاً حفظ متبوعه، وإلا كان مخذولاً فلا يطاع في معصية؛ لأن وجوب العمل بأمره إنما هو فيما يوافق الشرع الشريف، فاعرف هذه المحملة؛ فإنها نافعة لك ثم إن من سقط عن نظر واحد من كُمَّل الشيوخ، فقد سقط عن نظر جميع أهل الولاية؛ لأن منبعهم وسيرهم واحد، فالمدعي الذي يترك هذا الشيخ، وينتسب إلى ذلك الشيخ ممكورٌ مغرورٌ ليس على طائل إلا أن يكون الأول غير واقفٍ على أحوال الطريقة، وغير قادر على شيء من تربية

الخوف فلما عاد، عاد وليست تلك الآلة معه.

وقال: الدنيا تطلب الهارب منها وتهرب ممن طلبها، فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها طالبها قتلته.

وقال: إنما يعجب بعمله من يرى له شركة حقيقة مع الله في الفعل، أما من يرى نفسه مستعملاً بقدرة الله لا بقدرته فلا عجب عنده.

وقال: لو اجتمع الناس على أن يضعوني كوضعي عند نفسي ما قدروا، ومن رأى لنفسه قيمة لم يجد الحلاوة في الخدامة.

واشتهى يومًا رغيفًا حارًا بملح فأتاه به ابن أبي الحواري، فعض منه عضة، ثم طرحه وبكى، وقال: عجلت إلي شهوتي بعد إطالة جهدي وشقوتي، قد عزمت على التوبة.. فما أكل بعد ذلك ملحًا حتى لقي الله.

وسئل بِمَ نال أهل المحبةِ المحبة من الله؟ قال: بالعفاف وأخذ الكفاف.

وقال: اختلفت إلى مجلس قاصٌ فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق منه شيء فعدت إليه فسمعته، فبقي أثر كلامه بقلبي، ثم رجعت إلى منـــزلي فكسرت آلات المخالفة، ولزمت الطريق.. فحكى هذا ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيًا.

وقال له ابن أبي الحواري: صليت أمس صلاة في خلوة فرأيت لها لذة، فقال له: وما لذتها؟ قال: كوني لم يرني أحد. قال: إنك لضعيف؛ حيث خطر بقلبك ذكر الخلق.

روى الحديث عن جمع منهم سفيان الثوري، وعنه ابن أبي الحواري وغيره، ولم تزل كلماته في الطريق باقية، وعزماته في تربية المريدين راقية، حتى مات سنة خمس عشرة ومائتين- وقيل غير ذلك- ورؤي في النوم فقيل: ما فُعل بك؟ قال: غُفر لي، وما كان علي أشر من إشارات القوم.

وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (259).

المعرفة والحقيقة ومثله لا يكون شيخًا بل متشيِّخًا؛ إذ للشيخ أربع علامات:

الأولى: أن يكون عالمًا وقادرًا على كشف شبهات مريده في أموره الدينية والدنيوية.

والثانية: أن يكون منقطعًا عَن حبِّ الدنيا وناهيًا نفسَه عن الهوى، ونعم ما قيل: [...][1].

والثالثة: ألاّ يكون متهمًا بالطمع بما في أيدي الناس والمريدين؛ لأنه من الأمور المنفرة كمرض الجذام والتهيُّب المستتبع للاحترام والاستفاضة إنما يحصل من التقوى مطلقًا. والرابعة: أن يكون في جميع أقواله وأفعاله وأحواله موافقًا لمقتضى الشريعة؛ فإنه في كل ذلك مقتفٍ بأثر النبي ولم يصدر منه ﷺ إلا ما يوافق الشريعة ويؤيدها ويؤكدها.

ثم إن مَن كان مُريدًا لمثل ذلك الشيخ فهو مَريدٌ لا مُريدٌ والعياذ بالله والعالم ممتلئ الآن بمثل هؤلاء المتشيخين والمَريدين يحسبون أنهم يحسنون صنعًا فيأتيها المتشيخ والمريد أي: الشرير والمفسد.

أين الشريعةُ وأحكامُها؟ وأين الطريقةُ وآدابُها؟ ألم يكن لنبيك ﷺ نوران أحدهما: نور النبوة، والأخر: نور الولاية، فإلى أين ذهب هذان النوران؟ وأراك أنك لا تقدر على الجواب.

فأقول: نورُ النبوة هو نورُ الشريعة التي نعمل بأحكامها ليلاً ونهارًا، ونورُ الولايةِ هو نورُ الحقيقةِ التي أخذ منها الغوث الأعظم في كل عصر حظًا وافرًا، ورشٌ من بعض أجزائها إلى سائر الأولياء، فالنبيُّ كأنه بيننا الآن إلى يوم القيامة بهذين النورين اللذين أحدهما: متعلق بالظاهر، والأخر: متعلق بالباطن.

فمَن لم يجتهد في اتباع هذين النورين والاهتداء بهما، فقد ترك الاقتداء بالنبيِّ ومن لم يقتد بالنبي لم يحصل له المراد؛ لأنّه الواسطة التامة ويكون زنديقًا فلسفيًا، فعليك بالاقتداء؛ فإن الشيخوخة تحصل به وسرها يقتبس من مشكاته.

ثم بعض الناس يقول: أنا أريد البيعة وأحبُّ المشايخ لكن يمنعني أن العمل بها صعب ومشكل، فهو كرجل له قرحة عظيمة وهو لا يعالجها حذرًا من ألم الدواء المرِّ وهذا الحذر وترك المعالجة المبني عليه يفضيه إلى الهلاك، فكما أنَّ في ترك معالجة المرض

(1) كلام غير عربي.

الجسماني هلاكًا صوريًا لصاحبه، فكذا في ترك معالجة المرض الروحاني هلاكًا معنويًا لصاحبه ومعالجة مرض البدن يكون بالأدوية ووضع المراهم، ومعالجة مرض القلب يكون بالعبادات والطاعات الشاقة وترك حبِّ الدنانير والدراهم.

فإن أنت عالجت نفسك، وفي الوقت فرصةٌ أمنت من البوار، وإن أهملتها إلى أن مضى الوقت هلكتَ، ولك سوء الدار.

فالبيعةُ إذا كانت مبنيةً على مراعاة الأحكام الظاهرة جاءت كالخلَع الفاخرة على الأبدان الظاهرة، وإلاّ فمن علامات الهوى تركُ الفرائض والواجبات والمسارعة إلى نوافل الطاعاتِ ألا ترى أنَّ التوبةَ لا تصحُّ إلا بقضاء ما فات، وإتيان أوامر الوقت بالذات، وأولُ البيعة هو التوبة؛ فإذا كانت التوبة غير مرعيةٍ بأصلها، فما الفائدة في البيعة؟ فإنها حينئذٍ تكون كوضع البناء على الماء، وعلى الهواء، فما أبعدَ مثل هذا المرض من الدواء! عصمنا الله وإياكم من المخالفات وشرَّفنا وإيَّاكم بأنواع الموافقات.

الفصل الرابع / في صحبة المشايخ وما يتعلق بها (1)

---

(1) **فوائد في أصول المشايخ:** قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه: (**الشَّيخُ من أخذك، وكشفَ عنك**) أي: شيخك المرشد لك هو الذي أخذك عن نفسك، وإرادتك، وأخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، وكشف عنك الغطاء، وقال لك: ها أنت والمولى، وهذا هو الذي استنار بنور الحق سماء روحه وأرض نفسه، فطهر روحه بالرؤية والمشاهدة، وزكّى نفسه بالخدمة والطاعة، فصار مجلى للذات ومظهرًا للأسماء والصفات خصوصًا، والحق تعالى متجَلٍّ وظاهر في الأشياء عمومًا، نور قلبه من نور الله، وهو وارث علم رسول الله ﷺ، قال ﷺ:
«**العلماء ورثة الأنبياء**» أي: العلماء بالله؛ لأنهم بالإرث أقرب للزوم الخشية لعلمهم، والعلم الذي لا خشية معه ليس صاحبه أهلاً لأن يكون وارثًا لانتقال العلم المورث إليه على غير الصفة التي كان عليها عند المورث، وحقيقة الإرث انتقال المورث إلى الوارث على الصفة التي كان عليها عند المورث، ولا يستلزم الخشية إلا العلم بالله، فالعلماء بالله هم الوارثون حقًا، والبواقي تبعًا.
ثُمَّ قال قُدِّس سرُّه توضيحًا لفهم السالك، وتقريبًا لسامعه السامعين: (**الشيخ من حمل عنك المشقَّات، وأشهدك منازل القربات**) أي: الشيخ الحقيقي الذي له تلقين الذكر للمريد هو الذي يحمل عنك جميع المشقات، ولهذا شرط بعضهم أن يكون الشيخ قادرًا على أن يخلع على المريد حال التلقين أي: حين أن يقول له قل: لا إله إلا الله جميع العلوم الشريعة المطهرة بحيث لا يجهل شيئًا من أحكامها، ولا يحتاج إلى سؤال العلماء، ومطالعة الكتب، كما وقع لعلي بن أبي طالب ﷺ لـمَّـا لقنه رسول الله ﷺ، وللحسن البصري ﷺ لمَّا لقنه علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عمره حقًا على ما صححه جلال السيوطي رحمه الله وغيره عشر سنين ذكره الشيخ علي الخوّاص للشيخ عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّهما العزيز في بعض سؤالاته عنه، فلا يجوز التلقين لمشايخ هذا الزمان إلا بقصد التبرك حتى يدخل المريد في سلسلة سند القوم، ويدخل به في محبتهم فيكون مُسَلِمًا لمقالاتهم، أو معتقدًا لها أي: يقطع بصدقهم فيها، وما عدا هذين المقامين فحرمان لكلِّ أحدٍ مريدًا كان أو لا على ما قاله الشيخ الأكبر في الباب الثاني من الفتوحات ﷺ: «وأيضًا الشيخ المسلك الكامل المكمِّل أن يقدر على أن يشهدك جميع منازل القربات فيدور بك في معاطف الطريق يمينًا وشمالاً، كما هو عليه جميع السادات الصوفية إلا بعضهم مثل الشيخ أبي مدين المغربي ﷺ، فإنه كان يقصد اختصار طريق الوصول للمريد، وينقل إلى محل الفتح من غير المرور به على الملكوت خوفًا على استئناسه بعجائب، وهذا أولى لاختصاره وعدم علم المريد بالعوالم لا يضره؛ لأنه بعد الفتح يتدلى المريد بنفسه إلى العوالم فيكشفها ويشاهد ما فيها بالحق، فعلى هذا يكون للشيخ أثر في الفتح، وإن كان الفاتح حقيقة هو الله تعالى؛ لأنه [كالبدر] والدليل حيث يقول له: اسلك هذه الجهة فهي أقرب لك، ويدل على أن طريق الاختصار أحسن ما وقع لأبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه لما وقف على العابدين فلم ير له قدمًا معهم، وكذلك وقف مع المجاهدين والزاهدين والصابرين والمتوكلين وسائر المقامات فلم ير لنفسه مع كلٍّ منهم قدمًا،

فقال: يارب كيف الطريق إليك؟، فقال له تعالى: يا أبا يزيد اترك نفسك أي: حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، فالله تعالى اختصر له الطريق بأخصر كلمة وألطفها؛ لأن من يترك حظ نفسه يقوم معه ربه.

ومن صفات الشيخ أن يكون متخلقًا بأخلاق الله،كما قال الشيخ ﷺ: (**لا يصلح من يربي الخلق، إلا من كانت صفته من صفة الحق**) أي: لا يصلح لتربية الخلق، ولا يليق بها كل من يريد تربية الخلق إلا الرجل الذي كانت صفة ذلك الرجل من صفة الحق بأن يأخذ من كل صفة من صفات الله تعالى خطًا يليق به، كما وقع الأمر من النبي ﷺ إلينا بقوله: «**تخلقوا بأخلاق الله تعالى**»

أي: المرضية الكمالية، وهذا التخلق لا يكون إلا بعد التخلق بأخلاق الرسول ﷺ على ما ورد أيضًا: «تخلقوا بأخلاق الرسول».

فالشيخ لا يصلح للتربية ولا مربيًا للمريدين إلا إذا كان متخلقًا بأخلاق الرسول وأخلاق الله تعالى، أو المراد من كون صفة العبد صفة الحق أن يصير الحق تعالى عين قوى العبد الباطنة، وجوارحه الظاهرة.

وقال قدس سره: [**الشيخ من أزال عنك كل حجبك**] أي: شيخك أيها السالك الطالب للسلوك والمرشد المسلك لك في الطريق إلى الحق تعالى هو الذي أزال عنك ويرفع لك ما يحجبك عن الله والوصول إليه والاشتغال به، وهذه الإزالة لا تكون إلا بالله؛ لأنه لا يوصل إلى الله إلا الله لكن الشيخ لما كان بالله يوصل المريد إلى الله بإذن الله من الله، فعطف (**الشيخ**) ﷺ على الجملة المذكورة قوله: (**واستأذن الحق لقربك**) عطف السبب على المسبب فإن استئذان الحق سبب لإزالة المحجب عن المريد، وفيه أن السبب هو إذن الحق للشيخ بالإيصال للمريد لا استئذان الشيخ من الحق لإيصال المريد، وأجيب بأن الاستئذان سبب الإذن وسبب السبب سبب، فالشيخ المسلك للمريد يزيل الحجب عنه ويرفع الغطاء عن بصره وبصيرته بسبب أنه يستأذن من الحق تعالى؛ لأن يقربه إليه تعالى برفع الحجب والأستار، فالحق تعالى يأذن للشيخ في قربه إليه تعالى، وإذن الحق في قرب المريد إذن للشيخ في إزالة الحجب عن المريد، وكذا استئذان الشيخ الحق لقرب المريد استئذان الحق لرفع الحجب عنه فلا إشكال، فحاصل الكلام أن الموصل لا يكون إلا الحق أو من يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق قائمًا به متحققًا بمقام كنت سمعه وبصره حتى يمكن منه الإيصال إذ لو كان بنفسه فلا يمكن منه ذلك، فثبت بهذا أن السالك بالله واجد له تعالى، والسالك بنفسه فاقد له، ولا يجده.

وبه يجمع بين قول الرسول ﷺ: «**من طلب الله وجده**»، وبين قول أبي يزيد البسطامي قدس سره: «السالك مردود، والطريق مسدود».

فإن السلوك والطلب بمعنى واحد، فصار مآل قول الرسول ﷺ: إلى أن الطالب واجد لله.

ومآل قول أبي يزيد: إلى أن الطالب غير واجد له، وهما متناقضان ظاهران لكن المراد في الأول

=

الطلب بالله، وفي الثاني الطلب بالنفس فلا تناقض؛ لأن شرطه اتفاق القضيتين في الوحدات الثمانية وهنا ليس كذلك فتأمل.

ثم أكده بقوله: (**الشيخ من نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتصال**) أي: شيخك المسلك لك أيها السالك هو الذي نقلك من نار هو البعد عن حضرة القدس والانفصال عنها بوقوفك مع السوي، وشركك الخفي والأخفى إلى جنة هي القرب إلى الله، والاتصال به اتصال الفرع بأصله من حيث الوصول إلى غاية المرام عاريًا عن الوصل والفصل المشهودين بين العوام؛ لأنهما بالمعنى المشهود مُحال في حقه تعالى حيث لا وصل ولا فصل ولا قرب ولا بعد.

وفي لسان هذه الطائفة أن البعد هو المسمَّى بالنار وبجهنم، والقرب هو المسمَّى بالجنة، وإن البعد هو المتوهم والقرب هو المتحقق؛ لأن المقامات والمواطن كلها مراتب ظهوره تعالى، فلا بعد الإعلى سبيل التوهم فما ثَمَّ إلا قرب، فالمراد النقل من البعد المتوهم الذي يتوهمه المريد إلى القرب المتحقق الذي هو الأمر عليه في نفسه، وهذا لا يكون إلا برفع الحجاب له وكشف الأمور على ما هي عليه، فيخرج المريد عن الوهم والخيال، ويدخل في القرب والاتِّصال فنكشف له حقيقة الحال.

وبما ذكرناه تبين أنه تأكيد لما قبله ومعنى التأكيد على لسان الحقيقة أن يكون في اللاحق ما في السابق مع زيادة وفائدة جديدة؛ لأن التجلي لا يتكرر، ثم زاد الشيخ قدس سره في البيان اهتمامًا بهذا الشأن.

وقال قدس سره: (**الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت**) المراد بإماتة نفس المريد إخراجه عن الالتفات إلى الدنيا وتوابعها، وعن النفس وحظوظها كالميت لا شيء له مما ذكر، وهذه الإماتة إرادية كما أن الخروج مما مرَّ إرادي، والمراد بالموت الثاني الموت الطبيعي، وقد مرَّ معنى الموت بأقسامه (**جال**) في الحرب جولة بفتح الجيم، وجال في الطواف جولاً بفتح الجيم وضمها وبسكون الواو وجولاً بتحريك الواو، وجول بالتشديد تجوالاً واجتلال، والجال بمعنى طاف كذا في القاموس.

و (**اللاهوت**) عالم أعلى كما أن الجبروت عالم أوسط، والملك عالم الشهادة والملكوت عالم الغيب الإضافي والحقيقي فهو يعم الجبروت والعظموت واللاهوت.

وقيل: إن الملكوت عالم الأرواح، والمعنى الشيخ المسلك لك أيها السالك الطالب للسلوك الموصل لك إلى القدسية الكاشف لك الحجب المانعة لك من الوصل والمقرب لك إلى جناب حضرة مولاك الناقل لك من نار البعد، والانفصال إلى جنة القرب، والاتصال هو الذي يميت نفسك وهواك عن السوى، ويقطعها عن حظوظها وشهواتها كالميت قبل أن تموت بالموت الطبيعي اللازم للطبيعة الحيوانية، فتكون أنت ميتًا ماشيًا على وجه الأرض كما هو حال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وشهد له النبي ﷺ بهذا الحال حيث قال: «**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر** ﷺ».

وأيضًا الشيخ هو الذي جال وطاف بروحك لا ببدنك؛ لأن الجولان في عالم الغيب بالبدن من خواص خاتم الرسل عليه وعلى آله أفضل - الصلاة وأتم السلام - والكمَّل من ورثته يطوفون بأرواحهم لا بأبدانهم، فالشيخ يطوف بروحك في عالم اللاهوت ويعرج بك إلى العظموت، ويشهدك منازل الناسوت إلى أن يقول لك: ها أنت ومولاك، فتبلغ غاية الرضا وأقصى المنى، ولا يبقى في قلبك شيء من السوى.

وبالجملة إن لم يأخذ السالك الطريق ممن يكون من الرجال الموصوفين بأوصاف الكمال فلن يفلح.

وقوله: (**الشيخ من نقل أسمك ومحى رسمك**) أي: الشيخ الذي يسلك بك هو الذي نقل اسمك عنك بإفناء وجودك في وجود الحق تعالى، فلا يبقى لك اسم ومحا أيضًا رسمك بإفناء إرادتك في إرادة الله تعالى، فلا يبقى لك رسم، فبالأول يحصل لك الفناء في الله، وبالثاني يحصل لك الاتّحاد مع الله تعالى بالمعنى الذي اصطلح عليه القوم فيهما وهو الخروج عن الوجود لغير الحق بأن يثبت الوجود له تعالى، ويتحقق بحديث:

«كان الله ولا شيء معه». والآن كما كان، وبقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26]، أو عن صفاته البشرية بأن يدخل في الصفات الحقيَّة، وهو مقام بي يسمع وبي يبصر هذا في الأول، وهو الفناء والخروج عن إرادته لإرادة الله تعالى في الثاني وهو الاتحاد، فمن صار وجوده وجود الله وإرادته إرادة الله فهو متحد مع الله في هاتين الصفتين لا في الذات؛ لأن عينية الأشياء للحق من حيث ظهوره فيها وانصباغه بصبغها.

وأمَّا من حيث الذات فالأشياء أشياء والله الله كما صرح به الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية».

وقال بعضهم: الفناء نفي العبد لاختياره المغاير لاختيار الله تعالى؛ لأن الكمال أن يختار العبد ما اختاره الله له إن يختاره، وإلا فالإنسان لا يجوز أن يكون غير مختار؛ لأنه تعالى وإن نفاه فقد أثبته فقال:﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]، فأثبت في هذا القول الرمي وقد نُفي. والبقاء أن يختار باختياره تعالى له الاختيار بعد ما نفى اختياره المغاير لاختيار الله تعالى، فالعبد في هذا المقام مختار من جهة البقاء غير مختار من جهة الفناء، وأمَّا العوام فلهم الاختيار مطلقًا لرؤيتهم الوجود لنفوسهم وأن يعملوا بإرادتهم، ويجوز أن يكون المراد (**بنقل الاسم**) غير ما قلنا: من رفعه بالإفناء، بل معناه الحقيقي، ويكون حقًا قوله:

(**ومحا رسمك**) من عطف السبب على المسبب، فإن الشيخ ينقل المريد من اسم إلى اسم من اسم العام إلى الخاص إلى أخص الخاص، أو من الجاهل إلى العالم إلى العراف بالله، أو من اسم المسلم إلى المؤمن إلى الصالح إلى المحسن إلى الشهيد إلى الصديق إلى المحقق إلى غير ذلك من الأسماء المصطلح عليها لهذه الطائفة بسبب محو العادات ورسوماته عنه فتبصر.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] اعلم أن الواو للجمع، فأمر المؤمنين بأن يجمعوا بين التقوى والكينونة مع أهل الصدق؛ فتقوى الشريعة التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] تؤخذ من علماء الظاهر، وتقوى الحقيقة التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102].

تؤخذ من علماء الباطن؛ إذ لكل موطن رجال، ولكل طاووس مجال، وكما أنَّ الإبل غير الدجاج، فكذا التجار غير الحجاج.

وينتظم كلٌ من التقوى والكينونة مع أهلِ الصدق معنيين.

أمَّا الأول: فلأن التقوى إمَّا جعلُ العبد نفسه وقايةً لربِّه، وإما جعلُ ربِّه وقايةً لنفسِه.

فإنْ كان الأولُ فمعناه: إسنادُ المذامِّ إلى نفسه، وإنْ كان الثاني: فمعناه إسناد المحامد إلى ربِّه، فهذان الإسنادان طريق الأدب المسلوكة بين العارفين.

وأما الثاني: فلأن الكينونة أما أن تكون بالصورة أو مع انضمام المعنى؛ فإن كان

ثم قال الشيخ قُدِّس سرُّه: (الشيخ من أطلعك على حالك، لا من أخذ مالك) أي: الشيخ المسلك هو الذي جعلك مطلعًا على حالك من النقص والكمال، فيُذهب منك النقص، ويفيض عليك الكمال بالاستئذان لك من ربك بأن يكون الشيخ من خواص الخواص الكاملين المكمِّلين، الذين هم مع غلبة التسليم عليهم يأمرون المريد، ويرغبونه في الأشياء، ويرهبونه من أشياء، وينـــزلون من مقامهم لمقام المريد حتى يُقيِّم عوجه؛ لأن الشيخ هو الذي يأخذ مالك عنك كالمشايخ بعد قرن عاشر قعدوا على السجادة بدون إذن من الله تعالى، فيأخذون أموال الناس من غير استحقاق فيهم.

وهذا الشيخ كما أنه يأخذ مالك أيضًا يأخذ دينك؛ لأن المريد ناظر إلى شيخه، ويتأدب بآدابه وآدابه مذمومة.

ومن هنا قيل: إن العلماء السوء أشدّ من الشيطان؛ لأن الشيطان يضرك في دينك، وذاك يضرك في دنياك ودينك، فعلى هذا يجوز أن تكون (ما) في (مالك) موصولة أي: لا الشيخ الذي يأخذ منك ما حصل لك من أمور الدين والدنيا، ولا الشيخ الذي هو من خواص الأولياء الذي محقه التسليم لله تعالى في سائر الأحوال وما بقي له اختيار، فإن مثله لا يرى في الوجود محظورًا ينهاك عنه مع أن الصحبة تقتضي الميل إلى الصاحب، وهذا الرجل ما له ميل إلى أحد سوى الله تعالى حتى يُقيِّم عوجه ويُصلح فساده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الأول: فهو التردد إلى مجالسِهم ومحاضرِهم، وإن كان الثاني: فهو تحصيلُ المناسبةِ المعنويةِ والتذوّق بأذواقِهم والتخَلق بأخلاقهم في معنى الصدق «هو التخلص عن شوائب الصفات النفسانية، وعن شوائب الغيرية»، وهو الفرد الكامل من معاني الصدق، وقد يكون الصدق في بعض الأمور دون بعض، وهو الفرد الناقص من معانيه.

فمريدُ الصحبة يلزم أن يختار الفرد الكامل ليحصل الفائدة من الاصطحاب؛ فإذا وجدَه لزم عليه ارتباطُ قلبه به.

إذ هو الوسيلةُ التي أُشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35].

فكما أن الصبح الصادق دليلٌ وعلامة لظهور الشمس؛ إذ لا يعقبه ظلمةٌ فكذا المرشدُ الصادق برهانٌ وحجة لطلوع الحقيقة؛ إذ لا يعبر به جهلٌ ونقصانٌ بعد انكشاف والأمر بتمامه وكمالِه، وكما أنَّ الصبح الكاذب يسودّ وجهُه بعد زمان، ويلقي المغرور به في ظلمة ويبقيه في حيرة، فكذا المرشد الناقص الكاذب ينجلي أمره، فينالُه مَن تمسَّك به بلاء البروج وظلمة التعيُّنات وينسدُّ دونُهما طريق الوصول ونعم ما قيل:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفَرسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ[1]

فإذا وقفت على هذا عرفت أنَّ الصحبة لكونها نسبة تقتضي الصاحب والمصحوب فالصاحب أنت، والمصحوب هو الشيخ المعلم بالعلامات الأربع التي ذكرناها في أواخر الفصل الثالث، وقد قال أبو يزيد البسطامي - قدس سره - «على ما عُزِي إليه في راحة القلوب»: من لم يكن له شيخٌ، فشيخُه الشيطان؛ وذلك لأنَّ الاتباع طريقُ الأنبياء والأولياء، كما قال موسى للخضر - عليهما السلام - : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66] وقال تعالى مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

ويقال له: الملة وهي الاجتماع على المنهاج النبوي حفظًا له وعملاً به؛ إذ هو الحفظ والعمل إنما يكونان باتّباع البعض بالبعض في كل قرن، وترك الاتّباع طريقُ الشياطين والأعداء كما أشعر عنه خطابات الأمم لأنبيائهم ونحوها، ويقال له: التحلية، وهي الاستبداد بالرأي والاستقلال بالنظر، وهي طريق كفرة الفلاسفة وغيرهم؛ فإنه وإن اتبع بعضهم بعضًا في طريق العقل والعادة لكنهم تركوا الاتباع في طريق الشرع، فالاتباع

---

(1) انظر: التمثيل والمحاضرة (174/1)، ومعجم الأدباء (78/1).

الصحيح يحتاج إلى إيجاد الشيخ؛ لأنهُ عارف بالظواهر والبواطن أي: ما يتعلق بتربية الشريعة والطريقة، واقفٌ على مراتب التنــزلات والترقيَّات، والله يدعو بواسطة وعلى لسانه إلى دار القلب الذي هو حاوٍ لكل سلام أي: باعتبار النهاية بعد الدخول في حرمه، وإليه إشارة بقوله ﷺ:

«الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[1] رواه ابن حبَّان عن عبد الله بن عمرو والديلمي، وهو عن أبي رافع، وهو عن النبيِّ ﷺ ولا التفات إلى قول من قال هذا الحديث في الموضوعات بعد تخريج الحفَّاظ، وقد ذكره الإمام الغزالي – قدس سره – على أنه حديث، وكذا الشيخ قطب الدين الدمشقي في «رسالته المكية» وحضرة مولانا – قدس سره – في «المثنوي».

وتشبيهه بالنبي إنما هو في دعوته وإرشاده وعلمه وعقله الكامل في معاده لا في قوة شخصه وحسن منظره وثروته وشوكته؛ إذ لا اعتبار بها في الحقيقة، وإن كان الأنبياء – عليهم السلام – حسان الوجوه والأصوات على ما ورد في حديث صحيح، ولكل الأولياء نصيبٌ مِن هذا أيضًا إذ الوجوه صورُ الحقيقةِ الجامعةِ، وإليه الإشارةُ بالمسحِ عليها بعد الدعاء فيرجع الكل إلى تلك الحقيقة، والأصواتُ التي توقف عليها السماع الذي لا يحصل التبليغ إلا به، وإليه الإشارةُ بقيامِ الأنبياء عند خُطَبِهم أو وضع المنبر وهي صور النفس الرحماني الذي وقع عليه التعيُّنات الروحانية والجسمانية، كما أنَّ النفس الإنساني وقع عليه تعيُّنات الكلمات اللفظية، فلهذا السر جعل الله لهم حظًّا أوفرَ من حُسنه الذاتي، وحُسن صفاته الكمالي.

وهذا الحديث المختَلفُ فيه بين أربابِ الظاهر كحديث: **«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل »**[2] اختلافًا مبنىً ومعنىً.

قال ابن الشيخ في سورة الكوثر: علماء أمته، وهو لعمري الخير الكثير؛ لأنهم كأنبياء بني إسرائيل من حيث أن هؤلاء الأنبياء كما يتبعون النصوص المأخوذة من الوحي في إثبات الأحكام ونوازل الحوادث، فكذا علماء أمته يتبعون النص الإلهي، ويستنبطون من الأحكام باجتهادهم انتهى.

---

(1) ذكره الحافظ في تهذيب التهذيب (289/5)،وكشف الخفاء (318/2).

(2) انظر: فيض القدير (384/4)، وكشف الخفاء (318/2).

أقول: أتفهمُ مِن تقريره أنه صح عنده كون الخبر المذكور حديثًا صحيحًا أو أصاب فيه لكونه مذهب الإمام الغزالي، ونحوه من الفحول لكنَّه جرى في بيانِ الحيثية على سير الأجانب، وإلاّ باعد وطار على جناح واحد؛ فإن العلماء بالله متبعون للنبيِّ عليه السلام في الدعوةِ إلى الله على بصيرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، والنبيُّ ﷺ عمَّم الدعوةَ من كل وجه فمتبعوه من العلماء بالله مجتهدون لكونهم متبحرين في العلوم، مستنبطون الأحكام كالأئمة الأربعة، ومَن تبعهم.

لكنهم لم يكتفوا بذلك، بل دعوا إلى مراتب التوحيد ومقامات التجريد والتفريد، إمَّا بالإشارات أو بالعبارات على تفاوتِ أحوال الزمان، واختلاف طبقات الإنسان، فهم جامعون بين مرتبتي الاجتهاد والدعوة.

فإن قلت: فما معنى تشبيهيم بأنبياء بني إسرائيل؟.

قلت: في ذلك إظهارٌ لفضيلتهم وعلو مكانتهم وبيان لنا بهمة شأنهم، ورفعة درجاتهم مع تضمين بيانَ حال نفسه الغنى في نفس الأمر عنه.

كما إذا كان للسلطان الأعظم أمراء كلٌّ منهم بمنـزلةِ ملك من الملوك في الحشمة والعزة وسعة الدائرة؛ فإنَّ كونهم كذلك ينبئُ عن عظمة متبوعهم الذي هو السلطان الأعظم ونحوه. لا نشك في كون مثل هذا الخبر حديثًا لجلالة مضمونه وغزارة معناه، وشهادة العدول لكونه مثبتًا في كتب الكبار كالغزالي ونحوه، فإن كنت في شكٍّ «**فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(1) فإنه أحال هذا الاضطراب؛ فإذا تقرر هذا فقد عُلم أن اتّباع الشيخِ أمرٌ لازم، وربط القلب به معنى مهم؛ فمَن قَبله واهتدى كان مربوطًا بسلسلةِ الاسمِ الهادي، ومن ردَّه وضلَّ كان مقيدًا بحلقة الأعظم المضل.

والمظهر التامُّ للأول هو النبي ﷺ، ومَن تبعه على بصيرة من أمره إلى يوم القيامة.

والمظهر التامُّ للثاني هو الشيطان، ومَن تبعه مِن كل مضَلٍ عن طريق الاسم الهادي، فقد دخل في طريق اسم المضل.

وإن قلت: فعلى هذا يلزم أن يكون تارك الاتبَاع للشيخ ضالا مُتَّبِعًا للشيطان مع أن أكثر أهل الإيمان ليس من ملتزمي الطريقة الخاصة المتعارفة بين الصوفية.

---

(1) رواه أحمد في مسنده (11656)، والترمذي (2442)، والنسائي (56150).

قلت: الشيخ إمَّا شيخ الشريعة أو شيخ الطريقة.

والأول: في طريق الجنة مع متبعه.

والثاني: في طريق القربة مع معتقديه، وكل منهما وإن كان في طريق الحق لكنَّ الأول متنــزل درجة عن الثاني فمن تبعه، وإن لم يكن شيطانًا، إلاّ أن صعوبة الأمر جعلته كأنه لا شيخ له، فالضلال والهلاك أقربُ إليه من شراك نعله، وأقلُ الأمر أنه ضلَّ عن طريق الوصول إلى معرفة حقيقة الحال، كما ورد «**المحتكر ملعون**»(1) أي: مردود عن درجة الأبرار لا عن درجة الغفّار، فافهم هذا المقام على ما ينبغي؛ فإنْ الأمر ظاهر وباطن.

والعقلُ أول وثان، وهذا الزمان معمورٌ قلما يسمح بالعالم العامل الكامل، وأمّا الذي تحسبه أنت ماءً فسرابٌ، وتظنُّه معمورًا من كلُ الجهات فخراب، وأين لك حِدَّةُ البصر، وشدة البصيرة حتى تفرِّق الرجل من النساء؟ وأين لك كمالُ الحزم وقوةُ العقل حتى تعرف الأرض من السماء؟ والله ما وجدت الأمر سهلاً، وإن كنت أكلم الناس في المهد كهلاً فقد ذكرت: ﴿**فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام: 68]، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [العنكبوت: 52] فاختر من الصحبة أحقها، ومن الطريق أدقها، ومن الشيوخ أعلمهم وأفضلهم، ومن الإخوان أنصحهم وأكملهم؛ فإنه ورد: «من أراد أن يجلس مع الله؛ فليجلس مع أهل التصوف».

وهم الذين صفت قلوبهم عن الكدر، واستوى عندهم الذهب والحجر والمدر، «وإلا فكلب كوفي خير من ألف صوفي».

ومعنى الجلوس مع الله، مع مَن عنده سر الله المصون، وله التخلق بالقرآن الكريم.

قيل لعيسى عليه السلام: «يا روح الله، مَن نجالس؟ فقال: مَن يزيدُ في علمِكم منطقه، ويذكِّركم الله رؤيته ويرغِّبكم في الآخرة عملُه» انتهى.

أمَّا الأول: فبأن يكون عالماً قادرًا على النطقِ والبيان، فإنْ لم يكن فصيحَ اللهجة فينابيعُ قلبِه غيرُ جارية، والماء إذا كان غائرًا ذاهبًا في الأرض أو كَدِرًا لكثرة تردده إلى الطول والعرض لم يُنتفع به إلا للشرب، ولا لإقامة الفرض، بخلاف النطقِ المتكلِّم بالحق، فإنه بخُطَبِه يزيدُ في علومِ السامعين، وبفقره يملأ عين المخاطبين والمراد علم الآخرة،

---

(1) رواه ابن ماجه (2144)، والدارمي (2432).

والعلم المسمّى بالعلم الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، وفي قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

فإن قلت: هل يزيد في العلم الإلهي النطقُ الذي نطاقه ضيق عن إحاطته؟.

قلت: نعم؛ فإنَّ له مرتبتين؛ إحداهما: ما يمكن أن يتكلم بطريق الإشارة والبيان، والثانية: لا يحيط بها إلا الوجدان، والمقول: أمارات لما لا يمكن إلاّ أن يقال، ولا يحصل إلا بترك القيل والقال.

وأمَّا الثاني: فإن تحقق بمقام قرب النوافل والفرائض، فإن وجهَ مثله وجهٌ غير كذاب، ومن صدق في النظر إليه ذكر الله الوهاب ساعةَ تعلّق رؤيته به، وإن لم يكن هناك تكلم وخطاب، وهو كالسلطان تحت الإضمار لا يتنبه الأغيار.

وأمَّا الثالث: فبأن يكون عمله عملاً أخرويًا، قالوا: والفعل أرجح في التابع المقتدي من القول كما قيل:

وإذا المقال مع الفعال وزنته رجح الفعال وخف كل مقال

وفي «المثنوي» [...][1].

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[2] حيث لم يقل صلوا كما قلت لكم.

فقد عرفت مِن هذا البيان مَن هو جدير بالصحبة من الإنسان، فإياك وصحبة المدَّعين حتى لا تهلك مع الهالكين؛ فإنَّ قرين السوء يأخذ بمجاورته حكمه، وإذا سرى مرض الجذام لا يقبل العلاج – والعياذ بالله الملك العلام.

فإن قلت: قد رأينا أشخاصًا يترددون إلى المشايخ الصوفيين بما ذكرت من الأوصاف مع أنهم لا ينتفعون بالصحبة كثيرًا ولا يُقلعون عمَّا كانوا عليه من الأحوال والأفعال، قلت: قد قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] وأهل العصر، وإن كانوا مُعتقَدين إلا أن لهم أغراضًا فاسدةً دنيويةً تمنعهم عن الانتفاع، وأقل الأمر أنهم طالبون للكرامة، وما هو خارق للعادة، وليس ذلك إلا من شدة تعلقهم بعالم الأجسام.

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه البخاري (595).

إذ خوارق العادات إنما هي من الكونيّات، وفوقها عالم الإله، وعالم الكون بالنسبة إلى عالم الإله كالمناصب الدنيوية بالنسبة إلى المراتب الأخروية، فكما أنَّ العُبَّاد والزُّهَّاد لا يلتفتون إلى الجاه، كذلك العرفاء والعلماء بالله لا يلتفتون إلى ما هو بمنـــزلتِه من إظهار الخوارق المتعلقة بعالم الكون؛ لأن تفاوت درجاتهم لا يظهر إلا في العلم الإلهيِّ، وكون بعضهم ممنوعًا من التصرّف لا يقدح في شأنهم، بل هو إشارة إلى إطلاقهم عن كل قيد.

مثاله: إن بعض من لم يكن وزيرًا أعظم قد يكون أعلم وأعقل وأفضل من الوزير، وإن كان سوقيًا بقَّارًا أو صبَّاغًا أو كان دهقانًا ونحوه، كما لا يخفى فمن كان طالب الكرامة كيف ينتفع بالشيخ وصحبته؟ وطلبه ذلك شهوة من الشهوات.

وقد قال مَن قال من أصحاب الكشوف وأرباب الأحوال: «يا ولدي سد الباب، واقطع الأسباب، وجالس الوهاب يكلمك من وراء الحجاب».

ولذا حُرم أكثرُ صوفية الزمان الانتفاع بصحبة الشيخ بناءً على فقدان الشرائط والأسباب، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:190] أي: خانقاة الشيخ ودائرةَ صحبته؛ فإنه كما أنَّ للكعبة وطوافها وزيارتها آدابًا وشرائط، فكذا طواف بيت القلب والتردد في صحبة أهله آداب وأسباب لا بدَّ لطلاب الحق من رعايتها والعمل بها.

واعلم أنَّ الشيخ العارف والمرشد الكامل بمنـــزلة تعيُّن الكعبة التي هي صورةُ تعيُّن سرِّ الهوية الذاتية؛ ولذا أمر الله تعالى بالتوجّه إليها.

ويمينُ ذلك الشيخ بمنـــزلةِ الحجر الأسود.

وفي الحديث الصحيح: «**الحجر الأسود يمين الله في أرضه، فمن لم يدرك بيعة رسول الله فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله**»(1) ذكره الإمام السخاوي في «المقاصد الحسنة».

ولما كان الحاجُّ تعيَّن له تقبيلُ الحجر الأسود نزل منـــزلة الملك الأعظم ويده؛ لأنَّه يعطي العهدَ بالمصافحة للمستلم أيضًا عهدًا عند الله تعالى، فإذا كان العهد الظاهر يحتاج إلى المصافحة، كما يفعله الملوك السلاطين عند الجلوس على سرائر السلطنةِ الصوريةِ فكذا العهد الباطن يحتاج إليها، كما يفعله الخلفاء الأمناء الأدباء عند الجلوس على سرير

(1) وذكره المناوي في فيض القدير (410/3)، والعجلوني في كشف الخفاء (417/1).

السلطنة المعنوية، فالصوفي إذا لم يعط العهد، ولم يأخذه مات ميتةً جاهليةً؛ لأنّه لم يعرف إمام زمانه.

فكعبة الصوفية هو الشيخ الكامل، والحجر الأسود الذي هو ياقوت من يواقيت الجنة يمينه الذي هو سرٌّ عظيم من أسرار الحضرة، وهي يد كمال كما أنَّ يساره يد الجلال وكلتا يديه تعالى، وإن كانت يمينًا مباركةً إلاّ إنّه لما خمر طينة آدم عليه السلام بهاتين القبضتين ظهر منهما آثارٌ مختلفةٌ حسبما تقتضيها حكمتُه التابعةُ لعلمه التابع للمعلوم، فهو العين الثانية فللشيخ تربيةٌ بيدِ الجمالِ والجلالِ لكن لما كان غاية الجلال هي الجمال، والرحمةُ سابقةٌ على الغضب لزم تقبيل اليد اليمنى، وهنا سرٌّ عظيم قد حواه هذا الكلام الإجمالي؛ فاجتهد حتى تقف على تفصيله.

فإن العهد المأخوذ يمنعني عن الكشف فوق هذا، ثم إن زمزم هو ماء الحيوان الذي يظهر من ينبوع قلب الشيخ ويجري على لسانه فيشربه قلوب الأصحاب الخلص، ويتوسلون به إلى صحة الباطن والحياة الحقانية الأبدية، فلزم على الصوفية الواقفين على هذه الأسرار أن يترددوا إلى الشيخ وخانقاه، إن كان له ذلك ويتوجهوا إليه مع قلوب فارغة على الأطماع المذمومة خالية عن الأغراض الفانية المردود؛ فإنه قبلة الحاجات المعنوية وطور المناجاة الحقانية؛ فهم حجاج المعنى، وهو قبلتهم وكعبتهم، وكما أن الصلاة لا تصح إلا بالاستقبال إلى الكعبة، وإن قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115] فكذا التوجه الباطني لا يصح إلا باستقبال إذا كان إلى جانب الشيخ الذي من أخذ حظًّا من التوجه إليه، فقد أخذ حظًّا من التوجه إلى سرِّ النبيِّ ﷺ ومن أخذ حظًّا من التوجه إليه، فقد أخذ حظًّا أوفر من التوجه الكلي إلى الذي فطر السموات والأرض، فيتم أمره ويكمل معرفته، ويصير مستحقًّا للخلافة العظمى والوراثة الكبرى والرتبة العليا، وإذا لم يكن الشيخ كما قلنا، والصوفي كما حررنا، والأدب كما ذكرنا، فما معنى الخانقاه والتردد إليه؟! وما معنى الشيخ والاعتماد عليه؟! فإن غاية مثل هذا التردد والاتباع والصحبة هي النكول والويل والثبور، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166 - 167] أي: من نار جهنم القطيعة، والفرقة مع ملابسة نار جهنم أيضًا أن عالمه الله تعدله وقهره، وقال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

المُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67] أي: حق التقوى؛ لأنه الفرد الكامل، وهو إنما يكون رعاية أحكام الشريعة وآداب الطريقة، والوصول إلى أنوار المعرفة وأسرار الحقيقة، وقال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 38] أي: العمل الخير الصالح والصوف الفاسد والشيخ، الكاذب إذ لم يحصل من صحبه سوى الندامة والخسارة، وقال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: 27]، ووارث الرسول ﷺ أيضًا؛ لأن الذين يبايعون الرسول إنما يبايعون الله، فكذا الذين يبايعون وارث الرسول ﷺ؛ لأن دعوته أيضًا على بصيرة، فطريق الرسول وطريق وارثه إنما هو طريق الحق أي: موصلة هادئة إليه، وهي الصراط المستقيم؛ فمن لم يمش على هذا الصراط، ولم يتخذه مع وارث الرسول بأن زاغ عنه إلى طريق أهل الأهواء من الزنادقة والملحدين، فقد ارتجع به الجسر وتقوى في قعر نار القهر، فهذه إشارة الآيات على الإجمال.

وإياك وأن تقول: إن هذا تفسير للقرآن بالرأي؛ فإن للقرآن ظهرًا أو بطنًا إلى سبعين، وكل حرف منه محتمل لما لا يحصى من المعاني.

فإن أنت قلت ذلك، فقد كفرت بالإشارة،[1] ثم إن يوسف عليه السلام قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38].

وقال الكفار: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:170] وبينهما بون بعيد؛ فإن ملة آباء يوسف إبراهيم وإسحاق ويعقوب في الصورة والسر والخفى، فالروح في المعنى إنما هي التوحيد والمعرفة، والاتباع بهذه الملة أمر لازم؛ لأنه ليس فيها شرك وميل إلى ما سوى الحق تعالى، وأما ملة آباء الكفار؛ فهي الكفر والجهل والعادة والبدعة، والاجتناب عن هذه الملة أمر واجب؛ لأنها زائفة باطلة، والتدين بها إنما هو لأهل الهوى وعابدي الدنيا لا لمن ترك الكل، وتوجه إلى الحضرة العليا، فإذا عرفت هذا فتقول لأهل الحق آباء معنوية، وهم المشايخ الماضون والحاضرون، وملتهم أيضًا التوحيد والمعرفة والهدى، فهم يقولون: «إذا عرض لهم ما يخالف سير الماضين وآداب المتقدمين نحن لا نعمل به؛ لأنه لم يفعله القدماء، وما يفعلوه فهو رد؛ إذ هم أرباب القوانين الحقة باعتبار ختمتهم في مرتبتهم، وليس لنا إلا الاتباع لا إحداث ما ليس في دينهم؛ فهؤلاء أهل السنة حقًا».

---

(1) غير واضحة في الأصل.

وأما أهل الباطل فلهم أيضًا آباء معنوية، وهم المغرورون المكورون الزائفون عن طريق الحق، وملتهم الشرك والجهل والهوى، فهم يقولون إذا عرض لهم أمر يخالف طريق الماضين وشهوات السابقين نحن لا نعمل به بل نتبع آباءنا في أهوائهم، فهؤلاء أهل البدعة تحقيقًا ﴿إِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف:46]، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: 46].

ولأكثر صوفية الزمان حظ أوفر من عبادة الأصنام واتباع الهوى، ولو شئت لفضحتهم لكن القليل يدل على الكثير، والسرُّ أولى، والله أعلم وأعلى.

الفصل الخامس /

في لباس أهل الطريقة وسرهم وكسوتهم

اعلم أولاً يا طالب التجرد عن ملابس الكون، ويا غالب التعري عن غواشي البين والبون أن لباس الخلق والحق لا يجتمعان في جو الوجود، وأن معنى التخلية مقدم على التحلية عند أهل الشهود فلابس ثوبي زور لم يستحق لباس المصدقين، والتحلي بحلية أهل اليقين، وقد ركّب الله تعالى فيك أمورًا هي الطبيعة والنفس والقلب والروح والسر الخفي، وكل منها يستدعي لباسًا مناسبًا يواريه وأنت تعرف أن الطبيعة هي ضد الشريعة، ولها أفعال قبيحة هي بمنـــزلة السوءات، فسترها إنما هو بلباس الشريعة، أي: بالعمل بأحكامها، وإن النفس هي ضد الطريقة، ولها صفات ذميمة نفسانية كالكبر والغضب والعداوة والحسد ونحوها وسترها، إنما هو بلباس الطريقة أي: بالتأدب بآدابها والمجاهدة بأسبابها.

والأول: لباس في الظاهر إذا المعاصي مما له تعلق بالبدن الذي هو من عالم الملك والشهادة.

والثاني: لباس في الباطن إذ الصفات المذكورة مستورة، ومبدأها النفس الباطنة التي هي مبدأ ظهور كل فساد وشر، ثم إن من شأن القلب أن يتقلب بين إصبعي الرحمن فله طمع في الدنيا وما فيها وهو سواه، مستهجنة عند أهل الآخرة، وأهل الله تعالى ولباسه الصدق في الطلب.

وشأن الروح أن يتعلق بغير المولى ولباسه المحبة الإلهية.

وشأن السر رؤية غير المولى ولباسه رؤية المولى لا رؤية الدنيا والعقبى ولباس الخفي بقاؤه بهوية الولي، فبسترها بهوية هوية غير الولي، فيكون مستورًا ملبوسًا في جميع المراتب بلباس حقيقي بعد التجرد عن لباس مجازي.

فإذا عرفت هذه المراتب وملابسها، وتلبست في كل مرتبة بما يناسبها خلعت عليك خلعًا لم يلبسها الملوك واستغنيت عن الخِرق التي يلبسها الصعلوك، وأهل السلوك، إذ المقصود الأصلي تخلية الباطن، وتحلية لا تزيين الظاهر وتحشيته لكن لما كان من أحكام الأسماء المتقابلة أن يتحقق بها أهل الله تعالى، ومن يتبعهم في مواطنها المخصوصة بها أرادوا أن يجعلوا الاسم الظاهر عنوان الاسم الباطن، ومرآة متقابلة له بحيث يحصل

لهذا النظر وبالاعتبار التيمن والتبرك لأهل البداية، ويظهر بتلك الصورة البديعة الآثار التخلق والتشبه لأهل النهاية، فجعلوا لباس الطريق بحيث يدل على المعاني المقصودة بينهم عملاً بالظاهر والباطن، ورعاية لجميع المواطن؛ إذ تطبيق الصورة بالمعنى، وتحقيق المعنى من طريق المبنى طريق أهل الله الآخذين عن كل مقام حظهم الأوفر المحرزين في كل مرتبة نصيبهم الموفر، فأين من يمشي على رجل ممن يطير بالجناحين، ومن يقوم على شفا جُرف هار ممن يربع في بسيط الغبراء؟ يأمن فيه الحين.

اللهم اجعلنا ممن أحب الجنة، لكونها موعد رؤيتك ومشهد مشاهد الحقيقة في عالم صورتك، واحفظنا من رفض المبنى الذي يحفظ المعنى، وترك القشر الذي لا يكمل لذة اللبِّ إلا بحماية الكبرى.

ثم اعلم أن الاختلاف بين الأمة ليس في أمر واحد بل في أمور متعددة، والاختلاف رحمة إذا كان نافعًا للناس في أمور دينهم ودنياهم، والتفاوت نعمة إذا كان سببًا لنظام حالهم في أولاهم وأخراهم، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**لن يزال الناس بخير ما تباينوا فلو تساووا أهلكوا**»[1]، وهذا المعنى مستقر في عقول العامة بحيث لا مجال لإنكاره، فمن الاختلاف النافع للناس تفاوتهم في ألبستهم وأكسيتهم، وتحقيقه أن السلطان بائن بين أتباعه وحواشيه، فخصَّ كل صنف منهم بنوع لباس يتميز به عن الآخر في السفر والحضر كطائفة الرجال لهم زي مخصوص يميزهم عن طائفة الركبان، وقس عليهما سائر الأصناف، وإنما فعله أرباب القوانين من السلاطين بإشارات أساطين الدين، ودلالات واصفي الدين وأرباب أهل اليقين، وذلك لأن «السلطان ظل الله» أي: الحقيقة الجامعة للحقائق كلها والظل ليس بمستبد بأمره، بل هو تابع للشمس، وإنما يرى استبداده من لا يقدر على رجع البصر إلى السماء، ولا يستطيع أن يفرق بين السراب والماء، فظهر أن مبدأ كل قانون إنما هو أهل البطون، لكن لما كان تصرفهم في الأمور خفيًّا ظن الغافلون عن بواطن الأمور، وخفيات الشؤون أنه ليس في أيديهم.

ألا ترى أن البدن قائم بسريان الروح الحيواني، وبتدبير روح السلطان وتأثيره، ولكن لما كان مبدأ الحركات والأفعال هو الأول احتجب رأيه عن رؤية تأثير الثاني مع أن الإنسان به لا بالأول لاشتراكه بين ذي الروح جمعًا، فكما أن حقيقة التأثير من الروح

---

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (506/6).

السلطاني في عالم الأنفس فكذلك حقيقة التأثير من أهل الإلهام الرباني أي: في عالم الأفاق فلهم سلطان عظيم على الكل كسلطنة الشمس، فاعرف هذا؛ فإنه ليس وراء عبادات الصور قربة لكن بقي أن أرباب الظواهر متبوعون في عالم الصورة والملك والشهادة بحسب الاسم الظاهر؛ لتحقيقهم به بالفعل بخلاف أصحاب البواطن؛ فإنهم متبوعون في عالم المعنى والملكوت والغيب بحسب الاسم الباطن؛ لتحقيقهم به بالفعل.

فالفرقة الأولى: متبوعة بحسب الاسم الظاهر تابعة بحسب الاسم الباطن.

والثانية: بالعكس هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فينعكس الأمر، فيصير التابع متبوعًا، والمتبوع تابعًا؛ إذ سلطنة الآخرة باقية، والظهور الدائم فيها إنما هو لأهل البقاء كما أن سلطنة الدنيا فانية، والظهور المنقطع فيها إنما هو لأهل الفناء.

ومن هنا عرفت أن الآخرة قلب الدنيا - يعني: كانت روحانية لطيفة - فتقلبت وتحولت الجسمانية الكثيفة إلى الروحانية اللطيفة؛ فحقيقة الدنيا والآخرة واحدة إلا أن الباطن اللطيف لما ظهر بصورة الجسم سُمي كثيفًا فعندما أفاء تعينه يصير إلى أصله، والأول: إظهار الباطن، والثاني: إبطان الظاهر.

قالوا: الواصلون إلى الفقر الحقيقي يظاهر غناهم الباطن في الآخرة، فلهم الدولة الدائمة.

والواصلون إلى الغنى الصوري يظهر فقرهم المعنوي فيها، فلهم الدولة المنقطعة كالسلاطين والملوك وأرباب الجاه، والمنال، المال المحجوبين عن الله تعالى، وتجليه الباطن بما لهم من تجليه الظاهري قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:9].

ومن سرِّ الروحانية الأخروية عدم بلي نفوس الكُمَّل في قبورهم.

ومن سرِّ الجسمانية الدنيوية بلي أجساد الناقصين فيها، فإن أول ما يظهر السلطنة لأهل الكمال بعد وفاتهم الصوري، بل عنده وأول ما يختفي لأهل النقصان عنده أيضًا.

قال الشيخ صدر الدين الكبير - قدس سره: «إن نفس الكُمَّل بركة تسري في أبدانهم وقواهم، فيحصل لهم ضرب من البقاء، ولا تخل صور أبدانهم، وإن فارقتها أرواحهم بل تبقى إلى زمان انتشاء النشأة الآخرة» كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله تعالى حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(1) انتهى.

---

(1) رواه أحمد في مسنده (15575)، وأبو داود (883)، والنسائي (1357).

قال مرجع طريقتنا الجلوتية الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره: أهل التوحيد لا ينفسخ، ولا يتفرق أجزاؤهم بل تدوم على النضارة؛ إذ تقاهم التوحيد من العفونة الموجبة للتفسخ؛ فأجساد الأنبياء في غاية الطراوة حتى يظن الرائي أنهم قائمون، وليس فيها انتقاص جزء أصلاً، وأجساد الأولياء أيضًا لا يأكلها التراب إلا أنها ليست بمثابة أجساد الأنبياء؛ لأن أمزجتهم أعدل وأمزجة الأولياء في رتبة الاعتدال، فلا يبعد الصفرة في بشرتهم وساهم دون بشرة الأنبياء؛ إذ الأولياء تابعون للأنبياء في كلِّ كمالٍ، ومرتبة التابع دون مرتبة المتبوع، وهذا واقع في البين.

ثم نرجع ونقول: كما أن لأعوان السلطان الذي هو ظل الله اختلافًا في اللباس بحسب ما رآه الإمام كذلك لأتباع السلطان الذي هو مظهر سر الحقيقة الإلهية اختلافًا فيه بحسب ما لهم ذلك المظهر التام، فانفرادهم بنوع لبس ليس لأجل الشهرة في الأصل، بل يتميز كل منهم عن الآخر بحسب الأوصاف العارضة، والأحوال الطارئة مع ما فيه رعاية معنى دقيق وسر عميق.

والعجب من أهل الرسوم أنهم وضعوا لفظ «فَعَل» لأجل الوزن دون غيره؛ لكونه مشتملاً على شيء من حروف الشفة والوسط والحلق، وأعجبهم ذلك الوضع، وفرحوا بما تضمنه من الاشتمال المذكور فرحًا شديدًا، كما ينبئ عنه كتبهم الصرفية، ثم إنهم استبعدوا أن يكون في وضع لباس الصوفية معنىً يغيره المعنى العقلي، ويرتضيه الكشف، جهلاً منهم بالمعاني ووقوفًا عند المباني؛ إذ ليس سادات الصوفية - قدس الله أسرارهم - أدنى منهم علمًا وعملاً بل كما أنهم من المراجيح أنوار أهل الحجة والبرهان، كذلك هم من أصحاب الأحوال والكشوف والعيان، وبعيدٌ أن يكون وضع العاقل مبينًا على معنى وحكمة وضع العارف الحكيم خاليًا عنهم، مع أن هؤلاء السادات إنما يفهمون الأمر بعقل المعاد، ففيه الدقة والصول إلى الغور، وهم إنما يفهمونه بعقل المعاش؛ ولذا يزول بالتشكيك على الفور، وكيف يليق بالنطيق الفهم أن يملأ فمه بالألفاظ المهملة، وبالصديق الكليم أن يأخذ برأس أخيه ولحيته فيما يخالفه من الأمور المفصلة، والمجملة مع أنه في عين ما وقع منه من النـزاع والمجادلة، وحاول في دفعة أنواع المقاولة، وذلك لأن الصوفية أيضًا يقولون لهم: لماذا امتاز أهل الثروة وعلماء الرسوم بفروة الثعلب والنمور، ونحوها من ذي الشهرة والظهور؟

فإن قالوا: بالتعارف عرفًا والتقادم وقتًا؛ فهم قائلون أيضًا بذلك في ألبستهم

وأكسيتهم فلا فصل بل ذي الصوفية أقرب شبهًا من ذي الأصحاب - رضي الله عنهم - فإن أكثرهم كانوا يلبسون العباء والشملة، ويقاسون شدائد البراغيث والقملة، ويقنعون بما قسم الله المولى من الأدنى والأعلى.

وأما علماء الزمان فيرغبون عن ثياب البذلة ولباس الفقراء، ويشاركون في الخلع الفاخرة الكبيرة، ولو قلت فيه لقالوا: إظهار النعمة لازم، وتعظيم العلم واجب، وقد نسوا من عض العلم بنواجذه وأضراسه، وما أطفأ في ليالي الاجتهاد فتيلة سليطة، وبتراسه من العلماء المتجافين عن المضاجع في جنح الأوقات المتجردين عن لباس الاستراحات المكتفين بالإظهار في مدة الأعمار.

فيأيها الرجل، أتظن أن الله تعالى غيبهم عن معرفتك، فأعليت على هذا لواء كلمتك، أما والله قد عرفوا وأطلقهم الحق عن القيود التي قيدت بها رجليك وزهدوا، فجعلهم الله تعالى حجة عليك، وقد نهى النبي ﷺ عن الشهرتين في اللباس اللَّين الأرفع، والغليظ الأقوى، فالمرقعات الحيدرية والقلندرية والهندية وغيرهم، من لباس الشهرة، كما أن رقاق ألبسة العوام كذلك، ومحققو الصوفية سلكوا طريق الاعتدال، فلا للإنكار عليهم مجال، نعم قد يلبس بعض السُّلاك الخرقة المرقعة كسرًا للنفس وتنفيرًا للناس، ثم إذا تمّ المصلحة عاد إلى لباسه الأول، ويقال له: «الموت الأخضر» عند الصوفية، وهو طرح الرقاع بعضها على بعض مقاساة شدائد من المجاهدات؛ لأنها حمل النفس على المكاره، وليس المرقع مكروه عندها بالنسبة إلى من اعتاد.

وقد حكى لي شيخي وسندي رَوح الله روحه: أنه لبس الخرقة المرقعة مرة في مدينة «فِلبه» من الديار الرومية[1]؛ لتنفير الناس، وذلك أنه قال: لما رأيت ازدحام الناس عليَّ وعلى وجه لا يوصف أتيت ساحل النهر الكبير الذي يجري وسط تلك البلدة، وكان هناك مزبلة، فالتقطت من أنواع الخرق والقطع وغسلتها في النهر، ثم عملت منها خرقة عظيمة غريبة ولبستها يوم الجمعة حين اجتماع الناس للوعظ والتذكير، فاختلفوا في حقي أيامًا، قال: ثم زال عنهم، فنسبوا إليَّ من الجنون بسبب ذلك، وتحول الاختلاف إلى الاتفاق، عمدت إلى عباء أبيض، فعملت منه خرقة لطيفة، ولبستها في يوم مجموع له الناس، فلما تمَّ أمر العظة، سرت من جانب السوق فمررت على قصاب في أمام حانوتة

---

(١) انظر: تفسير روح البيان للمصنف (120/8).

«كَرشان»[1]، فقبضت الواحد باليمين، والآخر باليسرى، وعلى تلك الخرقة البيضاء اللطيفة فجاوزت السوق، وأنا على تلك الحالة، والناس مجتمعون ناظرون نظر التعجب والإنكار، فمن قائل بالجنون، ومن قائل بالسحر حتى تفرقوا، واسترحت أنا أيامًا، قال: ومثل هذا وإن كان لا ينتج شيئًا في الحقيقة لكن بفعله البعض في الأوائل، وإلا واسط لبعض الدواعي الحاملة عليه في مرتبة الطريقة، وعليه يبتني كل ما يخالف عادات الجمهور، كما سيأتي بعض منه أيضًا في هذه السطور وإلا فالنافع هو التسليم والرضا والدوران بما قدر الله وقضى، كما لا يخفى وإذا تمهد هذا. فنقول: إن الألوان كثيرة كل منها إشارة إلى معنى من المعاني المقصودة المعتبرة عند القوم.

فلون البياض الجمال للصفاتي، وإليه الإشارة بالنهار.

ولون السواد الجلال الصفاتي، وإليه الإشارة بالليل.

ولونا الصفرة والحمرة بينهما إذ الصفرة ميل إلى البياض، والحمرة إلى السواد.

وأما لون الخضرة فلون الكمال، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:80].

قال حضرة الشيخ الشهير باقتادة – قدس سره: «خطر ببالي أن الأخضر من لباس السادات، فتركته تأدبًا، واخترت ذلك اللون في تاجي فقط لا أحب لبس السواد لكن لبست يومًا عمامة سوداء ثم أخرجتها عن رأسي؛ لأن النبي ﷺ ما لبسها إلا يوم فتح مكة، وقد خطب في ذلك اليوم، وعلى رأسه عمامة سوداء ومعه سيف، ثم قال: «وأهلها من وصل الفناء الكلي، وأما في زماننا فيلبسونها بمجرد التقليد حتى يلبس الطباخ، وأهل السوق في بلاد العرب» انتهى كلامه في «الواقعات المحمودية».

واختار أكثر الخلوتية – بالخاء المنقوطة – من الألبسة الأبيض إشارة إلى الجمال الصفاتي، وآثر الجلوتية – بالجيم – الأخضر منها تلويحًا إلى الكمال، والكل مصيب في إشارته، وقد اختار الرهبانية الأسود من الأكسية ميلاً منهم إلى الجلال والفناء؛ لأن لهم زهدًا وفناءً بالنسبة إلى اليهود، ولكنه فناء مذموم لعدولهم عن الحق، وميلهم عن الصراط المستقيم؛ ولذا قالوا: رؤية النصارى في المنام إشارة إلى الفناء المذموم، وهو أقرب من الإسلام من اليهود بشهادة النص.

---

(1) انظر: تاج العروس، مادة: كرش.

وحُكي أن رهبانًا أتوا إلى حضرة المولى جلال الدين الرومي صاحب «مثنوي» - قدس سره - فركعوا له، فقام المولى جلال الدين، فتواضع لهم بحسب الظاهر، وإن كان أمرًا منكرًا عند أهل الشرع لكن فيه إشارة لطيفة، وهي أن الرهبان كانوا مظاهر الجلال، وكان الجمال باطنًا فيهم والمولى جلال الدين كان أهل الجمال، وكان الجلال باطنًا فيه؛ إذ النشأة الإنسانية الكمالية حاملة لكليهما لكنهم يتفاوتان بحسب الظهور والبطون، فالحكم للغالب منها فعلاً وظهورًا لا للمغلوب قوة وبطونًا؛ فتواضع المولى جلال الدين للجمال الباطن فيهم الظاهر فيه، وتواضع الرهبان للجلال الباطن فيه الظاهر فيهم، فكل تواضع لما في نفسه من الحقيقة الجمالية الجلالية، فلم يلزم الكفر والإيمان عند الحقيقة ولله در الأولياء ضاعف الله حسناتهم في إشاراتهم.

واختار أهل البداية من فقراء الطريقة الجلوتية - بالجيم - لبس الخرقة السوداء؛ لأن أهل البداية أهل الحجاب والبرزخ، وذلك عين الجلال، فيناسب ذلك اللون حالهم في سلوكهم سواء كانوا فقراء في نفس الأمر أو أغنياء، فإذا وصلوا إلى الكمال يخرق الحجب والأستار، وقطع البرازخ والعبور عن جسر عالم الأغيار، وتجلى لهم النور الأخضر من سرادقات وغشيهم النور الأسود حين الرجوع إلى حضرة صفاته، فلهم التلبس بالأخضر، والأسود على حسب التجليات من الله الأحد الصمد ثم إن تاج الجلوتية إنما يكون من الجوخ الأخضر لا غير، وأما الأبيض ونحوه فمن لباس الزينة لا من الطريقة أي: بالنسبة إليهم فإن التيجان مختلفة الألوان، وكلٌ من رؤساء أرباب الطرق اختار لونًا ورسمًا مخصوصًا على حسب ما أُلهِمَ إليه، ورأى المصلحة فيه من حيث الباطن.

وقد روي أن عليًا - كرَّم الله وجهه - لبس قلنسوة حمراء في بعض المغازي هيبة في عين العدو، وعمل به بعض السُّلاك إلى عصر حضرة الشيخ حاجي بيرام ولي - قدس سره - فبدل بالحمرة إلى البياض من الجوخ ثم بدل بالجوخ الأبيض إلى اللبد الأبيض، حسنه حضرة الشيخ الشهير بابن الأشرف الأزنيقي - قدس سره - وإنما فعله كسرًا للنفس لكن أخلافه جعلوه ملعبة وإلى الله المشتكى من التنــزلات.

ثم إن بعض أكابر أهل الطريق جعل تاجه في سبع قطع إشارة إلى الأسماء السبعة المذكورة في ألسنة القوم.

وبعضهم جعله من ثلاث عشرة قطعة كحضرة الشيخ محمود الهدائي الإسكداري - قـــدس سره - من قدوتنا الجلوتية - بالجيم - إشارة بالقطع الاثنتي عشرة إلى اثني عشر

اسمًا من أصول الأسماء وأمهاتها كما ذكرناها فيما سبق، وبالقطعة الأخرى التي تكمل بها الثلاث عشرة قطعة إلى أحدية تعتبر تلك الأسماء، فإن لكل شيء مرتبة فرق، ومرتبة جمع، وجمع المرتبتين مرتبة أخرى، فتلك الأسماء تعتبر من حيث الإفراد، فتكون فرقًا وتعتبر من حيث الأحدية، والجمعية فتكون جمعًا.

وأمهات الأسماء عند الحقيقة أربع: هي الاسم الحي والعليم والمريد والقدير، ولكل اسم ثلاثة تكررات في التعين؛ فالثلاثة أربع مرات يكون اثني عشر، فإذا انضم إليها اعتبار إلى أحاديته يكون المجموع ثلاثة عشر، وكون إمام العمامة البيضاء الجلوتية - بالجيم - مجموعًا منبسطًا متصل الأكوار إشارة إلى مقام الجمع الحاصل بعد الفرق الأول، وكون وراءها متفرقًا منقبضًا منفصل الأكوار إشارة إلى مقام الحاصل بعد الجمع؛ إذ لا اعتبار بالفرق الأول؛ لأنه حال الغفلة لا حال اليقظة، هكذا عيَّنه صاحب المقام الختمي في الطريقة الجلوتية - بالجيم - حضرة الهدائي - قدس سره - وعلم من هذا حال الأكوار عمامة العامة في التفرق إمامًا وخلفًا؛ فإن قلت: لِمَ لم يعكس ما ذكرت من حال أكوار الجلوتية - بالجيم - بأن يكون الإمام متفرقًا، والخلف مجتمعًا؟

قلت: لأن الجمع أقدم ثم يليه الفرق الثاني، فقدَّم المقدم، وأخَّر المؤخر مع أن الوجه ناظر إلى حضرة الحق فالجمعية تناسبه والقفا ناظر إلى جانب الخلق؛ فالتفرقة تناسبه، وبعض من الناس أي: في غير الطريقة الجلوتية - بالجيم - يجمع بين الأكوار مطلقًا إشارة إلى الجمع المحض لكنه ليس بمخصوص بطائفة، بل يشترك فيه بعض أعوان السلطان.

وأما الرسم الجلوتي - بالجيم - في عمامتهم فمخصوص بهم لا يساعدهم فيه غيرهم.

وأما التاج الخلوتي - بالخاء المعجمة - فمعمول من قطعة جوخ عليها رسم دال الاسم الودود، وفي وسطه شكل الخلقة إشارة إلى هاء الهُوية، وفي الاسم الودود إشارة إلى مقام الأبرار والمقربين؛ فإن كان اسم فاعل بمعنى الواد فهو المحب العاشق، وفي الحديث القدسي: «**طال شوق الأبرار إلى لقائي**»(1).

وإن كان اسم مفعول بمعنى الودود، فهو المحبوب المعشوق، والمحبوبية فوق مرتبة المحبية فإن المحب العاشق له رقيق حجاب بخلاف المعشوق، إنه واصل إلى تعينه الخاص به

---

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (91/10)، وذكره القرطبي في تفسيره (233/11).

لا ستر دونه ولا حجاب؛ ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله، وكثير من العشاق، وقع في برزخ العشق فلم يتخلص منه أبدًا، ولو شئت لصرحت ببعضهم لكن الستر أولى، والله أعلم وأعلى.

وإنما نسب المحبة إلى الله تعالى في قوله: «كنت كنـزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف»[1]

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (173/2). وقال الشيخ العطار: وفي رواية أخرى: «فبي عرفوني». فعبّر في هذا الحديث عن الذات البحت بالكنـز بجامع النفاسة والاختفاء، وعن هذا التعيُّن الأول بالعلم الذاتي بقوله: «فبي عرفوني»؛ لأن علمه تعالى عين ذاته، وإنما كان التعيين الأول بالعلم الذاتي؛ لأنه أقدم الصفات، مع أن علم الشيء بنفسه من ضرورياته، على أن علمه بذاته تعالى يستلزم العلم بسائر كمالاته فافهم، نعم صفة الحياة مقدمةٌ على العلم تقدُّم الشرط على المشروط؛ إذ من شأن العالِم أن يكون حيًّا، لكن القصد للمشروط، فكان أشرف الكل وأقدمها، لا يُقال علمه بذاته تعالى يقتضي الإحاطة بكمالاته، وكمالاته لا يُحاط بها لعدم تناهيها، فهو تعالى لا يُعلم ذاته؛ لأنا نقول: العلم الذي يقتضي الإحاطة هو الحصولي لا الحضوري، على أن علمه بذاته عين ذاته، فلا إيراد، وصورة هذا التعيُّن الأول هو التجلِّي الذاتي الأول: أي التجلي بصورة هذا التعين الذاتي، فتجلّى تعالى لذاته بذاته في ذاته، فحصل علمٌ وعالمٌ ومعلومٌ، ووجد الذات نفسه من غير توهُّم سبق خفاءٍ واستتارًا، بل ذلك مجرد اعتبارٍ لا حقيقة؛ فإن الأمر كائنٌ لا محالة، وهذه الثلاثة الحاصلة من هذا التجلي: أعني العلم والعالِم والمعلوم.
وإن شئت قلت: المتجلي والمتجلى فيه والمتجلى له هو شيء واحدٌ ذاتًا مختلفٌ اعتبارًا.
وترجع هذه الثلاثة إلى شيءٍ واحد، وهو الذات البحت، قبل اعتبار هذا التعين والتجلي الذاتيين، فإن مرتبة الأحدية المنطوية على كل شيءٍ تنفي التعدد والتغير لذاتها، وقد بقي مرتبةٌ واعتبارٌ ثالثٌ للوجود، وهو ألا يأخذ بشرط شيءٍ، ولا بشرط لا شيء، ويُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالهوية السارية في جميع الموجودات، وبقي اعتباراتٌ متداخلةٌ فيما ذكرناه من المراتب، وسيأتي التعرض لها إن شاء الله تعالى.
وقد جعل العارف الفرغاني في مقدمته على شرحه لتائية سيدي عمر بن الفارض أول تعيُّنٍ تعيَّن به الحق تعالى هو الوحدة الذاتية: أي غير الزائدة على الذات الأقدس، بمعنى أن ما يُنسب إلى ذاته تعالى يُنسب إلى هذه الوحدة، ولها اعتباران أصليان:
أحدهما: سقوط الاعتبارات عنها بالكلية، وتُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالاسم الأحد، ومتعلقه بطون الذات وإطلاقها وأزليتها.
والاعتبار الثاني: ثبوت الاعتبارات الغير المتناهية لها: أي لتلك الوحدة الذاتية، مع اندراجها فيها اندراجًا جُمَليًّا في أول رتب الذات، وتُسمَّى الذات بهذا الاعتبار بالاسم الواحد، ومتعلقه ظهور الذات ووجودها وأبديتها، فكانت الوحدة المذكورة برزخًا بين هذين الاسمين ومنشأً لهما، وهما متفرعان منها.

دون العشق؛ لأن العِشق - بكسر العين المهملة - إفراط المحبة، وصفات الله تعالى معتدلة لا إفراط فيها، فحال الأكملين بعد الفرق الثاني هي المحبة لا العشق لتنـــزلهم إلى مرتبة الاعتدال، واستواء كفتي ميزانهم الفرقي والجمعي؛ فاعلم ذلك.

وأما القلنسوة اللبلدية المسماة بالفارسية «بكلاه» فإنما اختارها حضرة المولى جلال الدين - قدس سره - إشارة إلى الفناء المحض؛ ولأن واحدة منها تستوعب العمر فيتخلص لابسها من مؤنة التجديد، ونعم ما فعله؛ فإن الدنيا وزينتها لا بدَّ لها من الفناء، وأهل الفناء لا يختار منها إلا ما يبقى؛ فافهم، وهذه أحوال التيجان على رسوم أهل الطريقة.

وأما عماماتهم: فالسادات من الطرفين أي: من جهة الأب والأم أو من جهة الأب فقط، فيلبسون العمامة الخضراء، ومن طرف الأم فقط يكتفون بالعلامة الخضراء، كما في «الفتاوي اليحياوية» قال الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ

=

وهذه الاعتبارات الثابتة للواحد في أول رتب الذات لا مغايرة بينها ولا تَميُّز ولا تفصُّل، بل لا مغايرة بينها وبين الذات في هذه المرتبة، بل هي عين الذات، بمعنى أن كل ما يُضاف إلى الذات يُضاف إليها: من الجمعية والاشتمال على الكل، حتى أنه لا مغايرة في هذه المرتبة بين هذين الاعتبارين المذكورين؛ لأن هذه المرتبة لذاتها تنفي التعدد والغيرة، فإذن كلٌ من الاعتبارات عين الآخر بل عين الذات.

قال العارف الفرغاني: ولا يعرف ارتفاع المغايرة بين الاعتبارات في أول رتب الذات، إلا من ارتفع حالاً ومقامًا عن التقييد بالمراتب المقيَّدة بأحكام الكثرة.

ولارتفاع حكم هذه المغايرة في هذه المرتبة حكم بعض أكابر المحققين من أهل الله بأن (الواحد الأحد) اسمٌ واحدٌ مركبٌ كـ (بعلبك)، وعني بهذا البعض حضرة سيدنا الشيخ قدَّس الله سرَّه.

ويُسمِي بعضهم هذه الاعتبارات المندرجة في الوحدة في أول رتب الذات بالشؤون الذاتية، وهي مسمَّى الأسماء الذاتية والنسب الإلهية المتفصلة تفصيلاً لا حدَّ له ولا عد، في ثاني رتب الذات الأقدس مرتبة الأسماء والصفات، ويدل عليها باطن اسم الله، وباطن اسم الرحمن، والاسم الأحد، والواحد، ومفهوم جميع أسماء الضمائر ومفاتيح الغيب، فالذي يعيِّن هذه الشؤون والاعتبارات ما في المرتبة الثانية، كباقي المراتب من الصور والآثار، بغيبها وأزلية أزليتها.

ولهذا الغيب الذي يعين ما فيه ما ذكرنا، وقعت الخشية والرهبة لسيدنا محمد ﷺ المشار إليهما بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:9]؛ لأنه ربما يكون في هذا الغيب والرتبة الأولى ما لم يتعيَّن بالمرتبة الثانية بعد.

فالاطِّلاع على ما في علمه تعالى لا يُوجِد الاطِّلاع على سائر هذه الاعتبارات الغيبيَّة والشؤون الذاتية. كما في كشف الأسرار (ص 87) بتحقيقنا.

الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام:85]، وفي ذكر عيسى عليه السلام دليل على أن الذرية الواقعة في الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:84] أي: وهدينا هؤلاء الأنبياء من ذرية نوح أو من ذرية إبراهيم عليه السلام، وهدينا أيضًا من ذرية زكريا ويحيى إلخ تتناول أولاد البنات، فيكون الحسن والحسين - رضي الله عنهما - من ذرية سيد المرسلين ﷺ مع انتسابهما إليها بالأم، ومن آذاهما فقد آذى ذريته عليه السلام كما في حواشي ابن الشيخ.

وأما بنو أمية فلم يرضوا بكون الحسين عليه السلام من ذرية النبي عليه السلام من حيث انتسابهم إليها بالأم، والآية دليل عليهم؛ فإذا كان الانتساب صحيحًا سواء كان من الطرفين أو من طرف واحد فقط صحَّ التعمم بالعمامة الخضراء للسادات مطلقًا في الحقيقة، وإن فرق العرف بينهم بحسب الظاهر.

وأما السيد الصحيح السالك إلى طريقة جده عليه السلام علمًا وعملاً وحالاً فلا يحتاج إلى العلامة مطلقًا كما قال من قال: «اجعلوا لأبناء الرسول علامة» أن العلامة شأن من لم يشتهر، نور النبوة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر، وإذا عرفت هذا أمسكت لسانك عن الطعن، فيمن كانت سيادته من طرف الأم فقط، فإنه سيد بلا ريب، ومعنى السيادة في الحقيقة الحرية عن رق الكونين، بل التسيد على رقيقي الكونين، والغلبة عليهم بالمقام العالي، والتصرف الكمالي؛ فإن قلت: هل في العمامة إلا رفع قيمة فائدة أم لا؟ قلت: رعاية الأوسط أولى بحسب الحال كما في الكفن.

وأما بعض الممكورين فيتعممون بالأرفع قيمة زعمًا منهم أن الرأس أعلى أجزاء الجسد، وأفضل فيلزم تعظيمها، وليس كذلك فإن رئيس الأعضاء والقوى هو القلب، فيلزم تعظيمه بقطع طمعه عن الدنيا وشهرتها، وهو الأوجب عند أهل الطريق.

وأما غير السادات الصوفية فيلبسون ما هو السنة في طريقهم كالعمامة البيضاء في الجلوتية - بالجيم - والسوداء في أكثر الخلوتية، وليس العمامة الحمراء من سنة المشايخ، ومن قبلهم أصلاً، والأصل في لبس كل لون من الألوان اختلاف الحال، وتفاوت تجليات الملك المتعال، فيختار الأسود في حال غلبة الفناء والجلال، والأبيض في غلبة البقاء والجمال، والأخضر في حال ظهور الكمال، وقس على هذا سائر الألوان ونظيره خاتم النبوة؛ فإنه كان يتنوع خطوطه بحسب تنوع التجليات الإلهية لحضرة صاحب الرسالة ﷺ.

وقد اختلف العلماء في الأحمر من اللباس، ففي «الواقعات المحمودية» الثوب الأحمر

مكروه؛ لأنه يؤدي إلى الكبر الحرام بالاتفاق انتهى. وفي الشريعة يجتنب الرجال الحمرة والصفرة من الثياب.

وفي الحديث: «**إياكم والحمرة؛ فإنها ذي الشيطان**»[1]، وهذا عند قوم محمول على المجاز الحمرة يزينها الشيطان، ويدعو إليها كما في آكام المرجان؛ ولأن الأحمر كسوة النساء، والتشبه بهن حرام كما في شرح «تحفة الملوك».

وقال القهستاني: «أحب الألوان البياض، ولبس الأخضر سُنة» كما في «الشريعة»، ولبس الأسود مستحب، كما في «الخلاصة»، ولا بأس بالثوب الأحمر كما في «الزاهدي» انتهى.

وقال ابن بطال: وهو أول من شرح «صحيح البخاري»: «يجوز لبس الثياب الملونة للسيد الكبير، والزاهد في الدنيا، والحمرة أشهر الملونات، وأجل الزينة في الدنيا»[2] انتهى.

وقال في شرح الترغيب المسمى «بفتح القريب»: «لبس ﷺ في وقت حُلة حمراء وإزارًا ورداءً، وفي وقت ثوبين أخضرين، وفي وقت جُبة ضيقة الكمين، وفي وقت قباء، وفي وقت عمامة سوداء، وأرخى طرفيها بين كتفيه، وفي وقت [مرطا أسود من شواي كسا][3]، ولبس الخاتم والخف والنعل» انتهى.

وقال أبو الليث في «البستان»: «يحتمل أن لبس رسول الله ﷺ كان قبل النهي، فالقول بكونه مكروهًا أصح» انتهى.

ونحن معاشر الصوفية نعمل بالاحتياط في مواضع الاختلاف والنهي راجح كما في الأصول، ولا شك أن الأحمر من لباس الزينة بالنسبة إلى سائر الألوان ولابسه لا يأمن من الكبر، وأقل الأمر أنه تشبه بالعوام؛ فإنهم اعتادوا ذلك، وليس عندهم أحب منه، ومن تزَيّى بزي قوم فهو منهم، ومن كثّر سواد قوم فهو منهم.

فأين أنت من الدخول في دائرة الخواص إذا كان فعلك فعل العوام، ولا يغرنك رخص عوام العلماء؛ فإن النبي ﷺ، وإن فعل في بعض الأوقات ما يدل على الرخصة إلا

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (148/18).

(2) كما في الشرح لابن بطال (42/2).

(3) كلام تركي.

أنه فعله بيانًا للجواز لأهل الفتوى، والدنيا حرام على أهل الآخرة، فكيف زينتها وشهرتها.

فإن قلت: إن صح حرمة الأحمر منهي لغيره لا لعينه؛ فإنْ استعمله على وجه الكبر حرم، وإنْ لم يخطر بباله ذلك حل كاستعمال المنديل وغيره من الذي يباح بأصله، ويحرم بوصفه، فلو لبسه المحقق الآمن على نفسه لم يلزم شيء.

قلت: هو كذلك إلا أن الخواص يراعون سنن من قبلهم، فيلبسون ما يلبسون، ويتركون ما يتركون بل يدعون سننهم إذ كانت شعار أهل البدعة في زمانهم، فإن باختلاف الزمان وتنــزله يختلف أحوال الناس.

قال القهستاني:«تركُ سنةٍ صارَ شعارَ أهل البدعة على ما قالوا كالتختم باليمين، فإن السنة أن يجعل الخاتم في خنصر اليد اليسرى في زماننا».

وقوله ﷺ: «**اجعلها في يمينك**[1]»كان في بدء الإسلام، ثم صار من علامات أهل البغي كذا في «الخلاصة».

وقس عليه ترك الاكتحال ونحوه في يوم عاشوراء؛ فإنه ثبت في الأصل بحديث صحيح، ومن زعم الموضوعية؛ فهو رد ترك العمل به؛ لأنه يفضي إلى أمر قبيح، وهو التشبه بالخائنين الملعونين.

والحاصل أن أهل الطريقة، وهم السالكون على الحقيقة لا اللاعبون كالصبيان يلبسون الخرقة السوداء والبيضاء والخضراء، وكذا القباء من هذه الألوان.

وروي أن رسول الله ﷺ لبس الأصفر، لكن الألوان المذكورة أحب وأنسب، وكذا لبس من زي المشايخ وفقراء الطريقة اللباس المنسوج على لونين أو أكثر كالبرد اليماني، والمخطط الشامي، والمتلون البروسوي ونحوها؛ لأن فيه الاثنينية، وطالب الواحد لا يرضى إلا بالواحد طعامًا أو لباسًا وغيرهما.

وقد استمر المحققون من الصوفية على لبس النعل الأحمر مع الخف الأسود أو الأصفر أو الأزرق إرشادًا بهذا الاختلاف إلى كسر النفس والمجاهدة معها؛ لأن تمام الزينة أن يكون النعل الأصفر مع الخف الأصفر لا مختلفين فإن حظُّ النفس في صورة الاختلاف أنقص، فالخف الأسود لأهل البداية، والأزرق لأهل التوسط، وللقوالين في المجالس الذكرية،

---

(1) لم أقف عليه.

والأصفر لأهل النهاية، وسره أن السوداء غير سوداء الأنوار الإلهية صفة النفس الأمارة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«**الفقر سواد الوجه في الدارين**[1]» أي: الافتقار إلى الغير دون الله تعالى، والوجه ذات الممكن مجازًا كما في «كرَّم الله وجهه» وذكر السواد؛ لأنه مزيد اختصاص من بين سائر الألوان بالسريان والاتصال بالمحل بحيث لا ينفك أصلاً، وإن غسل مرارًا واجتهد في إزالته؛ فإذا كان من أوصاف النفس الأمارة وألوانها ناسب أهل الفرق الأول، وهم أهل البداية.

وفي الزُّرقة جلاء وانكشاف بالنسبة إلى السواد؛ فهو لمن فوقهم من أصحاب النفوس اللوامة والملهمة، ولما كان المولود الثاني للسالك بمنـــزلة إنسان الفلاسفة أي: مولود الإكسير في الأمَّارة التسويد، وفي اللوامة التغبير، وفي الملهمة التشهيب، وفي المطمئنة التبييض؛ فإن الله تعالى جعل ترتيب أسباب السلوك، وظهور أوصاف النفوس كترتيب مولود الإكسير، وظهور القرآن، وظهور ألوان المركب والجسد.

وأما الصفرة فهي صفة للذهب الخالص الذي هو أعلى المعادن، وقد ثبت أن النبيَّ ﷺ شبَّه الناس بالمعادن[2]، فيناسب صفرة الأعلى خف الأعلى، وجعلوا أهل الكمال هذا اللون في رجلهم لا في غير عضوهم إشارة إلى كون الدنيا مغلوبة تحت أقدامهم.

فإن قلت: ما تقول في قول عليٍّ ﷺ: «**من لبس نعلاً صفراء قلَّ همه**»[3]؛ فإنه ترغيب للبس النعل الصفراء، وأنت قد اخترت النعل الحمراء؟

قلت: إنهم يلبسون تارة النعل الحمراء، وتارة الصفراء بحسب المصلحة، ولا مناقشة معهم؛ فإنهم أعرف بأحوالهم من غيرهم، وليس لهم هم الدنيا ونحوها حتى يقل همهم بلبس الصفراء؛ إذ همهم هو هم المولى لا فكر الدنيا والعقبى، وذكرهم هو ذكر الملك الأعلى لا ذكر المملوك الأدنى، ومثل هذا الهم لا يجليه النظر إلى الألوان، وإنما ينكشف النظر إلى من ليس له لون يعرفه المحجوبون من الإنسان.

وجاء في الحديث: «**ثلاث يجلين البصر؛ النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري،**

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (82/2).

(2) رواه البخاري (3131)، ومسلم (4774).

(3) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (263/10)، وابن أبي حاتم في «العلل» (319/2).

وإلى الوجه الحسن»[1]، قال ابن عباس: «والأثمد عند النوم».

ثم كل من المظاهر قد انصبغ بصفرة مخصصة على يد اسم خاص به فله من الحسن الصفاتي ما لا يشتبه في نظر المعارف، وأما الحُسن الصفاتي الذاتي فهو لله رب الأرباب الغني عن وصف الواصف؛ فإن نظرت إلى الصفات فهذه الموجودات كلها تدعوك إلى النظر؛ لتفريج الغم والكدر، وإن نظرت إلى مرآة الذات فلا ترى إلا نفسك عارية عن الصفات، فلا غمٌّ هناك، ولا سرور ولا مرآة، ولا ظهور هذا، وقد كشفنا عنك غطاءك في أمر الكسوة واللباس بالنسبة إلى أخيار الناس؛ فإن قال لك واحد من منكري هذه الفرقة: «ليس في كتبنا كتاب التاج والخرقة».

فقل له: «ليس في كتبنا أيضًا كتاب فرو النمور والثعلب، وحشو قماش حلب».

فإن أنا على بدعة من أمري ومضيع وقتي وعمري، فأنت أشد مني في سوء الحال حيث ضاع عمرك في القيل والقال، وقد أنساك الله نفسك الأمارة فوقعت في المراء زعمًا منك أنك في الإقبال على الحق والخلق وراء ووراء.

والعجب أن محققي الصوفية في لباسهم وصيامهم وقيامهم وجميع أحوالهم وأحكامهم كأنهم أصحاب الصفة الموصوفون بالصفة، فكيف يطعن فيهم من أترفته النعمة، فكان أكله أكل البقر، وشربه شرب الجاموس، ونومه نوم الكلاب، بطنه أنتن من الناووس، وهو في كبره كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلقيس أحد راياته، وكأن يوسف لم ينظر إلا بمقلته، ولقمان لم ينطق إلا بحكمته، كأن الخضراء له عرشت، والغبراء باسمه فرشت؛ فهذه صفتك يا هذا، وحالك يا من هو وعاء الأذى؛ فاعرف حدَّك يا مسكين، فلست أنت أعلم أهل الدين بل أطولهم لسانًا لأهل الله تعالى وأجهلهم في العلم بالله حالاً.

اللهم إنا نسألك العصمة، والتوفيق، والاجتهاد في طريق التحقيق، والوصول إلى أعلى مراتب الشهود، والدخول في دائرة معرفة الوجود، وانظر إلى مظاهرك بحسب أسمائها وأربابها، وتوحيدك في كلِّ الأشياء من مسبباتها وأسبابها؛ فإنك تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، وبيدك الأمر في الصحو والانتشاء.

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (313/3).

الفصل السادس /

في بيان سلسلة الطريقة الجلوتية

اعلم أن الله تعالى خلق أفراد الإنسان من آدم وحواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1] كما نطق به النص، فكل ابنٍ خرج إلى هذا التعين لا بدَّ له من الأب المتعين إلا من كان وجوده بطريق خرق العادة كعيسى عليه السلام، وسطيح الكاهن المتولد من المرأة[1] مع أنه يجوز أن يُقال: إن أبا عيسى عليه السلام روح القدس من مقام الجسدية، وعالم التمثيل، فإن تمثله في صورة بشر سوي، وتفخه في مريم نفخًا مؤثرًا واصلاً إلى رحمها بمنـــزلة الأب، وتعين نطفته فيه فتولده بواسطة سبب من الأسباب الصورية كتولده من الأب، وإن كان على غير بابه؛ إذ الأب حيوان يتولد من نطفة حيوان آخر، ومنه يظهر الجواب في حقِّ سطيح ونحوه أيضًا؛ إذ أجرى المرأة[2] وماؤها تعينت بتعين الرجل ومائه، فكانت الولادة مضافة إلى السبب الظاهري الذي اعتبره العقل كالأب، والوجه في الأب أنه المولود الأول أي: من التراب والتأثير منه؛ لأنه الحقيقة الفاعلة لا من الأم؛ لأنها الحقيقة القابلة، وإن كان لا بدَّ منها من حيث إنها كمحل الحرث للبذر ففيها التربية أيضًا من وجه، وتحقيقه أن تعين الرجل بمرتبة تعين الاسم الله، وتعين المرأة بمنـــزلة الاسم الرحمن، ومنه اشتق الرحيم، وتعين الولد بمثابة تعين الاسم الرحيم.

وفي الحديث: «**إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن**»[3]، فنسب الحق النفس إلى الاسم الرحمن على لسان نبيه عليه السلام؛ لأن الحق من رحم بالرحمن ما طلبته الأسماء الإلهية من إيجاب صور العالم، فمتعلق الرحمة التي هو الوجود المنبسط على الماهيات كلها، إنما هي الصور الموجودة، فكأن الله تعالى أفاض الوجود على الممكنات بالاسم الرحمن، فتعينت بالمظاهر والصور والأشكال، فكذلك الرجل أفاض الوجود على الأولاد بواسطة الرحم، فظهرت الآثار والأفعال؛ فاعرف هذا السرَّ، وانظر إلى اللوح والقلم في العالم، وإلى ما ظهر منها من نقوش بني آدم.

---

(1) في الأصل: المرأتين.

(2) في الأصل: المرأتين.

(3) رواه أحمد (541/2)، وأورده «الهيثمي» في المجمع (56/10).

وقيل لحكيم وهو يواقع زوجته: ما تعمل؟ قال: إن تمَّ فإنسان؛ فربط الحق تعالى سلسلة الكائنات بعضها ببعض في عالم الصورة حسبما اقتضته حكمته التابعة لعلمه، واستدعاه علمه التابع لأحوال متعلقات حكمته إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وكان الله بكل شيء محيطًا، وكذا في عالم المعنى ألا ترى أنه تعالى كما خلق آدم، فجعله بالبشر أنبياءه وأولياءه وأعداءه، فتناسلوا منه قرنًا بعد قرن، وأخذوا منه الجسمانية عصرًا بعد عصرٍ بحسب الازدواج الصوري والتوالد المتواصل، إلى آخر مولود يولد، فكذلك خلق روح محمد ﷺ فجعله أبا الأرواح كلها وجزئها؛ فهو من حيث الجسمانية، وإن كان ابن آدم عليه السلام لكنه من حيث الروحانية أبوه وجد عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام إنما استفاض الروح من روح القدس، وروح القدس أخذ فيض الروح من منبع روحانية نبينا عليه السلام؛ فكان أبا الروح من روح القدس بالذات، ولعيسى عليه السلام بالواسطة؛ فهذا الازدواج المعنوي أيضًا يمتد إلى آخر من يقبل فيض الروح المحمدي في الحقيقة، فهو آدم يعني: أول مظهر في عالم الجبروت للحقيقة الإنسانية، ويسمى عالم المجردات بالجبروت، وأهل الجبروت من لهم صور روحانية، والنفوس المجردة والعقول المجردة شيء واحد لكن باعتبار الشهادة والظاهر ويقال لها: نفوس، وباعتبار الغيب والباطن يُقال لها: العقول كمرتبة الأرواح مثلاً؛ فإنها نفوس باعتبار أنها مظاهر الصور العلمية، وعقول باعتبار أنها أعيان ثابتة، ويقال لمحركات الإجرام الفلكية وهي الأفلاك والكواكب أي: لمبادئ حركاتها بالحركة الإرادية على الاستدارة جواهر مجردة عن مواد الأفلاك في ذواتها وأنفسها متعلقة بالأفلاك في حركاتها؛ ليكون تلك الجواهر مبادئ تحريكاتها؛ كالروح الفارق للإنسان، ويقال لتلك الجواهر المجردة أيضًا: النفوس الناطقة الفلكية وجودًا وآدم الحقيقي في هذا العالم أي: عالم الجبروت النفس الكلية التي خُلقت من ضلعه الأيسر أي: الجانب الذي يلي الخلق؛ فإنه عينه هو الجانب الذي يلي الحق، وجميع النفوس الناطقة وجدت منها، وأول مظهر في عالم الملكوت لتلك الحقيقة الإنسانية، وعالم الملكوت عالم الملائكة وأهله من لهم صور جسمانية لطيفة هو النفس الكلية التي يتولد منها النفوس الجزئية وحواه الطبيعة الكلية التي في الأجسام يعني: أن الطبيعة عند أهل الحق تُطلق على ملكوت الجسم، وهي القوة السارية في جميع الأجسام عنصريًا كان أو فلكيًا، بسيطًا كان أو مركبًا، وهي للنفس الكلية كالآلة في إظهار الجسم وتدبيره، وفي الحيوان بمنـــزلة الروح الحيواني؛ إذ بواسطتها ظهر العقل والانفعال، فأفرادها كآلات للنفوس المجردة، كما أن كليها آلة لكليها.

وأول مظهر في عالم الملك هو آدم أبو البشر، فأول الموجودات هو العقل الأول، ثم النفس الكلية ثم الطبيعة ثم الشكل الكلي، ثم الجسم الكلي ثم العرش ثم الكرسي ثم الفلك الأطلس ثم فلك المنازل ثم سماء كيوان ثم سماء المشترى ثم سماء المِرِّيخ - بكسر الميم وبالخاء المعجمة وكسر الراء المشددة - ثم سماء الشمس ثم سماء الزهرة ثم سماء عطارد ثم سماء القمر ثم عنصر النار ثم عنصر الهواء ثم عنصر الماء ثم عنصر التراب ثم المعدن ثم النبات ثم الحيوان ثم الملك ثم الجن ثم الإنسان ثم المرتبة.

ويقال لهذه الثمانية والعشرين: حروف ظاهر النفس الرحماني، ويقابلها على الترتيب حروف باطن النفس الرحماني، وهو الاسم البديع، ثم الاسم الباعث، ثم الاسم الباطن ثم الاسم الآخر، ثم الاسم الحكيم، ثم الاسم المحيط، ثم الاسم الشكور، ثم الاسم الغني، ثم الاسم المقتدر، ثم الاسم الرب، ثم الاسم العليم، ثم الاسم القاهر، ثم الاسم النور، ثم الاسم المصور، ثم الاسم المحصي، ثم الاسم المبين، ثم الاسم القابض، ثم الاسم الحي، ثم الاسم المحيي، ثم الاسم المميت، ثم الاسم العزيز، ثم الاسم الرزاق، ثم الاسم المذل، ثم الاسم القوي، ثم الاسم اللطيف، ثم الاسم الجامع، ثم الاسم الرفيع، قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:15] وذلك؛ لأن هذه الحقائق كلها من ملكها وملكوتها درجات الهيبة ومراتب رحمانية.

ويقال لهذه الثمانية والعشرين على الترتيب: حروف مطلق النفس الرحماني، وهي الهمزة والهاء والعين المقفلة والخاء المعجمة والغين المنقوطة والقاف والكاف والجيم والشين المعجمة والياء المثناة التحتانية والضاد المنقوطة واللام والنون والراء المهملة والطاء المقفلة والدال المهملة والتاء المثناة الفوقانية والزاي والسين المهملة والصاد المقفلة والظاء المعجمة والثاء المثلثة والذال المنقوطة والفاء والباء الموحدة والميم والواو على ترتيب أهل التلاوة والأداء، فهذه الحروف مجازية كما أن الأسماء المقابلة هي لها أسماء مجازية عند السادات الصوفية - قدس الله أسرارهم - ولهذا لا يقال لها: حقائق، وإنما الحقائق هي التعينات التي قامت لهذه الحروف والأسماء كما أومأنا إليها آنفًا.

والحجب السبعون ألفًا هي النفس، ثم القلم، ثم اللوح، ثم العماء، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الجنان التسع، ثم النيران السبع، ثم الأفلاك السبع، ثم الأركان السبع والكل خمسة وثلاثون، وباعتبار الظهور والبطون سبعون، ثم ينفصل كل منها إلى ألف فيبلغ إلى ذلك العدد.

وهذا الذي ذكرناه في ترتيب الكائنات هو ما جرى عليه أهل الله تعالى، وأما الحكماء والفلاسفة فيثبتون العقول العشرة، ولا علينا أن نفصلها، ولكن تتميمًا للفائدة فنقول: ذكر الرئيس ابن سينا - سامحه الله - في بعض رسائله فقال:

«إن أول ما خلق الله جوهر نوراني هو نور محض قائم لا في جسم، ولا في مادة، وتُرك لذاته ولخالقه تعالى، وهو عقل محض».

وقد اتفق على صحة هذا جميع الحكماء الإلهين والأنبياء - عليهم السلام - كما قال سيدنا محمد ﷺ: «**أول ما خلق الله العقل**»[1]، فهذا العقل له ثلاثة تعقلات:

الأول: أنه يعقل خالقه تعالى.

والثاني: أنه يعقل ذاته.

والثالث: أنه يعقل كونه ممكنًا لذاته.

فحصل من تعقل خالقه عقل آخر كحصول سراج من سراج آخر، وحصل من تعقل ذاته الواجبة بالأول نفس هي أيضًا جوهر روحاني كالعقل إلا أنه في الترتيب دونه، وحصل من تعقل ذاته الممكنة جوهر جسماني هو الفلك الأعظم، وهو العرش بلسان أهل الشرع، فتعقلت تلك النفس بذلك، فتلك النفس الكلية المحركة للفلك الأقصى كما يحرك روحنا جسمنا، وتلك الحركة شوقية بها يتحرك النفس الكلية الفلكية شوقًا وعشقًا إلى العقل الأول وهو المخلوق الأول، فصار العقل الأول عقلاً للعقل الثاني، والعقل الثاني عقلاً للفلك الأقصى مطاعًا له ثم حصل من العقل الثاني عقل ونفس وجسم، فالجسم هو الفلك وهو فلك الثوابت وهو الكرسي بلسان أهل الشرع، وتعلقت النفس الثانية بذلك العقل، وهكذا حصل من العقل الثالث عقل ونفس وفلك وهو فلك زحل ثم حصل من العقل الرابع عقل ونفس وفلك، وهو فلك المشتري والنفس نفس المشتري، ثم حصل من العقل الخامس عقل ونفس وفلك، وهو فلك المريخ - بالكسر والخاء المنقوطة - والنفس نفس المريخ، ثم حصل من العقل السادس عقل ونفس وفلك، وهو فلك الشمس والنفس نفس الشمس، ثم حصل من العقل السابع عقل ونفس وفلك، وهو فلك الزهرة والنفس نفس الزهرة، ثم حصل من العقل الثامن عقل ونفس وفلك، وهو فلك عُطارد والنفس نفس عطارد، ثم حصل من العقل التاسع عقل ونفس وفلك، وهو فلك القمر والنفس

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (510/4)، والعجلوني في كشف الخفاء (275/1).

نفس القمر، ثم حصل من العقل العاشر العالم العنصري من السطح المقعر لفلك القمر إلى كرة الأرض، والعناصر الأربعة النار والهواء والماء والأرض، وحصلت له المواليد الثلاثة، وهي المعادن والنباتات والحيوانات انتهى بتفصيله.

وفي بعض شروح «الفصوص» أن القول بالعقل مما اعترف به من علماء السنة الحليمي والغزالي والراغب وأبو زيد الدبوسي، ومحققو الصوفية بل الكل افترقوا بالملائكة الكروبية التي فسر الحكماء العقول بهم على أن العقول والنفوس ليست من المجردات عند الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - على ما صرح به في «الفتوحات» في الباب الثالث عشر وغيره، وليس في القول بالمجردات ما يخل بالإسلام سوى القول بقدمها، ومنع قدرة الواجب على الحوادث الزمانية بدونها، وقد ورد: «**أول ما خلق الله العقل**»[1]، ولا يمكن تأويله بعقل الإنسان؛ لأنه إنما يخلق فيه بعد خلقته بمدة طويلة انتهى.

وقال المولى الفناري - رحمه الله - في «تفسير الفاتحة»: أول موجود تحقق بالنعم الإلهية القلم الأعلى الذي هو أول عالم التدوين والتسطير؛ فإن المهيمن وإن كانوا أعلى في المكانة لكنهم لا شعور لهم بنعيم ولذة، وآخر الموجودات تحققًا بهذه النعم هو عيسى ابن مريم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة؛ لأنه لا خلافة لله بعده إلى يوم القيامة، بل لا يبقى بعد انتقاله وانتقال من معه مؤمن على وجه الأرض فضلاً عن ولي كامل كذا أخبر نبينا ﷺ ثم قال: «**لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله الله**»[2] أي: ملازم الذكر لا الذاكر في الجملة انتهى.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا**﴾ [فاطر:41] والإشارة فيه أن العلويات والسفليات مطلقًا غير قائمة بنفسها، بل بالله تعالى وإمساكه، فالله تعالى يحفظها من الزوال، ولولا قيامها به لاندكّ جبالها، وانقطع أسبابها، ونزل سماؤها، وغار ماؤها، والله تعالى استخلف آدم عليه السلام في حفظ العالم؛ فالقطب يحفظ المذكر، والإمام الأيمن يحفظ عالم الأرواح، والإمام الأيسر يحفظ الأجسام، والأوتاد الأربعة يحفظون الشرق والغرب والجنوب والشمال، والأبدال السبعة يحفظون الأقاليم السبعة، فالقطب هو الغوث الأعظم سلطان لعالم المعنى، والإمامان والأبدال خدامه

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم (211).

وأمراؤه على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم(1)؛ فهم بأمره يعملون، ولولا هذا

---

(1) الأبدال: هم سبعةٌ لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل إقليمٍ واحدٌ.

أحدهم: على قدم الخليل.

والثاني: على قدم الكليم.

والثالث: على قدم هارون.

والرابع: على قدم إدريس.

والخامس: على قدم يوسف.

والسادس: على قدم عيسى.

والسابع: على قدم آدم، على الكل السلام، وهم عارفون بما أودع الله تعالى في الكواكب السيّارة من الأمور والأسرار.

ولهم من الأسماء أسماء الصفات، فمنهم عبد الحي، وعبد العليم، وعبد المريد، وعبد القادر، وهذه أسماء أربعة الأوتاد، وباقيهم عبد الشكور، وعبد السميع، وعبد البصير، لكل صفةٍ إلهيةٍ رجلٌ من هؤلاء الأبدال، بها ينظر الحق إليه وهي الغالبة عليه.

فما من رجلٍ إلا وله نسبةٌ إلى اسمٍ إلهيٍّ منه يتلقى ما يرد عليه من الحضرة الإلهية. وسُمِيَ هؤلاء أبدالاً؛ لأن أحدهم إذا فارق موضعًا وأراد أن يخلف به رجلاً آخر بدلاً منه لأمر يريده في مصلحة وقربة كان له القدرة على ذلك، فيترك شخصًا على صورته لا يشكُّ من رآه أنه عين ذلك الرجل، وليس كذلك بل هو شخصٌ روحانيٌ أقامه مقامه، فكل من له هذه القوة فهو من الأبدال.

أما من يقيم الله بدله شخصًا لأمرٍ ما ولا علم له به فليس منهم، ومعنى قولهم: (فلانٌ على قدم فلانٍ) أنه مثله في علومه ومعارفه التي ترد على قلبه، فإن المعارف الإلهية إنما ترد على القلوب، وكل علمٍ يرد على قلب الشخص الكبير من ملكٍ أو رسولٍ فإنه يرد على قلب من ورثه في مقامه.

وقد يقولون: (فلانٌ على قلب فلانٍ)، ومعناه: ما ذُكِر: أي يتقلب في علومه ومعارفه.

وقد تُطلق الأبدال على أربعين رجلاً يُسمُّون أيضًا الرجبيين، وهم رجالٌ لهم القيامة بعظمة الله تعالى، وهم الأفراد وأرباب القول الثقيل المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:5]، سُمُّوا رجبيين؛ لأن حالهم لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أوله إلى انفصاله، ثم يفقد ذلك الحال من أنفسهم إلى دخول رجب من السنة الآتية، ومنهم من يبقى عليه أمر من ذلك في سائر السنة، وقليل من يعرفهم من أهل هذه الطريق، وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضًا، فمنهم باليمن وبالشام وبديار بكر.

وأما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد.

وتفسير ذلك أن النقباء: هم ثلاثمائة وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، ولهم عشرة أعمال منها أربعة ظاهرة، وستة باطنة.

=

فأما الظاهرة: فكثرة العبادة والتحقق بالزهد والتجرد عن الإرادة وقوة المجاهدة.
وأما الباطنة: فهي التوبة والإنابة والمحاسبة والتفكر والاعتصام والرياضة، فهؤلاء الثلاثمائة لهم إمام منهم يأخذون عنه ويقتدون به فهو قطبهم.
ثم النجباء أربعون، وقيل: سبعون. أقول: في هذا دلالة على أن القطب لا يعلم عدد النجباء بيقين لقوله.
وقيل: سبعون. وهو إذ ذاك هو القطب الغوث الفرد إلا أن يحمل أن سؤال الشيخ له بعد توليته القطبانية فليتأمل.
قال: وهم مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا يتصرفون إلا في حق الغير، ولهم ثمانية أعمال: أربعة باطنة، وأربعة ظاهرة.
فأما الظاهرة: فالفتوة، والقوة، والتواضع والأدب، وكثرة العبادة.
وأما الباطنة: فالصبر، والرضا، والشكر، والحياء. وهو أهل مكارم الأخلاق.
وأما الأبدال: فهم سبعة رجال، وهم أهل فضل وكمال واستقامة واعتدال قد تخلصوا من الوهم والخيال.
ولهم أربعة أعمال ظاهرة، وأربعة أعمال باطنة.
فأما الأربعة الظاهرة: فهي الصمت والسهر والجوع والعزلة.
ولكل واحد من هذه الأربعة ظاهر وباطن.
فأما الصمت فظاهره ترك الكلام بغير ذكر الله تعالى، وأما باطنه فصمت الضمير عن جميع التفاصيل والأغيار.
وأما السهر: فظاهره عدم النوم، وباطنه عدم الغفلة.
وأما الجوع فعلى قسمين: جوع الأبرار بكمال السلوك، وجوع المقربين لموائد الأُنس.
وأما العزلة: فظاهرها ترك مخالطة الناس، وباطنها ترك الأنس بهم.
وللأبدال أربعة أعمال باطنة: وهي التجرد والتفريد والجمع والتوحيد، ومن خواص الأبدال أن من سافر منهم من موضعه، وترك جسدًا على صورته فذلك هو البدل لا غير.
والبدل على قلب إبراهيم عليه السلام فهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم يأخذون عنه ويقتدون به، وهو قطبهم لأنه مقدمهم.
ويؤيد هذا القول ما أخرجه الطبراني في «معجمه» من قوله ﷺ: **«لا يزال من أمتي أربعون على قلب إبراهيم الخليل»**.
قال صاحب «مجمع الأحباب»: هو نصٌ على ثبوت الولاية إلى يوم القيامة.
وقيل: الأبدال أربعون، والسبعة هم الأخيار، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم.
أقول: وهذا أيضًا فيه دلالة على أن القطب لا يعلم عدد الأبدال بيقين من عدد غيرهم من الأخيار كما تراه، إلا أن يكون ذلك قبل تولية الشيخ القطبانية، فلم يطلع على ذلك.

السلطان وأمراؤه لاختلف نظام العالم، فهم رحمة واسعة من الله تعالى، فكما أن سلطان الظاهر إذا انتقل إلى الدار الآخرة يلزم إجلاس غيره مكانه دفعًا للاختلال الظاهر الواقع بين الرعية في مملكته، كذلك سلطان الباطن إذا انتقل إلى النشأة الأُخروية يلزم إقامة غيره مكانه دفعًا للفساد الواقع في عالم الوجود كله، وإنما يقوم مقام قطب الوجود من في شماله دون من في يمينه؛ لأنه ناظر إلى حالة الإمام في الإمامة الصغرى؛ فإن يساره حين الاستقبال إلى الناس يمين ويمينه يسار، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة:9 - 10] فإن لفظ «ما» في كلتا الجملتين نافية عند القوم، وأهل اليسار أهل الجلال والفناء، وأهل اليمين أصحاب الجمال والبقاء، والإمام إشارة إلى تعين الذات الأحدية، وكون أصحاب اليمين أصحاب يمين، وأصحاب الشمال أصحاب شمال من أحوال عينهم الثابتة ومقتضيات أنفسهم، وليس في ذلك جبر ولا اضطرار؛ فإن الإمام إذا قام في موضع الإمامة يصير بعض القوم على يمينه، وبعضهم إلى شماله من غير أن يكون فيه جبر من طرف الإمام، وهذا سرٌّ عظيم حاصل بالفيض الأقدس للشؤونات الغيبية، وتلك الشؤونات أزلية لا بداية لها واقتضاءات لا أول لها، وأيام الأبد موافقة لأيام الأزل يشير إليه قوله تعالى:

ثم الأوتاد هم عبارة عن أربعة رجال منازلهم منازل الأربعة أركان من العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، مقام كل واحد مقام تلك الجهة.

ولهم ثمانية أعمال: أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة.

فالظاهرة: كثرة الصيام، وقيام الليل والناس نيام، وكثرة الإيثار، والاستغفار بالأسحار.

وأما الباطنة: فالتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم. ولهم واحد منهم هو قطبهم.

وأما الإمامان فهما شخصان أحدهما: عن يمين القطب، والآخر: عن شماله، فالذي عن يمينه: ينظر في الملكوت وهو أعلى من صاحبه، والذي عن شماله: ينظر في الملك، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب.

ولهما أربعة أعمال ظاهرة وأربعة باطنة.

فأما الظاهرة: فالزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الباطنة: فالصدق والإخلاص والحياء والمراقبة.

والغوث: عبارة عن رجل عظيم، وسيد كريم، يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المبهمة من الأسرار، ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء «لو أقسم على الله لأبر قسمه» مثل أويس القرني في زمان رسول الله ﷺ.

«سبقت رحمتي غضبي[1]»؛ فاعرف الحال، ودع القيل والقال، وراع الأدب في جميع الأقوال والأفعال؛ فإذا عرفت سلسلة الكائنات متصل بعضها ببعض، وإن البعض يرث من البعض ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: 128] وذلك في عالم الصورة والمعنى جميعًا فقد تحقق عندك أن المنقطع من السلسلة قد تعرض للفناء والزوال، كما أن المنقطع من القطيع قد جعل نفسه عرضة للسرحان في الحال؛ ولذا ترى الشخص ساقطًا عن الاعتبار إذا لم يكن له ارتباط بواحد من الكبار.

روي أن جابر ﷺ رحل من المدينة إلى مصر لحديث واحد؛ ولذا لم يعد أحد كاملاً إلا بعد رحلته، ولا وصل مقصده إلا بعد هجرته، فكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له ودعي لا نسب له ألا ترى أن من تمهر في حرفته، وتحذق في صنعته من غير خدمته لأستاذ، وأخذ نفسًا منه، وإذن معتاد لا يجد البركة في كسبه وعمله ويبقى جائعًا في حرصه وطول أمله، ومن ثمة اعتاد للأساتذة من أصحاب الحرف أن يدعوا بالخير والبركة لتلاميذهم المستخلفين، وذلك في مجمع من الناس عظيم، وهم قد توارثوه أبًا عن جد، وأستاذًا بعد أستاذ، بحيث لا يهجر بحال أصلاً، ولو لم يكن لهم فهم وعلم بسرٍّ ذلك النفس، والإذن ولو إجمالاً لما قدموا على ما فعلوا من نفخ الروح بالنفس الصوري، فكما أن حالة التلميذ الصوري موصولة ومربوطة بإذن الأستاذ الصوري ونفسه، فكذا حالة التلميذ المعنوي منوطة بتلقين الأستاذ المعنوي وفيض نفسه فيه، وقد صح أن النفس والتلقين وصل من حضرة النبي ﷺ إلى عليٍّ ﷺ فهو أول وارث ومظهر لباطن النبوة التي هي الولاية المطلقة والخلافة الحقة والقطبية المحققة، وإن كان لغيره أيضًا نصيب من الولاية والخلافة؛ إذ لا يشك واحد في ولاية الصديق ﷺ كما لا يشك في خلافته، وقس عليه من يليه.

روي أنه عليه السلام قال لعليٍّ ﷺ يومًا:

«يا عليّ غمض عينيك، واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات، وأنا أسمع»، فقال عليه السلام: **«لا إله إلا الله»**[2] ثلاث مرات مُعادًا مغمضًا عينيه رافعًا صوته، وعليّ يسمع، ثم قال عليّ ﷺ: «لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته،

(1) رواه البخاري (6872).

(2) هو حديث كشفي.

والنبيُّ ﷺ يسمع» كما في «ريحانة القلوب»، وكون هذا التلقين المخصوص لعليٍّ ﷺ لا لغيره لا يدل على رجحانه لغيره من جميع الوجوه، بل على بعض خصائصه في نفسه؛ ولذا زوَّج فاطمة - رضي الله عنها - منه.

قال صاحب[1]: يقول العبد في منظومته المشهورة:

وللصديقة الرجحان فاعلم   على الزهراء في بعض الخصال

والمراد بالصديقة: عائشة - رضي الله عنها، وبالزهراء: بنت من الصديقة خليفته أعني: فاطمة - رضي الله عنها.

وقد ورد في فضل عائشة - رضي الله عنها - قوله ﷺ: **«خذوا ثلثي دينكم من عائشة[2]»**.

وفي فضل فاطمة - رضي الله عنها - قوله ﷺ: **«كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»**[3].

ففضل عائشة - رضي الله عنها - في تلقين الدين، وفضل فاطمة - رضي الله عنها - في المعرفة واليقين؛ لأن الكمال مصروف إلى الكمال الباطني، وهما أي: الصديقية والكمال أمر واحد بالنسبة إلى نهاية الكمال بالإضافة إلى الولي هي الصديقية التي عبارة عن المخلَصية - بفتح اللام - بمعنى التخلص عن شوائب الصفات النفسانية والغيرية، لكن الصديقين قد يتفاوتان في المراتب والدرجات باعتبار العلم بالله.

وقوله ﷺ: **«يا عليّ، أنت مني بمنـــزلة هارون من موسى»**[4].

---

(1) هكذا في الأصل.

(2) ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ص 10)، والعجلوني في كشف الخفاء (374/1).

(3) رواه البخاري (3159)، ومسلم (4459).

(4) رواه البخاري (3430)، ومسلم (4418).

وقال الشيخ المصنف أيضًا: وكذا قوله ﷺ: **«يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»**.

وقوله ﷺ: **«يا علي هي - أي فاطمة - أحبُّ إلي منك، وأنت أعزُّ علي منها»**:

كل من هذه الأحاديث الصحيحة يدلُّ على فضل علي كرم الله وجهه.

أمّا الأول: فلأن من اتصاليته: أي أنت متصل بي اتصال هارون بموسى، ونحن من جنس واحد، وأصل واحد، وصف واحد، وسر واحد؛ ولذا قيل له: سر الأنبياء والمرسلين؛ لأن نبينا ﷺ لمّا =

يدل على زيادة قربه من درجة النبوة، فله كمال إطلاقي، وكمال تشريفي إضافي

كان سر جميع الأسماء الإلهية؛ كان المتصل به اتصالاً شديدًا، كذلك إلا أنه لمّا لم يكن بعده نبي لا مشرع ولا متاح؛ كان المراد بالاتصال: اتصال الولاية، والنبوة التحقيقية، لا اتصال النبوة التشريعية؛ كاتصال هارون بموسى عليهما السلام، وعلى هذا سائر الأولياء أجمعين.

فادعاء نبوة بعضهم خرق الإجماع؛ بل ردٌّ للنص، وكفر بالتنـــزيل، عصمنا الله وإياكم من سوء الفهم، وقلة العقل، والكشف السفلي.

ثم إن معنى اتصال الولاية: ظهور نور الحقيقة في مرآة علي ﷺ أكثر من ظهوره في غيره، إذ لا يخفى أن كل واحد من الأولياء؛ بل من الكائنات محتمل نوره ﷺ؛ لكن أين السهى من الزبرقان؛ وهو من يوح.

وفيه إشارة بأن كل مَن هو أقوى اتصالاً به ﷺ في ولايته؛ كان أشد تأييدًا لدينه؛ لكمال الراجح، ودعائه البالغ، وندائه القاصي، وظهر من هذا التقرير أن قوله ﷺ: «فاطمة بضعة مني»؛ إنما أراد به كونها قطعة من بشريته وجسمانيته، وإن كان مشعرًا بفضلها في الجملة إذ لا كلام في كمالها في نفسها على ما دلَّ عليه بعض الأحاديث الصحيحة.

وأمَّا الحديث الثاني: فمعناه أنا أبو هذه الأمة كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6]، فإذا انتقلت أنا من هذا الموطن؛ فأنت أبو هذه الأمة بطريق الخلافة، والإرث الحقيقي، إذ لا يجتمع صديقان وقطبان في زمان واحد؛ لأن الله تعالى فرد في اسمه الأعظم.

وأشار بتخصيص أبوة علي بالذكر مع أنّ الخلفاء الحقيقيين المتسلسلة كلهم آباء الأمة،كما أن أزواجهم أمهاتهم إلى أن أبوته أبوة كاملة؛ ولذا لم يكن طريق من الطرق الحقة إلا وقد كانت مغربة ومنتهية إليه، فهو ﷺ مصدر جميع الأسرار، ومنحة جملة الأطوار، ومطلع عموم الأنوار، وأول طالع يدًا بالإشراق من مطلع الولاية، وأول لامع أخذ بالإضاءة من شرق الهداية، وكان له نهاية إضافية هو الختم المكتوم، ونهاية حقيقية الختم المعلوم، والكل نور على نور، وسرٌّ مقسوم.

أمَّا الحديث الثالث: فمعناه: إن فاطمة رضي الله عنها، وإن كانت أحب إليه ﷺ من علي كرم الله وجهه؛ لكن حبه لها لا يستلزم عزَّتها في نفسها؛ لأن ذلك يرجع في الحقيقة إلى البشرية والطين، وإن كان لها كمال ظاهر في الدين، وأمَّا علي فدلَّ عزته على وحدته على قطبيته المثلى؛ لأن العزيز هو ما قلَّ وجوده؛ فهو الواحد كالشمس، وفيه رمزٌ إلى أن كمال المرأة إنما هو من حيث الصديقية، وهي في نفسها لا تقتضي الخلافة المستلزمة للظهور.

وإن كمال الرجل إنما هو من حيث الخلافة، ومن ههنا لم تظهر امرأة بالنبوة، ولو كانت مريم عليها السلام، كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «لن يفلح قوم تملكهم امرأة».

ومن عظمة الإمام علي رمز له بأن جعله ﷺ باب مدينة العلم، وإضافة إلى المعنى، وجعله متصلاً به اتصال الباب بالبيت؛ فهو معه كحلقة مفرغة فاعرف جدًا.

كما أن لفاطمة كمالاً إطلاقيًا، وكمالاً إضافيًا لقوله ﷺ: «فاطمة مني»[1] والكامل أولى بالكامل، والطيب أقرب من الطيب؛ فاهتد لهذا أيها العارف، فإنه من أشرف المعارف، وقل: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]؛ فإن إنزال المائدة على الله يسيرة ثم إن عليًا ﷺ لما أخذ الفيض من رسول الله ﷺ فاتصل نسبة الباطني به كنسبه الظاهري أوصله إلى الحسن البصري[2]، وهو شيخ الشيوخ المذكورين أيضًا ولد بالمدينة

---

(1) رواه البخاري (2879)، ومسلم (4484).

(2) هو ابن يسار بفتح الياء، وكسرها، الأنصاري مولاهم مولى زيد بن ثابت. ويقال: مولى جابر بن عبد الله، ويقال: مولى أبي اليسر ويقال: مولى جميل بن قُطبة، وأمه اسمها خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وربما غابت أمه في حاجة فتعطيه أم سلمة ﷺ ثديها تعلله به فيدر عليه فيشربه إلى أن تجيء أمه، فيرون أن تلك الحكم، والفصاحة من بركة ذلك.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، والحجاج بن يوسف الثقفي قيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وخلائق من الصحابة، وخلائق من كبار التابعين، وروى عنه خلائق من التابعين وغيرهم.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: سألت هشام بن حسان كم أدرك الحسن من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: مائة وثلاثين، قلت: وابن سيرين؟ قال: ثلاثين.

وعن محمد ابن سعد قال: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً.

وقدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فيهم طاووس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن شعيب فحدثهم، فقالوا أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط.

وقال أبو بردة: لم أر من لم يصحب النبي ﷺ أشبه بأصحابه من الحسن.

وعن مطر الوراق قال: كان الحسن كأنما كان في الآخرة فهو يخبر عن ما رأى وعاين، وكان الحسن من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

قال الأصمعي: ما رأيت أعرض من زند الحسن البصري كان عرضه شبراً، وكان أكثر كلامه حكم وبلاغة، فمنه ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت.

وروي عنه أنه أفتى في مسألة، فقيل له: إن الفقهاء يخالفونك فيها؟ فقال: ويحك وهل رأيت فقيهاً قط؟ إنما الفقيه من زهد في الدنيا.

وقال ﷺ: الناس في هذه الدنيا على خمسة أصناف: العلماء هم ورثة الأنبياء والزهاد وهم الأدلاء، والغزاة هم أسياف الله، والتجار هم أمناء الله، والملوك هم رعاة الخلق، فإذا أصبح الظالم طامعاً وللمال جامعاً، فمن يُقتدى، وإذا أصبح الزاهد راغباً، فمن يُستدل ويُهتدى، وإذا أصبح الغازي مرائياً والمرائي لا عمل له فمن يظفر بالعدا، وإذا أصبح التاجر خائناً فمن يؤمَن ويُرتضى، وإذا =

أصبح الملك ذئباً فمن يحفظ الغنم ويرعاه، والله ما أهلك الناس إلا العلماء المداهنون، والزهاد الراغبون، والغزاة المراؤون والتجار الخائنون، والملوك الظالمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وقيل للحسن: إنك لتكثر البكاء، قال: فبكى، ثم قال: يا بني فما يصنع المؤمن إذا لم يبك؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن لا يكون عمرك إلا باكياً فافعل لعله أن يراك على حالة فيرحمك بها.

ولما ولي عمر بن هُبيرة الفزاري وأضيف إليه خراسان أيام يزيد بن عبد الملك استدعى الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والشعبي، وذلك في سنة ثلاث ومائة، فقال لهم: إن يزيد خليفة الله على عباده أخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة له، وقد ولاّني ما ترون فيكتب إلي بالأمر من أمره أفقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه بقية، فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ فقال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيداً في أن الله يمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً يزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك، يا ابن هبيرة: وإن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن، فقال الشعبي: سفسفنا، فسفسف لنا.

ورأى الحسن يوماً رجلاً وسيماً حسن الهيئة، فسأل عنه، فقيل له: إنه يسخر للملوك ويحبونه، فقال أبوه: ما رأيت أحداً يطلب الدنيا بما يشبهها إلا هذا.

ودخل يوماً على أمه وفي يدها كراثة تأكلها، فقال لها: يا أماه الق هذه البقلة الخبيثة من يدك، فقالت: يا بني إنك شيخ قد كبرت وخرفت، فقال: يا أماه أينا أكبر؟

وُلد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وقيل: عثمان ﷺ بالمدينة ونشأ بوادي القرى، فلما قتل عثمان ﷺ نقل إلى البصرة، وتوفي بها في مستهل رجب سنة عشرة ومائة ﷺ وعنّا به، وكانت جنازته مشهودة.

وقال حُميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففزعنا من أمره وحملناه بعد صلاة الجمعة، ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تقع صلاة العصر بالجامع ولا أعلم أنها تركت منذ قام الإسلام إلا يومئذ لأنهم تبعوا كلهم الجنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر.

وأغمي على الحسن عند موته، ثم أفاق، فقال: لقد نبهتموني من جناتٍ وعيونٍ ومقامٍ كريم.

قال رجل لابن سيرين رحمه الله: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة في المسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن قليلاً حتى مات الحسن رحمه الله تعالى. ومناقبه كثيرة مشهورة، وتوفي وهو ابن نحو ثمان وثمانين سنة.

لسنتين يقينًا من خلافة عمر ﷺ، ومات بالبصرة سنة عشرين ومائة، وهذا مجمع عليه بين جماهير العلماء ومشاهير الفضلاء، ولا يرده إلا الجهلاء، والتواتر في القبول والإيجاب شائع بين أولي الألباب بحيث عدَّ إنكاره من الكفر بسرٍّ التوارث والجحد بأن يكون بين الناس مورث ووارث.

وفي الحديث: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون، وبهم تنصرون على الأعداء، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر**»[1] ذكره خاتمة الحفاظ والمحدثين الإمام السخاوي في «المقاصد الحسنة».

وفي «القاموس»: الأبدال: قوم بهم يقيم الله الأرض، وهم سبعون أربعون بالشام، وثلاثون بغيرها، لا يموت أحد منهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس من كان مستحقًا انتهى[2].

وقد نقلت هذا الحديث الصحيح، والنقل الصريح في مجلس الوعظ مرة، فلما فرغ سمع بعض الفضول إلى عصبيته القبول، وأوَّل الحديث بما يمجه العقل السليم، ويعافه الطبع

قال عبد الله ابنه، وقال أبو نصر الكلاباذي: بلغ تسعاً وثمانين سنة والله اعلم.

تنبيه: اعلم أنه قد قيل: إن الحسن لقي عليًا بن أبي طالب ﷺ لكنه أخذ عن أصحابه كالأحنف بن قيس وقيس بن عبادة وغيرهما عن علي ﷺ، وأخذ الحسن عن عبد الله بن عمر بالاتفاق رضي الله عنهما، وابن عمر عممه النبي ﷺ بيده المباركة لما روى أبو دواد بإسناده إلى عبد الله بن عمر أنه قال: لقد عممني رسول الله ﷺ بعمامة، فسدلها بين يدي ومن خلفي أي أرخى لها طرفاً، فليعلم ذلك.

وانظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (156/7)، وطبقات خليفة (1726)، والزهد لأحمد (258). والتاريخ الكبير (289/2) والمعارف (440)، والمعرفة والتاريخ (32/2)، (238/3) وأخبار القضاة لوكيع (3/2)، والجرح والتعديل (40/1/1)، والحلية (131/2)، وذكر أخبار أصفهان له (245/1)، وفهرست ابن النديم (202)، وطبقات الفقهاء للشيرازي (87)، والحسن لابن الجوزي، وتهذيب الأسماء واللغات (161/1/1)، وفيات الأعيان (69/2)، تاريخ الإسلام (89/4)، وتذكرة الحفاظ (66/1)، وسير أعلام النبلاء (564/4)، والتهذيب (147/1)، والنجوم الزاهرة (267/1)، وطبقات المفسرين (147/1)، وطبقات الشعراني الكبرى (25/1)، وكتابنا سيد التابعين (أتمه الله)، وروضة الحبور لابن الأطعاني (بتحقيقنا).

(1) رواه أحمد في مسنده (854).

(2) انظر: القاموس المحيط (بدل).

المستقيم؛ فويل لـــ ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:23]، فلم يَوفِقْهُ لهداه، وهذا الإنكار ميراث لهم من آبائهم، ووواصل إليهم من شياطينهم، وإن كان لهم خباثة جبلية أيضًا في أصل خميرهم وطينهم؛ فكونوا أيها المنكِرون المنكَرون على الإنكار، فأنتم كالرعايا التي غشيتها الذل والصغار، وتحت الأطمار ملوك كبار سوف ترى إذا انجلى الغبار، أفرس تحتك أم حمار؟! ثم وصل السر الإلهي والفيض الرباني والنفس الرحماني، والإذن الكمالي الإنساني من الحسن البصري إلى الحبيب العجمي، ثم إلى داود الطائي، ثم إلى معروف الكرخي، ثم إلى سري السقطي ثم إلى جنيد البغدادي، ثم إلى محمد البكري، ثم إلى وصي الدين القاضي، ثم إلى عمر البكري، ثم إلى نجيب السهروردي، ثم إلى قطب الدين الأبهري ثم إلى ركن الدين محمد السنجاني، ثم إلى شهاب الدين محمد التبريزي، ثم إلى إبراهيم الزاهد الكيلاني الذي هو أول من صدر منه نسبة الجلوتي - بالجيم؛ فإنه أنزل النقطة الفوقانية للخلوتي إلى تحت فتعينت النسبة المذكورة، وقد سبق تحقيقه، ثم إلى صفي الدين الأردبيلي، ثم إلى خواجة على الأردبيلي، ثم إلى قطب الأقطاب حميد الدين الأقسرائي، ثم إلى الحاج بيرام الأنقردي، ثم إلى خضر دده المقعد البروسوي، ثم إلى محمد الشهير باقتادة البرسوي، ثم إلى محمود الهدائي الأجحصاري الإسكداري، ثم إلى أحمد المقعد الشهير بدزدار زاده الأدرنوي، ثم إلى عبد الله الشهير بذاكر زاده القسطنطيني، ثم إلى حضرة شيخي وسندي السيد عثمان الفضلي، وبه تمّ الثلاثون إشارة إلى قوله ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**»[1]، وكان قد مات الإمام عليّ رضي الله عنه قبل الثلاثين بمقدار ستة أشهر، فوقع التكميل بالإمام الحسن رضي الله عنه على ما ذهب إليه ابن حجر في «الصواعق المحرقة»؛ فهؤلاء آبائي فجيئني بمثلهم - روح الله أرواحهم، وقدس أسرارهم وفتح على أعين الطالبين - أي: بصائرهم لرؤية أنوارهم، وكشف للعاشقين الصادقين عن وجوه أسرارهم، وكثر أخلافهم وفروعهم، وكل واحد منهم ألف بل آلاف، وكبرت أغصانهم وشعبهم بحيث لا يسعها الآفاق والأطراف.

فإن قلت: ما فائدة الاستخلاف؟

قلت: إحياء ظواهر الخلق بالشرائع والأحكام، وإحياء بواطنهم بالمعارف والإلهام على ما بعث به الأنبياء - عليهم السلام، وكما أن ترتيب المقدمات القولية لتحصيل

---

(1) رواه أحمد في مسنده (20918)، وأبو داود (4028)، والترمذي (2152).

المقاصد وإنتاج المطالب، فكذا ترتيب المقدمات العقلية، لإظهار الآثار في جميع المراتب، وكما ينقطع سلسلة الوجود عند عقم أمهات المواليد، فكذا ينقطع سلسلة الشهود عند عقم آباء أهل التوحيد، والنتاج النافع خير من العقم الضار.

إن آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدنا إلى الآثار ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان:74] أي: مقتدى يقتدون بنا في العلوم والأعمال والأحوال، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39 – 40] وإقامة الصلاة إدامة التوجه إلى الله تعالى، وهي إنما تكون بالاتصال إلى الله، واتصال بعض الذرية ببعض مع دوام التوجه، وقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:129] وهو النبيُّ ﷺ، ولذا كان دعوة جده إبراهيم عليه السلام وقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84] دعا بتحقيق أحوال توجب حسن الثناء في الآخرين، وفيه اتصال الذكر الجميل إلى قيام الساعة.

وقال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾ [مريم: 5 – 6].

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:16].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ [الفرقان: 45].

ففي مدّ ظل الوجود رحمة للعالمين، والوجود خير من العدم، إذ الكمال فيه لا في العدم؛ ولذا رجح الوفاة بعد الكمال على الوفاة حال الصباوة والطفولية، إذ الأطفال ناقصون نازلون عن رتبة الاجتهاد الموصل إلى معرفة سرّ المبدأ والمعاد، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]، وهو الفيض الحاصل من غير كسب، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: 2] أي: فاشكر هذه النعمة قالبًا وقلبًا، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3]، وهو النفس وأصحابها؛ فإنه ليس لها نسل وذرية، وإنما الأولاد والأتباع هي الأعمال الصالحة والأحوال الصادقة والأخلاق الروحانية والأوصاف الربانية، وهي من نتائج القلب والروح دون النفس، ورب سلسلة متصلة في حكم المنقطعة؛ لغلبة الأهواء وظهور التنــزلات وعبادة الطواغيت واللات والمنات.

قال في «التأويلات النجمية»: «قد آل الأمر في زماننا هذا إلى أن من لم يكن مريدًا قط يدعي الشيخوخة، ويجيز بالشيخوخة بجهال الضلال من جهالته وضلالته حرصًا لانتشار ذكره وشهرته وكثرة مريديه».

وقد جعلوا هذا الشأن العظيم، والشأن الجسيم لعبة الصبيان، وضحكة الشيطان حين يتوارثون كلما مات واحد منهم يجلسون ابنه مقامه صغيرًا كان أو كبيرًا، ويلبسون منه الخرقة ويتبركون به، وينـــزلونه منازل المشايخ؛ فهذه مصيبة قد عمت، ولعل هذه طريقة قد نمت فاندرست آثارها، والله أعلم بأخبارها انتهى.

وأقول في قائله - جازاه الله عنا خير الجزاء، وقد كفى موته هذا البيان.

قيل: مات من السِّنين، ولو صدر عنا مثل هذا الجواب في هذا الزمان لحمله المتصلِّفون على الطعن والجرح لما في باطنهم من المرض والقرح؛ ولاشتعلت نيران الحسد والشرور، ولاشتغلت نسوان الزمان بكل ما يمكن من الفجور؛ فانظر.

إنَّ الشيخ - رحمه الله - قال هذا في زمانه، وأما في زماننا، فقد طال الأمد وتقاربت الطامة، فلم يبق لا التحقيق ولا التقليد بين الخاصة والعامة.

وقد قالوا:

أمـــا الخـــيام فإنهـــا كخـــيامهم ... وأرى نـــساء الحـــي غير نسائها[1]

والآن ليست الخيام والنساء جميعًا كخيامهم ونساهم؛ لتبدل الصور والأشكال وتحول الزمان من حال إلى حال، وتغير أحوال الأشخاص من العوام والخواص، وتنكر المعرفة وتمسخ الذات مع الصفة.

---

(1) البيت من الكامل، وهو لأبي بكر الشبلي في «طبقات الأولياء» لابن الملقن ص (7420)، و«معجم الأدباء» ص (2750).

الفصل السابع /

في بيان حضرة الشيخ الأكبر والمسك الأذفر والكبريت الأحمر

قدس سره الأطهر

وهو محيى الدين محمد بن عليٍّ العربي الحاتمي الطائي الأندلسي، المدفون بالصالحية في الشام، وله من التصنيفات نحو ثلاثمائة[1].

---

(1) قال الشيخ المناوي: هو العارف الكبير، محي الدين بن عربي، ويقال ابن العربي.

قال شيخنا الشعراوي: ورأيته بخطه في كتاب «نسب الخرقة»كان مجموع الفضائل، مطبوع الكرم والمائل، قد فض له فضلة ختام كل فن، وبلّ له وابله رياض ما شرد من العلوم وعن، ونظمه عقود العقول، وفصوص الفصول.

وحسبك بقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين أحد فضله: هو أعرف بكل فن من أهله، وإذا أطلق الشيخ الأكبر، في عرف القوم، فهو المراد.

ولد بمرسية، سنة ستين وخمسمائة، ونشأ بها، وانتقل إلى إشبيلية سنة ثمان وسبعين، ثم ارتحل وطاف البلدان، فطرق بلاد الشام، والروم، والمشرق، ودخل بغداد وحدث بها بشيء من مصنفاته.

وأخذ عنه أحد الحفاظ، كذا ذكره ابن الجار في الذيل.

وقال ابن الحافظ في لسان الميزان: «وهو ممن كان يحط عليه، ويساء الاعتقاد فيه».

كان عارفًا بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم، أخذ الحديث عن جمع، وكان يكتب الإنشاء لأحد ملوك المغرب، ثم تزهد وساح، ودخل الروم، والحرمين، والشام، وله في كل بلد دخلها مآثر.

وقال أحدهم: برز منفردًا، مؤثرًا للتخلي والانعزال عن الناس ما أمكنه، حتى أنه لم يكن يجتمع به إلا الأفراد، ثم آثر التأليف، فبرزت عنه مؤلفات لا نهاية لها، تدل على سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة، وأنه بلغ مبلغ الاجتهاد في الاختراع والاستنباط، وتأسيس القواعد والمعاقد التي لا يدركها، ولا يحيط بها إلا من طالعها بحقها، غير أنه وقع له في تضاعيف بعض تلك الكتب، كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها، فكانت سببًا لإعراض كثيرين لم يحسنوا به الظن، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين، والعلماء العاملين، والأئمة الوارثين إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور أصطلح عليها متأخرو أهل الطريق، غَيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة، خلاف المراد، غير

=

مبالين بذلك؛ لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها.

وقد تفرق الناس في شأنه شيعًا ، وسلكوا في أمره طرائق قددا.

فذهب طائفة إلى أنه زنديق لا صديق.

وذهب قوم إلى أنه واسطة عقد الأولياء ورئيس الأصفياء.

وصار آخرون إلى اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه.

وغول جمع على الوقف والتسليم قائلين: الاعتقاد ضيعة، والانتقاد حرمان.

وإمام هذه الطائفة شيخ الإسلام النووي، فإنه استفتى فكتب: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:134] وتبعه على ذلك كثيرون، سالكين سبيل السلامة.

وقد حكى عن شيخه الخوري أنه سئل عنه فقال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية، والتسليم واجب، ومن لم يذق ما ذاقه القوم، ويجاهد مجاهداتهم لا يسعه من الله الإنكار عليهم.

والمنكرون عليه فريقان:

- فريق قصد بإنكاره تنفير الناس عن مطالعة كلامه لما اشتمل عليه من المشكلات وغويص المعضلات، فلم يقصدوا بإنكارهم خطأً نفسانيًا بل سلامة الناس من السقوط في تلك الطامات، كما هو مشاهد من حال كثير ممن اعتقده، وأكب على مطالعة كتبه، فوقع في الخطأ والخطل، حتى ضل وأضل، ولهذا بالغ ابن المقري في روضه، فحكم بكفر من شك في كفر طائفة ابن عربي، فحكمه على طائفته بذلك يشير إلى أنه إنما قصد التنفير عن كتبه، وإن من لم يفهم كلامه، ربما وقع في الكفر باعتقاده خلاف المراد.

وللقوم اصطلاحات أرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر ربما كفر، كما قال الغزالي.

وقد حكى الشيخ الإمام ناصر الدين الطبلاوي أنه دخل القاهرة رجل أعجمي، عليه لوائح العارف، فكثر أتباعه جدًا، وألحوا عليه في قراءة الفصوص فامتنع، فما زالوا يلحون ويبرمون، حتى وعدهم بعد الاستخارة مرارًا بشرط ألاّ يقرئهم إياه إلا فيما وراء النيل من أرض الجيزة، وألاّ يحضر معهم غيرهم، فقرره لهم هناك تقريرًا بديعًا بلسان الحقيقة المؤيد بالشريعة، ولزم ذلك مدة، ثم انقطع يوم النوبة، فسألوه عن السبب، فقال: نظرت الليلة في الدرس، فأشكل علي موضع منه، فكررت النظر، فرأيت الأمر أشكل، فتوجهت، وأخلصت إلى الله في التوجه ليكشف لي ذلك فكشف لي، فرأيت الشيخ في هذه المسألة اختل كشفه، فانتقل نظره، فأمسكت عن هذا الكتاب بخصوصه.

- وفريق قصد بالإنكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه، لكونه وجد قرينه وعصرية يعتقد، وينتصر له، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته، فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه، وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق، وعدم الانتفاع بعلومهم، وتصانيفهم على حسنها.

ومن كان يعتقده سلطان العلماء ابن عبد السلام، فإنه سئل عنه أولاً، فقال: شيخ سوء كذاب، ولا يحرم فرجًا، ثم وصفه بعد ذلك بالولاية بل بالقطبانية، وتكرر ذلك منه. وحكي عن اليافعي أنه كان يطعن فيه ويقول هو زنديق. فقال له أحد أصحابه يومًا: أريد أن تريني القطب. فقال: هو هذا. فقيل له: فأنت تطعن فيه. قال: حتى أصون ظاهر الشرع.

ومنهم الزملكاني، قال في كتابه المؤلف في النبي والملك: كان الشيخ ابن عربي بحرًا زاخرًا في المعارف الإلهية.

ومنهم اليافعي في إرشاده، ووصفه بالمعرفة والتحقيق، فقال: اجتمع الشيخان الإمامان العارفان المحققان الربانيان السهروردي وابن عربي، فأطرق كل منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام، فقيل لابن عربي: ما تقول في السهروردي؟ قال: مملوء سنة من قرنه إلى قدمه. وقيل للسهروردي: ما تقول في ابن عربي؟ قال: بحر الحقائق.

ومنهم قاضي القضاة الشمس الباسطي المالكي، فإنه حضر مجلس فيه العلاء البخاري، فبالغ البخاري في ذمه، وتكفير معتقديه، فانتصر له الباسطي وقال: أما ينكر الناس عليه ظاهر الألفاظ التي يقولها؟ وإلا فكيف في كلامه ما ينكر إذا حمل مراده، وضرب من التأويل -وكان من كلام البخاري الإنكار على من يعتقد الوحدة المطلقة- فقال الباسطي: أنتم ما تعرفون الوحدة المطلقة؟ فاستشاط غضبًا، وحلف إن لم يعزله السلطان خرج من مصر. فعزم السلطان على ذلك فما تم، واستمر الباسطي في منصبه بعد ذلك إحدى عشرة سنة حتى مات، ولم يتفق له عزل قط بعدها.

ولما جرت كائنة البقاعي، وعقدت بسببها المجالس، وأجمع أكثر أهل ذلك العصر على اعتقاد ابن عربي وتأويل كلامه، أراد أحد الناس أن يوقد نار الفتنة بين المعتقدين والمنكرين، وسعى بذلك إلى السلطان، فأمر بأخذ خطوط العلماء، فامتنع شيخ الإسلام زكريا السبكي من الكتابة خوف الفتنة، فتأثر منه المعتقدون، فخرج من درسه بجامع الأزهر، فلقيه سيدي محمد الإسطنبولي المجذوب الصاحي، فتعرض له وقال: يا زكريا، نحن رفعناك من الأرض إلى السماء ومع ذلك تتوقف في الكتابة؟ فاعتذر الشيخ وبالغ وكتب.

ثم آل الأمر إلى نصرة المعتقدين على المنكرين.

وأقوى ما احتج به المنكرون أنه لا يؤول إلا كلام المعصوم.

ويرده قول الإمام النووي في «بستان العارفين» بعد نقله عن أبي الخير التيناني واقعة ظاهرها الإنكار: «قد يتوهم من يشتبه بالفقهاء، ولا فقه عنده أن ينكر هذا، وهذا جهالة وغباوة، ومن يتوهم ذلك، فهي جسارة منه على إرسال الظنون في أولياء الرحمن، فليحذر العاقل من التعرض لشيء من ذلك، بل حقه إذا لم يفهم حكمهم المستفادة، ولطائفهم المستجادة، أن يتفهمها ممن يعرفها. وربما رأيته من هذا النوع ممن يتوهم فيه من لا تحقيق عنده أنه مخالف ليس مخالفًا، بل يجب تأويل أفعال أولياء الله». إلى هنا كلامه. وإذًا: وجب تأويل أفعالهم، ووجب تأويل أقوالهم،
=

لا فرق.

وكان المجد صاحب القاموس عظيم الاعتقاد في ابن عربي، ويحمل كلامه على المحامل الحسنة، وطرّز شرحه للبخاري بكثير من كلامه.

وقد عظم انتشار كتبه بالأقطار وبأرض الروم، فإنه أخبر في أحدها بصفة جد السلطان سليمان، وفتحه لبلدهم في وقت كذا، فكان كذلك.

فلذلك بني على قبره قبة عظيمة، وجُعل فيها طعامٌ وخيرات، حتى احتج أحد المنكرين عليه من الفقراء لدخولها بعدما كانوا يبولون ويروثون على قبره.

وأخبر الشعراوي عن أحد إخوانه، أنه شاهد رجلاً أتى ليلاً بنار ليحرق تابوته، فخسف به، وغاب بالأرض، فأتى أهله فحفروا، فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل في الأرض، فعجزوا، فأهالوا عليه التراب.

وكان شيخنا شيخ الإسلام، فقيه عصره، الشمس الرملي، يوصي من يميل إليه من تلامذته، بتعظيم ابن عربي واعتقاده، وينقل ذلك عن أبيه.

وحكى الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيثمي عن أحد مشايخه أنه كان من المنكرين فمرض، واشتد به ضيق النفس حتى منعه الطعام والمنام وقال: فقلت له هذا من الإنكار. فسبّني، ثم رجع وقال: لعلك صادق. فقلت له: إذن، اعقد التوبة عن الإنكار عليه، وأنتم يحصل لكم الشفاء فورًا. فقال: تبت، ولا أعود. فشفي... وصار يأكل ويشرب وينام مدة.

ثم جاءه رجل من معتقدي ابن عربي، فبحث معه شأنه، فحمله حنقه منه على أن قال: اشهدوا على أني باقٍ على الإنكار، فعاد إليه المرض بأشد ما كان إلى أن مات. وكان ألّف كتبًا فاقت على جميع أهل عصره، فلم ينفع الله بشيء منها.

ومن تأمّل سيرة ابن عربي، وأخلاقه الحسنة، وانسلاخه من حظوظ نفسه، وترك العصبية، حمله ذلك على محبته واعتقاده.

ومما وقع له أن رجلاً من دمشق، فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشر مرات، فمات، وحضر ابن عربي جنازته، ثم رجع فجلس ببيته، ثم توجه للقبلة، فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء، فالتفت مسرورًا وطلب العشاء وأكل، فقيل له في ذلك فقال: التزمت مع الله أني لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي يلعنني، وذكرت له سبعين ألف «لا إله إلا الله» فغفر له.

وقد أوذي الشيخ كثيرًا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك، وذلك من غُرر كراماته.

فقد قال في الفتوحات: «كنت نائمًا في مقام إبراهيم، وإذا بقائل من الأرواح -أرواح الملأ الأعلى- يقول لي عن الله: ادخل مقام إبراهيم، إنه كان أواهًا حليمًا. فعلمت أنه لا بدّ أن يبتليني بكلام في عرضي من قوم، فأعاملهم بالحلم، وقال:

«ويكون أذى كثيرًا، فإنه جاء بحليم بصيغة المبالغة، ثم وصفه بالأوّاه، وهو من يكثر من التأوه لما يشاهد من جلال الله» انتهى.

قال الصفي ابن أبي منصور: جمع ابن عربي بين العلوم الكسبية والعلوم الوهبية.

وكان غلب عليه التوحيد علمًا وخَلْقًا وخُلُقًا، لا يكترث بالوجود، مقبلاً كان أو معرضًا.

وقال تلميذة الصدر القونوي الرومي: كان شيخنا ابن عربي متمكنًا بالاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء:

- إن شاء استنــــزل روحانيته في هذا العالم، وأدركه متجسدًا في صورة مثالية، شبيهة بصورته الحسنة العصرية التي كانت له في حياته الدنيا.
- وإن شاء أحضره في نومه.
- وإن شاء انسلخ من هيكله، واجتمع به.

وهو أكثر القوم كلامًا في الطريق، فمن ذلك ما قال:

ما ظهر على العبد إلا ما استقر في باطنه فما أثر فيه سواه، فمن فهم هذه الحكمة وجعلها مشهورة، أراح نفسه من التعلق بغيره، وعلم أنه لا يؤتي عليه بخير ولا بشر إلا منه، وأقام العذر لكل موجود.

وقال: إنما كان العارف لا يرى في نومه ما يراه المريد من الأنوار والأمور الحسنة؛ لأنه لا ينام إلا على الخوف، ورؤية التقصير والتفريط في حق الحق تبارك وتعالى. والمريد ينام على رؤية استحسان حاله، ورؤية نتيجة أعماله، والنوم تابع للحس، لذلك كان أحد العارفين يحن إلى البداية.

وقال: إذا فتح عليك بالتصرف، فآتِ البيوت من أبوابها، وإياك بالفعل بالهمة من غير آلة، فانظر إليه سبحانه كيف خمّر طينة آدم بيده، ثم نفخ فيه الروح وعلمه الأسماء، فأوجد الأشياء على ترتيب، ولو شاء لقال: كن فكان.

وقال: إذا ترادفت عليك الغفلات وكثر النوم، فلا تسخط، ولا تلتفت لذل، فإن من نظر الأسباب مع الحق أشرك، كن مع الله بما يريد لا مع نفسك بما تريد، لكن لا بدّ من الاستغفار.

وقال: علامة الراسخ أن يزداد تمكنًا عند سلبه؛ لأنه مع الحق بما أحب، لا مع نفسه بما يحب، فمن وجد اللذة في حال المعرفة دون السلب، فهو مع نفسه، غيبةً وحضورًا.

وقال: من صدق في شيء، وتعلقت همته بحصوله كان له عاجلاً أو آجلاً، فإن لم يصل إليه في الدنيا فهو له في الآخرة، ومن مات قبل الفتح رفعه إلى محل همته.

وقال: من جمع بين النقيضين شهد الواحد كثيرًا، والكثير واحدًا، ولا نعني بين الجمع في النقيضين إلا ما هو محال في العقل من غير تأويل، ولأن طور الولاية يخالف ما قاله العلماء الحاكمون بمقتضى عقولهم، والله واسعٌ عليم.

وقال: العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته، ويعرف ببصيرته ما لا يدركه أحد غيره إلا

نادرًا، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من تنفسه، فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه، وهذا مما قطع الظهور ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:44].

وقال: العلوم ما دامت في معادنها، فهي واسعة مطلقة، ولا تقبل تغييرًا ولا تبديلا، فإذا ظهرت مقيدة بالحروف دخلها ما يدخل الكون من التغيير والتبديل، واختلاف العبارات، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا.

وقال: كل من صدق في احترام الألوهية واستحضرها، وكانت مشهورة له، كان النصر الإلهي معه، غيرة إلهية أن يغلب من استند إلى الحق ولو في زعمه، ومن هنا كانت الغلبة للمشركين في أحد المواطن، لأنهم وفوا آلهتهم حق الحرمة لما اعتقدوا فيها الألوهية، فإذا كان هذا النصر يقع لمن استند إلى الاسم ولو وضع على غير مستحقه ممن لا ينفع، فكيف بالاستناد إلى الله؟! ولهذا قالوا: الصدق سيف الله.

وقال: لا ينقص العارف قوله لتلميذه: خذ هذا العلم الذي لا تجده عند غيري ونحوه، مما فيه تزكية نفسه؛ لأن قصده حث المتعلم على القبول.

وقال: كلام على صورة السامع بحسب قوة استعداده وضعفه، وشبهته القائمة بباطنه.

وقال: كل من ثقل عليك الجواب عن كلامه فلا تجبه، فإن وعاءه ملآن، لا يسع الجواب.

وقال: من صح له قدم في التوحيد، انتفت عنه الدعاوي من نحو رياءٍ وإعجاب، فإنه يجد جميع الصفات المحمودة لله لا له، والعبد لا يعجب بعمل غيره، ولا بمتاع غيره.

وقال: من ملكته نفسه عذب بنار التدبير، ومن ملكها لله عذب بنار الاختيار، ومن عجز عن العجز أذاقه الله حلاوة الإيمان، ولم يبق عنده حجاب.

وقال: من أدرك من نفسه التغير والتبديل في كل نفس فهو العالم بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29].

وقال: من علامة فقد النفس في حق المريد، عدم شهوته لشيء من أمر الدارين.

وقال: من طلب دليلاً على وحدانية الله تعالى، كان الحمار أعرف بالله منه.

وقال: الجاهل لا يرى جهله؛ لأنه في ظلمته، والعالم لا يرى علمه؛ لأنه في ضياء نوره، ولا يرى شيئًا إلا بغيره، فالمرآة تخبرك بعيوب صورتك، وتصدقها مع جهلك بما أخبرت، والعلم يخبرك بعيوب نفسك مع علمك بما أخبر، وتكذبه، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وقال: حسن الأدب في الظاهر آية حسنة في الباطن، فإياك وسوء الظن، وقال: كان المصطفى يتواضع لأكابر قريش؛ لأن الأعزاء من الخلائق، مظاهر العزة الإلهية، فكان يقدمهم على فقراء الصفة ليوفي صفة الكبرياء حقها، وهذا مقام عال، لكن فوقه أعلى منه، وهو ما أمره به آخرًا بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف:28] فأمر ألاّ يشهده في شيء دون شيء.

وقال: معنى الفتح عندهم كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السر، لما في الكتاب والسنة.

=

وقال: ربما فهم أحدهم من اللفظ ضد ما قصده المتكلم.

سمع أحد علماء بغداد رجلاً من شربة خمر ينشد:

إذا الْعِشْرُونَ مِنْ شَعْبَانَ وَلَّتْ   فَوَاصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ
وَلاَ تَشْرَبْ بِأَقْدَاحٍ صِغَارٍ   فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَنِ الصِّغَارِ

فهام على وجهه في البرية، حتى مات.

وقال: كثيرا ما يوهب في قلوب العارفين نفحات إلهية، فإن نطقوا بها جهلهم كمل العارفين، وردها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر، وغاب عن هؤلاء أنه تعالى كما أعطى أولياءه الكرامات التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن تنطق ألسنتهم بعبارات تعجز العلماء عن فهمها.

وقال: من لم يقم بقلبه تصديق ما يسمعه من كلام القوم فلا يجالسهم، فإن مجالستهم بغير تصديق سمٌّ قاتل.

وقال: شدة القرب حجاب، كما أن غاية البعد حجاب، وإذا كان الحق إلينا أقرب من حبل الوريد، فأين السبعون ألف حجاب؟

وقال: لا تدخل الشبهة في المعارف والأسرار الربانية، وإنما محلها العلوم النظرية.

وقال: نهاية العارفين منقولة غير معقولة، فما ثم عندهم إلا بداية، وتنقضي أعمارهم، وهم مع الله على أول قدم.

وقال: أقل الناس طمعًا من رضي بالدنيا، وأكثر منه طمعًا من لم يرض بها وطلب الآخرة، وأكثر منه طمعًا من طلب وجه الله، وهنا أسرار لا تسطر في كتاب.

وقال: ليس عند العارفين خلوة؛ لأن الكون كله معمور، متى ناطق بتسبيح خالقه، ومن اتخذ الخلوة استجلاءً للفراغ الذي يجده تقويةً للاستعداد، فهو في حظ نفسه ما برح، وقد ذم الله الذين يتسللون على أمر ليسوا له بأهل.

وقال: الحق غني عن الدلالة عليه، ولولا غناه لكان للدليل فخر على المدلول.

وقال: كل من آمن بدليل فلا وثوق بإيمانه لأنه نظري، فهو معرض للقوادح، بخلاف الإيمان الضروري الذي يوجد في القلب، ولا يمكن دفعه، وكل علم حصل عن نظر وفكر، لا يسلم من دخول الشبه عليه ولا الحيرة فيه.

وقال: شرط الكامل الإحسان إلى أعدائه وهم لا يشعرون، تخلّق بأخلاق الله، فإنه دائم الإحسان إلى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به.

وقال: شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاجه المريد في التربية، لا ظهور كرامة، ولا كشف باطن المريد.

وقال: لا يعمل للخلق في حركة ولا سكون، إلا بحكم التبعية للحق؛ لأنه المحرك للحركة الظاهرة بالحركة الخفية.

قال: ما من نقمة إلا وفيها رحمة، ألا ترى أنه لولا قطع الأكلة، هلك صاحبها؟.

=

وقال: الشفقة على الخلق أحق بالرعاية من الغيرة في الله؛ لأن الغيرة لا أصل لها في الحقائق الثبوتية؛ لأنها من الغيرية، ولا غيرية هناك.. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:61]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. [الشورى:40] فجعل القصاص سيئة، أي أن ذلك الفعل سيئة مع كونه مشروعًا.

كل ذلك تعظيمًا لهذه النشأة التي تولى الحق خلقها بيده، واستخلفها في الأرض، وحرم على عباده السعي في إتلافها بغير إذنه.

وقال: لو كان ما بأيدي الخلق ملكهم، ما حجر عليهم حق التصرف فيه، ولا حد لهم الحدود، فكل ما بأيديهم -حتى أفعالهم- له.

وقال: الصوفي من أسقط الياءات الثلاث، فلا يقول لي، ولا عندي، ولا متاعي- أي لا يضيف لنفسه شيئًا.

وقال: الروح إذا صفت من كدر الوقوف مع الطبع، التحقت بعالمها المناسب لها، فأدركت ما أدركته الأرواح العلا من علوم الملكوت والأسرار، وانتقش فيها كل ما في العالم من المعاني، وحصلت من الغيوب بحسب الصنف الروحاني المناسب لها، فإن الأرواح - وإن جمعهم أمر واحد - فلكل روح مقام معلوم، فهم على طبقات، منهم الكبير، والأكبر كجبريل، وإن من أكابرهم فميكائيل أقرب، ومنصبه فوق منصبه، وإسرافيل أكبر من ميكائيل، وجبرائيل أكبر من إسماعيل.

وقال: العلم بوجود الصانع -عند ظهور الصنعة للناظر- ضروري وإن لم يعلم حقيقة الصانع ولا ماهيته، ومن لم يعلم ما يجب ويجوز ويستحيل عليه إلا بعد نظر فكري، فهذا مرض لا طب فيه.

وقال: المؤمن الصحيح الإيمان هو من يعبد الله الذي وصفه الشارع، والمؤمن المريض الإيمان من يعبد الله الذي دل عليه العقل لا غير، وقد نبهتك على أمر يتضمن عذر كل من اعتذر.

وقال: المضطر هو الذي دعا ربه عن ظهر فقر إليه، وما منع الناس الإجابة إلا لكونهم يدعونه عن ظهر غنى؛ لالتفاتهم إلى الأسباب وهم لا يشعرون.

وقال: «الدعاء مخ العبادة»، وبالمخ تكون القوة للأعضاء، فلذا تتقوى به عبادة العابدين.

وقال: لا يخلص المؤمن من معصيته بغير أن يخالطها طاعة، فالمخلط هو المؤمن العاصي، فإنه إذا عصى في أمر، فهو مؤمن بأن ذلك معصية والإيمان واجب فقد أتى واجبًا، فالمؤمن مأجور في عين عصيانه.

وقال: أراد رجل من أهل القيروان الحج وتردد، هل يمشي بحرًا أو برًا، وما ترجح شيء عنده، فقال: أسأل أول رجل ألقاه. فأول من لقيه يهودي، فحار في أمره ثم سأله، فقال له: يا مسلم، أليس الله يقول: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»؟ قدم ما قدم الله.

وهذا هو الطريق: نبدأ بما بدأ الله به، ونقدم ما قدمه، فمن التزم ذلك، رأى في حركاته خيرًا كثيرًا.

وقال: يدور القضاء في الجو من مقعر فلك القمر إلى الأرض ثلاث سنين، وحينئذ ينـزل، فيعرف الأولياء ذلك بحالة تسمى فهم الفهم.

وقال: تحفظ من لذّات الأحوال؛ فإنها سموم قاتلة، وحجب مانعة.

وقال: لا تدخل دارًا لا تعرفها، فما من دار إلا فيها مهاوٍ ومهالك، قف عند باب دارك حتى يأخذ الحق بيدك.

وقال: أماني النفوس تضاد الأنس بالله؛ لأنه لا يدرك بالأماني.

وقال: لا يغرنك إمهاله فإن بطشه شديد، والتقي من اتعظ بنفسه، لا يغرنك من خالف، فجوزي بإحسان المعارف، ووقف في أحسن المواقف وتجلت له المشاهد، هذا كله مكرٌ به، واستدراج من حيث لا يعلم، قل له احتج عليك بنفسه:

ستعلم حين ينقشع الْغُبَارُ أبغلٌ كانَ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

وقال: ليس للكُمَّل همة تؤثر في أحد إذا هم؛ لأن المعرفة لم تترك لهم همة يتصرفون بها، وكلما علت المعرفة نقص التصرف لتحققهم بمقام العبودية، ونظرهم إلى أصلهم من الضعف.

وقال: لا يصح لعبدٍ مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكمًا من شرائع الأنبياء فمن ادّعى المعرفة، واستشكل حكمًا واحدًا في الشريعة المحمدية أو غيرها، فهو كاذب.

وقال: أجمعت الطائفة على أن العلم بالله عين الجهل به تعالى.

وقال: إذا طلبت الطريق إلى الله من حيث ما شرعه كان الحق غايتك، وإذا طلبته من حيثما تعطيك نفسك من الصفات، والالتحاق بعالمها من التنـزه عن الطبيعي إليها، كان غايتها اللحوق بعالمها الروحاني، ومن ثم تنشأ شريعة الأرواح، حتى يكون الحق غايتها.

وقد أفردنا لهذه الطريقة خلوة مطلقة في جزء يعمل عليها المؤمن، فيزيد إيمانًا، والكافر والمعطل والمشرك والمنافق، فإذا وفّى العمل عليها وبها، حصل له العلم بما الأمر عليه، ويكون ذلك سبب إيمانه بوجود الله وإن كان معطلاً، وبتوحيده إن كان مشركًا، وبحصول إيمانه وإن كان كافرًا، وبإخلاصه وإن كان منافقًا، فمن عمل بشروط تلك الخلوة، أثمرت له ما ذكر، وما سبقني إليها أحد في علمي.

وقال: قد يقصد العبد مناجاة ربه، وقد يأتيه الأمر بغتةً كموسى، ذهب ليقتبس نارًا، فكلمه ربه، ولم يكن له قصد لذلك.

وقال: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم؛ لكماله في الدلالة عليه، واستيعابه ما نسب الحق إلى نفسه وإلى العالم، فقد انحصر الأمر فيما وجد من العالم من جهة الحقائق.

وقال: إذا ذكر الله الذاكر ولم يخشع قلبه، ولا خضع عند ذكره إياه، لم يحترم الجناب الإلهي، ولم يأت بما يليق به من التعظيم، وأول ما تمقته جوارحه، وجميع بدنه.

وقال: أمهات الأسماء الإلهية كلها التي عليها يتوقف وجود العالم أربعة لا غير: الحي، العالم، المريد، القادر. وبهذه الأسماء ثبت كونه إليها.

وقال: من يتعرض للفتح فلا يُفتح له، يُجمع له إلى أن يموت، فيرى عند موته ما أخفي له من قرة أعين، فيعلم عند ذلك أنه كان مسافرًا إلى الله، ولم يشعر لكونه ما فتح له في حياته الأولى، ولا شاهد ما شاهد غيره من السائرين إلى الله.

وقال: الحق سبحانه لا يقرّب عبده إلا ليمنحه ويعطيه، ثم يبرزه للناس قليلاً قليلا، لئلا يبهرهم نور ما أعطاه؛ لضعف عيون بصائرهم رحمةً بالعامة.

وقال: العبد لا فخر له بأبيه، بل بسيده، وإن افتخر عبدٌ بأبيه، فإنما يفتخر به من حيث إنه كان مقرّبًا عند سيده؛ لأنه عبد مثله.

وقال: جميع حركات الكون من جهة الحقيقة اضطرارية مجبورٌ فيها، وإن كان الاختيار في الكون موجودًا تعرفه، لكن ثَمّ علم آخر، علمنا به أن المختار مجبور في اختياره، بل الحقائق تعطى، فلا مختار؛ فقد رأينا الاختيار في المختار اضطراريات، أي لا بد أن يكون مختارًا.

وقال: أخبرني من أثق به قال: دخلت على رجلٍ فقيهٍ عالمٍ متكلم، فوجدته بمجلس فيه الخمر وهو يشرب، ففرغ النبيذ فقيل له: أنفذ إلى فلان يأتي بنبيذ. قال: لا، فإني ما أصررت على معصية قط، ولي بين الكأسين توبة، ولا أنتظره، فإذا حصل بيدي أنظر: هل يوفقني ربي فأتركه، أو يخذلني فأشربه؟ ثم قال -أعني ابن عربي- فهكذا العلماء.

وقال: كل رُوح لا يعطي رسالة، فهو روح لا يقال فيه ملَك إلا مجازًا، كالأرواح المخلوقة من أنفاس المؤمنين الذاكرين، يخلق أنفاسهم أرواحًا يستغفرون الله لصاحب الذكر إلى يوم القيامة، وكذا من أعمالهم المحمودة التي فيها أنفاسهم، فهؤلاء أرواح مطهرة، فمن أُرسل منهم في أمر سُمي ملكًا .

وقال: الوقف عن تفضيل البشر على الملك، وعكسه لاختلاف الجنس، فلا يقال الحمار أفضل من الفرس مثلاً، اللهم إلا أن يرجع التفاضل إلى الأرواح فلا مانع؛ لأن أرواح البشر ملائكة، فالملك جزء من الإنسان، فالكل من الجزء وعكسه.

وقال: علوم العقل المستفادة من الفكر يشوبها تغيير؛ لأنها بحسب مزاج المتفكر من العقلاء؛ لأنه ينظر في مواد محسوسة كونية في الخيال، ولذلك تختلف مقالاتهم في شيء واحد، بل تختلف مقالة الواحد في شيء واحد لاختلاف الأمزجة، والتخليط والأمشاج التي في النشأة الأولى بخلاف العلم اللدني، فإنه خالص لم يشبه كدر؛ لخلوصه من حكم المزاج الطبيعي.

وقال: ليس في مقدور العبد مراقبة الله في السر والعلن مع الأنفاس، فالذي عليه بذل الجهد في الاستحضار.

وقال: إنما سميت شبهة لأنها تشبه الحق من وجه.

وقال: اقتضت الحكمة الإلهية عدم اتفاق الخلق على اعتقاد ولي من الأولياء، والإذعان له لسرٍ خفي، هو أنه لو كان كل الخلق مصدقين له فاته أجر الصبر على التكذيب، ولو كانوا كلهم مكذبين له فاته الشكر على تصديق المصدقين له والمعتقدين لآثاره، فجعلهم الحق قسمين:

=

معتقِدًا ومنتقِدًا، ليتعبد الله فيمن صدقه بالشكر، وفيمن كذبه بالصبر.

وقال: من عوّد نفسه الكذب على الناس، يستدرجه الطلب حتى يكذب على الله، فإن الطبع سرّاق.

وقال: من شرفت مرتبته وعلت منـــزلته كبرت صغيرته، ومن كان وضيع المنـــزلة خسيس المرتبة صغرت كبيرته.

وقال: من لم يخطر له خاطر الحضور مع الله إلا في وقت قضاء الحاجة، فهو خاطر شيطاني لا يعوّل عليه.

وقال: ليس للأماكن أثر في حجاب القلب عن ربه، وإنما الأثر، الغفلة والجهل.

وقال: لا خير في علم لا يعطي صاحبه سعادة الأبد، ولا يقدس حامله عن تأثير الأمد.

وقال: إذا وقع التماثل، سقط التفاضل.

وقال: تكليف مالا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينا ذلك مشاهدةً ونقلا.

وقال: كل ما أدى إلى نقص الألوهية فهو مردود، ومن جعل في الوجود الحاضر ما ليس بمراد الله فهو عن المعرفة مطرود، وباب التوحيد في وجهه مسدود، وقد يراد الأمر ولا يراد المأمور به على الصحيح، وهذا غاية التصريح.

وقال: أصلُ الأعداد الواحد، فلا وجود لها إلا به، وبه بقاؤها. فافهم.

وقال: الأدب مع الله، ألاّ ترد عليه ما أعطاك.

وقال: فتنة العلم أعظم من فتنة المال، فإن شرف المال عارض لا تتعداه أفواه الناس، للنفس منه صفة، وشرف العلم حليةٌ تتحلى بها النفس، وفتنته أعظم، ولا زوال له عن صاحبه في حال فقره وغناه ونوائبه.

والمال يزول عن صاحبه بنحو لص أو حرق أو غرق أو جائحة، والعلم منك في حضن حصين يلزم الإنسان حيًا وميتًا، ودنيا وآخره، وهو لك على كل حال، وإن كان عليك في وقت فهو لك آخر الأمر.

وإن أصابك آفة من جهته فلا تكترث، فليس إلا لشرفه، حيث لم يعمل به، فإذا نجوت أخذك إلى منـــزلته، وهي معلومة.

وقال: للصوم شرط في طريق الله، وهو أن الصائم إنما يمسك عن الأكل بالنهار ليأخذ ما يأكله فيه فيتصدق به، فإن لم يفعل ذلك، واستوفى في عشائه ما فاته بالنهار، فما أمسك، وبهذا ينفصل صوم خواص أهل الله عن صوم العامة.

وقال: من لا علم له بأحدية خالقه كثرت آلهته، وغاب عن معرفته بنفسه، فجهل ربه، فصار عبدًا لكل رب، فهو محلٌ لكل ذنب.

وقال: الخيال تابع للحس، ولهذا إذا احتلم المريد برؤيا عاقبه شيخه، ألا ترى أنه ما احتلم نبيٌ قط ولا عارف؟ فإن الاحتلام إنما هو من بقية طبيعته في خياله، وهو كذب، فإنه يظن أنه في الحس

=

الظاهر، والورع تجنب الكذب، فلو اجتنبه في الحس أثر في خياله، فلم تكذب رؤيا قط، فإذا رأيتم ورعًا اغتسل، فهو من مرض طرأ في مزاجه، لا عن رؤيا، لا في حلالٍ ولا في حرام.

وقال: إذا رأى إنسان إنسانًا على مخالفة حق مشروع، وفارقه في لحظة، ثم رآه في اللحظة الأخرى، وحكم عليه بالحالة الأولى فما وفّى الألوهية حقها، ولا الأدب مع الله حقه، وكان قرين إبليس، حليف الخسران، سيئ الظن بالله وبعباده، فباطنه مظلم، وخلقه سيئ، وورعه مقتٌ عليه.

وقال: إن الله ما وصف بالكثرة شيئًا إلا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيءٍ إلا منه، وما أوتي الذكر قط إلا باسم الله خاصة معرّى عن التقييد، فقال: اذكروا الله، وما قال بكذا، وقال: ولذكر الله أكبر، ولم يقل بكذا.

وقال: المتولد عن الأضداد المتنافرة، لا بدّ فيه من المنازعة مع ما في المولد من الأركان، فإنه مولد من مولد، من مولد عن فلك، عن برج، عن طبيعة، عن نفس، فنحن في آخر الدرجات.

وقال: من أفسد شيئًا بعدما أنشأه، جاز أن يعيده كما بدأه.

وقال: من قدر على إمساك الطيور في الهواء، وهي أجسام، قدر على إمساك جميع الأجرام.

وقال: الأزل نعت سلبي، وهي نفي الأولية.

وقال: إذا تجلى الحق لسر عبد، ملّكه جميع الأسرار، وألحقه بالأحرار.

وقال: من لم يعرف حقيقة نفسه لم يصل إلى المعرفة، وكان بعيدًا خلف الحجاب.

وقال: لا يصل المرتاض إلى ما طلب من الذوات المارجية إلا أن يكون جنيًا بالقوة، ويبعد عن الناس بُعدًا كلياً بحيث لا يعلم به غير خادمه، ولا يشغل فكره بغير الأمر المطلوب، فهذه شروط أعرفها، وأشكر الله.

وقال: تكبّر على من تكبّر على الله، وإن التكبّر من صفته.

وقال: من طلبه بالفكر وقوة الفعل، لم يحصل من المعرفة بالحق على طائل، كيف يطلب من يقبل المثل والنظير من لا مثل له ولا نظير؟

وقال: الكل خلق الله، ومضافٌ إليه، فتعظيم خلقه تعظيمه، فطوبى لمن رحم خلقه، ولا يلزم من رحمته أن تلقي إلى أعداء الله بالمودة، ارحمهم من حيث لا يعلمون.

وقال: من نظر الخلق بعين الحق رحمهم، ومن نظرهم بعين العلم مقتهم، ولله أمر وإرادة، فانظر أي الطريقين أنجى لك فأسلكه.

وقال: إذا تجلت لقلبك العظمة وقيدتك، فلا تقف عندها، واهرب إلى الله، فإنها تهلكك.

وقال: لا يهولنّك مخلوق، فمن هاله مخلوق أهلكه.

وقال: ما دامت الدنيا موجودة، فالتعب موجود في السعداء، فإنها دار السبك والتخليص.

وقال: كل من أحبك لك فاعتمد على حبه، فإنه الحب الصحيح، وحب الله لخلقه بهذه المثابة.

وقال: عليك بأمر الحق فاتبعه، ولا تغتر بأنك لا ترى شيئًا إلا تحت تصريفه، وحكم إرادته، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، هذا لا ينجيك، فانظر ذلك عقدًا، وتصرّف بالأمر.

=

وقال: إنما كان العلم حجابًا لأنه يطلب المعلوم على حد علمه، وما كل معلوم يتصور الطلب عليه.

وقال: لا تصح المعرفة بالله لأحد حتى يتعرف إليه، وتعرفه بظهوره، فيبصره من القلب عين اليقين بنور اليقين.

وقال: الحق لا يقرب العبد إلا على قدر تعلق همته به، فهمته أنزلته ذلك المنـــزل، وهمتك خلقها فيك عناية منه بك، فعنايته أنزلتك، فلا شيء لك، فالكل منه وإليه، وهو الله لا إله إلا هو.

وقال: لله تعالى الجود المطلق، فمن آتاه اصطفاه، ومن أعرض عنه دعاه، فإن أجابه تلقاه، وإن تمادى به الإعراض حتى يصل إليه حين تصير الأمور إليه، وجده معرضًا عنه.

وقال: المصلي والذاكر يخلق له من ذكره وصلاته ملك يستغفر له إلى يوم القيامة.

وقال: الإنسان قلب الفلك وعمدته، ألا تراه إذا زال وانتقل من الدنيا، خربت وزالت الجبال، وانشقت السماء، وانكدرت النجوم؟

وقال: إذا رأيت الفتح يتوالى عليك في باطنك، فزنه بحالك، واحفظ حدود الشرع، فإن قام الوزن بالحق، فتلك الواردات بشائر السعادة، وإلا فاحذر المكر.

وقال: كلمة «هو» جمعت جميع قوى الحروف في عالم الكلمات، فلهذا كانت «الهوية» أعظم الأشياء فعلاً.

وقال: قال أهل الله «بسم الله» منا في إيجاد الأفعال بمنـــزله «كن» منه.

وقال: الذاكرون أعلى الطوائف لأنه جليسهم.

وقال: أوصاني شيخي أول ما دخلت عليه قبل أن أراه فقلت: أوصني قبل أن تراني، فأحفظ وصيتك، فلا تنظر إلي حتى ترى خلعتها علي قال: هذه نعمةٌ عالية، سد الباب، واقطع الأسباب، وجالس الوهّاب، يكلمك بدون حجاب.

فعملت على وصيته حتى رأيت بركتها ثم جئته، فرأى خلقها علي فقال: هكذا، هكذاً وإلا فلا.

ثم قال: امحُ ما كتبت، وانس ما حفظت، واجهل ما علمت، وكن هكذا معه على كل حال.

وقال: رب حجة تأتي على مهجة، وفرصة تؤدي إلى غصة، وإياك واللجاج؛ فإنه يوغّر القلب وينتج الحرب، عيٌ تسلم به، خير من نطقٍ تندم عليه، فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغك حاجتك.

وإياك والفضول، فإنه يزل القدم، ويورث الندم، عيّ يزري بك خير من براعةٍ تأتي عليك.

وقال: ليس الناطق من كلّمك بصوته وحرفه، بل من كان في قوته أن يوصل إليك ما عنده من المعاني.

وقال: الفرق بين ولد الدين وولد الطين في الميراث، الدين للعلم، والطين للمال.

وقال: أبوك من أنفق عليك، فإن أنفقت عليه فأنت أبوه.

وقال: صورة الإنسان بعد موته ينبوع أحواله في الدنيا، فكن على أحسن الحالات، تكن على

=

أحسن الصور.

وقال: من جنى وعلم أن الحق غفار غُفر له، ومن لم يجنِ ولم يعلم أنه غفار، فقد جنى.

وقال: الصدق صفة جامعة للشرف، عليه دلت المعجزات كلها، فالزم الصدق أيها السالك، ترى العجب العجاب، أخلُ مع الحق على قدم الصدق أسبوعًا بل أقل، لولا أن أتألّى على الله لحلفت أنه يجعل الطير تظلك، والوحش تصلي خلفك، ويخرج منك نور يضيء منه المشرق والمغرب.

وقال: لك ظاهرٌ إلى الخلق، وباطنٌ إلى الحق، فمتى ظهر الحق على ظاهرك سقطت حرمتك عند الخلق، وفيها سعادتك، وإذا خرج العبد من عند الحق خدم وعظم، وإذا دخل عليه جُهل، وما احترم إلا عند الخواص.

وقال: القرب من الحق بحسب تقديس الذات وتزكيتها، ولا يختص بذلك ذَكرٌ دون أنثى، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد كمُل من النساء مريم وآسية.

وقال: الفرح من صفات المؤمنين لانتظارهم لما آمنوا به، فإذا لقوه فرحوا، «**للصائم فرحتان**»، والعارفين لا يجوز عليهم الفرح مع المعرفة، بل لو جاز عليهم الغم لاغتموا إذا سمعوا ردّوهم إلى قصورهم، ولا فرح للمشاهدة لاستيلاء العظَمة، فإنها تمنع من الحركة، والفرح حركة، فعليهم هيبةٌ وسكينة.

وقال: إذا عَم الفساد البر والبحر، فارفع همتك عن الأرض، واجعلها سماوية علوية، حذر الهلاك.

وقال: الابتلاء مقرون بالدعوى، لا تدع فتُبتلَ، ولا تُطالب فتطالب.

وقال: في ذبح القرابين هو ائتلاف أرواح عند تدبير أجسام حيوانية، لتتغذى بها أجسام إنسانية، فتنظر أرواحها إليها حين تفريقها، فتدبرها إنسانية، بعد أن كانت تدبرها إبلاً أو بقرًا أو غنمًا..

قال: وهذا لا يفطن له إلا من نور الله بصيرته من أهل الله.

وقال: نفوسنا من حيث هي من الملائكة الذين مقامهم تدبير هذه الأجسام العنصرية، وجعلت هذه الأجسام الطبيعية حجاباً دوننا عن إدراكنا إياها.

وقال: كان أحد رجال الله يقول: جعلك الله محدثًا صوفيًا، وَلاَ جعلك صوفيًا محدثًا، فإن الغالب أن يكون يحكم الأصل المتقدم إلا أن يعصم الله، فمعرفة المكان الذي لنا من الأنبياء يجب علينا العلم به، لئلا نكون ممن ليس عليه ذلك.

وقال: ملائكة التدبير هم الأرواح المدبرة أجسام العالم المركب، وهي المدبرة في النُفوس الناطقة.

وقال: خلق الله الدنيا وما نظر إليها ففنيت؛ لأن نظر الباقي ثمرته البقاء، فما وقع الإعراض عن الدنيا لهوانها -كيف وهي منـــزل الخلفاء- بل لما كان من الفناء والبقاء، والإنسان هنا خليفه، وفي الآخرة إنسان لا غير.

وقال: ينبغي للعبد التأدب بآداب الحق، فإذا رأى فحشًا، كنّى عنه ولا يسميه.

وقال: من طلب السلطة على الخلق، ملأ الله قلبه شغلاً، ولا يعرف قدره، وإن أعطيها، نفذ فيها

صفر اليدين وقد عرف قدره.

وقال: أنصحك إذا رأيت من يقول لك: أنا الحق، فقل له: أنت بالحق، فإنه يفنى ولا بد.

وقال: إذا ادّعيت الوصلة وجمع الشمل، أخاف عليك أن يكون جمعك به لا به؛ لأنك إن طلبته لعلّه، فإنما وصلت لغرضك منه، وإن طلبته له وتحققت بهذا المقام، فأنت الواصل إليه حقًا.

وقال: الأولياء على عدد الأنبياء، فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي، وأربعة وعشرون ألفًا - لا يزيدون ولا ينقصون- لكل نبي ولي.

وقال: احذر هذا الطريق، فإن أكثر الخوارج إنما خرجوا منه وما هو إلا طريق الهلاك أو الملك.

من حقق علمه وعمله وحاله، نال عز الأبد، ومن فارق التحقيق فيه هلك وما نفد.

وقال في رسالة كتبها إلى الإمام الرازي:

اعلم يا أخي أن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله بلا واسطة من نقل أو شيخ، فمن كان علمه مستفاد من ذلك، ما برح عن الأخذ من المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفاصيلها، فإنه حظه من ربه؛ لأنه العلوم المتعلقة بالمحدثات يفني الرجل عمره فيها ولا يبلغ حقيقتها، ولو سلكت على يد شيخ من أهل الله أوصلك إلى حضرة شهود الحق، فتأخذ منه العلم من طريق الإلهام الصحيح، بلا تعبٍ ولا سهر- كما أخذه الخضر- فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود، لا عن نظر وفكر.

وحكي عنه -أي عن الفخر الرازي- أن السلطان حبسه وعزم على قتله، وما له شفيع عنده. قال: فطمعت أن أجمع همي على الله في أمري أن يخلصني لما انقطعت الأسباب، وحصل اليأس من كل ما سواه، فما خلص لي ذلك، لما يرد علي من الشُبه النظرية في إثبات الله الذي ربطت معتقدي به، إلى أن جمعت همتي بكليتي على الإله الذي يعتقده العامة، ورميت من نفسي نظري وأدلتي، ولم أجد في نفسي شبهة تقدح فيه، وأخلصت إليه ودعوته، فما أصبحت إلا وقد فرّج الله عني.

وقال: الرياضة عند المحققين إنما هي لتحسين الأخلاق، وعند الحكماء لصفاء المحل، وعلى كل، فليس هما بفتح ولا ينتجانه، وإنما يأتي الفتح من عند الله، ولو كان له سبب ينتجه كان مكتسبًا ، وإنما جعل الذكر عادة لئلا يروح الوقت بغير عبادة، ويتعين على الذكر ألاّ يقصد بذكره حضرةً مخصوصةً أصلاً، بل يترك الحق يختار له من خزائن غيبة، ما يقتضيه جوده وإحسانه.

وقالِ: الإيمان نور شعشعاني ممزوج بنور الإسلام، فإنه ليس بوحدته استقلال، فإذا امتزج بنور الإسلام أعطى الكشف والمطالعة، فعلم من الغيوب على قدره، حتى يرتقي إلى مقام الإحسان.

وقال: ظنون الولي مصيبة، فإنه كشف له من خلف حجاب الجسد، فيجد الشيء في نفسه، ولا يعرف من أين جاء.

وقال: صاحب النشأة المعتدلة لا تكذب خواطره أبدًا ، فإن كذبت فلعارض، ومن هذه النشأة كانت الكهنة، فإذا كان لصاحبها قدم سعادة بحيث يصل إلى النفس الكلية، أخذ عنها أخذًا

وأما المجلدات فتبلغ إلى الألف.

وهو غني البيان، مستغن عن البرهان.

فإن قلت: هل يفي طاقة البشر وعمره لمثل هذا؟ فإن له وجهين:

الأول: أن فعل ذلك ببسط الزمان.

والثاني: إنه كان يضع في أول الصحيفة نقطة، وفي آخرها نقطة، فينتقش في الحال ما يوجه إليه بباطنه من المعاني على ما عزى إليه، وليس ذلك ببعيد عن معتقديه؛ لأن كرامات الأولياء حقٌّ، والله على كل شيء قدير.

صحيحًا، واستشرف على الغيب، ورأى هو العالم في قوة النفس.

وقال: الخاطر الأول رباني لا يخطئ أصلاً إلا لعارض، فمن فاته معرفة الخاطر الأول - وليس عنده تصفية خلقية - فلا رائحة له من علم الغيب، ولا يعتمد على حديث النفس، فإنه أماني.

وقال: احذروا الأحوال، فإنها سموم قاتلة، وحجب مانعة، فإن العلم يستعبدك له، وهو المطلوب منا، والحال إما يسودك على أبناء جنسك لانقيادهم لما قهرتهم به من الوصف الرباني، وإما يلذذك بذاتك، وصاحب اللذة محجوب بها، ممنوع عن المشاهدة.

وقال: كم ماشٍ على الأرض والأرض تلعنه، كم ساجد عليها وهي لا تقبله، كم داعٍ لا يتعدى كلامه لسانه، كم من عدوٍ بغيضٍ في الصلوات والمساجد، كم من وليٍ حبيبٍ في البيع والكنائس، يعمل هذا في حق هذا، وهو يحسب أنه يعمل لنفسه، حقت الكلمة، ووقعت الحكمة، ونفذ الأمر، فلا نقص ولا مزيد.

والنرد كان اللعب لا بالشطرنج قاصمة الظهر، وقارعة الدهر، حكم نفذ لا رادٍ لأمره، ولا معقب لحكمه، انقطعت الرقاب، وسقط من الأيدي، تلاشت الأعمال، طاحت المعارف، أهلك الكون السلخ والخلع، يسلخ من هذا، ويخلع على هذا، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وقال: إذا أردتَ ألاّ تخاف أحدًا فلا تخف أحدًا، تأمن من كل شيء ويأمنك كل شيء .

وقال: «مررت في سفري -في زمن جاهليتي- مع والدي في برية، وإذا حمرٌ وحشيةٌ ترعى، وكنت مولعًا بالصيد، وكان غلماني بعيدة، فجعلت في قلبي ألاّ أوذي أحدًا منها، فوصلتها ودخلت بينها -ربما مر سنان الرمح بسنام أحدها- فما رفعت رؤوسًا حتى جزتها، ثم أعقبني الغلمان، فنفرت أمامهم، فما علمت سببه حتى دخلت طريق الله، فعلمت أنه سرى الأمان الذي في نفسي لهم في نفوسهم».

فكف عن ظلمك، واعدل في حكمك ينصرك الحق، ويطيعك الخلق، وتصفو لك النعم، وترتفع عنك النهم، فيطيب عيشك، ويسكن جأشك، وتملك القلوب، وتأمن محاربة الأعداء. والسلام.

مات بدمشق في ربيع سنة ست وثلاثين وستمائة، ودفن بالصالحية، بتربة ابن سراقة.

وقال البسطامي: وعنه أخذ ابن الفارض والقونوي. وانظر: الكواكب الدرية (555) بتحقيقنا.

اعلم، إني أضع لك مثالاً يستبين منه رتبة حضرة الشيخ - قدس سره - وذلك أن الله تعالى قال: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:1 - 2]، والحروف المقطعة رموز موضوعة بين المحب والمحبوب، ولا يكشف قناعها إلا أهل القلوب، فلا يطمع أهل الرسم في الوصول إليها، والتكلم عليها، وقد صح عند أهل الله تعالى أن للحقِّ كتابين وجوديين:

الأول: كتاب الوجود الظلي، وله حروف وكلمات وآيات وسور، أما حروفه العاليات فالشؤونات الغيبية، كما أشار إليه حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - في بعض قصائده بقوله:

فَصِرْنَا كَالْحُرُوفِ الْعَالِيَاتِ بَآيَاتٍ بَلاَ مُتَشَابِهَاتِ

قال شيخي وسندي - روَّح الله روحه وأدام على الأخلاف فتوحه - في شرح القصيدة: فصرنا قبل التَّعيَن المعنوي والروحاني في حضرة الأحدية الذاتية حين تعلق العلم الذاتي بنا باعتبار مجرد تعيننا وتميزنا في العلم الذاتي الغيـــبي للحقِّ تعالى فقط لا لنا ولا لغيرنا كالحروف العاليات المجردة عن تشخص المزج وتعين التركيب ثابتين بآيات محكمات الأسماء الإلهية الذاتية العالية المجردة عن التعين بالحقائق الكونية والأعيان الإمكانية بلا متشابهات منها؛ لأن مظاهر محكماتها دون مشابهاتها انتهى بالإجمال.

وأما كلماته التامات فالأعيان الثابتة العلمية، وأما آياته المتعالية فالحقائق الأرواحية والمثالية، وأما سوره الكاملات، فالصور الحسية العينية، وإنما كانت السور القرآنية بالسين والصاد؛ لأنه من سور الأعراف، وهو البرزخ بين أهل الجنان والنيران، والحكم الشرعي أيضًا برزخ بين أهل الحق والباطل.

والثاني: كتاب الوجود الحقيقي فحروفه المجردة الأسماء الأفعالية الذاتية الأحدية، وكلماته الأسماء الصفاتية الواحدية، وآياته الأسماء الواحدية، وسوره الأسماء الآثارية المظهرية؛ فالحقيقة الإلهية كانت جمعًا قبل هذه الآثار، فصار أمرها إلى الفرق بعدها، فكما أن القرآن مجمع السور، وهي مجمع الآيات، وهي مجمع الكلمات، وهي مجمع الحروف، وهي مجمع النقاط، وغايتها النقطة الواحدة التي أشار إليها قوله: «العلم نقطة»، فكذا الصور الحسية مظاهر الأعيان الثابتة، وهي مظاهر الأسماء، وهي مظاهر الصفات، وهي مظاهر التجليات الذاتية، والكل يرجع إلى عين واحدة مع تكثر الجداول والأنهار؛ ولذا قال:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

لأن من يعرف وحدة النقطة في كثرات الحروف والكلمات والآيات والسور يعرف وحدة الحقيقة في تفاصيل الشؤون والأعيان والأرواح والمثال والحس، كما يعرف الواحد في الأعداد كلها من غير نظر إلى التكرارت.

ونعم قال المولى [الجامي][1]، وإلى ما أشرنا من السرِّ العظيم بنظر تعلم الصبيان الذين هم أقرب شيء من عالم الذات لحروف التهجي أولاً، ثم لتركيب المركبات التي بمنـــزلة الكلمات ثم المركبات التي بمنـــزلة الآيات ثم يبتدئون بالسور القرآنية، ومن هذا عرفت سرَّ وحدة البداية والنهاية؛ إذ لما كان ابتداؤهم من الحروف، كذلك كان انتهاؤهم إليها؛ لأن آخر ما يتعلمون سورة البقرة، وقد اشتمل أوله على الحروف المقطعة، وهي آلم؛ فالألف أول الأمر وآخره أي: عروجًا ونزولاً فليس في الوجود سوى الله، ولا موجود إلا الله وسر البدء بـــ «ألم»[2] دون غيرها من المقطعات أن التعينات ثلاثة: التعين

(1) كلام غير عربي.

(2) قال المصنف: أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط.

فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

وآخير ذكر هو من بين سائر الأذكار؛ لكون الهاء مادة من المبدأ إلى المنتهى الذي هو مرتبة الواو؛ كالميم فهي آخذة من كل المراتب الجزئية والكلية خاصتها، فكانت بمنـــزلة الإنسان الكامل المار بجميع الأطوار، ففي لفظ هو من الجمعية في الإنسان، فمَن غلب عليه الفناء، وجمع الحقيقة؛ فليذكُر بذكر هو هو، ومَن غلب عليه البقاء، وفرَّق الشريعة؛ فليذكُر بذكر لا إله إلا الله، فإن الشارع أخبر أنه أفضل الأذكار؛ لغلبة أهل الفرق وكثرتهم، ولا شك أن لسان الشارع؛ إنما هو لسان الشرع الذي يقتضي التعميم لا التخصيص.

والحاصل: كما أن الإنسان آخر الكائنات؛ فكذا لسان الشرع آخر الألسنة، وفوق لسان الشريعة لسان الطريقة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة، ولكل مقام مقال رجال.

فقد جاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: أبهموا ما أبهم الله، وفصِّلوا ما فصَّل الله.

ولم يكن أحدٌ من أولياء هذه الأمة مأذونًا لإظهار بعض الأسرار، إلا حضرة الشيخ الأكبر،

الذاتي، والتعين الصفاتي، والتعين الأفعالي، وهذه التعينات مترتبة بعضها على بعض، فالألف التي هي مبدأ المخارج إشارة إلى التعين الأول، واللام التي هي من وسطها إشارة إلى التعين الثاني، والميم التي هي من منتهاها إشارة إلى التعين الثالث، ولله در شأن التنـــزيل، وإلى التعينات الثلاث إشارة بالنقاط الثلاث، فالنقطة التي تحت الباء إشارة إلى الأول؛ ولذا قال عليّ - كرَّم الله وجهه: «إن تلك النقطة التي تحت الباء، واللتان فوق التاء إشارة إلى الثاني؛ لأنه ذات وصفة كورقي نواة أول ظهورها من الأرض».

والنقاط الثلاث التي فوق الثاء إشارة إلى الثالث؛ لأنه ذات وصفة وفعل، فانحصرت النقاط في الثلاث، كما انحصرت التعينات إليها، ونون الجمع الذي يدور على ألسنة القوم إشارة إلى النقطة، وتسمى بـــ «أُمّ الكتاب» أيضًا؛ لأنها أصل كتاب الوجود، وهي مجتمع مِداد مَواد نُقوش المعالم.

وقوله تعالى: «ق» إشارة إلى المرتبة الأحدية التي هي التعين الأول، كما في سورة الإخلاص المعنونة بكلمة «قل» المصدر بحرف «ق»، وقوله تعالى: «ص» إشارة إلى مرتبة الصمدية التي هي التعين الثاني، كما في سورة الإخلاص أيضًا، فـــ«ص» إشارة إلى الصمد، كما أن «ق» إشارة إلى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً﴾ [الصافات:1] إشارة إلى التعينات التابعة للتعين الثاني مرتبةً بعد مرتبةٍ وطورًا بعد طورٍ إلى آخر المراتب والأطوار، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح: 14]، وقال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:8].

وسُئِلَ النبيُّ ﷺ: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال:

=

والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر، ومن عداه أُمروا بالسكوت، أو بالرموز لا غير، وكذا فوق مرتبة الإنسان مرتبة المواليد، ثم مرتبة العناصر، ثم مرتبة الطبيعة الكلية، ثم مرتبة الأرواح، ثم مرتبة الأعيان الثابتة، ثم مرتبة الشؤون الذاتية الغيبية، ولا اسم ولا رسم، ولا نعت ولا وصف فوقها.

وبعبارة أُخرى: فوق مرتبة الإنسان الخاص، وهي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة الإنسان الأخص، وهي مرتبة النبوة، وفوقها مرتبة الإنسان الذي هو أخص الأخص، وهي مرتبة الرسالة، وفيما بعد المرتبة الأولى يظهر الإنسان في صورة الحق بالفعل، فهو إذًا حق خلق.

وأما في المرتبة الأولى فهو وإن كان ظاهرًا في صورة الحق، لكن بالقوة لوجود الحجاب والجهل والغفلة، كشف الله من بصائرنا ذلك الحجاب آمين.

«في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء»[1][2].

والعماءُ لغةً: السحاب الرقيق الساتر لنور الشمس قليلاً.

واصطلاحًا: التعين الجامع لجميع التعينات؛ فالهواء الفوقاني هو التعينات الإلهية من الأسماء والصفات والأفعال؛ لأنها عالية بالنسبة إلى سائر التعينات، وبالهواء التحتاني التعينات الكونية من العيان والأرواح والأجسام؛ لأنها سافلة بالنسبة إلى التعينات الإلهية، فلم يكن له سبحانه تعين إلا هي، ولا تعين كوني قبل أن يخلق الخلق، فلما أوجد الخلق ظهرت التعينات، فمعنى في عماء إذاً أي: في مرتبة لا تعين لها، ولا اسم ولا نعت، فيعمي عنه الأبصار والفهوم؛ فإذًا تمهد هذا.

فنقول: إن للحروف المقطعة حقائق ولوازم وإشارات علمية، أما الحقائق فلا يبحث عنها حقيقة؛ إذ لا حظٌ لمرتبة اللسان والقلم فيها، وأما اللوازم فقد تعرَّض لها كثير من أهل الحقائق.

ومنها العلم الذي أخذه موسى من الخضر - عليهما السلام؛ إذ كان ذلك مما يجري فيه التعليم بطرق الإشارة، فما حصل بالإشارة فهو من قبيل اللوازم، وما حصل بعد الإشارة فهو من قبيل الحقائق؛ فافهم المقام، فإن موسى والخضر - عليهما السلام - من أهل المعارف والحقائق والسلام.

أما الإشارات العلمية، فكما قال ترجمان القرآن سلطان المفسرين ابن عباس ﷺ في «طسم»: «إن الله تعالى أقسم بشجرة طوبى وسدرة المنتهى ومحمد المصطفى ﷺ».

وهذه ثلاث حقائق، وهي أصول الحقائق كلها؛ الأول: حقيقة جناية نعمية جامعة،

---

(1) رواه أحمد في مسنده (15611)، ابن ماجه (178)، والترمذي (3034).

(2) قال سيدي علي وفا في المسامع: جاء في الحديث: «كان ربنا في عماءٍ، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وكان عرشه على الماء».

هذا العماء هو صورة كون الإنسان التي بالتعلق العقلي تعين فيها الرب الرحمن، وغاب في ذلك التعين بالتنـــزيه الفرقاني عن أعين عقول الفرقان، وتلك الصورة الآدمية هي عرشه الكائن على ماء النطفة المنوية، وهذا العماء في شخصيته المفارقة الخيالية ما فوقه هواء وما تحته هواء: أي ليس تحته شيء، ولا فوقه شيء، فلا فوقه ولا تحته، وفي شخصيته الإحساسية هو كما ترى، فـ (ما) بالمعنى الأول نافية، ونافية أيضًا إذا كان (هوى) بمعنى: سقط، وبالثاني موصولة، وهواء بمعنى: فراغ، أو جوهر هباء، وكلٌ صحيحٌ في حكم عالمه ودائرة حاكمه.

وقال المصنف:

وهي شجرة طوبى، ولهذا السرّ أودعها الله تعالى في المقام المحمدي لكنه مجمع المقامات وأعلاها ومقسم الأرزاق، ومنه لقب النبي ﷺ، وكني بأبي القاسم.

وبيانه: إن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة، وجعلها له كالعلقة للملك، وجعل فيه الكثيب مقام تجلي الحق سبحانه، وفيه مقام الوسيلة لنبينا عليه السلام، فما من نعمة إلا وتظهر من تلك الشجرة، وفي كل مقام مقامات أهل الجنة غصن منها مظلل عليه يتكون منه ما يريد صاحب المقام من الحلي والحلل والبراق والطيور والحور والغلمان، وجميع الآلاء ضيافة دائمة لأهل الجنة من جناب المصطفى عليه السلام، وذلك لأنهم بسببه لبسوا خلعة الوجود، وسعدوا بنور الإيمان واليقين والشهود، فبواسطته دخلوا الجنة، ووصلوا إلى الفيض والجود، فمنه وجودهم، وما يتبعه في الدنيا والآخرة، ولما كان طوبى جمع الحقائق الجنانية نعمة وأعمها بركة كانت لجميع أشجار الجنة كآدم عليه السلام لما ظهر منه من التبيين، والظاهر أن الأنهار تخرج وتجري من أصل تلك الشجرة، كما في «فصوص الحكم».

وقال في «معراج إنسان العيون»: إن الأنهار تخرج من أصل شجرة سدرة المنتهى، وهي الحد البرزخي بين الدارين ولا فناء ماضين بأنواع التسبيحات والتحميدات والترجيعات عجيبة الأركان رخيمة الأنغام تطرب بها الأرواح، وتظهر عليها الأحوال، وأغصانها نعيم أهل الجنة، وأصولها زقوم أهل النار؛ لأنها في مقعر فلك البروج التي في جوف الكرسي؛ لأن الكرسي سطح أرض الجنة، وفلك البروج عند الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - هو الأطلس عند أهل الهيئة فلك المنازل وجهه الأول: إن البروج الإثني عشر تتقدر في الأطلس بالكواكب الثابتة في تلك المنازل؛ فهو وإن لم يظهر فيه من الكواكب شيء فيه بحسب المراتب التي تحته دوائر تقسمها إلى إثني عشر برجًا، ففيه تفصيل وسميت بالمنتهى؛ لأن إليها تنتهي الملائكة بالأعمال أي: بأعمال أهل الأرض من السعداء، وإليها تنــزل الأحكام العرشية والأنوار الرحمانية، وأمَّ فيها رسول الله ﷺ ملائكة السموات في الوتر، فكان إمام الأنبياء في بيت المقدس، وإمام الملائكة عند سدرة المنتهى؛ فظهر بذلك فضله على أهل أرض والسماء، وهي مقام جبريل - عليه السلام - يسكن في ذروتها، كما أن المقر العقل الجزئي والروح الحيواني ذروة الدماغ، وذلك لأن جبريل عليه السلام، وهو صورة العقل الكل ومقامه، وهو سدرة المنتهى إشارة إلى العقل والدماغ، ولذلك من رأى جبريل في منامه رأى صورة عقل، لأن جبريل عليه السلام لا يرى

من مقام تعينه لغير الأنبياء - عليهم السلام - كما في «الواقعات المحمودية».

والحقيقة الثالثة: الحقائق الكلية، وهي الحقيقة المحمدية التي أشير إليها بالميم في «طسم»، وإنما أخرت إشارة إلى سرِّ الختمية، فكما أنه ختم الأنبياء بسيد المرسلين - عليه وعليهم السلام - كذلك ختم حرف التهجي بالياء المشتملة عليها لفظة الميم، كما في كشف النور، وتلك الحقيقة صورة الاسم الجامع الإلهي وهو ربُّها، ومنه الفيض، والاسم الجامع هو الاسم الله وهو الاسم الأعظم الذي اشتهر ذكره وطاب خيره، وهو رب الأرباب، وكل اسم جزئي قابلاً من القوابل فإنما يأخذ الفيض من ذلك الاسم الكلي فله الإحاطة التامة والرئاسة العامة إحاطة السلطان الأعظم بجميع الممالك ورئاسته على كل مملوك ومالك.

وتلك الحقيقة متصفة بالنبوة والولاية المطلقتين، ولكل نبي وولي حصة معينة منهما، كما أن لكل واحد من كل نوع من أنواع المخلوقات العلوية والسفلية نصيبًا معينًا من الحقيقة الإلهية غير أن حصة نوع الإنسان أتم وأكمل من غيره؛ لأنه أجمع الحقائق كلها وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[1] وظهور تلك الحقيقة المحمدية يتفاوت تفاوت ظهور الهلال؛ لأنه على الترقي في النور إلى ليلة البدر كالإنسان الكامل في ظهور زيادة النور فيه، وتحقيقه أن أول مظهر في عالم الملك لتلك الحقيقة آدم أبو البشر ﷺ، فدارت من مظهر إلى مظهر كما قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:219] إلى أن انتهت إلى نبينا ﷺ؛ فهي نسبة واحدة في الحقيقة لكن قد تختلف ظهورًا أو خفاءً بالنسبة إلى الإعصار، فأول أمرها كان كالهلال حيث إنه يأخذ في الازدياد قليلاً قليلاً إلى أن يمتلئ ويكون بدرًا ثم يأخذ في الانتقاص كذلك أن يعود إلى حاله الأول، فالتفاوت في الظهور لا في الشمس، ولا في القمر المحازين، فأخذت تلك الحقيقة في الظهور من لدن آدم ﷺ إلى زمان إبراهيم ﷺ فكان ظهورها في إبراهيم كظهور القمر ليلة الرابع عشر من الشهر؛ فإنه أخذ حظًا وافرًا من التوحيد الذاتي والسر الإلهي؛ ولذا أمر الله تعالى نبينا ﷺ باتباعه بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النحل: (123)] فاتبعه باعتبار الجمع دون التفصيل، إذ لا متمم لتفاصيل الصفات إلا هو؛ ولذا لم يكن غيره خاتمًا ثم ازداد الظهور في نبينا ﷺ كظهور القمر ليلة

(1) رواه البخاري (5759)، ومسلم (5075).

البدر الخامس عشر منه، فجاءت تلك الحقيقة متجلية في أكمل صورها؛ ولذا وقع الاختصاص والاختفاء بعده على التدريج كاختفاء النور القمري بعد نصف الشهر قليلاً قليلاً، فدعا موسى عليه السلام إلى توحيد الذات والصفات والأفعال على وجه التفصيل، وتمَّ به أمر الدعوة في الظاهر والباطن بحيث انقطع الاحتياج إلى نبي آخر بعده؛ ولذا قال: «**لا نبـــي بعدي**»[1] لكن الله تعالى لما اقتضت حكمته أن ترجع النهاية إلى البداية، ويتحد سر الأزل بسر الأبد جعل ظهور ذلك النور الأحمدي أخذًا إلى الاختفاء إلى آخر الزمان، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «**بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا**»[2] وهو الإسلام الحقيقي، وكونه غريبًا ألا يوجد له مؤنس ويختفي أمره، وبقول الحسن البصري: «كل يوم أو كل عام ترذلون».

وفي الحديث المرفوع: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي يأتي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[3].

قال الحافظ الشيرازي: [روزي اكر غمي رسدت تنك دل مباش روشكر كن مباراكه ازبد ترشود][4].

ولتنـــزل الزمان وفساد الناس قيل للرجال: رجال الغيب؛ لأنهم غيب عن عيون الأغيار غشيتهم الغواشي والأستار؛ فهم كالملوك تحت الأطمار، ثم ظهور تلك الحقيقة في الأنبياء - عليهم السلام - بطريق الأصالة وفي الأولياء من أفراد أممهم بطريق التبعية والوراثة، ولا بدَّ لكل نبيٍّ من وارث كامل يكون كالمرآة؛ لانطباع صور كمالاته فيه على ما عليه عادة الله تعالى في تجد يد الإعصار بالرجال الأخيار، وقد كانوا قبل نبينا عليه السلام يرثون النبوة والولاية معًا كما يرثون الولاة فحسب لعدم ظهور السر الختمي بعد ثم لما آل الأمر إليه عليه السلام انقطع وراثة النبوة، وبقي الولاية المطلقة، فاستدعت في ظهورها بطريق الوراثة مظاهر حجة في كل قرن وعصر إلى أن تتم هذه الدورة القمرية، وقد عرفت قبل أن العقل الأول الذي هو الروح المحمدي كان آدم الحقيقي أبا البشر كان أول مظهر له في عالم الملك والشهادة، وإن ظهوره في الأدوار كان كظهور الهلال في ازدياد

---

(1) رواه البخاري (3196)، ومسلم (3429).

(2) رواه مسلم (208).

(3) رواه البخاري (6541).

(4) كلام فارسي.

الأنوار، ولما تمّ دور النبوّة على هذا الأسلوب اقتضى الحال أن يكون أمر الوراثة أيضًا على هذا النمط المرغوب؛ إذ ظهور آدم الحقيقي بصورته وسره هو ونبينا ﷺ شابه ظهور آدم أبي البشر في أمر وراثة الولاية بالنسبة إلى أفراد أمته وإن كان هو في نفسه قمرًا منيرًا وسراجًا مضيئًا نبوة وولاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[1]؛ فافهم.

ولا تغفل فابتداء أمر الولاية في الظهور بعده ﷺ في أولياء أمته كابتداء أمر النبوة، والولاية في الظهور بآدم عليه السلام إلى أن يصل مقطعه وغايته، فكان أول مظهر لتلك الولاية بطريق الوراثة عليّ - كرّم الله وجهه - وإليه الإشارة بقوله: «سبقتكم إلى الإسلام طريًّا أي: صبيًّا ما بلغت أوان الحُلم».

وقال بعضهم: طرًا فكان كما أخبر الله تعالى عن يحيى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ [مريم: 12].

وروي أن عليًّا عليه السلام صعد المنبر يومًا، وقال: «سلوني عمّا دون العرش؛ فإنما بين الجوانح علم جم هذا لعاب رسول الله ﷺ في فمي، هذا ما رزقني رسول الله رزقًا».

وقد صح أنه ﷺ ما كشف نقاب الحقيقة لأحد كما كشفه لعليٍّ رضي الله عنه وهو متواتر مشهور، ويدل عليه أيضًا أنه ﷺ وضع يده على رأس عليٍّ رضي الله عنه ولقنه التوحيد وعلمه سرًّا عظيمًا من أسرار الحقيقة، ووصاه ألا يكلم أحدًا فعرض له حاله فلم يقدر على أن يسكت، فتكلم في بئر، فنبت بنَفَسِه قصب، فقطعه راعٍ، ونفخ فخرج منه جميع المقامات، فإن الأصوات مأخوذة من المتصوفة لا من الصوفية؛ لطلب الذوق والحضور ثم لما سمع النبي ﷺ صوت ذلك القصب قال: يُشير هذا إلى سرٍّ ما كان لعليٍّ رضي الله عنه.

وإلى هذه القصة البديعة أشار حضرة الشيخ فريد الدين العطار - قدس سره - في منطق الطير: [...][2]، وحضرة المولى جلال الدين - قدس سره - في المجلد الرابع من

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (258/1)، (1182/2) وقال الحافظ ابن حجر: معناه صحيح.

وذلك من إبراء الأكمه والأبرص إلخ.

(2) كلام غير عربي.

«المثنوي» بقوله: [...][1].

فإن قلت: هذا إفراط منك في عليٍّ ﷺ، وترجيح له على سائر الخلفاء خلاف ما عليه العلماء في ترتيب الأفضلية.

قلت: لا كلام في أن الخلفاء كلهم من ورثة الولاية، ولكل منهم خاصة، ووصف الغالب ممتاز بها عن الآخر كما امتاز الأنبياء بالخصائص والأوصاف الغالبة ألا ترى أن موسى عليه السلام كان صاحب شريعة وحقيقة، والخضر كان صاحب حقيقة فقط، على قول من لم يقل بنبوته، ولكن كان الغالب في نشأة موسى عليه السلام هو الشريعة، والميل إلى جانب البقاء؛ ولذا صدر عنه ما صدر من صورة الاعتراض على الخضر في أفعاله، وكان الغالب في نشأة الخضر هو الحقيقة، والميل إلى جانب الفناء، ولهذا قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78]؛ لأن البينية إنما يكون في عالم الفراق لا في عالم الوصال والجمع» فتبين أن كلا منهما وإن اشتركا في العمل بالشريعة والحقيقة، وكأنهما من أهلهما معًا إلا أنهما افترقا بحسب غلبة الأول في الأول، والثاني في الثاني، وكذا كان الغالب على نشأة عيسى عليه السلام هو الجمال، وعلى نشأة يحيى عليه السلام هو الجلال، وإن كان الكل جامعًا بينهما.

روي أنه لقي يحيى، عيسى - عليهما السلام - فتبسم عيسى على وجه يحيى؛ فقال: ما لي أراك لاهيًا كأنك آمن؟ فقال الآخر: ما لي أراك عابسًا كأنك آيس؟ فقال: لا نبرح حتى ينـــزل الوحي علينا، فأوحى الله تعالى: «أحبكم إليَّ أحسنكما ظنًّا بي»، ولا شكَّ أن كلا منهما كان أحسن ظنًّا بربه فهما أحب؛ إذ لا يقتضي الجلال اليحياوي وعبوسه في وجهه آياسه من جمال الله الغالب ظهوره في الوجود العيساوي، لكونه حال النشأة، كما لا يقتضي الجمال العيساوي أمنه عن جلال الله الغالب ظهوره في الوجود اليحياوي؛ فافهم.

فإن المقصود من الجلال الهيبة والعظمة التي هي مبدأ الحيرة والانقباض والقهر والأخذ، ألا ترى أن المجاذيب كالأسود المفترسة من حيث مقامهم، فإذا عرفت هذا المعنى في الأنبياء قست عليهم الأولياء؛ لأنهم ورثتهم في علومهم ومشاربهم.

والفرد الأكمل هو من كان على المشرب المحمدي في الاعتدال، فالصديق ﷺ كان

---

(1) كلام غير عربي.

وارث النبي ﷺ في شريعته وطريقته ومعرفته وحقيقته، ولكن كان الغالب على نشأته المعرفة؛ ولذا كان متواصل الأحزان والفكر، دائم السكون، ساكن الأطراف، كليل اللسان؛ لأنه من عرف الله كلّ لسانه، وكذا الفاروق ﷺ كان وارثًا له ﷺ في تلك المراتب الأربع، ولكن كان الغالب على نشأته الشريعة؛ ولذا ما وضع الدرة من يده بل كان معظم أمره إقامة الحدود، وكذلك عثمان ذو النورين ﷺ لكن الغالب على نشأة ذي النورين ﷺ الطريقة؛ ولذا لم يضع المصحف الشريف من يده، والاجتهاد بأحكام الشريعة حتى استشهد عند قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 137] وفيه إشارة إلى أن الأوصاف الطبيعية والقوى النفسانية سخرت لعثمان ﷺ وقهرها الله له؛ فجعل زمام تصرفها في يد تصرف القلب، فالطريقة التي هي المجاهدة مع النفس والهوى والشيطان والدنيا، وتؤدي إلى مقام الشهادة، وهو الحضور مع الله، والحصول عنده، وكان الغالب على نشأة المرتضى ﷺ الحقيقة، ولذا كان أسد الله تعالى، وكلامنا ليس في الولاية المطلقة بل في الولاية المقيدة بالقطبية الكبرى، ولا يخفى أنها ليست من مقتضيات مطلق الولاية؛ ولذا جاء بعض الأولياء فارغًا عن التصرف، فقطبية عليّ ﷺ لا تقدح في شأن ولاية الخلفاء.

فإن قلت: عرف مما سبق أن رتبة عليّ ﷺ في الظهور كرتبة هلالية القمر؛ إذ هو آدم أول في مظهرية الولاية المطلقة من حيث الوراثة، وإذا غير مناسب بكمالية حاله، قلت: كلامنا في الظهور لا في التحقيق، فكما أن الأنبياء بأجمعهم متحققون بحقائق النبوة، والوراثة متفاوتون في الظهور بحسب الأعصار والأدوار، وتفاوت استعدادات الأمة، فكذا الأولياء متحققون بحقائق الولاية متفاوتون في الظهور والإظهار، فكل ظهور يترقب وقته، ولكل إجمال مقام تفصيل، ولكل قوة محل فعل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:62].

وتحقيق المقام أن الأنبياء كلهم من لدن آدم إلى نبينا - عليه وعليهم السلام - واصلون إلى الله تعالى محرزون جميع مراتب التوحيد من الأفعال والصفات والذات بالقوة، وبالفعل فهم بهذا الاعتبار كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:286] ولكن متفاوتون في مراتب الفناء والبقاء اللذين هما ككفتي الميزان، فالغالب على نشأة أكثرهم حكم الفناء؛ ولذا كانوا داعين إلى التنـــزيه الغالب غير إبراهيم ﷺ؛ فإنه اعتدل فيه الكفتان؛ ولذا كان آباء

الأنبياء، وداعيًا أمته إلى جميع مراتب التوحيد، فظهر أن له تفاضلاً من جهة الدعوة واختلافًا، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]؛ فمنهم الداعي إلى توحيد الأفعال فقط لعدم استعداد أمته لظهور أحكام توحيد الصفات والذات في مرائهم، ومنهم الداعي إلى توحيد الأفعال والصفات، فحسب لعدم استعداد أمته لقبول دعوة توحيد الذات بالفعل، ومنهم الداعي إلى توحيد الذات أيضًا بالفعل الحسن استعداد أمته، وهو إبراهيم عليه السلام؛ فإنه دعا أمته إلى جميع المراتب دعوة فعلية إلا أنه وجد القبول في المرتبتين الأوليين دون الثالثة؛ إذ لو وجد لكان خاتمًا للأنبياء لتمام أمر الدعوة، والقبول حينئذ بالنسبة إلى جميع المراتب، ونقول: وجد القبول والتحقيق لكن على وجه الإجمال دون التفصيل؛ إذ مرتبة التفصيل من كل وجه أخرت لنبينا عليه السلام ولأمته، وإذا كان خاتم الأنبياء ثم أمة إبراهيم عليه السلام هي قواه الأفاقية، وعدم حصول أمر في القوى الأفاقية، وهو قبول توحيد الذات بالفعل لا يستلزم عدم حصوله في القوى الأنفسية هي القوة الروحانية في باطن إبراهيم عليه السلام؛ فإبراهيم متحقق في نفسه بجميع المراتب والمقامات، وإن لم يكن أمته كذلك، وقس عليه سائر الأنبياء – عليهم السلام – وحالهم مع أممهم؛ فإياك والقدح في شأن الأنبياء بما يشين بحالهم؛ إذ لا يليق بكمالهم، فإن كلهم واصلون إلى أقصى الكمالات ونهاية السعادات، وإن كان لهم تفاوت في درجات الدعوة بحسب مشارب الأمم؛ فلذا جاء من قبل الأمم لا من قبلهم فهم قانون في الله باقون بالله؛ لأن الولاية قبل النبوة إذًا آخر درجات الولاية وأول مقامات النبوة.

فالنبوة تبتني على الولاية، فالنبيُّ لا يكون نبيًا إلا بعد كونه وليًا؛ لأن الموقوف عليه أقدم من الموقوف، ومعنى الولاية الفناء في الله بحسب العروج، وإليه الإشارة بالاسم الآخر والبقاء بالله بحسب النـــزول وإليه الإشارة بالاسم الأول؛ إذ هو الأول باعتبار بدء السير نزولاً، والآخر باعتبار ختم السير عروجًا، فإذا حصل الفناء والبقاء حصل الوصول والحصول؛ وإذ قد استبان لك الحق عرفت، فساء قول بعض الجهلة من المتصوفة أن بعض الأنبياء لم يكن واصلاً إلى توحيد الذات، وبعضهم إلى توحيد الصفات، وفساد قول بعضهم في حق الأصحاب، بل الخلفاء منهم أن بعضهم لم يكن واصلاً إلى الاسم السابع ونحوه؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان خُلقه القرآن[1] على ما روي عن الصديقة – رضي الله

---

(1) رواه أحمد في مسنده (23460).

عنها - ولا اسم خارجًا من القرآن، فمن تخلق بالقرآن تخلق بالأسماء كلها سبعة أو اثني عشر أو تسعة وتسعين أو ألفًا وواحد، ومن المعلوم أن هذا التخلق كان موجودًا في الخلفاء وميراثًا معنويًا منه ﷺ لهم، وكذا في غيرهم بشهادات الرسول مرارًا، وتقربهم إلى جنابة، ولا شكَّ أن المقرب إلى الأعرف الأفضل أعرف وأفضل، والمشهود له بالكمال من لسان الرسول ﷺ أعلى وأكمل لا سيما.

وقد قال ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[1].

فجعلهم من المقتدى الناس لا من مقتديهم، ومن شأن المقتدى اسم مفعول أن يكون أتمَّ من غيره، فكيف يكون من بعدهم أتمّ في تكميل الأسماء منهم، وهذه لعمري قوية بلا مرية، ونعوذ بالله من جهل أهل الفرية.

وقد ثبت أن للرسول ﷺ أسرارًا لم يطلع عليها الأنبياء - عليهم السلام، وللأنبياء - عليهم السلام - أسرار لم يطلع عليها الأولياء، وللأولياء أسرار لم يطلع عليها المؤمنون، فمن هذا شأنه من الرسل والأنبياء والأولياء يجب إمساك اللسان عنهم؛ فإنهم لعلو شأنهم، وسمو مكانتهم فوق ما يتصوره الرسمي العامي، وأكثر من في ذي المشايخ والصوفية في هذا الزمان من العامة، وإن كانوا في لباس الخاصة إلا أن العلم والعرفان والتحقق بحقائق الإيمان، والإحسان ليس في شأن الخرقة بل من أحوال القلب ذي الحروقة، فعليك بقطع لسان الجاهل، والفرق بين الحق والباطل، ومما شاع من القديم القول في حق الأئمة الأربعة.

فاعلم أنهم وإن صرفوا أوقاتهم في علم المعاملة والاجتهاد، وبحسب الظاهر إلا أن لهم أحوالاً باطنة مع الله تعالى بحيث وسع انشراحهم الصوري أن يكونوا مع الخلق في الظاهر، ومع الحق في الباطن فهم أهل المعاملة والمكاشفة معًا، وأصحاب المراتب الأربع المذكورة جميعًا، وفي حسن حالهم وعلو مقامهم ظاهرًا وباطنًا كلام في «أوائل الإحياء» لحمية الإسلام الإمام الغزالي - قدس سره؛ فارجع إليه.

وأما قول حضرة مولانا في المجلد الثالث من «المثنوي»: [...][2]؛ فلا يدل على أن أبا حنيفة والشافعي ليس لهما قدم في مقام العشق الذي هو إفراط المحبة، وحصول الفناء

---

(1) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1756).

(2) كلام غير عربي.

عن الحس والوهم والعقل الجزئي، بل على تباين حال علم المعاملة والمكاشفة؛ فإن علم المعاملة من قبيل الكسب، وعلم المكاشفة من قبيل الواهب، والواصل إلى الثاني قد يصل إلى الأول، وكذا الواصل إلى الأول، وكذا الواصل إلى الأول قد يصل إلى الثاني لكن أهل الكشف عالٍ على عالم علم المعاملة، ومطلع على حالة ومقامه من غير عكس، وهداية العشق إلى الله، وهداية العقل إلى الجنة، فالمراد بأبي حنيفة والشافعي كل أهل اجتهادٍ في علم المعاملة مع أنه نفى درس العشق منها، ولا يلزم من نفيه نفي التحقق به والوصول إليه؛ إذ رب قادر على شيء لا يفعلها لمانع يقتضيه، فأبو حنيفة والشافعي والمالكي وأحمد ونحوهم لاشتغالهم التام بعلم الاجتهاد في الظاهر لكونه من مقتضيات عصرهم، وكونهم متعينين في ذلك الوقف له؛ أغلقوا باب علم المكاشفة صيانةً للناس، لعموم خطابهم للأمة كالأنبياء، ولا يعتبر بالأصالة إلا فهم العامة؛ فافهم هداك الله تعالى[1].

(1) قال الشيخ المصنف: وقد ظهر لي في بعض المشاهد أن الإمام أبا حنيفة من العارفين وأن الإمام الشافعي من الواصلين، وقد ذكرنا الفرق في غير هذا المحل، وقد توجَّه بعض أهل الكمال ممن هو على طريقتنا الجلوتية – بالجيم – فرأى أن الإمام أبا حنيفة دخل في بحر، فلمَّا توسَّطه؛ رُدَّ إلى الساحل؛ يعني دخل في بحر الحقيقة، إذ ما يُحكى عنه من مشاق العبادات، وحقائق التقوى، وشدائد الأحوال؛ يُعطي الغوص في ذلك البحر، كما ذهب إليه الإمام الغزالي في الإحياء.
وأمَّا أنه لم يصدر عنه كلامٌ يتعلق بالحقائق، كما صدر عن الشافعي؛ فذلك وهمٌ من الغزالي، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في شرحنا على نخبة الفكر في أصول الحديث.
وأمَّا ردَّه إلى الساحل؛ فردٌّ من الفناء إلى البقاء لإرشاد الناس في مرتبة الاجتهاد، فقد انتفع بعلمه وفقهه مَن عاصره ، ومَن بعده، وكان الناس عياله في ذلك، كما صرَّح به الإمام الشافعي.
ولا شك أن مرتبة الإرشاد أرفع من درجة الوقوف في مقام الفناء مع الله تعالى، وذلك أن تلك المرتبة مرتبة التبليغ؛ وهي مرتبة الأنبياء والورثة، ومن ثم رُجِّح المحدِّثون على الفقهاء؛ لأن الفقيه إنما يستدلُّ بحديث المحدِّث، فالمحدِّث أهل التبليغ، والسلسة، بخلاف أكثر الفقهاء، فظهر أن كون الإمام أبي حنيفة من العارفين؛ إنما كان بعد الوصول لِما ذكرنا من تلك المعرفة بعد الوصول أقوى مما كان قبله.
ولا ينبغي أن يُظنَّ بالمجتهدين الظنَّ السوء، وقد جاء على المذاهب الأربعة الأولياء المحققون، ومن البعيد أن يكون المتبوع أنقص حالاً من التابع، فرئيس الأولياء الحنفية؛ هو أبو حنيفة، وهكذا وإن كان هنا مقال آخر؛ وهو أن التقلد بمذهب من المذاهب أمر صوري، ناظر إلى ظاهر الشريعة، وللمحققين في باطن الحال أمر آخر؛ وهو طريق الإطلاق، والمشي من وجه مخصوص جامع إلى الله تعالى، فذلك لا ينافي التمذهب بمذهب معين في الظاهر.
وقد غفل عن هذا أكثر مَن يُعدُّ من العارفين؛ فظنوا أن الأئمة الأربعة لم يصلوا إلى مقام الحقيقة
=

فإن قلت: مراده من نفي درس العشق عدم وصولهما إليه، وعدم علمهما بأحوال العشق.

قلت: لا دليل عليه، وبعيد أن يكون التابع عاشقًا كاملاً والمتبوع زاهدًا ناقصًا، فأين أنت يا مسكين من فهم المقال؟ وأظن أنك من أهل القيل والقال، ولولا هذا البيت صدر من حضرة المولوي؛ لتركت التأويل، ورددت القول على قابله بالنكير والتظليل.

وأما قول الشيخ بن الأشرف الأزنيقي في بعض إلهياته التركية ما معناه:

«إن العشاق قعدوا في دار العشق والوصال، فنظرت فلم أر فيهم نعمان ومالكًا».

فاعلم أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولكل سالك سمة خاصة به في سلوكه إذ التوجهات مختلفة وللاستعدادات متفاوتة ثم العشق مقام الاثنينية والمحبة، وقوف مقام الوحدة والمحبوبية.

وأيضًا إن طريق الفناء يغاير طريق البقاء؛ فإن أهل السلوك متفاوتون، فمن ذاهب ومن جاء من طرق شتى، فمن الجائز أن يختلف الإمام نعمان والإمام مالك، والشيخ المذكور في طريق توجهاتهم وتوجهات طريقهم، فلم ير بعضهم بعضًا، وإن الشيخ كان من أهل العشق، فرأى أقرانه في دار العشق والحيرة الهيمان، فقعد معهم فيها، وأما الإمامان فتجاوزا من هنا إلى مقام المحبوبية؛ فلذا لم ير بعضهم بعضًا، وأيضًا إن الشيخ كان في طريق الفناء، والإمامين كانا في طريق البقاء، فكيف يرى من في طريق سالك طرق أخرى إذا تباعد بينهما، وبين طريقي الفناء والبقاء تباعد، وقد يحصل البقاء بعد الفناء بسنين كثيرة، وفي التأويلات النجمية.

اعلم أن أهل الجنة وأهل النار يرون أهل الله، وهم أصحاب الأعراف بالصورة ما داموا في مواطن الكونين، فإذا دخلوا جنة الحقيقة المضافة إلى الله تعالى في مرادفات العزة، وعالم الجبروت انقطع عنهم نظرهم، ونظر الملائكة المقربين؛ فافهم جدًّا.

وقد حكي عن بابا جعفر الأبهري أنه دخل على بابا طاهر الهمداني، فقال: أين كنت، فإني حضرت البارحة مع الخواص على باب الله، فما رأيتك؟ ثم قال: يا بابا طاهر،

=

وأن أهل الحقيقة لا يتقلّدون بمذهب من المذاهب، فذلك الظن من قصور المعرفة، ونقصان الحال.

وانظر: مرآة الحقائق (ص 184).

صدقت كنت على الباب مع الخواص، وكنت داخلاً مع الأخص، فما رأيتني، انتهى كلام التأويلات، فما أشد هذه الحكاية إفحامًا وإلزامًا للشيخ ابن الأشرف الأزنيقي في مقالته المذكورة فلله در حاكيها وسائقها إلى مواقعها ومواردها.

ثم جئنا إلى المقصود، وهو أن الولاية لم يزل ظاهرًا على التدريج بحسب القوابل والأزمان خارجًا من القوة إلى الفعل، ومن الإجمال إلى التفصيل ظهور القمر وخروجه في النصف الأول من الشهر إلى أن انتهت النوبة إلى حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر -، فظهر فيه القمر ليلة البدر.

ولذا قال في «فصوص الحكم»: وهذه مسألة ما سطرها أحدٌ في كتاب لا أنا ولا غيري إلا في هذا الكتاب انتهى[1].

---

(1) قال الشيخ الأكبر في فصوص الحكم: [فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم، الذي هو محل النقش والعلامة التي بها يختم الملك على خزائنه، وسماه خليفة من أجل هذا.

لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه، فاستخلفه في حفظ العالم فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل.

ألا تـراه إذا زال وفك من خزانه الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق تعالى فيها وخرج ما كان فيها والتحق بعضه ببعضه، وانتقل الأمر إلى الآخرة فكان الختمُ على خزانة الآخرة ختماً أبديًا].

قال الشارح ابن ناصر الكيلاني ﷺ:

(**فهـو مـن العالم**) لما وجَّه وجه كونه إنسانًا، أراد ﷺ أن يُوجِّه كونه خليفة وقال: إن الإنسان الكامل من العالم (**كفص الخاتم للخاتم وهو محل النقش والعلامة**).

كمـا أن الفص محل النقش، كذلك الإنسان الكامل محل ظهور صور الأسماء الإلهية، وكما أن في الفص علامة تدل على صاحب الخاتم، كذلك العالم بمنـزلة الخاتم، وفصّه الإنسان الكامل، وفيه علامة تدل على الحق تعالى؛ لظهور جميع أسمائه فيه الدَّالة عليه.

فمن هذا ورد في الخبر «**مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه**».

قال ﷺ في الفصل الثامن ومائة من «**الفتوحات**»: إن الإنسان الكامل يدل بذاته من أول البديهة على ربِّه؛ لأنه على الصورة، انتهى كلامه ﷺ.

وقـال أبو يزيد قُدِّس سرُّه: من هذا الذوق إما دلَّ على هويته من كلمة الله عليها، وكذلك سمَّاني كلمة، انتهى كلامه ﷺ.

وقال ﷺ: «**إن أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله**» فالكامل من أعلى العلامات التي تدل عليه.

(**الـتي بها يختم الملك على خزائنه**): أي العلامة التي تحفظ الملك بالختم بها ما في الخزائن من نفائس الجواهر، والعروض.

يُـريد ﷺ أن يمـثِّل تمثيلاً يناسب الإنسان الكامل، بل الأكمل الفرد الختم مع العالم، ويتبين فيه

نسبته معه:

غِنَــي عَــنْ التــصريحِ للمُتعَــنِّتِ وَعَــني بالــتَلْويحِ مُفْهِــمٌ ذَائِــق

فــإن نسبته الأكمل الكل مع العالم نسبة الختم على الخزانة، فكما تختم الخزانة المشحونة بنفائس الجواهر التي فيها عن تناول أيدي البقاء والفناء، ولا يجسر كل أحد أن يتصرف فيها.

كــذلك الإنــسان الكامــل الكل، فإنه ختم به على خزائن العالم على النفاد، ولا تجسر أيدي الحوادث، وأيدي الزمان على فكِّ هذا الختم بالتغير والإنسان.

(وسمَّــاه خليفة من أجل هذا): أي من أجل أنه استخلفه، يحفظ ما في خزائن العالم والوجود أنه حفــيظٌ علــيمٌ، سمَّــاه خليفة، والخليفة صورة مستخلفة، فما حفظ إلا بنفسه، فاحتفظت نفسه بنفسه، فبنفسه عين العلامة على نفسه، فافهم.

(لأنه سبحانه الحافظ) خلقه من حفظ الشيء نفسه؛ لأن الوجود عينه، وما في العالم سواه.

(كمــا يحفــظ الختم الخزائن) بالعلامة التي في الختم، وهي صورة اسمه، والاسم عين المسمَّى، وبالعين يحرس العالم.

والختم ثلاث: ختم الولاية العامة الظاهرة في هذه الأمة، وهو المهدي.

وختم الولاية المطلقة وهو عيسى عليه السلام.

وخــتم الــولاية المحمَّدية، فأمَّا ختم الولاية المحمَّدية، وهو الختم الخاص، فيدخل في ضمنه الختمان السابقان، وإن كانا مطلقين وعامين، فهما مختومان، وتحت الختم المحمَّدي، وله التحقق بالبرزخيَّة الثابــتة بين الذات والألوهيَّة؛ لأن ختميَّة النبوَّة تختص بحضرة الألوهيَّة، وله جمع الجمع لا جامع بعــده مــثله ولا حائز لكل الموارث غيره، وله كمال الآخريَّة المستوعبة، فله حكم الكل دون ســواه، فلهذا لا يعرفه غير مولاه، وهو أعلم الخلق بالله، لا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه، أعلم بالله، وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن إخوان، كما أن المهدي والسيف إخوان.

قال رضي الله عنه: علمت حديث هذا الختم المحمَّدي بــ «فاس» من بلاد المغرب، وهو شعرةٌ واحدةٌ من جــسده ﷺ، ولهــذا يشعر به إجمالاً، ولا يعلم تفصيلاً إلا مَنْ أعلمه الله، أو مَنْ صدَّقه أن عرَّفه بنفسه دعواه، ذكره رضي الله عنه في الباب الثاني والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات».

(فمــا دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه) فالختم دائمًا أبدًا دنيا وآخرة، فــإن الختمــيَّة ثابــتة غير مزالة، فافهم الإشارة تكن من أولي الألباب فإن هذا التمثيل خلاصة الخلاصة، ولباب هذا الباب فإن توهَّمت فرض الإزالة في النشأة الدنيويَّة فهي ثابتة من وجه آخر لا محالة وهو النشأة الأخرويَّة، فالختم دائمًا أبدًا، فافهم.

(فاســتخلفه في حفظ العالم فلا يزال العالم محفوظًا فيه ما دام فيه هذا الإنسان) الذي هو الختم الــدائم الجامع السرمدي، وذلك العبد هو المقصود من العالم النائب عن العالم كله الذي لو غفل العــالم كلُّه أعلاهُ، وأسفلهُ زمنًا عن ذِكر الله، وذكره هذا العبد، قام في ذلك الذكر عن العالم كله، وحفــظ به على العالم وجوده، ولو غفل العبد الإنساني المذكور عن الذكر زمنًا فردًا لم يقم العالم

مقامه في ذلك وحرب منه.

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة وفي الأرض مَنْ يقول الله الله**».

إشارةً إلى ذلك الذكر، قال ﷺ في الباب الثالث والسبعين من «**الفتوحات**»: إن في العالم قطبًا ينظر الحق تعالى إليه، فيبقى به هذا النوع الإنساني في هذا الدار، ولو كفر الجميع وهو ذا جسم طبيعي، وروح موجود بجسده، وحقيقته يتغذى بجسمه وروحه، وهو محلى الحق من آدم إلى يوم القيامة.

كما أبقى الله بعد الرسول ﷺ أربعة من الرسل أحياء في هذه الدار الدنيا، وهو عيسى، وإدريس، وإلياس، وخضر عليهم السلام، وهذه المعرفة التي أبرزنا عينها للناظرين لا يعرفها من أهل طريقتنا إلا منًا، فيبقى الأمرُ محفوظًا بهؤلاء الأحياء وثبت الدين قائمًا بحمد الله ما انهدم منه ركن إذا كان له حافظ يحفظه، وإن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وهذه نكتة فاعرف قدرها، فإنك لست تراها في كلام أحد أبدًا، ولولا ما ألقى عندي في إظهارها ما أظهرتها لسرٌ يعلمه الله ما أعلمنا به، ولا يعرف ما ذكرناه إلا نوابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء.

فاحمدوا الله يا إخواننا حيث جعلكم الله ممن قرع سمعه أسرار الله المخبوءة في خلقه التي اختصَّ الله بها مَنْ يشاء من عباده، انتهى كلامه.

(**ألا ترى إذا زال**) وجود الموضوع ليس بشرط في القضايا الشرطيات، فافهم.

(**وفك من خزانة الدنيا لم يبقَ فيها ما اخترنه الحق فيها، والتحقَ بعضه ببعضٍ وانتقل الأمر إلى الآخرة، فكان الختم على خزانة الآخرة ختمًا أبديًا**)، فالختميَّة ثابتة مزالة دائمًا أبدًا، فافهم.

قال ﷺ في الأجوبة من «**الفتوحات**»: فأقبل ما سبب الختم، ومعناه المنع والحجز، فافهم فكان الختم أزلاً فيكون أبدًا.

اعلم أنه ما ثم أمر من الأمور يفرض بين الأمرين، أو ينسب إليه بذاته، أو غاية إلا ولا بدّ أن يكون له فاتحة هي مرتبة أوليته، وخاتمة هي مرتبة آخريَّته، وأمر ثالث يكون مرجع الحكمين إليه بجمعهما، ويتعيَّن بهما وهكذا الإنسان والعالم.

ورد في الخبر عن الفاتح الخاتم ﷺ أنه قال:

«**أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه**» عن أبي موسى ﷺ ذكره في «جمع الجوامع».

فإذا تقرر هذا، فاعلم أنه سبحانه فتح خزانة غيبه، وذاته، وهويَّته التي لا يعلمها سواه باسمه الجامع بين صفات الجمع، والتصرُّف، والإطلاق، والتقييد، والأوليَّة والآخريَّة، والظاهريَّة، والباطنيَّة، وفتَح باب معرفة ذاته وحضرة جمعه وإشهاده وتجلّيه الكمالي المعتلي على سائر الأسماء والصفات بمن أظهره آخرًا، وقدَّره على صورته وحباه سره وسورته، وجعله خزانة مختومة حاوية على كل الخزائن ومفتاحًا وهو أصل المفاتيح الأول وينبوع الأنوار والمصابيح لا يعرفه سوى مَنْ هو مفتاحه، ويعلم هو المفاتيح التي حوتها ذاته، واشتملت عليها عوالمه، ونشأته وأحاطت بها مراتبه، ومقاماته ومشاربه أن يراه منها، ويكشف له عنها، فإن متعلق النفي الوارد في قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:59] نفى أن يعرف مجموعها أو أن تعرف من حيث كونها مفاتيح، وأن يعرف لا بتعريفه وتعليمه سبحانه.

وأما كون المفاتيح لا تعلم نفسها، أو لا تعرف بعضها بعضًا، أو لا تُعرف بتعريفٍ، فلا نص فيه، فافهم.

فلكل فاتحة خاصة، وهي عينها هو الأول، الآخر، الظاهر، الباطن جمع النقيضين وانختم الختم على العالمين، فافهم.

سُئل خاتم النبوة ﷺ متى كنت نبيًّا؟ قال ﷺ: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**».

وأشار إلى الأزل، فلو سُئل خاتم الولاية المحمَّدية متى كنت وليًّا خاصًّا؟ فكان يقول في جوابه: كنت وليًّا وآدم بين الماء والطين: أي أزلاً، وكل أزلي أبدي فيكون الختم أبدًا، فافهم الإشارة.

فكل ولي ونبي كان ظهور نبوَّته وولايته مشروطًا بشروط كالظهور بالبدن العنصري بخلاف خاتم النبوَّة وخاتم الولاية المحمَّدية، فإنهما كانا في الأزل نبيًّا ووليًّا، ولم يكن آدم شيئًا مذكورًا.

فكما أن الله تعالى ختم بمحمد ﷺ نبوَّة الشرائع، كذلك ختم الله بالختم المحمَّدي بالولاية المحمديَّة، بحيث لا يحصل للمحمَّدي فيض إلا من مشكاته ﷺ وله أمر الولاية المحمديَّة من قبل ومن بعد، كما أن أمر النبوَّة من قبل ومن بعد سواء كان قبل الوجود العنصري، أو بعده، فلا يأخذ ولي إلا من مشكاته، كما لا يأخذ نبي إلا من مشكاته ﷺ وهذه هي الأسوة الحسنة.

قال ﷺ إشارة إلى هذه الأسوة: «**أما لكم في أسوة....**» الحديث رواه أبو قتادة ﷺ.

والختم المحمَّدي عبارة عن خاتم يكون على حرف قدم محمد ﷺ، وأما المحمَّديون بعد هذا الختم يكون على قلوب الأنبياء عليهم السلام، فلا بعده مَنْ يكون على قدمه يطأ أثره، كما لا يكون أحد على قلبه: أي على قلب محمد ﷺ أبدًا، هذا معنى ختم الولاية المحمَّدية، وهو أعلم الخلق بالله، ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم بالله، وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن إخوان، كما أن المهدي والسيف إخوان، وكما أن لا نبي بعد محمد ﷺ، كذلك لا ولي بعد هذا الختم سلام الله عليه، فإنه خاتم أولياء الذات، وروح الكلمات التَّامات، ولا بدَّ أن يرى في كشفه ما ينبئك عن وصفه إن سلكت هذه الطريقة، وبلغت إلى هذه الحقيقة فافهم.

قال ﷺ في «**الفتوحات**» في أصل أسئلة الترمذي: أمَّا ختم الولاية المحمَّديَّة فهي لرجلٍ من العرب، مِنْ أكرمها أصلاً ونسبًا، وهو في زماننا اليوم موجود، عرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق سبحانه فيه في عيون عباده، وكشفها لي بمدينة «فاس» حتى رأيت خاتم الولاية النبوَّة المطلقة لا يعلمه كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق تعالى في سرِّه من العلم به، انتهى كلامه ﷺ.

وما رأيت بتصريحه بهذا المعنى لنفسه أصلاً إلا في مواضع قليلة منها في بيتٍ في الباب الثالث والأربعين من «**الفتوحات**» فإنه ﷺ قال:

كورث الهاشمي مع المسيح   أنا خِتم الولاية دُونَ شك

أي: لعدم بلوغ الزمان إلى ما يقتضي إبراز الحقائق، وإظهار أسرارها بما هي عليه؛ فإنه من خصائص الوقت الختمي، ولطائف مولداته التي لم يلد الزمان ما يتولد منه ذلك، كما في شرح الجندي، فجعله الله تعالى القلم الأعلى بحيث أثبت في لوح الوجود أظهر في «صحائف الشهود»، وكل معرفة كتمها الحكماء، وكل حكمة أجملها العرفانية، وكل سرٍّ أبهمه الأولياء، وكل نورٍ أسرجه الأنبياء؛ فجاء حاويًا للدوائر الأول والثواني محيطًا بالأفلاك الحقائق والمعاني، وأجاب عن أسئلة الحكم محمد بن عليّ الترمذي - قدس سره، وكان قبل الشيخ بأربعمائة سنة تقريبًا، فإنه سأل خاتم الولاية الخاصة المحمدية.

فإن قلت: ما معنى الختم وسلسلة الولاية لا تنقطع أبدا؟.

قلت: نعم، إن الولاية مع الأوصاف الإلهية الأبدية؛ لأن الله تعالى هو الولي الحميد، فختمها ليس بمعنى الانقطاع بل بمعنى تماميتها وكماليتها، فكما أن الاسم الأعظم لما تجلى في أجمل صورة، وهو نبينا ﷺ فاقتضى خاتميته في مقام النبوة مع بقاء نور تلك النبوة في مرآة الشريعة المطهرة إلى قيام الساعة، كذلك أمر الولاية لما تبدى في أكمل مظاهره، والشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - اقتضى خاتميته في مقام الولاية في مجالي قلوب

وفي محلٍ من «الفتوحات» قال ﷺ يشير إلى مقام الخاتمي: خصَّني الله بخاتمة أمرٍ لم يخطر لي ببال، فشكرت الله بالفجر عن شكره مع توفيقي في الشكر حقه، فافهم، انتهى كلامه.

فإن قيل: بأي صفةٍ استحقَّ بها أن يكون خاتمًا للولاية المحمدية، قلنا: بتمام مكارم الأخلاق مع الله، إنما قلنا: مع الله؛ لأن أغراض الخلق مختلفة، ولم يمكن تعميم موافقة العالم بالجميل فنظر نظر الحكيم، فلم يجد صاحبًا مثل الحق، ولا صحبة أحسن من صحبته.

ورأى أن السعادة في معاملته، فنظر إليه فرأى أنه شرع أحكامًا، وحدَّ حدودًا فوقف عندها، فما صرف الأخلاق إلا مع سيده، فلما كان بهذه المثابة قيل فيه ما قيل في خاتم النبوة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4].

قال ﷺ في الباب الرابع والثلاثين وخمسمائة من «الفتوحات»: إن هذه الآية تُليت علينا تلاوة تنزُّل إلهي من أول السورة إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:13] انتهى كلامه.

ومكارم الأخلاق معلومة عقلاً، وعرفًا، والتصرف فيها وبها معلومٌ شرعًا، فمَنْ اتَّصف بها على الوجه المشروع.

وزاد تتميم: مكارم الأخلاق، وهو إلحاق سفسافها بها، فتكون كلُّها مكارم الأخلاق بالتصرُّف المشروع والمعقول، فقد اتَّصف بكل ثناءٍ إلهي، واتَّصف فلا يزال محسودًا، وبالعداوة مقصودًا، فافهم. انظر: مجمع البحرين (ص 262) بتحقيقنا.

الأقطاب، ومن تبعهم إلى قيام الساعة، فهو ختم الولاية الخاصة، وعيسى عليه السلام ختم الولاية المطلقة، والمهدي رضي الله عنه ختم الخلافة المطلقة.

فإن قلت: يلزم مما ذكرت أن يكون الشيخ أفضل من عليّ رضي الله عنه، وأنى له ذلك؟ قلت: قد نبهتك فيما سبق عن سنة الغفلة، فلا تعد إلى النوم، وذلك كون الشيخ أكمل مظاهر الظهور، ولا يوجب الأفضلية، وختمه مبني على هذا المعنى، كما أن بعض السلاطين ممن له كمال في معنى من المعاني كالعلم والشجاعة أو نحوها، لو قلت فيه إنه خاتمة السلاطين بملاحظة ذلك المعنى الكمالي لم يلزم أن يكون أفضل من كل وجه، والمفضول كما قد يكون أفضل من الفاضل في بعض الأمور، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام في قصة «تأبير النخل»: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[1]، ولبعض الكُمَّل سرّ الختمية.

وفيه الشرف التام كما قال عليه السلام : «**نحن الآخرون السابقون**»[2].

فحضرة الشيخ الشهير بيونس أمره – قدس سره – له حظٌ من الختمية؛ إذ قد تكلم من المعارف باللسان التركي لم يكن مقدورًا لواحد لا قبله ولا بعده، فلو تتبعت الكلمات التركية الواردة على أسلوب القصائد الإلهية من المشايخ الخلوتية والجلوتية، وغيرهم من أهل المعارف والأذواق لوجدت كل مضمون منها قد سبق به يونس أمره، فهذا باب من الختمية.

وكذا حضرة الشيخ الشهير بالهدائي الإسكداري له حظٌ أوفى من مائدة الختمية في الطريقة الجلوتية؛ لأنه وضع رسومًا وأوضاعًا وقوانين طريقة بحيث لم يتيسر لواحد لا قبله ولا بعده، وهو من مشايخ هذا الفقير في المعنى، فإنه علمني اسم الله، وعرض عليَّ خطبته المختصرة التي تعرف اليوم بـ «خطب الهدائي»، وقال: «قد اختصرت هذه الخطب من الخطب المفصلة لحضرة الشيخ الأكبر – قدس سره الأطهر»؛ ولذا أحب خطبه في الجُمع والأعياد؛ لأن قصر الخطبة أمر لازم في هذه الأعصار مع واردة على مراتب الأربع في أكثر مواعظها، وإن لم يعرفه من لا خبر له من الطريقة.

ثم إن الطريقة الجلوتية – بالجيم – آخر الطرق كلها؛ فهي محدثة بنظر الظاهر لا بنظر الحقيقة شأنها أعظم من شؤون الطرق العديدة؛ ولذا من خرج عنها ودخل في غيرها

---

(1) رواه مسلم (54/12).

(2) رواه البخاري (397/1).

يُعزَّر ويؤدب عند أصحابها، كما يؤدب الحنفي إذا تشفع، وإن كان الأخذ بالكل مقيدًا واردًا على النهج القديم، والطريق القويم، والصراط المستقيم.

وقد قال الشيخ أبو سعيد الخراز[1] الذي هو لسان من ألسنة الحق:

---

(1) هو إبراهيم بن عيسى، وقيل: أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز البغدادي شيخ الطائفة المجاهد المراقب، عارف يضرب به المثل. خبير بالأدواء بصير بالعلل. ناصر للتصوف وأهله. قائم برفع منار الذكر وجمع شمله.

قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون. وقد صحب سريًّا السقطي وذا النون المصري.

قال أبو القاسم عثمان بن النهاوندي: أول ما لقيت أبا سعيد الخراز سنة اثنتين وسبعين فصحبته أربعة عشر سنة.

قال الخطيب: كان أحد المشهورين بالورع والمراقبة وحسن الرعاية.

وحدث يسيرًا، وصحب السقطي وذا النون وغيرهما.

قال الجنيد: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد هلكنا.

أقام كذا كذا سنة يخرز ما فاته ذكر الحق تعالى بين الخرزتين.

وقال السلمي: الخراز إمام القوم في كل فن من علومهم وأحسنهم كلاما خلا الجنيد، فإنه الإمام الأكبر، ولذلك كان الطرسوسي وغيره يقولون: الخراز قمر الصوفية، فأفاد أن أمثلهم مطلقًا الجنيد ثم الخراز فذاك الشمس وهذا القمر.

وكان عظيم المراقبة، جاءه في بادية الموصل أسدان من ورائه فلم يلتفت فقربا منه وتعلقا به ولحسا خديه وتـــزلا عنه، وهو لا يعبأ بهما.

ودخل بادية مرة بغير زاد فأصابته فاقة فرأى قافلة من بعيد فسر بوصوله، ثم تفكر أنه اتكل على غير الله وسكن إلى الخلق فأقسم أنه لا يدخلها إلا محمولا فحفر له في الرمل إلى صدره ووارى جسده فيه فسمعوا صوتًا في الليل إن لله وليًا حبس نفسه في الرمل فالحقوه، فلحقوه فجاءوه فأخرجوه وحملوه إلى القربة.

ومن فوائده: جعل الله العلم دليلاً عليه ليعرف، وجعل ليؤلف رحمة منه على عباده الحكمة ، فالعلم دليل عليه والمعرفة دالة عليه.

وقال: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبة، وأشياء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ، يخبرون عنها بعبارة أزلية أي لأنهم ينطقون بالله كما قال في الحديث القدسي« **فبي يسمع وبي ينطق**» وهو العلم اللدني الذي أوتيه الخضر.

وقال: المعرفة تأتي إلى القلب من عين الجود وبذل المجهود ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:69].

وقال: علامة الفناء ذهاب الحظ من الدارين.

وقال: لا يكون شريفًا أبدًا من لا يسكن جوعه إلا بالغذاء، فإذا صارت الأذكار هي الغذاء فقد حصل الشرف الأعلى، ومُحي الوصف الأدنى.

وقال: ليس في طبع المؤمن قول (لا) .

وقال: ليكن فرحك عند العطاء بالمعطي سبحانه لا بالعطاء، وتنعمك بالمنعم لا بالنعمة.

وقال: التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

وقال: من ادّعى أنه مغلوب في السماع فعلامته الصحيحة ألاّ يبقى في ذلك المجلس محق إلاّ أنس به، ولا مبطل إلا استوحش منه.

وقال: من ظنَّ أنه يبذل الجهد يصل فهو متعن، ومن ظنَّ أنه بغير بذله يصل فهو متمن.

وقال الغزالي: وقال الخراز لابن له عند موته: يا بني عظني، قال: لا تخالف الله فيما يريد، قال: زدني، قال: لا تطيق ذلك، قال: قل، قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصًا فما لبس قميصًا ثلاثين سنة.

وقال: إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم.

وقال: العافية سترت البرَّ والفاجر.

وقال: إذا جاءت البلوى تبين عندها الرجال.

وقال: كان لي معلمٌ يعلمني الخوف من الله، فقال يومًا: إني معلمك خوفًا يجمع كل شيء مراقبة الله في كل حال.

وقال: رأيت إبليس في النوم يمرُّ عني ويذهب ناحية قلت: تعال، قال: إيش أعمل بكم؟ طرحتم عن أنفسكم ما أخادع به الناس. قلت: ما هو؟ قال: الدنيا.

وقال: إنَّ الله عجَّل لأرواح أوليائه التلذذ بدوام ذكره، والوصول لقربه، وعجَّل لأبدانهم عظيم النعمة مما نالوه من عبادته.

وقال: الأُنس استبشار القلوب بذكر مولاها، وسرورها به، وسيرها إليه، وأمنها معه.

وقال في معنى الحديث: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها»: واعجباه لمن يرى محسنًا غير الله كيف لا يميل بكليته إليه؟!

وقال: كلُّ باطن يخالف ظاهر العلم فهو باطل؛ لأن الله جعل العلم طريقًا إليه ليعرف.

وقال: المحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء ولا يتسلى عنه بشيء، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره.

وقال: إذا أراد الله أن يوالي عبدًا فتح عليه باب ذكره؛ فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأُنس، ثم رفع عنه الحجب، ثم أدخله دار الفردانية وكشف له حجاب العظمة والجلال، فبقي بلا هو؛ فصار زمنًا فانيًا فوقع في حفظه سبحانه.

وقال: كنت في سفر، وكان يظهر لي كلَّ ثلاثة أيام شيء آكله وأستقل به، فمضى ثلاثة لم يظهر لي شيء فضعفت وقعدت، فهتف بي هاتف: أيهما أحب إليك أن تعطى قوة أو سببًا؟ قلت:

قوة، فقمت فورًا، ومشيت نحو اثني عشر يومًا لم أذق شيئًا ولم أضعف.

وقال: كنت ببادية، فجعت شديدًا، فغلبتني نفسي أن أسأل الله طعامًا؛ فقلت ليس هذا من فعال المتوكلين؛ فطالبتني أن أسأل الله صبرًا؛ فسمعت هاتفًا يقول:

وأنـــا لا نـــضيّعُ مَـــن أتانـــا ويـــزعُمُ أنّـــه مـــنّا قـــريبُ
كأنّـــا لا نَـــراه ولا يَـــرانَا ويـــسْألُنا القـــوى جَهْـــدًا وصـــبرًا

فأخذني الاستقلال فقمت ومشيت.

وقال: النفس كماء واقف طاهر صاف فإذا حركته ظهر ما تحته من الحمأة والتغير، وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة.

وقال: رأيت فقيرًا بالمسجد الحرام وعليه خرقتان، فقلت في سري: هذا وشبهه كل على الناس، فناداني: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:235].

فاستغفرت الله في سري فناداني ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى:25] ثم غاب عني فلم أره، وقيل له بم عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدين أي: في صنعه ثم تلا ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[الحديد:3]، وقال: إذا غرقت العقول في الأذكار ضعفت النفوس.

وقال: كنت بمكة فجزت على باب بني شيبة فرأيت شابًا حسنًا ميتًا فنظرت في وجهه فتبسم وقال: يا أبا سعيد، أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينقلون من دار إلى دار؟.

وقال: من لم يعرف نفسه كيف يعرف ربه، وسمع الناس يقولون يوم عيد: تقبل الله منا ومنكم، فقال: هذه غفلة وقلة رعاية، كيف يقول الرجل ذلك ولا يدري أعمله مرضي أم لا ؟وإنما اللائق سؤال العفو والتجاوز عن التقصير اللازم، ولا أبلغ في طلب العفو من الإقرار بالعجز والذلة والافتقار مع بذل الجهد في الإخلاص.

وقال: من شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع إلى ربه وحينئذ يسلم من الاستدراج.

وقال: الزهد ألاّ يرغب قلبك في مقصود الدنيا ولا يسكن لموجودها.

وقال: إذا أراد الله موالاة عبد فتح عليه باب ذكره ثم قربه ثم رفعه لمجالس الأنس ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم سواه على عرش الصفا، ثم حجب عنه حجب النفس والهوى ثم أدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة فإذا شاهد ذلك فني عن نفسه وحينئذ يرفع في حفظ الله وكلاءاته.

وقال: حقيقة المحبة تقطيع الفؤاد، وتشتيت المراد ولولا لطف الله بعبده موسى أصابه أعظم مما أصاب الجبل حال التجلي.

وقال: المحبة ألاّ ترى الإحسان إلا من محبوبك، ولا تطيع إلا مطلوبك.

وقال: كنت بالصحراء فإذا نحو عشرة كلاب من كلاب الرعاة شدوا عليّ فلمّا قربوا مني جعلت استعمل المراقبة فخرج من بينهم كلب فحمل على الكلاب فطردهم عني ولم يفارقني حتى بعدت عنها.

«حسنات الأبرار سيئات المقربين[1]».

والحاصل أن في الآخرية والختمية سرٌّ ليس في غيرها ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان أفضل لكونه خاتمًا، والقرآن لكونه ناسخًا، والأمة لكونها جامعة لكمالات الأمم كلها؛ لأنها أصحاب توحيد الأفعال الصفات والذات بالفعل، وكذا كان السلاطين العثمانيون أفضل الملوك ودولتهم أقوى الدول مطلقًا لسعةِ الإحاطة وسرِّ الأخرية، إذ دولتُهم متصلةً بالمهدي ومجيء حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - خلال الستمائة والسبعمائة إشارة إلى تنصف زمان الدور القمري، فإن العلماء ذهبوا إلى قيام المهدي وظهوره إما في

=

وقال: رأيت، المصطفى ﷺ، فقلت: اعذرني، فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال: يا مبارك، من أحب الله فقد أحبني.

مات سنة سبع وسبعين، ومائتين وقيل غير ذلك.

ولما احتضر كان كثير التواجد عند الموت فقيل ذلك للجنيد، فقال: لم يكن يعجب أن تطير روحه اشتياقًا. وانظر: الحلية (246/10)، وطبقات الصوفية (ص 228)، والكواكب (210).

(1) ذكره القاري في المصنوع (111)، وفي الموضوعات الكبرى (ص 186)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (733)، وفي كتابنا أحاديث مشهورة لكنها لا تصح، وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (351)، وعزاه للزهري.

قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري، وقد عزاه الزركشي للجنيد، والقرطبي في التفسير (309/1)، وانظر: كشف الخفاء (428/1).

فائـــدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني: واختلفوا في الصغائر في حقِّ الأنبياء والكُمَّل والذي عيه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقـــال بعـــض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقـــوع ذنـــوبٍ من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا مـــنها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرةٍ لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلـــك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهـــم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

قـــال: وهـــذا هـــو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم صـــلوات الله وســـلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخلَّ ذلك بمناصـــبهم، ولا قـــدح في رتـــبهم، بـــل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (309/1).

أوائل المائة الثانية بعد الألف أو في أوائل المائة الثالثة كما يُشير إليه قوله ﷺ: «**خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ، من لا ولد له ولا أهل له**»[1]، وبعد ظهوره ينزل عيسى ﷺ ثم لا يبقى في الدنيا بعد وفاتهما خير، ولا يبلغ عمر الدنيا إلى خمسمائة ألبتة؛ لأن الأحاديث قاطعة بذلك.

فإن قلت: أليس هذا تعيين وقت قيام الساعة، وقد استأثر الله بعلمه؟.

قلت: لأنه تقريب وتخمين لا تحقيق ولا تعيين؛ فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 87] على حاله، ولعلك تقول: ما معنى تنصف الشيخ بين زمان الدور القمري؟.

فأقول: قد قلنا سابقًا بمثالية الهلال لظهور أمر النبوة والولاية، والهلال لا يكون قمرًا بدرًا منيرًا إلا بعد تنصف الشهر فكذا أمر الولاية الموروثة في هذه الأمة فكان مدة الدنيا بعد زمان النبوة كأنها كشهر واحد من الشهور في أمر الظهور والقلة؛ فافهم هذه الأسرار والخطاب فإنها من أيدي الاسم الفياض الوهاب.

وقد صح عند أهل الله أن حضرة الشيخ أحضرت له قلوب المستعدين لسلوك هذه الطريقة الخاصة لقبول فيض العناية الاختصاصية، وذلك من زمانه إلى قيام الساعة فنفخ فيها أي: بالنفس الرحماني الذي يحيي القلوب والأرواح، ويبعث البواطن كالصور مع الأشباح.

يقول الفقير: نبهه الله القدير عن سنة الغفلة والتدبير وآنسه بتسليم ما يجري من القضاء والتقدير وأخرجه من ظلمات الخيال والفكر وشرفه بالواردات والشكر، ورأيت في بعض المقامات الصادقة في أواخر شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وألف أن حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره - قد أقبل عليَّ وهو رجل معتدل القامة أسمر اللون وقد لزم الشيب خده، فقبَّل فمي وقبَّلت قدمه الشريفة، ثم استيقظت فأقبل التقبيل في الفم بنفخ الروح المعنوي المشار إليه آنفًا، والتقبيل في القدم بتواضعي له وسلوك طريقته باعتقاده في علومه وأعماله وأحواله وقبول نصيحته بجوامع كلماته وأقواله والحمد لله على ذلك، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] فكان هذا الفيض العام للخواص من جنابه، وجانبه كفيض شجرة طوبى على الجنات وأهاليها، فكما أن لكل دار

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (464/1)، والمناوي في «فيض القدير» (497/3).

منها غصنًا في تلك الشجرة مفيضًا على أهلها كل خير وجود، فكذلك لكلّ قلب من قلوب أهل الاستعدادات حصة فيض ونصيب نفخ وحظ فتح من فم حضرة الشيخ ولسانه ويده فهو خلق الله الأعظم في هذه الأمة، ومفتاح مغلقات الأمور المهمة، وله الإحاطة التامة بما هو خارج عن قلوب الخاصة وعقول العامة، والعرفاء إنما يفهمون كلامه في فتوحاته وغيره من مراتبهم لا من مرتبته؛ فإن لحقائقه بطونًا متفاوتة، ولمشارب معارفه عيونًا مختلفة، وفي معانيه بمرتبة قوله: ومكرَ الله ومَكرَ غيره بمرتبته، ومكروا في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54] فإذا كان فهم كلامه على الحقيقة خارجًا عن طوق الخواص والعرفاء والأدباء، فما ظنك بعوام العلماء الذين هم بمنزلة الجهلاء، وكم ترى وتسمع في حقه إنكارًا بل إكفارًا لا إكفارًا لا سيما وقد صدر ممن يعد من فضلاء الدهر كسعد الدين التفتازاني والمغني المفتي الشهير بـ (ابن جوزي) ومحمد البركوي وغيرهم من مشاهير علماء العجم والعرب والروم ولكن أين ذو الجناح الواحد من ذي الجناحين والأعمى ممن له مشاهدة الآثار بصحيح العين، ويقولون في حقه الأكفر مكان الأكبر، وله وجه صحيح عندنا معاشر الصوفية، وهو أن معناه أشد كفرًا بالطاغوت على ما صرح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:256].

فإن مدلوله: إن النجاة في الإيمان الكامل، وهو الجمع بين الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت، وحقيقة الطاغوت ما يكون سببًا لطغيانك وضلالك عن طريق الحق تعالى أيًّاما كان من النفس والولد والمال والجاه، وما يتعلق بها من الأمور الظاهرة والباطنة مما يعد مُضلاً عند الطائفتين؛ فالكفر بمثله بالفناء عنه وعداوته، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77] كفر مقبول وإيمان محض إذ به يظهر سرُّ التخلية - بالخاء المعجمة - كما أن بالإيمان يظهر سرُّ التحلية بالمهملة، ومن هذا المسلك قول الشيخ في بعض رباعياته: وجنة الفردوس للكافر أي: للكافر بالطاغوت، وقال العارف الشيرازي [وعبادة صمدي...][1].

وتحقيق المقام: إن الكفر على وجهين: كفر وحدة الحق تعالى، وهو كفر الكفرة والفجرة وهذا الكفر مردود مطلقًا، وكفر ما سوى الله تعالى، وهو كفر البررة والخيرة وهذا

---

(1) كلام فارسي.

الكفر مقبول مطلقًا كما دلَّ عليه الآية المذكورة، فجوهر الإيمان الكامل مركب من جزئين:

الأول: الكفر بالطاغوت.

والثاني: الإيمان بالله تعالى.

ولما كان متعلق الإيمان وحدة الحق ومتعلق الكفر الطاغوت يعني: الأصنام والشياطين وما سوى الله لم يلزم اجتماع الضدين في محل واحد، ومن هذا الباب أيضًا قول الشيخ: من لم يتم كفره لم تكمل حقيقته، ومعنى البيت العرفي أن عبوديتنا للصنم وهو المعشوق إن قبلت الإيمان فالعناية والصمدية لا ترد كفرنا أي: لأن كفرنا كفر مقبول لا كفر مردود، وشرطه في العبودية قبول الكمال؛ لأن الكفر الحقيقي ما لم يكمل لم يقبل.

والحاصل أن العبودية للمعبود والإيمان به «**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**»[1] فينبغي أن يعرف المحبة إلى المحبوب الواحد، وهذا الكفر الحقيقي المذكور قد تمَّ وكمل في أكامل الناس، ومنهم حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - فإكفاره بالمعنى الذي أراده الأعداء والحساد ليس بصحيح جدًّا، ونعم ما قال ابن سينا: [...][2].

اعلم أن الله تعالى هو الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء أي: في الحقيقة، وقد جعل رسول الله ﷺ مظهر الاسم الهادي، وجعل الشيطان مظهر الاسم المضل فكل من له حصة من الاسم الأول فهو تحت لواء المصطفى وكل من له حظ من الاسم الثاني فهو في سلسلة رئيس الأعداء وإنما خلق الشيطان ليكون واسطة بينه وبين أهل الضلال في ظهور اسم المضل الذي بربه وهو في عبودية هذا الاسم وقابل آثاره إلى قيام الساعة وهو كالمنديل الذي يمسح عليه الأيدي لإزالة الأذى والقذارة وقاية الله وجُنته يرمي إليه السوء ولا يتجاوز إلى الله تعالى تأدبًا معه مع أنه المضل في الحقيقة كما دلت عليه النصوص، وإنما خلق الشيخ الأكبر ليكون جُنة ووقاية للاسم الهادي، وهو النبي ﷺ، وذلك لأن الناس نسبوا إليه كل ما يخالف عقائدهم وأعمالهم مع أن ما جاء به من العلوم خصوصًا كتاب «فصوص الحكم» إنما كان من عند النبي ﷺ ولو صدر ذلك من النبي ﷺ بغير

---

(1) رواه أحمد في مسنده (3123)، والترمذي (22850).

(2) كلام غير عربي.

واسطة الشيخ لقبلوه بالاضطرار لكن الله أراد أن يمتحنهم فجعل الشيخ فيما بينهم وبين الرسول ﷺ لينسبوا إليه ما يخالف ظاهر الشرع لا إلى الرسول تأدبًا معه، وإن كان قدح الشيخ في الحقيقة قدحًا له عليه السلام من حيث لا يدرون إذ كل ما أتى به وأظهره بإذن الله وإذن الرسول عليه السلام؛ فما معنى قدحه ونسبة السوء إليه؟

وإن كنت في شكٍّ من هذا، فنحن معاشر الصوفية لا نشكّ في أمره، فإذا وجدنا ما يوفق ظاهر الشرع أبقيناه على حاله، وإذا وجدنا ما يخالف ظاهره أوّلناه كما يؤوّل اللفظ المحمل ونحلُّ المعقدات كما يحل المعميات والألغاز، وذلك قوله في الحق تعالى: إنه الوجود المطلق فإطلاق المطلق على الوجود الحق ليس بمطلق بل مقيد بالإطلاق الحقيقي الذاتي؛ فإن الإطلاق قسمان إطلاق حقيقي ذاتي وإطلاق عرضي إضافي والثاني حادث لإضافته إلى مقابلة الحادث الذي هو المتقيد والمضاف إلى الحادث حادث والأول قديم؛ لأنه مصدر الإطلاق الإضافي ومورده لا مقابله فلا بأس بإطلاقه على واجب الوجود ونظيره الوحدة؛ فإنها وحدة مقابلة للكثرة ووحدة هي مصدر للأولى، وهي المراد في قوله: وحده لا شريك له؛ فإنها الوحدة التي تقابل نفي الشركة، وهي غير مخلوقة بل مبدأ للوحدة المقابلة لكثرة المخلوقين.

فإن قلت: ما ذكر مذهب الوجودية؛ فإنهم يقولون: إن الله تعالى هو الوجود المطلق؟

قلت: فرق بينهم وبين الصوفية؛ فإنهم يعنون بذلك القول: إن الوجود التام هو الله تعالى، وأما الصوفية فمرادهم من الوجود المطلق أنه غير مقيد بالغير بألا يكون علة لشيء ولا معلولاً له بل هو خالق العلل والمعلولات.

فإن قلت: قول الشيخ في «الفتوحات»: «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها» يؤيد مذهب الوجودية؟.

قلت: يدفعه قوله أيضًا: «فهو عين كل شيء في الظهور ما هو عين الأشياء في ذواتها سبحانه، بل هو هو، والأشياء أشياء»[1] انتهى.

وأما الفلاسفة فيطلقون على الوجود المطلق علة العلل يعني: يقولون: إن الحق تعالى علة تامة للعقل ولا يزال يفيض عليه؛ لأنه لا يفارق عنه فيكون الحق مقيدًا بكونه علة له

(1) انظر: الفتوحات المكية لسيدنا وسندنا الشيخ الأكبر -قدس سره- (168/4).

سبحانه عما يقولون، وصرحوا أيضًا بأن إيجاد الحق للعالم من لوازم ذاته فيمتنع خلوه عنه فنفوا القدرة والإرادة وأثبتوا الإيجاد والاتحاد ففيه تقييد لوجود الحق بوجود العالم وتأييد لقدم الموجودات وليس في مذهب الصوفية هذا التقييد، والحمد لله على سلامة مذهبنا مذهب أهل السنة والجماعة، فنحن على هذا المذهب الصحيح المستقيم شريعة وطريقة ومعرفة وحقيقة، ثبتنا الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وجعلنا على سنن الحق في الأمور الباطنة والظاهرة.

ومما يدهش عقول العامة قول حضرة الشيخ في «فصوص الحكم» بإيمان فرعون، ولكنه ليس محل الاشتباه؛ فإنه قد قال في «الفتوحات»: «المجرمون أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها، وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24] يريد: ما في السماء إله غيري وكذلك نمرود وغيره[1]».

وقال في موضع آخر من «الفتح المكي»: «هذا هو معتقدي وغير هذا قلته على سبيل البحث والاستكشاف انتهى»؛ فاعرف هذا واحفظه.

ولا تكن ممن قيل في حقه:

حَفِظتَ شَيئًا وَغابَت عَنكَ أَشياءُ[2]

ولو لم يكن المسألة مجتهدًا فيها لأفتى علامة الروم ابن الكمال[3] - رحمه الله الملك المتعال - بكفر من قال بإيمان فرعون، ولكنه لما استغنى عنه في هذا المسألة قال: يلزم من قال ذلك الاستغفار لا غير فنحن معاشر الصوفية نلتزم طريقة الشيخ في «الفتوحات» ونحكم بكفر فرعون حكما قطعيًا كما دلت عليه قواطع النصوص ونحمل قوله في الفصوص على أن يكون بحثًا واستكشافًا حسبما قرره فيه؛ فهذا هو الطريق الأسلم أيها

---

(1) انظر: الفتوحات المكية (347/1).

(2) عجز بيت من البسيط، وهو لأبي نواس في «خزانة الأدب» ص (4251)، و«نصرة الثائر على المثل السائر» ص (246).

(3) هو شيخ الإسلام أحمد بن سليمان بن كمال باشا أحد الموالي الرومية، مفتي الثقلين، له المصنفات والرسائل الكثيرة، توفي سنة 941 هـ. وانظر: شيخ الإسلام ابن كمال باشا وآرؤه الاعتقادية للدكتور سيد باغجوان -طبع دار الكتب العلمية- بيروت.

المسلم المسلِّم، فلا تبغ الفساد في الأرض بإيقاظ الفتنة من حيث لا تدري والحق واضح لأهله وإن خفي عليك والخبر وصل إليهم وإن لم يصل إليك فما جرم العارفين في المبين غير أنهم واصلون إلى العين ولكن الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، ونعم ما قيل:

إنَّ العَرانِينَ تَلقاها مُحسَّدَةً وَلَن تَرى لِلِئامِ الناسِ حُسَّادًا[1]

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:68].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 76].

وقال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:41] أي: من سوء اعتقادهم ثم من حب الدنيا ثم من حب ما سوى المولى وأدنى النصيب من العلم الإلهي هو التصديق به وتسليمه لأهله فويل لمن لا خلاق له من الاعتقاد ومع ذلك وقع في أعراض أهل الرشاد زعمًا منه أن الحق في جانبه والباطل في جانب جانبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:36] وإنما يذكر حضرة الشيخ من له وضوء تام وهو الانفصال عن الهوى والاتصال بالمولى دون من لا طهارة له من الأجلاف والأخلاط يعني: ينبغي أن يذكر الشيخ بلسان التعظيم كما يذكره العارفون لا بلسان التحقير كما يذكره الجاهلون؛ فإنه أب الآباء، وخلاصة نجل آل العباء، وصفوة أهل التحقيق، وزبدة مظاهر التوفيق، وخليفة الله والرسول على اليقين، وهداية الحق تعالى لأهل الدين له من الفيض ما لا يسعه العوالم وعنده من العلم ما يتحير فيه كل عالم.

وفيه أقول: أيها الشيخ الفريد في العلوم ضاق عن درك معانيك الفهوم، لاح من فيك شهاب المعرفة أحرق الحساد طرًّا كالنجوم من له طعن لما قد قلته كأن شيطانًا حرها بالرجوم، أنت أعلى رتبة من كل شيخ أكبر أهل الخصوص والعموم رام إسماعيل حقي - قدس سرّه - كما حقق الله تعالى هذا للروم.

وروحانية حضرة الشيخ من وزراء المهدي في آخر الزمان؛ فإن له وزراء سبعة

---

(1) البيت من البسيط، وهو للوزير المهلبي في «العقد الفريد» ص (1096)، و«معجم الشعراء» ص (520)، و«محاضرات الأدباء» ص (810).

جسمانيين هم أصحاب الكهف ووزيرين روحانيين هما: روحانية الإمام عليّ ﷺ، وروحانية حضرة الشيخ على ما عليه أرباب المكاشفة والعيان، وإن أنكره أصحاب الحجة والبرهان، ويدل على ما ذكر قول الشيخ في بعض رباعياته:

لَـنَا دَوْلَـةٌ في آخـر الدَّهـرِ بظهره ... تَظهـرُ كالشَّمسِ لا تَستترُ
فمـنْ كـان مِـنَّا أو يقـول بقولـنا ... فبشره بالدنـيا وبالأُخـرى بـشرُ

قوله: «مِنَّا» أي: من المتحققين بعلومنا وأذواقنا، وقوله: «أو يقول بقولنا» أي: معتقد طريقتنا ولا ينكر علينا في أقوالنا وأفعالنا واعتقادنا، وقد قال في حق اعتقاده الحق الشامل الكامل:

عَقَـدَ الخَلائِـقُ في الإِلَـهِ عَقائِـدًا ... وَأَنـا اعـتَقَدتُ جَمـيعَ ما عَقَدوهُ[1]

وذلك لأنه لا قيد في قلب الكامل وعقده بل هو مقيد بكل وصف، ومطلق عن كل قيد، ومجرد عن كل حكم فهو المقيد المطلق، ولذا نقول في طريقته: إنها طريق حق وليس فيها بنسبة الخلوتية والجلوتية أو غيرهما لأنها جامعة للكل واللام الجامع لا يقيد بقيد جزئي.

وقد صاحبت من أهل الشام بعض من هو نجله وأحفاده فسألت عن طريقة الشيخ متجاهلاً؛ فقال: طريقته نقشبندية خلوتية.

قلت: ممن أخذت هذا؟ قال: من اشتغاله بالأربعينات الكثيرة، وهي من شأن الخلوتية.

قلت: إن الأربعينيات التي استخرجها في أوائله وأواسطه لا تستلزم كونه خلوتيًا في نهايته كما أن رسول الله ﷺ تخلَّى في غار حراء قبل نبوته مع تجرده عن كل وصف عارض، نعم إن كل شأن في الطريق المختلفة الحقة فإنما صدر من نبي من الأنبياء أو ولي من الأولياء فوقع التسمية بحسب الغفلة كالأربعين صدر من موسى عليه السلام بشهادة النص فظهر منه اسم الخلوة؛ لأنها الغالبة في الخلوة وكالاعتكاف صدر من نبينا عليه السلام وكان في باقي السنة على الصحبة فبدا منه اسم الجلوة؛ لأنها الغالبة في الجلوتية إذ هم يشتغلون بالمجاهدة في السرِّ والعلن ولا يتقيدون بقيد الخلوة التي هي أسباب الاشتغال بالأسماء.

فإن قلت: المشتغل بالأسماء أيضًا مجاهد.

---

(1) البيت من الكامل، وهو للحلاج في ديوانه من قصيدة البيت مطلعها.

قلت: فرق بين المشتغل بها وغير مشتغل معلوم عند أهله لا حاجة إلى بيانه والكل حق فيه وإنما الكلام في الوصول إلى الله تعالى بخرق الحُجب والأينيات وقطع البرازخ والتعينات نسأل الله تعالى ولجميع الأخوان الجلوتيين والخلوتيين وغيرهم أن يأخذ بأيدينا قبل الوقوع في المهالك ويسلك بنا إلى خير المسالك.

ثم إن الكلام في حق حضرة الشيخ الأكبر وقع في الفصل السابع بطريق الاتفاق وهو إشارة إلى الاسم السابع الذي هو الاسم القهار، وحضرة الشيخ قد قهر الكل بإذن الله تعالى فلا يد على يده فإنها مظهر قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10] (1) وإنما أوردته في فصل مفرد لكونه من مشايخي في المعنى كما أومأت إليه. ومن الله التوفيق.

---

(1) قال سيدي علي وفا: اسمع: قال الناطق المحمدي: «قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»، والأصابع هي مبادئ، ولذلك يُقال في لغة العرب: لفلان على رعيته إصبع حسنة: أي أثر، ويريدون مبدأ الأثر، وكل ما ظهوره من نتائج الظهور الآدمي ظهورًا توليديًا خلقيًا، فهو ابن آدم في المعنى، وقال عن آدم: «خُلقت بيدي»، وهما النظام الجامع للأصابع.

فدائرة الوجوب اليمين الأقوى، ودائرة الإمكان اليمين اليسرى، وذلك بما لآدم من العين الذي هو في مرآة الإمكان مثال الواجب في إحاطية الخالق لآدم بذلك على صورته هو، فظهر بذلك عالم الأسماء، وسجد له ملك الأرض والسماء، ولما تحقق العين المحمَّدي بالحق الذي آدم على صورته ظهر بأنه روحه وسر حياته، فسمَّى حقَّه نور السموات والأرض، وقال كليمه لسميعه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10].

ومن تحجب عنه بمثاله الآدمي تسمَّى له بأسماء نزوله عينًا واسطةً في تعليمه أسماء عُلاه غيبًا، وهذا هو الاسم الأكبر، والروح هو الاسم الأعظم الأول حقيقة الثاني، والثاني حقه، والاسم عين المُسمَّى، والباء الداخلة عليه في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1]، إما زائدة يتم المعنى مع حذفها فيكون اسم خبر مبتدأ محذوف تقديره: أنا، أو نحو هذا، أو للسبب، فالتقدير: أستفتح، أو أبتدئ، أو استفتاحي، أو ابتدائي، أو نحو هذا فكلٌ صحيح، فهو عين.

(الله): وجوده الإحاطي بعلمه وحياته.

(الرحمن): وجوده العقلي الروحاني.

(الرحيم): وجوده الفعلي النفساني، ومن خزائن الأول أفاض خلع المعارف، ومن خزائن الثاني أفاض خلع الحكم، ومن خزائن الثالث أفاض خلع الأحكام وفيضه، بيديه كشفه وبيانه على القوابل الفهمية تبيينًا، وعلى القوابل الفعلية تكوينًا، فعلم فكوَّن، فعلم فردُ الكون إلى أصله، فتأويل تكوينه في تنـزيل تبيينه، فمن نفر من حجابه الجاني سمعه وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:1، 2].

الفصل الثامن /

في مولد شيخي وسندي ومبدأ أمره

وما يتعلق بها

اعلم أن حضرة الشيخ الأجل الأكمل السيد عثمان بن السيد فتح الله - قدس سره - وأفاض عليه وعلى والديه بره وشرف معتقديه ومتابعيه بعلومه وأذواقه، وخلع على معتقديه ومشايعيه خلع شيمه وأخلاقه غني عن البيان في الديار الرومية بل وفي العرب مستغنٍ عن الوصف فيما بين العامة وخصوصًا عند أهل الطلب لنباهة شأنه وشهرته الشائعة الشاملة بما خصه الله تعالى به من العالمين بالكلمات التامات الكاملة، أين الياقوت حتى يكتب بحسن خطه جواهر ألفاظ الشيخ على صفحات الأخلاق لا على القراطيس والأوراق؟! أين الوصّاف حتى ينشئ بجودة قريحته مديح كماله وكمال مديحه في المجلدات الكبار إلى أن تنتهي الأوراق عند الوراق والألواح وجنات الأعيان في الأنفس والآفاق حتى يبقى على وجه الزمان صحف آياته ويُتلا بجميع الألسنة سور بيناته ويبقى الله، فإن الله باق بيده، رفع ذكر من أراد على الإطلاق ألم يقل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:4] بعد قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] فمن شرح الله صدره بأنواره وأسراره رفع ذكره على ألسنة أبراره وأحياه حياة طيبة بإبقاء الذكر والآثار وهو عمر ثان عند الحكماء في هذه الدار ثم ترجمة كل نوع من كماله تأتي في فصل منسوجة على منواله والمهم الآن بيان ما في عنوان هذا الفصل به وتحرير ما هو من مقدماته ومطالبه.

فاعلم أن حضرة الشيخ - روَّح الله روحه - ولد في قصبة من القصبات الرومية يقال لها: «شمني» بضم الشين وسكون الميم وكسر النون على مراحل ست من بلدة «أدرنة» دار السلطنة فيما يلي جانب النهر الشهير بـــ «طونه» بضم الطاء وسكون مع هاء الرسم في الآخر، وهو نهر كبير بقلعة «بلغراد»، ويتصل جانب منه بالبحر الأسود وتلك القصبة لطيفة الماء والهواء جدًا، كثيرة النعمة والبركات في الديار الرومية كالصرِّ في بلاد العرب وأهلها الأحباب والأقارب لا الأعداء والأجانب والعقارب؛ فإن الله تعالى جعل أرض الروم من القسطنطينية إلى أقصى الـــبلاد الإسلامية منها فيما بين البحرين

الأسود والأبيض ظاهرة من أهل الإنكار إلا قليلاً خالية من المتعصبين الذين لم يتخذوا مع الرسول سبيلاً أي: في طريق الحق مرشدًا ودليلاً، وهذه الطهارة فيها الغلبة اللطف والجمال الإلهي على أهاليها خصوصا على أهالي تلك القصبة اللطيفة، ويكفي شرفًا لها تامًّا أن تكون مولدًا لمثل حضرة الشيخ؛ فإنه آية من آيات الله الكبرى في هذه الدورة القمرية، وللأرض من كأس الكرام نصيب فارض الروم إشارة إلى الجمال لكونها مقر سلطان الإسلام حالا وذلك منذ ما فتح «القسطنطينة» و«أدرنة» إلى هذا الآن وهو زمان حضرة السلطان العظم أحمد خان الثاني من السلاطين العثمانيين - أيده الله تعالى - بالنفوس القدسية في جميع حضراته السفرية والحضرية وأمده في حركاته البرية والبحرية بالإمدادات الإلياسية والخضرية وجعل وزيره وزير خير لله ليدفع به ما توجه إليه من ضرٌ وكذا سائر وكلاء الموكول إليهم أمور الدين من العلماء والوزراء والأمراء أجمعين.

والسلطان إشارة إلى الروح وفيه كل لطف وجمال، ومن المقرر أن الإسلام في الدار التي توطن فيها السلطان وفي التي تليها من أطرافها في القوة بالنسبة إلى البلاد النائية؛ لأن فيها سر الخلافة وسر الولاية يدور مع سر الخلافة لمكان الإضافة في قوله ﷺ: **«السلطان ظل الله تعالى في أرضه يأوي إليه كل مظلوم»**[1].

وأما الديار المعروفة اليوم بـ «أناطول» من أرض الروم، فإشارة إلى الجلال لاختلاف الأهواء فيها بحيث لا يوصف ويكفي في كونها من أرض الجلال كثرة أهل الإنكار فيها ومقابلتهم بالطائفة الصوفية دائمًا لكن ماء الحياة إنما يوجد في الظلمات وأين اللطف من غير قهر هيهات فظن الخير ولا تسأل عن الخير فقد نبهتك يا خير أولاد لأبي البشر، وأما أرض العرب فإشارة إلى الكمال إذ هي جامعة بين الجمال والجلال محتوية لما يحتويه غيرها من الأقطار ويكفيها شرفًا مكة المكرمة وظهور خاتم النبيين ﷺ منها فإن مكة والكعبة بمرتبة الذات وتعينها ورسول الله ﷺ سرُّ تعين تلك الذات فهي إشارة إلى التعين الإلهي ولذا أمرنا باستقبال إليها فالتوجه في الصلاة إلى شطر المسجد الحرام وإن

---

(1) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (2494)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (17/6).

أي: ظل الحقيقة الإلهية؛ كالصورة المرئية في المرء، ولا شك أن الظل تابع لذي الظل، ومن ثم لم يفلح من السلاطين أحد إلا مَن بايع الخليفة فهم المبايعون فاعرف!

ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لذي ظل واحد، فانطبق المرآتان، واستبان سرُّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11].

كان إلى أين خاص في الصورة لكنه إلى جميع الأينيات في الحقيقة لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115] فالوجه الظاهر محصور في ذلك الأين الخاص والوجه الباطن متوجه إلى كل عين وأين، والأول أدب الشريعة، والثاني أدب الحقيقة، والعلم الأتم أن يكون الحضور عاما لجميع الحضرات وهذا بالنسبة إلى المظاهر والتعينات، وأما في التحقيق الذي هو سر الله التفريد فلا أين ولا بين ولا غين ولا عين؛ فافهم السر تخلص من العيب والشين.

وأما المدينة المشرفة فهي بمرتبة الصفة وتعينها والأصحاب رضوا بسرِّ تعين هذه الصفة فلما كان الذات مع الصفة أقوى من الذات وحدها كالبالغ الكامل في النشء فإنه أقوى من الطفل والصبي القريب إلى عالم الذات أيد الله تعالى رسوله بالأنصار في المدينة وقواه بنصره وبالمؤمنين فكانوا له عليه السلام كالصفات البالغة إلى حدِّ القوة والكمال في الوجود البشري، ومن هنا عرفت ضعف الإسلام في مكة وقوته في المدينة ولذا لم يتيسر الفتح المكي إلا بعد الهجرة وهذه التقوية إنما تكون في الأواخر دون الأوائل على ما عليه عادة الله تعالى غالبًا.

وقول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:80] يصرح عن ضعف القوة مطلقًا أي: أنفسية وآفاقية؛ فإن الله تعالى خلق الإنسان ضعيفًا ثم قواه بما قواه وقوة الحال لا تكفي في هذا الباب؛ فإن رسول الله ﷺ كان أشد من الكل في القوة القدسية ومع هذا منَّ الله عليه بتأييده بنصره بالمؤمنين، فاعرف مقتضى مقام الذات ومقام الصفات تعز بكمال المعرفة، ومن هنا يعرف كثرة وقوع الموت من الطاعون وغيره في الصبيان لأن أمزجتهم على غاية الضعف بالنسبة إلى الرجال البالغين ولا قدرة لهم على محافظة أبدانهم من الحرِّ والبرد وعفونة الهواء فيسري المرض سريعًا وفورًا ويختل الدماغ والكبد فيقع الانحلال ويتسارع الموت بالنظر الظاهر، وهذا إنما جاء من ضعف الحال صورة، وأما في الحقيقة فليس التأثير إلا من الله.

فإن قلت: هلا كان النبي ﷺ متصرفًا بالقوة القدسية غير محتاج إلى المعاونة الظاهرة؟ قلت: هذا لا يناسب هذه النشأة التي هي موطن الأسباب والحكمة مع أن الأنبياء – عليهم السلام – لقيامهم بالعبودية التامة واتصافهم بالفقر الكلي لا يتصرفون لأنفسهم في شيء بطريق خرق العادة بالعبودية إلا ما كان قليلاً بحسب المصلحة، ومن جملة كمالاتهم ومنن الله عليهم أن يرزقهم صحبة الأخيار الأقوياء يدفعون عنهم

ويحملون أثقالهم وينفذون أحكامهم وأقوالهم كما في «شرح القيصري».

ألا ترى أن سليمان عليه السلام كان قطب وقته ومتصرفًا في أنواع الخليقة وخليفة على العالم ومع هذا فوَّض أمر إتيان عرش بلقيس إلى وزيره آصف بن برخيا فظهر منه ما ظهر لا من سليمان عليه السلام.

وأقولُ: أنا أذب أيضًا عن شيخي وسندي بما أمكن لي من القدرة على التقرير والتحرير، وأثبتُ له في حقه ما يدل على كماله بعون الله الملك القدير؛ فإن لكل سالك خطوة مد، وما لا يدرك جله لا يترك كله وما لا يتيسر كثرة لا يهجر قلة.

ثم أقول: سمعت من حضرة الشيخ - روَّح الله روحه - أنه قال: حضرتُ بعض المجالس في بلدة شمنى التي هي مسقط رأسي وأنا ابن سبع عشرة فسمعت قوَّالا يقرأ شيئًا فأثر فيَّ بعض كلماته بحيث بكيت بلا اختيار مني ثم لما قمت من المنام أي: المجلس جئت إلى أبي وأمي فاستأذنت منهما في الخروج لطلب العلم، فأذن لي بعد توقف كثير وتعلل وفير، فشمرت عن ساق الاجتهاد، وجئت إلى دار السلطنة بلدة «أدرنة» وفيها شيخ مشهور بالكرامة والزلفى من الطريقة الجلوتية - بالجيم - يقال له: الشيخ إبراهيم فعمدت إلى خانقاه فأذن لي بالمكث هناك، فكنت أقوم في نصف الليل واشتغل بالذكر الجهري ولي صوت جوهري حتى الصباح فازدادت الحرارة في باطني، وكان الشيخ يخرج من بيته في أكثر الليالي ويجيء إلى جنبي في المسجد، ويقول لي وأنا مشتغل بالتوحيد بالحرارة القوية: أيها السيد أحرقتنا، ويكرره مرارًا ثم لما رأى عدم إقلاعي عن حالي وزيادة هيبتي وجلالي أراد أن يعوقني من كثرة الاشتغال ويربطني بسلسلة الاعتدال فكان يجللني بما أمكن من أسباب اللطف والجمال حتى أنجر الحال إلى أن يخرج لي من بيته وسادةً ولحافًا وفراشًا، وعيَّن لي خادمًا يهيئ أسباب البيتوتة ويخدمني، قال: وكنت عند غيبوبة الخادم عني أطوي الفراش وأرفعه وأضعه في زاوية من الحجرة؛ لأنه كان يغلب على خاطري أني لو شئت الاستراحة لكنت عند أبوي وإنما تركت الوطن واخترت الغربة وشدائدها؛ لأن أتعلم العلم، وأسلك طريق الحق وهو إنما يكمل بترك الراحات وهجر المباحات، فما معنى تركها في الوطن واختيارها في الغربة؟

قال: وساق الشيخ يومًا كلامًا فهمت منه أنه يريد أن يكلفني تزوج ابنته فلما عرفت أنه يوقعني في ورطة الابتلاء قبل حصول المراد وفهمت أنه ليس لي منه فيض لا من الظاهر ولا من الباطن سافرت إلى جانب القسطنطينية وأنا متحير في أمري طالب

لشيخ كامل ومرشد واصل أبايعه ويرشدني، فجئت إلى خانقاه الإسكداري فضل المتأخرين حضرة الشيخ الشهير بمحمود الهدائي الإسكداري - قدس سره الساري - وكان شيخ الزاوية إذ ذاك الشيخ مسعود ابن بنت حضرة الهدائي فقعدت عند الباب الخارج متفكرًا فخرج من الزاوية صوفي قد شاب شيبة الإسلام وكان ممن خدم حضرة الهدائي فلما رآني هناك متغير البشرة سأل عن حالي.

فقلت: جئت من بعض الديار الرومية أريد أن أبايع حضرة الشيخ مسعود وأكون مريدًا له، فقال: يا بني، إنه من المجاذيب والمجذوب لا يقدر على الإرشاد بل يحصل ذلك من أهل الفناء والبقاء، فإن شئت أذهب بك إلى من عنده بغيتك شريعة وطريقة، فقلت: لو فعلت لكنت أحييتني وأنت تحضر لي هذا الباب، فأخذ بيدي وجاء بي إلى حضرة الشيخ عبد الله الشهير بذاكر زاده من مشايخ الطريقة الجلوتية من خلفاء حضرة الشيخ أحمد المقعد الجالس بعد وفاة حضرة الهدائي مقامه في سجادته وخانقاه، وكان الشيخ عبد الله وقتئذ مقيمًا في داخل القسطنطينية، معروفًا بالفضل والكمال، مشهورًا بالمقام والحال مرجع العوام والخواص، مشهودًا له بكونه من أهل الاختصاص.

قال شيخي وسندي: كان ذلك الصوفي الأخذ بيدي الدال على الشيخ عبد الله من عنايات الله تعالى وأمداده من حيث لا يحتسب؛ فإنه مسح عن وجهي الغبار وشدَّ بي الرحل من إسكدار إلى حضرة الشيخ قدوة الأخيار مع طول الطريق بينهما وبين القسطنطينية من حيث البحر وانعدام المعارفة بيننا من قبل، لكن الله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، قال: فلما دخلت على الشيخ بذاكر زاده الذي كان أبوه ذاكرًا وقوَّالا في مجالس التوحيد لحضرة الهدائي، وتعلق نظري بوجه الشيخ عرفت أنه ليس بوجه كذاب وألهم إليَّ أنه الشيخ الذي أبتغيته وأن مقصودي لا يحصل إلا منه وكذا خطر ببالي الشيخ عندما فاجأني نظره كما نقله أنه قد جاء طالبًا صادقًا ومريدًا عاشقًا فبعد تقبيل اليد وعرض الحال أشار إليٍّ بالمكث في زاوية، وكان خانقاه إذ ذاك القبة المتصلة بالجامع الشهير بـــ «زيرك» - بفتح الزاي والراء وسكون الياء والكاف، قال: فارتفع الغبار من مرآة القلب واستضاء إلى مصباح الغيب وزال القلق والاضطراب وجاء الاطمئنان فدخلت حجرة من الحجرات الواقعة تحت تلك القبة فأخذت بالاشتغال سالمًا من العلق والاشتغال، وكان الشيخ لا يدرس من العلوم الظاهرة بل يعظه في الأسبوع مرة في يوم الثلاثاء في جامع السلطان محمد الفاتح - رحمه الله تعالى - ويجتمع له الناس بحيث لا يوصف وكان يتكلم

من الشرائع والأحكام ومن المعارف والحقائق ثم ينعقد حلقة التوحيد على الأسلوب الجلوتي وكان أفضل زمانه في تلك البلدة من كل وجه، قال: وكنت أتعلم العلم الظاهر من بعض علماء البلدة، وأتردد إليه في مكانه ومحلته المعروف باق سراي وكانت كثرة الاجتهاد والاشتغال بالتوحيد الجهري وتشديد الرياضة عليَّ أضعفتني وأزالت عني جهدي حتى كنت حين التردد إلى الأستاذ أقف مرارًا في الطريق فأستريح فأستمر على تلك الحال ثماني سنين وأنا في الذل والافتقار وهيئة الفناء وشعر رأسي منتشر والقمل في ثيابي داخل وخارج بحيث لا يذكر.

قال: وكنت أحرر ما فتح الله عليَّ من المعارف وأعرضه على الشيخ، فيقول: أيها السيد في كلامك مذاق حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - ويتعجب من تحريراتي في الأوراق الكثيرة يدعو لي ويفيض عليَّ بركات أنفاسه الرحمانية الطيبة ثم آل الأمر في أواخر عمره إلى أن أراد استخلافي فرجحت الإقامة عنده، وما قبلت الخلافة، فرأيت تلك الليلة في المنام حضرة الحق تعالى وهو يناولني مصحفًا، ويقول: خذ هذا وادع عبادي إلى جنابي، فاستيقظت مبهوتًا متحيرًا قد أخذني الهيمان والهيبة فجئت إلى الشيخ فقررت الواقعة فتبسم، وقال: ما قبلت الخلافة حتى أشير إليك من قبل الله تعالى فكان حالك معي حال الجنيد مع السري السقطي؛ فإنه كلفه الجنيد العظة والتذكير للناس وهو لم يقبل حتى أشير إليه تلك الليلة من طرف رسول الله ﷺ بالقبول يقول الفقير شرفه الله تعالى بفيضه الوفير في كون شيخي وسندي مأذونًا من عند الله تعالى لا مشارًا إليه من طرف رسول الله ﷺ مع كون إذنه إذن الله مع سرٍّ عظيم لا أذكره وأحيل فهمه على مذاق الخواص إذ علم أني لو ذكرته لما فهم الناس عليَّ ما أريده فيقع سوء العقيدة والاختلال؛ لأن فهم النواميس الحكمية ليس من قضية العقل الجزئي الدائر في أدمغة أكثر الناس ويكفي شرفًا للشيخ كونه مأذونًا من عند الله بدعوة خليفته إلى جنته وقربته ووصلته، وما فاز بهذه المرتبة إلا واحد بعد واحد من أكابر الأولياء - قدس الله أسرارهم، ومن هنا تلقب بالإلهي ثم بالفضلي المشار بهما إلى الذات والصفة والفناء والبقاء، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113] وهو الله تعالى العظيم الذي يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، وفي قوله: «ادع عبادي إلى جنابي» بشارة عظيمة لمن اعتقده واتبعه حق الاتباع إذ فيه تشريف الإضافة ولا شرف إلا في كون المرء عبدًا لله لا عبد الدنيا والنفس والهوى، وما سوى المولى ويدل على ما ذكرنا أن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو

إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس:25] بطي المدعو وهو جميع العباد عمومًا وخصوصًا ولم يطو هنا إرادة التخصيص، وإن عم الدعوة بكل فريق، فافهم.

ثم نرجع ونقول: قال شيخي وسندي: ولما تعين لي الخلافة من عند الله عين لي الشيخ قصبة أيدوس - بفتح الهمزة وسكون الياء وضم الدال - من القصبات الرومية على ثلاث مراحل من دار السلطنة «أدرنة» فيما يلي البحر الأسود على أن يكون المسافة بينهما مرحلة واحدة، وهي القصبة التي ولد فيها هذا الفقير لجامع هذه الكلمات العرفانية كما سيجيء في محله.

قال: فجئت إلى هذه القصبة بالإذن الصحيح والنفس الصريح، فمضت أيامٌ على حالي في الوعظ والتدريس والاشتغال بالتوحيد حتى وقع لي التجلي العلمي الذي لا يوصف حاله بالألسنة وهو كشف حجاب الكثرة عن وجه الوحدة وظهور نور الوحدة في الآفاق، ويأتي تفصيله في محله.

قال: ثم استأذنت من حضرة الشيخ الهجرة من تلك القصبة إلى غيرها مما هي أجمع منها وأبسط، فقال لي: كنت متحيرًا بعد وفاتي، وأما في حياتي فلا إذن للهجرة مما أنت فيها، قال: فأقمت بعد هذا القول ستة أشهر، فإذا لقي أي وصل خبر وفاة الشيخ - روَّح الله روحه - فقلت: إنا لله وبقيت مستقلاً في أمري؛ لأن جبريل المريد شيخه في حياته يعني: بتوقف كل أمره على مشاورته وإذنه ورأيه كما كان يقف رسول الله ﷺ في كل أمر عارض إلى أن يجيء الوحي الإلهي بواسطة جبريل، وأما بعد وفاته؛ فإنه ينظر إلى صدره ويستغني من قلبه ويعمل بما أشير إليه من الجانب الإلهي والحضرة النبوية.

قال: فهاجرت منها بعد أن أقمت فيها سنين وعزمت إلى بلدة فِلبة - بكسر الفاء - من البلاد الرومية، وهي خمس مراحل من دار السلطنة «أدرنة» في ممر بلدة «صوفيا» - بضم الصاد وسكون الفاء وتخفيف الياء المثناة - وتلك البلدة أعني: «فِلبة» منبت الأرز كمصر وهي بلدة كبيرة معروفة بالخصب والرخاء، قال: فأقمت فيها سنين وغلب على الحال فكنت لا أقدر القرار في دار من سطوتها وشدتها؛ لأنها كانت تستمر ستة أشهر وأكثر بحيث لا أفيق في تلك المدة وقتًا قليلاً إلا وكان الناس لا يتمالكون النظر إلى وجهي من غلبة الهيبة والسُّكر ويتوجهون إليَّ من الأقطار القريبة والبعيدة.

وفتح الله عليَّ في الظاهر والباطن ما لا يوصف، فنمت يومًا نومة الضحى، فإذا بثلاثمائة ولي من الأولياء الكبار قد ربطوا واسطي ومنطقتي بسلسلة وجروّني بتلك

السلسلة حتى وصلنا في زمان قليل إلى باب تحصن القسطنطينة، يعرف اليوم بباب «أدرنة» فدفعوني إلى الجانب الداخل وغابوا عني بأجمعهم فتوجهت وحيدًا إلى جانب جامع الفاتح قصدًا إلى أن أستمع إلى الشيخ الشهير بـــ «ذاكر زاده» فإنه كان يعظ في ذلك الجامع الشريف وينعقد له مجلس عظيم فلما وصلت إلى الباب الجواني وقدمت رجلي اليمنى من القبة فإذا حضرة الشيخ قد فرغ من الوعظ فلما رآني عند الباب وأنا على تلك الهيئة من كون رجلي اليمنى في الطرف الجواني من الباب ورجلي اليسرى في الجانب البراني تبسم وقال: يا بني! أقم في هذه البلدة في الجامع المعروف بجامع قول في الميدان الذي يباع فيه الخيل فغاب عني وسرت إلى نحو الجامع فرأيته والمحلة على التفصيل ثم استيقظت ورأيت أن الأمر تحول من الحال إلى الحال ورماني القضاء والقدر من دار إلى دار فتوضأت وصليت ما شاء الله ثم ما لبثت ساعة إلا أن خرجت إلى جانب القسطنطينة ماشيًا إذ كان الله قد قواني على سير الأقدام واستخلفت مقامي في مدينة فِلبة الشيخ محمد الكوسج وهو من أعلم خلفائه فدخلت القسطنطينة من الباب الذي أشير إلي في المنام وتوطنت في المقام الذي أراني الله إياه وسيأتي تفصيله في الفصل الآتي.

ثم إن من لطائف هذا الفصل أنه وقع فيه بيان اسم حضرة الشيخ، وهو مشتمل على لفظ "ثمان" والفصل هو الفصل الثامن وذلك بطريق الاتفاق ولله في كل شأن من الشؤون حكمة جليلة؛ فإنه الحكيم والهادي إلى الطريق المستقيم.

الفصل التاسع /

في توطن حضرة الشيخ في القسطنطينية وما يتعلق به

اعلم أن البلاد الثلاثة المعروفة الشهيرة بـ «أدرنة» و«بروسة» و«قسطنطينية» كل منها إشارة إلى مرتبة الروح ومقام الجمع الروحي وما عداها من البلاد والديار في النواحي والأقطار إشارة إلى مرتبة القلب ومقام الفرق القلبي، وذلك لأن تلك البلاد كانت دار السلطنة للملوك العثمانيين، ولا شكَّ أن أماكن الملوك لا تخلو عن الجمعية الكبرى؛ فإنهم في الآفاق بمنزلة الأرواح في الأنفس فكما أن الروح أعلى كعبًا من القوى التي ركبها الله في الإنسان وجملة ما في الوجود تابعة له فكذا السلطان أجل قدرًا من الرعايا التي بثها الله في أقطار الأرض وكلهم تابعون له فبشرف السلطان وجمعية يضاف إلى مكانه شرف وجمعية.

ألا ترى أن لمواطن الأنبياء والأولياء شرفًا عظيمًا ليس في غيرها، ولهذا يعظمونها ويزوروها ويتبركون بتربتها، وقد صح أن شرف المكان بالمكين فلو لم يمر عليه مكين شريف لما اكتسب المكان شرفًا أصلاً وذلك لأنه لا بدَّ للترجيح من سبب عام أو خاص، فالسبب العام هو السلطان الذي هو ظل الله والسبب الخاص هو المظهر للحقيقة الجامعة التي هي سر الحقيقة الإلهية، فظهر أن الروح والسلطان لهما جمعية ليست هي في غيرهما، فمن دخل دار الروح أمن من غوائل التفرقة ووجد الحضور والجمعية ومن دخل دار السلطان أي: بلدته وجد ما لم يجده في غيرها من أسباب المقاصد والأماني ورؤية الآثار الجامعة، ولذا رجح القسطنطينية على غيرها إذ هي بلدة جامعة لكل أمر وشأن، وليست هذه الجمعية في غيرها فهي روح البلاد في قوالبها وسلطان الأرض في أماكنها وممالكها قال إدريس عليه السلام: **«من سكن موضعًا ليس فيه سلطان قاهر وقاض عدل وطبيب عالم وسوق قائم ونهر جار فقد ضيع نفسه وأهله وماله وولده»**[1] والقسطنطينية جامعة لهذه الأمور كلها، وأما غيرها فليس بهذه المثابة غالبًا، ولذا جاءت ممدوحة، وأما قول الشاعر: [...][2]؛ فإنه بالنسبة إلى بلاد العجم وما في حواليها فشيراز بالنسبة إليها بمنزلة

---

(1) انظر: تفسير حقي (468/9).

(2) كلام غير عربي.

القسطنطينية بالنسبة إلى كل مملكة إسلامية؛ لأنها غالبة عليها، والحاصل أن القرى إشارة إلى مقام الفرق، ولذا لا يزال أهلها من التفرقة والقصبات إشارة إلى مقام الجمع ولذا لا يزال أهلها من الجمعية والمدن والبلاد المعظمة خصوصًا الثُلاثة المذكورة إشارة إلى مقام جمع الجمع ولأهلها جمعية كبرى ليست لغيرها؛ فمن هاجر من القرية إلى القصبة فقد تخلص من التفرقة بوجه، ومن هاجر من القصبة إلى المدينة الكبرى الحاوية لما ذكرنا فقد تخلص منها بكل وجه، وقس على هذا ديار المراتب الوجودية الإنسانية؛ فإن لبعضها تفاضلاً بالنسبة إلى البعض الآخر، فالطبيعة والنفس مقام التفرقة الكلية كالقرى المتفرقة لا يجد أهلها حضورًا ولا جمعية أصلاً، وإنما يمضي عمرهم في المحنة ومقاساة شدائد ومعاناة البلايا وكذا أرباب الطبيعة والنفس من التجار والصناع وأهل التدريس والقضاء وغيرهم، فإنهم يسعون طول نهارهم لتحصيل المعاش وغرضه فهم عبيد البطن والقضاء واللوازم.

قال عيسى عليه السلام: «تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة»[1] أي: هلك من قصر نظره على تحصيل هذه الأمور الثلاثة، ونبذ وراءها من أمور الآخرة وما يتقرب به إلى الله تعالى من أنواع القربات؛ فويلٌ لمن كان خادم الدنيا وعبدها لا عبد من خلقها، وجعل ما على الأرض زينة، وأما أهل القلب فهم كأهالي القصبات والكور الصغيرة ولهم برزخية كبرزخية أهل أعراف فهم على جمعية خاطر بالنسبة إلى الخاطر والطبيعة والنفوس وتفرقة حال بالنسبة إلى من فوقهم من الروح والسر وهذا بالنسبة إلى تعين القلب في نفسه لا باعتبار تخلصه عن هذا التعين؛ فإنه إذا تخلص عنه يمر على المراتب كلها من العلويات.

وإلى الحالة الأولى أشار قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13][2].

---

(1) كلام غير عربي.

(2) قال المصنف: قال الله سبحانه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ [الحديد:13]: أي بين أهل الجنة الذين هم أهل الروح والسرّ، وبين أهل النار الذين هم أهل النفس والطبيعة.

قال تعالى: ﴿بِسُورٍ﴾ [الحديد:13]: أي بحجاب القدرة.

قال تعالى: ﴿لَّهُ بَابٌ﴾ [الحديد:13]؛ هو باب القلب.

قال تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الحديد:13]؛ وهو الروح والسرُّ، وآثارهما وأنوارهما.

قال تعالى: ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ [الحديد:13]؛ وهو النفس والطبيعة وظلماتهما.

فباطن باب السور مظهرية اللطف والجمال وظاهر باب السور مظهرية القهر والجلال.

=

قال تعالى: ﴿مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:13] أي: الجلال؛ لأنه كما أن الرحمة من قبيل الجمال؛ فكذا العذاب الذي هو الغضب من قبيل الجلال، وجعل الروح والسر من جانب الباطن؛ لأنهما يليان عالم الملكوت واللاهوت، والنفس والطبيعة من جانب الظاهر؛ لأنهما تليّان عالم الملك والناسوت.

ولا شك أن الملكوت باطن الملك كما أشار إليه قوله: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: 88]، فهو بمنـــزلة الروح من الجسد، فكما أن الجسد مرآة الروح؛ فكذا الملك مرآة الملكوت، إذ لا يقبل المجرّدات الصور في نفسها؛ لعدم تحيُّزها؛ وإنما تحيُّزها تابع لتحيُّز المتحيِّزات فلا تُقبل الرؤية إلا من المرآة، وكذا اللاهوت والناسوت، فعلم أن القلب كالأعراف في كونه برزخًا بين ما فوقه، وما تحته، وله حظ من كل منهما؛ ولذا جعل جامعًا للضدّين، وأفضل من كل من الطرفين.

والكامل إنما يدخل الجنة باعتبار الطرف الفوقاني لا باعتبار الطرف التحتاني؛ فإن طرف التحتاني قدم الجبار، فيُوضع الأول في الجنة، والثاني في النار، فهو في الدنيا نفس وطبيعة في الظاهر، وروح وسرٌ في الباطن، وفي الآخرة روح وسرٌ في الظاهر، والباطن جميعًا ليس معه نفس وطبيعة؛ لأنهما قد بقيتا في الدنيا بعد التزكية، والتي يُعبر عنها بالقدم؛ هي صورتهما الممثّلة في الآخرة، ولا تُعلّق لهما بالجنة[2].

واعلم أن الإنسان الكامل ظاهره باطن الكافر، وباطنه ظاهره، وذلك أن ظاهره هو اللطف والجمال، وباطنه هو القهر والجلال، وقد كان حال الكافر في الظاهر؛ هو الجلال الباطن في الإنسان الكامل، كما إن حال الإنسان الكامل في الظاهر؛ هو الجمال الباطن في الكافر، فظاهر الكافر من قبله العذاب، وباطنه فيه الرحمة؛ فيكون الإنسان مظاهره وباطنه مرحومًا إن كان مؤمنًا؛ لأنه لا أثر للجلال الباطن في الظاهر؛ لأنه مطروح في المآل كما سبق، أو بباطنه مرحومًا فقط إن كان خلافه؛ لأنه لا أثر للجلال الظاهر في الباطن أيضًا.

وإنما قلنا: إن باطن الإنسان الكامل؛ هو القهر والجلال؛ لأنه وإن كان مُزكّي من الصفات بالرؤية لكن النفس أمّارة بالسوء، ولو بالقوة، وإلا لبطل التكليف، ولمّا حصل الترقّي إلى أن يأتي اليقين، فالاعتبار بالقوة لا يستدعي الحقيقة بالفعل، وقد غفل عنه أكثر السالكين؛ بل أغلب المكاشفين.

فظنوا أن سلوك الأنبياء، وأكمل الأولياء من النفس الراضية المرضية الصافية، فإن هذا السلوك لا ينافي أمارية النفس في الحقيقة؛ لأن الكلام في الفعل لا في القوة، ولم يظهر من الأنبياء آثار الجلال بالفعل؛ فهم كالملائكة في صورة البشر، ويدلُ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:24]. وقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53].

وقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:33]، فاعرف هذه الجملة، والله أرحم الراحمين، وبيده نواصي العباد أجمعين. وانظر: مرآة الحقائق (ص 403).

وتحقيق المقام: إن جهنم مقام أهل الطبيعة والنفس يعني: أنها مظهر قدم الجلال والجنة مقام أهل الروح والسر يعني: أنها مظهر قدم الجلال والجنة مقام أهل الروح والسر يعني أنها مظهر قدم الجمال والأعراف مقام أهل القلب لمناسبة بينهما من حيث إن الأعراف مقام بين الجنة والنار كما أن القلب برزخ بين الطبيعة والنفس وبين الروح والسر، وإليها الإشارة بالمرأة والرجل، فإن المرأة إشارة إلى مقام الطبيعة والنفس، والرجل إشارة إلى مقام الروح والسر، ولذا لما دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وعليّ رضي الله عنهما صبيحة ليلة الزفاف قبل أن يقوما من الفراش، أدخل رجله اليسرى إلى جانب فاطمة في الفراش، واليمنى إلى جانب علي، وللإنسان الكامل قدمان: قدم الجلال وقدم الجمال وبالأولى تمتلئ جهنم، وبالثانية تمتلئ الجنة، فله نشأة جنانية روحانية ودنيوية جسمانية وهو لا يدخل الجنة إلا بمرتبة الروح والسر فيبقي صورته الطبيعية والنفسية المتعلقة بنشأته العنصرية فيجلو الله سبحانه بهذه القبة البقية يعني: يظهر مظاهر جلالية منها فيملؤها بها حتى تقول: قط قط! أي: حسبي حسبي فما دام هذا التجلي من الإنسان الكامل لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ وهو المراد بقدم الجبار في قوله ﷺ: «**إن جهنم لا تزال تقول: هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه، فإذا وضع الجبار قدمه فيها ينـــزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط**»[1] فانظر إلى حسن موقع لفظ الجبار واجتهد حتى لا تقع تحت حكم اسم القهار وإلى ما ذكرنا من التفصيل أشار الشيخ الكبير - قدس سره - في الفكوك بقوله: «وأخبرت من جانب الحق أن القدم الموضوع في جهنم هو الباقي في هذا العالم من صور الكُمَّل مما لا يصحبهم في النشأة الجنانية، وكنى عن ذلك الباقي بالقدم لمناسبة شريفة لطيفة؛ فإن القدم من الإنسان آخر أعضائه صورة، فكذلك نفس صورته العنصرية آخر أعضاء مطلق الصورة الإنسانية، في صور العالم بأجمعها كالأعضاء لمطلق صورة الحقيقة الإنسانية، وهذه النشأة آخر صورة ظهرت منها الحقيقة الإنسانية وبها قامت الصور كلها التي قلت أنها كالأعضاء».

وقال أيضًا: إن الجنة لا تسع إنسانًا كاملاً وإنما تكون منه الجنة ما يناسب الجنة وفي كل عالم مما يناسب ذلك العالم وما يستدعيه ذلك العالم من الحق من حيث ما في ذلك العالم من الإنسان.

(1) رواه البخاري (4472)، ومسلم (5082).

بل أقول: ولو خلت جهنم منه لم تبق وبه امتلأت، وإليه الإشارة بقدم الجبار المذكورة في الحديث انتهى كلامه.

وكما أن صور العالم كلها يحفظها الصورة الإنسانية فكذلك حقائقه يحفظها الحقيقة الإنسانية ومن صور العالم الممالك ويحفظها السلطان الذي هو ظل الحقيقة الإلهية لكن الجمعية في الذي اتخذه دارًا أكثر وأقوى من غيره كما أن الجوامع التي بناها الملوك أوسع إشارةً إلى طلب الإنسان الكامل، فافهم المراتب.

فلما كمل تربية حضرة الشيخ في عالم الفرق ومظاهره وأخذ كل جزء منه حظه بالنسبة إلى صورة نشأته اصطفاه الله لنفسه في مقام جمعه وجعل داره دار القسطنطينية الجامعة تحقيقًا لمعنى الجمعية في وجوده الشريف وتكميلاً لنفسه الكريمة بما يناسبه ذلك المقام الجمعي وأرشد به السلطان وأتباعه كما أرشد به أولاً من كان بمنـــزلة قوى ذلك السلطان فشابه حاله حال التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة إذ السير في عالم الذات إنما هو بعد السير في عالم الأفعال والصفات.

ألا ترى أن خارج الميقات إشارة إلى عالم الآثار وداخله إلى العمر إشارة إلى عالم الذات، والكعبة إشارة إلى تعين اسم الله فهي مرتبة الألوهية والواصل إلى سرها يتخلص من الفرق والقيد ويتشرف بالجمع والإطلاق، ألا ترى أن من كان داخل الحرم فهو إلى أي جهة توجه من الجهات الأربع لحضرة الكعبة أصاب جهة الحنفي والشافعي أو المالكي أو الحنبلي بخلاف من كان خارجه فإنه يتوجه من جانب واحد لا غير لأنه في عالم الفرق فله التقيد، وقيل لمن كان داخل الحرم أي: في عالم الجمع والإطلاق ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115].

ومن وجد الكعبة فقد وجد الجهات كلها كما أن من وجد السلطان، فقد وجد الممالك كلها، ومن وجد القسطنطينية فقد وجد كل الصيد في جوف الفراء، وسمعت من حضرة الشيخ – روَّح الله روحه – أنه قال: لما دخلت القسطنطينية على ما أشير إليَّ من طرق الغيب كما سبق في الفصل الثامن.

جئت إلى جامع «قولة» فلازمت حريمه أيامًا ثم فتح الله عليَّ دارًا ضيقة صغيرة قرب الجامع المذكور، فتوطنت فيها سنين مع العيال على الفقر التام، وبنى بعض الناس حجرات في حريم الجامع وكنت أدرس الفقراء من العوام وأجلس مجلس الوعظ في جامع الفاتح كما كان شيخي يعظ فه فيذكر الناس أقول جامع "قولة" بناه محمد باشا وزير

السلطان محمد الفاتح وقبره في حريمه ولكن حجم الجامع صغير لما أنه كان أسس في أوائل الفتح عجالةً لإقامة الشرائع والشعائر الدينية، فاعرف سرَّ نزول حضرة الشيخ فيه حتى لا يخفى عليك.

قال: ثم سلم إلى القبة المتصلة بالجامع الشهير بزيرك وتُعرف اليوم بخانقاه زيرك فكان بعض الفقراء يسكن فيها وبعضهم في حريم الجامع قول أقول القبة المذكورة كانت مدرسة في أوائل الفتح ثم انتقلت إلى حضرة الشيخ الإلهي المدفون في القصبة الشهيرة بكيجة وأردار من القصبات الرومية؛ فإنه كان سكن في محلة زيرك وكان الفقراء يسكنون في الحجرات الواقعة في تلك القبة ويجتمعون للذكر في داخل الجامع وكان رجلاً كاملاً في الفنون عارفًا بالمراتب واصلاً إلى أعلى المطالب، ولما كان عتبة لفردهم الوجوه ومرجع الأعيان والأكابر بل من ازدحامهم وترددهم إلى جنابه فهاجر من القسطنطينية إلى القصبة الواردارية طلبًا للوحدة ظاهرًا وباطنًا فانتقلت القبة المذكورة بعده إلى غيره ثم وثم إلى أن انتهت النوبة إلى حضرة الشيخ الشهير بذاكر زاده وهو شيخ حضرة شيخي وسندي - روح الله روحهما - ثم انتهت إلى حضرة الشيخ وذلك لأن بقاع الكبار كبار البقاع وخلاصة أماكن هذه الدار فكما لا تخلو الأرض مطلقًا من الإنسان الكامل ولو بعد حين لأنه روح قوالب العالم حجة فضلاً عن الأرض فحصل لك من هذا أن عموم الأرض كعموم الإنسان وخصوصها كخصوصه، وقد جعل الله الطيبين للطيبات والطيبات للطيبين كما جعل الخبيثين للخبيثات والخبيثات للخبيثين، ولأمر ما جعل الله بعض الأماكن خاليًا عن أهل التوحيد الحقاني وآثارهم الجليلة كالجوز الخالي عن اللب وبعضها مملوءا بهم كالصدفة المملوءة الكبيرة الغالية القيمة، ومن ذلك بلدة «أدرنة» و«قسطنطينية» و«بروسة» و«قونية» ونحوها الواقعة في أرض الروم.

وأما البلاد العربية فخارجة عن الوصف لأنها أماكن الأنبياء - عليهم السلام - فإن قلت: قد جئت بكلام جديد يحوي معنًى قديمًا فأين هم في هذا الزمان في البلاد التي ادعيتهم فيها؟ قلت: شهدت آثارهم بوجودهم ويكفي في بقاء الوجود بقاء الآثار وما أدراك لعل الله تعالى جعل فيها أولياء أخفياء؛ فإن الله تعالى يقول: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[1] فإن كنت كشفت عن وجه حقيقتك جلباب الغيرة عرفتهم بل رأيتهم،

---

(1) انظر: «التعاريف» للمناوي (676/1)، و«التعريفات» لعلي الجرجاني (295/1).

فإن قلت: من أين عرفت خلو بعض الأماكن عن أهل الولاية مع خفاء هذا الأمر؟ قلت: من انعدام الآثار فإن الأرض السبخة لا تنبت شيئًا كما أشعر بجلية الحال قوله في «المثنوي»: [...][1] فإن لم تنبت فذاك، وإن أنبتت فقوتها وقدرها بقدر نباتها وقدره؛ فليس في قدر الشوك كالورد والعلقم كالنخل ولو شئت لأبديت لك غريب البيان لكن الستر أولى.

وكان حضرة الشيخ على قلة ذات اليد في أوائل حاله بعد الهجرة إلى القسطنطينية حتى أخذ مرة الجزء الأخير من القرآن بخط الخطاط الشهير درويش علي، وكان وقتئذ في الحياة مشهورًا في الآفاق، بارعًا على الكل في الخط النسخي الذي هو أصل الخط فقلده فباع بأربعين درهما ثم قلده مرة أخرى فباع بثمانين ثم قلده فباع بمائة وعشرين ثم جاء الفتح واندفع الضرورة فترك الكتابة ففيه إن كان مستغنيًا عن الكل لا يفشي سره إلى أحد ولا يعرض حاجته على أحد سوى الله تعالى، وإن كان مستعدًا في كل فن ومعرفة جدًّا.

ألا ترى إلى قوة تقليده الكتابة كيف جاء الجزء الثاني والثالث أجود خطًّا من الأول بحيث فاق في اليومين على الأجهد في المشق عامين، وإنما قلنا بأصالة نسخ الخط لأنه مستخرج من الخط العربي الكوفي وبينهما شبه بخلاف ما سمي تعليقًا، وكان حضرة الشيخ يكتب المكاتيب إلى الخلفاء والأحباب بالنسخ عملاً بأصالته، ولأن القرآن يكتب غالبًا لا بغيره وفي الاقتداء بخط القرآن يمن وبركة كما أن في العمل به خيرًا وسعادةً.

قال حضرة الشيخ: كان لأهل الإنكار هجوم وغلبة في أوائل حالي حين كنت في القسطنطينية وكنت أشد النكير إذ كان لي حرارة عظيمة في باطني وغلبة حال مع الله تعالى وكان مقتضى ذلك بسط الكلام من كل وجه فاتفق أن دعاني المفتي يحيى الشهير بـ«ابن المنقاري» وبعض المشاهير من الوعاظ لأجل الامتحان في العلم فلم أجب ولكن كتبت بعض المعارف على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ [البقرة: 30] وأرسلته إليه فوقع في قلبه شيء من عدم إجابتي له ووقع في قلبي أيضًا أن أكتب شيئًا من المعارف للصدرين والصدر الأعظم وكان ذلك إلهامًا من الله تعالى وفقيًا وأمرًا مبرمًا حيث اقتضت الداعية القوية إن أكتبه فكتبت لكل واحد منهم مكتوبًا مشحونًا باللطائف والمعارف على ما ألقي في روعي وكان الصدر الأعظم يومئذ

---

(1) كلام غير عربي.

أحمد باشا ابن الوزير الشهير بـ «كوبريلي»، وكان بارعًا في العلوم فائقًا في الفنون فلما قرأ مكتوبي استدعاني فأجبته فلما وقع الصحبة واحتظ من مجالستي، قال: أيها السيد الجليل مثلك في هذه البلدة وأنا لا أعرفه ولا أصحبه لا والله ﷺ هذا ليس بلائق فينبغي أن يكون بيننا تعارف وصحبة وانبساط ونرجو منكم أن تشرفونا بالقدوم إلى هنا في بعض الأحيان لنستضيء من أنواركم ونغتنم بمغانم آثاركم.

قال حضرة الشيخ: ثم ودعته راجعًا إلى مقامي فإذا واحد من خواصه معه دنانير كثيرة قد أهداها إلى الوزير فأردت ألا أقبلها فألح عليَّ إلحاحًا ملحًا فوقع في نفسي أن طريقتنا هذه لا سلب فيها ولا جلب وقد تقرر عند السلف وجوب قبول صلة السلطان إذ هي حق العلماء من بيت المال فقبلتها وكنت إلى ذلك الوقت لم يتقدم صحبتي بالوزراء إلا ما كان بابن الوزير محمد الشهير بـ «كوبريلي» فإنه اتفق لي مرة صحبته معه ومرة بإرسال المكتوب إليه، أما الأولى فإنه لما استخلفني بنسخي في قصبة أبدوس كما سبق وكان هناك وعظية ومشيخة استدعى الحال الامتحان عند الوزير لأجل البراة وكان له معلم متفنن من السادات فكلفني بالقراءة من شرح العقائد لسعد الدين التفتازاني، وذلك عند الوزير فقرأت فقرات من بعض المحل بلا توقف وتكلف فجاء مقبولاً عندهما فأمر بالبراءة فعدت إلى مكاني.

وأما الثانية فإنه لما ساقني التقدير من قصبة أبدوس إلى مدينة فلبة وكان ما كان من إقبال الناس وازدحامهم خصوصًا في مجلس الوعظ والتذكير حسدني بعض علماء البلدة، فأرادوا أن يرفعوني من البين لتخلو لهم البلدة ويستريحوا من الألم ويتخلصوا مما في قلوبهم من المرض والغرض مع أن الله تعالى قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8] فهم مظاهر النفس والهوى ولا بدَّ لهما أن يسعيا في إبطال نور القلب وإطفائه وإسقاط أهل هذا النور عن أعين الخلق بما أمكن لهما من الحيل والتدبير لكن لا يكون لهما ما يريدان بل الله يفعل ما يريد ويمحو ويثبت.

فليلة جمعة دخلت حجرتي وذلك بعد مجلس التوحيد بعد العشاء الأخيرة إذ جاء رجل من أهل البلدة؛ فقال: اجتمع الآن علماء البلدة في المحكمة فأرسلني القاضي إليك بإلحاحهم فهم يريدون أن تخرج هذه الساعة من الليل من البلدة وتذهب إلى حيث شئت فإن فعلت وإلا فضحوك بل قتلوك، فقلت كما قال جار الله: إن قومي تجمعوا وبنقصي تحدثوا لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنث، قال: فما تحرك خاطري أصلاً، وقلت للسفير:

ارجع، فإن أزمة الأمور بيد الله والله ينصر من يشاء ثم أخذني النعاس كما أخذ أصحاب أحد، وأنزل الله سكينته فنمت وقمت بعد نصف الليل على ما هو ديدني، فلما صليت التهجد وجدت عندي كاغدة قسطنطينية كبيرة عريضة، فكتبت عليها ما أطلعني الله عليه من المعارف وأفاض عليَّ من فتوح الوقت ثم عددت سطوره فوجدتها مائة وعشرين سطرًا طويلاً جدًّا ليس فيها شائبة شكاية أصلاً ثم لما أصبحت أرسلت الكاغدة إلى العلماء وهم ركود خمود، وقلت: إني أريد أن أرسل هذا المكتوب إلى الوزير فلينظر فيه العلماء حتى لا يقعوا في الوهم؛ فإنه ليس فيه شيء من الشكاية فلما نظروا فيه أنصفوا وتفرقوا من بعد ما اجتمعوا وأرسلت المكتوب إلى الوزير محمد الشهير بـــ «كوبريلي» ومضى على هذا زمان ليس لي فيه منازع ولا مكابر حتى فشا والضرائب بينهم وهالكون على أن يكون كل منهم وموطأ العقب دون غيره من الأجانب غفلوا عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾ [القصص:83] وهكذا أصحاب النفوس المتمردة الشريرة مع أرباب النفوس المطيعة الخيرة؛ فإن الأولين أرادوا التصرف في الأرض كالفراعنة والجبابرة والأكاسرة، وقصدوا الاستعلاء على البلاد والعباد فآل عز مالكيتهم إلى ذل المملوكية حيث قهرهم الله قهر العبيد الأبقين فلم يكونوا على طائل لا من الدنيا ولا من الآخرة، وإن الآخرين تركوا التصرف إلى الله تعالى، وعرفوا أن العلي بالذات هو لا غيره فنصبوا نفوسهم في ميدان العبودية وعبدوه بالذل والافتقار.

فآل ذل مملوكيتهم إلى عز المالكية حيث إن الله تعالى ملكهم الدنيا والآخرة وجعل عبيده في الملك والملكوت تحت تسخيرهم والعاقبة للمتقين بحقيقة التقوى كالأنبياء والأولياء لا بصورته كالعلماء الحساد، والله تعالى ﴿لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ [يوسف:52] أي: لا يتمه ولا ينفذه بل يبطله.

قال: ولما اشتد الأمر وحمي الوطيس وأرادوا الافتراء والبهتان والعرض على الوزير والسلطان خرجت من بينهم على قدم التجرد، فأتيت القسطنطينة وكان بيني وبين الفتى محمد الشهير باسيري مناسبة سابقة حين كان قاضيًا ببلدة فِلبة فألقي في قلبي زيارته فأتيته وعلى رأسي ما يقال له بالفارسية: «كلاه» وعليَّ خرقة وعباءة فلما رآني على رثاثة الهيئة عض على يديه تعجبًا، وقال: ما الحال أيها السيد الجليل، وما هذه الهيئة؟ فقلت: أريد السياحة في الأرض على قدم التجرد ولباس الذل فأنكر، وقال: لعل حساد البلدة

أزعجوك، فلما رأيت تفطنه في ذلك قررت ما جرى بيني وبينهم فكتب على الفور بخط يده مكتوبًا إلى قاضي بلدة «فِلبة»: أيها القاضي إذا أتاك كتابي هذا فافتح عينيك وأدب الحساد تأديبًا بليغًا وعزر الأشرار تعزيرًا شديدًا وامنع الوعاظ من الجلوس من مجلس الوعظ واحبسهم في بيوتهم حتى لا يخرج أحد منهم إلى الآخرة ليكون تلك التفرقة جزاءً وفاقًا لجمعيتهم لإيقاظ الفتنة؛ فإن أنت فعلت هذا وإلا عزلتك ونصبت مكانك من يقوم بما ذكرت.

قال حضرة الشيخ: ولما وصل مكتوب شيخ الإسلام إلى القاضي دعا الحساد على الفور وفعل ما فعل من الزجر والتشديد بحث لا يوصف.

وقال المفتي: أيها السيد ارجع مكانك، فإني قد كفيتك مؤنتهم والله الكافي بوساطة مظاهر الأخيار قال الله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:137] أي: شر مما في النفوس والهوى، فلا تلتفت إليهم، قال: قعدت على مكاني سالمًا.

وكان حضرة الشيخ كثيرًا ما يمدح المفتي الأسيري وجرأته وحسن حاله وخفض جناحه للمؤمنين لا سيما كان يمدح إصغاءه إلى فقراء الناس بخلاف المفتين في هذا العصر؛ فإنهم إذا كتبوا لا يزيد مكاتيبهم على سطرين ويكتب لهم الكتاب لا أنفسهم في عموم القضايا وخصوصها وأنهم إذا رأوا في أبوابهم فقيرًا يعرض حاجته يعرضون عنه، وإن كان عالمًا نحريرًا.

يقول الفقير: وقد ابتليت بهذا مرة فإنه أراد حساد الإسكوب أن يخرجوني من البلدة فانشأوا عرضًا محضرًا وأرسلوها إلى السلطان والوزير والمفتي، فجئت إلى المفتي عليٍّ الشهير بابن الشيخ وذلك بإذن حضرة الشيخ وإشارته وفي يدي مكتوب عربي قد أنشأته فأبى عتوه واستكباره عن قراءته ومطالعته إلى آخره، وسيأتي تحرير هذه القصة في محلها وسمعت من في حضرة الشيخ - روح الله روحه - أنه قال: لما وقع التوطن في القسطنطينية ومضى سنون، وأنا في بيت ضيق بحيث لا يوصف فتح الله عليَّ شيئًا من الدنيا فادخرته بملاحظة أن أشتري به دارًا واسعة وكان بيني وبين نقيب الأشراف الشهير بـ«قدسي زاده» أخوة تامة قديمة، فاستدعاني يومًا وشاورني في أمر السكنى، وكان موضع داري الآن عرصة خالية يركض فيها الفراسون خيولهم التي يعرضونها على المشترين وفيها بعض القبور من قديم وكانت تلك العرصة في يد النقيب المذكور ففوضها

إليَّ فشرعت في البناء الجديد على مقتضى قوله ﷺ: «عليكم بالأبكار»[1] مع التأسي بفعله؛ لأنه ﷺ حين هاجر إلى المدينة بنى الحجرات للأزواج المطهرة، وكان الأصحاب ﷺ ينقلون الأحجار ويعينون في ذلك، ومن هنا أخذ المشايخ في بناء الخانقاه، والبيت جديد كما فعله حضرة الشيخ اقتاده - قدس سره - في «بروسة»، وحضرة الهدائي - قدس سره - في الإسكداري وغيرهما من المشايخ الكبار في جميع الأقطار، قال: فلم يكف ما ادخرته من المال بل زاد المصرف عليَّ بأضعاف فصرت مديونًا حتى قضى الله عني ذلك الدين بعد سنين.

أقول: هذه الدار الموصوفة له - قدس سره - هي ما كانت في سوق الفراسين عند رأس سوق السياطين وينتهي طرف منها إلى الجدار المعروف بكمراي في اللسان الفارسي والتركي وعند بابها عين ماء جارية ينتفع بها العامة وهي شعبة من الماء الذي في داخل دار الشيخ أحدثها وأجراها بعض مريديه من أركان الدولة العثمانية وخواصها وكان من خواص حضرة الشيخ أيضًا، وهو عليّ أفندي صاحب الدفتر السلطاني وذلك أنه اشترى بماله الحلال الطيب حصة ماء فأجراها في مجرى الماء المنسوب إلى حضرة السلطان سليمان - برد الله مضجعه - ويعرف اليوم بماكمر كما أشير إليه آنفًا ثم أفرز ذلك الشرب عند مجتازه بقرب الدار، وإنما قلنا بماله الحلال لأن أموال أهل العرف على أنواع فما لم يكن رشوة أو مغصوبًا أو مقرونًا تحصيله بعنف السلطنة وجورها كما يفعله المحصلون في هذا الزمان ونحوه كان حلالاً، ومعلوم أن أموال أهل السلطنة ليست بحذافيرها من قبيل الحرام بل لهم أموال تجلب وتجمع من طريق خاص حلالاً كما إذا كان الضياع والعقار ونحوهما ولذا قالوا: إن أموال السلطنة ليس فيها زكاة لأنها حق الفقراء والغزاة ونحوهم بخلاف الأموال التي هي ملكهم بطريق شرعي؛ فإن فيها الزكاة على السلطان ومن يليه، وقد قال الإمام الغزالي - قدس سره - في «المنهاج»: إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر فلا حرج عليك في قبول صلته وصدقته، ولا يلزمك البحث بأن تقول: قد فسد الزمان؛ فإن هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم بل حسن الظن مأمور به انتهى.

وقال بعضهم ما معناه: إن مسجدًا أو مدرسةً أو خانقاه بناه الولاة والملوك يجوز

(1) رواه ابن ماجه في سننه (1851)، والبيهقي في «الكبرى» (81/7).

السكون فيها، والعجب من بعض المتزهدة أنهم شاهدوا العلماء والمشايخ قد سكنوا المدارس والخانقاهات التي بناها الحكام ومع ذلك ينكرون، وقد كشفنا عنك غطاءك وأزلنا غشاوتك ونبذناها وراءك فلا تكن بعد هذا ممن أضله الله على علم فضلٍ عن طريق الهدى وخَبَطَ خبط عشواء، ثم إن للدار الموصوفة المذكورة بيوتًا فوقانية وبيوتًا تحتانية وفيها حمام ومحوطة يسيرة، وقد جمع حضرة الشيخ فيها بين أربع منكوحات وجوارٍ سراري تأسيًا برسول الله ﷺ في كثرة النكاح؛ فإنه ﷺ قال: «**حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وقرة عيني في الصلاة**»[1].

(1) رواه أحمد في مسنده (11845)، والنسائي (3878).

وقال الشيخ المصنف في شرحه: أي بالتحبيب الإلهي؛ ولذا لم يقل: أحببت؛ لأنه شيء عن حب اختياري، وذلك غير مقبول.

ومن هذا المقام قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:32]؛ إذ العدل لا يجري في غير الاختياري، والله يفعل ما يشاء.

(من دنياكم): أي الأمور الحاصلة في دنياكم، فحصل الجواب عما قيل: من أن الثالثة -وهي الصلاة- ليست من الدنيا، وسيتضح في محله، وأضيف الدنيا إلى ضمير المخاطب؛ إشارة إلى أن النبي ﷺ ليس من الدنيا في الحقيقة؛ بل تربة طاهرة مأخوذة من تراب الجنة.

ومَن لم يكن من الدنيا؛ فلا تعلُّق له بالدنيا إلا قدر ما أمر الله بالتعلُّق به؛ وهو تعلُّق حقيقي لا يكون إلا بالله، لا تعلق نفسَّاني، فظهر أن الدنيا صورة الآخرة لمَن هو من أهل الآخرة، فلا يضر التعلُّق بها إذا كان معه تعالى.

(ثلاث) أنثها باعتبار أن أكثر المعدودات مؤنث، أو باعتبار الدنيا ونحو ذلك.

وبما فسرنا قوله: من دنياكم خرج الجواب عمَّا ذهب إليه الزركشي ونحوه: من أن لفظ ثلاث ليس من الحديث، وزيادته مخلَّة بالمعنى؛ فإن الصلاة ليست من الدنيا؛ كالنساء والطيب؛ هو ما له رائحة طيبة، وإنما حبب الطيب إليه ﷺ؛ لأن فيه ذوق الأنس والمفاخرة؛ وهو حظ الروح، وظهر منه أن غير الطيب حظ النفس، والأنبياء والأولياء معصومون محفوظون عمَّا لا يستطاب؛ لأن نفوسهم طيبة طاهرة؛ ولذا كانت الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، فطوبى للطيبين، والغبطة لأخلاقهم الطيبة، وويلٌ للخبيثين والنفرة عن أوصافهم الذميمة.

وجه التحبيب في النساء: إن فيهنَّ ذوق القربة والوصلة، وإن كُنَّ من حيث الظاهر حظ الجسم، فما كل ما هو من حظ الجسم ساقطًا عن درجة الاعتبار بالنسبة إلى الأرواح العالية، فربما يكون للشيء وجهان يختلف باعتبارهما.

ألا ترى أن الله تعالى جعل النساء من الشهوات في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران:14]، وقدمهنَّ على ما عداهنَّ؛ لأنهنَّ من شهوات نفسانية بالنسبة إلى

النفوس الخبيثة، وشهوات حقانية بالنسبة إلى النفوس الطيبة.

لأن يُقال: نور المحبة، ثم نار العشق، ثم حرارة الشهوة؛ فيه إشارة إلى أن حقيقة حرارة الشهوة الحقانية؛ إنما تظهر بعد ظهور نار العشق الحقيقي، فمَن لم يكن عاشقًا؛ لم يكن أهل شهوة حقيقية.

ولا شك أن نبينا ﷺ رئيس المحبين، وسلطان العاشقين؛ ولذا أعطاه الله قوة أربعين نبيًا، ولذا كان لا يشبع من النساء على ما ورد في بعض الأحاديث.

ومن عجائب المقام: إن حروف النساء حروف الناس، فزين أحدهما للآخر؛ لأنه ليس هنا إلا ذكورة وأُنوثة ونتيجة، والأنوثة مستنبطة من الذكورة، كما أن النتيجة مستفادة منهما، والشيء يحنّ إلى جزئه وجنسه لا محالة، فإذا كان التزيين من الله من حيث اسمه الجميل؛ كانت الشهوة حقيقية، وإذا كان منه من حيث الجليل؛ كان نفسانية؛ لأنه امتحان محض يجب التحرز عنه، ولم يقل: (والمرأة) بدل (والنساء)؛ لأن النسء بمعنى التأخير، ووجود حواء متأخر عن وجود آدم تأخر القابلية عن الفاعلية.

ولفظ المرأة لا يدل على هذا، وإن كان يقال في وجه التسمية بالمرأة: إن ذلك لكونها مأخوذة من المرء؛ وهو شخص آدم، إذ كل أخذ لا يدل على التأخر عن المأخوذ منه؛ بل قد يكون مقارنًا له، فسبحان مَن صور وجعل الأشياء أزواجًا، وجعل بينهم المودة والرحمة؛ ليسكن بعضهم إلى بعض مع رجوعهم إلى أصل واحد.

قال ﷺ: «**وقرة عيني في الصلاة**»: أي سرور قلبي، وفرح روحي في حال الصلاة لا في إقامتها؛ لأن مجرد الإقامة لا يستلزم السرور والراحة.

وقد قال ﷺ: «**أرحنا يا بلال**»: أي أذن وأقم حتى ندخل في الصلاة المشروعة التي هي قرينة الزكاة فنستريح؛ لأن الصلاة حظ القلب، وفيها ذوق المكاشفة والمساهمة؛ ولذا حرص النبي ﷺ على مرتبة الإحسان، ولو كان أدناه؛ وهو شهود الخيال، فمَن لا شهود له في الصلاة، ولو في الجملة؛ كان ساقطًا عن رتبة المناجين، فظهر أن الصلاة من الأمور الأخروية، وإن كانت حاصلة في الدنيا على أنها تحتاج في الظاهر إلى حركات الأعضاء؛ وهي من الدنيا، وعالم الشهادة، وإن كانت باعتبار التوجه القلبي ونحوه من الأمور الدينية، وعالم الملكوت.

وبطل ما ادّعاه أكثر العلماء من أن الحديث من قبيل الطي، وإن الثالثة ليست معطوفة على ما قبلها؛ بل هي كلام مبتدأ، وقوله: إنه من قبيل الطي؛ معناه: إنه ﷺ لمّا ذكر الأولين؛ سقط في يده، وأعرض عن الالتفات إلى أمر دنياه، فطوى ذكر الثالثة فابتدأ بأمر هو من الأمور الدينية والأخروية هذا كلامهم؛ وهو كلام قطعي جدًا خارج عن الأدب قطعًا.

بل لفظ الثلاث من الحديث نفسه وزيادته ليست بمخلّة بالمعنى؛ لأن الصلاة من الأمور الحاصلة الواقعة في الدنيا، وقوله: «**وقرة عيني في الصلاة**» معطوف على ما قبله، وبه يتم الثلاث لا منقطع عنه.

أما الأول فلأنه يوجد فيه ذوق الأنس والمحاضرة، وأما الثاني فلأنه يوجد فيه ذوق القربة والمواصلة، وأما الثالث فلأنه يوجد فيه ذوق المكاشفة والمشاهدة، والمراد بالمشاهدة حالة تحصل عند الرسوخ في كمال الأعراض عما سوى الله تعالى، وتمام التوجه إلى حضرته بحيث لم يبق في اللسان والقلب غيره تعالى؛ فهي مشاهدة البصيرة لا مشاهدة البصر، وباب الأولى مفتوح في الدنيا لا الثانية وإنما مشهود البصر هي الآثار لا غير، وقد أشار قوله: «حبب إليّ» أنه تحبيب إلهي لا حب نفساني كما في العامة، ولذا أضاف الدنيا إلى ضمير الخطاب العام لكل إنسان في كل زمان، وذلك لأن الدنيا بمنـزلة الآخرة بالنسبة إلى الرسل وكُمَّل الورثة فحبهم أخروي لا دنيوي، والشيء إذا أسند إليهم كان من الأمور الأخروية، وإن كان في الظاهر من الأمور الدنيوية بخلاف ما أسند إلى غيرهم، ولذا قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران:14] فجعل حبُّ النساء من حب الشهوات بالنسبة إلى الناس الذين هم بمنـزلة النسناس، وهم الناس الحيواني الشهواني الطبيعي بخلافه بالنسبة إلى الإنسان الكامل الروحاني الحقاني؛ فإن حبه لهن ليس من قبيل حب الشهوات كما يدل عليه الحديث المذكور والرسل والورثة معصومون ومحفوظون عن اتباع الشهوات إذ هم أصحاب النفوس المطمئنة الراضية المرضية الصافية، وإن كان الأصل في النفس هي النفس الأمارة، ولذا قال يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] (1) أي: إلا

=

والكلام ليس من قبيل الطي؛ لأنه وصف للنبي ﷺ بالذهول والغفلة والندم على ما قال حاشا عمَّن هو في أعلى منصب النبوة أن يتكلم بغير رؤية؛ بل عن اتفاق على ما عليه أكثر العامة، وأن يندم على ما قاله، وهو في مقام الحضور مع الله بحيث لا ينطق عن الهوى؛ وإنما كل كلامه حكمة محضة، ومعرفة حقة، وحقيقة مطلقة، وكيف ذهلوا عن صيغة التفضيل في قوله: «حبب» حتى تفوهوا ما تفوهوا، فإن الشيء إذا كان محبوبًا بالتحبيب الإلهي؛ كيف يكون من الدنيا حتى يندم عليه النبي ﷺ؟ فإذًا يكون النادم هو الله تعالى فحاشا عنه؛ لأنه حبب إليه تلك الثلاث، ثم خذله عن ذكر بعضها لما بدا له، فنحن نستعيذ بالله تعالى عن مثل هذا الاعتقاد في حقه ﷺ؛ على أن شهواته كلها كانت من قبيل التشريع، وفي حال انجذابه القوي إلى عالم القدس، فإذا كانت شهواته بهذه المثابة فما ظنك بما صد عنه في مقام محوه وصكينه؛ وهذا هو الحق الصريح ولا يحيد عنه إلا أهل الباطل القبيح؛ فطوبى لمَن نبَّهه الله على خطأه، وسامح الله مَن مضى عليه، ولم يبلغ قولي إليه، ومن الله الإرشاد والتوفيق بسم الله علينا الإحسان.

(1) قلت: والقول في الآية من قول زليخا، على الأصح.

النفوس التي عصمها ربي من الوقوع في المهالك هي نفوس الأنبياء والملائكة ونفوس كُمَّل الورثة المتقين الذين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201] والمبصر لا يخفى عليه الشيطان والنفس في مكمنها ولم يقل يوسف: إن نفسي لأمارة بالسوء لمكان الاستثناء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:24] فمعناه هجوم الطبيعة البشرية فقمع مقتضاها برؤية البرهان؛ لأن من المبصرين وهذا مما يعد كمالاً نفسانيا، ويمدح عليه إذ لا يمدح العنين على ترك الزنا كما لا يمدح الغازي على قتل الموتى كما قال في «المثنوي»: [...][1]، والنفسُ لا تؤمن أبدًا وإنما تسلم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:14] وكذا الشيطان، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إن شيطاني قد أسلم»[2] فأسند إليه الإسلام دون الإيمان فكان النفس والشيطان بالنسبة إلى الخاصة كأهل الجزية بالنسبة إلى العامة، فكما أن لا ضرر للعامة من كفر أهل الجزية، وهم سالمون من شرهم حيث استسلموا لهم وأعطوا الجزية هم صاغرون فكذا لا ضرر للخاصة من كفر النفس والشيطان؛ فإنهما يعاملان بهم معاملة الإسلام وهم سالمون من ضررهم وكيدهم.

وقولهم: إن سلوك الأنبياء من النفس المطمئنة إلى الراضية والمرضية والصافية لا ينافي ما ذكرنا، فافهم فقد فتحت لك بابًا عظيمًا من العلم.

وتفصيل الكلام: إن الطيب محبب إلى الرسل والورثة؛ لأنهم أصحاب النفوس القدسية لا يخلو من مجالسة الأرواح الطيبة الطاهرة، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا وكذا خواصه والروائح المشمومة المفيدة تنقّي دماغ الإنسان الكامل الذي هو مقر العقل الكلي بالنسبة إليه كسدرة المنتهى بالنسبة إلى جبريل والأزهار التي لها رواح طيبة بين سائر النباتات وكذا سائر المشمومات كالإنسان بين ذي الروح وأما أرباب النفوس الدنسة المتلوثة فلا يفيدهم العنبر والعود والبخور لقذر المحل ولذا اكتبوا على الروائح الكريهة التي هي بمنـــزلة الأرواث، ومن علم سر السواك وأنه لتطهير الأسنان من وطر الطعام الذي يحصل منه رائحة كريهة تتأذى منه الملائكة علم أن طهارة الظاهر لازمة

---

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (331/3).

كطهارة الباطن وأن من طهارة الظاهر وأسبابها استعمال الطيب؛ فإنه دافع للأذى وجالب للأنس بأهل الهدى ولا يعرفه إلا أهله دون من أكب على الشهوات ولم يفرق بين الطيبات والخبيثات فأين أنت من هداية من هو مكب على الأذى أصلحك الله تعالى وأوداك كي لا يضل بك من سواك، وكذا الصلاة محببة إليهم لأن لهم معراجًا معنويًا يستريحون له عن كدورات عالم الصورة يدل عليه قوله ﷺ: «**أرحنا يا بلال**»[1] وقد جعل الله الصلاة مفتاحًا لهذا المعراج لجمعية صورتها بالنسبة إلى سائر الأوضاع الشرعية، وإن كان باب الانسلاخ مفتوحًا لهم في كل زمان وإنما قيد الصلاة من الدنيا باعتبار أفعالها التي تحتاج إلى حركات الأعضاء التي من عالم الملك لا باعتبار التوجه بالقلب الذي هو عالم الملكوت، ولذّ الأزمان، ولا مكان لأهل الملكوت؛ فإنهم من أهل الإطلاق.

وأما ملابستهم بها في الصورة ويفيدهم بالجهات المختلفة الملكية فلا تفاق حالهم في الإطلاق والقدس والتنـــزه عن كل وصف وحكم، وكذا النساء محببة إليهم باعتبارهن جزءًا والكل يسكن إلى جزئه وفي مناكحتهن سرًّا لنكاحات الأربعة وهي النكاح المعنوي الحاصل من اجتماع الأسماء والنكاح الروحاني الطبيعي الملكوتي والنكاح العنصري على ما فصلت في كتب القوم ولذا لم يتزوج الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - إلا بعد انكشاف الحجاب وزوال النقاب والقناع عن وجه سر النكاح وحق أن يقتدى ويتأسى به في ذلك فإنه لا معنى للتزوج المبني على قضاء الشهوات فقط.

فإن قلت: الخواص أيضًا يقضون أي: يعتدون الشهوة.

قلت: فرق عظيم بينهم وبين غيرهم في هذا الباب ألا ترى أنهم يكثرون الجماع جدًّا لغلبة قوتهم القدسية وامتلاء عروقهم بالنور المحض ولذا دار ﷺ أزواجه التسع في يوم واحد، وأما غيرهم فقوتهم إنما هي في الطعام والشراب والدم الحاصل منهما الذي هو أقوى مظاهر الروح الحيواني فهم مع إكثارهم الغذاء لا يجدون في أنفسهم من القوة والتوقان ما يجده غيرهم من الخواص مع تقليلهم الأكل فما يصدر من النبي ﷺ غير مقدور الغيرة مطلقًا وما يصدر من الورثة غير مقدور لمن دونهم من العوام ولله تعالى في كل شيء حكمة وفي كل أمر سر، وكان يقال لحضرة شيخي وسندي في إكثاره النكاح، إذ كان منكاحًا ومطلاقًا كالإمام الحسن رضي الله عنه فيقول: لكل فرد من أفراد الناس ابتلاء فوقع

---

(1) رواه أبو داود (4333)، والدارقطني في «العلل» (121/4).

ابتلائي من جهة النساء.

أقول: هذا جواب لأهل العموم إذ هم لا يعرفون حقيقة سر الابتلاء بالنساء، ولو قيل لهم لما فهموا ولذا كان حضرة الشيخ يكتفي بهذا الجواب لكنه في الحقيقة ابتلاء حسن وسره ما ذكرنا وقد أفسد عقائد أكثر الناس بل المتصوفة الذين يدعون المتابعة له جهلهم عن سرِّ النكاح وإن حضرة الشيخ هو الوارث الأكمل لحضرة النبي ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً وكنت أراهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأنعام:179] إذ لو كان لهم خبر عن باطن النبوة لما اجترؤوا على فساد المقال وسلكوا سبيل سوء الحال ولما قاسوا على أنفسهم وطبائعهم الحيوانية أحوال النفوس القدسية الحقانية، فأين تذهبون أيها الشهوانيون فأنتم برانيون لا حيوانيون فإن كنتم في شك من أمر الشيخ في هذا الباب فارفعوا القلق والاضطراب؛ فإن النكاح وتركه كانا من عنده سواء وتسليمه لأمر الله كان صدقًا وحقيقة لا كذبًا.

قد سمعت منه يومًا يقول: لو كان شيخي حيًا حالاً لأنكحته جميع نسائي وسراريَّ أي: بعد العدة والطلاق بطيب الخاطر من غير مبالاة أصلاً، فانظر هل عندك من هذا السر شيء ومن غنائم هذا الشأن فيء؛ فإن لم يكن فأصغ إليَّ في قولي، وهو أن حضرة الشيخ - قدس سره - أشار بقوله المذكور إلى ما جرى بين الرسول ﷺ وبين زيد ﷺ في حق زينب - رضي الله عنها - فإن زيدًا أبان زينب عن نكاحه، وقال: إنها لجديرة بأن تكون أهلك يا رسول الله، ومن مخدرات بيتك فانكحها، وهذا باب عظيم لم ينفتح إلا لأهل الانقياد والتسليم، وجه الإيثار أن رسول الله ﷺ محبوب رب العالمين ومن هو محبوب لله فهو محبوب لأهل الله والمحب لا يكون محبًا محققًا إلا بأن يكون محبوبه أحب إليه من نفسه، وإذا كان أحب إليه من نفسه فقد سهل له أن يؤثره بكل ماله وأولاده وعياله ونفسه على ما هو مقتضى قاعدة المحبة وطريقة العشق وقانون الهوى.

وإذا عرفت الحال في النبي ﷺ مع أصحابه فاعرف أن حال الولي الوارث أيضًا كذلك مع أحبابه؛ لأنه مشرب من مشاربه وشارب من مشربه ووارث لعلمه والولد سر أبيه وفيه ما فيه فالأنبياء والأولياء محابيب الله تعالى وتابعوهم وما يتبعهم فداء لهم بطيب الخاطر.

ولما أراد حضرة شمس الدين التبريزي - قدس سره - أن يمتحن حضرة المولى جلال الدين الرومي - روَّح الله روحه - طلب منه محبوبة حسناء، فأخذ بيد امرأته فجاء

بها على حضور الشيخ التبريزي؛ فقال: لا أريد المرأة بل الأمرد، فأخذ مولانا بيد ابنه السلطان وأحضره عنده، فأعرض عنه أيضًا لأن مراده كان امتحان مولانا لا الفعل القبيح حاشا فوجده على التسليم التام، وأرسله أيضًا إلى بيت الخمر مع كوز في يده، فحفظ النفس الذي منه وبمحافظته ينبت كل خير ويظهر كل تجلٍ وسر؛ فيا أيها المريد أنت مُريد أم مَريد؟! فانظر إلى ما فعله الأسلاف، فاسلك سبيل الإنصاف لا طريق الاعتساف فإن طريق الاعتساف يدلك على جانب ليس فيه رشاد وسداد، ولعلك تقول: ما معنى التسليم فيما يخالف ظاهر الشرع؟

فأقول: باب الامتحان مفتوح، هل رأيت أحدًا منهم يأمرك بشيء يخالف العقل أو النقل ثم ينفذه ويمضيه.

أما عرفت حال مولانا مع التبريزي فإنه أمر وإعراض، وقس عليه غيرها، وليس في هذا الباب وفي هذا الطريق شيء أمر من التسليم والانقياد؛ فإنه مبني على حسن الاعتقاد وليت شعري، ما معنى الطعن في كثرة النكاح وقد فعلها الأنبياء والأولياء المتقدمون؟ فهل ترى أنها مسنونة لهم وبدعة للمتأخرين؟ أما كان الحسن ﷺ منكاحًا ومطلاقًا ينكح أربعًا ثم يطلقهن ثم ينكح أربعًا أُخر، ومع ذلك كان الصحابة والتابعون يتنافسون في إنكاحه طلبًا للصهرية والاختلاط بالعرق الطاهر، وأنت ترغب عن الإنسان الكامل بدل التنافس وترى الصهرية معه كالصهرية مع غيره، وتطيل لسانك في حقه في الأمور التي سوغها الشرع الشريف وأجازها وأراك تطعن في كتاب الله تعالى من حيث لا تدري فما أجهلك!

الفصل العاشر /

في الكرامات العلمية لحضرة الشيخ ومقامه

فهي الكرامات العلمية الباطنة أي: الفتوح الرباني والكشوف الرحماني، الحاصلة له المتعلقة بالعلم الإلهي الشرعي المسمى في مشرب أهل الله علم الحقائق.

اعلم أن أهل الدنيا عاكفون على أصنام الصور مشغولون بالمحسوسات عن المعاني والحقائق المشتملة عليها فهم بنات آدم لا بنوه لأن الرجولية إنما هي في تكميل النفس علمًا وعملاً والعلم اليقيني هو العلم الحاصل بالإدراك الباطني بالفكر الصائب والاستدلال وهذا للعلماء الذين يوقنون بالغيب ولا تزيد هذه المرتبة العلمية إلا بمناسبة الأرواح القدسية ومجالستهم، فإذًا يكون العلم عينًا ولا مرتبة للعين إلا اليقين الحاصل من مشاهدة المعلوم، ولا تزيد هذه المرتبة إلا بزوال حجاب الإثنينية، فإذًا يكون العين حقًا، وهذه الدرجات لها أسباب ومفاتيح كثيرة، وأُسّ الكل هو حسن الاعتقاد ويبني عليه خدمة الأستاذ والشيخ المرشد ومباشرة الأسباب إلى زمان الفتح فلو وقع الملال في البين فقد المدد وانقطع دون الوصول إلى المراد، ومن الله هزّ العطف والتحريك إلى جانب الحركة فإن في الحركة البركة.

وقد سبق أن حضرة الشيخ - روّح الله روحه - لما أراد التجرد في شبيبته حين كان ابن سبع عشرة وطاف في البلاد في تحصيل واحد من خواص العباد لم يجد شيخًا كاملا يربيه حتى دخل في القسطنطينة ودله الله على حضرة الشيخ الشهير بذاكر زاده - قدس سرهما - فعند أول ما وقع نظره عليه شهد شاهد قلبه أنه الذي شدّ الرحل في طلبه فربط زمام أمره بحلقة التسليم وفتح باب الخدمة بالاعتقاد من القلب السليم وكان ما كان من الاجتهاد ما لا يفي بتحريره الأقلام والمداد إلى أن شرّفه الله تعالى بسر الخلافة الخفية فكان آخر خلفاء شيخه وهم ثمانية وعشرون على عدد الحروف والمنازل والفواصل الواقعة في أصابع اليدين.

وسمعت من فِيه وهو يقول: أعطاني الله تعالى في حياة شيخي فتوحات كثيرة ولكن لما انتقل إلى النشأة الآخرة قبل وصولي إلى التجلي العلمي الذي هو أول مراتب المكاشفات المقولة المعتبرة عند أهل الله المحققين وعنده يظهر سر الحياة السارية في الموجودات كلها بقيت يتيمًا غريبًا لكن الله أدبني فأحسن تأديبي.

أقول: يفهم منه كونه أويسيًّا من وجه كحضرة الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره - فإنه في شبابته وأوائل حاله تردد إلى باب الشيخ الشهير بخضر دده المقعد البروسوي - روَّح الله روحه - ثماني سنين فمات الشيخ قبل أن يفتح له الباب فبقي يتيمًا حتى تداركه الله بفضله وتوفيقه الخاص ورباه بلبان عنايته فنشأ نشأة أعجبت الخلائق.

فإن قلت: إلى متى يحتاج السالك إلى تربية المرشد؟

قلت: إلى أن يصل إلى الغاية التي لا غاية وراءها؛ فأما في أوائله فللإرشاد إلى طريق الفتح إذ لا يعرفه إلا القليل، وأما في أواسطه فللاستخلاص من البرازخ الكثيرة التي يمر بها في سلوكه ولا يعرف طريقًا إلا الأقل من القليل فإن معرفة هذا الشأن من أوله إلى أخره والتحقيق بحقائق باطنة وظاهرة لا تحصل إلا في أربعين سنة لا بسن العمر بل بسن السلوك بل بسن المكاشفة، فافهم جدًّا.

وقد أجرى الله تعالى سنة على إدارة الأنبياء والأولياء ملكوت السماوات والأرض في الآفاق والأنفس أي: بواطنها وما فيها من الأنوار والأسرار ولكن باين بينهم في سرعة الانتقال إلى المطلوب وبطئه فجعل لعين بعضهم مثالاً إذا انقلب حملاقتها إليه انكشف الأمر كما أراد، ومن هذا القبيل ما وقع لحضرة الشيخ الشهير بالشاذلي - قدس سره - فإن لما تعسر عليه الانتقال إلى سر الوحدة في الكثير وكون الكون خيالاً كله تداركه الفياض الفتاح بأن ألقى في روعه صورة اللعبة المشهورة بخيال الظل فانتقل منها إلى المراد بسهولة وذلك أن السترة الكرباسية فيها إشارة إلى السماء، والسراج إلى الشمس، والفُرش إلى الأرض، والصور المتنوعة إلى صورة الأعيان الثابتة، واليد اليمنى إلى الجمال، واليسرى إلى الجلال، وفاعل ذلك إلى الله تعالى فالحقيقة واحدة وهو الفاعل ويدل الجمال والجلال المتعلق بهما تلك الصور منتهيتان إليه، وتلك الصور لا يشاهد منها إلا خيال محض، ولا وجود لها أنفسها أيضًا، وإلا لكان هي المتكلم بالكلمات المختلفة والأصوات المتفاوتة مرة بصوت الرجل وأخرى بصوت النساء فالمتكلم المغلظ في القول والملين في المرتين هو الفاعل لا غير، وإنما يضيف الأصوات في الصورة إلى الصور تدهشًا ومكرًا فينظر الجاهل الغافل إنها منها لا منه فيثبت لها وجودًا وصوتًا، وأما العالم المتيقظ فيرفع الإضافة لأنها حجاب كما قيل: التوحيد إسقاط الإضافات، فلا يرى ولا يسمع إلا الفاعل وهو حال أهل التوحيد الحقيقي - حققنا الله وإياكم بحقائقه - ووقع نظير هذا لشيخي وسندي كما حكاه لي فإن الله جعل له مثالاً وهو القيم وفتيلته في يده والقناديل، وذلك

أن قيم الجامع إشارة إلى صانع العالم فيه سر الله الأكبر وصورته والفتيلة الموقدة التي بيده إشارة إلى الطبيعة الكلية، ويقال لها: النفس الرحماني أيضًا، والتعين الثاني الذي مبدأه الفياضية قد ظهر من غيب الفاعل، وتعين والقناديل المسرجة بها إشارة إلى المظاهر والأكوان، فانظر إلى الفتيلة المذكورة وإلى ما أوقدته من القناديل الكثيرة فما نقص منها شيء بالإيقاد فلو انطفأ جميع تلك القناديل لبقيت تلك الفتيلة كما كانت والله نور السماوات والأرض في الأنفس والآفاق، ولله المثل الأعلى على الإطلاق، وإلى الانتباه المعنوي الإشارة بالأنبياء الصوري فكما أن المستيقظ لا يزال ينتقل من القعود على القيام ومن القيام إلى الوضوء ومن الوضوء إلى الصلاة إلى أن يسلم فكذا السالك لا يزال يقطع المراتب ويسير من طور إلى طور إلى أن يصل إلى مقام الأحدية إن لم يعقه عائق البرازخ وهي أربعة وهي الكتب الأربعة التي أولها الكتاب الغيبي الإطلاقي، وهي الشؤونات الذاتية التي هي ظاهرة بالنسبة إلى الحق وغيب بالنسبة إلى أنفسها وهي أقل التعينات وثانيها الكتاب الغيبي الإضافي وهي الأعيان العلمية التي هي تفصيل صور الشؤونات الذاتية؛ فإن الإنزال مثال ومرآة للأعلى وكذا ما بعدها بالنسبة إلى ما قبلها وغيبها إضافي؛ لأنها شهادية بالنسبة إلى ما فوقها غيبية بالنسبة إلى ما تحتها وثالثها الكتاب الشهادي الإضافي وهو الأرواح وهو لتفصيل ما فوقها أيضًا ومرآة لصورها ورابعها الكتاب الشهادي الإطلاقي وهو نسخة الأجسام التي هي العرش وما حواه من العوالم الدنيوية والأخروية وهي الإنزل من الكل كما أن النفخة الأولى هي الأعلى من الكل، الأوليان نسختا عالم الإله والثانيتان نسختا عالم الكون وفي كل من العالمين [محل] وبرازخ كثيرة لا تحصى، فمن تعلق في سلوكه وسيره بشيء من هذين العالمين علمهما أو عينهما فقد انقطع دون الوصول إلى ما فوقهما من الوحدة الذاتية المطلقة والهوية الإلهية الكلية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:77] فالأجسام والأرواح قرآن كوني والأعيان والشؤون قرآن إلهي ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] أي: إلا المطهرون من دنس التقييد بشيء من العوالم.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة:43] إشارة إلى أن هذه الكتب منـزلة من رب العالمين إلى الأنبياء والرسل والورثة وهم عارفون أسرارها وحقائقها عرفانًا كما يقال له: الكشف المعنوي مطلقون عن كل قيد في الصعود والهبوط، وذلك لأن بعضهم يقف عند الأرواح وبعضهم عند الأعيان، وبعضهم عند الشؤون وهذا في الصعود، وقس عليه الهبوط والأعلى من الكل من صعد إلى أعلى عليين الحقيقة ثم هبط إلى

أسفل سافلي البشرية، وهي المرتبة التي تحرك منها أولاً وهي قعر الطبيعة لكن فرق بين من فارق طبيعته ثم نزل إليه وبين من لم يفارق أصلاً فإن الأول مع الحق والطبيعة والحقيقة على كل حال في كل المراتب غير محتجب بشيء من طبيعة وغيرها، وإنما تنـــزل للإرشاد، والثاني مع الخلق والطبيعة والنفس محتجب عن الحق.

وحضرة الشيخ شيخي وسندي الأكمل الأفضل قد أصعده الله تعالى إلى ذروة هذه الدرجات ثم أهبطه إلى آخر مراتب التعينات يدل عليه الشواهد القولية والعقلية فمن الأولى ما قال مخبرًا عن نفسه في بعض تحريراته الحمد لله الذي أعطانا الكشف الأول الواقع في مقام الجمع بعد الفرق في رأس سنة ثمان وستين بعد الألف والكشف الثاني الواقع في مقام الفرق بعد الجمع في رأس سنة إحدى وستين بعده انتهى بعبارته.

والعاقل يحمل قول الأكابر على الصدق المحض لا سيما حضرة الشيخ الذي لم يسمع منه دعوى قط ويكفي في صدقه والشهادة له نباهة شأنه وعظم سلطانه واستيلاء برهانه وهيبته في النفوس وقبوله عند الأرجل والرؤوس، والمراد بالكشف الأول هو التجلي العلمي الذي يحصل عند الفناء التام الذي هو بداية النبوة وصاحبه كالناظر إلى الشمس لا يرى الأشياء لتفرق بصره، وفي هذا تنكشف حقائق الآفاق ثم حقائق الأنفس ثم حقائق القرآن؛ فهذه نسخ ثلاث لا بدَّ للواصل من تلاوة آياتها وإدراك معانيها من كلماتها، وأصل هذه النسخ الثلاث ومبدؤها نسخة حقائق الرحمن وإلى تلك النسخ الأربع الإشارة بالكتب الأربعة الإلهية وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن فكما أن هذه كليات الكتب الإلهية ويلحق بها الصحف الجزئية فكذلك تلك كليات النسخ العرفانية، ويتصل بها المعارف الجزئية والمراد بالكشف الثاني التجلي العيني، وفيه يحصل البقاء ويعود السالك إلى مطالعة الأشياء.

سمعت من حضرة الشيخ أنه في غليان حاله وغلبة جذبته جاء عزرائيل وهو في اليقظة مراقب بين العشائين فأخذ ينزع روحه من أصابع رجليه إلى أن يبلغ إلى فمه فلما تهيأ للخروج من فضاء الفم ارتعد وجوده وعاد إلى ما كان عليه، وهذا من نتائج قوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»(1) فإن الموت المتضمن له قوله: «موتوا» وإن كان هو الموت المعنوي بالفناء عن الأفعال والصفات والذات لكن الله تعالى أراه صورة الموت الصوري

---

(1) انظر: «تحفة الأحوذي» (515/6)، و«كشف الخفاء» (384/2).

أيضًا تطبيقًا بين المجاز والحقيقة وتعجيلاً للحسرة إذ لا يبقى بعد شيء من الموت إلا اسمه ولا من الوجود إلا رسمه وهذا من أجلّ المراتب ولا يناله إلا كُمَّل الورثة.

وقال لي يومًا أيضًا: كان إذا جاءني الجذبة القوية والفيض الغالب يحصل حالة مثل حالة صلصلة الجرس للنبيِّ ﷺ عند نزول الوحي، قال: ولم أقل هذا لغيرك إلى الآن، وكان في آخره، وقال لي يومًا: كنت قد خرجت لوضوء الضحى في أوائل حالي فتقيأت دمًا أسود غليظًا كالعلقة، وذلك ملء الكف عشر مرات ثم بعد ساعة انكشف لي ما انكشف من نقطة الهوية إلى آخر الاسترسالات والتنــزلات، وأنا سامع قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [الحشر:22]؛ لأنه كان مورد التجلي الواقع لي، قلت له: ذلك الدم الأسود هو مغمز الشيطان الذي أخرجه الله تعالى من قلب النبي ﷺ حين شقَّ صدره الشريف، قال: لعله ذلك، وأنا أجد في بدني خفة مذ ما وقع لي ذلك إلى الآن وارتفع عني تعب التكاليف؛ فهي عندي في سهولة العمل كعادات الناس، قال: وكان اشتغالي بالتوحيد وقتئذٍ قويًّا بحيث لا يوصف.

أقول: فانظر إلى ما أوتي حضرة الشيخ من الوراثة الكاملة، فإن مثله إنما يقع لأكثر الأولياء في البرزخ دون التعين والمثال المطلق، وسمعت من فِيه ثم إنه قال: كانت الحال غالبة علي في أوائل حالي بحيث لم يمكن أن يصحبني أحد ويكالمني ويدخل في مجلسي للهيبة الغالبة والسطوة الشديدة أو أنه كانت الحال مغلوبة وأنا غالب عليها ثم قال: وإذا أيد الله الكاشف المجذوب لم يفت عنه صلاة لأنه يجد في أوقات الصلاة نوع صحو وبعضهم لا يجد فيبقى في الاستغراق أيامًا.

قال: وكنت في الأوائل يغلب عليَّ الحال فتستمر عليَّ ستة أشهر وثمانية بل أكثر من غير انقطاع ولو ساعة وجاء وقت في أواسط الحالة فكنت بحال ما يضرني الحالة الواقعة عليَّ وما تمنعني من صحبة الناس بحيث كنت أتكلم لواحد في مجلسي ولا يحس هو أصلاً ما بي من الحالة الشديدة ثم زال ذلك أيضًا فحصل الصحو الكلي والحمد لله تعالى هو أصلاً ما بي من الحالة الشديدة، ومن كوشف له قبل سبق المجاهدة يصير مُلحدًا تاركًا للشريعة غالبًا، ومن كوشف له بعد الرياضات الشاقة والمجاهدات الكثيرة يصير متشرعًا مقبولاً ثم من الشواهد القولية أيضًا ما أخبرني وكتب بخطه وهو أن ذاتًا يدل عليه حروف «اعثمن» قد صار طبقًا بقدر حساب حروف كج انتهى.

أقول: يعني بالذات نفسه يدل عليه اسمه الشريف وهو اعثمن مقلوب عثمان

والطبق مقلوب القطب، وقوله: كج الكاف عشرون والجيم ثلاثة والمجموع ثلاثة وعشرون وهو إشارة إلى مدة الوحي التي كانت وقت البقاء، وأصله أنه قيل له وهو ابن ثلاثين: إنك تموت عند بلوغك الأربعين، قال: فازددت اجتهادًا في العشر التي بينهما بحيث لا يوصف حملاً للموت على الصورة دون المعنى فلما ناهزت الأربعين تخليت أربعين يومًا في الحجرة المتصلة بالجدار الداخل لجامع قول في القسطنطينة، وهي حجرة القيم التحتانية في جانب اليسار من الجامع وكان الغذاء كل ليلة ببيضة واحدة لا غير.

قال: ولما كان صباح الأربعين وصلينا الصبح في الجامع المذكور أخذ الفقراء في التوحيد، وأنا مراقب في المحراب وكان ذلك اليوم يوم الاثنين أول يوم من سن الأربعين والشهر شهر ذي الحجة؛ فقيل لي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] وانكشف أن وفاتي كان وفاةً معنويا وأن وفاتي الصوري تأخر لي ما بعد الستين على أن يكون البقاء بعد الفناء صار قلب قطب إرشاد أو أكثر من تشرف بهذه الوراثة الكبرى والجمعية العظمى والرتبة العليا قد صار في آخر عمره قطب وجود أيضًا، ولو ساعة تكميلاً لرتبته واستيفاءً لحظه من جميع المراتب كما دل عليه الكلمات الأكبرية في بعض تصانيفه ودل أيضًا قوله: آخرُ ما يخرج من قلوب الصديقين حب الجاه؛ فإن الخروج قد يجيء بمعنى الظهور فمعنى ظهور حب الجاه الصوري من قلوبهم أنهم لما تحققوا لجميع المراتب علمًا وعينًا أحبوا الكمال الصوري ليكونوا مجمع الكمالات من كل وجه ملكًا وملكوتًا وعينًا وشهادةً ظاهرًا وباطنًا وقطب الأقطاب مقام لا يدخله إلا من يقوم مقامه بعد وفاته كحمرة سجادة الولي فإنه يجد فيها حالة لا يجدها غيره، وإنما قلنا: لا يدخله دون من لا يعرفه إذ فلك المعرفة أوسع إحاطة لا تختص بولي دون ولي فإن من الورثة الكُمَّل من يعرف مقام النبي ﷺ ووقته وحاله مع الله ولكن التحقق به مخصوص به ﷺ، وقس عليه حال القطب والغوث الأعظم وأولياء الله تعالى على طبقات متفاوتة فمنهم عام وخاص وخاصة الخاصة وخلاصة خاصة الخاصة وصفاء الخلاصة؛ فعموم أهل الله المؤمنون الموحدون وخاصتهم السالكون السائرون إلى الله تعالى؛ لأنهم خالفوا الجمهور وهجروا أوطانهم وباينوا إخوانهم وخاصة الخاصة المتحققون بقرب النوافل وهي مرتبة: «**كنت سمعه وبصره...**» الحديث[1].

---

(1) رواه البخاري (6021).

وخلاصة خاصة الخاصة هم المتحققون بقرب الفرائض وهي رتبة «**سمع الله لمن حمده**»[1] وهي كون العبد سمع الله وبصره على عكس الأول، وصفاء الخلاصة أي: صفوتهم صاحب المقام القوسين الجامع بين القربين وعين الصفاء المختار من هؤلاء الصفوة صاحب مقام «أو أدنى» الغير المقيد بالجمع أيضًا بل له الدوران في المقامات الثلاث من غير تقييد بواحد منها، وهذه خاصة بنبينا – صلى الله عليه وعلى آله – وكمل ورثته كما في «شرح الفصوص» للمولى الجامي – قدس سره – ومن الشواهد الفعلية ما خصه الله به من النوامس الحكمية والكتب الإلهية التي لم يجر عادة الله على إعطائها لأهل الناسوت؛ لأن المعاملات والمكاشفات الفاضلة العالية والمعاني والحقائق المقدسة المتعالية حور مقصورات في الخيام لم يمسهن أيدي الإنس من الرجال الجلالية المدنسة، ولم يطمثهن الجان من القهرية المتلوثة بل خبأهن الله تعالى للرجال البالغين الطاهرين الخارجين عن الناسوت العارجين إلى معارج اللاهوت المتشرفين بالجنان الباقية في القلوب الصافية والنفوس الراضية المرضية المتصفين بالصفات الإلهية والأخلاق المحمدية التي ما لا يضبط الأقلام بلسانها ببيانهم، ولا يعقد النظام ببيان ترجمانهم.

فمن تلك الأسرار الإلهية لحضرة الشيخ – قدس سره – «الرسالة الرحمانية في بيان الكلمة العرفانية» بيّن فيها الأسماء المجازية والحقيقية؛ فالمجازية منها مقروءة بالألسن مسموعة بالأذان مكتوبة على الأوراق محفوظة في القلوب كالأسماء الحسنى التسعة والتسعين، وأما الأسماء الحقيقية فليست من قبيل ما يقرأ ويسمع ويكتب ويحفظ فهذا هو المجاز، والحقيقة عند القوم بخلافهما في اصطلاح أهل الظاهر؛ فإن المجاز عندهم لفظ استعمل فيما وضع له كالأسد في الرجل الشجاع، والحقيقة لفظ استعمل فيما وضع له كالأسد في الحيوان المفترس فكل من المجاز والحقيقة عندهم فمجاز عند القوم فالاسم في الحقيقة التعين ومعنى الأسماء الإلهية التعينات الإلهية، وهي الشؤونات الذاتية الغيبية والأعيان الثابتة العلمية ومعنى الأسماء الكونية وهي تعينات الأرواح والأسماء الأُول فاعلات ومؤثرات والأُخر قابلات ومتأثرات كالرجل؛ فإنه حقيقة فاعلة مؤثرة، وكالمرأة فإنها حقيقة منفصلة متأثرة، وهذه الحقائق واحدة في الأصل لكن جاءت الاختلافات من جهة اختلاف التعينات في المراتب الإلهية والكونية، ومعنى تجاوز السالك عن هذه التعينات

---

(1) رواه مسلم (588/2) بنحوه، وأبو داود (276/1).

قطع العلاقة الباطنة عنها بالفناء والانسلاخ التام بحيث لم يتقيد بتعين الكون في الكونيات، ولا يتعين الإله في الإلهيات، بل تعرى عن كل لباس وعن كل إضافة وقيد؛ فالفناء في العلاقة والتقيد لا في الأجسام فإنها باقية على ما هي عليه قبل، والاسم الحقيقي يعتبر في ثلاث مراتب فهو في المراتب الإلهية الذات البحت الذي هو مرتبة الأحدية والإلهية التي هي مرتبة الواحدية فالاسم الأول هو الباطن والثاني هو الظاهر وفي المراتب الكونية قطب الزمان وسلطان الأوان، فالأول اسم حقيقي باطن والثاني اسم حقيقي ظاهر، وفي المراتب اللفظية الاسم الله والاسم الرب فالأول باطن بالنسبة إلى الثاني لأن الربوبية مبدأ الفيض هذا لكن الاسم في المراتب اللفظية يعتبر من حيث اللفظ من الأسماء المجازية لكونه مقروءاً ومسموعًا ومكتوبًا ومحفوظًا والمجاز قنطرة الحقيقة وباب لها، فلو ارتفع اعتباره بطلت الحقائق كما قيل: لولا الاعتبارات لبطلت الحقائق.

وتحقيقه على ما ذكره حضرة الشيخ في أول حواشيه على تفسير الفاتحة: إن من اشتغل من الأسماء المجازية بما يسر الله تعالى الاشتغال به وداوم فيه، فلا ريب أن يحصل بينه وبين سر هذا الاسم المشتغل به وروحه بعناية الله تعالى وفضله مناسبة ما يقدر الاشتغال، ومتى قويت تلك المناسبة بينهما وبحسب قوة الاشتغال وكماله يحصل بينه وبين مدلوله من الأسماء الحقيقية بواسطة هذه المناسبة الحاصلة مناسبة بقدرها قوةً وكمالاً ومتى بلغت على حدِّ الكمال أيضًا هذه المناسبة الثانية الحاصلة بينه وبين هذا الاسم الحقيقي بجود الحق سبحانه وعطائه يحصل بينه وبين مسماه الحق تعالى مناسبة بقدر المناسبة الثانية من جهة القوة والكمال؛ لأن العبد بسبب هذه المناسبة يغلب قدسه على دنسه ويصير مناسبًا لعالم القدس بقدر ارتفاع حكم الدنس فحينئذ يتجلى الحق سبحانه وتعالى من مرتبة ذلك الاسم بحسبها وبقدر استعداده ويفيض عليه ما شاء من العلوم والمعارف والأسرار الإلهية والكونية جسمًا يقتضيه الوقت، ويسعه الموطن وتستدعيه القابلية فيطلع بعد ذلك علم لم يطلع عليه قبله فيحصل له العلم والمعرفة بعد الجهل والغفلة فإذا عرفت هذه المعاني الكلية بطريق المناسبة الجزئية.

فاعلم أن السبب الصوري لتصنيف حضرة الشيخ «الرسالة الرحمانية» المذكورة هو أن مصطفى الوزير الشهير بابن كوبريلي رأى رؤيا قبل وزارته بسنين فاستدعى الشيخ للعبارة فعبرها بالوزارة ولو بعد حين وكان الوزير المذكور من زمرة العلماء المتبحرين بمرتبة الظاهر فأحب الشيخ حبًّا شديدًا فأخذ يخالطه، وكانت والدته وأخته زوج سياوش

الوزير المقتول مريدتين له فآل الأمر إلى أن صنف له أي: لابن كوبريلي تلك الرسالة لما رأى من ميله إلى التصوف ثم هو عند وزارته نفى حضرة الشيخ إلى قلعة ماغوسة من القلاع القبرصية فجازى إحسانه بالإساءة جزاء سنمار كما سيأتي تفصيل القصة في محلها.

ومن تلك الكتب الإلهية لحضرة الشيخ شرح «مفتاح الغيب» المسمى بـ «مصباح القلب» والأصل وهو متن المفتاح كان لحضرة الشيخ محمد بن إسحاق القونوي الشهير بصدر الدين، وكان نقادًا للكلمات الأكبرية، فصنف المفتاح على وجه بديع لا يوصف فشرحه حضرة شيخي وسندي وسماه بالمصباح.

وقال: إني أحب المفتاح؛ لأنه وارد على سنن سلوكي وكان كتب الشيخين الأكبر والكبير أجل الكتب عنده لكونهما مؤيدين بالكتاب والسنة وكان يقول في حقهما: إنهما وأمثالهما الإنسان بعد الأنبياء - عليهم السلام - ولذا لم يزل يوصي هذا الفقير بكتبهما، وبـ «إحياء العلوم» للإمام الغزالي أيضًا تحريضًا على العلم والعمل كما لم يزل يوصي من حيث طريقتنا الجلوتية - بالجيم - بآداب حضرة الشيخ الفريد والمرشد الوحيد محمود الهدائي الإسكداري - قدس سره - وكان يقول في حقه وفي حق شيخه الشهير باقتادة البروسوي - قدس سره: إن لكل منهما يدًا طولى في التوحيد الحقاني والعرفان الرباني.

ومن تلك الكتب الإلهية كتاب «اللائحات البرقيات في كشف الحجب والأستار عن وجوه أسرار بعض الأحاديث والآيات» ومعنى نسبتها أي: اللائحات إلى البرق إنما هو بطريق التشبيه فإن السحاب إذا انفتح حصل البرق والضوء بحيث ارتفع الظلمة فيما بين المشرق والمغرب وتراءى بسببه ما كان يتراءى في النهار بالشمس وإن كان ما بين الانفتاح والانطباق قدر لمحة البصر، فكذا رقيق القلب إذا انفتح ولو طرفة عين صبَّ الله عليه من العلوم ما لا يفي به الأوراق ولو حرر إلى يوم القيامة ومثلها إنما تحصل لأهل شهود التجلي الذاتي الدائم الأبدي الذي لا حجاب بعده ولا مستقر للكُمَّل دونه وهذا المقام نصيب الشيخين من المتأخرين ويليهما حضرة شيخي وسندي في ذلك، وسيأتي ما يؤيد كلامي هذا، فلا تحمله على المجازفة.

ومن تلك الكتب الإلهية الحاشية على تفسير الفاتحة المسماة بـ «مرآة أسرار العرفان» والأصل وهو تفسير الفاتحة كان لحضرة الشيخ صدر الدين - قدس سره - وهو كتاب لم يسمح بمثله الزمان منذ ما طلع المرزمان[1] وبقي بكرًا أربعمائة سنة إلى أن فكَّ

(1) المرزم: كوكب له نوء. كما في المحيط في اللغة (زمر).

ختمه وفتح درجه حضرة شيخي وسندي فشرحه على أسلوب الحاشية، وكان آخر تصنيفه في علم الحقائق، وذلك أنه اختفى في القسطنطينة مائة وعشرين يومًا بحيث لم يدر مكانه عند حواشيه وغيرهم، فاختلفوا في حقه اختلافًا كثيرًا فشرح في تلك المدة تفسير الفاتحة، وجاء بحيث لا يوصف كما أخبرني يومًا، وقال: علقت الحاشية على تفسير الفاتحة للصدر القونوي في أربعة أشهر مع عظم حجمها ولم يقع لي أثناء ذلك فتور أصلاً، وكانت المعاني والحقائق تتوارد على قلبي ليلاً ونهارًا، وهي تصنيف لا تأليف أي: ليس فيه مزج ولا نقل من كلام الغير أصلاً بل هي محض إلهام وفيض، وقد جعلت ديباجتها مشتملة على أدعية النصر؛ لأنها كانت أول ما أُلقي في روعي من جانب روح القدس بسبب وقوع الدعية القوية إلى الخروج إلى الغزو.

وحين الشروع في التصنيف قال: وهذه الحاشية نتيجة ثلاث وثلاثين سنة من أول المكاشفة، وهذا العلم من الكرامات العلمية وهي أفضل من الكرامات الكونية، قال: ولم يقع لي إلى الآن ميل إليها أصلاً، فإنه ما معنى مكاشفة القبور ومكاشفة أحوال الملائكة والتقيد بها لأن أهل القبور إما مثابون أو معذبون، والملائكة متعبدون والمرء مكلف بنفسه لا بمعرفة أحوالهم.

قلت له: إن الله تعالى قد خبأ لكم هذه الحاشية في خزائن غيبه وادخرها لكم في مكامن لاهوته وأخرها إلى هذا الآن لتكون هدية منكم جليلة لأهل الحق وتحفة عظيمة لأهل الصدق وآية كبرى لحقيقتكم وعلامة عظمى لولايتكم، إذ أكابر المشايخ يستعظمون من يفهم ذلك التفسير القونوي، فيكف الحال فيمن قدر على تحشيه وفعل ما فعل مثلكم.

فإني رأيت في «الواقعات المحمودية» أن حضرة الشيخ الشهير باقتادة – قدس سره – قال: بل في الزمان من يفهم تفسير الفاتحة فاستغرب ذلك واستبعد من كان أهلاً لفهمه، فلما قررت هذا تبسم حضرة الشيخ، وقال: اكتب هذه الحاشية؛ فإنها نافعة لك بعد وفاتي ثم دعا لهذا الفقير.

وقال: أعطاك الله ما في هذه الحاشية وزاد عليه فإنه ذو الفضل والجود، فهذه الحاشية علم حضرة شيخي وسندي وبرهانه الكلي فمن قبلها وإلا فليأت بمثلها أو ليمت بغيظه قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:119].

وصنَّف في أوائل حاله شرحًا بسيطًا على «فصوص الحكم» ثم أحرقه في وقت من

أوقات غليان حاله وأيضًا رسم صور العوالم من العرش إلى ما تحت الثرى ثم أحرقه أيضًا هذا، وأما تحريراته في علم الحقائق في أوراق متفرقة وصحف متعددة فلا غاية لها وهي أكثر من أن تحصى، وكان روح الله روحه عين القلم الأعلى ولم يكن له تفكر ولا تعمل أصلاً، وكان بحيث إذا وجد كاغدةً لا يقف إلا عند آخرها، وسأله يومًا خليل الشهير بعرب زاده من علماء بلدة «أدرنة» شيئًا من القصيدة الأكبرية التي أولها:

لنا من أمره روح وجسم

فشرح تلك القصيدة شرحًا لم ير مثله وسماه بـــ «الرسالة البرقية» ولا نهاية لفضائله وستجيء في محلها، وأما كتبه المتعلقة بالعلوم الظاهرة فستذكر في الفصل الآتي.

الفصل الحادي عشر /
في الكرامات العلمية الظاهرية لحضرة الشيخ

أي: الألطاف الإلهية المتعلقة بمرتبة الظاهر الفائضة منه تعالى على حضرة شيخي وسندي - روّح الله روحه - وهذه الألطاف كالشعبة للكرامات العلمية الباطنية التي سبق ذكرها؛ فإن ما يتعلق بمرتبة الباطن أصل ومقصود بالذات كاللبِّ من الثمرة وما يتعلق بمرتبة الظاهر فرع ومقصود بالعرض كالقشر من الثمرة وكما أن القشر يحفظ اللب فكذا الظاهر لباس للباطن وصورة مقومة له ولولاه لم يحصل الغرض الذي هو وسيلة له وكذا الحافظ عليِ الشرع الشريف فمن لم يكن له شريعة وعمل بها لم يكن له دين حق والتصوف مبني على الإسلام الصحيح، ولذا لا يعتبر ما صدر من الرهبانية وإن كان خارق للعادة إذ هو من الأمور التي يشترك الإسلامي وغيره بخلاف الفيض الصحيح الوارد عن مرتبة السر المؤيد بالكتاب والسنة؛ فإنه مخصوص بالإسلامي.

والحاصل: إن طالب السمن والزُبد لو طلبها من الماء مثلاً لم يجدهما ألبتة ولو طلبهما من اللبن وجدهما؛ لأنه أصلهما والفرع يبتني على الأصل فكذا طالب المعرفة والحقيقة لو طلبها من الوجه الغير الشرعي لم يجدهما البتة وما عند أهل الإلحاد والزندقة فهو صورة المعرفة لا حقيقتها ولو نالوا لأدى ذلك إلى العبودية؛ فإنها علامة المعارف الحقة فالميزان والمحك الوارد الغير التشريعي في الظاهر؛ فصاحب هذا الوارد شيطاني فكلما تجدد الفيض وتأكد الامتثال إلى أمر الله تعالى وازداد التعبد؛ فصاحب رحماني ومسلك الصوفية المحققين الصادقين في طلبهم طريق التقوى والعزيمة والمستحبات عند أصحاب العزيمة كالواجبات وهي كالفرائض بمعنى أنهم يهتمون في كل ذلك فوق اهتمام أهل العموم والكراهية التنـــزيهية عندهم كالكراهة التحريمية، وهي كالحرام القطعي بمعنى أنهم يحترزون عن فعل ذلك أشد من احتراز العوام، ومن هنا علم فساد ما قيل: إنه ليس للصوفي المحقق وقت مكروه، ونعوذ بالله من الضلال، وسيئات الأعمال، وفساد العقيدة واختلال البال ؛فالحلال حلال والحرام حرام، ولا فرق في ذلك بين شخص وشخص، وإن كان نبيًّا أو وليًّا.

وأخبرني شيخي - قدس سره - أنه لما توطن في القسطنطينية أخذ يقرأ عليه بعض المريدين الفصوص إلا الكبرى قال: فنشر ذلك بين الناس وشاع فأخذ أهل الإنكار

يقولون: إن الشيخ الفلاني كان يقرأ الكتاب الفلاني، وإنا لنراه في ضلال مبين، وأما الذين اتبعوا الأراذل، قال: فلما سمعت القيل والقال، توجهت إلى الله الملك المتعال فقيل لي في سري: عليك بطريق جدك وهو طريق السر والإخفاء لا الإظهار والإفشاء، قال: فاتخذت القول من التصوف ورائي ظهريا وجعلته نسيا منسيا وستر حالي وحال من تبعني بما أمكن من الوجوه مثل الاشتغال بتدريس العلوم الرسمية والتوغل في التقرير والتحرير في العلوم المتداولة والقوانين المتعارفة والتشبث بأذيال العبادات والمعاملات فوق ما كان قيل، قال: وهذا أسلم الطريق في هذا الزمان أي: ستر العروس بالعباءة أولى من تربيتها بالديباج كيلا يقع عليها نظر الأغيار مع أنه لا يباع الإبل في سوق الدجاج.

وقد صحَّ أن النبيَّ ﷺ له علوم ثلاثة: علم أمر بتبليغه ونشره وهو علم الشرائع والأحكام.

وعلم خير فيه وهو علم المعارف والإلهام.

وعلم أمر بإخفائه وكتمه وهو علم الحقائق فلم يأذن له عليه أن يذيع من ذلك شيئًا إلا إلى أهله[1]، قال الجنيدي: [...][1].

(1) للقوم رضي الله عنهم في الكلام على تقاسيم وأنواع العلوم، وبيان الدليل من الكتاب والسنة المطهرة على العلم اللدني- أو السمائي كما سماه المصنف قدس سره - أقوال جمة، قد أحسن سيدي جعفر الكتاني قدس سره في جمعها في بحث من مقدمة كتابه العظيم «جلاء القلوب من الأصداء الغينية في بيان إحاطته - ﷺ- بالعلوم الكونية» وإليك قبسًا من هذا الجمع، قال - قدس الله سره- في بيان جملة العلوم وأنها بالاعتبار ثلاثة عند أرباب الإدراكات والفهوم:
اعلم أن العلوم على ما قاله غير واحد ثلاثة:
الأول منها: علم الشريعة الظاهرة، وهو قسمان:
أحدهما: علم الشريعة المتعلق بالأعمال البدنية، أعني به علم الحلال والحرام، والأمر والنهي والوعد والوعيد، ونحوها مما هو متعلق ومرتبط بتكميل ظاهر الذوات من أقوالها وأفعالها ولوازمها، وتحسين هيئاتها مثل الصلاة والزكاة، والصوم والحج والجهاد، وأنواع الأذكار والأدعية وتلاوة القرآن، واستكمال خصال الفطرة، وغير ذلك من كل ما له تعلق وارتباط بالسير الجسماني المتعلق بالأعمال البدنية الظاهرة.
والثاني: علم الشريعة المتعلق بالأعمال القلبية وأدوائها وعلاجاتها، وما تصلح به وما لا أعني به علم كيفية الرجوع إلى الله وإلى طريقه، ومعرفة الآفات الطارئة على سائر هذا الطريق من دسائس النفوس وغوائلها وشهواتها، وما تصلح به تلك الآفات، وتزال به الانحرافات والأخلاق، ويتبدل به مذمومها محمودها، وتتخطى به المقامات من التوبة والزهد، والمحاسبة والمراقبة، =

=

والتوكل والرضا، والتسليم والخوف، والرجاء والصبر، والشكر والمحبة، وغير ذلك من كل ماله تعلق وارتباط بالسير النفساني والروحاني المتعلق بالقلوب.

وهذا هو علم الظاهر المنقول، الذي هو علم الحكمة والعبودية، ويسمى أيضاً بعلم الكتب والأوراق، ومنها كما ذكرناه العلم الثاني وهو المسمى عندهم بعلم الطريقة، الذي هو العلم المتعلق بكيفية تعديل الهيئات النفسانية والروحانية، وهو وإن كان متعلقاً بالقلوب، والقلوب باطنية لكنه يؤدَّى بالعبارة، والعبارة تظهره وتوضحه، فصار من قبيل علم الظاهر، وهو التصوف، وقد احتوت عليه كتب كثيرة قديمة كالرسالة للقشيري و«القوت» و«الإحياء»، وحادثة ككتب ابن عطاء الله و«شرح الحكم» لابن عباد، وكتب الشيخ زروق في التصوف، والشعراني، وهذه الكتب بها يحصل السلوك في طريق القوم لنهجها للعبيد، وبيانها للطريق التي بها يصل المريد، مع خلوها من الحقائق التي قد تكون سبباً في قطعه، وهو أيضاً باطن علم الشريعة المتعلق بالأعمال البدنية ولُبِّه، وعلم الشريعة المذكور ظاهره وقشره، لأنه الذي يصونه، كما أن علم الطريقة قشر لعلم الحقيقة، لأنه هو الذي يصونها، فإن من رام الوصول إلى علم الحقيقة ولم يطرق إليه من علم الطريقة فسد حاله، فصارت حقيقته زندقة، ولذا قالوا: لا وصول إلى حقيقة إلا بعد تحصيل الطريقة.

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: وإنما حرموا الوصول - يعني إلى الحقيقة - بتضييعهم الأصول - يعني الطريقة -، وكذا صاحب الطريقة إذا لم يؤت الشريعة حقها فسد حاله، وصارت طريقته هوسًا ووسوسة.

العلم الثاني منها: علم الحقيقة الباطنة الذي هو علم التوحيد الخاص وأسرار الشريعة وحكمها، وما ينشأ عن العمل بها من الكشوفات والأذواق والمعارف والأسرار ونحو ذلك، وهو علم الباطن الموهوب الذي هو علم القدرة والربوبية، ويسمى أيضاً بعلم الأذواق، وهو علم وهبي ذوقي لا ينال بتعلم، وإنما يهبه الله لمن يشاء من خلقه، ولا يؤديه من وصل إليه بالعبارة، وإنما يرمز له بالإشارة، وهو تصوف أهل الباطن، ومثال العلم الظاهر كجسم فيه روح كامن، فالجسد لا يقوم بغير روح، والروح لا تظهر من غير جسد، وإذا خلا الجسد عن الروح كان ميتاً ولا عبرة به، ولذلك كانت الشريعة بدون الحقيقة عاطلة، وإذا خلت الروح عن الجسد بطنت ولم يظهر لها، ولذا كانت الحقيقة بدون شريعة باطلة.

وقد نقل الشيخ عبد الرؤوف المناوي في «إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن» في الباب الخامس في أصول علم التصوف عن إمامنا مالك ﷺ قال: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق» أي: لأن حقيقته تصير عارية بدون كسوة فيقتل عليها، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً، وإن كان مدعياً مبطلاً كان بعيداً، وعن الحضرة طريداً.

«ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق» أي: لأن أعماله أشباح بلا أرواح، «ومن جمع بينهما فقد تحقق».

=

والعالم بهذا العلم الثاني هو المسمى عارفاً، ومن يصل إليه وكان من أهل العلم الأول سمي عالماً، والفرق بينهما أن العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يقول، والعالم يصف الطريق بالنعت، والعارف يصفها بالعين، لأنه سار معها وعرفها، والعالم محجوب والعارف محبوب، والعالم يَدلُك على العمل، والعارف يخرجك عن شهود العمل، والعالم يعرفك بأحكام الله، والعارف يعرفك بذات الله، إلى غير ذلك، ومن لم يسعده الله تعالى بملاقاة عارف لا يشك أنه في مهاد نفسه تالف.

ولذا قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: وكم يتغلغل في علمنا هذا -يعني علم القلوب- وما يعرف به علام الغيوب بات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر.

قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن علان الصديقي البكري المكي الشافعي في «شرح حكم أبي مدين»: ولقد صدق فيما قال، فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته؟ وهكذا سائر الطاعات إلا ارتحل عليه عناية مولاه بمعرفة آداب الخدمة من مجالسة أطباء القلوب وحلول عنايتهم عليه حتى تمحق العجب الذي حل به من تلك الطاعات، ولا يعجب بعد ذلك إلا بفضل مولاه، كما قال في «الحكم العطائية»: لا تفرحك الطاعة من حيث أنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58] فلا تفرح يا أخي ولا تعجب إلا بنواله، ولا تصحب إلا من يعلمك العلوم التي تقربك إلى حضرة كماله.

انتهى نقله في الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية.

وقال بعض العارفين كما في «القوت» و«الإحياء»: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله.

وقال أبو علي الثقفي ﷺ: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لم يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي: والله ما صار الأبدال أبدالاً حتى يلقوا مثلنا، فإن لقوه كان بغيتهم، وقالوا: ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، وكيف يفلح من لم يصاحب مفلحاً، ولله در صاحب نظم بداية السلوك إذ يقول فيه:

إن لم تلاق عارفًا في مدتك لا عاش عمر عيشه كعيشك

ومن هنا كان الصحيح المختار عند العلماء الموفقين الأبرار أن العارفين بالله أفضل بكثير، وأعلى بمقدار كبير من العلماء بأحكام الله، وهكذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره.

وقال ابن دقيق العيد بعد أن ذكر بعض الأولياء ممن رآه وكان يعتقده ويخضع له: هو عندي خير من مائة فقيه، أو من ألف فقيه.

ونقل اليافعي في «روض الرياحين» عن القاضي نجم الدين الطبري: أنه جاء خبر إلى مكة بوفاة العارف بالله إسماعيل بن محمد الحضرمي فقال العارف بالله أحمد بن موسى بن عجيل، وكان حينئذ بمكة: أرجو أن يفديه الله بمائة فقيه. ثم جاء الخبر الصحيح أنه حي ولم يمت إلا بعد مدة طويلة.

وفي «الإحياء» للغزالي في الباب الخامس من كتاب العلم: إن الرتبة العليا في معرفة الله والعلم به الأنبياء، ثم الأولياء العارفين، ثم العلماء الراسخين، ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم. راجعه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري قدس الله سره في أول «رسالته»: أما بعد، فقد جعل الله تعالى هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، ثم جعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق انتهى.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في جواب له: لا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال، وما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام، بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول. راجع كلامه برمته في «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» للسيوطي.

ولهذين العلمين يشير أبو القاسم الجنيد ﷺ بقوله: العلم علمان: علم العبودية، وعلم الربوبية، والبواقي حدس النفس.

وفي «الروضات العرشية في الكلام على الصلوات المشيشية» للشيخ سيدي مصطفى بن كمال البكري لدى قولها: وتنزلت علوم آدم ما نصه: واعلم أن أصول العلوم على ما قاله بعض أهل الفهوم مائة ألف علم أو أكثر، وأما الفروع فلا تحصر، وهي من حيث هي منقسمة إلى قسمين: علم درسي وعلم نفسي.

والأول علم الطروس، والثاني علم الصدور المحروس، والأول سفيره الإفهام، والثاني الإلهام، والأول كسبي والثاني وهبي والأول طريقه الجد والعناء، والثاني الغبطة والفناء، والأول حجة، والثاني محجة لقوله ﷺ: **«العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم»**. كذا في «الجامع الصغير».

والأول لا يستغنى فيه عن الوسائط الجمة، والثاني ربما يستغنى فيه عنها آخراً عند رفع الحجب المدلهمة، أو شل فيقول الذي قلت وسائطه: حدثني قلبي عن ربي، ويقول: من استغنى عنها حدثني ربي، أي: بطريق الإلهام.

قال أبو يزيد قدس الله سره: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وأنشد سيدي عمر بن الفارض قدس الله سره:

ولا تك ممن طيشته دُرُوسُهُ   بحيث استقلّتْ عقله واستقرتِ

=

فثَمّ وراء النقل، علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمةِ

تلقيته مني، وعني أخذتُهُ ونفسي كانت من عطائي ممدتي

قال: ثم العلم على قسمين من حيث أصل تقسيمه: قديم وحادث، فالقديم هو الصفة الكاشفة القديمة المتعلقة بالواجبات والجائزات والمستحيلات، والحادث هو ما أفاض به الحق وجاد به على عباده متنوعاً متكثراً مجملاً ومفصلاً، وما يفيضه عليهم دنيا وأخرى فإن فيض الحق لا ينقطع أبداً، وهذا العلم وإن حصل منه ما حصل فنسبته إلينا مجازية، وإليه حقيقية، لأنا بالنظر إلى أنفسنا لا علم لنا، وبالنظر لتعليمه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء: 113] ولما كان الأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 216].

وهذه العلوم منها ما هو من العلوم الشهودية، ومنها ما هو من العلوم الوجودية، ومنها حسية ومعنوية، وشرعية وعقلية، وعرشية وفرشية، وجلالية وجمالية، ودنيوية وبرزخية، ونشرية وحشرية، وأخروية وكثيفية، وفعلية وأسمائية، وصفاتية وذاتية، وغيبية وعينية، وملكية وملكوتية، وجبروتية ولاهوتية، وغير ذلك من العلوم التي لا تتناهي وكل واحد من هذه العلوم له مراتب في ظهوره وبدو نوره.

ففي أول الظهور قبل المعاينة يسمى علم يقين، وبعدها علم عين اليقين، وبعد التحقق فيه والاطلاع على ظواهره وخوافيه يسمى علم حق اليقين، ومع كثرة العلوم وتشعب الفهوم عند أهل الكشف وأهل الرسوم قال الله الحي القيوم ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء:85] فانظر هذا الخطاب الذي عم نظراً جميلاً، وقول الخضر عليه السلام لموسى الكليم عليه الصلاة والسلام: «ما أخذت أنا وأنت من علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر»، أو ما معناه تنمحق دعاويك الباطلة وتنسحق مساويك الهاطلة.

قال: واعلم أن العلوم الربانية والأسرار الرحمانية فيضها عجيب، وسرها غريب، لا تدرك إلا من طريق الذوق والوجدان، ولا تعرف إلا بعد المشاهدة والعيان، فقد يفتح على العبد المعتنى به في لحظة واحدة ما لو جلس يقرر فيه مدة عمره ما وفي به، إذ فيض الحق سبحانه وتعالى لا يقاس بغيره، فإنه فيض واسع من واسع عم الأنام ببره وخيره. انتهى المراد منه بلفظه.

قال بعض أهل الأنوار الغارقين في بحار الأسرار: والعجب من أرباب العلوم الظاهرة المحصلين من الاصطلاحات ما يقتبسون به من أنوار الكتاب والسنة الباهرة، كيف لا يشتغلون بعد تحصيلها بذكر الله ومراقبته، والإعراض عن كل ما سواه ومجانبته، على يد من هو أهل لذلك، ممن أقامه الله لإرشاد الخلق هنالك، حتى تنصب إلى قلوبهم مياه العلوم اللدنية، والأسرار الوهبية القدسية، التي لو عاش أحدهم ألف سنة فما فوقها في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها لا يشم منها رائحة، ولا يشاهد من آثارها وأنوارها لامعة ولا لائحة، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

=

ولهذا قال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ﷺ: خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلا ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[الأنعام:59].

وقد وقع لغير واحد ممن فعل ما ذكرناه، واقتفى سبل ما أرشدنا إليه وبيناه، أنهم كانوا إذا سئلوا عن مسألة دقيقة غامضة أتاهم الجواب من فيض الكريم الوهاب قبل تمام السؤال، فيجيبون من غير روية ولا فكر ولا إشغال بال بجواب سديد، محرر مفيد، فأين الفهم والأوراق من هذه الأذواق، ومن كان معلمه الحق، واستمداده من حضرة خير الخلق تضاءلت له الفهوم، وطافت بكعبة قلبه غرائب العلوم، كما جرى ذلك لغير واحد، ممن امتن عليه الكريم الوهاب الواحد.

ومن المعلوم لدى أهل السلوك والعلوم أنه لا تنفتح للسالك طرق المشاهدة إلا بعد الكد والمجاهدة، ولا تشرق أنوار العلوم اللدنية في جنانه، وتنفجر ينابيع الحكمة منه إلى لسانه إلا بالذكر والمراقبة، والإعراض عن السوء والمجانبة، وإن كتب التعليم لا تفي بذلك، ولا ترشد السالك إلى ما هنالك، والسلوك إليه تعالى من غير ملاحظة أحد من أرباب القلوب، لا يسلم صاحبه غالباً من الدسائس والآفات والعيوب، ولا يوصله إلى معرفة الله المعرفة المطلوبة عند العارفين، ولو عبد الله عمر نوح عليه السلام أو ما زاد عليه من السنين، بل أجمعوا على أن من لم يصح له نسب في طريق القوم كان لقيطاً، وفعله وقوله تخليطاً وتخبيطاً، والسير إليه تعالى بغير دليل يوقع السائر غالباً في التيه والعطب والتهاويل.

والدليل: هو الشيخ المربي يعرفك بحقائق الكائنات، ويوقفك على معاني التجليات، فلا يضرك شيء من الأشياء، ولا تحجبك الظلالات والأفياء، ثم إنه تارة يربي بالإلقاء الإلهامي من القلب إلى القلب، وتارة بتقرير العبادات وتبيين الإشارات، وبيان ما في السلوك إلى ملك الملوك، وتارة بإلباس خرقة الصوفية المشهورة، وما يناسبها من الخلوة وغيرها، وتارة بنظره وهمته وحاله، فيسري الحال الصادق منه إلى المريد الصادق، وتارة التربية بنظر المريد إليه وذلك أنه إذا رأى الشيخ ذكرَ الله، فيصل بذلك وينجذب به إلى الله، ويختلف ذلك سرعة وبطئًا باختلاف الاستعدادات، وبالإخلاص في الخدمات والأدب مع المشايخ وحفظ حرمتهم غيبة وحضوراً.

وطريق من أراد السلوك ولم يجد بحسب الظاهر مُسلِّكاً ولا مستجمعاً للشروط متفانياً في الله هالكاً أن يلتجئ إلى الله تعالى ويرفع إليه أمره، ويشكو له حاله وضره، ويتشفع إليه بالرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته ورفعة ذاته، في أن يدله على من يدله عليه، ويوصله إلى من يوصله إليه، ويبالغ في اللجأ والسؤال في كل وقت وكل حال.

وليحذر أن يلقي نفسه إلى كل من يلقاه من المتمشيخين في هذا الزمان، الذي ظهرت فيه أهل الدعاوي واختفت فيه أرباب العرفان، وليكثر من زيارة الصالحين الأموات لذلك، فإنها مجوبة لقضاء وطره هنالك، وليكثر أيضاً من الاستخارة بعد استعمال ما يمكن من الاستشارة، فإنه ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، كما في الحديث، إلى أن ينشرح صدره الانشراح التام،

ويبتهج قلبه وقالبه بأحد من مشيخة الأنام، إما بمرائي منامية تــزيل الريب، وإما بدلالة أحد من رجال الغيب، ولذا استحب أهل الطريق الخلوتية وغيرهم من بعض أهل الطرق الجلية أمر المريد بالاســتخارة الــتي بالمراد ناطقة، ليدخل الطريق بهمة عالية صادقة، وإذا صدق المريد في الطلب أوقعه الله لا محالة على شيخ يزيل العطب.

وقــد قــال القوم رضوان الله عليهم: وجدان الشيخ الكامل المربي لازم من صدق المريد، فمتى صــدق المــريد في إرادة الله تعالى وجد الشيخ الكامل المرشد إلى الله، لأنه حجة الله تعالى على خلقــه في الأرض، لا ينقطع ولا يبرح عنها إلى يوم القيامة، ومتى كذب المريد في طلبه لم يجد له مرشــداً أصــلاً، قــال تعــالى: ﴿مَــن يَهْــدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِــداً﴾[الكهــف:17] بل إذا كان المريد صحيح النية والاعتقاد ووقع على متمشيخ من أهل الــدعاوي والبعاد، أوقع الله في نفس ذلك المتمشيخ ما يفتح به على هذا المريد، وأوصله بصدق نيــته إلى كل ما يريد، فعاد النفع على المتمشيخ بذلك، وربما كان المريد سبباً في رجوعه وتوبته عمــا هو فيه هنالك، فالمدار على الصدق، فيه ينال من الله تعالى كل خير ورفق، فإن تعزر عليه بكــل وجه وجوده، وتعسرت عليه بالكلية رؤيته وشهوده، فليتعرف عيوب نفسه وعلاجاتها من كــتب القوم العارفين والنصحاء الواصفين، وليشتغل بما ينشر له من أخلاقهم وشمائلهم وآثارهم، وليــستروح إلى ما يجده من سيرهم ومأثور حكاياتهم وأخبارهم، كما أنه إذا لم يجد المتطهر ماء يتــيمم بالــصعيد إلى أن يجد الماء الطاهر النقي المعد، والله الهادي وبه التوفيق إلى سلوك أسلم طريق.

العلم الثالث منها: علم الغيب الذي هو كل ما غاب عن الخلق ولم تنصب عليه علامة ولا دليل، ولم تمكــن معرفته إلا بإعلام الملك الجليل، والغيب الحقيقي هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الغَــيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:26-27] والولي التابع للرسول منه يغترف وعنه يأخذ، وبإمداده يستمد، وإليه في كل حالة يستند.

فالأول: وهو علم الشريعة للخاص والعام.

والثاني: وهو علم الحقيقة لخواص الأولياء والصالحين.

والــثالث: وهــو علم الغيب للأنبياء والمرسلين، ومن كان على قدمهم، وهم متفاوتون في هذه العلوم بحسب أذواقهم ومشاربهم، وقابليتهم واستعدادهم، وربما اختص بعضهم بشيء منها دون الآخــر، كمــا اختص رسول الله ﷺ بأشياء منها لا تليق إلا به، وبكونه الممد بها كلها والقاسم لأعطيتها، والمانح لكل ذي قسط قسطه منها، لأنه الواسطة في كل شيء، وعلى يده الهبة من الله تعالى لكل شيء، ولا يخرج عنه شيء ﷺ.

وبعــبارة أخرى: العلوم ثلاثة: علم ضروري، أو نقول: بديهي، وهو: ما يدركه العقل بالبداهة، أعني بمجرد الالتفات إليه من غير احتياج إلى ناقل، ولا إعمال فكر ولا إلى استدلال.

وعلم نظري، أو نقول: كسبي، وهو: ما يحتاج العقل في إدراكه إلى تعلم واكتساب أو نظر واستدلال، وهو المشار إليه بحديث: «إنما العلم بالتعلم» أخرجه ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية.

قال في «فتح الباري»: وإسناده حسن، لأن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر انتهى.

وعلم وهبي أو نقول: لدني وهو ما يهجم على القلب ويفيض على الصدر، لا بالدراسة والتعلم، ولا بالنظر في الكتب والتفهم، بل بالاستقامة على قدم المصطفى والتخلق بأخلاقه الكريمة وحسن الاقتفاء، والزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله، عرف سببه الذي ألقي منه أم لا، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيرا، وكشف عنه العمى»**. أخرجه أبو نعيم في«الحلية»، والديلمي في «مسند الفردوس».

وقوله: **«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»**. أخرجه في «الحلية» من حديث أنس وضعفه.

وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69] أي: الطريق الموصلة إلينا.

وبقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة:282].

وقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال:29] أي: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، وتخرجون بها من الشبهات.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3] قيل في تأويله: يجعل له مخرجاً من الإشكالات والشبه، ويعلمه علماً من غير تعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:31] ومن أحبه الله فتح له الباب، وأدخله حضرة الاقتراب، وأجلسه مع الأحباب، فرأى الغيب شهادة، وصار له من الله الكشف عادة، وأفيضت على قلبه مياه الحقائق، وانكشفت له البراقع عن وجوه الدقائق، وعلمه الله من لدنه علماً وعرفه بنفسه، وأدرك السر الأسمى.

ويقال أيضاً: العلوم ثلاثة: علم جهر وعلانية، أو نقول شهادة، وهو كل ما ظهر للحس، أو أمكن عادة إدراك الحس له ولو في وقت ما، ويدخل فيه كل ما أبرزه الحق تعالى من المخلوقات، وأظهره من العوالم وسائر المصنوعات.

وعلم سر، أو نقول: غيب، وهو كل ما غاب عن الحس ولم يمكن بحسب العادة إدراك الحس له، وإنما يدرك بالعقل إما بالدليل القاطع أو بالخبر الصادق، وهو إدراك الإيمان، ويدخل فيه كل ما لم يوجده تعالى من الممكنات أو كان بينه وبين خلقه من الأسرار المبهمات.

وعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما لا يعلمه إلا الله تعالى ولا يمكن أن يعلمه غيره، كعلمه تعالى بنفسه.

وإلى هذه الثلاثة على أحد التأويلات الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه: 7] وقيل أيضاً: العلوم ثلاثة: علم يتعلق بكل ما سوى الحق تعالى ويسمى بعلم الحوادث والأكوان.

وعلم يتعلق به تعالى من حيث تجليه في حقائق العالم، أو نقول من حيث ارتباط العالم به، وارتباطه تعالى بالعالم ارتباط الإله بمألوه والمألوه بالإله، ويسمى عند أهل الله تعالى بعلم التجلي الظاهر في أعيان الممكنات.

وعلم يتعلق به من حيث باطنه وهويته، أو نقول من حيث هو هو، مع قطع النظر عن تعلق العالم به وتعلقه بالعالم، ويسمى عندهم بعلم الهوية الباطنة، يعنون بها ذات الحق سبحانه.

وذكر ابن العربي الحاتمي والشعراني وغيرهما أن العلوم على ثلاث مراتب، أو نقول منازل:

علم العقل: وهو كل علم يحصل لك ضرورة، أو عقب نظر في دليل، وعلامته أنه كلما بسطت عبارته حسن وعذب.

وعلم الأحوال: ولا سبيل إليه إلا بالذوق، ولا يقدر عاقل على حده ولا على أن يقيم دليلاً على معرفته البتة، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع، والعشق والوجد والشوق وما شاكل ذلك، ولا يلتذ به إذا جاء عن غير معصوم إلا أصحاب الأذواق السليمة.

وعلم الأسرار: وهو العلم الذي فوق طور العقل، وليس للعقل فيه دخول بفكر، ولذلك يتسارع إلى صاحبه الإنكار لأنه حاصل من طريق الإلهام الصادق، الذي هو نفث في الروع وفيض إلهي لا يخطئ، ويختص به النبي والولي وعلامته أنه إذا أخذته العبارة سمج وبعد عن الأفهام دركه، وربما رمت به العقول الضعيفة أو المتعصبة التي لم تؤت النظر والبحث حقه.

وأكثر علوم الكُمَّلُ من الأنبياء والأولياء من هذا القبيل، راجع «اليواقيت» وكذا «الفتوحات المكية» في أول مقدمتها.

وقال بعضهم: العلوم ثلاثة:

علم القول: وصاحبه يستند في قوله إلى غيره حاكياً عنه.

وعلم الفهم: وصاحبه يستند في تصوره إلى ذهنه حاكياً عنه.

وعلم الشهود: وصاحبه يستند في شهوده إلى حقيقة ما شاهده حاكياً عنه.

فَمُعَلِّمُ الأول آخر مثله، والثاني فكره وذهنه، والثالث ربه كما قال بعض العارفين، وهو أبو يزيد البسطامي قدس سره يخاطب علماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت حين جهلتم أنه عن ربكم، وأخذنا نحن علمنا عن الحي الذي لا يموت بلا واسطة، بل قلبنا يحدثنا عن ربنا، وشتان بين من ينطق عن غيره أو عن فكره وبين من ينطق عن ربه.

وقد انقسم الإيمان إلى هذه الأقسام الثلاثة:

فبالقول: إيمان المقلدين مع طمأنينة قلوبهم إليه من غير فهم أي: استدلال، وقد اعتبره الشارع وسماه إيماناً.

وأصل ذلك العلم الإلهي الاعتقاد والسلوك والسير والطير وهم ورثة أصحاب الصفة الذين كانوا نحوًا من أربعمائة ويسكنون في صفة مسجد رسول الله ﷺ من المزاج استمع إليهم فوجدهم يتذاكرون فيما بينهم ما جرى بينه وبين ليلته من المعاملات الروحية والمسارات السيرية فتعجب من ذلك، فقال الله: إن السلطان لا يطرد ندماءه عند ضيافة من أحبه فأنت حبيبي وهم ندمائي، فكيف أطردهم عن مجلسي ومجلسك، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52] أخبره عن دوام ذكرهم وأنهم جلساء الله بالغداة والعشي، قال: «**أنا جليس من ذكرني**»(2).

وقد خصهم الله تعالى بإرادته عما سواهم فكل يريدون منه وهم يريدونه وما يريدون عنه دونه كما قيل، وكل له سؤل ودين ومذهب، ووصلكم سؤلي، وديني رضاكم.

ثم نرجع ونقول: أخبرنا حضرة الشيخ يومًا، فقال: إن دأب الأولين كان على أن يقيموا في المدارس إلى أن يتهيأ لهم الفراغ من العلوم الرسمية وتحصيلها فإذا آل أمرهم إلى الكمال الصوري كان من وفقه الله لطلبه يتردد على خانقاه واحد من أكامل المشايخ وأفاضلهم لتحصيل الكمال المعنوي ليستكمل نفسه علمًا وعملاً وصورةً ومعنىً وشريعةً وحقيقةً فكانت الخانقاهات لا يدرس فيها شيء من العلوم الظاهرة كما لا يذاكر في المدارس شيء من العلوم الباطنة، وكانوا يعملون بقوله: لكل مقام مقال ولكل مقام رجال، وكان أهل الخانقاه أهل علم وتحصيل لا احتياج لهم إلى التدرس والتعلم، وأما الآن فآل الأمر إلى الجهل فلا في الخانقاه خير ولا في المدرسة علم.

قال: ولذا حركني الله تعالى لإحياء الدين بإحياء علم الظاهر أولاً ولا استخلف أميًّا بحتًا، وإنما استخلفه بعد التعليم له علم الحال على وجه التمام والكمال وحصول الملكة

=

وبالفهم: إيمان المستدلين، وقد دعا الله تعالى إليه في كتابه في غير ما آية كقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190]، وقوله: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17]. وبالشهود: إيمان العارفين، وهو أعلى مراتب الإيمان..

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (108/1)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (68/1).

له والاستخراج ولو من الكتب المؤلفة على اللسان التركي، فإن المقصود هو العلم، والعلم واحد لا يختلف باختلاف اللغات والألسنة.

أقول: وكان دأبه - روَّح الله روحه - أن يعلم العلم الظاهر ثم يستخلف؛ فإن كان للطالب استعداد لأخذ اللغة العربية حمله على تحصيل العلوم بالترتيب وإلا حرضه على الأخذ من الكتب التركية بأي وجه كان.

فإن قلت: الإنسان خُلِقَ مستعدًا للكمالات الصورية والمعنوية، فهل في الناس أحد لا يمكن له أخذ اللغة العربية وإنما ذلك من بطالته وعدم اجتهاده كما ينبغي؟

قلت: الإنسان وإن خلق مستعدًا لها لكن الاستعدادات متفاوتة فمن واحد له اسم كلي يربيه من جميع الوجوه، ومن واحد له اسم جزئي ينحصر دونه، أما رأيت أحدًا لا يساعده لسانه على التكلم بالفارسي مثلاً بحسب جبلته وفطرته، وإن كان ذلك لسانًا لطيفًا، فقس العربي عليه فما هو سهل عند واحد صعب عند غيره ممن لم يستعد له [...][1] ألا ترى أن العصفور لا يقدر على التكلم والترنم مثل البلابل فمن أخذ في تعليمه ليترنم مثله ضلَّ سعيه، وكان كمن يرقم على الماء فالشيخ لا يقدر على نفخ الروح لشيخ ليس له استعداد لذلك، ونعم ما قيل: [...][2].

وحكي أن واحدًا من المشايخ الأميين سألوا عنه الوعظ والتذكير مكابرة وعنادًا فنام محزونًا فرأى رسول الله ﷺ في المنام فأشار إليه بالجلوس للوعظ فلما استيقظ أخذ يتكلم من العلوم ما يتحير فيه العلماء، فقال: أمسيت تركيًا وأصبحت عربيًا وهذا اختصاص إلهي لا يقاس عليه غيره، والاستعداد إذا كان في القوة القريبة من الفعل، فإذا تفاجأ ظهور أثره يظن الجاهل أنه جاء من غير استعداد، وأنه كالمرآة المصنوعة من الحجر فقبلت الصقالة وليس كذلك.

وأما قول صاحب «المثنوي»: [...][3] فبالنسبة إلى المستعد إذ لا يصلح العطار والطبيب ما أفسده الدهر، ألا ترى إلى قول الشيخ سعدي: [...][4] فإن العلاج إما جسماني أو روحاني فالأول في الأمراض الظاهرية كما يفعله الأطباء، والثاني في الأمراض

---

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

(3) كلام غير عربي.

(4) كلام غير عربي.

الباطنية كما يفعله الحكماء الإلهية وكلاهما بالنسبة إلى القابل لا إلى غيره، فلا تطمع في أن يكون البليد جليدًا ودم الحيض وليدًا.

ورأيت بعض أهل الغرور يتطلب من يصرف له الهمة، ويفيض عليه النفس من غير أن يتهيأ له ويعرف أنه هل هو ممن يقبل الهمة والنفس بموجب استعداده أو لا بمقتضى عدمه فما أطمعه! فلو قلت فيه: هو أطمع من أشعب يتمنى حصول المقاصد لا سعي ولا تعب في الطلب لصدقت؛ فإنه لا معنى للطمع الفارغ، ولئن سلم اجتهاد فالله يعطي الحكمة من يشاء.

وتحقيقه: إن لسان الاستعداد قد سأل ما سأل من الكمال والنقصان والمرء في موطن العلم والثبوت كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الرحمن:29] فجرى الأمر على ما أراد في النشأة العين والوجود كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [يوسف:6] فكل ما يظهر إنما هو أحوال الممكنات، وإن هم في غفلة من هذا، فالله يقضي بينهم يوم القيامة، فلله الحجة البالغة، فافهم جدًّا.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن حضرة الشيخ - قدس سره - كان يبالغ في التعليم لكل بليد وجليد إلى أن يظهر في مرآته صورة غاية استعداده وكان لا يخلو من التحرير ترغيبًا للطلاب، وتحريكًا لأذهان أهل الاجتهاد، وأولي الألباب إذ لا بدَّ من ذلك في كل زمان لما أنه كالسوط، وقد قيل: «أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب، وأورع النساء لا تستغني عن الزوج، وأوفر الدواب لا يستغني عن السوط» وذلك أن العلم قد يخلق كاللباس فيقتضي الحال تجديده، ألا ترى إلى قول بعضهم: يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل، وهو الذي يضرب به المثل في الذكاء والعقل.

قال في «إنسان العيون»: لعل هذا هو المراد بما جاء في الحديث: «**يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»(1) والمراد بـــ «رأسها»: آخرها بأن يدركه أوائل المائة التي تليها بأن تقضي تلك المائة وهو حي، وادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث، والظاهر والله أعلم أنه يعم جميع العلماء من كل طائفة وكل صنف مـــن أصناف العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء والنحاة واللغويين إلى غير ذلك من الأصنــاف كــذا قالــه الســخاوي في «المقاصــد الحسنة» و﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ**

(1) رواه أبو داود (3740)، وذكره السخاوي في المقاصد (ص 68).

فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53].

والتحقيق: إن صلاح العالم منوط بشيئين العلم والعدل، أما العلم فظاهر وباطن ولكل منهما أهل في كل زمان لكن يتفاوت حالهم بالظهور والخفاء والرد والقبول على حسب استعداد الوقت وأمر التجديد موقوف على الظهور والقبول، وأما العدل فأنفسي وآفاقي، والذي يليق أن يكون مظهرًا تامًّا له هو السلطان أو من في حكمه، وإنما يظهر أثر هذا الاسم بالعمل الشرعي وإظهار العدل في عالم الأنفس أولاً ثم في الآفاق ولا يكون إظهار الكل في الآفاق إلا بالسيف إذ أبناء الزمان لا يصلحهم إلا أبو السيف، فقد انحصر الأمر في علم العلماء العاملين أيًا من كانوا وعدل السلاطين والأمر بسلٍّ السيف على الذين خانوا، وذلك لا يكون على الكمال إلا في رأس كل مائة سنة إذ للزمان عمر كعمر الإنسان، فأول المائة كأول الولادة، وآخرها كوقت الوفاة فكما أن المولود يتدرج قوة وكمالاً إلى أن يصير شابًا ثم يأخذ بالهبوط متنـــزلاً إلى أن يفسد الحواس، والقوي ينحل الأجزاء والأعضاء فيموت، فكذا الزمان في أول المائة يترقى في الاستكمال ثم يأخذ في النقصان كالقمر بعد البدر إلى أن ينتهي إلى آخرها ومعنى أخذه في النقصان اختلال أبنائه وقبول الأرض الفساد بعد صلاحها، ومن المقرر أنه إذا وقع الاختلال في المزاج لا بدَّ له من العلاج وإصلاحه بما يؤدي إلى الاعتدال ليعود إلى ما كان عليه من حسن الحال.

ومعلوم أن هذه العجوز - أي: الدنيا - لا تموت إلا مرة ولكن تلد مرارًا وتمرض كرارًا ومعالجتها إنما تكون بالعلم والسيف، وقد باشر الأول وهو العلاج بالعلم الظاهري والباطني الحكيم الإلهي هو حضرة الشيخ - روَّح الله روحه - من أوائل السنين بعد الألف إلى تمام المائة فيكون مدة الاشتغال أربعين سنة فكان في هذه المدة ما كان من الآثار الجليلة ولا يستريب عاقل في كونه مجدد الدين في رأس هذه المائة إلا أنه لم يظهر السيف بعد والسنة هي الثالثة بعد المائة و﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم:4 - 5] وكل آت قريب، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 38] وليس من شرط ظهور السيف وأهله أن يكون ذلك في أول المائة الثانية، وهي السنة الأولى منها أن الابتداء إضافي كالانتهاء، ولا يناقش فيه إلا الجاهل.

فأول ما أفرغه حضرة الشيخ في قالب التدوين شرحه المسمى بـــ «فتح الباب على الرسالة العضدية في علم المناظرة والآداب» وذلك في علم الظاهر دون الحقيقة إذ هذه الرسالة دونت في القسطنطينية، وكان قد صنف قبل قدومه إليها حين كان في مدينة «فِلِبة»

من المدن الرومية شرحه على «فصوص الحكم» ثم أحرقه كما أومأنا إليه عند ذكر كتبه الحكمية في المتقدم، وسمعت من فِيه ﷺ أنه قال: لما قدمت القسطنطينية وأشير إليّ بإبطان علم الباطن وإظهار علم الظاهر ولم يكن عندي مال ولا كتاب إذ ما قبلت شيئًا حين كنت في ديار الروم مع توفر الهدايا وتكثر العطايا فأردت أن أستعير من واحد من العلماء نسخة «المطول» فاستبعد أن يكون لي ملكة الاستخراج منها، فقال لمن أرسلته: درس المعاني صعب لا سيما أن المطول من أجلِّ ما دون فيه؛ فهو وعر المسلك، صعب الوصول إليه، فهل له قدرة على أن يفهم شيئًا من بديع بيانه، ويعقد لجيد عقله حبة من عقود جمانه؟ قال: فلما بلغني هذا الخبر توجهت إلى الله تعالى إعطائي من العلوم والقوة العربية ما لا يمكن بيانه، وجعل علم النحو والمعاني والأصول مسخر إليّ بحيث كان عندي كالأمثلة الصرفية، وأشير إلى الآن بتحشية المطول فكان ما كان، والمنة لله المنان.

أقول: وكنت أقول عليه المطول حين تحشيته، وذلك في سنة خمسٍ وثمانين بعد الألف، وكانت الطلبة يجتمعون في البيت الفوقاني من داره الجديدة - المار ذكرها - وكان يكتب الحاشية في الحجرة المتصلة بالحمام في الحرم، ويدرس بعد العصر إلى المغرب، ويراعي الأدب في الجلوس والكلام خصوصًا أدب الدرس؛ فكان لا يجيز وضع الكتاب على الأرض أي: للطلبة الحاضرين عنده إذ كان هو نفسه يتكلم من الحفظ، لم يكن عنده وقت الدرس كتاب أصلاً إلى أن قضى نحبه، ويأمر برفع الكتاب إلى حذاء الصدر تعظيمًا للعلم، ولا يرضى بإخراج جزء من الكتاب والقراءة منه ولو كان غير مشرَّز، بل يأمر بأخذ الكتاب كله، وكان مجلسه على السكينة والوقار غير أنه كان يمزح في بعض الأوقات لمن له لكنة في لسانه، وغن في لهجته، إذ كان مع ثقل حاله، وعظم مقامه خفيف الروح، غير متكلفٍ أصلاً.

وكان قد عين واحدًا يقرأ قبل فتح الدرس وبدئه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [الحشر:22] إلى آخره، ويختم الدرس بالكلمة الطيبة مرارًا جهرًا مع الحاضرين، ثم يقرأ الفاتحة.

وكان من عادته الدعاء للمصنفين عند ختم الكتاب، وكان يمدح سعد الدين التفتازاني صاحب المطول، ويقول: إن في تأليفاته يمنًا وبركة ليس في تأليفات السيد الشريف، ولذا كان أكثر المتداولات كتبه لا كتب الشريف.

وكان يتكلم على الاختصار، ويجتهد في الإفهام، ولا يرضى بغلط الإعراب، ولا

بالمكالمة بمن في جنبه ولا بالنظر إليه وإلى من يجيء من الباب، ويكتفي بالمتون وما حكمها، ويوصي بذلك، ويقول: إن الشروح والحواشي والكتب المبسوطة تعطي التفرق للطلاب، ويمتد زمان التحصيل وكان لا يُدرِّس يوم الثلاثاء، ويوم الجمعة عيد المؤمنين، ويوم الثلاثاء يوم تعطيل للطالبين، فيوسع لهم في هذا اليوم ليندفع الانقباض والفتور والملال الحاصلة من كثرة الاشتغال، ويحصل النشاط والانبساط الجديد الباعث على المطالعة والتحصيل، فكان لا يفعل الدرس فيهما ويوصي بذلك.

وجاء مرة مكتوب الشيخ السيد عبد الباقي خليفته في أدرنة فيه أنه مشغول بالدرس في أيام الأسبوع كلها حتى يوم الجمعة، فغضب وعد ذلك من الإفراط، ونبهه على خطئه في ذلك، فاعتبر من ذلك، واقتف أثر أهل الأصول والآداب حتى ينفتح لك ما انفتح لهم من الباب؛ فإن كل خير إنما هو في المتابعة دون استقلال، كما يعرب عند النصوص بالتفصيل والإجمال.

ثم صنف حاشية على «التلويح في الأصول»، وكان قبل أن يشرع فيها لا يأذن لحضور الدرس إلا للخواص وهم الصوفية السالكون في حريم الجامع الشهير بجامع قول، وفي الزاوية الشهيرة بزاوية زيرك كما أسلفنا ذكر كلٍ منهما، وكانوا يبلغون ستين رجلاً لما شرع في حاشيته أذن إذنًا عامًا فكثر المترددون من طلبة المدارس، وكان الحاضرون جمعاً عظيمًا واستمر المجلس إلى أن تمت التحشية بفضل الله تعالى، وجاءت على أبدع أسلوب.

ثم صنف شرحه على التنقيح، فجمع فيه مقصود التلويح والتوضيح، فوائد زائدة، ويكفي هذا الشرح منفردًا شاهدًا على فضل الشيخ، وسعة إحاطته؛ فإن علماء الزمان عاجزون عن درك مقاصد هذه الكتب الثلاثة وهي: التلويح، والتوضيح، والتنقيح فضلاً عن تعليق حاشية، أو بسط شرح عليها.

ثم صنف حاشية على المختصر في المعاني في أربعة أشهر، ثم شرع في تحشية التلخيص، وذلك حين كونه منفيًا إلى قلعة ماغوسة من القلاع القبرصية، ولما بلغ إلى النصف ظهر المانع، وبقي النصف الأخير على حاله حتى قضى نحبه – روح الله روحه – وسيجيء في محله.

فانظر أيها المنصف إن هذه الكتب لم يتعرض لتحشيتها بعد المولى الشهير بحسن جلبي بن الفناري إلا حضرة الشيخ، والشمس شمس، وإن لم يرها الضرير.

ومن جملة الكتب التي ألفها حضرة الشيخ: تفسير الفاتحة، وشرح مفتاح الغيب، وكتاب اللائحات البرقيات، والرسالة الرحمانية، والرسالة البرقية هذا كله في التصوف كما أسلفنا في الفصل المتقدم، وشرح الرسالة العضدية، وشرح التنقيح، وكلية التلويح، وحاشية المطول، وحاشية المختصر هذا كله في العلوم الرسمية.

وكان دأبه في خواصه: الأمر بالخلوة، والسلوك بعد تحصيل ما يتعلق بالرسم، وكان يجعل مدة خلوتهم بتسعين يومًا ويقول: إفلاس المرء إنما يظهر في هذه المدة، وكان لنفسه النفيس يمن وبركة في الظاهر والباطن، بحيث كان بعد التدريس منه سنة بدل التدريس من غيره سنين، وكذا تربيته وإرشاده؛ فإن أكثر من دخل في خلوته انفتح باب باطنه قبل الوصول إلى الأربعين.

وكان لا يعبر الرؤيا إلا قليلاً، ويقول: المقصود هو معرفة الحق، والرؤيا وإن كان لها دخل في معرفة أحوال النفس والطبيعة والقلب والروح إلا أنها حال البرزخ لا حال التعين، والمقصود وجدان المعنى في التعين دون البرزخ فربَّى أحسن التربية على حسبما يسعه حال المريد، ويقول: من المعارف الحقة ما يتحير فيه السامع.

وكان إذا تلا آيةً أو حديثًا يعد كأنها أنزلت غضة طرية من شدة التأثير، وزيادة التحقيق.

وكان يأمر زمان الخلوة بالخدمة في بلدة من البلاد، ويوصي بالحق والصبر، ويقول: إن هذا أول الطريق، وأما نهايتها فعند أربعين سنة، فقد عرفت الحال، فقم بما عندك من المعرفة، واجتهد شريعةً وطريقةً إلى أن يأتيك اليقين، ولا تظن أمرًا محصورًا في هذا، ويقول: إن المريد لا بدَّ وأن يمكث عند شيخه سنين كثيرة إلا أن الزمان لا يتحمله، والوقت لا يسعه، وما علينا إلا البلاغ وقد حصل.

وله خلفاء عالمون ناصحون أكثر من مائة بعضهم في أرض العرب، وبعضهم في الديار الرومية الشهير بروم إيلي، وأناطولي، ولم يتفق في قريب الزمان مثل هذه الجمعية والاستخلاف، وكان بعض خلفائه قد وقع له شرح الصدر بشهادة حضرة الشيخ.

وكان يفطر في الأسبوع مرة على ما شاهدته في داره المنيفة، ولله الحمد على الوراثة.

وليست هذه الآثار إلا لما سبق من أن الله تعالى أعطى الشيخ مصحفًا وقال: ادع عبادي إليَّ، ونرجو من الله تعالى أن يشرفنا وإياكم بحقيقة العبودية، وجعلنا وإياكم ممن

أجاب داعي الحق آمين.

واستخلف في مقامه في القسطنطينة ابنه الكبير الشيخ محمد الجودي - سلمه الله تعالى - وذلك قبل وفاته بثلاث سنين.

وكان حضرة الشيخ محمد الجودي قد حفظ القرآن وهو ابن ثماني سنين، وقرأ علم الصرف وهو ابن تسع، والنحو وهو ابن عشر، وعلم الميزان وهو ابن إحدى عشرة، وعلم المناظره والآداب وهو ابن اثنتي عشرة، والبلاغة وهو ابن ثلاث عشرة، والأصول وهو ابن أربع عشرة، والفقه والتفسير وهو ابن خمس عشرة، ولم أر مثل هذا الاستعداد فيما بين أبناء الزمان.

وهو أول من أرَّختُ لولادته، وذلك أنه لما تشرف بولادته الزمان، وكحلت بنور وجوده عين الكون والمكان خطر ببالي أن أقول فيه تاريخًا تركيًا أستجلب به همة حضرة الشيخ، لكن أردت أن يكون لقبي كما هو عادة أرباب النظم شيئًا لم يتلقب به أحدٌ من السلف؛ فتوجهت إلى روحانية حضرة الشيخ فألقى في روعي أن أتلقب بكلمة حقي أي أن يكون نسبتي إلى الاسم الحق، وقد ورد أن الأسماء والكنى تنزل من صوب السماء، فقلت تاريخًا لولادته وذلك في سنة خمس وثمانين بعد الألف، فعرضته حضرة الشيخ فلما رآه سُرَّ به ولكن أمر بتغيير بعض ألفاظ المنظوم، وهو تعبيري عن حضرة الشيخ بقطب العالم، وقال: ما أنا بقطب، وما رأيت القطب قط، ولكن آمنت به، ثم قال للحاضرين: فإن قلتم نحن آمنا به أيضًا فما الفرق بيننا.

قلت: إن إيماني عياني لا برهاني فلا يقبل الزوال أصلاً، وهي مرتبة عظيمة، وهي مرتبة عند من يعرف حقيقة الحال.

أقول: وبعد التلقب المذكور كنت أتصفح كتاب الفصوص، فإن عنوان الكلام الإسحاقية فص حكمة حقية؛ فأعجبني هذا الاتفاق، وذلك أن حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - وإن صرح في مواضع بأن الذبيح هو إسحاق، لكن قال بعض أرباب التأويل: إن الذبيح هو إسماعيل، لكن الشيخ أشار إلى اتحاد إسماعيل وإسحاق في حقيقة التسليم والانقياد، فالكلمة الإسماعيلية الإسحاقية إذًا واحدة، وفص هذه الكلمة حكمة حقية، واسم هذا الفقير: إسماعيل، فكان اللقب على ما أشار الشيخ في الفصوص أي: جاء مطابقًا لإشارته.

وقال لي حضرة شيخي وسندي: الاسم الحق فيه معنى الشدة كالمليك، ولذا كان

عمر ﷺ شديدًا من حيث مظهريته للاسم الحق، وأنت لقبك وهو يقتضي الشدة، ولذا كنت محسودًا بين الأقران، وكثيرًا ما يقول، يا حقي إن الله لقبك بهذا اللقب حكمة منه، فلا يضيعه، نسأل الله سبحانه أن يفتح بصائرنا، وأرانا الحق كما هو كما ورد، أرانا الأشياء كما هي، وأن يجعلنا مع أهل الحق والصدق ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:119] أي: عند ربهم لا صدقهم عند الخلق؛ فإن المنجي هو الأول، إذ رُبَّ صادقٍ عند الخلق، كاذبٍ عند الحق، والعياذ بالله تعالى.

الفصل الثاني عشر /

في الكرامات الكونية لحضرة الشيخ

اعلم أني لا أقدر أن أصف لك حقيقة الحال في باب الكرامات العلمية والكونية، وأن أربابها من أي مقام يأخذون ذلك لسعة دائرة المقال هنالك إلا أني أقول: أهل الكرامات العلمية، وهي الكشوف المتعلقة بأفعال الحق، وصفاته، وذاته، والفتوح الفاتحة لأبواب الحقائق في جميع الأطوار والمراتب، أفضل من أهل الكرامات الكونية أي: الكشوف المتعلقة بحقائق الكون، وذلك لأن السالك إذا لم تساعده العناية الأزلية في الوصول إلى مقام الأحدية يبقى في طور من الأطوار فيكون من أهل البرازخ مثلاً، يجاوز من عالم العناصر ولا يتجاوز إلى ما وراءه من الطبيعيات، وإلى ما وراءها من مرتبة الأرواح وهي عالم الملأ عند الصوفية المحققين وعالم الخلاء عند الحكماء المقلدين وإلى ما وراءها من الأعيان، وإلى ما وراءها من الشؤون، وإلى ما وراءها من مرتبة الأحدية الذاتية.

فالواصل إلى مقام الفناء، وهو الخلوة مع الله بقطع جميع الأطوار وكذا المردود إلى النشأة الأولى للإرشاد غالب الحال فيهم عدم الابتلاء بالكرامات الكونية أي: بإظهار خوارق العادات مثل المشي على الماء والطيران في الهواء وطي المكان وبسطه ونحو ذلك إلا أن يكون هناك قوة داع وأذن معنوي لإظهارها، وإذًا يقع نادرًا.

وأما أرباب البرازخ فغالب الحال فيهم الابتلاء بها وأكثر ما يظهر الكرامات الكونية منهم لا من غيرهم.

فإن قلت: لم لا تصدر الكرامات الكونية غالبًا من أهل الكرامات العلمية إلا نادرًا؟

قلت: لأنهم بمنـــزلة السلاطين، وأرباب الكرامات الكونية بمنـــزلة الوزراء والتصرف الظاهر مفوض إلى الوزراء، فهم حاملون من أمور الناس ما لا يحمله السلاطين، وكانوا مترددين بين الخوف والرجاء والقائلين: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:9] كما هو حال الأبرار بخلاف المقربين الذين هم بمنـــزلة السلاطين؛ فإنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والحاصل أنه لا خلاص إلا بعد الخروج من عالم الشيطان والدخول في عالم الرحمن وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40] فالمخلصون بكسر اللام بالنسبة إلى المخلصين فتحها كمن هو في خارج القلعة بالنسبة إلى من في داخلها إذ

ليس له أمن من أن يصل إلي مكروه كامن هذا ولكن حال أهل الكرامات الكونية أعلى عند من له جهل بالمراتب كالعامة ولكن التفاوت في درجات الأولياء إنما هو بالعلم بالله من حيث الارتباط بينه وبين الخلق، وانتشاء العالم منه بقدر الطاقة البشرية إذ منه ما لا يعينه الطاقة البشرية، وهو ما وقع فيه الكُمَّل في ورطة الحيرة، وأقروا بالعجز عن حق المعرفة كما في شرح «مفتاح الغيب» المسمى بـــ «مصباح القلب» لشيخنا الأجل الأكمل - روَّح الله روحه - فاندفع بهذا ما في الحواشي الحسنية على «المطول» من أن الباء في قوله ﷺ: **«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله»**[1] بمعنى الإعلام مجازًا لا صلة العلم أي: العلماء المخلصون له كما أشار إليه بقوله ﷺ: **«من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»**[2] انتهى إذ لا يخفى أن قيد الحيثية مغنٍ عما ذكره تصحيحًا لقولهم: المعرفة تستعمل في الجزئيات والعلم في الكليات ولذا يقال: عرفت الله دون علمه، وأكثر أهل الكرامات الكونية لا حظٌ لهم من هذا العلم الكلي الإلهي؛ لأنهم أرباب البرازخ غالبًا كما سبق، نسأل الله العلم الذي أمر بطلب زيادته لا التصرف في أمره.

ثم اعلم أن كلا من الكرامتين المذكورتين قد توجد بدون الأخرى وقد يجتمعان كما في بعض الكُمَّل من هذه الأمة، ولذا قالوا: جاء في الكرامة الكونية رجلان لم يجئ مثلهما في الآفاق أحدهما شرقي، وهو حضرة الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني[3].

---

(1) انظر: «الترغيب والترهيب» (58/1).

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (80/7)، وابن المبارك في «الزهد» (359/1).

(3) هو من ذرية الحسن ﷺ، طار ذكره في الآفاق وأجمع على إمامته أهل الخلاف والوفاق، كان جريء اللسان ثابت الجأش والجنان، وله إقدام وتمكن أقدام، ملوكي الفتح عظيم المنـــزلة في التصريف، كثير الشطح ومواعظه مشحونة بلطائف ورقائق، يرجى الرجاء منها وتخشى الصواعق، ومجالس يثني عليها الأئمة ولو سكتوا أثنت حدائق الحقائق.

وكان في الفقه إمامًا، وفي التصوف لا يُسأم رفعة ولا يُسامى، قد تضلع من الأصول والفروع، وتقدم على غيره في كل فن مشروع، قل نظيره وعلا على أعلى الأطلس أثيره، اعترف له بذلك كل فقهاء عصره وصوفية مصره، وحسبك قول العز بن عبد السلام في حقه: بلغت الإمامة مبلغ القطع.

ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة ونشأ بها حتى شب فسلك طريق القوم وجد واجتهد، وكابد الأهوال حتى كان يلف على رأسه خريقة ويلبس جبته ويمشي حافيًا ويتقوت بقمامة البقل وورق =

الخس، ويجاهد نفسه بأنواع الشدائد، وأقام في خرائب العراق خمسًا وعشرين سنة لا يعرف الناس ولا يعرفونه.

وأتاه الخضر عليه السلام مرة وهو لا يعرفه فقال له: اقعد هنا آتك، فقعد في ذلك الموضع ثلاث سنين وأقام في بدايته سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، واحتلم في ليلة في الشتاء أربعين مرة يغتسل لكل مرة ولم يزل على ذلك الحال حتى طرقه الحال فهام في البراري والجبال إلى أن اتصف بالكمال ورزق القبول التام عند الخاص والعام، فكان يأتيه الخليفة فمن دونه، وعلى عدم زيارته إياهم يعاتبونه، فيأبى ولا يجيب، ويبالغ بزواجر المواعظ حتى يكثر النحيب، ولم يقم لأحد منهم قط، بل ربما يقف بين يديه فلا يعبأ به ولا يلتفت إليه، وكان على زي العلماء، ويركب بغلة وتحمل الغاشية بين يديه، ويجلس للوعظ على كرسي عال، وربما مشى في الهواء على رؤوس الأشهاد ثم عاد، وكان مع ذلك يجلس مع الفقراء، ويفلي لهم ثيابهم، وله المنـــزلة العظمى في قلوب الكافة.

تخرج به رجال كثيرون وورث مقامه ابن شبل رضي الله عنه من رجال الله رجل واحد وقد يكون امرأة في كل زمان آيته ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:18].

له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شهم شجاع مقدام كثير الدعوى بحق، يقول حقًا ويحكم عدلاً.

قال: وكان صاحب هذا المقام عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ببغداد، وكان له الصولة والاستطالة على الخلق بحق كبير الشأن مشهور الذكر لم ألقه وقد درج.

قال زورق رضي الله عنه: صرح بالقطبانية وظهر برهانها عليه، ولما قال محمد بن قائد على ما ستجيء حكايته في ترجمته: رأيت في دخولي عليه أثر قدم أمامي فغرت، فقيل: لي هذا قدم نبيك... إلى آخره.

وسئل عن عبد القادر رضي الله عنه فقال ما رأيته في الحضرة؟ فقيل: ذلك لعبد القادر رضي الله عنه فقال: كنت في المخدع ومن عندي خرجت له النوالة يعني الخلعة.

قال العارف ابن عربي: وكان كما قال، وإنما قال في المخدع، ولم يسمِّ المكان وعيّنه بهذا الاسم ليُعلم بخداع الله محمد بن قائد حين حكم بأنه ما رأى عبد القادر رضي الله عنه في الحضرة في معرض التباسه عليه، فإن حضرة ابن قائد في هذه الواقعة حضرته الخاصة به من حيث معرفته بربه لا حضرة الحق من حيث ما يعرفه عبد القادر أو غيره من الأكابر؛ فستر عنه مقام عبد القادر خداعًا.

وقول عبد القادر رضي الله عنه: من عندي خرجت له النوالة- يدل على أنه كان شيخه في تلك الحضرة وعلى يده استفادها، وجهل ذلك ابن قائد؛ فإن الرجال في ذلك كانوا تحت عبد القادر فيما حكى الناس عن أحواله وأحوالهم، وكان يقوله عن نفسه فيسلم له حاله، فإن شاهده يشهد له بصدق دعواه، فإنه كان ذا حال ربانية مؤثرة مدة حياته، لم يكن صاحب مقام، وما انتقل إلى

حال أبي السعود ﷺ وإن كان تلميذه إلا عند موته - وهي الحالة الكبرى - وكانت هذه الحالة مستصحبة لأبي السعود ﷺ طول حياته، فكان عبدًا محضًا لم تشب له عبوديته.

إلى هنا انتهى كلامه رضي الله عنه.

وقال في موضع آخر: قد رأينا في رجال الروائح جماعة، وكان عبد القادر الجيلاني ﷺ منهم يعرف الشخص بالشم، جاءه ابن قائد، وكان يرى لنفسه حظًا في الطريق، فشمه نحو ثلاث مرات ثم قال: لا أعرفك فكان تربية في حقه، فعلت همة ابن قائد ﷺ حتى التحق بالأفراد.

ومن كراماته أنه كان أيام رضاعه لا يرضع في رمضان، فكان الناس إذا شكوا في الهلال رجعوا إليه.

وكان الذباب لا يصيبه وراثة من جدّه المصطفى ﷺ.

وقعد يتوضأ فزرق عليه عصفور، فرفع رأسه إليه فخر ميتًا، فتصدق بثوبه وقال: إن كان علينا إثم فهذه كفارته.

وأقام أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء.

وقال لرجل: لفلان عندك طعام وذهب جئني بكذا منه فقال: كيف أتصرف في وديعة؟ قال: لا بد.. فأحسن الظن به، وأتاه بما طلب، فبعد مدة جاء مكتوب من مالك الوديعة وهو بالعراق أن احمل للشيخ كذا، وعيّن القدر الذي أخذه الشيخ.

وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد معًا رضي الله عنهما، فتعجب علماء العراق من حسن أجوبته.

وأتي يومًا بفقير يزعم أنه يرى الله بعينه فقال: أحق ما قيل عنك، فاعترف فزجره وهدده إن فاه بذلك، ثم قال لحاضريه: هو محق في قوله ملتبس عليه، فإنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق منها لبصره منفذ فرأى بصره ببصيرته وشعاعها متصل بنور شهوده، فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته وليس كذلك، بل رأى بصره نور بصيرته فقط.

ورأى مرة نورًا ملأ الأفق ونودي منه «أنا ربك، وقد أبحت لك المحرمات» فقال: اخسأ يا لعين، فانقلب النور دخانًا وظلامًا، فقال: نجوت مني بفقهك في أحكام منازلاتك، وقد اضللت بهذا سبعين صديقًا.. فسئل: بِمَ عرفت أنه شيطان؟ قال: بقوله: أبحت لك المحرمات.

واجتمع له ببغداد مائة من أكابر الفقهاء، وأتوه لامتحانه، فظهرت منه بارقة نور مرت على صدورهم فصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم، فصعد الكرسي وأجاب عن جميع ما عندهم، وسقط عليه وهو يدرِّس حيّة، ففر من حضر، فدخلت من ذيله وخرجت من طوقه والتفت على عنقه، فلم يقطع كلامه ولا تغير، ثم قامت بين يديه تكلمه بكلام لا يُفهم وانصرفت، فسئل عنها فقال: قالت اختبرت عدة أولياء فلم أجد كثباتك، فقلت: ما أنت إلا دويدة يحركك القضاء والقدر.

ومن كلامه: لا يبرأ الرجل من العجب إلا إن شاهد أموره كلها من الله.

=

وأخرج نفسه من البين وقال: إذا سألت ربك حاجة فتعامى عن الجهات كلها ولا تنص على جهة معينة، فإن ربك غيور، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظرًا إلى جهة أحد من عبيده.

وقال: من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذ له خرج من رعونات نفسه، وذلك من أعلى رياضات النفس، بل أعلى من الجوع والسهر والعزلة.

وقال: من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير، وهنا أسرار لا تفشى.

وقال: الهمة أن يتقوّى العبد بنفسه عن حب الدنيا، ويروّحه عن التعلق بالآخرة، وبقلبه عن إرادته غير مراد ربه، وبسره عن لمح الكون أو خطوره بباله.

وقال: ما دمت تراعي الخلق لا تهتدي لعيب نفسك، وما دمت تراعي نفسك، فأنت محجوب عن ربك.

وقال: لا يكمل الفقير إلا بتجريد التوحيد مع الوقوف على قدم العبودية ولا لشيء. وقال: احذروا ولا تأسوا، وخافوا ولا تركنوا، وفتشوا ولا تغفلوا ولا تضيفوا إلى أنفسكم حالاً ولا مقامًا، ولا تدعوهما ولا تخبروا بما يطلعكم الله عليه من الأحوال فإنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] وقال: لا تشكون ضرًا نـــزل بكم لغير الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:17].

واحذر أن تشكو ضيق رزقك وعندك قوت يوم، فربما عسر عليك أسباب الرزق عقوبة لك عن كفرانك.

وقال: النعم واصلة إليك بالقسمة اجتلبتها أم لا، والبلوى حالّة بك وإن كرهتها، فسلّم لله في الكل ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18].

فإن أتتك نعمة فاشتغل بالذكر والشكر أو بلاء فبالصبر والموافقة، وأعلى منهما التلذذ والرضا بالقضاء.

وقال: لا يصلح لمجالسة الحق إلا المتطهر من وثن الزلاّت ولا تفتح أبوابه تعالى إلا لمن خلا عن الرعونات والدعاوي.

وقال: دوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى ليكونوا عاكفين على مناجاته.

وقال: إذا رأى الحق ميل وليه إلى أهل أو مال أراحه منهما غيره عليه.

وقال: قد يلاطف الحق عبده، ويفتح قبالة قلبه باب الرحمة والمنة، فيرى بعين قلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من مطالعة الغيوب والقرب والخطاب اللطيف والوعد الجميل ونحوهما، ثم في لمح البصر يغير ذلك عليه ويفتح عليه باب المحن والهم والحزن، فيصير متحيرًا منكسرًا، إن تأمل ظاهره وجد ما يسوءه، أو باطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل كشف ما به من الضر لم يجب، وإن طلب الرجوع إلى الخلق لم يمكن، وإن عمل بالرخص تسارعت به العقوبة، وسلط عليه بالأذى، وإن طلب الإقالة لم يقل، وإن رام التنعم بما به من البلاء لم يعط ذلك فيشتد البلاء،

=

وتأخذ النفس في الذبول و الذوبان حتى تفنى أوصاف بشريته ويصير رُوحًا فقط، فهناك يسمع النداء من قلبه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:42]فيرد الله عليه أزيد من تلك الخلع ويتولى تربيته بنفسه ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:17]

وقال: إنما كلامي على رجال من وراء جبل قاف أقدامهم في الهواء وقلوبهم في حضرة القدس تكاد قلانسهم تحترق من شدة شوقهم إلى ربهم.

ولما قال وهو جالس على منبر وعظه: قدمي على رقبة كل ولي فسمعه العارف الرفاعي ﷺ من بلدة أم عبيدة طأطأ رأسه وقال وعلى رقبتي.

وقال: الاغترار بصفاء الأوقات في طيه آفات.

وقال: إنما لم يجب الحق عبده في كل ما طلب رحمة وشفقة عليه أن يغتر بذلك فيعرض للمكر به ويغفل عن آداب الخدمة، وكما أنه تعالى دعا عبده إلى فعل كل مأمور فلم يفعل إلا بعضًا، ودعاه فلم يجب إلى في بعض جزاء وفاقًا.

وقال: علامة ابتلاء العبد على وجه العقوبة عدم الصبر عند البلوى، والشكوى للخلق على جهة التكفير الصبر وعدم الضجر وعلى وجه رفع الدرجات الرضا والموافقة والسكون تحت جريان الأقدار.

وقال: علامة حب الآخرة الزهد في الدنيا، وعلامة حبه تعالى الزهد فيما سواه. وقال: مادام في قلب العبد شهوة لما يكرهه الله فهو عدوه.

وقال: كلما جاهدت النفس في الطاعة حييت، وكلما أكرمتها ولم تهنها في رضاه ماتت، وهذا معني خبر: «**رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**».

وقال: أعطاني الله ثلاثين عهدًا وميثاقًا ألاّ يمكر بي، فقيل له: فهل أمنت بعد ذلك؟ قال: لا، بل حالي بعد العهد كقبله.

وقال: المدد الإلهي موزع على المعاني، فما في القلب يظهر على الوجه وما في النفس يظهر في الملبوس، وما في العقل يظهر في العين، وما في السر يظهر في القول، وما في الروح يظهر في الأدب، وما في الصورة يظهر في الحركة.

وكلامه ومناقبه قد أفردت بالتأليف.

وقال في الفتوحات: وكان يقول: قدمي على رقبة كل ولي من باب التحدث بالنعمة، فلما احتضر قال: ليت أمي لم تلدني، وكان تحت رأسه مخدة، فقال: انـزلوا خدي عنها وضعوه على التراب لعل الله يرحمني، ثم قال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في حجاب، قال – أعني العارف ابن عربي –: العارف أبو السعود بن شبل رضي الله عنهما أعلى مقامًا من شيخه الجيلاني ﷺ تصرف وكان الأولى تركه. مات ﷺ سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد. وانظر: سر الأسرار، وفتوح الغيب، للشيخ بتحقيقنا، والغنية والفيض الرباني، والسفينة القادرية، وكذا قلائد الجواهر، وبهجة الأسرار، والسيف الرباني، وخلاصة المفاخر، والطراز المذهب، والكواكب الدرية (424) جميعها

والثاني غربي، وهو حضرة الشيخ أبو مدين شعيب شيخ حضرة الأكبر ابن عربي - قدس الله سرّه [1] - فإنهما كانا غالبين على الكل في الكرامة الكونية إذ لم يصدر من

بتحقيقنا.

(1) هـو الأستاذ الأعظم العارف الأفخم، عظيم الأكبار، رأس الصوفية في وقته، ورئيسهم المشهور، علـم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يُقصد ويزار من جميع الأقطار، وببنان العرفان إليه يشار، يوصل ويقطع ويخفض ويرفع.

ولد ببجاية ونشأ بها واشتهر حتى ملأ الآفاق وصار إمام الصديقين في وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكـبراء كالعـارف ابـن عربي ﷺ وقال: كان سلطان الوارثين. ومكث في بيته سنة لا يخرج، فاجـتمع الـناس ببابه يسألونه أن يتكلم عليهم وألزموه، فخرج، ففرت منه عصافير على سدرة بداره فرجع وقال: لو صلحت للحديث عليكم ما فرّ مني الطير ولا الوحش، فرجع فمكث سنة، فأتـوه فخرج فلم تفر منه، فتكلم عليهم، وترك الطير تضرب بأجنحتها وتصفق حتى مات منها كثير، ومات رجل ممن حضر.

وكان الشيخ أميًا، وعلوم الأمي تأتي خالية من الإشكال.

وقال العارف ابن عربي ﷺ: كان حال وقته التجريد، وعدم الادخار.

اتفـق لـه أنه نسي في جيبه دينارًا، وكان كثيرًا ما ينقطع في جبل الكواكب، وكانت هناك غزالة تأتيه فتدر عليه لبنها فيكون ذلك قوته، فلما جاء إلى الجبل جاءت الغزالة على عادتها وهو محتاج إلى الطعـام فجـاء ليشرب من لبنها فنفرت عنه وما زالت تنطحه بقرونها، وكلما مد يده إليها نفـرت منه، ففكر في سبب ذلك فتذكر الدينار، فأخرجه من جيبه ورماه، فجاءته الغزالة وأنست به ودرت عليه.

قـال- أعـنى العارف ابن عربي ﷺ-: كان شيخنا أبو مدين ﷺ قد ترك الحرف وجلس مع الله علـى ما يفتح له، وكان على طريقة عجيبة مع الله في ذلك الجلوس فإنه ما كان يرد يؤتى به إليه كالـشيخ عـبد القادر الجيلاني ﷺ لكن عبد القادر كان أنهض شيئًا في الظاهر لما يعطيه الشرف فقيل له: يا أبا مدين، لم لا تحترف؟ قال: الضيف عندكم إذا نـزل بقوم كم توفيه زمن وجوب ضيافته؟ قالوا ثلاثة أيام، قال: وبعدها، قالوا يحترف، قال: الله أكبر، أنصفونا نحن أضياف ربنا، نـزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده، إلى الأبد تعينت الضيافة، فإنه تعالى ما دل على خلق كريم لعبد إلا كان هو أولى بالاتصاف به، وأيام ربنا كما قال تعالى: كل يوم كألف سنة مما تعـدون، فـضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة وانقضت ولا نحترف، توجد اعتراضكم علينا، ونحن نموت وتنقضي الدنيا ويبقى لنا فضلة عنده تعالى من ضيافتنا، فاستحسنه المعترض.

فانظـر في هذا النفس إن كنت منهم، ثم قال العارف ابن عربي ﷺ: ذهبت أنا وأحد الأبدال إلى جـبل قـاف، فمررنا بالحية المحدقة به، فسلمنا عليها فردت، وقالت: ممن أنتم؟ قلنا: من بجاية،

قالت: ما حال أبي مدين مع أهلها؟ قلنا: يرمونه بالزندقة ويؤذونه، فقالت: عجبًا لابن آدم، كيف يؤذي ولي الله؟! ما ظننت أنه تعالى يوالي عبدًا من عباده فيكرهه أحد.

قال العارف الخواص ﷺ: كان مذهب الشيخ ﷺ تقريب الطريق على المريدين ونقلهم إلى محل الفتح من غير أن يمرَّ بهم على الملكوت خوفًا عليهم من تعشق نفوسهم بعجائب الملكوت.

ودخل على أبي مدين ﷺ رجل فقال: الفرنج نصروا على المسلمين، فقال: صدق الله ولم يتأثر أصلاً، فعجب الحاضرون من عدم تأثره، فمد أصبعيه وأشار إلى أحدهما وقال: هذا الهادي، وإلى الآخر وقال: هذا المضل، ثم وضع أصبعه على موضع اجتماعهما من ظاهر كفه وقال: قلبي هنا معناه أن من كان قلبه مع الله لم يختلف عليه معاني الأسماء.

ووقع له في سياحته أنه دخل على عجوز في مغارة، فأقام عندها، فجاء ابنها آخر النهار فسلم عليه، فقدمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز، فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال: تمنيت لو كان هذا كذا، فقال: بسم الله وكل ما تمنيت فلم يزل يعدد التمني وهو يقول مقالته الأولى واللون الواحد يتقلب ألوانًا كثيرة ويجد طعم ما يتمنى.

قال العارف ابن عربي ﷺ: كان شيخنا أبو مدين ﷺ إذا جاءه مأكول طيب أكله أو خشن أكله، وإذا جاع وجاءه فقد علم أن الله تعالى خيره إذ لو أرد أن يطعمه أي صنف أراد من المأكول جاء به إليه فينظر في ذلك الوقت ما هو الأحب إلى الله من المأكول بالنظر إلى صلاح المزاج للعبادة لا إلى غرض النفس.

وكان إذا خطر له خاطر في نفسه وجد جوابه مكتوبًا في ثوبه الذي عليه، فخطر له يومًا أن يطلق امرأته- وكان بحضور العارف أبي العباس الخشاب- فرأى مخطوطًا في ثوب الشيخ: أمسك عليك زوجك.

قال العارف ابن عربي ﷺ: وكان شيخ الشيوخ أبو مدين ﷺ يرى المناسبة بين الأشياء ويقول بها، فاتفق أن علق خاطره بالغير فماشاه شخص وهو على ذلك الخاطر، فاستوحش للشيخ فسأله فإذا هو مشرك.

قال العارف ابن عربي ﷺ: شيخنا أبو مدين من الثماني عشرة نفسًا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان، وهم أهل علانية وجهر مثبوتون للأسباب، وخرق العوائد عندهم عادة ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:91].

قال: وكان يقول لأصحابه اظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، واظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة يعني خرق العوائد والباطنة يعني المعارف، فإنه تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11].

وهذه الطبقة اختصت باسم الظهور لكونهم ظهروا في عالم الشهادة.

وقال في موضع آخر شيخنا أبو مدين ﷺ الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء، فكل حال عنده أعمال فتعلن بالصدقة كما يذكره في الملأ، فإن من ذكره في الملأ فقد ذكره في

نفسه، فإن ذكر النفس متقدم بلا شك، وما كل من ذكره في نفسه ذكره في الملأ.
فهذه حالة زائدة على الذكر لها مرتبة تفوق صاحب ذكره النفس لا يطلع عليه في الحالين فهو سر بكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالاقتدار الإلهي، فمن يخفيها أو يسرها وهو الظاهر في المظاهر الإمكانية.. فهذه كانت طريقة شيخنا.
وكـان يقـول: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:91]، ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:40] قال: وكـان يقول لأصحابه أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله.
وكـان يقـول في قـوله تعالى﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الانشراح:7] فإذا فرغت من الأكوان فانـصب قلبك لمشاهدة الرحمن وإلى ربك فارغب في الدوام، وإذا دخلت في عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها وقل: ياليتها كانت القاضية.
وقـال إنمـا فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد؛ لأنه يكتب لكل عبد من صلاته ما قام به مـنها، فيكـتب من صلاة عشرها، ومن صلاة ثلثها ونصفها وغير ذلك، أي كما في الحديث، فيرتفع للجمـيع صلاة مكملة الأجزاء بعضها ببعض، فيعيد الله بركة الكمال والاتمام على الجماعة فيكتب لكل واحد منهم صلاة كاملة ببركة الاجتماع. وقال: كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عليه السلام عن إغـضاب خفـي لا يشعر به كل أحد، فكان كالكفّارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريح آدم عليه السلام.
وقـال: مـن قـال التمر ولم يجد حلاوته في فمه فما قال التمر، وذلك أن حالة الشهود يتحد الوجود في شهود الشاهد بكل موجود فيرى كل شيء.
ومن كلامه: ليس للقلب إلا وجهه واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها.
وقال: من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة دعته لذلك،فهو مفتون، وكل من ادعى مع الله حالة ليس على ظاهره منها شاهد فاحذروه.
وقال: الدنيا جرادة ورأسها حبها، فإذا قطع رأس الجرادة حلت.
وقال: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الباء مكتوبة عليها.
وقال: ما وصل إلى مقام الحرية من بقيت عليه من نفسه بقية.
وقال: كل فقير الأخذ إليه أحب من العطاء لم يشم للفقر رائحة.
وقال: من لم يصلح لخدمته شغله بالدنيا ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة.
وقال: من لم يخلع العذار لم ترفع له الأستار.
وقال: كل فقير لا يعرف زيادته من نقصه فليس بفقير.
وقال: نسيان العبد للحق تعالى طرفة عين خيانة تستحق العقوبة.
وقـال: الحـضور مـن الحق جنة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذة، والبعد عنه حسرة وموت، والأنس به حياة.

غيرهما ما صدر منهما من الأمور الخارقة للعادة، وقد كانا كاملين في العلم بالله أيضًا فجمعا بين العلمية والكونية.

وأما حضرة الشيخ الأكبر فهو خارج عن القياس ودائرة النسبة إلى غيره كما أن سيدنا عليًا ﷺ كذلك وذلك لأنه تحقق بمقام الختمية أي: كان خاتم الولاية الخاصة

=

وقال: من قطع موصولاً بحضرة ربه قطع به ومن أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت في الوقت.

وقال العارف أن يتحكم فيما بين العرش والفرش.

وقال: الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بأطرافه وأنار باطنك بإشراقه.

وقال العارف ابن عربي ﷺ: كان شيخنا أبو مدين ﷺ يقول: من علامة صدق المريد في إرادته فرار عن الخلق، ومن علامة فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، فهذا هو حال الوارث للنبي ﷺ فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه حتى فاجأه الحق فبعثه الله رسولاً مرشدًا لعباده، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته، ومثله يسمى وارثًا، فالوارث الكامل من ورّثه علمًا وعملاً وحالاً.

ولما علم الخضر رتبة موسى عليهما السلام وعلو قدره بين الرسل امتثل ما نهاه عنه طاعة لله ولرسوله فإنه تعالى قال: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:7]، فقال له في الثانية: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف:76]فقال: سمعًا وطاعة، فلما كانت الثالثة وسأله نسي موسى ﷺ حالة قوله: ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:24].

ولما طلب الإجارة على سقايته مع الحاجة فارقه الخضر ﷺ وبعد ما أبان له علم ما أنكر عليه ثم قال: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف:82] لأنه كان شرعه من ربه ومنهاج في زمانها، بخلاف حاله بعد بعثة محمد ﷺ فإن كل الصيد في جوف الفراء.

ومن كراماته: إن الوحش كان يذل له، فإذا رآه ارتعد لهيبته.

ومرّ بحمار أكل السبع نصفه وصاحبه ينظر من بعد، فذهب بصاحب الحمار إلى الأسد وقال: أمسك بأذنيه واستعمله مكان حمارك حتى يموت، فركبه واستعمله سنين حتى مات.

ورأى أحد الأولياء إبليس فقال له: كيف حالك مع أبي مدين؟ قال: ما شبهته في نفسي إليه في قلبه إلا كشخص بال في البحر المحيط فقيل: لم تبول فيه؟ قال: لأنجسه، فلا تقع به الطهارة، فهل رأيتم أجهل من هذا فكذا أنا، وقلب أبي مدين ﷺ كلما ألقيت فيه أمرًا قلب عينه.

وله تصانيف منها كتاب «أنس التوحيد ونزهة المريد».

قلت: وشرحه الشيخ باعشن، وابن علان، طبعا بتحقيقنا، وشرحه أيضًا الشيخ المعلاوي.

مات سنة نيف وثمانين وخمسمائة على نحو ثمانين سنة بتلسمان.

وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه ﷺ ونفعنا به في الدنيا والآخرة.

آمين. وانظر: الكواكب الدرية (417).

المحمدية، ولم يؤت هذا المقام لواحد لا قبله ولا بعده.

حكي أنه أفتى بقتله - أي: الشيخ الأكبر - مفتي الشام فاجتمع العلماء عند المفتي ليباشروا له فاتفق أن دخل المفتي الحوض كما هو العادة الشامية ليكون على طهارة تامة عند المباشرة للقتل، فظهرت يد وهو في الحوض وأخذت بعنقه فخنقته فأخرجوه ميتًا من الحوض فالتجؤوا إلى الجناب الأكبري ليصلي عليه، فسبحان من أعان أولياءه بلا واسطة وكانت تلك اليد القهارة يد حضرة الشيخ الأكبر ونظيره ما أورده الفناري - روّح الله روحه - أن السيد محمد البخاري، وهو حضرة الشيخ الشهير بحضرة أمير سلطان المدفون في بلدة بروسة - قدس سره - لما تزوج بنت سلطان بايزيد بغير إذن منه وكان السلطان غضوبًا ولذا لقب بيلديرم، فأراد أن يقتله وابنته فأرسل لذلك أربعين رجلاً فلما أرادوا أن يدخلوا حرمه قرأ حضرة أمير سلطان: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:29]، ونفخ عليهم فهلكوا جميعًا من ساعتهم، والقصة مشهورة متواترة وهذا الخارق قد كان بقصد منه وهمة، وكان كاملاً في طريقة الرجال وقد يصدر من أهل الفناء بلا قصد وإرادة وإنما يظهر الله ذلك من مرآته تشريفًا له وإراءة لآياته لمن كان له بصر وبصيرة.

ومن هذا القبيل ما وقع لحضرة شيخي وسندي - قدس سره - وهو أنه قال مخاطبًا لهذا الفقير يومًا: وقعت لي مرة غلبة جذبات التجلي العلمي وكاشفني الله عن سر تجرد إبراهيم عليه السلام حين رمي بالمنجنيق، وصادق ذلك مجتازي بمدينة «أدرنة».

وكنت في مسجد خانقاه بُنِيَ لخليفة الشيخ السيد عبد الباقي وقد أقيم لصلاة الصبح فأردت التشبه بإبراهيم عليه السلام في تجرده فخلعت ما عليَّ اللباس، وشددت لوسطي مئزرًا قدر ما يستر من السرة إلى المركبة، فافتتحت الصلاة، وأنا على تلك الحال من التجرد فظن جهلة الصوفية الحاضرين أن بي مس جنون أو أصابة سحر أو نحو ذلك، وغفلوا عن أن ذلك كان لأمر باطني وقع لي وقتئذٍ، وإني ما أردت بذلك إلا توافق الظاهر بالباطن وتطابق الصورة بالمعنى كما عليه السلف في بعض الأمور، فإنهم كانوا إذا حصل لهم نوع من طهارة الباطن يتطهرون طهارة الظاهر أيضًا تطبيقًا وجمعًا بين الشريعة والطريقة، وأنهم إذا حصل لهم من تجرد القلب تجردوا في الصورة أيضًا لذلك، وكنت بقيت في المسجد وحيدًا بعد انتشار الناس فأرسلوا إليّ واحدًا يقال له: مرتضى دده فأخذ بيدي ولواهما إلى ظهري وشدهما فألقى في روعي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ

الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:19] فاتبعت الملة الإبراهيمية في التسليم والانقياد، وحكم عليَّ الحال بالسكون ومرتضى دده هذا صار خليفة حضرة الشيخ في قرية يابا قرب مدينة سلانيك وذلك بعدما مضى سنون من هذه الوقعة؛ فإن العفو من أخلاق الأنبياء والأولياء بل هو خلق الله المحبوب كما نطق به النصوص.

ومات أيام حياة حضرة الشيخ هناك قال: فحبسوني في بيت من حرم الزاوية ويداي مغلولتان وفي رجلي قيد أيضًا فخلوني فيه وأغلقوا الباب عليَّ فقمت إلى صلاة الصبح وأنا على تلك الحال؛ لأنهم فعلوا بي ما ذكر قبل إتمام الصلاة في المسجد ثم أخذت أقرأ بالصوت الأعلى إلهيًّا لحضرة الشيخ الهدائي - قدس سره - وهو قوله في نعت رسول الله ﷺ باللسان التركي: قدومك رحمة وذوق وصفاء در يا رسول الله، فلما وصلت إلى مقطعه وهو قوله: [هداي به شفاعة قيل اكر ظاهر اكر باطن فيونه انتساب ايتمش كدا در][1] يا رسول الله أخذني الوجد والشوق والحنين والتضرع والأنين بحيث لا يوصف، فإذا قد انحل الوثاق في يدي والقيد في رجلي فمشيت إلى نحو الباب، فتناثر فراشة القفل وانفتح الباب بإذن الله تعالى، فخرجت فوجدت عند الباب إبريقًا فجددت الوضوء ومضيت على حالي، فلما رأوني وقعوا في العجب واستعظموا أمري لكنهم جهلوا حقيقة الحال في الحقيقة وغفلوا عن حال الباطن ولو عرفوا لما فعلوا.

ألا ترى أن صوفية الشيخ الصنعاني تفرقوا عنه بعدما رأوا عنه ما يخالف الظاهر وقصته مشهورة مبسوطة في «منطق الطير» لحضرة الشيخ فريد الدين العطار - قدس سره.

أقول: الشيخ الصنعاني رعى الخنــزير للبنت التي عشقها وشدَّ الزنار وهما مخالفان لظاهر الشرع إذ مع ستر العورة انقطع القيل والقال وانسدَّ طرق الطعن والتشنيع مع أن باب التجرد مفتوح في مواضع الضرورة كما في الحمام وعند الإحرام ونحوه، وما فيه من الكراهة ومخالفته العادة لا تقتضي حبس الشيخ وقيده ظنًّا به مس الجنون والسحر، وإنما فعلوا ذلك جهلاً منهم فهم الفاعلون والمفعولون؛ لأن الشيطان فعل بهم ما فعل فبنوا الأمر على ذلك ولم يدروا ما حقيقة الحال، ولم يعرفوا قدر أهل الكمال، وواجب عليَّ أن أنشد في حقهم من لسان حضرة الشيخ قوله:

---

(1) كلام تركي.

فكيف يعرف قدر اللؤلؤ الصدف لم يعرف الدهر حقي حين ضيعني

وليت قولي بلغ أولئك الجاهلين لكن الله هو الستار وقد سترهم القبر وواراهم التراب أجمعين، وكلٌ أفضوا إلى ما قدموا من الأعمال واقترفوا مما يوجب الوبال.

والنظر: إن الصوفية إذا لم يعرفوا حال الشيخ وهم في الانتساب والتعرف، فكيف يعرفه من لم يكن له رائحة التصوف، مضى والله ولم يعرفه إلا القاتل وهو من استسلم لأمره كإسماعيل فهو تحت قبة الغيرة الإلهية والعزة الربانية لم يره في تلك القبة إلا من ارتفع عن بشرته غشاوة الأحولية وانكشف لقلبه سر الأحدية الأولية، ولم ينفع التحسر بعد فوت الفرصة والوقت ولم يفد عض اليدين بعد حُلول أثر الغضب والمقت؛ فيأيها الصوفية عليكم بمشاهدة الآثار إن كانت لكم عيون، ومطالعة الأنوار إن كانت لكم فنون؛ فمن كان يعبد رب الشيخ فالرب لا يموت أين أنتم من اتخاذ صاحب لا يفوت.

وفي الحديث: «طوبى لمن رآني، ولمن رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رآني»[1] [2] فكونوا من الرائين ولا تكونوا من الذين ينظرون وهم لا يبصرون، وانظروا أن رؤية الرسول ووارث الرسول هي رؤية الله تعالى عند التحقيق؛ فطوبى لأهل هذه الرؤية في الدنيا والآخرة[3].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (96/4)، والديلمي في الفردوس (445/2).

(2) كلام غير عربي.

(3) وروى البخاري (2568/6)، ومسلم (1775/4) حديث: «مَن رآني؛ فقد رأى الحق»:

ومعناه الظاهري: مَن رآني في المنام؛ فقد رأى الرؤيا الحقة الصادقة.

وقد جاء في بعض الأحاديث: «فإن الشيطان لا يتمثّل بي»؛ وذلك لأن الشيطان مظهر الاسم المضل بالفعل، وهو ﷺ مظهر الاسم الهادي بالفعل، فلا يظهر أحدهما في صورة الآخرة صونًا للحقائق، وضبطًا للمراتب.

وأمَّا الله سبحانه وتعالى فهو وإن لم يكن له مثل، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، وذلك في مرتبة ذاته الأحدية؛ لكن له مظاهر من حيث أسماؤه المختلفة، وصفاته المتفاوتة، ومن ذلك الاسم المضل الذي ظهر الشيطان بحقيقته فدلَّ على أن الشيطان ظهر في صورة الحق من حيث اسمه المضلّ، كما أن النبي ﷺ ظهر في صورة الحق من حيث اسمه الهادي.

فلله تعالى أن يتجلّى بكل صورة من الصور الأسمائية من غير مزاحمة؛ لأن له الإحاطة التامة بالكل بالفعل.

وأمَّا الشيطان: فله الإحاطة بجزئيات الاسم المضلّ، بالفعل وبالاسم الهادي وجزئياته بالقوة.

ومن الكرامات العجيبة لحضرة شيخي وسندي التي ينبغي أن تكتب على الأحداق لا على القراطيس والأوراق أنه كان عندي مجموعة له وفيها بعض تحريراته المتعلقة بعلم الحقائق فعرض لي إشكال في بعض المواضع منها، فعينت المحل لأسأل عنه عند دخولي عليه لقراءة كتاب: «فصوص الحكم» كما هو دأبي كل يوم، فلما دخلت عليه وهو في خلوته ليس معنا غير الله وعندي تلك المجموعة وضعتها على وسادة في جنبي وشرعت في القراءة وكنت أستعجل في القراءة ليتمَّ، وأستفسر عنه ذلك المحل الشكل في المجموعة، فبينما أنا على هذا الإظهار والتهيؤ إذ قال الشيخ مكاشفًا عن حالي: افتح هذه المجموعة وانظر إلى المجلس الفلاني واقرأه عليَّ فإن فيه كلامًا منا مناسبًا لدرسك هذا ينبغي أن يحقق

=

وأمَّا النبي ﷺ: فله الإحاطة بجزئيات الاسم الهادي بالفعل، وبجزئيات الاسم المضل بالقوة؛ لأن له الاسم الجامع؛ لكن فرق بين القوة والفعل.

ولذا يُقال: إن النفس لأمَّارة بالسوء: أي بالفعل في المظاهر الجلالية، وبالقوة في المظاهر الجمالية، وإلا لما كانت الحقيقة الإنسانية أجمع الحقائق الكونية والإلهية، وكما أن الشيطان لا يتمثَّل بصورة النبي ﷺ وأن مَن رآه بحليته الأصلية؛ فقد رآه في صورة الخيالية المتصلة بصورته الحقيقية، فافهم جدًا.

فكذا لا يتمثَّل في صور المظاهر الجمالية من أكامل الإنسان؛ لأنهم خلفاؤه ﷺ ونوابه، والخليفة لا يظهر إلا في صورة المستخلف، فمَن رأى واحدًا منهم بحليته الذاتية؛ فقد رآه تحقيقًا، وإن كان لا يدري المرء أنه ظهر للرائي؛ وذلك لأن ظهوره للرائي إنما هو بالواسطة: أي بالصورة الخيالية التي تحكم على الرائي في المنام أو الانسلاخ؛ لأنها هي الصورة البرزخية، وقلَّ مَن تفطَّن لهذا المقام من العارفين.

وأمَّا المعنى الحقيقي للحديث فهو: إن مَن رآه ﷺ في المنام، أو في اليقظة؛ فقد رأى الحق سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى خلق آدم على صورته؛ وهو ﷺ أكمل أفراد آدم، فقد خلقه على صورته الحقيقية الأسمائية والصفاتية، فمَن رآه، وهو مظهر تام الحقائق جميع الأسماء والصفات؛ فقد رأى الحقيقة الإلهية متجلية بجميع الحقائق.

وكذا مَن رأى خليفة من خلفائه ونوابه؛ فقد رآه؛ لأنه صورة من صورة الكلية؛ وبوساطة رؤيته رأى الله تعالى، فالله تعالى مرئي أبدًا في الصورة المحمَّدية الكلية الصورة الإنسانية؛ ولكن المحجوبين لا يرونه في عين رؤيتهم؛ لاحتجابهم بأنفسهم عنه، ولو كُوشفوا عن حقائقهم؛ لرأوا أن حقائقهم عين الحقيقة المحمَّدية، ولو من وجه الجزئية، كما أن الحقيقة المحمَّدية عين الحقيقة الإلهية من وجه الكلية؛ لأن لم يكن في الإمكان أبدع مما كان، فالله تعالى ظاهر لأولي الأبصار، باطن عن أعين الأغيار، وليس في البين إلا حجاب الغفلة. وانظر: مرآة الحقائق (492).

الآن، فإذا هو ذلك المجلس الذي كنت أضمرت في نفسي سؤاله فحققه تحقيقًا بديعًا بحيث لم يبق لي شيء من الإشكال أصلاً، والله يعلم أنه لم يكن مني إشارة إلى ذلك ولكن كان بطريق الكشف والبيان، ومثل هذه الآثار إنما يظهر لأولي الأبصار ولا حظٌ للأعمش والأحول من الرؤية الصحيحة كما لا حظٌ لمن أصيب بعقله من درك الفصوص الصريحة، وأول الأمر تصحيح العقيدة وتجريد الهمة وجعل التوجه الصحيح أهم الأمور المهمة، ومن الله التوفيق لتحقيق النية للوصول إلى المقامات العلية السنية وأيضًا كان بيدي فصوص الحكم أقرأ عليه فقرر أثناء الدرس شيئًا من الحكم والحقائق، ثم قال: مثل هذا لا نفشيه ولا نتكلم إلا إليك، ولا نلقيه إلا عليك لكمال يقينك واعتقادك واطمئنان قلبك وفؤادك، ولا نتكلم فيه مع الغير لعدم المحل والقبول؛ فإن أكثر الناس بل أكثر صوفية الزمان وأهل الطريق محجوبون عن أسرار الحقيقة.

ثم قال: اقرأ فإذا الدرس وصل إلى قول الشيخ الأكبر «ولا تبذر السمراء في أرض عميان» فضحك وضحكت من موافقة الكلام الذي هو فيه كلام الشيخ الأكبر؛ لأن من دأبه أنه كان لا ينظر إلى النسخة، ولا يطالع الدرس بل يقرر من ظهر القلب، ويحقق من الحفظ؛ لأنه كان عيَّن النسخة بشرحها وحاشيتها، ومعنى القول المذكور الأكبري على ما حققه المولى الجامي في «شرح الفصوص»، «ولا تبذر السمراء» يعني: بيان الحق الذي هو غذاء القلب والروح كالسمراء يعني: الحنطة للجسم، «في أرض عميان» يعني: في أرض استعداد هؤلاء الطوائف الذين لا يبصرون الحق، ولا يشاهدونه في جميع الأشياء انتهى.

وأيضًا كنت عند قراءتي الفصوص على حضرة الشيخ أغلق الباب بأمره لئلا يدخل أحدٌ من الأجانب الذي سماعهم لهذا الكتاب العجيب الشأن سمٌّ قاتل لهم، وإفادته لهم كتعليق الجواهر على أعناق الخنازير [...][1].

وكنت يومًا في بلدة «أدرنة» وقد استدعاه السلطان محمد الرابع كما سيأتي إذ دق الباب فقام حضرة الشيخ المكاشف بنفسه، ولم يكن ذلك من ديدنه، فلما فتحه فإذا به رجل من سادات أهل المحلة معروف بالإكثار مستثقل عند الصغار والكبار، فعامله ودفعه جميلاً ثم أغلق الباب وجلس مكانه واشتغل بالتدريس والصحبة؛ ففي هذه القصة عبرة لمن تبصر، وفكرة لمن تذكر فإنه لو كنت فاتحًا الباب دون الشيخ لوجد ذلك الرجل

---

(1) كلام غير عربي.

المكثر سبيلاً إلى المجلس، ويضيع الوقت إلى قيامه، وقيام الشيخ لفتح الباب أمرٌ خارق للعادة وأيضًا كنت استندت إلى خشب في رأس درجة البيت الفوقاني الذي كان حضرة الشيخ يدرس فيه وأنا قائم متفكر في أن حضرة الشيخ لو خرج من هذا الباب وهو باب الحمام البراني قرب أسفل الدرجة وكان يخرج منه أحيانًا ورآني هنا، وقال لي: هل أنت صائم؟ ماذا أقول في الجواب؛ فإني كنت مفطرًا في ذلك اليوم يوم البطالة، وهو يوم الثلاثاء.

وكان حضرة الشيخ لا يرضى في الإفطار ألا أن يكون بإذن منه أو بإذن وكيله في الخانقاه فما أتممت هذا الخاطر إلا وقد خرج الشيخ من ذلك الباب الملحوظ على غفلة مني، فلما رآني قائمًا على رأس الدرج كان أول كلامه: يا إسماعيل! هل أنت صائم؟ فتفكرت إن قلت: نعم، يكون كذبًا، وإن قلت: لا، فيترتب عليَّ تعزير اللسان، فاخترت التجلي على الاستتار، فقلت: لا، فنظر إليَّ شزرًا، وقال: يا حيوان، ومضى على حاله، ولم يتكلم غيره، وكنت وقتئذٍ أسكن في الحجرة التي على رأس الدرج، وأكنس بيت الدرس في اليوم مرة، وذلك بتعيين حضرة الشيخ، وأعطى المشق[1] لبعض الصبيان من خطِّ النسخ، وأيضًا تلا حضرة الشيخ في الركعة الأولى من العشاء سورة التين فخطر ببالي في الثانية أنه لو قرأ بعد هذا سورة الماعون لصار أنسب، إذ فيها ذكر التكذيب بالدين أيضًا، فصدق خاطري، والحمد لله تعالى.

ومن كراماته الكونية أيضًا أنه كان شاب شجيع معروف بالصولة والسطوة يسمى بالغازي عليّ، يتردد إلى حضرة الشيخ صباحًا ومساءً حين كان في بلدة «أدرنة»، وكان مرتاضًا يفطر في كل ثلاثة أيام مرة، وكان الشيخ يخفض له الجناح، ويجامل في معاملته أزيد من مجاملته لغيره، وكنت أعرف من بعض الإخوان ترددًا في ذلك واستبعادًا من حيث ما جهل مكانته عندهم حتى كشف الشيخ يومًا عن وجه هذا الأمر؛ فقال: إنما تعظيمي له فوق تعظيمي لغيره؛ لأنه قد أوتي من الله صدقًا وديانةً واعتقادًا بحيث فاق بها الأقران، ومثل هذا الصدق يوجد نادرًا في أكثر الناس في هذا الزمان بل في أكثر السُّلاك.

وقد كانت الصحابة ﷺمع كونهم متفاوتين في الدرجات فاقوا كلهم على من بعدهم إلى آخر القرون ببركة صدقهم وديانتهم وقيامهم بحقوق العبودية وحقوق الصحبة

(1) هكذا بالأصل.

والعشرة، وإن لم يكن أكثرهم أهل كشف وشهود؛ فإن صدقهم أفضل من كشف غيرهم.

أقول: كان «الكمي»[1] ذلك حسنة من حسنات أسد الله الغالب عليّ بن أبي طالب ﷺ وله خوارق العادات والخواص ما لم يكن إلا لبعض خواص عباد الله تعالى، وأُسر في حدود سنة خمس وتسعين بعد الألف في قلعة «بج» وقد كان في تلك السنة والتي قبلها انهزام عظيم للمسلمين من سوء تدبير بعض الوزراء ثم تخلص من قيد الأسر بفضل الله تعالى، وسألته يومًا عن سبب ارتباطه بالشيخ؛ فقال: إن أمر الشيخ عظيم فإنه قد ظهر لي في بعض الغزو، وكنت قبله لم أسمعه من أحد، ولم أعرفه فضلاً عن رؤيته ثم قمت إلى الطلب فلما أتيت بلدة «أدرنة» ووقع نظري عليه عرفت يقينًا أنه الذي ظهر لي مِن قبل فبايعته والحمد لله تعالى.

ومن كراماته الكونية أنه كان من دأبه الشريف أن يدعو للخلفاء بعد تمام أمر الزيادة فجئت مرة من «بروسة» إلى زيارته في القسطنطينية، فلما كان محل الوداع رفع يده وضمَّن دعاءه لفظ الحماية، فقال: حماك الله وكنت لم أسمع هذا اللفظ من لسانه إلى ذلك الآن أي: في الدعاء، ولما قرع سمعي وقتئذٍ أخذني انفعال شديد، وعرفت أن الابتلاء متوجه مع الله تعالى، فلما دخلت السفينة مع بعض الأخوان ظهرت ريح شديدة بقينا بسببها في البحر ثلاثة أيام وصرت كالميت المتحرك من دوران الرأس وغلبة الصفراء وتغير المزاج وتخبط الطبع بحيث لا يوصف فظهر أن الشيخ كأنه كاشف عن هذا الحال، فقال ما قال.

ومن كراماته الكونية التي خصَّه الله تعالى بها من الأولين والآخرين وجعل مدار نظام العالم من السماوات والأرضين، وذلك أنه لما فسدت الأرض وتغير مزاج عجوز الدنيا في أواخر دولة السلطان محمد الرابع، اتفق العسكر الذي في السفر الأنكروسي، وكانوا جمعًا عظيمًا خارجًا عن دائرة العدد، وفيهم سياوش باشا ختَن الوزير محمد المذكور سابقًا الشهير بكوبريلي، ويكن عثمان النائب من الآغا، وغيرهما من عظماء العسكر، وكان الوزير يومئذٍ سليمان البوسنوي ففرَّ من بينهم لخيانته، ودخل دار السلطنة القسطنطينية فأحضروا المصحف وأقسموا بالله وعاهدوا معاهدة قوية مؤكدة على أن

---

(1) هكذا بالأصل.

يرجعوا من الغزو من غير أن يقع من واحد منهم مخالفة أصلاً، ويجلسوا مكان السلطان المذكور سليمان الثاني، ويرفعوا أهل الفتنة من البين ثم يشتغلوا بأمر الغزو فأقبلوا كلهم من طرف «بلغراد» إلى جانب «القسطنطينة»، وكان السلطان محمد فيها وكذا الوزير المذكور الفار وسائر أهل الفتنة الذين أضلوا السلطان عن نهج الصواب وتابعوه من أهل الهوى في المدافعة حتى سليمان الوزير، وأرسلوا رأسه إليهم فلم يقع عندهم في حيز القبول، وأجابوا بأن مرادنا ليس رأس الوزير ولنا دعوى شرعية، نحتاج إلى دخول القسطنطينة فأرسل سياوش إلى علمائها محضرًا خفية باتفاق الكل يستفتيهم ويستكتبهم في إجلاس سلطان آخر فكان أول من أمضاه بالبسملة الشريفة حضرة شيخي وسندي - قدس سره - فامتحن ضمائرهم وأخذ منهم خطوطهم، فلما كان في بعض الليالي أرسل بعض الخواص من جانب البحر سفينة صغيرة ففتحوا لهم باب القلعة من طرف دار السلطان، واجتمع العلماء في داره مع من جاء من طرف سياوش، فأخبر السلطان أن العلماء قد حضروا، فأرسل إليهم بالخبر، فقالوا: سترًا لما جاءوا لأجله.

وقد جاء بعض الخبر من طرف سياوش نريد أن نشاور فيه حضرة السلطان فظن السلطان أنهم معه، فأمر بفتح الباب الجُواني فدخلوا عليه ودخل بعض الخواص خفية على السلطان سليمان في مجلسه، فأجلسوه على ما يقال له: تحت بالفارسية - بفتح التاء الأولى وسكون الحاء المهملة والتاء الثانية - وهو شيء مرصع مزين كالكرسي الكبير لا يُعتبر السلطان إلا بعد الجلوس عليه فإذا خطٌ من السلطان سليمان يأمر بحبس أخيه السلطان محمد في مكانه سابقًا، وهو في المذاكرة بالعلماء لا شعور له عن الواقعة فحبسوه في [...][1] وجلس سلطان سليمان فكان قبل الصباح بساعتين من اليوم الثاني من المحرم وهو يوم السبت لسنة تسع وتسعين بعد الألف فلما كان الصباح نادى مناديًا في كل جانب من جوانب القسطنطينة يبشر الناس بالجلوس الجديد وفرقوا المنشورات في أقطار الأرض يجدد العلماء البردات، ويقرأ الخطباء الخطبة على اسمه دون اسم السلطان المعزول، وبايع علماء القسطنطينة وأشرافها كلها السلطان سليمان الثاني وفرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، إذ كان مدة سلطنة السلطان محمد الرابع مدة مديدة وهي أربعون سنة كاملات، وأواخر دولته متغيرة، فظنوا ارتفاع ظلمة الظلم وظهور ضوء العدل وما عرفوا

---

(1) بياض بالأصل.

أن ليس لتنـــزل الزمان ترقٍ، وأن هذه العجوز لا تموت، ولا تحيا في قريب من هذه الأيام وإنما يتمادى مرضها فتموت عند حلول الساعة.

ثم إن العسكر دخلوا القسطنطينة وسلم خاتم الوزارة لسياوش وفوض التعليم إلى العلامة عبد الحليم الشهير بعرب زاده فكان معلم السلطان والندامى والصحبة إلى مصطفى ابن الوزير محمد الشهير بكوبيريلي، فكان نديمه ومصاحبه و[بقيت] الفتوى في يد المولى مصطفى الشهير بابن الدباغ، وكان قد تقلدها في آخر سنة ثمان وتسعين في زمن السلطان المعزول، فبعد أيام اشتهر بعض أهل البغي بالاستقلال من الذين جاءوا بالعسكر واتبعوا سياوش حتى ظهر أمرهم في بلدة بروسة وغيرها، وأخذوا بأطراف الأمور فكان ما كان من ظهور الفتنة والفساد والشرور.

وسمعت من فِي حضرة الشيخ أنه قال: استدعاني الوزير سياوش للمشاورة، فقلت له: تريد الوزارة المجردة أم بقاءها مع العدل والإنصاف، قال: بل بقاءها، فقلت: إن السلطان كبناء عالٍ يقيمها أربعة أركان، وهي ما يقال في لسان العامة: [...][1]، وقد وقَع هذه الأركان بعض أولياء الله بإشارة من الله، وقد انهدمت هذه الأركان في زمانك وظهر بدلها أهل البغي والضلال، فإن أنت تقيمها وترفع البغاة والطغاة يتم أمرك من كل وجه ويستقيم حالك ودولتك فوق الملحوظ، فقال لي: إن المصطفى لا يساعدني في ذلك - يريد به: خديم السلطان المذكور الشهير بابن كوبريلي - وكانت أخته تحت نكاح سياوش، وكان سياوش غلام أبيه الوزير الشهير بكوبريلي زوَّجه بنته في زمانه لعقله وتدبيره.

وقال حضرة الشيخ: فقلت له: الخاتم الآن في يدك وأنت قادر على ما أردت فأدب المخالفين، ولو كان ذلك الخلاف من مصطفى، قال: فاعرض عني وعن نصيحتي فعرفت أنه لا يجيء إلى رأسه خيرٌ.

قول وجه الإعراض: إن سياوش عاهدهم عهدًا مؤكدًا حين القدوم إلى دار السلطنة على أن يكون في البين إرادة سوء لا من طرفه إليهم ولا من طرفهم إليه فلما اعتمد على سند الوزارة، ورأى أهل البغي في غاية الظهور خافهم وتعلل في دفعهم وراعى جانب المعاهدة بهم، ولم يعلم أن كل مصر يقتل، وأنه كأهل الذمة يحاربون عند نقض

(1) كلام غير عربي.

العهد المأخوذ منهم إذ لم يدخلوا دار السلطنة إلا للإصلاح، فلما ظهر منهم الإفساد صاروا عرضة للمحاربة ولا يقبل توبة أمثالهم للتجارب القديمة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:28].

والحاصل أنهم بعد المصادرات الكثيرة من الناس قتلوا شخصًا يقال له فتواجي من أعيان الطائفة الراجلة، ثم هجموا على دار رأس هذه الطائفة فقتلوه، ثم دخلوا دار صاحب الدفتر السلطاني فهرب هو وأخذوا جميع ما في بيت المال، وهو ألوف الأكياس من النقدين، ونهبوا جملة ما في داره حتى جواريه، ثم أرادوا الهجوم على الوزير سياوش لما فهموا من طرفه خلافًا لهم، فأغلق هو أبواب داره وحارهم مع حواشيهم من الصباح إلى المساء، فلما جنَّ الليل أحاطوا بداره إلى الفجر فظفروا بالدخول وقت صلاة الصبح فجلس سياوش أمام بيته الداخلي ونشر سهامه من جعبته ورماهم إلى أن استشهد – رحمه الله تعالى – فأغاروا ما في داره جميعًا حتى جواريه، وشاركهم في ذلك أكثر أراذل البلدة من المسلمين وغيرهم، فقلعوا الأشجار والأنهار، وأخذوا ما يصلح للأخذ حتى حديد الكوي، وأغاروا الدور التي في جوانب داره، واستعبدوا من هو حر الأصل من الصبيان، وأخذوا بأيدي الجواري، ومن هو في الحرم، وأخرجوهن وهن مكشوفات الرؤوس، وأخرجوا جسد سياوش، ووضعوه في مرأى من الناس ليعتبروا به وكان لهم قصور كثيرة لكن الله يفعل ما يريد بأيدي مظاهر الأسماء الجلالية ثم ينتقم منهم.

وفي الحديث: «الظالم عدل الله في أرضه ينتقم به ثم ينتقم منه[1]»، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:129].

وقول القائل: كيف يجوز وصفه بالظلم وينسب إلى أنه عدل من الله؟

جوابه أن المراد بالعدل هنا ما يقابل بالفضل أن يعامل كل أحد بفعله أن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والفضل أن يعفو مثلاً عن المسيء وهذا على طريق أهل السنة بخلاف المعتزلة فإنهم يوجبون عقوبة المسيء ويدعون أن ذلك هو العدل، ومن ثم سموا أنفسهم أهل العدل، وإلى ما صار إليه أهل السنة يشير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء:112] أي: لا تمهل الظالم ولا تتجاوز عنه بل عجل عقوبته لكن الله تعالى يمهل من يشاء ويتجاوز عمن يشاء ويعطي من يشاء لا يُسأل عما يفعل كذا في

---

(1) في المقاصد الحسنة (ص 253).

«المقاصد الحسنة».

ثم نرجع ونقول: إنهم في اليوم الذي فعلوا فيه ما ذُكِرَ نصَّبوا واحدًا منهم وزيرًا، وواحدًا رئيس الطائفة الراجلة، وواحدًا شيخ الإسلام وهو السيد فيض الله ختن محمد المدعو بـــ «الراني» شيخ السلطان محمد سابقًا، وكان فيض الله إذ ذاك معلمًا لأبنائه أي: لأبناء السلطان المذكور، وكان مدة فتواه سبعة عشر يومًا فلما اشتد الأمر وتحير أهالي البلدة في هذا ولم يعرف أحد كيف التدبير في رفع الفتنة وتطهير الأرض من لوث أهل الفساد فأخذ واحد من فقراء السادات منديلاً وربطه برأس عصا وجعله كاللواء ونادى في بعض الأسواق: ليأت المسلمون تحت اللواء المحمدي فاجتمع الناس عند الحداد في زمن الضحاك، والقصة مشهورة فجاءوا إلى الباب البراني للسلطان، وفرقوا المُنادين في أطراف البلدة ليأتي الناس كلهم فاجتمعوا عند الباب المدعو بباب «همايون» فرفعوا أصواتهم بلفظ الجلالة لو سمعتها لقلت: إن القيامة قد قامت، وطلبوا من السلطان اللواء المحمدي الذي هو في الخزانة ويستصحبونه في الأسفار.

وكان بعض العلماء غير شيخي وسندي وقتئذٍ في مجلس السلطان، فلما رأوا الجمعية الكبرى عند الباب ومطالبتهم اللواء المحمدي حاروا وغابوا عن نفوس السلطان ومن عنده ومن في حرمه من الخدام، واستمرت هذه المطالبة من الصباح إلى ما بعد الظهر حتى أيسوا إذ لم يجبهم أحد في ذلك.

قال حضرة الشيخ: لما صليت الظهر في داري وقعت لي داعية قوية في الذهاب إلى دار السلطان فلما أتيت الباب ورأيت الجمعية العظيمة استأذنت في الدخول فأذن لي فلما دخلت على السلطان وجدته ومن عنده من العلماء بحيث لم يبق لهم قوة الحس والشعور من الدهشة، ولم يجسر أحد منهم على أن يأخذ اللواء المحمدي ويجيب للناس عند رأس البرج في جدار دار السلطان؛ فقلت لهم بالصوت الجهر: أليس الله يقول في كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62] فلا تخافوا وأبشروا؟ فإن الله يؤيدكم وينصركم على الأعداء الذين هم أهل البغي، فقال السلطان ومن عنده: أيها السيد الجليل نحن لك والرأي ما ترى فخذ اللواء المحمدي وأجب الناس.

أقول: كان لحضرة الشيخ صوت جهري يصل إلى البعيد لم أسمع مثله قط، فلما أخذ اللواء بيده ومعه خدام السلطان صعد إلى رأس البرج في مرأى الناس وسلم عليهم بصوت رفيع، لعله لم يبق من لم يسمعه، وقال: إن حضرة السلطان سلَّم عليكم فأجابوا

بصوت عال واستبشروا استبشارًا لا يوصف، فأخذ الشيخ ينصحهم مقام الصبر إلى حيث أبكاهم، فقالوا كلهم: أيها السيد الجليل! نشهد أنك رجل حق وصدق وشيخ صالح كامل، ثم استظهر عنه مرادهم، فأشاروا برفع أهل البغي، فنصب حضرة الشيخ اللواء هناك، ودخل على السلطان، وبلّغ سلام الخلق المجتمعين إليه، وأنهم يرجون ارتفاع الأشرار من البين؛ فقال السلطان: ما التدبير وما الحيلة فيه؟ فقال **حضرة الشيخ**: اكتبوا خطًّا ليجتمع من في البلدة تحت اللواء المحمدي، فإذا اجتمعوا فلعل الله يخلق سببًا عند ذلك يحصل به المراد، فأخذ الخط وخرج إلى الناس وقام عند اللواء وبلغ كلام السلطان إليهم ثانيًا، وقال: لا تفتحوا فإني لا أعتمد على أحد في هذا الأمر، فلعل الله يحيي هذا الدين المبين بيدي، فهذا خطُّ السلطان يأمر فيه باجتماع جميع العلماء والفقراء وأهل البغي تحت اللواء، فدفعه إلى دَلاَّل ومعه شريف من شرفاء البلدة فذهبا إلى الدعوة لكن الناس يستعجلون، فأخذ الشيخ يتلو عليهم آيات الصبر ويعظهم بليغًا حتى قال: إن الله تعالى كان قادرًا على أن يخلق السماوات والأرضين في أقل من لمح البصر، ولكنه سنَّ التأني بخلقهن في ستة أيام؛ فتخلقوا بأخلاق الله ولا تستعجلوا فإن العجلة من الشيطان، واعملوا برتبة الأحسن فإنها عزيمة دون الحسن فإنها رخصة، ودون القبيح فإنها ساقطة عن نظر الشرع والعقل، فجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة فسكتوا هذا.

وأما أهل البغي فلما سمعوا هذا التجمع عند باب السلطان اجتمعوا عند الوزير الذي نصَّبوه وعندهم المفتي والقاضيان العسكريان: قاضي العسكر، وقاضي القسطنطينة، ولما وصل إليهم الخطُّ من يدي الدلال والشريف المذكورين فرَّقوه وقتلوا الدلال ونجا الشريف مجروحًا وفرَّ إلى جانب باب السلطان، فأخبر الخبر وأراد المفتي والقضاة المذكورون أن يقوم من المجلس فلم يرضوا به بل حبسوهم عندهم، ولكن كان الناس عسكريهم ورعيتهم ينجذبون بقدرة الله تعالى إلى الباب السلطاني، ويفارقون أهل البغي واحدًا بعد واحدٍ حتى اجتمع جمع كثير عند الباب من كل صنف، فأشير من طرف السلطان بدخول بعض العلماء والأمراء إلى مجلس السلطان في الحرم، وكان الوقت قريبًا من المغرب، فلما تمَّ أمر المشاورة في الحرم خرج الشيخ مرة أخرى، وبلّغ سلام السلطان إلى الحاضرين، وقال: أبشروا أيها المؤمنون! قد جرى السلطان على مرادكم فجدد المفتي والقاضيين للعسكر وقاضي القسطنطينة ونقيب الإشراف والصدر الأعظم، وسائر من نصَّبه أهل البغي، أترضون بمن رضي به السلطان أم لكم رأي آخر؟ فقالوا كلهم: رضينا

ثلاث مرات لكن بشرط أن تكون الحركة بعد هذا على وفق الشرع الشريف، فسلاهم حضرة الشيخ بألطف وجهٍ، وبالغ في النصح حتى أبكاهم، ثم دعاهم دعاء جامعًا نافعًا ووصى أن يكونوا عند الباب ليلتهم، وقال: إنه تمَّ الأمر بعد وقد بقي أمور كثيرة نافعة للكلِّ فلا تعجلوا في التفرق فلعل الله يجعل تعبكم ومشقتكم سببًا للراحة العظمى، ووصى بألا يتركوا الصلاة من أجل الازدحام وإحراز الماء فإن التيمم خلف الماء فإن لم يجد بعضهم مجالاً وفاتته الصلاة تلك الليلة، فما التدبير؟ فإن القضاء جرى هكذا، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:38].

أقول: كان من زحمة الناس بحيث لا يمكن التعبير عنها ولم يكن من المكان إلا قدر ما يسع الرجل - بكسر الراء - فصلى بعضهم بالإيماء والتيمم وبعضهم بما أمكن له وترك البعض بالضرورة، ووصى بأن يكونوا تلك الليلة مشغولين بالدعاء، والتضرع إلى الله تعالى لعل الله يصلح حالهم ويحشرهم يوم القيامة أيضًا تحت اللواء المحمدي، فتأوهوا وبكوا.

وقال أيضًا: من له عذر قوي فليرجع إلى بيته وجنب عياله، وكذا الواحد من الرجلين فصاحوا، وقالوا: لا نرجع ثلاث مرات.

فقال حضرة الشيخ: أشهد أنكم صادقون، وكنت أطلب ذلك منكم فدعا لهم ثم رجع إلى الحرم السلطاني.

وكان في الحرم أشخاص منصوبة من طُرق أهل البغي فوجدوا كلهم جزاءً وفاقًا لما صنعوا حيث قتلوا تلك الليلة، وقُطعوا إربًا إربًا، وكذا ألقى الله الرعب في قلوب من كان خارج الحرم أي: في البلدة من أهل البغي فتفرقوا من حيثما اجتمعوا حتى أخذ رئيسهم بعد صلاة المغرب، وجيء به إلى الباب السلطاني فهمَّ الحاضرون عليه بالسيوف المختلفة، وضجوا بالصوت العالي وضربوه بحيث صار كل قطعة منه أصغر من أذنه، وطاف الرئيس الجديد للطائفة الراجلة تلك الليلة مع حواشيه الكثيرة إلى الصباح، وأخذ أكثر أهل البغي بإذن الله فقتلهم أشد قتلة، فلما كان الغد كثر الناس مما كانوا عليه من العدد حتى امتلأ بهم أطراف دار السلطان إلى جامع «أيا صوفيا» بل إلى جامع السلطان أحمد، وقُتل جمع كثير من البغي في اليوم والليلة.

وخرج حضرة الشيخ مرة أخرى إلى جنب اللواء عند رأس البرج، وبلَّغ سلام السلطان إليهم، وقال لهم: إن سلطاننا يقول: ماذا يريدون بعد هذا؟ فقالوا: نريد خطَّ

السلطان في حق أهل البغي ليقتلوا أينما وجدوا وأخذوا، فرجع حضرة الشيخ إلى السلطان وأخذ الخطَّ منه على ما أرادوا ثم خرج إليهم وفي يده ورق قرأ بالصوت العالي فحسنوه أشد تحسين وفرحوا به، ووضعوه عند الشيخ بطريق الأمانة؛ لأنهم كانوا لا يعتمدون على غيره.

وفي ذلك اليوم لم يبق أحدٌ لم ير اللواء المحمدي فتشرف الكل برؤيته وتبركوا به واستشفعوا من الجانب الأحمدي، ثم خرج الشيخ مرة أخرى فبلَّغ سلام السلطان وبشرهم بأن الأمر كله كان على مرادهم، وقال: مفتيكم ابن الدباغ، ونقيب الأشراف هو فلان، والقاضيان فلان وفلان، وقاضي البلدة فلان، ورئيس الطائفة الراجلة فلان، وكانوا يقولون عند ذكر كل منهم: قبلنا، فلما ذكر الوزير، وقال: إن وزيركم إسماعيل الطغرائي سابقًا، قالوا: نريد مصطفى الشهير بابن كوبريلي فإنه من أهل العلم والديانة والتقوى والصلاح والعدل والإنصاف.

فقال حضرة الشيخ: أما عاهدتم ألا تخالفوا السلطان، فإن السلطان قد نصَّب إسماعيل المذكور وزيرًا فأقبلوه الآن، وسيكون ما أردتم أيضًا عما قريب إن شاء الله، فصاحوا وقالوا بأعلى صوتهم: قبلنا ما قبله السلطان.

فقال حضرة الشيخ: نشهد أن المنصوبين كلهم رجال صالحون صادقون فعلينا وعليكم بموافقة الشرع الأحمدي، فإن العزة في العمل بالكتاب والسنة لا بالاحتشام والشهرة.

وقال: إن الفتح والنصر ليس بالعسكر الكثير بل بالتقوى.

وبالجملة: نصح جميع من داخل الحرم وخارجه، ورغَّبهم إلى العمل بالكتاب والسنة وإلى تحصيل العلم النافع كما جاء في الحديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(1) وعلم الحال لا بدَّ لكل منه لأنه بمنـــزلة الطعام، وعلى ما يقع في بعض الأحايين بمنـــزلة الدواء يحتاج إليه في بعض الأوقات؛ فينبغي أن يقرأ ظاهر العلوم ويحصل المعارف، ويربط الإنسان نفسه بما فيه سعادته ونجاته.

وبالجملة وعظ وعظًا بليغًا وهو والناس قيام حتى أبكاهم، ودبَّر أمورهم على ما أراد الله تعالى بحيث لم يبق بقية حاجة تلجلج في صدر أحدهم.

---

(1) رواه ابن ماجه (220).

دعا لهم، وقال في آخر المجلس: استودعتكم الله، وفوَّضت أمري وأمركم إلى الله فتفرقوا، وكان قيامهم هناك من ظهيرة يوم الإثنين إلى مساء الثلاثاء فمجموع المدة يوم وليلة ونصف يوم.

اعلم أن هذا الاختلال كان اختلالاً عظيمًا، ولولا حضرة الشيخ في البين لظهر أهل البغي على البلاد كلها ولاختل أمر السلطنة الذي يدور عليه نظام العالم، وإن حضرة الشيخ وإن دخل على السلطان وخرج مرارًا في تلك المدة، وأراهم أن السلطان شاور بالعلماء هكذا وهكذا لكنه لم يكن هناك من يتكلم غير الشيخ كما أشير إليه سابقًا؛ لأن السلطان كان يعرف شيئًا من الأمور الدنيوية، ولم يسبق له شيء من التجارب إذا كان محبوسًا منذ أربعين سنة، وهي مدة سلطنة أخيه السلطان محمد الرابع، وكان تلك المدة متعبدًا في ليله ونهاره مع أنه لم يكن له رشد تام.

وأما العلماء الحاضرون وقتئذ لديه فكان كل منهم لا يدري ما يفعل لكونه مبهوتًا ملهوتًا إذ كان اليوم تذهل فيه ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:2]، ولو سلم أنه على رشده وكمال عقله، فكانت الداهية لا يكفي مؤنتها عقل المعاش، والقوم كانوا أهل ظاهر فقط، ولو سلم أن فيهم من يفعل عن الله تعالى لكن هذا التدبير الجليل لا يحصل إلا من يد من كان مظهرًا للاسم الجامع، وكان المظهر التام له وقتئذ هو حضرة الشيخ وكل أسماء كانت من سدنته؛ فلذا عزل ونصب وأحيا وأمات وأزال الحيرة، وجاء بالأنس وكشف ظلمة الظلم وأتى بنور العدل فكان بالقسمة في الصورة والمعنى وسببًا لحياة أهل العالم من سلطان ورعيته، فما معنى سر التجديد في رأس المائة غير هذا؟ فالخلق كلهم عتقاؤه، وله الإرث من المقام المحمود والشفاعة العظمى، فافهم فقد أشرت إليك والسلام عليك فهذه كرامة الله أكرمه بها وخصَّه من العالمين.

وكان قد أشير إليه هذا الأمر الأعظم قبل وقوعه بسنين حتى أخبرني قبل ثلاث سنين من الواقعة، وقال: قد أشار الله إليَّ بأمر عظيم يتعلق بالسلطنة ولم يقع إلى الآن، وكان يخبر هذا الفقير بما يستره عن الغير، ولله الحمد.

ثم إن الكمال إذا ظهر على التمام فليس بعده إلا الانتقال من دار إلى دار ألا ترى إلى الشمس وكمالها وزوالها وأفولها، ولهذا عاش حضرة الشيخ بعد تلك الوقعة ثلاث سنين وانتقل إلى جوار رب العالمين، وذلك أن المقصود من النشأة والعبور من التعينات،

والمجيء إلى هذا العالم من حيث الذات إنما هو تحصيل الكمال الحقيقي، وله أثر في الظاهر والباطن أي: الآفاق والأنفس؛ أما في النفس فانقياد القوى والحواس لسلطان الروح وتسخيرها له، وأما في الآفاق فاستسلام الناس لمظهر هذا الكمال ودخولهم تحت أمره كما وقع في حق حضرة الشيخ، فقوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة:34] إشارة إلى ما ذكرنا، وكذا سورة النصر؛ فإن قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر:1] يشير إلى نصرة الاسم الجامع على الأعداء الباطنة، وكان لرسول الله ﷺ شيطان ونفس لكنهما أسلما، فسلم هو من شرهما، ولذا كانا لا يأمران له إلا بخير كأهل الجزية في دار الإسلام لا يقدرون أن يتحركوا بشيء من الأذى، فافهم فقد أشرت إليك بعلم عزيز غاب عن أكثر أهل الكشوف، وقوله: ﴿وَالْفَتْحُ﴾ يشير إلى فتح مكة الروح ومدينة السر وبيت مقدس القلب، وهذا الفتح المطلق لا يحصل إلا بالإمداد الملكوتي، وإذا كمل هذا النصر والإمداد، و﴿رَأَيْتَ النَّاسَ﴾ [النصر:2]: الأعضاء والجوارح، ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النصر:2]: التوحيد، ﴿أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: 2 - 3] من المقام الإطلاقي الجمعي، و﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:3] فإنه يغفر الوجود بوجود وجوده ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ بقبول التوبة عن التقييد بالتعبات والتعينات؛ فإن الاسم الكلي لا ينظر إلى الاسم الجزئي ولا إلى تعينه، وإنما نظره ورجوعه إلى الوجه الجمعي الأحدي، فمن حصل له هذا التسخير الأنفسي لا بدَّ وأن يجعل له التسخير الآفاقي غالب عادة الله تعالى كما هو مقتضى الاسم الجامع، ومنه يعرف أحوال الأولياء الدائر تدبيرهم في أمور السلطنة المتعلقة بالعامة من أحوال غيرهم ولعلك فهمت مرادي، والله الهادي، وعليه اتكالي واستنادي واعتمادي.

الباب الثالث عشر /

في بيان سبب اختلاط حضرة الشيخ بالسلطان وبعض معارفه

اعلم أنه كما لا بدَّ لعامة الناس من ناصح ينصح خروقهم فيما يأتون ويذرون فكذا لا بدَّ للسلاطين من ناصح ينصح خروقهم فيما يفعلون ويدعون، ولولاه لم يحصل الإلزام يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:8].

وقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ [الأنعام:149].

وكـذا في الدنـيا عند ظهور آثار العدل واقتضى حكمة الله تعالى ألا يترك الخلق سـدى في كـل عصر من الأعصار، وأما أهل الفترة فيكفي في مناقشتهم اتحاد أصول الشرائع في جميع الأديان، ولذا لم يجئ نبي لم يقل: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْـرُهُ﴾[الأعراف:59]، ومن جهل ما ذكرنا أحال فيمن خالط السلطان من المشايخ العلمـاء العمل إذ لولا هذا المخالطة لانقطعت عروق المواصلة بينه وبين العلم النافع إذ علوم أكثر أهل الظاهر في هذا الزمان غير نافعة، وكذا أكثر من يدعي لنفسه علم الباطن، ولـذا تـراهم يخالطون السلطان ويحبون أن يتقربوا إليه فورد في حقهم: «**العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان، فإذا خالطوه فاعتزلوهم**»[1].

وتحقيقه: إن المخالطة المسندة إليهم هي مذمومة إذ لا تكون غالبًا إلا لغرض الدنيا كما يشاهد في زماننا هذا، ولذا نهى عن طلب القضاء والإمارة والتولية ونحوها، ولا ريب أن الدخول في الأمور الخطيرة إذا كان بحركة النفس ودعوى الأهلية يستصعب الخروج عن عهدتها بحق، بخلاف ما إذا كانت المخالطة مسندة إلى السلطان فإنها ممدوحة إذ هم حينئذ مجبورون ومضطرون، والمجبور مؤيد من عند الله تعالى فلا يختطفه الشيطان.

وقد جاء في الحديث: «**الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2] وإنما كان أفضل الجهاد لأن من جـاهد العدو كان مترددًا بين رجاء وخوف ولا يدري هل يَغلب أو

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (84/2).

(2) رواه أحمد (10716)، والنسائي (4183)، وأبو داود (3781)، وابن ماجه (4001).

يُغلب، وصاحب السلطان مقهور في يده فهو إذا قال الحق وأمر بالمعروف فقد تعرض للتلف فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف، وأيضًا إن الجهاد بالسيف والسنان جهاد أصغر وبالحجة والبرهان جهاد أكبر، والأكبر أفضل من الأصغر كالشمس فإنها أنور من القمر ثم الكلمة عند السلطان الجائر ليس من شأن كل عالم بخلافها عند غيره؛ لأنه أفضل من غيره، وما يضاف إلى الأفضل أفضل، وإنما كان السلطان أفضل؛ لأنه مظهر الاسم الكلي وتحت حيطته الأسماء الجزئية للرعية.

وكان ابن عمر ﷺ يتردد إلى مجلس الحجاج لقضاء حوائج الناس، وذلك في اليوم مرارًا وكان بعضهم يؤل إليه، وهو يقول له: أفعله، ليكون هو مسؤولاً يوم القيامة في عدم الإسعاف لأنا نعدم الشفاعة؛ ففيه أمران:

الأول: أن ابن عمر ﷺ كان يتردد الحجاج لإحقاق الحق وإنجاح الحوائج لا لأجل الدنيا وجلبها إذ هو كان من أزهد الناس.

فإن قلت: ما الحاجة إليه إلى تردده، ولعل غيره كان يفعل فعله، ويغني عنه، قلت: لو لم تكن الحاجة ماسَّة إليه لم يفعله، ولكل زمان دولة ورجال.

والثاني: أن ابن عمر ﷺ كان أفضل من الحجاج إذ كان هو أعدل خلق الله وأعلمهم بالله في زمانه، والحجاج كان أظلم خلق الله وأجهلهم بالله في عصره، إذ لو لم يكن كذلك لكان على تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله، ومع ذلك كان يتردد إلى بابه بناء على الولاية الظاهرة العامة والإحاطة الباهرة التامة والذي يفهم عن الله ويتحقق بالاسم بالباطن؛ فهو يعرف مقام الاسم الظاهر ومرتبته ويراعي حقه وحكمه في مظاهره، ولذا أمر الناس بالدعاء للسلطان وإن كان جائرًا.

فإذا عرفت هذا، فنقول: إن حضرة شيخي وسندي كان منـــزويًا ومستغنيًا عن السلطان وما في خزائنه، وعن الناس وما في أيديهم، لا يخرج من بيته إلا مضطرًا حتى أنه دعاه الوزير إبراهيم المفتي المقتول مرة فأخذ يقول: أيها الشيخ! لِمَ لا تزورنا في بعض الأحيان، والشيخ الفلاني كان يزورنا بل يقبل أيدينا فنحن إليه بجزيل الإنعام ونكرمه بما يتعلق بحصول المرام؛ **فقال له حضرة الشيخ:** أيها الوزير إنكم في حكم السلطان.

وقد ذكر الإمام الغزالي في «الإحياء»: إن من دخل على السلطان بلا دعوة كان جاهلاً، ومن دُعِيَ فلم يجب كان أهل بدعة فالصورة الأولى جهالة، والثانية بدعة، ولا ينبغي لنا أن نرتكب جهلاً أو بدعةً فإننا وإن لم نكن في مرتبة السلف الصالحين لأنهم

المحققون فلم يكن أمرنا أقل من مرتبة التقليد بهم في مراعاة أحكام الظاهر بقدر الإمكان، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإن اقتضى الحال الصحبة فأشيروا إلينا بورقة أو برسول ليكون دخولنا عليكم بالإذن والدعوة، فسكت الوزير، ولزمه الحجة، ثم قال له في المجلس ذلك: أيها الوزير! إنكم إن لبستم خرقتنا يختل نظامكم، وإن لبسنا خلعتكم يختل نظامُنا أيضًا؛ فالأولى لكل طائفة أن يتقيد بما يناسبه من الأمور فإنه ليس الحضور إلا فيه[1].

ورغب السلطان محمد الرابع في أواخر دولته إلى حضرة الشيخ ووعظه وكان سلطانًا حليمًا يقبل الحق ويصمخ إلى الواعظ لكن كان ندماؤه أهل الهوى، فأضلوه عن المنهج الحق، ولذا كان لا يستقر في دار، مؤاخًا بالصيد واللهو واللعب، واستمر ذلك إلى انعزاله، فلم يفلح لا هو ولا من كان في دائرة دولته، مركزًا كان أو غيره، وفي الرابعة والتسعين بعد الألف خرج من القسطنطينية متوجهًا على قلعة «بج» من القلاع الأنكروسية فوقع الانهزام العظيم في تلك السنة بحيث لا يوصف، فعاد إلى بلدة «أدرنة».

ثم استدعى حضرة الشيخ من القسطنطينية لأجل الوعظ، والتذكير.

وكان الوزير وقتئذ إبراهيم المذكور المعروف بـــ «قرة كتخدا» فأغلظ حضرة الشيخ القول في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشدد النكير على السلطان والوزير، ومن يتبعهما من الوكلاء والعلماء، وكان السلطان لا يقول شيئًا بل يقول: إن الشيخ يقول حقًا، ولكن القصور فينا، أما الوزير فأخذته العزة بالإثم أي: حملته الأنفة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم، والذنب الذي نهي عنه فخالف قول الواعظ وردَّ الحق، ومن بلاغات الزمخشري:

فظنه قرنًا يناطحه   وجد قرينًا يناصحه

ومنها:

وهو الذي ينصح حروقك[2]   ما منع قول الناصح أن يروقك

والنصيحة إخلاص القول والعمل، وهي مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه فشبهوا فعل الناصح فيما يتحرى من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب فلما أنكر نصيحة الشيخ وعدم زيارته له كما سبق، أخذ في وجوه الحيل حتى أخدع السلطان

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين (74/1، 491).

(2) انظر: «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» للزمخشري ص (2925).

وأخذ منه خطًّا على نفي الشيخ، فلما كان بعد العشاء في بعض الليالي إذ جاء عجلة الفرس.

كان الوزير يستدعي الشيخ فتفطن الشيخ لذلك، ولكن دخل العجلة مستسلمًا لأمر الله تعالى، فلما وصلت العجلة إلى باب السجن إذا فرسان عنده من قبل الوزير وبيدهم منشور فيه الأمر بنفي حضرة الشيخ إلى وطنه الأصلي المعروف بـ «قصبة شمني» وقد سبقت فتبسم حضرة الشيخ، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:19]لم يقل غيره، ولم يضطرب أصلاً بل دعا لهم بالخير مرارًا، وشكر للسلطان والوزير صنعهما ذلك.

وسببه: إن الله تعالى إذا أراد الترقي لخواص عبده في العلوم والمراتب القاهم في أمر مكروه صورة إذ ماء الحياة لا يوجد إلا في الظلمات، وقد قال ﷺ:

«ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»[1] أي: ما صفى نبي مثل ما صفيت؛ فإن الأذى من أسباب التصفية.

وسمعت من في حضرة الشيخ أنه قال: أقمت في وطني بعد النفي ثلاثة أشهر وكانت العلوم السابقة لي بالنسبة إلى ما فتح الله عليَّ في تلك المدة كقطرة من البحر، ولو عرف الوزير وصولي إلى تلك الدولة المعنوية العرفانية لما نفاني حسدًا وغيرةً.

أقول: حين انتهى الأشهر الثلاثة صادر سلطان محمد ذلك الوزير الخائن وعزله ونفاه إلى حصن «رودس» ثم قتله، وأعطى الوزارة وخاتمها لسليمان البوسوي فكان أول أمر حين جلس صدر الوزارة أن دعا حضرة الشيخ إلى بلدة «أدرنة» بالأمر التأكيدي فلما قدم استقبلوا واعتذروا حتى السلطان، وعلا قدره على الأول بمراتب، وكان نفي النفي إثباتًا إذ نفاه الوزير الخائن ثم نفى الله الوزير، وأثبت حضرة الشيخ؛ فسبحان من يعين أولياءه بلا واسطة، وعينه السلطان محمد للوعظ ليلتين في الأسبوع ليلة الإثنين وليلة الجمعة، وكان يستدعيه في بعض أيام الجمعة أيضًا، وكان يجيء عجلة الفرس في الليلتين المذكورتين كلما أريد من طرف السلطان، فيذهب حضرة الشيخ إلى داره أو إلى حيثما أريد من الجوامع.

وسبب العجلة أن منـــزل الشيخ كان بعيدًا من دار السلطان إذ كان منـــزله في

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (189/21).

ساحل النهر المعروف بـــ «طُونْجة» بضم الطاء وسكون النون فيما يلي جانب القسطنطينية بقرب الجامع الشهير بـــ «جامع أوليا قاسم باشا» ودار السلطان في طرف آخر مقابل له من البلدة وبينهما بون بعيد، فإذا وصل حضرة الشيخ إلى دار السلطان ومعه الفقراء واستقبله الخدم الجيشون أي: بعد الإعلام إلى الحرم إذ الباب الجواني مقفل دائمًا إلا وقت الضرورة والحاجة فيفتحه الموكل له، وذلك من طرف الداخل فيدخله حضرة الشيخ مع الفقراء، وفي قرب هذا الباب حديقة، ووراء الحديقة المجلس الخاص السلطاني، لكنه على منازل متعددة كل منها على أسلوب مخصوص فيها فرش متلونة، وعلى الجدران ساعات إفرنجية مختلفة متألقة، وفيما يلي الباب الذي يدخله الشيخ قبة عالية منصرفة يتصل بها حوض كبير، وفي وسطها سرير وعلى السرير وأطراف القبة وسائد غالية القيمة، وفي جانب السرير شمعان كبيران كافوريان مضيئان على ظرفين من الذهب الأحمر كبيرين، ويقال لهذا الظرف بالفارسة: «شمعدان»، وعلى السرير يجلس حضرة الشيخ حين الوعظ ويتحلق الفقراء أمام السرير وحولهم الخُدَّام الجيشون، وفي طرف من القبة أبناء السلطان المسمى أحدهما بالسلطان مصطفى، والثاني بالسلطان أحمد، وأما السلطان نفسه ففي منـــزل آخر وبيت مخصوص مع عياله وجواريه، وله قفص ينظر إلى طرف السرير وعليه ستر يستمع هو ومن معه من وراء الستر، وبعد تمام الوعظ يوحد مع الفقراء ثم يختمون المجلس بعشر من القرآن ويروحون من حيث جاءوا.

وقال مرة في وعظه للسلطان: إن دور السلاطين أحاط بها الحضور الثلاثة؛ فالبيت الذي فيه من الحرم الخاص إشارة إلى الحقيقة ثم ما يليه إشارة إلى المعرفة ثم ما يليه إشارة إلى الطريقة ثم ما يليه من الخارج إشارة إلى الشريعة؛ فمن أراد أن ينال مرتبة الحقيقة فليأت من الباب حتى يرتفع الحجاب وينفتح الباب، وكان السلطان عيَّن له وظائف من بيت المال ليدفع بها الضرورات البشرية والحاجات الإنسانية.

قال: خطر ببالي هذه الليلة ألا أقبل ما عُيِّنَ لي من اللحم والسمن وغيرهما، وأكتفي بما رزقني الله به من حيث لا أحتسب، فرأيت في المنام: كأن بعض أهل الكفر في مجلسي، فلما استيقظت تفكرت هل صدر عني ما يوجب هذه الرؤيا؟ فلم أجد غير ما خطر ببالي من فكر تركه تعيين السلطان، فظهر أن ذلك الفكر ليس مرضيًا عند الله إذ بدا في صورة مقلوبة الذي هو الكفر فأستغفر الله من هذه الخاطرة.

أقول: فأذن لي حضرة الشيخ صبيحة تلك الليلة، وفي حادي جمادى الأولى من سنة

ست وتسعين بعد الألف وكنت أقرأ عليه «الفصوص» وقتئذٍ.

وكان السلطان محمد أكولاً لا يصبر عن الطعام إلا وقت المنام، فأفاد حضرة الشيخ يومًا في مجلس الوعظ له أن ينبغي لأهل الشريعة أن يقتصروا على أكلتين في اليوم والليلة؛ فإن زادوا على ذلك فقد سقطوا عن درجة الشريعة والإنسانية وتنـــزلوا إلى رتبة البهيمية والحيوانية، وينبغي أيضًا لأهل الطريقة ألا يأكلوا في اليوم والليلة إلا مرة واحدة؛ فإن زادوا على ذلك فقد انحطوا عن مقام العزيمة والتقوى ووقعوا في مرتبة الرخصة والفتوى هذا إذا كان اعتدال مزاج المريد في ذلك؛ فإن قوي على الوصال فله أن يفعل ذلك حسب استطاعته؛ لأن قلة الأكل سبب لانفتاح القلب وانشراح الصدر ومرتبة التقوى فوق مرتبة الفتوى، وإذا اقتصر العوام على أكلة واحدة في اليوم والليلة كان ذلك عزيمة لهم، وخيرًا في دينهم، وحرثًا لآخرتهم.

قال: وجربت نفسي في الأوائل بأنواع الاحتماء فوجدت الأكلة الواحدة في اليوم والليلة حدًا وسطًا معتدلاً بشرط ألا تكون تلك الأكلة قليلة تضعف البدن ولا كثيرة تثقله، والتكلف مذموم، وقد يصل المرء من الفيض بطريق السهولة إلى ما يصل إليه بطريق التكلف، والعمدة تربية المحل وهو القلب بتفريغه عن الشواغل مطلقًا، والتوحيد الوحداني الهيولاني.

وذكر عند حضرة الشيخ غرض السلطان محمد على الصيد، وانهماكه فيه، بحيث لم يسبقه فيه أحد من سلفه الخلفاء والملوك؛ فقال: لا تعجبوا من ذلك، فإن فيه إشارة لطيفة، وهي أن السلطان ظل الله، والخليفة الذي هو قطب الوجود مظهر اسم الله فيكون السلطان، وهو الخليفة الظاهر في الأكوان ظل خليفة الباطن في الأعيان، وإنما يستمد السلطان من مشكاة ولايته، ولكنه لا يدري حقيقة الأمر على ما هو عليه في نفسه؛ فكثرة قتله حيوانات عالم الآفاق دليل على كثرة قتله خليفة الباطن القوى الحيوانية الأنفسية، فإن الظل دليل على ذي الظل، وما من صورة في عالم الحس إلا ولها معنى معتبر في الحقيقة؛ لأن العالم المسمى بعالم اليقظة عند المحجوبين يسمى بعالم الخيال والمنام عند المكاشفين فكما أن ما يتعلق به الرؤيا في المنام يقتضي التعبير كذلك ما يتعلق به الرؤية في اليقظة يقتضي ذلك؛ فإن المعاني الغيبية ملبوسة في كل موطن مرت به بما يناسبها من اللباس إلى أن نزلت إلى عالم الشهادة فقلبت بلباسها أيضًا.

أقول: واتفق البيتوتة مع حضرة الشيخ في منـــزل بعض خواصه، فلما كان السحر

صلى التهجد وقرأ المسبعات العشرة ثم قال لصاحب المنـزل في حق السلطان محمد: إنه لا يجد الظفر على الأعداء إلا بالاستمداد من أهل القبور[1].

---

(1) قال الشيخ عبد الباقي المقدسي في رسالته الموسومة بـ«السيوف الصقال في إثبات كرامات الأولياء بعد الانتقال» بعد الحمدلة ما نصه: فقد اشتهر السؤال في هذا الزمان على كرامات أولياء الرحمن بعد انتقالهم إلى البرزخ بإذن الملك الدَّيان.

هل يجوز القول بجوازها أم لا؟ وأنكرها بعض ممن اتبع هوى نفسه جهلاً، فألحَّ عليَّ بعض الإخوان في كتابة شيء في ذلك.

فقلت: ليس في تصريح شيخ الإسلام محيي الدين بن الشحنة في ضمن جواب سؤال عن ذلك مطلب، فإنه صرَّح بأن منحهم الإلهية لا تنقطع عنهم بعد الموت، وأطلعتهم على الجواب، فألحوا علي أن أكتب شيئًا في ذلك.

فقلت لهم: إني لست هنالك، وليس عندي آلة تعين، وأنا بين طلبة العلم فقيرٌ حقيرٌ مسكينٌ، ولسان حالي يفر عن مقالي، كما قال الشاعر:

لعمرُ أَبِيكَ مَا نُسِبَ العُلاَ ... إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ

ذاكرًا ذكر السؤال والجواب بنصهما، وذاكرًا ما فتح الله بعدهما.

فأقول نص السؤال كما نقلته من خطِّه طيَّب الله ثراه، وأكرم ما به، وجعل من الرحيق شرابه:

سُئلت عمن يزور الصالحين من الموتى، فيقول عند قبر الواحد منهم:

يا سيدي فلان، أنا مستجيرٌ بك، أو متوسلٌ بك أن يحصل لي كذا وكذا.

أو يقول: يا رب أسألك بمنـزلة هذا الرجل أو بسره أو بعلمه أن تفعل لي كذا وكذا!

وهذه العبارات حسنةٌ أم غير حسنة، أو بعضها حسنٌ وبعضها قبيحٌ! وما كانت السلف تقول عند زيارة قبور الصالحين؟

وهل إذا قال شخصٌ عند قبر رجلٍ صالحٍ: متى حصل لي كذا وكذا، أجئ بكذا كذا. هل يلزم الوفاء به أم لا؟!.

فأجبت: زيارة القبور مندوبٌ إليها، وقبور الصالحين آكدٌ في الاستحباب، وينبغي الدعاء عندها؛ لأن لتلك البقعة شرفًا وفضلاً بوجود ذلك الصالح فيها، وقد اشتهر عند أهل بغداد إجابة الدعاء عند قبر معروف الكرخي. وإنه الترياق المجرب. اشتهر ذلك أيضًا في قُبورٍ كثيرةٍ من الصالحين، فإن الدَّاعي عقب عبادة وهي زيارة ذلك القبر وعقب قراءة إن كان قد قرأ شيئًا من القرآن كما هو الغالب، وذلك أقرب إلى الإجابة.

ولا امتناع في التوسُّل بالصالحين؛ فإنه ورد التوسُّل بالنبي ﷺ، وبصلحاء أمته حظ مما يعهد من خصائصه ﷺ، يمنحه الله تعالى لمن يشاء منهم، وهي بركة تُمت عليهم.

وقد توسَّل عُمرٌ بالعباس –رضي الله تعالى عنهما.

وأما الروح: فحيَّة، وقد ورد ما يدل على اتصالها به.
وأمـــا قوله: أنا أطلب منك أن يحصل لي كذا كذا، فأمرٌ منكرٌ!! فالطلب إنما هو من الله تعالى، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحة أو بالصالحة أو بأصحابها أحياءً وأمواتًا لا يُنكر، فإن المنح الإلهية لم تنقطع عنهم بموتهم، والذي كانت السلف تقوله عند زيارة القبور ما علمهم إياه رسول الله ﷺ وهو:
«سلامٌ عليكم دار قومٍ مؤمنين ومؤمنات...إلخ»، ولا بأس بالدعاء بغير ذلك.
وقوله: متى حصل لي كذا كذا أجئ لك بكذا وكذا: إن لم يقترن به لفظ الالتزام ولا نذر لم يلزم شيء.
وإن اقتـــرن بــه ذلك، فإن أراد التصدق على الفقراء المجاورين لضريحه، أو عمارة مشهده حيث احتيج، لزم الوفاء به.
وإن أراد تمليكه لنفس الميت، فهو لاغ لا يجب به شيء. والله تعالى أعلم.
انتهى ما رأيته بخطه.
أقول مستمدًّا منهم المدد والعَون: يُؤخذ من قوله: (لأن الموت إنما طرأ على الجسد إلخ).
ومـــن قـــوله: (لأن المنح الإلهية لم تنقطع عن الأولياء بموتهم)، وقوع كرامات الأولياء بعد موتهم وجوازها؛ لأن المنح هي العطايا والإكرام التي خصَّها الله تعالى لهم، ومن جملتها الكرامات.
ولقـــد اعتضد هذا بما وقع لكثيرٍ من الأولياء بعد موتهم من الكرامات، كما هو منقولٌ من القوم كالرســـالة للقـــشيري وغيرهـــا، ولا ينكر ذلك إلا جاحدٌ للكرامات، وقد قرب رأيه إلى رأى المعتـــزلة، قـــبَّحهم الله تعـــالى، سيأتيك ذكر بعض شيء من كراماتهم بعد الموت؛ تأييدًا لك في الجزم؛ لتفوز بالإمداد منهم.
فإن قال قائلٌ: إن شيخ الإسلام محب الدين ابن الشحنة لم يعز هذا إلى أقوال أئمتنا.
فنقول له: أولاً: مثل هذا الإمام حجة فيما يقول من الكلام.
إذا قالت حزام فصدقوها، فإن القول ما قالت حزام.
فلولا اطلع على نقول أئمة مذهبه في ذلك لما قاله بفمه، وسطره بقلمه.
وثانيًا: قاله فهمًا من إطلاقات كلامهم.
وثالثًا: إنه جارٍ على قواعدهم، وهو كان أحرى بفهم ذلك من قواعدهم من غيره بدرجات.
فإن قال قائلٌ: فلِمَ لم نطلع عليها؟.
فنقول: هذا لقصر باعنا، وعدم اطلاعنا على كتب أئمتنا في ذلك.
فـــإن قلـــت: لِـــمَ لَـــمْ يقـــل شيخ الإسلام: لأن الكرامات دون المنح؛ ليكون نصًّا صريحًا في المقصود؟.
قلـــت: هـــذا أعم من ذلك؛ لأن المنح جمع منحة، وهي العطية، والعطية أعم من أن يكون أمرًا خارقـــا للعادة كالكرامة، وغير خارقٍ كقبول شفاعتهم وغيرها من المقامات، فإن أراد أن ينص

أن العطايا باقية لهم بعد الموت بنوعها، فإنه دليلٌ ظاهرٌ في إثبات ذلك، وليعلم أن إظهار الكرامة علـى يد الولي في حياته بإقدار الله تعالى وبخلقه لها، ولا استحالة في ذلك؛ لأنها من الممكنات، والقدرة تتعلق بعموم الممكنات، فكذلك بعد الموت.

ولا فرق في أن موت الولي لا يمنع من ذلك؛ لأن الموت إنما طرأ على الجسد، وأما الروح فحيّة، كمـا صرّح به شيخ الإسلام ابن الشحنة في أثناء جوابه، فلا منع في وقوع ذلك ولا إنكار، فإن القول بعد جوازه ترجيح بلا مرجح.

وأيضًا إنا لو قلنا بعدم جواز وقوع الكرامات من الأولياء مع أن الله تعالى الخالق لها، والمقدر لها، وهي من الممكنات التي تدخل في تعلق القدرة للزم نسبة القدرة إلى القصور، تنـزّهت قدرة الله تعالى عن ذلك، وهذا من أقوى الأدلّة، فتدبره.

إيقاظ وتنبيه:

ودفـع وهم ما يوهمه قول قاضي القضاة الأُوشي في منظومته: «بدء الأمالي» من قوله: (كرامات الـولي بـدار دنيا) من اختصاص الكرامات بحال الحياة ممنوع؛ لأن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا.

ألا تـرى إلى مـا قالوه: من أنه ينقطع فيه العذاب حتى عن الكفار بين النفختين، فيجدون لذة المـنام، فـإذا نُفخ فيه أخرى، يقول الكافرون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، فيقول المؤمن: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:52] فافهم ذلك.

وأصْـرَحَ منه ما ورد بإسنادٍ صحيحٍ إلى عكرمة مولى ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه سُئل عن يوم القيامة أهو من الدنيا أم من الآخرة؟

فأجاب: بأن نصفه الأول الذي يقع فيه الفصل والحساب من الدنيا، ونصفه الآخر الذي يقع فيه الانـصراف إلى الـنار والجنة من الآخرة. انتهى كذا في المواهب اللدنية، ونقله المناوي في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير.

فـإذا كـان هذا يوم القيامة بعد فناء البرزخ، وما يتعلق به حكم في نصفه الأول أنه من الدنيا، فبالأولى أن يحكم على البرزخ بأنه من الدنيا حقيقة، وهذا أمرٌ ظاهرٌ فاحفظه.

على أن في حقيقة الدنيا عند المتكلمين قولين:

أحـدهما: مـا على الأرض من الجو والهواء، وأظهرهما: كل المخلوقات من الجواهر والأعراض والموجودات قبل الدار الآخرة.

ولا شـك في شـمول التعـريف الثاني للبرزخ؛ لأنه مخلوق قبل دار الآخرة، فيؤخذ جواز وقوع كرامات الأولياء بعد موتهم من قولهم: (بدار دنيا). فافهم ذلك فإنه من أوضح المسالك.

ثم إني بعدما كتبت هذا اطلعت على بعض الشروح، يقول العبد الفقير:

فرأيت الجلال البخاري في شرحه قوله: (بدار دنيا) التقييد (بدار دنيا)؛ لأن الاختلاف وقع فيها؛ لأن دار العقبى محل كرامة جميع المؤمنين انتهى.

وقال شارحٌ آخر: وإنما قيد بدار دنيا؛ لأن الاختلاف فيها، وأما العقبى فهي دار محل كرامة لجميع المؤمنين من قوله لها: (كون): أي وجود وتحقق؛ لأن الكون عبارة عن حصول الشيء، وذلك عبارة عن معجزة للرسول الذي ظهرت الكرامة لواحدٍ من أمته؛ لأنه يظهر أنه وليٌ، ولا يكون وليًّا إلا باتّباعه في أقواله وأفعاله انتهى.

وقال شارحٌ آخر: قوله: (كرامات الولي) مبتدأ، وقوله: (لها كون) مبتدأ وخبر قُدِّم عليها، والجملة في محل رفع خبرًا للمبتدأ الأول، وقوله: (بدار دنيا) تتعلق بالكون، والمراد منه الثبوت والوقوع انتهى.

وأوضحه أخونا في الله تعالى الشيخ الكامل الفاضل الشيخ يحيى المغربي فقال:

لا يسبق إلى الفهم أن قوله: (بدار دنيا) ظرف مستقر واقع حالاً من الولي هو المضاف إليه؛ لأن المضاف ليس عاملاً في المضاف إليه، ولا جزءًا، ولا كجزء. وإنما هو ظرف متعلق بالكون: أي لها وجود بدار دنيا، خلافًا للمعتزلة فافهم.

وقال المغربي في شرحه ما نصّه: وقيد بالدنيا لأنها محل الاختلاف، والظاهر استمرار الكرامات لهم بعد موتهم في البرزخ، بل هو أولى من حال حياتهم؛ لصفاء نفوسهم عن الأكدار، وقد شُوهدت كثرة الكرامات من كثيرٍ منهم بعد الممات، أما الآخرة فدار الكرامة لكل المؤمنين انتهى.

وهذا تأييد لهذا القول المؤيد بالبرهان بكلام أهل العرفان.

وقال العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعراني في الجواهر والدرر.

سألت شيخنا عمن وقع له صلاة من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والأولياء في قبره كثابت البناني: هل يُكتب له ثواب تلك الصلاة مدة البرزخ أم عمله لا ثواب فيه كأهل الجنة؟

فقال الذي أعطاه الكشف: إن الله تعالى يكتب له ثواب عمله إلى أن يخرج من البرزخ.

فقلت له: فهل يتوضّؤون في قبورهم لذلك؟

قال: لا حاجة لهم إلى الوضوء؛ لعدم وقوع الحدث منهم.

فقلت له: فهل يؤذنون ويقيمون؟

فقال: نعم، كما ورد في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فقلت له: فهل يُكتب لهم ثواب قضاء حوائج الناس إذا خرج شخصٌ منهم من قبره وقضى حوائج الناس؟

فقال: نعم، يُكتب لهم ثواب ذلك، كحكم صلاتهم في البرزخ على حد سواء.

فقلت له: هل الصورة التي تخرج من قبورهم ملك أو صورة تنشأ من همتهم بحسب اعتقاد صاحب الحاجة منهم؟

فقال: كل ذلك يكون، فتارة يوكل الله تعالى بقبر ذلك الولي ملكًا يقضي حوائج الناس كما وقع للإمام الشافعي، وسيدي أحمد البدوي، والسيدة نفيسة- رضي الله تعالى عنهم- وتارة يخرج =

الولي بنفسه ويقضي الحاجة؛ لأن للأولياء الإطلاق في البرزخ والسراح لأرواحهم.
فقلت له: هل حكم الأنبياء كذلك؟
فقال: نعم، لكن من وقع له خطاب من قبر نبي، فذلك عين النبي لا مثال له، وأما إذا سمع الخطاب من غير قبره فهو مثال لا حقيقة؛ لأن ذات النبي متنزهة عن كلفة المجيء والرَّواح.
فقلت: هل يقع لأهل البرزخ الاجتماع بكل من أراده أم لا؟
فقال: البرزخ من حيث هو مطلق، لكن ما كل أحد يقع له فيه الانطلاق والسراح، وإن غالب الناس مسجون فيه بأعمالهم، وما ظهر الانطلاق فيه إلا للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والأولياء بحسب درجاتهم، ومن هنا وقع لبعضهم الاستعانة بسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وغيرهما فأغاثوه وخلصوه من عدوه، أو من الغرق، أو نحو ذلك انتهى.
وقال أيضًا في الجواهر والدرر: قلت لشيخنا: ما السبب في أن سيدي أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي وغيرها من أشياخ الطريقة يجيبون مريديهم من قبورهم إذا ناداهم، ولم نرَ أحدًا من طلبة العلم يجيبه شيخه أو إمام مذهبه إذا ناداه من قبره؟.
فقال: السبب في ذلك صحة الاعتقاد، والرابطة بين مشايخ الطريق ومريديهم، بخلاف طلبة العلم مع أشياخهم، فلما كان المريد يعتقد في شيخه أنه حيٌّ في قبره يسمع إجابته، ولما كان الفقيه لم يصل إلى هذه الدرجة لم يجبه شيخه.
فليس عدم الإجابة أو وجودها راجعًا إلى الأشياخ، وإنما راجع إلى المريد.
فإن الإمام الشافعي والإمام الليث عندنا أفضل من المشايخ الذين أجابوا مريديهم، ولكن لما نقص اعتقاد الطلبة في أئمتهم واستبعدوا فلم يجيبوهم.
فقلت: قد وقع لسيدي علي الخواص أنه زار الإمام الشافعي مرة وسأله عن مسألةٍ، فأجابه عنها في القبر.
وكذلك وقع له مع السيدة نفسية-رضي الله عنها.
فقال: السر في ذلك أن كلام الأموات لا يسمعه إلا من تحقق بكتمان الأسرار، ولذلك ورد أن البهائم تسمع صوت الميت في قبره؛ لأنها ليست من عالم التعبير.
وقال العارف الشعراني أيضًا في الطبقات في ترجمة العارف القطب سيدي شمس الدين محمد الحنفي أنه قال في مرض موته:
مَن كان له حاجة فليأتِ إلى قبري، ويطلب حاجته أقضيها له، فإن ما بيني وبينه غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجلٍ انتهى.
قال بعضهم: علم من كونه قاله في مرض موته أن الولي يتصرف في البرزخ بعد موته بإذن الله تعالى، فيكون ما قاله قبل ذلك.
ونقل الشعراني عنه قوله: إذا مات الولي انقطع تصرفه في الكون من الإمداد، وإن حصل مدد للزائر بعد الموت، أو قضاء حاجة فهو من الله تعالى على يد القطب صاحب الوقت، يعطى الزائر

من المدد على قدر مقام المزور انتهى.
محمولاً على أنه قال قبل أن يعلمه الله بالمقام أن الولي يتصرَّف بعد الموت، فلما أعلمه به قاله قبل موته.
وبهذا حصل دفع التنافي بين كلامه وهو ظاهرٌ فتأمله.
خاتمة: نسأل الله تعالى حُسنها في ذكر قطرة من بحر كراماتهم؛ لتكون تأييدًا لما سبق إيضاحه، وتفتق سره.
فمنها: ما ذكره شيخ مشايخي الشهاب أحمد السبكي في شرح التثبيت عند ذكر الإمام أحمد بن حنبل أنه أسلم لما رُئيت جنازته عشرون ألفًا من اليهود والنصارى والمجوس.
ومنها: ما ذكره العلاَّمة الكرماني في أول شرح البخاري في آخر ترجمته ما نصه: ولما دُفن فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك.
وظهور سوارٍ بيضٍ في السماء مستطيلة حذاء القبر، وكانوا يرفعون التراب منه للبركة حتى ظهرت الحفرة للناس، ولم يكن يقدر على حفر القبر بالحراس خشب مشتكات، فكانوا يأخذون ما حواليه من التراب والحصيات، ودام ريح الطيب أيامًا كثيرة حتى تواتر عند جميع أهل تلك البلاد.
وأمثال هذه الكرامات الإلهيات لا يستعظم بالنسبة إلى أمثال هؤلاء العباد، رفع الله تعالى ذكره الشريف، وقد فعل، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وقد جعل. انتهى قول الكرماني.
قوله: (وأمثال هذه) إلخ، يفهم بأن كرامات الأولياء بعد الموت جائزة الوقوع، بل واقعة إلى أن تقع الواقعة، ومنها ما رأيته في بعض التذاكر.
وأخبرني بعض إخواني من الشافعية أنها في أول شرح ابن حجر على المنهاج، والذي رأيته نقل عن المقريزي أنه قال: من أبدع ما حُكي عن مناقب الإمام الشافعي ﷺ أن الوزير نظام الملك لما بنى المدرسة النظامية ببغداد، سنة أربع وسبعين وسبعمائة أحب أن ينقل الإمام الشافعي من مقبرته بمصر إلى مدرسته، وكتب إلى أمير الجيوش بدر الدين وزير المنتصر بالله يسأل في ذلك، وجهز له هدية جليلة، فركب أمير الجيوش في موكبه، ومعه أعيان الدولة ووجوه المصريين من العلماء وغيرهم، وقد اجتمع الناس لرؤيته، فلما نبش القبر شقَّ ذلك على الناس وماجوا، كثر اللغط، وعلت الأصوات، وهموا برجم أمير الجيوش والثورة به، فسكتهم وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال، فأجاب السؤال بإمضاء ما أراد نظام الملك، فقرأ كتابه بذلك على الناس عند القبر، وطُردت العامة والغوغاء من حوله، ووقع الحفر حتى انتهوا إلى اللَّحد، فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن خرج من اللَّحد رائحة عطرة، وأسكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى، فما أفاقوا إلا بعد ساعة، فاستغفروا الله تعالى مما كان منهم، وأعادوا ردم القبر كما كان، وانصرفوا.
وكان يومًا من الأيام المذكورة بمصر، وتزاحم الناس على قبر الإمام الشافعي ﷺ يزورونه مدة أربعين يومًا بلياليها، حتى كان من شدة الزحام لا يتوصل إليه إلا بعناء ومشقة زائدة، وكتب أمير

قال: وأهل الرسوم يظنون أن المراد بأهل القبور في قوله ﷺ: «**إذا تحيرتم في الأمور، فاستعينوا من أهل القبور**»(1).

من مات بالاضطرار وهو مقبور، بل المراد به عند أهل الحقيقة: من مات بالاختيار وهو حي فلا بدَّ من الاستمداد من فيض همتهم، ودخول دائرة مشاورتهم، والعمل

الجيوش محضرًا بما وقع، وبعث به وهدية عظيمة مع كتابه إلى نظام الملك، فقُرئ هنا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد، وقد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك، وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا انتهى.

وفيه كرامة ظاهرة للإمام بعد موته.

ومنها: ما نقله المنذري مخرجًا له عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ضرب بعض أصحاب رسول الله ﷺ خباء على قبر وهو لا يعلم أنه قبرٌ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، ضربت خبائي على قبرٍ، وأنا لا أحسب أنه قبرٌ، فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: «هي المانعة وهي المنجية من عذاب القبر» انتهى.

أقول: وهذا دليلٌ على جواز وقوعها بتقريره ﷺ لحديث الصحابي، فصار سكوته تقريرًا ودليلاً شرعيًّا، فتأمله.

ومنها: ما في رسالة القشيري عن الشيخ أبي سعيد الخرّاز قال: كنت مجاورًا بمكة فخرجت يومًا من باب بني شيبة، فرأيت شابًّا حسن الصورة ميتًا، فنظر في وجهي وتبسّم، فقلت: أحياة بعد الموت؟.

فقال: أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما يُنقلون من دارٍ إلى دارٍ.

ومنها: ما في الرسالة أيضًا عن بعضهم قال: كنا في مركبٍ فمات رجلٌ منا، فأخذنا في جهازه، وهممنا أن نلقيه في البحر، فجفّ البحر جفًّا، فنزلت السفينة على الأرض، فخرجنا فحفرنا له قبرًا ودفناه، فلما فرغنا جاء الماء وارتفعت السفينة وسرنا.

ولو أردت تتبعًا لجاءت الرسالة في مجلدات، وهذا القدر القليل يكفي الحاذق النبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال مؤلفها -رحمه الله: تمّت الرسالة على يد جامعها فقير رحمة ربه عبد الباقي المقدسي الحنفي- عفا الله تعالى عنه- سنة 1075هـ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وانظر: كتابنا «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال» طبع دار الآثار الإسلامية -بربلي- سيرلانكا.

(1) ذكره العجلوني «كشف الخفاء» (1/88).

بإلهامهم واستخارتهم كما فعل السلطان أحمد حيث لما ظهر أهل البغي في أناطول في زمانه لم يجدوا إلى دفعهم طريقًا، فجاء السلطان إلى أفضل المتأخرين حضرة الشيخ الهدائي الإسكداري - قدس سره - وكان معتقدًا ومريدًا له فعرض عليه القصة فتوجه الشيخ إلى الله تعالى فأشير إليه بمراد بك، وكان أميرًا من أمرائه غير مشهور، ومعروف بين أصحاب الولاية؛ فقال للسلطان: إن استعملت لهذا الأمر مراد بك كان مرادك حاصلاً، فأرسل إليه منشور الولاية على العسكر المأمور بمحاربة أهل البغي، ففتح الله ذلك الأمر المعضل على يديه، ففرق جمعهم بإذن الله تعالى، وهزمهم وقتلهم، وخلّص المملكة من أيديهم.

وكان السلاطين المتقدمة والملوك الماضية لا يجدون بُدًا من اصطحاب أهل القبور، وبإشارة الشيخ آق شمس الدين - قدس سره - فتح القسطنطينية.

أقول: حديث الاستعانة صحيح، ذكره علامة الروم ابن كمال في «شرح الأربعين حديثًا»، والحسين الكاشفي صاحب «تفسير الفارسي في الرسالة العلية» فلا تسمع قول من ادعى الموضوعية.

واعلم أن السلطان محمد المذكور لما يسّر الله له فتح الكرير وقمنجة وجهرين وأمثالها من الحصون الحصينة حتى تلقب بالفاتح الثاني، وذلك بمعاونة حسن تدبير الوزراء أهل الخير استكبر وغفل عن مواضع الاستدراج ووقع في ورطة العجب والغرور فأخذ لا يبالي من ارتكاب الشرور والفجور، واتخذ وزيرًا حريصًا على جمع المال، فجاء دليلاً على إدباره بعد إقباله كما قال ﷺ: **«إذا أراد الله بأمير سوءًا جعل له وزير سوء»**[1] فكان ذلك الوزير مفتاحًا للشرّ وسببًا لفساد الأرض بعد صلاحها، وذلك أن رئيس الإنكروس أراد الصلح مع السلطان فأرسل رسولاً فلم يسمع عند الوزير فردَّ الصلح الشرعي، واتبعه أهل الهوساني ذلك فحرضوا السلطان على المحاربة فتوجهوا إلى جانب قلعة «بج» وذلك في السنة الرابعة والتسعين بعد الألف، ولم يرض به حضرة الشيخ حتى كتب للوزير مكتوبًا فيه كلام طويل، وفيه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:11] مع ما يتعلق به من الكلمات الحسنة فلم يسمعه بل صمم العزم، فخرج مع جندٍ كثير لا يحصي عددهم إلا الله، وأقام السلطان في قلعة

---

(1) رواه أبو داود (2543)، وابن حبان (1551).

«بلغراد»، وتجاوز هو إلى حيثما أراد فلما كان عند قلعة «بج» أخذ بالمحاضرة والمحاربة ولم يكن لأهل الحرب علم بذلك أي: يكون مجيئه لأجل المحاربة إذ هم قدموا الرسول للصلح، فهم كانوا يترقبون مجيء رسولهم بالخبر، ولم يعلموا أن الرسول كان محبوسًا عند الوزير فلما كان بعد أيام جاء المدد الكثير إلى القلعة من الكفرة فلما رآهم ضعفاء المسلمين خافوا من الشياطين وفروا إلى جانب «بلغراد» برؤوسهم، وألقوا جميع ما لهم من المال والمتاع في العسكر، وتبعهم الوزير بل هو الضرر العام إنما جاء من قبله؛ لأنه كان كالقلب بين الأعضاء ولولا فساده لما فسد القوى، وأرسل إلى السلطان قبل الوصول إلى «بلغراد» أن قمْ من مكانك، واذهب إلى جانب بلدة «أدرنة»؛ فإن للكفرة حركة شديدة فقام فارًا فصار سببًا لمصيبة أخرى حيث قيل: إن سلطان الإسلام قد فرَّ فقوي به دواعي الكفار، وازداد المسلمون ضعفًا على ضعفهم، وكان مقصود الوزير من ذلك مخادعة السلطان وسلامة نفسه فلم يدرك طلبه، وأراد أن يسبق بالقضاء فأخذ بمنخنقه، فإن السلطان لما حطَّ رجله في بلدة «أدرنة» أرسل خطًّا مع بعض خواصه يأمر فيه بقتل الوزير، وإرسال رأسه إليه فأحيط به وهو في داره «بلغراد»، وأخذ منه أولاً اللواء المحمدي ثم خاتم الوزارة، وجاء رئيس العسكر مع حواشيه فخنقه في مكانه، وسلخوا جلد رأسه وأرسلوه إلى السلطان، وكان قتله في السنة الرابعة والتسعين بعد الألف فهو الوزير المقتول مصطفى الأسود.

ثم استوزر إبراهيم الشهير بقرة كتخدا وهو الذي نفى حضرة الشيخ إلى وطنه الأصلي كما سبق وعزل بعد ثلاث سنين ونفي إلى قلعة «رودس»، وقتل بعد سنة، وكان رجلاً منفورًا عن الطباع بعيدًا عن الأسماع ملعونًا على كل لسان مبغوضًا في كل مكان، وأراد نوشروان أن يصير ابنه هرمز ولي عهده فاستشار وزراءه، فذكر كل وزير عيبًا، قال بعضهم: قصير؛ فقال: لا يرى إلا راكبًا أو جالسًا.

وقال بعضهم: أمه رومية؛ فقال: الأبناء ينسبون إلى الآباء، فقال مُوَبد - بضم الميم وفتح الواو والباء الموحدة: وهو عند المجوس كالزنا عند اليهود، والقسيس عند النصارى هو مبغض إلى الناس، فقال نوشروان: العيب عندي هذا، وقد قيل: وضيع محب خير من رفيع مبغض.

ثم استوزر مكانه سليمان البوسنوي، وقُتِلَ هو أيضًا بعد سنين من صدارته كما أشير إليه في الفصل السابق وكان رجلاً جبانًا فارًّا عن الزحف قال الله تعالى: ﴿وَمَن

يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:16] ولما سمع حضرة الشيخ انهزام الوزير المذكور وأتباعه وفرارهم عن الزحف، وذلك في سنة ثمان وتسعين بعد الألف قال: «لو كان لي مال لهاجرت إلى أرض الهند؛ لأنه لا فائدة في الإقامة مع سلطان لا غيرة له».

ثم ذكر تورع سلطان الهند ثم قال: قلت للسلطان والوزير بالمشافهة: إذا كان ثباتكم بعشر مراتب كان ثبات أتباعكم بمرتبة واحدة، وإذا كان ثباتكم ومتانتكم في المعركة بمائة مرتبة كانت متانة جند بعشر مراتب، وإذا كان ثباتكم بألف مرتبة كان ثبات من حولكم من العسكر بمائة مرتبة يعني: إن توجهكم وثبات أقدامكم في المواطن كلها ينبغي أن يكون إضعاف ما عليه أتباعكم، وأما الإدبار فبخلافه؛ فإنه إذا كان إدباركم وتزلزل أقدامكم بمرتبة واحدة كان إدبار أتباعكم بعشر مراتب، وعلى هذا.

ثم استوزر مكانه سياوش المذكور سابقًا، وقُتل بعد ستة أشهر في داره على أيدي المتغلبة، ثم استوزر مكانه إسماعيل طغرائي، وعُزل بعد أشهر، ونفي ثم قتل، ثم استوزر مكانه مصطفى رئيس الطائفة الراجلة سابقًا، وعُزل بعد سنة ونصف، ونفي إلى قصبة «مالغره» - بالغين المعجمة والراء المهملة - بقرب بلدة «أدرنه» وشرب بعد أيام كأس الحمام ومات مسموما وكان شارب الخمر مقرب الأداني والفرق الضالة خصوصًا منهم القلندرية والجوالقية مسرفًا للأموال ظالمًا على أكثر حال، وفي يومه صودر أهل التمول، وأخذ منهم في أقطار الأرض ألوف الأكياس من النقدين وجهه بحسب زعم أمين الخزانة السلطانية وضرورة مصارف السفرية واستيلاء الكفار على البلاد وغلبة أهل البغي والإلحاد.

أقول: عدّ الوقت وقت العسرة كما في غزوة تبوك فأخذ يأخذ أموال الناس في كل دار غير مأخذه من الأغنياء الكبار لتكون إمدادًا أو إعانةً للغزاة والمجاهدين وذلك جبرًا واضطرارًا فمن محبوس من الناس ومن مضروب ومن مشجوج إلى غير ذلك وقد جهر هو وأتباعه من العلماء بأن الإمداد الواقع في غزوة تبوك وتجهيز جيش العسرة إنما كان باختيار المؤمنين وطيب خواطرهم ولذا بذل الفقير والغني ما قدر عليه من غير مبالاة ابتغاء لمرضاة الله ولم يكن من طرف رسول الله ﷺ إلا الترغيب إلى الصدقة والجهاد من غير أن يكون هناك تعريض لأهل الثروة فضلاً عن التصريح فضلاً عن الصف والجند إذ ليس ذلك من شأن النبوة وهكذا ليس من شأن الخليفة والولاة الذين يلونهم إلى يوم القيامة

إذ الفتح والنصرة ليس بالمال الكثير والجند الوفير، وإنما هو بالتقوى وترك الزينة والتوجه التام إلى الله تعالى كما فعله أوائل الملوك خصوصًا الخواقين العثمانية فظفروا وفتحوا القلاع واستولوا على بلاد أهل الشرك مع ما لهم من قلة العَدد والعُدد وكما هو التواتر والمثبت في صحائف أهل التواريخ والأخبار

ولذا وعظ حضرة الشيخ في جامع السلطان سليم الواقع في القسطنطينية، وكان متعينًا للوعظ فيه يوم الجمعة؛ فقال: أيها الناس إني قد كنت تركت الجلوس بمجلس الوعظ من شهور وأيام وكان من عزمي ألا أفعله أبدًا لكني تفاءلت من القرآن هذه الليلة فجاء الفأل موافقًا لخاطري فخرجت عملاً بموجبه؛ فاعلموا أن المصادرة المالية الواقعة الآن بدعة قبيحة وكان الوزير قد استدعاني قبل هذا لأجل المشاورة، وكفى ثلاثة لا غير هو وأنا ومعلم السلطان عبد الحليم الشهير بعرب زاده فذكر أحوال السفر وقلة المال، فقلت: لا تباشروا مثل هذا الظلم أبدًا فإنه لا ينتج إلا خسارًا فكان قد تعهد عليَّ ألا يفعل إلا أن بعض أهل الهوى أيقظ هذه الفتنة فتابعه الوزير ونحن لا نرضى به أبدًا؛ فإن المال المأخوذ جبرًا لا يغني شيئًا إلا أني أستقرض مبلغًا من المال وأعين الغزاة والمجاهدين تأسيا بأصحاب رسول الله ﷺ فأعينوا أنتم بما طابت به أنفسكم وسلموه إلى أمين بينكم ليصرف هو ذلك المال إلى المستحقين من فقراء الغزاة كما كان الأصحاب - رضي الله عنهم - يدفعون ما جمعوا إلى النبي ﷺ واحذروا من أن تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا ثم حرض المؤمنين على القتال وأوحى الله سنة الوحي على يديه بعد ما كان نسيا منسيًا ووعد أن يخرج هو بنفسه إلى الغزو تلك السنة، وقال: إني إلى الآن لم يجب عليَّ صدقة الفطر والزكاة فإن فتح الله عليَّ شيئًا من المال لأستعين به على الخروج إلى الغزو وألا أخرج ماشيا حافيا فإني وإن كنت شيخًا إلا أن قواني الله في بدني فلي الآن الاستطاعة للشيء.

وقال: إن ساعد التوفيق للخروج لا أخرج مع الوزير ولا مع غيره ثم إن الله تعالى حقق رجائي في كل أمر دنيوي وأخروي فلم يبق لي داعية إلى شيء غير زيارة مرقد حضرة الإمام الأعظم ﷺ فإنه مرشدي وإمامي ووسيلتي إلى جناب صاحب الرسالة فإن وفق الله لهذه الزيارة بعد أمر الغزو وقضاء الوطر منه وإلا فالأمر إلى الله تعالى.

وبالجملة: خطب ذلك اليوم خطبة بليغة طويلة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب.

واعلم أن حضرة الشيخ تهيأ تلك السنة للغزو لداعية قوية حصلت له من الله تعالى فوهب جميع كتبه لابنه الكبير الشيخ محمد الجودي وأقرأه من أول تفسير «البيضاوي» في مجمع عظيم، وكان الصوفية كلهم حاضرون فحقق المقام على وجه لا يوصف فإنه تكلم في ذلك زبدة علوم أهل الحقيقة ثم بايع الحاضرين كلهم ودعا واستخلف ابنه المذكور في مقامه.

وقال لهذا الفقير: إن ابنيَّ يذهبان معي إلى بلدة «أدرنة» لزيارة بعض الأقرباء ثم يرجعان أفترضى أن تكون أمينًا على من في داري وتخرج للوعظ والتذكير في مقامي جامع السلطان يوم الجمعة وجامع سلطان «بايزيد» يوم الإثنين وجامع السلطان سليمان يوم الأربعاء إلى أن يرجع ابناي؟ فقلت: رضيت وقبلت، وقال: فكن في خدمتنا واكتب كتابًا إلى أهل بيتك في بلدة «بروسة» لئلا ينتظروا إليك إلى شهر، فقبلت ذيله الشريف ثم خرج هو يوم الإثنين خامس شهر الله الأصم من سنة ألف ومائة متقلدًا سيفه وجعبته وبيده الآلة المعروفة بـــ «توفنك» فركب مع جمع غفير ومعه الصوفية والأحباب ماشين فشيعناه إلى أن تجاوز داود باشا خارج الباب الذي يعرف بـــ «طوب قپو» من أبواب القسطنطينة فتوقف هناك ودعا ثم قبَّل ذيله من عنده فرجعنا وذهب هو وفي خدمته خمسة من الصوفية، ولما وصل إلى بلدة «صوفيا» منعه الوزير المذكور من الذهاب مع الغزاة إلى جانب قلعة «بلغراد» فأقام هناك والوزير أيضًا إلى أن يرجع العسكر مع خسارة عظيمة ثم تفرقوا.

رجع حضرة الشيخ إلى مقامه، وقال: قطعت علاقة القلب بعد الآن من السلطان والأعوان لا علاقة اللسان، أما الأول فأني رأيت أن جميع أفعالهم عاري وعندي ليس بكتابي وهم قد رفعوا الكتاب والسنة بالكلية من البين بحيث لا يجري على ألسنتهم قرآن ولا حديث في محاوراتهم ومشاوراتهم فضلاً عن العمل بها، وأني بذلت جهدي في النصح والعظة فلم ينجع فيهم إذ من لم يهد الله فما له من هاد، ومعنى علاقة القلب المتوجه إلى جانبهم بإظهار الحق وإيضاحه طمعًا في هدايتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:272].

وأما الثاني فإنهم لكونهم من مظاهر الاسم الظاهر يلزم علينا دعاؤهم بالخير؛ لأن ما أصلح الله على أيديهم أكثر مما أفسدوا، وفي بعض الكتب المنـــزلة: «لا تشتغلوا بألسنتكم بسبب الملوك، وتوبوا إليَّ أعطفْ عليكم».

ثم قرر وجه ذهابه إلى السفر، وقال: إن الله حركني من هنا فخرجت فأراني في هذا السفر ما لو كنت في الحضر لغفلت عنه فالآن حصل لي العلم الكلي التفصل في هذا الباب، وهو من توفيق خاص إلهي.

وقال مخاطبًا لهذا الفقير: لا تستبعد الإنكار الواقع من بعض أعوان السلطان في حقنا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112] فكذلك جعل لكل ولي عدوًا منهم ثم قال سترًا للحال: المراد بالولي: المؤمن ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113] أي: بالحق سبحانه فإن ما سواه تعالى دنيا وهو تعالى آخره؛ لأنه هو الأول والآخر

ثم استوزر مصطفى الشهير بابن كوبريلي وذلك في صفر الخير المنتظم في سلك شهور سنة إحدى ومائة وألف وكان له اغترار برأيه ووهم غالب لكن كان مشهورًا بين الناس بالعلم والعدل، ورأى قبل وزارته بسنين في المنام كأنه في سفح طور عظيم وهو يريد أن يصعد إلى ذروته وبعد دوران كثير في حواليه وتجشم مشاق طويلة تيسر له الصعود فرأى هناك حدائق وبساتين فقصَّ هذه الرؤيا لحضرة الشيخ - قدس سره - فقال: الجبل الأمارة، وأنت تنال الوزارة التي هي أعلى مراتبها لكن بعد حين ودورٍ في أقطار الأرض فكان كذلك إذ كان وقتئذٍ أميرًا ثم صار واحدًا من الوزراء السبعة الذين يقال لهم: وزراء القبة، وفيه إشارة إلى الأسماء السبعة الكلية الخادمة للحقيقة الجامعة، ولهذا السر يظهر المهدي في آخر الزمان ومعه وزراء سبعة وهم أصحاب الكهف وظن الناس أن الوزير المذكور هو صاحب السيف والظهور المترقب في رأس المائة الثانية من الألف حيث لما جلس مجلس الوزارة العظمى والصدارة الكبرى بعد أن أبعد في الأرض مرارًا، وأقصى كرارًا ووقع تقلده في بلدة «أدرنة» أخذ رفع القوانين الحادثة من البين والأوضاع المبتدعة المورثة لأهل الدين العامر والسين والتكاليف الشاقة والوزر الذي أنقض ظهور الرعايا وغير ذلك مما عمَّ من البلايا فإن الناس كانوا في ويل طويل في زمان سلفه، فأصاب في بعضٍ وأخطأ في بعضٍ حيث رفع السعر عن أهل السوق رغمًا منه أنه ليس بكتابي فاضل ذلك حال أهل القسطنطينة؛ فإنه لما أحيل السعر إلى رأي أهل البيع غالوا فيه وتجاوزوا الحدَّ بحيث لا يوصف، واتفق أنه اختل أمر السكة وقتئذٍ فإنهم كانوا يسكون النحاس في دار الضرب بأمر السلطان فانتشر الفلوس وارتفع الدرهم والدينار من البين فمن هنا أنسد طرق المعاملات وباب البيع والشراء من جميع الجهات ووقع القحط

والغلاء مع وجود النعمة، وعم البلاء كالوباء الأعم فعلم بخطئه ورجع إلى وضع السعر بعد عناء عظيم.

وجه الخطأ: إن السعر من مقتضيات هذا الزمان، وقد رخَّصَ فيه الفقهاء.

قال الليث بن سعد وربيعة ويحيى بن سعيد: «لا بأس بالتسعير على البياعين للطعام إذا خيف منهم أنهم يفسدوا أسواق المسلمين ويقلوا أسعارهم وحق على الوالي أن ينظر على المسلمين فيما يصلحهم ويعمهم نفعه» كما في شرح «الترغيب» المسمى بـ «الفتح القريب».

ثم تهيأ للغزو في السنة الأولى من وزارته فاستخلص قلعة «بلغراد» و«سمندره» و«ينش» وما يتبعها من أيدي الكفار وكانوا قد استولوا عليها في السنة السابقة فزاد ظن الخلق في حقه فهو مأخوذ بيد الاستدراج لا يعرف هو وهم كيف العاقبة قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:9] فإنه إذا لم تكن هذه الدراية من أحوال الإيمان الكامل كيف تكون من أحوال الحقائق الناقصة.

وحين هيأ للسفر أمر للمفتي ومن أقام في مقامه بنفي حضرة شيخي وسندي روح الله روحه بعد وصوله أي: الوزير المذكور إلى بلدة «صوفيا» فلما خرج من بلدة «أدرنة» ووصل إليها منشور من قبيل السلطان بنفي حضرة الشيخ إلى قلعة «ماغوسة» - بضم الغين المعجمة من القلاع القبرصية - وكان قد انعكس هذا التدبير إلى حضرة الشيخ بوجوه ظاهرة وباطنة لكنني قد استخرت الله تعالى فأشير إليَّ بالثبات في مقامي فلما جاء من وكل إليه ذلك وهم أربعة أنفار ما تحرك قلبي أصلاً بل قلت لهم: أنا متهيئ لهذا الأمر منذ شهر فقدمتهم خير مقدم وسيأتي التفصيل في محله فانظر إلى رتبة حضرة الشيخ فكان نظيره حضرة مولانا في قوله عند روية ملك الموت لدى الباب: [...][1].

وجه النفي أمور أربعة: الأول: الحسد الذي هو صفة الشيطان وذلك لأن حضرة الشيخ كان متعينًا في زمانه آمرًا بالمعروف ناهيا عن المنكر عند السلطان والوزير وغيرهما من غير مبالاة فحمله الحسد على النفي والقدر [...][2].

---

(1) كلام تركي.

(2) كلام تركي.

قال حضرة مولانا - قدس سره - في «المثنوي»: [...][1] يقتلون الأنبياء وقد كان ألف له حضرة الشيخ «الرسالة الرحمانية» كما سبق في الكرامات العلمية مقابلة الجزئي حسدًا من عند نفسه ونعم ما قيل لذوي المعروف: هذا جزاء من غدا يضع المعروف مع غير شاكر.

الثاني: إن حضرة الشيخ لما قال لسياوش الوزير صهر مصطفى هذا لدفع أهل البغي من البين قبل أن يتسلطوا عليك، قال له: يخالفني مصطفى في ذلك، وقد كان وقتئذٍ مصاحبًا سليمان الثاني ونديمه، فقال حضرة الشيخ: خاتم الوزارة في يدك الآن فقم بإمضاء الأمر والتربية ولو على مصطفى، والقصة مفصلة فيما سبق فلما قرع سمع هذا المقال في حقه أضمر في نفسه نار العداوة كالحجر فظهر منها ما ظهر وقد خالف نصيحة الشيخ له قبل وزارته، وهو قول: كن صاحب اتباع ولا تكن صاحب ابتداع؛ فإن الله يقول لمن هو أفضل منك ومن سائر الخلق أجمعين: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90] فخالف الوزير سياوش واتبع رأي نفسه وكان ما كان من سفك الدماء وكسر الأعراض وقد سبق.

والثالث: إن بعض أهالي القسطنطينية طلبوا من السلطان وزارته وذلك عند ظهور أهل البغي؛ فقال لهم حضرة الشيخ: إن السلطان اختار وزارة إسماعيل طغرائي فاقبلوه ولا تخالفوه، وأما من أردتم فستصير إليه الوزارة فلا تعجلوا والقصة سبقت عند ذكر سياوش الوزير وأهل البغي فبلغه هذا الخبر من الشيخ فحمله على الغرض ولم يدر حقيقة الحال والعبودية مستكبرًا استكبار من ادعى الربوبية فابتلاه الله بأمور حار فيها عينه وطار فيها قلبه فآل أمره إلى الغرق بعد الجمعية والانتظام، وإلى البغض والشنآن بعد المحبة، وإلى الملام بعد المدح بأنواع القصائد حتى إذا كانت السنة الثانية من زارته وتهيأ للسفر خرج مختفيًا إلى أن يصل إلى بلدة «صوفيا» خوفًا من أعدائه فلما اشتد الهجوم عليه وعلم أن الحذر لا يغني من القدر هجم على الكفار واقتحم معارك الحرب فاستشهد قرب «بلغراد» سامحه الله تعالى في أواخر ذي القعدة من سنة اثنتين ومائة وألف على أن يكون مدة وزارته اثنين وعشرين شهرًا وعند ذلك رآه حضرة الشيخ في المنام وقال له معاتبًا: يا ابن كوبريلي! ما خفت من الله تعالى وما استحيت من رسوله حتى نفيتني إلى هذه الجزيرة من غير جريرة وهو منكس رأسه لا يقول شيئًا لشدة حيائه من فعله ذلك، وانتقل حضرة

(1) كلام تركي.

الشيخ بعده بما دون الشهر كما سيأتي في محله.

وكان وفاته قبل حضرة الشيخ من النواميس الحكمية التي لم يطلع عليها إلا الخواص ولو سمعت لأغربت في البيان لكني أعرف أن كلام الحقيقة خلاف ما رسخ في عقول العامة وإلا لأقمت عليهم في هذا الباب الطامة ولا يتميز الحق من الباطل إلا عند الله يوم جزائه، ولذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93].

ثم استوزر مكانه علي باشا ابن علي القاضي من أتباع ابن كوبريلي وهو قريب العهد من هذا الجمع ولم أطلع بعد لا على خيره ولا على شره أعانه الله وهداه، والحاصل أن الانهزام والاستيلاء استمر من السنة الرابعة والتسعين إلى سنة هذا الجمع وهي الثالثة من المائة الثانية لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، ويقيم في الأرض من يقوم به العدل والسيف دهرًا ثم نرجع ونقول سمعت من فِي حضرة الشيخ أنه قال: دعاني السلطان سليمان الغازي فلما دخلت وجدت في محضره العلماء فأخذت بيده ودعوت له بالمغفرة والتوفيق، وقلت: أيها السلطان قد وجدت وزيرك ومفتيك وسائر صدورك وكلٌّ منهم على المراد في كونهم أهل الحق فادع لهم بالصدق والثبات.

قال: وأطلت الكلام فيما يتعلق بالدين والدولة والدعاء ويده في يدي فلما آل الأمر إلى خاتمته، قال السلطان المذكور ثلاث مرات: لا تنسَني فقد جددتنا وصدقنا وشرحت صدورنا.

أقول: قد سبق أنه جلس على سرير السلطان قبل الصباح بساعتين من يوم الإثنين من المحرم وهو يوم السبت لسنة تسع وتسعين بعد الألف ومات وجلس مكانه أخوه السلطان أورخان المغير اسمه إلى أحمد يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان وهو يوم الإثنين لسنة اثنتين ومائة وألف فيكون مدة سلطنة السلطان سليمان الثاني ثلاث سنين وتسعة أشهر وكان كمن نشأ في شاهق جبل لم يسبق له ألفة مع الناس ولم ير غير نفسه فلم يكن رشيدًا وذلك لأنه أُجلس وقد مضى أربعون من سنّ عمره، وقد كان محبوسًا تلك المدة في محبس بحيث لم يخرج منه أصلاً ولم يدر أحوال العالم قطعًا وفي يومه خلع يكن على يكن عثمان خلعة التشريف وذلك أنه كان رئيس أهل البغي في «أناطول» فأطاعه وانقاد له في أواخر دولة السلطان محمد الرابع فجعل أميرًا على بعض الإيالات ثم لما قدم سياوش الوزير مع العسكر لإجلاس السلطان سليمان كان هو معه لكن نزل

خارج القسطنطينة ولم يدخلها خوفًا من الغدر، ولما جلس السلطان سليمان أرسل إليه مع بعض خواصه خلعة فاخرة ومركبًا مزينًا وقرره ونصح إليه حضرة الشيخ كثيرًا وبالغ حتى قال: كن تقيًّا، فإن بنور تقواك تندفع ظلمة المعصية، وبذلك الخير تدفع شر الكفار، فإنهم ظلمة وأنتم نور، ولا بدَّ من مقابلة الظلمة بالنور، واجتهد في أن يكون من يتعلق بك من العساكر متقيًا أيضًا عن حرام بأنواعه متصفًا بالأخلاق الجميلة مؤتمرًا بالأوامر الإلهية مجتنبًا عن الظلم في السفر والحضر.

أقول: أثر في قلبه كلام الشيخ فامتثل مدة ثم تغير حاله وحال قريبه الأمير ولي، وأرسل السلطان فحاصروهما في بعض الرومية وقتلوهما ومن تبعهما من الأشراء[1] ونعم ما قيل: [...][2] ودعا الحال فانظر الشيخ كان إلى تعيين الله تعالى، وقد كان إسماعيل متعبنا في ذلك الوقت فلو سلبه سلبًا بنفسه وأثبته مكانًا آخر بنفسه والحركة النفسانية مرفوعة من الأولياء والأنبياء والورثة والناس عنه غافلون كما قال حضرة الشيخ: إن الله عيَّن من عيَّن فاسقًا أو صالحًا وليس عليَّ إلا القبول لا نسخ المقبول وإيراد المردود قال: وحالي مع السلطان والوزير كحالي مع النبي ﷺ والخلفاء فأني لو كنت في زمانهم لم يظهر مني غير الصدق والاجتهاد فكذا في هذا الزمان لا تفاوت لي في هذا قطعًا؛ فإن السيف انتقل منهم إلى هؤلاء لكن هؤلاء لا يعرفون الخلافة ولا يدرون قدر الإنسان، وإنما وعد حضرة الشيخ للناس وزارة ابن كوبريلي لما سبق من رؤياه؛ فإن شئت احمل على هذا المعنى وإن شئت عد ذلك منه من الكرامات، فإنه لأهل الحق إلهامات وقد صار أمره إلى الوزارة كما قال حضرة الشيخ ووعد والحمد لله تعالى.

والرابع أن الوزراء كانوا يدعون حضرة الشيخ لأجل المشاورة في المصالح المهمة لما يرون فيه من مماثل الرشد والإصابة من الرأي وكانوا يرجون منه الدعاء فيدعو لهم بالخير لما سبق أن الدعاء اللساني لا يسقط أصلاً فإن من مقتضى شريعتنا قبول ما عينه الله في الوقت من السلطان والوزير وغيرهما والدعاء لهم في مرتبتهم، وقد سبق أن حضرة الشيخ خرج إلى الغزو في زمن الوزير الذي قبل ابن كوبريلي فقال ابن كويريلي بعد تقلده: أنا أعرف أن الشيخ لا يخاف من شخص أصلاً لا من السلطان ولا من الوزير ولا

---

(1) الأشراء: النواحي.

(2) كلام غير عربي.

من غيرهما فما معنى حضور مجالس الوزراء الفاسقين والظالمين والدعاء لهم وكان قادرًا على ألا يحضر ولا يدعو لهم ولا يرافقهم في السفر فما هذا إلا من قبيل المداهنة والمساهلة في باب الدين والإعانة على الظالمين والميل إلى البدعة والهوى والإعراض عن الهوى.

أقول: يا ابن كوبريلي هذه المجادلة منك في حق الشيخ قبيحة وهذه المناظرة خارجة عن الآداب غير صحيحة وأحدثت مقدمات كلها فاسدة عظيمة ونتائج أنظارك باطلة سقيمة، إن الله خلقك فسواك وخلق الشيطان فأغواك فأردت تغيير خلق الله وإدارة الأمر على ما تهواه بقيت في ورطة التقليد وما شممت رائحة التوحيد فهل أنت قدرت على إصلاح العالم مع دعواك العريضة وأقمت في مقام إقامة السنة فضلاً عن الفريضة؟ لا والله بل جئت ممدوحًا وذهبت مذمومًا وكنت مغبوطًا فصرت مشؤومًا وهكذا شأن من لم يدر شؤون الله في مجاري أقداره فأطال لسانه ومدَّ يده على أهل الله وأخياره وكان في حقك قيل هذا المقال.

ولله در من قال:

فَقُل لِمَن يَدَّعي في العِلمِ فَلسَفَةً   حَفِظتَ شَيئاً وَغابَت عَنكَ أَشياءُ[1]

وأنت الذي في شأن مثلك قال الرسول ﷺ الطيب الطاهر وهو عليه الصلوات الطيبة من لسانه الباطن والظاهر: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[2] فإنك وإن لم يكن لك فجور صوري ولكن لك فجور معنوي بما وكل عليك من نفس إمارة وشيطان قوي، وقد بدا لك من بعد ما رأيت الآيات لتسجن الشيخ وتنفيه فأنت «قطفير» أو «زليخا» فيما قالا في يوسف وفعلا فيه، والشيخ دعا لك في هذا الأذى وأنت في غفلة من هدى كما فعل المنصور لمن أفتى بقتله وفعل به ما فعل إذ الكل من عند الله عند من عن الله عقل لكن أبقتهم ميادن الفضاء صرعى ولم ينفعهم الدعاء؛ فإن غيرة الله على الرسل والورثة تقطع عروق الأعداء؛ لأنهم قد اتخذوا الله وكيلا والوكيل يتصرف كيفما يشاء ويختار ويفعل ما يريد أطراف الليل والنهار ثم إن ابن كوبريلي فتح

---

(1) البيت من البسيط، وهو لأبي نواس في «خزانة الأدب» ص (4251)، و«نصرة الثائر على المثل السائر» ص (246).

(2) رواه البخاري (2834)، ومسلم (162).

في السنة الأولى ما فتح بطريق الاستدراج فكان محببا في قلوب الناس بحيث صار من لم يره مشتاقًا إلى مطالعة جماله، وذهب بعض الجهلة وغيرهم إليه وظن بعض الغافلين أنه صاحب المائة ولم يعرف حقيقة حاله إلا من عرف الله تعالى، ولما عاد من سفره عاد مغترًا براية معجبًا بنفسه قاصرًا في الشكر والعبودية.

ودعا الوزير حضرة الشيخ للمشاورة في سنة تسع وتسعين في الثالث والعشرين من شوال يوم الجمعة في محضر العلماء فجدد إيمانهم ولقنهم التوبة والاستغفار ثم جاء وذهب إلى جامع السلطان سليم للوعظ وكان قد أمر هذا الفقير بأن اخرج في ذلك اليوم للوعظ لكنه لما فوِّض إليه أمرًا يقتضي نشره إلى الناس قاطبة، قال: قد حول التقدير تدبيرنا فلما قعد مقعد الوعظ بدأ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:36] ثم نقل ما يناسبه من الأحاديث ثم قال: أيها الناس لا تنظروا إلى القارئ والمتكلم وانظروا إلى الحق والمقر والمتلو فالله تعالى قد أمركم بالمقاتلة وحث رسوله عليها، وإن رئيس العساكر يكن عثمان باشا قد أرسل محضرًا وعرضًا إلى الوزير وفيهما أن الكفار قد حاصروا «بلغراد» فأخذ الوزير العرض والمحضر وأراهما السلطان؛ فقال السلطان: اجمع العلماء وشاورهم فلا خروج عن حكم الشرع.

قال: وإني قد دعيت للمشاورة في هذا اليوم فأفتى المفتي بفريضة الخروج والإمداد وحكم بها قضاة العسكر وقد فوض إلى نشر هذا الخبر للترغيب، فاعلموا أن قلعة «بلغراد» كباب القسطنطينية فقد جاء الكفار الباب وأخذوا بالقرع والدق فما تصنعون أن استولى الكفار وأخذوا من أيدي المسلمين ذلك الباب فتيقظوا وأخرجوا ثلث أموالكم إمدادًا للمجاهدين، ومن لم يقدر فليمدد بالدعاء الخالص، فإخراج المال أهون الشرَّين وإخراج الكفار المسلمين من بلادهم أشد الشرَّين فلا بدَّ من قبول الأهون، وإلا فالأمر أظهرَ وبالجملة وعظ وعظًا بليغًا فأبكى الخلق بكاء شديدًا ودعا للعساكر دعاءً جامعًا، وأمَّن الخلق على دعائه تأمينًا جهوريًا.

قال حضرة الشيخ: إن السلطان يدعوني للمشاورة فأحضر وعنده الوزير وقضاة العساكر والمفتي وغيرهم فلا أسمع من أحد منهم شيئًا من كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ بنى عليه كلامه ويجعله مفتاح مقاله فيتكلمون كما يتكلم الصبيان لا طائل تحت كلامه ولو فرض بعث الرسول ﷺ في هذا الوقت لما رجعوا عن عاداتهم ولما انقطعوا عن مألوفاتهم فإنهم انهمكوا في الدنيا ولذاتها وزخارفها.

قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عند السلطان والوزير وسائر أرباب الدولة مقبولاً كليا ولا منفورًا كليا فبقدر إقبالهم إليَّ أقبل إليهم وهم في ظلمة الطبيعة المحضة، ومن العجب أن يخرج المرء عن النور ويدخل في الظلمة.

قلت: ذكر حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره - في المجلد الأخير من «الفتوحات» أنه شفع في مائة وسبعة عشر امرئ عند سلطان بلدة حلب، وذلك في مجلس واحد فقبل السلطان ولم يرد نفسه.

فقال حضرة الشيخ: إن ذلك الزمان كان زمان الفهم والعلم والنور وزماننا زمان الجهل والظلمة والشرور فلا قياس، قال: قلت للوزير: أنا أذهب إلى رئيس العسكر وأغزو معهم وأحرضهم على القتال فلم يرض به كأنه ومن يتبعه يخافون مني ومن جسارتي وإني لا أخاف منهم أصلاً، فإنه قيل: «من دق دق» وأنا لم أكن إلى الآن من دق فكيف أكون ممن دق، وقد أحاط بهم الجبن والخوف يتقاعدون ولا يخرجون إلى الإمداد فلا خير في سلطان الزمان ووزيره ومن يليه فإنه بقي الأمر على هذا الأسلوب من الظلم والفساد والسفاهة والعناد ارتحل إلى إقليم آخر لا خوفًا من الكفار بل بغضًا لهؤلاء الأشرار.

قال: قتل رئيس العساكر يكن عثمان باشا أخا رئيس طائفة الراجلة محمود أغا الأشتبي لكونه ظالمًا قد تسلط على العباد الرومية فكان من ذلك في نفس محمود أغا عقدة، فيومًا في محضر عظيم من الأعيان وأركان الدولة أخذت بيده وقلت: أنت شيخ وأنا شيخ قد شابت شعورنا اقبل شفاعتي في يكن عثمان باشا واعف عنه، فإن عقدة خاطرك تصير سدًّا في طريقه وهو الآن في خدمة الغزو، قال: فلم أزل ألح عليه حتى عفا.

قال: قلت لمعلم السلطان عبد الحليم الشهير بعرب زاده في محضر الوزير والمفتي وسائر الأعيان: إنك من أهل السنة والجماعة ألا تكتم القول الحق عن السلطان، وأن تذكره بالحق في كل زمان، فقال: إن شاء الله ونرجو دعاءكم الخير، قال: قلت للسلطان والمفتي والوزير وقضاة العساكر ومعلم السلطان وسائر الخواص عند المشاورة: لا بدَّ لكم أن تخرجوا ثلث أموالكم أولاً للصرف إلى محاويج الغزاة، ومهمات السفر حتى نسوانكم وخدامكم ليقتدي بكم من عداكم ألا ترون إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56] كيف بدأ الله بصلاته وصلاة الملائكة، ثم أمر المؤمنين ولم يقل من أول الأمر (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) فالمتبوع إذا فعل أمرًا تبعه الأتباع إليه ثم قال: وأخذت أيديهم على ذلك

وجعلت كلاً منهم أمانة للآخر فبعد أخذ هذا العهد الأكيد تصدوا للمصادرة ففعلوا ما فعلوا وليس لله تعالى إذن في ذلك والمؤثر هو المال الحلال، وإن كان قليلاً فإنه نافعٌ وأما الحرام فإنه ضارّ وإن كان كثيرًا.

قال: تسمع أن أهل الحرب قد أخرجوا نصف أموالهم إمدادًا أو إعانةً لأهل دينهم ولا غيرة لأهل الإسلام قدر عُشر غيرتهم في هذا الزمان حيث يموتون على حب المال ولا ترى أحدًا منهم يبذل ماله ونفسه في سبيل الله ولا اعتبار بإيمانهم فإن الشيطان يخدعهم حالة النـــزع والعياذ بالله تعالى.

قال حضرة الشيخ: أراد قاضي القسطنطينية وصاحب الدفتر السلطاني محمد باشا أن ينفياني بناء على أغراضهما الفاسدة فلم يثبتا أسبوعًا إلا أن نفاهما السلطان بأغلظ النفي فكان ذلك جزاء لسوء تدبيرهما، فإني لا أريد غير الخير للسلطان ولمن دونه فلا وجه لنفيي أصلاً، وبسط حضرة الشيخ كلامًا طويلاً في علم الإكسير قد تحيرت فيه، قال: قد جاء شخص بكتاب وقال: انظروا ما هذا؟ فنظرت مرة من أوله إلى آخره فإذا هو نهاية الطلب شرح الإمام أيدمر الجلدكي على الكتب في الإكسير فطالعته مرة من أوله إلى آخره فلم ينكشف مراده ثم كررت المطالعة وأدرت النظر فقبيل بلوغي إلى الغاية انكشف لي جميع مرادي فشرعت أن أنتخب كتابًا في هذا الفن مسمى بـــ «عناية المنتخب» لكني ما أتممت وفرغت فإن الله قد عقدني في المجلد الثاني الذي هذا على مطالب ذلك الكتاب وكان يخطر ببالي أن أعمل الإكسير بحيث يستغني السلطان والوزير عن السؤال عن الناس لكن الله لم يأذن لي في ذلك.

قال: علم الإكسير كعلم السلوك من الأول إلى الآخر فمن لم ينته سيره وسلوكه لم ينكشف له إلا أن يتعلم من أهله.

أقول: أراني حضرة الشيخ غاية المنتخب له.

وقال: إن الزئبق والأسرب والرصاص والحديد وأمثالها ليس المراد منها ما يعرفه العامة بل لكل منها معنى مقصود ومصطلح عند أهل هذا الفن فما دام لم يعرف لم يحصل الإكسير البتة والذي يجتهد فيه البرانيون عقيم لا ينتج إلا الخيبة والإفلاس كما قالوا: من طلب الغنى بالكيمياء أفلس.

ومن هنا قال المولى الجامي [..][1] والله يعلم أني ما سألت حضرة الشيخ عنه شيئًا

(1) كلام غير عربي.

من مفاتيح الإكسير ومواده إذ علمت يقينًا أنه يمتحنني بإظهاره لي هل أنا طالب الدنيا أم لا؟ ولم يعمل به حضرة الشيخ قط إلى أن مات - روَّح الله روحه - إذ كان منقطعًا عن الدنيا وأسبابها بالكلية.

اعلم أن علم الإكسير من العلوم الجليلة المشتركة بين الحكماء الفلاسفة وبين الحكماء الإلهية، ولذا قال حضرة مولانا - قدس سره - مشيرًا إلى وصوله إليه [...][1].

ثم إن الفلاسفة إنما وصلوا إلى هذا العلم بطريق التعلم والنظر لا غيرهما، وأما الحكماء الإلهية فلهم طريقان في ذلك إحداهما طريقة التعلم والكسب وذلك لمتوسطهم في السلوك وكذا أهل البداية فيه، والثانية طريقة الكشف والوهب وذلك لمنتهيهم فيه ووجهه أن ترتيب الإكسير من أوله إلى آخره كترتيب السلوك من ابتدائه إلى انتهائه؛ لأنه يحتاج إلى التشديد والتفسير والتشهيب والتبييض والتذهيب على مراتب النفس؛ فإنها أمارة ولوامة وملهمة ومطمئنة وراضية مرضية وصافية، ولذا سماه الفلاسفة إنسان الفلاسفة كما أن الحكماء الإلهية سموا ما تولد منهم بعد عبورهم من جميع المقامات ولد القلب هو طفل خليفة الله في أرض الوجود والإنسان آخر من تنـزل إلى حضيض الوجود بعد عبوره من الطبيعيات والعنصريات والمواليد الثلاثة فكل علوي وسفلي يعتبر في السلوك آفاقًا وأنفسًا كذلك يعتبر في الإكسير، وقد ورد: «إن الناس كالمعادن»[2] وكما أنه لا يكون إكسيرًا إلا بعد انسلاخ الأجساد عن العوارض النفسانية والأوصاف الفاسدة المفسدة فكذا لا يكون الإنسان إنسانًا إلا بعد ذلك فعلم المنتهي جامع لجميع المراتب ولذا حق له أن يكاشف عن سرِّ الإكسير وبينه وبين الكيمياء فرق، وهو أن يكون الإكسير يطلق على بعض مراتب العمل قبل نهاية التدبير كما يطلق على ما بعد تمام العمل، وأما الكيمياء فلا يطلق إلا على ما بعد تمام العمل والتدبير، وإليه الإشارة بقول المولى الجامي: [...][3].
وللإكسير أربع مراتب فمن عمل أثره أعطى عشرة بدرهم واحد، ومن عمل أثره مائة درهم بدرهم، ومن عمل درهمًا يبلغ الألف، ومن عمل درهمًا يبلغ مائة ألف بل إلى ما لا نهاية فيملأ ما بين الخافقين وله عقد وتركيب وحل وإذابة بأنواع النيران ولو أمعنت النظر

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه البخاري (3131)، ومسلم (4774).

(3) كلام غير عربي.

في أحوال الفصول الأربعة من الربيع والصيف والخريف والشتاء لوجدت صنع الحكيم الخبير عين عمل الإكسير.

ألا ترى أن الحارث يقلب أجزاء الأرض أيام الخريف، ويقال له: الكِراية - بالكسر - ويلقي فيها الحبوب بعد تمام الحل ثم يترك ذلك في الشتاء وينعقد بالجمود فإذا جاء الربيع يؤجج الله نار الشمس في الأرض على التدرج فيصل أثر الحرارة إليها كحرارة القنديل بل فم التنور ثم تزداد الحرارة إلى وقت الحصاد فعند ذلك يتم الأمر إذ ينعقد الحب ويدرك الزرع ولا يبقى إلا الحصاد والدوس والوضع في المطامر، وهذا من أعاجيب الدهر لا يصل إلى دركه إلا الخواص فلا تطمع أيها الرجل وكلنا ذلك الرجل، ومن هنا عرفت إن الكيمياء موجود الاسم معدوم الجسم.

وأما قول كمال الخجندي: [...][1] فإشارة إلى صعوبة الأمر كأنه التحقق بالمعدومات الصوفية التي ما شمت رائحة الوجود أصلاً وهو كذلك إذ هو المعقدات ما حلها إلا واحد بعد واحد، ولذا أوصيك بعدم الاشتغال به لكونه إسرافًا للكمال وإضاعة للعمر إلا أن يهديك الله إلى فيلسوف هو أين تجده، [....][2] وقد أعطاه آدم وهو مس الهرامسة ومن دونها إلى نبينا ﷺ حتى ذكر الشيخ القمري في بعض رسائله تركيبًا خاصًا، كان موسى عليه السلام يعمل به وقت الضرورة.

وأما نبينا عليه السلام فلم يعمل به بعد، إن علمه كما يشير إليه قوله:

«عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[3] رواه الترمذي كما في «الترغيب».

فإن قلت: لِمَ لَمْ يعمل به؟ قلت: لهوان الدنيا على الله، وليكون حجة على الأمة ولوجوه أخر روي عن الإمام عليّ رضي الله عنه أنه سُئِلَ عن الإكسير؛ فقال:

وشيئًا يشبه البرقا ... خذ الفرار وطلقا

ملكت الشرقا والغربا ... إذا أمزجتهم سحقا

(1) كلام غير عربي.

(2) غير واضح بالأصل.

(3) رواه أحمد (21166)، والترمذي (2270).

وقد وصل إليه حضرة شيخي وسندي أيضًا كما نقلت عنه، وأما قوله: «إن الله عقدني» في المجلد الثاني فستر الحال؛ فإن الناس قتال.

قال حضرة الشيخ: قلت للوزير بمواجهته: إنني غير محتاج إليكم، وإني غني عنكم ولا مراد لي منكم قطعًا إلا أني أريد أن أزور مرقد حضرة الإمام الأعظم ثم الحج الثالث.

قال: واعتقاد الوزير ومن دونه على أني أعلم الكيمياء ولا حاجة لي إليه فإن الله أحسن إليَّ بكيمياء القناعة والتوكل، وذلك يوجد في أربعين عامًا.

أقول: دعا حضرة الشيخ رجب باشا القائم مقام الوزير في أواخر دولة السلطان محمد الرابع فبسط الخوان وعنده جمع من أعيان مشايخ القسطنطينة وعلمائها فأخذوا يأكلون؛ فقال واحد منهم مخاطبًا لحضرة الشيخ: اعتقادنا على أنه عندكم الكيمياء والحاكم بذلك كثرة أتباعكم وقلة ما لكم بحسب الظاهر؛ فقال حضرة الشيخ متبسمًا: عندي كيمياء القناعة، والتوكل لا غير.

ثم قال بعد العود ضاربًا مثلاً لانقطاعه عن الدنيا ولذاتها وشهواتها لا تفاوت بين أن يكون النجاسة في طرف من نحاس أو فضة أو ذهب؛ فإن العاقل لا يمد يده إليها فكذا الدنيا عندي، فلأحب أن أزين داري بالفرش النفيسة وبدني بالخلع الفاخرة مع أن الله تعالى قد فتح لي أبواب خزائنه بحيث يزيد الوارد على المصرف بمرات.

وقال: إن الله تعالى يوجه إليَّ أرزاقًا كثيرة من أنواع شتى من أقطار الأرض وأطراف العالم ولا يعرفه السلطان ولا الوزير، فقد أمسك يديهما وفتح يدي غيرهما لئلا أكون محجوب نعمتهما وتحت مِنّتهما، ولو فرض إنعامهما لكنت أيضًا أول آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، فإنعامهما وعدمه سواء عندي.

قال: لا أدخر شيئًا من الأرزاق، فالكفاية مأخوذة والفضل مبذول، ولو أردت الادخار يستعقب الامتحان فلا أبرح أصرف المال حتى ينفد، ولا يبقى عندي شيء من درهم ودينار.

قال حضرة الشيخ: نقل من الشيخ إبراهيم القريمي شيخ السلطان مُراد الثالث أنه قال: لا بدَّ لمن يخالط السلطان أن يكون أحد الرجلين إما أن يكون صاحب كرامة كونية أو صاحب كرامة قلبية علمية؛ لأنه بكرامته يجذب القلوب إلى طريق الحق، والمراد بالكرامة القلبية تخلية القلب عما سوى الله تعالى.

ثم قال: وظني أن الشيخ إبراهيم القريمي كان قطب وقته.

قال حضرة الشيخ: كنت أظن أنه في القسطنطينية مستعدٌّ للعلم الإلهي فلم أجد واحدًا من أعوان السلطان قابلاً للخطاب فلم يظهر، فالآن خرج من قلبي السلطان والوزير وغيرهما، أقول: القابلية لخطاب أهل الحق في الظاهر والباطن نعمة جسيمة، فكيف يتأهل لها متقلبة الزمان وأهل البدع والهوى، والله الحكيم الغيور ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56].

الفصل الرابع عشر /

في بيان وفاة حضرة الشيخ

روَّح الله روحه

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:30] فيه نعيٌ للنبي ﷺ وعامة أمته، وإشارة إلى موت الطبيعة وأوصافها، وموت النفس وأخلاقها، والأينية التي وقعت على الذات الإنسانية مانعة عن تمني لقاء الله تعالى، فإذا زالت كان الإنسان ممن أحبَّ لقاء الله تعالى وأحب الله لقاءه، وهو الموت بالاختيار قبل الموت بالاضطرار، وهو الفارق بين المدَّعين والمحققين، فإن بعض الناس يدَّعي النجاة والدرجات ولكن يكره الموت وهم أهل الدعوى الكاذبون؛ إذ لو كان لهم ما ادَّعوه لكانوا أسرع شيء إليه تمني الموت، ولله تعالى در أهل التحقيق حيث لا دعوى لهم أصلاً، ويُحقق تحقيقُهم محبتَهم للقاء الله تعالى قَالَ مَنْ قَالَ.

ومن هنا ظهر لك أن ليس لأولياء الله تعالى خوف موت الصوري أصلاً، وإليه الإشارة بقوله ﷺ:«مَن بشرني بخروج صفر بشرت له بالجنة»[1]، وبقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس:64].

وذلك أن المبشر لا يستقيم له الألم والخوف والحزن بل أضدادها، وأن الخوف إنما هو لبقاء أوصاف الطبيعة، وهم قد انسلخوا عن إتيانهم، وبلغوا في الغاية التي لا غاية وراءها، وحب الحياة إنما هو من بقاء البقية لأن الطبيعة والنفس من الدنيا كما أن القلب والروح من العقبى، وكل منهما يجذب إلى مجانسه، ويجر إلى مشاكله، كما قيل: «الجنس إلى الجنس يميل».

فمن فني عن إضافة الوجود إلى نفسه فقد فني عن إضافة ما يتعلق به إليها من الدار وساكنيها، فلا له من الموت أو القتل خوفٌ، ولا له من النفي أو الحبس ألمٌ؛ إذ لم يكن له عن نفسه اختيار، ولا مع غير الله قرار، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:4] وهذه الآية شاملة لجميع الآيات لا اختصاص لها بمكان دون مكان، مشارق الأرض ومغاربها، وجزائرها وبحورها، وسهولها وحزونها.

---

(1) تقدم تخريجه.

والعاشق إذا كان مع المعشوق استراح من كمد البلايا، وخاض في بحر العطايا، ونسي الكون بدائه ودوائه، والأين بمائه وهوائه، وكان القبر له جنة، والسم له منة، كما قال في «المثنوي».

وأما الذين نسوا الله فنسيهم فيقولون: فلان مات ولم يصل إلى مراده، وفلان نُفِيَ من بلد فبقي في حسرة أهله وأولاده، وفلان أُخذ ماله من جميع جهاته فانقطع معاشه، وفلان ابتلي فطوى بساط عشيرته وفراشه، فما أبعد هؤلاء الجهلة عن الفهم عن الله لقياس نفوسهم على نفوس أهل الله تعالى مع وجود الفاروق، ولذا ترى بعض السلاطين والوزراء والوكلاء ينفي بعض أولياء الله من أهل الفناء عن بلده، ويزعم أنه تربية وإصلاح لنفسه، نعم، ولكن ليس كما تعرف، وأنت بفعلك هذا إنما تصديت لصلاحك وهو موتك لا غير، فكأنك أيها الوزير حين قلت: اللهم اخذل من خذل المسلمين قلت لنفسك: اللهم اخذلني والعياذ بالله؛ إذ المباشرة بسبب الخذلان مؤدٍ إليه وهو الطعن في أولياء الله، ومدُّ اليد إليهم بسوء كما قال في «المثنوي».

أرأيت أحدًا نجا من السلاطين الذين نظروا لأهل الله؟! ولذا لما نفى الوزير الشهير بـ«ابن كوبريلي» حضرة الشيخ إلى جزيرة «قبريس»، استدرجه الله وأوقعه في ورطة الخذلان على هامة رأسه، وأخذ يد القضاء بمنخنقه، كما أخذ بمن نفاه قبل هذا، وهو الوزير إبراهيم المشهور بـ«قرة كتخدا» كما سبق تفصيله، وكذا سبق مجيء منشور النفي من قبل ابن كوبريلي في ترجمته، وصادف ذلك يوم الخميس وهو العشرون من شوال المنتظم في سلك شهور سنة إحدى ومائة وألف، فخرج قائلاً: إن الدين عند الله الإسلام، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله منبسطًا منشرحًا لا مضطربًا منقبضًا، وودَّع عياله وأولاده وأحبابه، ودعا للسلطان والوزير وعسكر الإسلام مرارًا، كما دعا الحلاج وقال: إلهي أفنيتُ ناسوتي في لاهوتك، فبحق ناسوتي على لاهوتك أن ترحم على من سعى في قتلي.

وكان الخليفة في بغداد وقتئذٍ المقتدر بالله، والوزير حامد بن إياس الواسطي، والقاضي أبا عمرو فلم يفلت أحدٌ منهم من يد القهر الإلهي في زمان يسير، كما بُيِّنَ في محله.

وكذا مات السلطات سليمان الثاني، وقتل الوزير المذكور بعد أن نفى حضرة الشيخ.

فإن قلت: كان من حق الدعاء بالخير عدم المؤاخذة؟

قلت: هذا لا يدرك بالعقول الضعيفة، والدعاء مراتب وفي الشخص الواحد ألسنة متعددة بحسب الأطوار، وغيرة الله على أوليائه كأسد قَتَّال من غير تفرقة بين نافع وضرار.

فإن قلت: كان الظاهر أن يدعو على المهين لا له؟

قلت: لا يقبل الباطن هذا الظاهر؛ فإن أهل الفناء يعدون ذلك شركًا خفيًّا؛ فإن الله تعالى قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل:9] والوكيل هو المتصدق لا الموكل، فليس لهم مراد غير مراد الله تعالى، وإنما عليهم التسليم والانقياد والدوران بأمر الله تعالى حيثما دار، لا هلاك العالم، وإبقاء النسل كما يفعله بعض أهل الجلال، لكنه ليس بكمال فاعرف ولا تتغير وفوق كل ذي علم عليم.

ثم نرجع ونقول: خرج حضرة الشيخ إلى الإسكدار ومعه خادم واحد وهو على دده القرين أبادي، وأربعة نفر هم الذين جاءوا من قبل السلطان بمنشور النفي، وسلكوا من طريق البر إلى أن بلغوا بلدة «قونية» ثم «لارنده» الشهيرة بـ«قرانى»، ثم إلى «سِلِفْكة» - بكسر السين واللام وسكون الفاء - هي قلعة قرب البحر المقابل لجزيرة قبرص، وحضرة الشيخ لم يفطر يومًا في الطريق، وكان وقت قيظ، حتى تشققت شفتاه، وسالت الدماء، ثم دخلوا السفينة وهبت ريح طيبة، فخرجوا إلى ساحل قبرس في خمس ساعات نجومية، وقبرس - بضم القاف وسكون الباء الموحدة وضم الراء المهملة وفي آخرها سين مهملة - جزيرة من الرابع في بحر الروم حذاء الشام، ولها ذنب رقيق في شرقها يقرب من ساحل الشام.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين استأذن معاوية عثمان في غزو البحر، فأذن له، فسير معاوية إلى قبرس جيشًا، وسار إليها عبد الله بن أسعد في مصر، فأجمعوا عليها وقاتلوا أهلها ثم صالحوا على جزية سبعة آلاف دينار في كل سنة، فكان أول من غزا المسلمون في البحر، وكان ذلك في خلافة عثمان، ومعاوية يومئذ أمير الشام، كما في الوزير المشاورة، ثم وصلوا إلى قلعة «لَفْقُوشة» - بفتح اللام وسكون الفاء وضم القاف - في ست ساعات عن الساحل الذي خرجوا إليه، وهي أجمع القلاع القبرصية وأصلحها، وفيها الوالي والقاضي بطريق المولوية، وفيها جامع يقال له: «أيا صوفيا»، لم أر مماثلاً له في بنائه وصورته، وفيها جامع أيضًا يقال له: «عمرية» - نسب إلى عمر بن عبد العزيز - وله

محراب مخصوص صلى فيه، وقد زرته وصليت فيه.

واستقبل القاضي والوالي أحمد باشا وسائر الأعيان حضرةَ الشيخ فأنـــزلوه في دار الوالي، ثم ساروا إلى قلعة «ماغوسة» – بضم الغين المعجمة والسين المهملة – وهي في مقابل الشام، وبينها وبين قلعة «لفقوشة» اثنتا عشرة ساعة.

قال حضرة الشيخ: لما دخلت من باب «ماغوسة»، قلت: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ [الإسراء:80] ولما دخلت في الدار المتعينة للنـــزول وهي دار محمود أغا اللفقوشوي أميرالاي في «ماغوسة».

قلت: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنــــزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنـــزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]

وفي هذه القلعة جامع لطيف أيضًا يقال له: «أيا صوفيا»، وهو أبدع من الأول في البناء والصورة من القلعة نفسها، فهو فوق أن يوصف متانتها ورصانتها، وقد وصلوا إلى هذه القلعة التي عينها الوزير المذكور للإقامة في اثنين وعشرين يومًا خرجوا فيه عن القسطنطينة، وكتب في منشور النفي كلمات لا يرتضيها العقل منها: إن عثمان واعظ السلطان سليم نُفيَ إلى هناك لكونه معينًا للأشقياء.

أقول: في هذا القول سفاهة من وجهين:

الأول: أنه كيف يسع العاقل أن يجرد اسم حضرة الشيخ عن ألقاب التعظيم ولو في الجملة مثل أن يقول: الشيخ عثمان أو السيد عثمان، وهو شيخ شيوخ الزمان، وسيد سادات كل مكان، خلف السعد والسيد السند في العلوم الظاهرة، ختن الشيخ الأكبر والكبير في العلوم الباطنة؛ إذ لم يفض ختام كتبهما على مرادهما إلا هو، فانظر، إن الوزير المذكور لو ذكر عنده سائس دوابه باسمه المجرد لم يرض به لزعمه أن المعزى إلى العظيم يقتضي التعظيم، كما هو الراسخ في عقول العامة، ويرضى أنه يذكر إمام أئمة الدنيا، ومقدم أهل العقبى بمجرد اسمه مع انتسابه إلى المولى العظيم الجليل الذي لا أكرم عنده من أهل التقوى.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13] وهذا التحقير الذي صدر منه كان أحد أسباب خذلانه من حيث لا يدري.

وقد قال تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ [التوبة: 63] أي: لا تدعوا محمدًا ﷺ باسمه، ولكن وقروه وعظموه وقولوا: يا رسول الله، ويا

حبيب الله، ويا نبي الله، ويا أبا القاسم.

قال بعضهم: وفي الآية بيان توقير معلمَ الخير؛ لأن رسول الله ﷺ كان معلمَ الخير، فأمر الله بتوقيره وتعظيمه، وفيه معرفة حق الأستاذ، وفيه معرفة أهل الفضل.

حتى قال في «التأويلات النجمية»: فيه إشارة إلى تعظيم المشايخ؛ فإن الشيخ في قومه كالنبيٍّ في أمته.

ثم أن يكون حضرة الشيخ معينًا للأشقياء لم يقل به أحد غير الوزير المذكور؛ إذ الألسنة قائلة بإعانته لأهل الخير، وإحيائه للدين، والقلوب منطوية على حبه الشديد من أهل السماوات والأرضين، وما يكذبه الظاهر فهو كذب بيقين.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:105]، اللهم إلا أن يصدق في مادة واحدة، وهي أن هذا الوزير لما تعين لندامة السلطان سليمان الثاني في أول جلوسه، ثم استولى أهل البغي ففعلوا ما فعلوا من سفك الدماء، ونهب الأموال، وكسر الأعراض، حتى كان هو عرضة للهلاك، بحيث آيسوا من خيانته، وبكت عليه أمه وأمهات بنيه وبناته، أرسل والدته إلى حضرة الشيخ تلتمس منه الدعاء لدفع البلاء، فجمع حضرة الشيخ ليلة سبعين رجلاً من الصوفية، فذكروا الله تعالى تلك الليلة سبعين ألف مرة مرارًا بنية خالصة من يد الاسم القهار، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فما نجا في تلك الواقعة إلا هو، فكان حضرة الشيخ وقتئذٍ معينًا للأشقياء - وهو الوزير نفسه - مع قواه الظاهرة والباطنة، حيث استبغاه من الله تعالى.

هذا وقد ذكرته لك ليستبين عندك المحق والمبطل، والمحسن والمسيء، والشكور والكفور، والصدوق والكذوب، والصبور والضجور.

واعلم أن الله تعالى قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] (1) وهو الصراط المعهود الذي لا يمشي عليه إلا مظهر الاسم الجامع، فهو منعم منهم عليه من كل وجه، وليس عليه أثر غضب وضلالة من جهة من الجهات.

وقال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56].

وهو كل صراط يمشي عليه مظهر اسم من الأسماء الجزئية، فهو وإن كان منعمًا

---

(1) قال الشيخ المصنف: أي ثبِّتنا على صراط تخصيص العبادة والاستعانة بك.

عليه من جهة ربه الخاص، لكن عليه أثر غضب وضلالة ببعض الوجوه.

فالرسل والورثة يدعون الخلق من اسم إلى اسم مثلاً من الاسم المضل إلى الاسم الهادي، ومن الاسم الجزئي إلى الاسم الكلي، فإطاعتهم وعدمها من أحوال أعيانهم الثابتة في الحضرة العلمية، فالكل يستمد من ربه الخاص، ويطلب منه المدد والعون وهو يربيه ويعينه، ولا معنى لإسناد وإعانة الأشقياء إلا كامل الناس، وهم السعداء، فافهم.

وحضرة الشيخ لما تمكّن في قلعة «ماغوسة» جلس مجلس الوعظ ثلاث مرات في جامع «ثلثة»[1] يطلب أهاليها، ثم تركه وأخذ يعلق شيئًا على «تلخيص المفتاح» لبعض من قرأه عليه من علماء القلعة، حتى إذا بلغ الثلث تركه والتدريس أيضًا، وسببه أن والي قبرص ابن اليهودي لما بلغه وهو في قلعة «لفقوشة» أن حضرة الشيخ يتلمذ منه بعض أئمة القلعة وخطبائها - وكان رجلاً وهَّامًا جبانًا - أرسل كتابًا خفية إلى محمود أغا أميرالاي - الذي كان حضرة الشيخ يسكن في داره - أن امنع الشيخ من الدرس من حيث لا يدري، وفرِّق الطلبة حتى لا يبلغ الوزير تدريسه وجمعية الناس عنده، فأصير عرضةً للعتاب والعقاب.

ففعل الأمير المذكور ما وصى به الوالي بما خفي على الشيخ طريقه وأصله، ثم لم يلبث الخنـــزير - أي: الوالي - حتى صودر، وأحضر إلى طريق السلطان لبعض مظالم الناس فقتل قتل اليهودي في آخر الزمان، ولم أر من أهل الغرض من أفلح ولو كان سلطانًا أو وزيرًا أو واليًا.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الصدق والصفاء، لا من أهل الأذى والجفاء، ويخرجنا من ظلمات التدبير، ويقيمنا في دائرة التسليم لا للتقدير.

فإذا نقشت هذا على الصحيفة الجنانية، فاستمع لما يتلى عليك من الآيات الفرقانية، لتزداد عبرةً وبصيرةً وتذكرًا، وتتسع خبرةً وإحاطةً وتفكرًا، وهو أنه لما بلغني حضرة الشيخ - وأنا في بلدة «بروسة» - وجدت خاطري قد تبع أثر الشيخ يقطع معه البراري والصحاري، وينـــزل في منازله من حيث لا يدري الورى، كما قال ﷺ: **«إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر»**[2].

---

(1) هكذا بالأصل.

(2) رواه البخاري (2627).

وقال الشاعر:

جَنيبٌ وجثماني بمكة مُوثقُ[1] هواي مع الركب اليمانين مصعدٌ

ولما انقضى بقية شوال وذو القعدة، ودخل ذو الحجة، وازداد الجذب والانجذاب صممت عزم الزيارة، وإلحاق الجسد بالروح، فتفألت في «المثنوي»، فجاء هذا البيت: [...][2] فعرفت أن التوجه نحو الزيارة حاصلة إذا جاء الوقت.

حتى إذا دخل المحرم أول السنة الثانية بعد المائة والألف شرعت في التهيؤ لما قصدته فرأيت حضرة الشيخ في المنام فقال لي: الآن يلزم ترك التيمم، أي: الضرب في الأرض بمعنى السير والسفر كما أُلهمت في المنام.

فلما استيقظت انقطع عني الحيل، وعري أفراس الصبا والميل، لكن غلب الاشتياق إلى اللقاء والرؤية بحيث لم يبق لي قرار في دار، فرأيت في أوائل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة كأني في الطريق على قصد زيارة حضرة الشيخ، حتى وصلت إلى جسر في طريق منه وحل، وبدا قاطع طريق حتى جاوزت الوحل، ولم يك للقاطع يد عليَّ بعون الله تعالى وحفظه، ووصلت إلى حضرة الشيخ في ثلاثة أيام وهو في قرية، في دار عجوز توفت ابنتها، فضمته إلى دارها وآوته إلى منـزلها رعايةً وتسليًا بكلامه، وكان في يدي قطع الكاغد وقلم، فأخذ حضرة الشيخ القلم وقطعة وكتب شيئًا على القطع ومسحها على الوجه، فسألت ﷺ، وقلت: لم فعلت ذلك؟ فقال: أشرت في هذه القطع إجمالاً إلى ما قصد بي هؤلاء الناس من السوء، فمسحت بالوجه ليكون حجة عليهم عند الله.

ثم قدمت العجوز بين يدي شيئًا من النقل، ثم رجعت ووصلت إلى مقامي في يوم واحد فانتبهت، وعرفت أن قد قرب السفر، فإذا ورد من طرف حضرة الشيخ مكتوب إلى هذا الفقير صورته هذا:

بعد التحية والتسليم عليكم، ألم يأنِ للمشتاق أن يشتاق إلى اللقاء والرؤية؟ وهل كان هكذا حال المشتاقين في السابق؟ وهل يكون هكذا حالهم في اللاحق؟ هذا في طريق الاشتياق أيها المشتاق من العجب العجاب عند المشتاقين من أولي الألباب أبقاكم الله

(1) البيت لجعفر بن عبلة الحارثي في «الأغاني» (8359/13)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» ص (71).

(2) كلام غير عربي.

للمحب المشتاق على الاشتياق، فواشوقاه للمشتاق شوقًا، والسلام انتهى.

إمضاؤه هكذا: من الفقير الحقير الشيخ السيد عثمان عفا عنه.

وعلى ظهر المكتوب مكتوب: إن شاء المولى يصل إلى شيخ إسماعيل في محروسة البروسة انتهى.

وكان وصول المكتوب إليّ في اليوم الرابع من الشهر المذكور.

وورد أيضًا مكتوب إلى بيته في القسطنطينية فيه أن ابنه الصغير السيد مصطفى، إن أراد المجيء إلى هنا فليجئ بالشيخ إسماعيل البروسوي، فجاء إلى بروسة امتثالاً للأمر، فخرجنا منها يوم السبت وهو السابع من الشهر المذكور ونحن خمسة نفر: الفقير، والسيد مصطفى وهو ابن خمسَ عشرة، وعثمان دده، ويعقوب دده، ويحيى دده.

أما عثمان، فقد كان عند الفقير في الديار الرومية فهاجر معي إلى بلدة «بروسة»، ثم كان عند حضرة الشيخ مدة، وكان في مكتوب الشيخ إشارة إلى قدومه أيضًا.

وأما يعقوب ويحيى، فقد كانا عندي قبل الهجرة وبعدها، فسلكنا مع الرفقة سبيل أنطالية؛ لأن حضرة الشيخ كان قد أشار إلى السلوك من هذا الطريق دون طريق قونية، وقد أعانه الذي سلك هو منه لما أنه الوقت كان وقت الشتاء، وكان الطريق الأول أسهل سلوكًا من الثاني في الشتاء، فسرنا في أول الزمهرير وقاسينا شدائد الشتاء في بعض الطريق، حتى وصلنا إلى صحراء قصبة «صندقلي»، وجدنا الهواء هناك معتدلاً لا باردًا ولا حارًا، فازداد الاعتدال بعدها في المنازل إلى أن دخلنا بلدة «أنطالية» في اليوم الثاني عشر من يوم الخروج من «بروسة» - وهي بفتح الهمزة وسكون النون واللام بغير تشديد الياء المثناة - بلدة كبيرة في ساحل البحر معتدلة الهواء في الشتاء، ثقيلة في الصيف، كقبرص، أكثر أهاليها أهل الإنكار، أرباب الباطن، معروفون به مثل الأزمير، والأزميد، والبركي ونحوها من أكثر بلاد أناطول إلى حدِّ العرب والعجم.

وذلك لأن البقاع على الاختلاف، وإن كانت الأرض كلها حقيقة واحدة كالماء، ولذا جاء منه عذب فرات اكتسب العذوبة من البقعة الطيبة بعد النقاهة في نفسه، ومنه ملح أُجاج اكتسب الملوحة من البقعة السبخة بعد الحلاوة في نفسه، ففي البقاع والماء والإنشاء والعلم اختلاف كثير، قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58] وأرى أن الهجرة إلى أرض كثر فيها أهل العلم النافع والصوفية العلماء بالله المحققون

المؤدبون كالواجب بالنسبة إلى طالب الحق، وهذا من المباحث الفرضية.

فلنرجع إلى ما هو من السنة بمنـــزلة الفريضة، وهو أنَّا مكثنا فيها يومين فلم نجد السفينة للعبور إلى جانب قبرص، فلما انقطع الحيل بعد التفتيش التام دخلنا في سفينة صغيرة بإشارة محمد خواجة البياسي - أصلح الله شأنه، وصانه عما شانه - وكان رجلاً صالحًا صديقًا في قومه، ابن وقته ويومه كما قال في «المثنوي»: [...][1].

فسرنا يومًا وليلةً في البحر حتى وصلنا في قلعة «علائية»، وهي قلعة قديمة كأنها وكر الباز الأشهب يحيط بها ثلاثة أسوار الأسفل منها للسلطان علاء الدين سلجوقي المدفون في بلدة «قونية»، فنسبت إليه، ومكثنا فيها تسعة أيام، فلم نجد السفينة للعبور، وجلست فيها مجلس الوعظ مرارًا بالتماس الناس، وكانوا من أحباء حضرة الشيخ بعضهم من الأذن، وبعضهم من العين، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا، وشاورت علماءهم في أمر العبور والسفينة، فأشاروا بالمكث والترقب إلى أن يخرج الشتاء، ويسكن غليان الدماء، فرأيت أن المدة قد طالت، وأن الصبر قد عيل، وأن القلب أفتى بالاستعجال، وترك القيل والقال، فاستخرنا الله تعالى ونحن خمسة أنفار، فرأينا كلنا أن إشارة الله إلى السير من طريق البر دون الإقامة هناك، فاستكرينا إبلاً وسافرنا إلى قلعة «ديران» والطريق جبل كله، وأقمنا في ساحل القلعة في قصر قديم بناه السلطان علاء الدين السلجوقي، وأمطرت السماء مدة إقامتنا فيه وهي أسبوع، فركب كل جانب منه ما تخص فيه؛ إذ كان المحل بين الجبلين لم يبق فيه أثر في دار، وكأنه ما سكن فيه ديار، وإنما بقي منه اسم لا رسم وجسم، وكأنه مصداق قوله:

وبلدة لَيسَ بِها أَنيسُ ... إِلا اليَعافيرُ وَإِلا العيسُ[2]

أو قوله:

كَأَن لَم يَكُن بَينَ الحَجونِ إِلى الصَفا ... أَنيسٌ وَلَم يَسمر بِمكَّةَ سامِرُ[3]

---

(1) كلام غير عربي.

(2) الرجز لعبد الجليل الطباطبائي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

قالَ الفَقيرُ المُذنِبُ الجاني الأَقَل عَبدَ الجَليلِ ذو الخَطايا وَالزلَل

وبلا نسبة في «الصاحبي في فقه اللغة» ص (182)، و«خزانة الأدب» ص (2830).

(3) البيت من الطويل للحارث بن مضاض الجرهمي في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (8998)، و«جمهرة أشعار العرب» ص (71).

قالَ الفَقيرُ المُذنِبُ الجاني الأَقَل عَبدَ الجَليلِ ذو الخَطايا وَالزلَل

=

وكان عندنا ما يكون غذاء لنا أيامًا، حتى جاء بعض أهل الجبال فأخبر أن السفينة لا توجد في هذا الساحل إلا مرة أو مرتين في السنة؛ لأنه لا عمارة هنا، فلا تجيء إلا لحمل أموال التجار في هذه الجبال، وهذا يقع نادرًا، فساقنا من هنا سائق التقدير إلى القلعة المعمورة في «أنامور»، وهي قلعة معمورة جدرانها، لكن ليس بها أنس إلا جنها وجانها، وهي في مقابل جزيرة قبرص، وبينهما أزيد من مائة ميل، فلم نجد فيها سفينة أيضًا، وفي بعيد منها دور متفرقة في سفح الجبل يسكن فيها بعض الجبابرة ممن لم يشاهد في عمره جمعة ولا جماعة، ولم يحضر مجلس علم وعالم، ولم يتل في كتاب الدهر غير آيات السرقة والقتل والنهب والعنف والغضب وكسر الأعراض، فلم يمر من هنا جندي إلا سلبوه، ولا قاضٍ إلا صلبوه، ولا شيخٌ إلا أخذوا إبريقه وخرقته وسبحته، ولا فارسٌ إلا طلبوا منه خرجه ودابته، ولذا انقطع أبناء السبيل عن طريقهم، وصاروا بحيث لا يطير طائر من فوقهم خوفًا من إحراقهم، ولا ينـــزل وحش بناحيتهم تحرزًا عن إرهاقهم، وقد أخذوا تلك الخليقة من خنازير جبالهم ونمورها، فبقوا بمجرد أسماء الناس وكناهم من غير أن تكون لهم الشريعة والعمل بأمورها، ومن ثمة وصّانا العلائيون بالمكث وما رضوا بالحركة البرية، لكن التقدير ينقض التدبير، فلما مررنا عليهم تعرضوا لنا فحفظنا الله من كيدهم، فسرنا ليلاً ونهارًا خائفين لما قيل في حق أمثالهم: من لم يخف الله خف منه؛ فإن عدم الخوف من الله يوقع صاحبه في كلِّ محذور ومكروه، وفي الحديث: «**يأتي على الناس زمانٌ هم ذئاب، فمن لم يكن ذئبًا أكلته الذئاب**»[1] كما قال المولى الجامي: [...][2].

وانتهى بناء الطريق إلى قرية نهاية ناحية «أنامور» فحططنا الرحل في دار رجل فيها، وأقمنا هناك أكثر من شهر وجلين؛ إذ قد يتعرض لنا بعض الأشرار، فتارة يقولون في مواجهتنا: إن عندكم دنانير كثيرة؛ لأن شيخكم شيخ السلطان، وتارة ماذا في هذا الخُرج؟ ولعله تحف القسطنطينية، وتارة يشيرون إليَّ: هذا الفقير قاضٍ لا شيخ وإنما يستتر

= وبلا نسبة في «الصاحبي في فقه اللغة» ص (182)، و«خزانة الأدب» ص (2830).

(1) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (223/1)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (5/447).

(2) كلام فارسي.

بالشيخوخة، فلما لم يكن لنا الحركة لا إقبالاً ولا إدبارًا أخذنا بالمداراة لما جاء: «**داروا سفهاءكم**»[1]

وأخذ من عندي يقرأ عليَّ الدرر والمختصر والسكنى واحدة، والأشرار مجتمعون هناك في أكثر الأوقات، وجاء هذا تعبير ما في رؤياي من الوصل وقاطع الطريق عند الجسر كما سبق.

وكذا تعبير ما فيها من ثلاثة أيام، فإنها تفضلت إلى ثلاثة أشهر، ولعلك تطعن لنا في الخوف والاضطراب في هذه المدة لما حكم عليك الجهل التام؛ إذ لو ابتليت بمثل ما ابتلينا لزال عنك توحيدك بالكلية، ونحن بقينا في الخوف والبشرى والاضطراب الإنساني مدة ما بقينا في الطريق لعدم أُنسنا بمثل هذه الوحشة، وعدم اعتبارنا بنحو هذه المحنة، لكن الله تعالى أرانا آياته في الأنفس والآفاق، وربانا بمظاهر الأسماء الجمالية والجلالية على الإطلاق، وما زال عنا نظر التوحيد في أفعاله تعالى، وإن كنا آيسنا من الوصول إلى حضرة الشيخ، وقلنا مرارًا: متى نصر الله؟.

وليتك رأيت أن بحر البلاء قد اشتد وغلا، وأن فلك الوجود قد ارتفع على كل ذروة وعلا ماذا قلت حين لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، فاسكت؛ فإن الأمر أخفى من أن يراه نظر العقل، أو يشير إليه بنان النقل.

ولما تمَّ ابتلاء الخوف والانتظار، وبلغ الغاية ما هو أشد علينا من عذاب النار؛ إذ أتانا رجل يبشرنا بقدوم سفينة من السواحل التي تتردد إلى قبرص، وذلك إلى الساحل المعروف بـ«غزل ليمان»، فشددنا الرحل إليه وهو مسيرة نصف يوم من منزلنا فأقمنا عند البحر أسبوعًا في خيمة تركية، ينزل علينا المطر ليلاً ونهارًا، وليس بقربنا قرية أو ما يتحصن فيها من الفئران ونحوها، وإنما أشخاص جبالية يترددون إلى السفينة للبيع والشراء.

ثم لما دخلنا السفينة ذهب الملاح إلى جانب أناطول طمعًا في نول أموال تحمل إلى قبرص لما أرسل فيه بعض التجار خفية فخدعنا فمكثنا هنا ثانيًا خمسة أيام إلى أن حمل تلك الأموال مثل الزبيب، والسمن، والعسل، والجبن ونحوها.

فسارت السفينة يومًا وليلةً، فلم يكن الخروج إلى الساحل الصمم، وهو ساحل

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (481/1).

قلعة «كِرنْية» - بكسر الكاف والراء المهملة وسكون النون - لعدم مساعدة الريح، فانتهت إلى ساحل بقرب قرية يقال لها: «واصِلْية» بمد الواو، وكسر الصاد، وسكون اللام، فاكترينا منها إلى قلعة «لفقوشة» التي يقيم والي قبرص فيها، وقد بلغ خبر قدومنا إلى حضرة الشيخ قبل وصولنا بشهر، فأرسل بعض الأعيان إلى جميع سواحل قبرص باستقبالنا وإكرامنا في أي ساحل وقع الخروج من البحر، لكن العبد يدبر والله يريد ولا يكون إلا ما أراد الله؛ فإنه ما خرجنا إلا إلى برية ليس لها ساحل معروف، ولهذا وقع الاكتراء إلى قلعة «لفقوشة» وسيجيء من الابتلاءات ما يغنيك إن كنت من طريق الفقراء وأهل الفناء، فافهم عن الله تعالى.

ولما دخلنا قلعة «لفقوشة» نـــزلنا في بعض الرباط، وكان قد نبه صاحبه فلما نظر إلى هيئتنا وسيادة ابن حضرة الشيخ عرف الحال، وأخبر بواعظ جامع «أيا صوفيا» المتقدم ذكره، وهو نقيب الأشراف السيد محمد الشهير بـــ (درويش أفندي)، من نجل صاحب التفسير الموسوم بـــ (بحر العلوم) حضرة الشيخ الكامل الفاضل الوارث الواقف علي السمرقندي المدفون في «رينة» - بفتح الراء، وسكون الياء - بقرب قلعة «سلفكة» - قدس الله سره - فألح علينا بالنـــزول إلى داره فقمنا من الرباط، وحططنا الرحل في منـــزله، وكلفني الوعظ؛ فأخذت تفسير جده السمرقندي، ونقلت منه قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53] إذا كان مراد الله تعالى من السفر[1] إراءته آياته المنقشة في صحائف الأكوان، وتعليم أسرار حروفه وكلماته المكتوبة

---

(1) قال المصنف من بعض فوائده: اعلم أن السفر إمَّا سفر صوري من مكان إلى مكان، وإمَّا سفر معنوي من مقام إلى مقام.

وأمَّا الصحة في السفر الصوري: فقد يكون الإنسان مريضًا محتاجًا إلى تبديل الهواء، والبقاع مختلفة من حيث العفونة، والكثافة، والاعتدال، واللطافة، فإذا صادف الهواء المعتدل؛ اعتدل مزاجه، وسرى حكم الصحة إلى جميع أجزائه.

فقد حُكي: إن بعض الملوك خرج من بغداد إلى بعض النواحي فمرض هناك؛ فلم يصح حتى جيء إليه بماء بغداد، وهوائها في زقٍّ منفوخ؛ فظهر الاختلاف بين ماء وماء، وهواء وهواء، ومكان ومكان.

وأمَّا الغنيمة: فقد قيل: إن في الحركات البركات، فقد يكون المرء بحيث يربح في تجارته في الغربة ما لا يربح فيها في الوطن، لمَّا أن الله تعالى بثَّ النفع والضرَّ، والخير والشر في أقطار الأرض، والمرء لا يدري أي قطر هو خير له؟ وقد يكون بعض البلاد بحيث يغلب عليها حكم

على رق أعيان، وتربية الوجود بيد جماله وجلاله، وتخليص القلب من وهم الكون وخياله، وتوفيق المهاجرة من دار إلى دار ليحصل الترقي بحسن الجوار، وحين استعجلنا الوقت فإن السكون في الطريق من أسباب الفرقة عملنا بقول بعض السلف: في الحركات البركات وكفي مؤنة الطريق حضرة نقيب الأشراف واستصحب بنا رجال أخلاء أوداء وزال الوحشة المتقدمة، وحصل الأنس الكلي، ولهذا حال العشاق عند قرب دار المعشوق.

قال المولى الجامي: [...][1]

بعض الكواكب؛ كالثريًا في الشام، وسهيل في اليمن، وقِس عليها ما هو نحس منها؛ كالمريخ، والزحل، ووقت السعد والنحس من الاقتران؛ فيصادفه في السفر، فهذه غنيمة متعلّقة بالمال، والأولى صحة متعلّقة بالبدن وقدمها؛ لأن الصحة أصل في انتفاع البدن بالمال إذ لا ينتفع المريض بماله؛ ولو كان قنطارًا.

ولذا ورد: «العلم علمان: علم الأبدان، ثم علم الأديان»، إن الدين وقوامه تابع لصحة البدن واعتداله، فكان المال والانتفاع به.

وأمّا الصحة في السفر المعنوي: فإن المسافر الخارج إلى الله تعالى من اسم له إلى اسم مريض من جهة أوصاف نفسه المضرّة، وأخلاق قلبه الذميمة، فباطنه سقيم مجروح، وله قروح لا تُحصى، محتاج إلى طبيب وجرّاح، وهذا السفر يعين على صحته المعنوية؛ لأن باليقين يزول الشك، وبالتمكين يذهب التلوين، وبالشهود يغيب الاحتجاب، وبالعلم يضمحل الجهل، ولا يزال في كل نَفس من أنفاسه يسافر إلى حال من الأحوال، وإلى مقام من المقامات إلى أن ينتهي إلى آخرها بحسب استعداده.

فإن المنتهى وإن كان واحدًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:42]؛ لكن نقاط الدائرة مختلفة بالنسبة إلى المركز، فالتفاوت إنما هو في الكيفيات.

ألا ترى إلى الأبصار فإنها لا تدرك إلا بقدر قوتها وضعفها، وإن كان المرء قريبًا.

وأمّا الغنيمة في هذا السفر: فالاستكثار من العلوم الإلهية، والمعارف الربّانية، والحكم اللطيفة، والحقائق الرقيقة، والأذواق الشهية، ومعانقات العذارى المقصورة في خيام ومواصلات حور عين؛ كأمثال اللؤلؤ المكنون في أصداف البحر.

وأية غنيمة فوق هذه الغنيمة؟ فهذه غنائم الفقراء السالكين، فإنهم قلّلوا الأغذية الجسمانية، واختاروا السهر، والصمت، والخلوة حتى أغناهم الله من فضله الكثير، ومنه الوفيرة، وأراهم جماله حين قام الخلق، وكالمهم، وكان معهم حيث كانوا، نسأل الله سبحانه أن يسلك بنا مسالك أولئك الواصلين، ويرزقنا من نعيمهم، ومزيدهم في كل حين.

(1) كلام غير عربي.

فدخلنا من قلعة «لفقوشة» بعد يومين، وأخذنا في السير حتى انتهينا في نصف الطريق إلى قرية فيها ضيعة معمورة لمحمود أغا السابق ذكره فأضافنا من الخدام، وآوينا في تلك الليلة هناك، وحين تبدى تباشير الصبح، وأقل نجوم الخيال، وطلع شمس العيان، واضمحل دجى الأهوال؛ رأينا أن المقام هناك أكثر من هذا إتلاف لنقد الوقت، وإسراف للعمر في غير طلب البحث على نفسه فليبك من ضاع عمره فنودينا: أن عجلوا بالرحيل؛ فإن الحبيب منتظر بكم، فقوموا إلى رؤية ربكم فأسرعنا في المسير وكأن العين في تطلبنا، وتجس أخبارنا فلما دنا فقدمنا إعلامًا للقدوم فإذا وجوه القوم قد استقبلوا ركبانًا ورجالاً ولم يبق في القلعة أحدٌ إلا خرج إلى خارجها استقبالاً وتعظيمًا لحضرة الشيخ؛ فإن الشرف كله له ونحن عبيده.

فدخلنا من باب قلعة «ماغوسة» مع الفرسان والمشاة حتى إذا وصلنا إلى الدار التي يسكن فيها حضرة الشيخ تقدمنا ابنه السيد مصطفى ونحن على إثره، فلما دخلنا البيت إذا حضرة الشيخ بخلعة بيضاء، ولحية بيضاء، وبوجه يفيض منه نور إلهي من رآه ذكر الله، وبجبين منير يلمع منه نور العرش، وبحاجبين كأنهما قوسان لعالي الوجوب والإمكان، وبعينين كأنهما الشمس والقمر تزهران، وبأنف يستنشق به نفس الرحمن، وبأذنين يسمع بهما صرير القلم الأعلى، وبشفتين يتكلم بهما مع المولى، وبصدر منشرح شرحه الله الكريم، وبقلب منفتح في زاوية منه العرش العظيم، وبيدين فيها الأولى والأخرى، والجمال والجلال، وبرجلين بهما خطا الخطوتين اللتين دونهما الوصال.

فقام يدعو والبيت غاص بالقوم، فلما أتى على آخر تشرفنا بتقبيل الذيل والعيد عيد اليوم فسأل الخواطر، وأطعم الحضار بما وجد عنده من فتوح الملك الغفار، وجامل في المعاملة، وتكلم بالجميل حتى قال مخاطبًا للفقير: يا إسماعيل، رأيتك هذه الليلة في المنام وعالم المثال والخيال، وأنت تقرأ القرآن في محل مرتفع بصوت عال، ثم قال: إنو الإقامة، وكن لنا إمامًا بعد الآن في الصلوات الخمس، واتل بعد الفجر والعشاء ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة:285]، وبعد الظهر آخر سورة الحشر، وبعد العصر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:107] إلى آخره، ثم قال ملاطفًا: إمامنا بيننا كنون لنا، قلت: أنا راضٍ بأن أكون نونًا فافهم.

وعيَّن لي مكانًا في بيته الشريف، وأرخى سجافًا على طرف معتكفي ليكون أجمع للقلب وأنسب للحضور، ومسح بيده وجهي، وقال: أنت ابْنِ الخاص، ثم دعا وقال:

«جعل الله تعالى قلبك موردًا للعلوم الإلهية النافعة لنا، وبذلك مورد الأعمال التشريعية الصالحية».

ثم قال: لم يقع في خاطري من الخلفاء غيرك، وفي سفرك هذا الإشارة إلى النسب المعنوي والإرث المحمدي، ولو لم يبذر الله تعالى في حقك بذر السعادة في الأزل لما كان ما كان، فأقِمْ هناك إلى أن يبلغ الكتاب أجله.

ثم قال: إن الله تعالى أتم أمر إبراهيم عليه السلام وأهلك نمرود، وكذا لما أتم أمر نبينا ﷺ أهلك أبا جهل، وإني قد كان لي عقدة باقية حلها الله تعالى بهذا السفر، فأشار إلى حال الجنيد مع الحرسان[1]، وإني أنظر إلى ما فتح الله تعالى عَليَّ في هذا السفر، وأما الوزير وغيره فلا نظر لي أصلاً؛ فإن كل ابتلاء إنما يصل من الله تعالى، والموحد الحقيقي لا ينظر إلى الواسطة، وادعُ الآن للوزير ابن كوبريلي في السرِّ والعلانية، حتى في التهجد بخصوص اسم، وإن كان هو قد نفاني إلى هنا فإن الله تعالى قد أيدَ به دينه، وفي الحديث: «**إن الله تعالى ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[2] والوزير المذكور وإن لم يكن له فجور صوري لكن له فجور معنوي.

قال: قدر العطية في الآخرة بقدر البلية في الدنيا.

قال: إن سيدنا عليًا رضي الله عنه أوصى ابنه الحسن والحسين بألا يتعرضا لقاتله، وهو ابن الملجم، فكيف نتعرض لمن قصدنا بسوء وطريق الأنبياء مسلك الابتلاء؟ فمن دخل تلك الطريق فقد سلك مسلك الأنبياء.

قال: قوله تعالى: ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:6] راجع إلى الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ**﴾ [آل عمران:9] راجع إلى العبد، فعلى العبد أن يستسلم لقضاء ربه.

ثم قال: إني شاكر عن هذه البلدة، وراض عن أهلها؛ فإنهم جاملوني في المعاملة، ولو أذن الله لي لاخترت هذه طلبًا للسلامة لعلة الناس، والاختلاط والألفة، وأما القسطنطينية فعلى خلافها.

ثم قال: امدحْ بقصيدة هذه الجزيرة وقلاعها وأهاليها؛ فإنك محمودنا في النظم

---

(1) هكذا في الأصل.

(2) رواه البخاري (2834)، ومسلم (162).

كمحمود باقتادة البرسوي فانظم وامدح، وانشأ، وحرر، واحترز عن شهوة الكلام، فنظمت قصيدة تشتمل على أكثر من ستين بيتًا فجاءت مقبولة مرغوبة عنده وعند الأهالي.

قال: قد كان لنا معك في السنة السابقة تصميم الحج في هذه السنة، وزيارة مرقد الإمام الأعظم - رحمه الله - في بغداد لكن الله صرفنا عن ذلك، وجعل السير والسفر إلى قلعة «ماغوسة»؛ لأنه كان من عند الله وبإرادته لا من عندنا وبإرادتنا، وما دبر الله لعبده خير مما دبره هو لنفسه.

أقول: نظيره ما أخبر الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم(1) عن

---

(1) صاحب التصانيف المشهورة، زاهد اشتهر بملازمة العبادة، وتفرد بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الإسناد، وناسك سلك طريق القوم وهجر في وصله التهجد وصل النوم، رحل في طلب الحديث والعلم، وتلفع بمروط التقوى والحلم، ولقي الأكابر وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرًا معظمًا وصوفيًا محدثًا مفخمًا، كثير الكيس واللطافة غزير المعارف التي تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقوده جيد زمانه وتأرجت الأرجاء بعرف عرفانه، لقي أبا تراب النخشبي والبلخي وتلك الطبقة وسمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره وهو من أقران البخاري.

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: كان إمامًا من أئمة المسلمين له الصفات الكبار في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث وفي شيوخه كثرة.

وقال السلمي في طبقاته: له الشأن العالي والكتب المشهورة.

نفوه من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر بسبب تفضيله الولاية على النبوة، وإنما كلامه في ولاية النبي ﷺ.

وقال أبو نعيم في الحلية: له التصانيف الكثيرة في الحديث، وهو مستقيم الطريقة يَرُدُّ على المرجئة وغيرها من المخالفين، تابع للآثار.

قال ابن الجوزي: من أكابر مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة، وكان يقول: ما صنعت شيئًا ينسب إليَّ لكن إذا اشتد عليّ وقتي أتسلى بمصنفاتي.

وقال القشيري في الرسالة: هو من كبار الشيوخ.

وقال الكلاباذي في التعرف هو من أئمة الصوفية.

وقال ابن عطاء الله: كان الشاذلي والمرسي يعظمانه جدًا، ولكلامه عندهما الحظوة التامة ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة، فلا يلتفت لخرافات بعض المخرفين وطعنهم فيه بالبهتان.

وله حكم عليه الشأن، فمنها قوله: كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره.

و سئل عن الإنسان فقال: ضعف ظاهر حاضر ودعوى عريضة.

وقال: إذا مكثت الأنوار في السر، نطقت الجوارح بالبر.

وقال لا ينكر الكرامات إلا القلوب المحجوبة عن الله، فإن الكرامة إنما هي صنع الحق.

=

وقال: الولي أبدًا في ستر حاله والكون ناطق بولايته، ومدعى الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذبه.

وقال: الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله، وما وصل العبد لمقام إلا وهو محترم لأهل ذلك المقام؛ إذ الإخلال بواجب حقهم يطرده عن حضرتهم.

وقال: لا يسمى عالمًا إلا من لم يتعد حدود الله في عمره.

وقال: ما استصغرت أحدًا من المسلمين إلا وجدت نقصًا في معرفتي وإيماني.

وقال: ما منع الناس من الوصول إلا لركضهم في الطريق بغير دليل وأكلهم الشهوات، وارتكاب الرخص التأويلات.

وقال: رأس مالك قلبك ووقتك، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون وضيعت أوقاتك بشغلك بما لا يعنيك، فمتى يربح من خسر رأسه ماله.

وقال: أقرب القلوب إلى الله قلب رضي بصحبة الفقراء، وآثر الباقي على الفاني، وشهد سوابق القضاء مع اليأس من الأفعال.

وقال: القناعة رضا النفس بما قسم لها.

وقال: الفتوة أن تكون خصمًا لربك على نفسك.

وقال: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع عنك نعمه، وخضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال: ذكر الله يرطب القلب ويلينه، فإذا خلا عن ذكر الله أصابته حرارة النفس ونار الشهوات فقسي ويبس وامتنعت الأعضاء عن الطاعات، فإذا مددتها تكسرت كالشجرة إذا يبست، لا تصلح إلا للقطع وتصير وقودًا للنار.

وقال: نور المعرفة في القلب وإشراقه في عين الفؤاد في الصدر.

وقال: ما من نور في القلب إلا ومعه رحمة من الله بقدر ذلك فهذا أصل، والعبد مادام في الذكر فالرحمة دائمة عليه كالمطر، فإذا غفل قحط.

وقال: ليس في الدنيا حمل أثقل من البر، فإن من بَرّك فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: من جهل أوصاف العبودية فهو بنعوت الربوبية أجهل.

وقال: رأيت رب العزة في المنام ألف مرة أسأله خاتمة الخير، فقال لي: قل أربعين مرة- وفي رواة إحدى وأربعين مرة- «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا الله يا الله يا الله».

وقال: الدنيا عروس الملوك ومرآة الزهاد.

وقال: إذا خلا القلب عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات وامتنعت الأركان من الطاعة.

ومن كراماته: أنه لما قام عليه معاصروه وكفروه، جمع كتبه كلها وألقاها في البحر، فالتقطتها

نفسه حيث قال - قدس سره: لقد مرضت في سالف أيامي مرضًا، فلما شفاني الله تعالى منه، مثلت نفسي بين ما دبر الله لي من هذه العلة في مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين في مقدار أيام علتي، فقلت: لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لي عبادة الثقلين في مقدار مدتها إلى أيها تميل اختيارًا، فصح عزمي، ورام يقيني، ووقعت بصيرتي على أن مختار الله تعالى أكثر شرفًا وأعظم خطرًا، وأنفع عاقبة، وهى العلة التي دبرها لي، ولا شوب فيه إذ كان فعله، فشتان بين فعله بك لتنجو به، وبين فعلك لتنجو به[1]، فلما رأيت هذا وقع في عيني عبادة الثقلين مقدار تلك المدة في جنب ما آتاني الله فصارت العلة عندي نعمة، وصارت النعمة منة، وصارت المنة أملاً، وصار الأمل عطفًا، فقلت: في نفسي: بهذا كانوا يستمرون في البلاء على طيب النفوس مع الحق، وبهذا الذي انكشف كانوا يفرحون بالبلاء، انتهى.

وأذِنَ حضرةُ الشيخ من الإفطار ثلاثة أيام رعايةً لخاطر صاحب الدار أميرالاي، وكان رجلاً خلوقًا جوادًا مضيافًا، فامتثلت لما رأيت أن تدبيره أحق أن يتبع به إذ المريد من لا إرادة له.

وقال: كن هابليًا ولا تكن قابليًا؛ فإن طريق هابيل طريق الإسلام، وطريق قابيل طريق التعرض لما به سخط الملك العلام.

وسأل حضرة الشيخ ولده السيد مصطفى: هل بلغ خبر عن أخيه السيد محمد الذي كان يتلمذ من خليفة الشيخ حسين في مصر المحروسة؟ فأفاد أنه نعي عليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم رفع يديه وقال: رضاءً لله الفاتحة.

قال حكاية عن الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - أنه قال: من أصابته مصيبة فاسترجع ولم يضطرب كان في مرتبة قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3، 4] يعني: إن الله تعالى ليس له القيود والإضافات والعلاقات،

سمكة وابتلعتها ثم لفظتها بعد سنين وانتفع الناس بها.

وقال الحافظ ابن حجر؛ مات في حدود العشرين وثلاثمائة. انظر: طبقات الصوفية (217)، (13/ 439)، والكواكب (363).

(1) هكذا في الأصل.

فكذا لهذا العبد المستسلم المسترجع؛ إذ لو كان له شيء من ذلك لوقع التألم، فعدم تألمه دالٌ على تجرده التام وانقطاعه الكامل.

قال حضرة الشيخ: أنا إنْ متُ قريبًا من هذه الأيام، فلتكن أنت شيخ ابني هذا - إشارة إلى السيد مصطفى - ثم قال لي: هل قبلت؟ فتبسمت، فأشار بالقبول لأنه جد، فقلت: قبلت نفسكم النفيس، ثم قال لابنه: هل قبلت؟ هذا مقامي - مشيرًا إلى هذا الفقير - فإن فيه نورًا من نور الله تعالى، فقال: قبلت، فقال حضرة الشيخ: فقم فقبِّل يده، فجاء فصافحنا.

وهذا من جملة كرامات حضرة الشيخ، وذلك لأن ابنه المذكور قال في الطريق معجبًا وغرورًا: أنتم كلكم خُدَّام أبي، ومن كان خادم أبي كان خادمي، فقلت: الخادم أجير، ونحن نجتهد أن نصير عبيدًا حقًا.

ثم قال حضرة الشيخ مخاطبًا ابنه: أنا قد آذيتك كثيرًا، فهل جعلته لي في حل؟

قال: نعم، فقال: فأنا قد جعلت حق الأبوة في حل، ثم التفت إلى هذا الفقير فقال: إن أنت قد تأذيت مني، هل أحللته لي؟ فقلت: نعم، فقال بهذه العبارة التركية: [...][1].

ثم قال لابنه مشيرًا إلى الفقير: إن هذا كبيرك؛ لأنه من النسب المعنوي.

وكلَّف إليَّ حضرة الشيخ يومًا قراءة إلهي أي: «إلهيات الهدائية» وهو من قوله بالتركي: [...][2].

ثم قال: اختم المجلس بالآيات اليوسفية التي قرأتها أمس، فتلوته من قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي...﴾ [يوسف:82] إلى قوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:98] فأخذ حضرة الشيخ يبكي، وأبكاني، وأبكى الحاضرين.

ثم دعا فقال: جعل الله تعالى سلطان الإسلام معمورًا ومعمرًا، وعسكر الإسلام منصورًا ومظفرًا، وكما أنه جعل آخر قران يعقوب الوصال، جعل آخر فرقتنا أيضًا كذلك، وجعلنا مسرورين في الدنيا والآخرة، ولا يضلنا عن طريق رضاه، الفاتحة.

ثم أخذ بيدي، ودعا لي خاصة حتى قال: حشرك الله مع يعقوب ويوسف،

(1) كلام تركي.

(2) كلام غير عربي.

وأوصلك إلى نوره وسره.

ثم قال: هذا ابتلاء من الله، وإن الله يجوع أحد عباده ليبكي، وإن ارتباطك بهذا السرِّ الإلهي ألحقك بنا في هذا المحل.

قال: إن الله تعالى منذ ما فتح عليَّ هذا الطريق، وأذاقني حلاوة مشربها خمسًا وثلاثين، أو ستًا وثلاثين سنة، فجميع ما فتح الله عليَّ في هذه المدَّة قد أفرغه الله في صورة بعد القدوم إلى «ماغوسة»، لم تكن قبله، ولا يمكن عنها البيان، كما لا يمكن أن يتعلق بها فهم الإنسان.

قال: اذهبوا بطريق التفرج إلى جانب القلعة الماغوسية مع ابني والصوفية الحاضرين، فأشرت بالامتناع خوفًا من أن يكون ذلك من قبيل الامتحان، فقال: لا تذهب لنفسك، واذهب لأجلي، وابصر آيات الله، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]، فامتثلت أمره المطاع، وحصل لي من ذلك التنـــزه حظ عظيم بسبب نفَسه.

وكان من عادته الإذن للخروج في كلِّ أسبوع يومين: يوم الثلاثاء الذي هو يوم البطالة بالاتفاق من المتأخرين، ويوم الجمعة بعد الصلاة.

قال: خلفائي كثيرون، لكن لم أجد انجذاب قلبي إلى من سواك؛ ولذا أشرت لك بالقدوم، وعيَّنت لك خدمة الإقامة؛ فأنت ولدي الخاص، وفيك آيات الله البينات، ولي حظ من تآلفك عظيم.

قال: قد أشير إليَّ في القسطنطينية أن الوزير في تدبير نفيي وإقصائي إلى هذه الجزيرة، لكني استخرتُ الله فأُشير إليَّ بالثبات دون الحركة، فكان ما كان، فنحن الآن كالجنين في بطن الأم، وليس في يدنا الدخول والخروج.

قال: كلما أرادني الله بخير ابتلاني بمكروه في الظاهر، والأسرار المنكشفة لي قبل هذا السفر القبرصي كانت بمنـــزلة المقدمات بالنسبة إلى ما انكشف بعده، والله يبتلي بعض عباده بمثل هذا الابتلاء إلى آخر العمر.

وكان عادة الله معي هكذا من أوائل حالي وأنا راضٍ عنه على كل حال[1]، وأمَّا

---

(1) قال الشيخ المصنف: واعلم أن من عادة الله سبحانه مع هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي شرَّفه الله لمزيد الترقي أن يرقيه إلى أعلى ما كان فيه من المراتب، وأن يفيض عليه من علمه ما لم يكن

عنده قبل، وذلك في كل سبع سنين من سنين العمر لكن لمّا كان الترقّي موقوفًا على المنحة والمحنة، وإن كانت لا تنتج شيئًا؛ لكن الصبر عليها، والرضا بها مما له عاقبة حميدة، والمحنة أيضًا على صور شتّى بحسب الاستعدادات؛ فكانت صورة ابتلائي بالسفر من دار إلى دار، والهجرة من أرض إلى أرض؛ فكان أول ما قضى الله عليه من السفر؛ الحركة إلى بلدة الإسكوب من البلاد الرومية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالهجرة إلى جانب بلدة برونية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالسفر القبرصي، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالغزو، ثم الحج، وموت الأولاد في البين، ومُقاساة شدائد المعارك، وفي طريق الحج حتى انسلخت عن جميع ما بدا من الكتب الجليلة، والأموال النفيسة، وسُلّمت الروح إلى الله تعالى حتى كان، ثم بعد سبع سنين وقعت الحركة إلى جانب مسقط الرأس؛ لزيارة قبر الأبوين، ثم بعد سبع سنين وقع سفر الحج الثاني، ثم بعد سبع سنين أُمرت من الجانب الإلهي بالهجرة ببرسة إلى الشام، فانسلخت عن جميع المتعلّقات، ووقع ذلك في التاسعة والعشرين بعد المائة بعد الألف.

فهذه السنون تزيد على الأربعين، ثم الله تعالى يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، وكل ذلك كان بإشارة من الله تعالى لا بالاختيار من جانبي، فإن الحركة الاختيارية نفسانية لا تنتج شيئًا، فالعاقبة الحميدة ما يعقبها الأمر الإلهي لا غير.

وأمّا البلايا الأخر فيما بين هذه الأسفار ولا تُعدُّ ولا تُحصى؛ لكثرتها، وقد ورد في الحديث: «ما ابتلي أحد من الأنبياء مثل ما ابتليت به».

ففي الابتلاء جلاء القلوب، وصقالتها، وجعلها متّسعة؛ لتجلّي الحضرة الإلهية، فإن التجليّات مَنوطة بغير الملائم غالبًا؛ ولذا كان أشدُّ البلاء على الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، ثم إن فوق هذا الابتلاء ابتلاء آخر؛ وهو الدعاء للقوم الغلاظ الشداد بالرحمة والهداية.

كما قال: «اللّهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون» أي: ليس لهم معرفة بالله تعالى، ولو عرفوه وقدّروه حق قدره لِما صدر عنهم ما صدر من الأذى والجفاء، ورد الدعوة، والتجاوز عن المقاولة باللسان إلى المطارحة بالسيئات، وكان الأنبياء قبله مأذونين بالدعاء على قومه.

ألا ترى إلى نوح عليه السلام كيف قال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:26]؛ وفيه شفاء للقلب، ورفع للغيظ.

وأين هذا من الدعاء بالهداية؟ فقد قابلهم النبي ﷺ بالدعاء لهم؛ وهو من الإقبال عليهم لِما عُرف أن بينه وبين أمته رقيقة من الروح الإلهي؛ فكان روحه روح جميع الأرواح، كما أن أجسادهم جسده، والكل لا يقبل على الجزء إلا بالمرحمة، إلا أن يقتضي الحكمة الغضب عليه، كما إذ ألبست الجبة عضوًا من الأعضاء، أو ظهر فيها من الأكلة فإنها تُقطع، وذلك القطع، وإن كان نقصانًا في الظاهر لكنه كمال في الباطن، فالقضاء يُردُّ بالقضاء، ومَن عرف الله تعالى؛ يُخبر في أمره، ودار في البلاد، وسافر من اسم إلى اسم إلى أن يقضي الله أمره، وكان أمر الله مفعولاً.

اعلم أن شيخي وسندي في جميع المنال والأطوار الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي – قُدِّس

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:67] فقد عصمني منهم بفضله، حيث لم يقدروا على إصابة سوء بجسدي.

قال: إن مخلصي فضلي قد لقبني.

قلت: إن مخلصي حقي قد استفدته أيضًا من جنابكم، وقد ذكرته سابقًا.

قال: مخلصي حقي بِكر لم يتلقب به أحد قبلك، ولو لم يُرد الله بك خيرًا لَمَا لقبك به.

وبدأ اليوم سليم من حضرة الشيخ، وهو يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة من سنة اثنتين ومائة وألف، فأقرأه حروف التهجي، ثم دعا فقال: كشف الله تعالى وفتح وأعطى العلم النافع والعمل الصالح، وغفر لنا ولوالدينا وجميع الماضين من أمة محمد ﷺ، وختم عاقبتنا بالخير.. الفاتحة.

وسليم هو العبد الحبشي الذي عيَّنه صاحب الدار محمود أغا لخدمة حضرة الشيخ،

= سرُّه: نفخ الروح في قلب هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي - غفر ذنبه، وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة، وذلك في سورة الفاتحة التي هي جامعة لجميع الحقائق، ثم لمَّا مضت عليه سبع عشرة سنة، وناهزت الأربعين، وقرب انتقاله من هذا الموطن دعاني، ودعا لي وقال لي: لم يتعلَّق قلبي بمَن سواك من خلفائي، وهم كثيرون قدر مائة وخمسين كلهم من أهل العلم، وهذه علامة لميراثك، ثم وضع مسبحته على فمه.

وقال: هذا النفس ينتقل مني بعدي إليك، فقبَّلت زيله واستبشرت.

فكان كما قال بإذن الله حتى أني لقيت حضرة الخضر ﷺ في حطيم الكعبة، فقال لي: يا هو! أنا الخضر فما مرادك؟ فقلت: مرادي خير الدعاء منك، فقال: جعلك الله من الأنفاس، ثم غاب، والأنفاس باب من أبواب الفتوحات المكية، فليطالع هنالك.

وكذا نفخ في فمي حضرة الشيخ الأكبر - قُدِّس سرُّه الأطهر، وسرُّ نفخه مذكور في «شرح التجليَّات»، ومرادي هذا المقام؛ بيان أن النهاية راجعة إلى بداية حيث كان أول ما وقع من شيخي -المقدَّس روحه- النفس، وكذا آخره، فدار العَود على البدء دورًا مع زيادة كيفية في العود حسبما يقتضيه الحركة الدورية في السلوك إلى الله تعالى، فإن السلوك دوري لا خطي، وكذا جميع اللواحق مع السوالف، وإن خَفي على العامة.

والله تعالى نسأل أن يردنا إليه وهو راضٍ عنا، وأن يلبسنا وجودًا حقانيًا حين أخذ الفاني منا بحرمة المصطفى ﷺ، وبجاه آله وأصحابه، وكُمَّل أمته، وهو الواسع رحمته، والعام بركاته.

وانظر: «مرآة الحقائق» ص (266).

وكذا أقرأ يحيى دده درسًا من المختصر تبركًا، ويعقوب دده من بعض الكتب التركية، وعثمان دده من التفسير، ودعا لكل منهم.

قال: أرى موتي قريبًا؛ فإن رسول الله ﷺ عاش بعد ظهور الفتح المطلق كما نطق به سورة النصر سنتين، وأن الله تعالى كما أظهر الفتح المطلق في الجهاد الصوري في هذه السنة - وهي السنة الثانية بعد المائة الأولى من الألف الثاني - بفتح قلعة «بلغراد» وما بينهما من القلاع والحصون الكبيرة التي سخرها الله لأهل الإسلام أربعين يومًا، وقد كان يستبعد ذلك التسخير في سنين بالنسبة إلى ضعف الحال وغالب السُّنة الإلهية، فكذا أظهر الفتح المطلق في باطني في هذه السَّنة، بحيث سخرها لي جميع القوى الطبيعية والنفسانية، وقد بقي للوصول إلى ثلاث وستين سنة، أثرت كمالها - وهي سن النبي ﷺ - سنتان من العمر، والعلم عند الله تعالى، ولا نظر لي إلى موت ولا إلى حياة، وإنما ارتقب ما يتوارد على الخاطر، فبأي شيء استعمل فإنه له منقاد ومستسلم.

قال: وقد كان يخطر ببالي موتي في الغربة، وأسأل الله ذلك، فإن لي فيه فائدة، ألا ترى أن الله تعالى أخرجني من القسطنطينة فقطع عني كل نسبة وقيد كان قبل ذلك، وأن الوزير قد دعوت له كثيرًا بحيث ما دعوت لغيره من الوزراء مثله، وقد بشرتُ له بالوزارة، ثم إنه قد فعل في حقي ما فعل، وإنما يفعل الله ما يشاء، ففيه زيادة تجريد وتفريد لي عن كل ملاحظة وقيد.

قال: لا تكونوا في طلب الرَّواح من هنا، عودوا إلى مقامكم، والزموا حكم الوقت، وانتظروا أمر الله تعالى.

أقول: ثم ورد عليَّ مكاتيب من «بروسة»، **فقال حضرة الشيخ:** هل فيها شيء موحش؟

قلت: لا إلاَّ أنهم كتبوا كذا وكذا واستعجلوا قدومي إليهم.

قال: على ماذا تجد قلبك؟

قلت: قد قطعت العلاقة منهم حين خرجت وليس عندي إلا المقام عندكم إلاَّ أن يقع في قلبكم الشريف خلافه.

قال: استخر الله تعالى ثلاث ليالٍ فانظر ماذا ترى؟ فاستخرت الله تعالى فأشير إليَّ بالعود لكن لم أخبر به الشيخ؛ لأنه لم يسأل قط بل لمَّا مضى ثلاثة أيام من القصة أرسلني مع ابنه والصوفية الذين عنده وبعض أحبابه إلى جانب القلعة بطريق التنـزه كما هو

العادة القديمة، فشاور مع بعض أهل الخبرة فقالوا: إن كان لا بدَّ من عودة فالوقت وقته؛ فإنه بعد أيام يجري في البحر سفائن أهل الحرب فيشكل العبور.

ثم لما عدنا بعد العصر إلى مجلسه خاطبني فقال: كنت أصمم مكثك هنا إلى ما بعد عيد الفطر لكنه يشكل حال البحر حينئذٍ، فأذنت لك في العود إلى «بروسة»، وكان اليوم يوم الثلاثاء على أن يكون الخروج يوم الإثنين، ودعا مرتين حتى رق الفؤاد، وازرورقت العينان.

وقال: اذهب من طرف قرامان وقونية وزُر مَراقِد الأولياء، ليحصل الأنس، وتنور القلب، وإذا وصلت إلى «بروسة»، وتنفست أيامًا فاذهب مع مكاتبي إلى القسطنطينية.

قلت: أنا أرجح خدمتكم فأذهب أولاً إلى القسطنطينية ثم أعود إلى «بروسة» فَسُرَّ حضرة الشيخ من تقديم خدمته.

وقال: إذا وصلت إليها بإذن الله تعالى فأصلح كل ما يحتاج إلى الإصلاح مما يتعلق بنا في الداخل والخارج، وكن وكيلي مطلقًا، فافعل ما ترى، كما قيل: «أرسل الحكيم ولا توص» ثم سَلَّم إليَّ بعض الهدايا لأهل بيته، وكان مدة الإقامة عند حضرة الشيخ سبعة عشر يومًا، وكان قد عيَّن يوم الإثنين للخروج لكنه نسخه فأخره إلى يوم السبت بحسب المصلحة؛ لأن الله بارك فيه وفي يوم الخميس لكونهما طرفي يوم الجمعة الشريف.

فلَما كان ذلك اليوم ختمت سورة يوسف في صلاة الصبح، ومكثنا إلى أن صلينا الإشراق، ثم دعا حضرة الشيخ دعاءً جامعًا وفيه قوله: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**»[1].

وقوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:64] وغير ذلك، فقبَّلت يده الشريفة فأشار إلى ولده السيد مصطفى بالتشييع، فخرجت من عنده وأنا أقول: [...][2]، وخرج السيد مصطفى وأميرالاي محمود آغا وابنه مع أتباعه الكثيرة وغيرهم من الأحباب فشيعونا إلى أن خرجنا من قلعة «ماغوسة»، فلما كنا وراء الثرية الخارجة منها ودعناهم بعد الدعاء مع يعقوب دده، ويحيى دده وبقي ابن حضرة الشيخ عنده، وكذا عثمان دده، وعلي دده.

---

(1) رواه مسلم (2392).

(2) كلام غير عربي.

وكان اليوم السادس من جمادى الآخرة من سنة اثنتين ومائة وألف، وسِرنَا إلى جانب قلعة «لفقوشة» وبِتنا العشية من الضيعة المار ذكرها.

وقلت في نفسي:

فما بعد العشية من عرار[1] تمتع من شميم عرار نجد

ونـــزلت في «لفقوشة» إلى منـــزل نقيب الأشراف السابق وصفه، وكنت عنده ثلاثة أيام وكان المطر منقطعًا، فالتمسوا مني أن أجلس مجلس الوعظ، وأدعو الله تعالى في الغيث فأجبت إليهم بعد الإلحاح، وإن كنت غير أهل لذلك.

فنقلت قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشورى:28] من تفسير حضرة الشيخ علي السمرقندي متبركًا به ومتيمنًا فجاء الغيث بإذن الله تعالى والحمد لله، وأنا في الكرسي بحيث جرت السيول.

ثم شددت الرحل إلى قلعة «كرنيه»، ودخلت السفينة صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة فلما قاربت السفينة عشاء ليلة الجمعة ساحل «كِلندرة» -- بكسر الكاف الفارسي واللام وسكون النون، وبقي ميل أو ميلان هبت الريح شديدة مستقبلة حولت السفينة إلى جانب مخالف، فسارت يومًا وليلة في موج عظيم بحيث آيس أهلها وهم كثيرون من الحياة.

فقلت: الليلة إلهي ما سبب هذا الحور بعد الكور وقد رجعنا قهقرى، وانقطع الحبل فأخذتني سنة، فتلا عليَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة:33] فعرفت أن هذا الابتلاء من قبيل النفي من الأرض لوقوع الرد إلى البحر بعد التهيؤ للخروج إلى البر، وأن هذا جزاء محاربة الله ورسوله، ولكن لم أعرف أن المحاربة صورية أو معنوية، والظاهر أنه كان لكل منهما أهل من أهل السفينة وذلك؛ لأن بعض من في السفينة كانوا من ناحية «أنامور»، وأهلها مشهورون بقطع الطريق حتى انقطع أبناء السبيل عن المرور من ديارهم، وقد شاهدت أنا ذلك حين مجتازي بها في سفري هذا، والبلية إذا جاءت عمت.

وأما المحاربة المعنوية: فهي معاداة أولياء الله كما في الأحاديث القدسية: «من عادى

(1) البيت من الوافر للقشيري في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار

لي وليًا فقد بارزني بالحرب، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لجروه»[1]، ومثل هذا المحارب ينفى من أرض القربة، وأيًّا ما كان فلا يرد القضاء إلا الدعاء والاستغفار، فاشتغلت بها متذكرًا محاربتي بالله ورسوله، وصلحي مع الشيطان، ولو من بعض الوجوه متنسبًا كل سوء إلى مأوى الشر الذي هو النفس الأمارة، فانتهت السفينة إلى ساحل بعيد من القبرصية بقرب قرية يقال لها: «لَفكة» - بفتح اللام وسكون الفاء - فجئنا إلى حيث ارتحلنا منه بل أبعد إذ غاية كل متحرك سكون، ونهاية كل متكون ألاَّ يكون، شاكرًا الله تعالى على النجاة كما قيل للنجار: ما أعجب ما رأيت من عجائب البحر؟ قال: سلامتي منه.

فبِتنَا تلك الليلة في ذلك الساحل وليس هناك دار، ولا أثر، ولا جن، ولا بشر، فجاءت ليلتي بحمد الله تعالى نورانية، إذ لاقيت فيها حضرة الشيخ علي السمرقندي صاحب التفسير الموسوم بـــ (بحر العلوم) المدفون في تربة المشتمل عليها الناحية «بايج إيل» كما مرَّ ذكره، وهو رجل معتدل القامة، أبيض في صفرة، ملتح جالس عند رأس تربته وعندها أوراق مذهبة كتبها بخط يده المباركة، وله خط حسن جيد جدًّا، فأعطاني بطريق الهدية ورقًا من تلك الأوراق، فَسررتُ بذلك، واستيقظت، وأشارت هذه الرؤيا إلى أن الزيارة غير متيسرة في اليقظة فكان كذلك.

وكان في خاطري أن أزوره في مشهده، لكن لما اختلف الطريق، وبعد المشهد على الممر جاءت الزيارة المثالية، بَدلاً عن زيارة الخارجية، فسبحان ذي الفيض والجود، موصل كل قاصد إلى المقصود.

ورأيت في الليلة المباركة المعادلة لليلة القدر الحاجي حسن المبرزي البروسوي من أتباعي وكان قد نفي إليَّ في الطريق في الذهاب، فسألت عنه هل بشرت عند احتضارك؟ فقال: لما حان حيني رأيت أن إبراهيم عليه السلام أرسل إليَّ جنده، وسلَّم إليَّ اللواء؛ فأخذته وقبَّلته، فقلت له: أبشر أيها الحاجي؛ فإن اللواء هو التوحيد العالي الصاعد إلى السماوات العلا بل إلى العرش الأعلى، وكونه واصلاً إليك من جانب إبراهيم عليه السلام إشارة إلى أنك على ملته، وملته هي التوحيد والإسلام، والانقياد، والاستسلام، فاستيقظتُ ثانيًا، وفيه بشارة على حسن خاتمته، وكان رجلاً صالحًا - رحمه الله تعالى.

---

(1) رواه البخاري (6021).

ومكثنا في الساحل المذكور أكثر من أسبوع، وانكشف لي في اليوم الثاني اختلاف الناس كالمعادن فمن طبع على النقصان لا يحصل منه الكمال ألبتة، كما أن الحجر لا يستصنع منه المرآة، ومعدن الحديد لا يبرز إبريز الفضة، والفضة عرفت طبقات الناس واستعداداتهم، فزال عني الانقباض الحاصل من أفعالهم المختلفة بحسب مقتضيات أسمائهم الجزئية المتقابلة.

ثم انكشف حين قمت إلى التهجد في الليلة الرابعة أن عالم الدنيا في البرزخ يصير كعالم الرؤية في الدنيا، وذلك أن عالم المثال وإن كان أقرب شيء إلى الحس، لكن الناس يتفاوتون في الرؤية بحسب لطافة الحجاب وكثافته، فالعين واحدة والأخذ مختلف، فإذا صاروا إلى البرزخ وجدوا هذا التفاوت بعينه هناك، فكما أن البرزخ غيب بالنسبة إلى النفس الكدرة والدنيا شهادة أي: في النشأة البرزخية بخلاف أصحاب النفوس الصافية؛ فإن رؤيتهم كما كانت بمنـزلة الشهادة، والحس في الدنيا فكذلك دنياهم كانت بمنـزلتها في برزخهم ولا تجد حقيقة هذا الأمر، وكذا حقيقة الموت إلا من باب الانسلاخ؛ فإنهم مطلقون عن كل قيد، فلهم السير في عالم المثال المطلق وعالم المثال المقيد بالانسلاخ وبالمنام، وذلك على السوية بالنسبة إليهم دون غيرهم، فافهم.

وقد قال الشيخ الكبير ﷺ: إن الشيخ الأكبر – قدس سره – كان متمكنًا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء وسائر الماضين على ثلاثة أنحاء إن شاء استنـزل روحانيته في هذا العالم، وأدركه متجسدًا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العنصرية التي كانت له في حياته الدنيوية لا تحرم منها شيئًا، وإن شاء أحضره في نومه، وإن شاء انسلخ من هيكله، واجتمع به حيث تعينت مرتبته، إذ ذاك من عالم العلوي، انتهى.

وبما قررنا لك يعرف كيفية تنعم الشهداء في البرزخ، فإن حالهم فيه يحاكي حال أهل الانسلاخ في الدنيا، وقد أحلت التفصيل على كشفك فارفع الحجاب وكن من أولى الألباب.

ورأيت في الليلة السادسة كأني أدور مع أهل الدوران من شدة الذوق وحرارة الجنان، وأصيح صيحة مفزعة، وكان حضرة الشيخ – روَّح الله روحه – دُعِيَ إلى وطنه الأصلي لأمر يقتضي القدوم وهو على جناح السفر وتحريك قادمة المسير وله سطران على الأرض معمولان من السكر أحدهما قوله: إن ذاتًا تدل عليها حروف أعثمن صارت

طبقًا بقدر حساب كج، وثانيها: خرج عن الخاطر لحكمة من الله تعالى، وله أيضًا قطافان معمولان من السكر أشار إلى الفقير بالأكل من بعض الأطراف فأكلت والحمد لله، وكأني أنظر إلى حضرة الشيخ وأبكي سرورًا بأن هذا الوجود الشريف هو الذي له الحياة الباقية الأبدية فاستيقظت.

وفي هذه الرؤيا إشارة إلى وفاة حضرة الشيخ كما لا يخفى.

ثم دخلنا السفينة ثانيًا، فسارت بنا في موج كالجبال، وصارت الحال أشد من الكَرَّةِ الأولى، فبرحمة من الله خرجنا في غرة رجب الفرد إلى محل قريب من قلعة «أنامور» القديمة.

واتفق أن مكثت في ناحية «أنامور» أكثر من أسبوع فابتليت مرة ثانية برجالها، وقطاع طريقها حتى خلصني الله منهم، وساقني إلى طرف «لارنده» وهي ديار «قرامان» فوصلت إليها في الحادي والعشرين من رجب يوم الخميس، وزرت فيها مرقد والدة حضرة مولانا، وشاهدت آثار إبراهيم بك ابن محمد بك ابن قرامان؛ فإنَّ له فيها عمارة وآثاره كثيرة، وكتب في أحد مصراعي باب عمارته: بابنا مفتوح لمن دخل، وفي الآخر: مالُنا مباح لمن أكل.

وتربته متصلة بجامع عمارته، وكان رجلاً جلفًا جافيًا غدارًا، وله مع السلطان بايزيد الأول من السلاطين العثمانية وقائع كثيرة مع الظهرية بينهما، واشتهر بـــ(ابن قرامان) لكون والده محمد بك دون في الظهور، وقرامان مدفون في الجبل بقرب قصبة «أرمنك» بفتح الهمزة، والميم والنون، وسكون الراء المهملة والكاف، العربية من قصبات الناحية الشهيرة بـــ (إيج إيل) قلعة «أنامور» الشهيرة بـــ(المعمورية) بناها إبراهيم بك المذكور، وقرأت تاريخها على الباب قال فيه: بناها السلطان إبراهيم، وادعى لنفسه السلطنة لاستيلائه على «لارنده»، وما في أطرافها من النواحي والبلاد، ولم يقطع عرق نزاع السلطنة بينه وبين بعض السلاطين العثمانية المتسلطين على «بروسة» وأطرافها إلا بعد انقطاع عرقه، وعرق سلسلته ولأهالي «لارنده» عقائد صحيحة في التوحيد وأهله، بيمن أقدام بعض الرجال المارين بها والمدفونين فيها، وقد نقلت بمجمع عظيم قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:19] وتكلمت بعض ما يتعلق بمراتب التوحيد.

ثم أرجعت المسير إلى طرق «قونية»، ودخلتها في السابع والعشرين من رجب، وزرت أولاً حضرة مولانا – قدس سره – وأخرت حضرة الشيخ صدر الدين – قدس

سره - مع كونه أفضل منه من كل الوجوه باتفاق الكلم لكونه من أهل الفناء الصرف، وكون مولانا من أهل الجذبة، ومن طبقات الرجال كما هو معلوم عند أهله، وكأنه دعاني إلى زيارته حين مشارفة البلدة فراعيت في الإجابة الأقدم فالأقدم.

ثم اعلم أن حضرة مولانا، ووالده سلطان العلماء والسلطان، ولد حسام الدين مملي «المثنوي»، وصلاح الدين زركوب مربي مولانا في مرتبة الحقيقة، وعارف جلبي، وأكثر أولاد الخلفاء من بعد المولوي تحت قبة واحدة واسعة، ولمراقدهم زينة عظيمة، وهيبة قوية ليست لغيرهم خصوصًا سلطان العلماء؛ فإن صندوق مرقده أرفع من الأرض مقدار قامات ثلاث، وعلى رأس صندوقه عمامة كبيرة لها طيلسان طويل، وفي حذاء قدم حضرة مولانا باب صغير وشباك فضي، وصندوق تربته متصلة بصندوق تربة ولده السلطان وله عمامتان كبيرتان خضراوان مع الطيلسان الطويل كأنهما رأسان في جسم واحد، وفي خارج القبة زاوية معمورة، وبقرب الزاوية جامع لطيف بناه السلطان سليم الأول.

وزرت أيضًا تربة حضرة شمس الدين التبريزي - قدس سره - شيخ حضرة مولانا في باب المعرفة، وتربته مفردة، بعيدة عن تربة مولانا، قريبة من جامع شرف الدين.

وزرت أيضًا مرقد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي، وله جامع كبير في محل مرتفع، وتربته داخل الجامع، وهو صاحب «قونية» وباب حصنها، وله من الآثار ما يفوته الحصر.

وزرت مرقد مرشد الكل، وهادي خير السبيل، درة صدف الوجود، وعزة أهل الكشف والشهود، إمام أصحاب التمكين حضرة الشيخ صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد - قدس سره - [1] وتربته في خارج القلعة، وهي مبنية من الأحجار، وعليها قفص

---

(1) هو سيدي العارف الكبير الإمام الشهير صدر الدين القونوي، أجل تلامذة ابن عربي.

كان عارفًا على المقام، متكلمًا بما تقتصر عنه الأفهام، وهو شيخ أهل الوحدة بقونية وما والاها.

كان يسلك طريق شيخه الحاتمي في جميع أحواله ومقالاته التي تفرد بها، والوقوف عند نص أقواله، وكان بكتبه سيما الفتوحات مغري، وهي أجود ما يعرفه، وخير دينار يخرجه من كيس معاليمه ويصرفه.

وكان ذا حظ عند الأكابر موفور، وقبول تام، كل ذنب معه عندهم مغفور.

وله تصانيف في السلوك منها «شرح التجليات» وله تفسير شهير، وكتاب «النفحات الإلهية»

=

=

و«النصوص في فك الفصوص» و«مفتاح غيب الغيب» وغير ذلك.

وحكى عن نفسه قال: «اجتهد شيخي العارف ابن عربي أن يشرفني إلى المرتبة التي يتجلى فيها الحق للطالب بالتجليات البرقية في حياته فما أمكنه، فزرت قبره بعد موته ورجعت، فبينما أنا أمشي في الفضاء بين عدن وطرسوس، في يوم صائف، والزهور يحركها نسيم الصبا، فنظرت إليها وتفكرت في قدرة الله وجلاله وكبريائه، فشغفني حب الرحمن حتى كدت أغيب عن الأكوان، فتمثل لي روح الشيخ ابن عربي في أحسن صورة كأنه نور صرف، فقال: يا مختار، انظر إلي، وإذا الحق جل وعلا تجلى لي بالتجلي البرقي من المشرق الذاتي، فغبت مني به فيه على قدر لمح البصر، ثم أفقت حالاً، وإذا بالشيخ الأكبر بين يدي، فسلم سلام المواصلة بعد الفرقة، وعانقني معانقة مشتاق، وقال: الحمد لله الذين رفع الحجاب، وواصل الأحباب، وما خيب القصد والاجتهاد، والسلام».

ومن كلامه: كن فرداني المقصد لكمال عبوديتك التي خلقك الحق لها، فإني رأيت عندك أمرًا زائدًا على هذه الوحدة في التوجه، فالزائد علّة.

وقال: الحلال التام، كل ما لا ضرر فيه من حيث مزاجه، ولا تعلق به حدّ لا حد يستلزم توجه نفسه إليه، فإن لتوجهات النفوس إلى الأشياء خواص رديئة تسرى في بدن الإنسان المباشر لذلك الشيء أكلاً أو لباسًا أو مسكنًا أو غيرها من التصرف.

وقال: الملابس إذا فُصلت وخُيطت في وقت رديء، اتصل بها خواص رديئة، وكذا ما ورد التنبيه عليه في الشرع من شؤم المرأة والفرس والدار، وشهد بصحته التجارب المكررة، فإن ذلك يؤثر في بواطن أكثر الناس، بل ولو في ظواهرهم خواص مضرة تعدى إلى نفسه وأخلاقه وصفاته، فيحدث بسببها للقلوب والأرواح تلويثات هي من قسم النجاسات المعنوية.

وقال: كما أن طهارة القلوب والأرواح من الكدورات البشرية، والأحكام الإمكانية يوجب مزيد الرزق المعنوي، وقبول العطايا الإلهية، ووفور الحظ منها فكذا الطهارة الظاهرة الصدرية تستلزم مزيد الرزق الحسي، ومن جمع بين الطهارتين فاز بالرزقين.

وقال: صور الأعمال أعراض جواهرها مقاصد العمال وعلومهم واعتقاداتهم ومتعلقات هممهم.

وقال: الكرسي هو أرض الجنة وسقفها هو العرش.

وقال: إذا كملت المضاددة، وقع القتل؛ لأن الضد يطلب إزالة ضده.

وقال: لا ريب عند المحققين بالتجربة المكررة والعلم المحقق، إن الآلام النفسانية تخمد وهج القوى الطبيعية، وتنعش القوى الروحانية الموجبة لتنوير الباطن، فلذلك جعل المصطفى الصبر يثمر الضياء.

وقال: ليس في الوجود وقفة لأحد، الإنسان سائر إلى المرتبة التي قدر الحق أنها غايته من مراتب الشقاء، ومراتب السعادة.

وقال: مسمّى الإنسان بالتعريف العام عبارة عن مجموع جسمه الطبيعي، ونفسه الحيوانية، وروحه

=

لطيف حصين، وفوق هذا القفص ألواح شبيهة بالقبة لكن أطرافها مكشوفة.

قال في «الواقعات المحمودية»: لم يقبل صدر الدين القونوي البناء على مرقده؛ فعملوا من الألواح، ثم أخذتها الصاعقة كأنه لم يقبل الغطاء، انتهى.

وسببه ما سمعت من حضرة شيخي وسيدي، وهو أنه قال: إن الشيخ صدر الدين كان من أولاد السلاطين كحضرة مولانا، وكان مولانا تاركًا للدنيا مطلقًا، وصدر الدين متجملاً في الصورة حتى كان له خدام متزينون، وله إبريق، وطست من فضة وتغيَّر عليه شخص في ذلك، فأشار حضرة الشيخ صدر الدين إلى الإبريق والطست فقاما عن مكانهما إلى حضوره فتحير الحاضرون، وتاب الشخص، وقال يومًا لحضرة مولانا بهذه العبارة التركية: [...][1].

وقال حضرة مولانا: [...][2].

ولذا ترى مرقد مولانا على الاحتشام العظيم بخلاف مرقد صدر الدين، وكان لفظ

المجرد المدبر لهيكله، فكل فعل صدر عنه من حيث جملته المذكورة، فلكل من الثلاثة فيه دخل.

وقال: الغيب لا يعلمه إلا الله، لكن قد يعلم بتعريف الله تعالى وإعلامه.

وقال: من ثبتت المناسبة بينه وبين الكمل من أرواح الأنبياء والأولياء، اجتمع بهم متى شاء، يقظةً ومنامًا. وقد رأيت شيخنا ابن عربي مرارًا.

كذلك وقع له مرارًا .

مات بقونية سنة اثنتين وسبعين وستمائة.

وكان شافعيًّا، وقد أفحش ابن أبي حجلة في سبه، والله حسبه حيث قال:

«كلب الروم، وتلميذ ابن عربي المذموم، زوجه أمه، وخالف باتباعه الأمة، فجحد النعمة، وزعم أنه يبرئ الأكمة بالحكمة، فزاد عليه بالسفه، وتنـزيل الحادة على قواعد الفلسفة، فضل وأضل، وحل المربوط وربط المنحل، وإلهي تنسب الطائفة الإسحاقية فسحقًا لهم.

ومن تصانيفه: الفكوك الكثيرة الشكوك، والنصوص التي خالف بها النص، واطلع بشرحها على كل عين أقبح فعمى، فازداد بها مع عمى البصيرة، وفتح بمفتاح غيب الجمع باب شر، فهو مثل شيخه السفيه، وأقل من أن يكثر الكلام فيه». وإلى هنا كلامه.

وقد قامت عليه القيامة، وعزّره بسبب هذه القضية السراج الهندي قاضي قضاة الحنفية.

انظر: طبقات السبكي (45/8)، طبقات الأولياء (467)، طبقات الشعراني (203/1)، كرامات الأولياء (133/1)، والكواكب (567).

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

مولانا صدر من صدر الدين فبقي إلى يوم القيامة، وله عند تربته جامع لطيف، وحريم الجامع كان حرمًا، له في زمانه ثم جعل كُتَّابًا للصبيان، وله حجرة فوقانية، وفي حجرته صومعة قدر ما تسع رجلاً واحدًا، وكان يتخلى فيها، وفي الحجرة كتب كثيرة، وقد وقفها في أيام حياته، وعلى ظهر بعض الكتب إشارات بعضها بإمضاء الشيخ الأكبر، وصورته هذا: قرأ عليَّ هذا الكتاب من أوله إلى آخره الولد العارف المحقق، المشروح الصدر، المنور الذات محمد بن إسحاق بن محمد القونوي مالك هذا الكتاب، وأذنت له في الحديث به عني، وكتبَ مُنشؤه محمد بن العربي في غرة جمادى الآخرة سنة ثلاثين وستمائة انتهى.

ورأيت الفتوحات المكية هناك وهي أربعون مجلدًا، وتبركت به وبغيره، وله طست شبهي مكتوب على أطرافه آية الكرسي، وعلى خارجه صور وأشكال كالوفق، والمرضى في زمانه يستشفون بمائه، وقد ورد عنه أنه قال في حق ذلك الطست: مَن مرض، واستشفى بمائه بالشرب برئ بإذن الله تعالى.

وكان له خرقة غريبة محفوظة هناك كان يلبسها أيام حياته يقال: إنها من خلع الجنة، والله أعلم.

فملأت الطست المذكور بالماء وأدخلت فيه طرفًا من الخرقة الشريفة، وشربت أنا والحاضرون منه بنية زوال الأمراض الظاهرة والباطنة، وقلنا: «اللهم وفقنا لمداواة هذه القلوب المرضى، واجعلنا ممن يحب ما تحب، وترضى».

وزرت قريبًا من تربته المنورة قبر محيي السُّنة البغوي صاحب التفسير المسمى بـ «معالم التنـزيل» و«المصابيح» وله تربة على غير احتشام، وقرأ حضرة البغوي وقطب الدين الشيرازي وحضرة مولانا على حضرة صدر الدين جامع أصول في الأحاديث وكانوا من تلامذته، ورأيت نسخة من جامع الأصول عند بعض الأكابر في القسطنطينية كتبها القطب الشيرازي بخط يده، وله خط لطيف، وأشار عند خاتمتها بقراءته على صدر الدين، ومنه يعرف رتبة حضرة صدر الدين في الدين في العلوم الظاهرة والباطنة.

قال في «الواقعات المحمودية» نقلاً عن فَم حضرة الشيخ اقتاده – قدس سرهما: إن المولى جلال الدين صاحب «المثنوي» لا يبلغ أن يكون مريدًا للشيخ صدر الدين القونوي، وكان قد أرسل للإرشاد في زمن شيخه الشيخ الأكبر.

قال: إنه – أي: صدر الدين – كتب تفسيرًا على سورة الفاتحة لا يوجد نادرًا فهو

في هذه الديار صدر الديار فإنه قد سار جميع الممكنات وجاوز عنها، ولا نعرف سيره الواجب، انتهى.

وُزرتُ في قصبة «آق شهر» تربة خواجة نصر الدين الشهير بـ«الأمثال الغريبة والكلمات المضحكة»، ووقعت تربته خلال المقبرة ضربت عليها القبة المكشوفة جوانبها، وعلى الحجر على رأسه [...][1] وهو غريب مجهول إذ في بعض الكتب إنه كان من أصحاب مولانا، ولأن «آق شهر» في يد الكفار في التاريخ المذكور.

وزُرت في قرية السيد الغازي مرقده المنيف، وكان بقرب القرية قلعة تربته على تل كبير على شكل صندوقة بعض المراقد، يقال لها: قلعة «مسبحا» غزا السيد المذكور أهلها، وكان ملكها بنتًا بكرًا قد تعشقت للسيد، فنام يومًا تحت القلعة، وهاج نقع فظنت البنت أن عدوًا قد هجم، فكتبت القصة على حجر، ورمت تعلم السيد وتوقظه، فوقع على الودجين فمات شهيدًا، ولما عِلمَت البنت ذلك خرجت من القلعة وآمنت، ورمت بنفسها عليه، فخرجت روحها.

وقال بعضهم: رمت بها على خنجر فماتت، ولعلها لا تعاقب على ذلك لقرب عهدها بالإسلام، وكونها في دار الجهل.

وُلد السيد الغازي بعد المائتين من الهجرة، وكان مولده «ملاطية»، وعاش سنين كثيرة يغزو بلاد الروم، وله سهم غليظ طويل جدًّا من خشب، وسهم غليظ من حديد أعطاه إياه حضرة الخضر عليه السلام، وأخذ بقوسه، ومصحفه بخط تيمور لنك حين استيلائه على البلاد الرومية، وذهب بها إلى دياره، وأخذ أيضًا بعض السلاطين العثمانية سيفه، وجعله في خزائنه، وله عصا طويلة بل لطولها يقال لها بالفارسية: «جوكان»، وتربته في تل مرتفع كالقلعة، وعليها مهابة لم أرها في مرقد أصلاً، وله مرقد طويل قدر ثلاث قامات، وعلى داخل جدران تربته ستور معلقة على جوانبها من أستار الكعبة، وفي جنبه دفنت البنت المذكورة، واندرس قبره بعد موته إلى زمان علاء الدين سلجوقي المار ذكره.

وكان لوالده علاء الدين ضيعة في تلك الناحية، ولها شريك يقال له: «جوبان بابا» كان يرعى الغنم، ويقوم على تلك الضيعة، فرأى في المنام أن السيد يشير إليه بمحل تربته ويوصي بأن تبني الوالدة المذكورة عليه قبة لما كان من مظان الولاية، فضربت عليه قبة،

---

(1) بياض بالأصل.

ثم وسَّع القبة محمد بن محال في أيام السلطان بيلدرم بايزيد، وبنى عمارة عظيمة على الجبل الذي فيه التربة، ثم وسَّع السلطان سليم الأول، وبنى جامعًا لطيفًا متصلاً بالتربة.

وزار تربته حضرة السلطان مراد الرابع حين مجتازه بها في سفر بغداد، وأمر بكشف القبر اطمئنانًا فظهر جسده الشريف غضًّا طريًا، ولم يبل كفنه أيضًا، كأن دفن في يومه، وقد عرف سره فيما سبق من الفصول.

[وابن محال] مدفون في قبة مفردة في تلك الدائرة أيضًا، وجوبان بابا مدفون أيضًا هناك في قبة على حدة، والفقراء الساكنون في تلك الزاوية يسمون بالأدهمية، وذلك أن السيد وصَّى بجوبان بابا في رؤياه المذكورة بأن ينصب هناك خليفة من الطريقة الأدهمية، ففعلوا ذلك، واسم السيد السالف جعفر وشهرته بالسيد الغازي والسيد البطال أيضًا، ومغازيه وشجاعته مشهورة لا تحتاج إلى البيان - قدس الله سره.

وزُرتُ في القرية الشهيرة بـ «سكور» مرقد أرطغرل الغازي أبي عثمان الغازي جد السلاطين العثمانية، وهو في تربة منفردة خارج القرية، وحول تربته أشجار ولعمري مكان مفرح، ومحل لطيف.

وزُرتُ في قصبة «أزنيق» مرقد حضرة سيد العشاق الشيخ الشهير بـ« أشرف زاده» - قدس سره - وهو في تربة لطيفة متصلة، بالجامع الشريف جدرانها من الخزف الجيني المنقش الملون، عمَّرها على هذا الوجه السلطان مراد الرابع.

وزُرت فيها أيضًا: ختنة الشيخ عبد الرحيم التِّرسي - بكسر التاء - وهو جبل عظيم في تلك الناحية، وولده المسمى برعلي، وهما في تربة منفردة.

وزُرت فيها أيضًا مرقد حضرة الشيخ الشهير بـ «قطب الدين أزنيقي» - قدس سره - وهو في تربة على حدة متصلة بالجامع المنسوب إليه.

ووصلت إلى القسطنطينية في الثالث عشر من شعبان، وأديت الأمانات إلى أهلها قولاً وفعلاً، ثم منها إلى بلدة «بروسة» في التاسع عشر منه من سنة اثنتين ومائة وألف، ووقع الدخول في «بروسة» يوم الجمعة، والخروج يوم السبت فاتصل الآخر بالأول، ورجعت النهاية إلى البداية، والحمد لله تعالى.

وكان مدة السفر أكثر من خمسة أشهر، ومدة الإياب أقل من مدة الذهاب، كما أشارت إليها الرؤيا التي سلفت في أول القصة، وكنت أظن أني أعود مع حضرة الشيخ لكن الرؤيا أشارت أيضًا إليَّ أنه يكتفي في مقامه القدسي، ولا مرد لقضاء الله تعالى.

وقد كان أشير إليَّ عند التهيؤ للسفر القبرصي أن أكتب كتابًا في القسطنطينة، وخيرته بين أن يدفعه إلى الوزير، وبين أن يمسكه عنده، فلم يدفعه، فلما رآه بعض المتصلفين ممن ادعى الانتساب إلى الشيخ وليس في دعواه على شيء، قال: إن هذا المكتوب يشعر بأن لصاحبه بقية وجود وآنية، ولم يشعر بأن الحاكم علينا هو الوجود كله.

فيا هذا لولم يكن لي في إرسال المكتوب فائدة إلا ما بلغني عنك، لكفى مع أني أقول ناهيك في الإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:68].

والفناء الذي يقوله الصوفية إنما هو صفة الباطن، ولا يغني العمل بمرتبة الظاهر بحسب الموطن والمقام، فأين أنت من فهمك الكلام؟ ثم لما بقي الشيخ هناك ومضى عيد الفطر من تلك السنة، ودخل ذو الحجة تغير مزاجه من يوم التروية، وأخذته الحمى المحرقة، وكانت هذه الحمى تؤثر في جزيرة قبرص تأثير الطاعون، لغاية كثافة هوائها، فمرض في ذلك السنة أيامًا، فلما كان اليوم الثاني وهو يوم الاثنين جمع الناس، وقال: إنه لا مال لي أوصي به، ولكني مذهب على أهل السنة والجماعة شريعة، وطريقة ومعرفة وحقيقة، فاشهدوا عليَّ هذا في الدنيا والآخرة، ثم لم يتكلم حتى إذا كان ما بين العشائين.

قال: لمن عنده من الصوفية صلوا صلاتي مرتين أي: أعينوني على إقامة الصلاة، فإن في وجودي فتورًا عاليًا، فأعانوه على الوضوء وصلاة العشاء، ثم أخذته الحمى المذكورة، وأخذ يعرق إلى نصف الليل، ثم أخذ عن الحس إلى قريب من صلاة العصر من يوم الثلاثاء وعيناه مغمضتان، وعند ذلك تحركت شفتاه بحركة خفيفة مرة أو مرتين، وطارت روحه إلى مقامه في أعلى عليين، ومجاله في جوار رب العالمين .

وقد كان وصى قبل أيام مرضه بأن يغسله علي أفندي خطيب جامع مصطفى باشا الواقع في قلعة« ماغوسة»، وكان مريدًا لحضرة الشيخ، وألاَّ يكون عند غسله غير الغاسل ومن يعينه، فأخرجوا جسده الطيب إلى محل خالٍ، وغسله الخطيب المذكور، وأعانه علي دده وعثمان دده اللذان كانا في خدمة حضرة الشيخ، ثم كفنوه في كفن مبلول بماء زمزم المبارك أهداه إليه الحاجي حسين الماغوسوي من خواص أحبابه، وأخرجوه إلى

المصلى الذي في خارج القلعة إلى التربة التي هناك، وحضر جميع من في القلعة حتى الصبيان والنسوان باكين عليه [...][1]، فصلى عليه عثمان دده، ثم أنـــزله إلى قبره الذي هو روضة من رياض الجنة في مقبرة يقال لها: مقابر الأولياء، بقرب رحى الريح ودفنوه، ثم رجعوا «اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين، وكثر الأنين، وبكى علينا الحبيب، ويئس منا الطبيب، اللهم ارحمنا إذا وارانا التراب، وودعنا الأحباب، وفارقنا النعيم، وانقطع النسيم، اللهم ارحمنا إذا نُسِيَ اسمنا، وبلى جسمنا، واندرس قبرنا، وانطوى ذكرنا، اللهم ارحمنا يوم تبلى السرائر، وتبدى الضمائر، وتنشر الدواوين، وتحشر الموازين، إنك أنت أرحم الراحمين».

وطبخ جمع كثير من الرجال والنساء من تلك الليلة الحلواء رضاءً لله تعالى، وأطعموا المساكين، وأهدوا ثوابه لروح حضرة الشيخ - رَوَّح الله روحه.

ثم حضروا قبره صباح يوم الأربعاء حتى الصبيان، وفي أيديهم مصاحف يتلون منها آيات الله ويهبون ثواب التلاوة لروح حضرة الشيخ، ثم أطعموا عنه مرات لو كان أقارب الشيخ لما فعلوا ذلك، وبكوا عليه، وتحزنوا كأنه أبوهم، فسبحان من جعل الأجانب أقارب، وللغرباء معارف،«**فطوبى للغرباء**»[2].

ثم رجع ابن حضرة الشيخ وعثمان دده وعلي دده إلى القسطنطينية من البحر، وعاد عثمان دده إلى هذا الفقير على ما وصَّى به حضرة الشيخ.

وهو الذي حملني على هذا التصنيف، وهو المراد بما أشير إليه في عنوان الكتاب.

وفي قصة الوفاة أمور لا بدَّ من التنبيه عليها:

الأول: أن الوزير النائي لحضرة الشيخ قُتِلَ قبل وفاته بما دون الشهر، فصح أنه كان عدوًا له كأبي جهل لرسول الله ﷺ إذ لكل وارث لرسول الله ﷺ من هو بمنـــزلة أبي جهل له، ومن عادة الله تربيته أكامل الناس بمظاهر جلالية إلى ألاَّ يبقى لهم بقية الوجود، ثم إهلاك الأعداء، ثم دعوة الأحباء إلى جلاب قدسه، وقد أشار حضرة الشيخ إلى هذا السر المكتوم إذ جرى على لسانه ليلة بعد التهجد قوله: ﴿**أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء:34].

---

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه أحمد في مسنده (6362).

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف:41] وكنتُ إذ ذاك عنده، فلما سمعت هذا من لسانه عرفت سرَّ المقال، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد سبقت رؤيا الشيخ عند قتل الوزير وهو لا خبر له عن قتله إذ ليس مثل هذا الخبر من لوازم الولاية كما يظن الجهلة، إذ هو من العلوم الكونية لا من العلوم الإلهية، وتفاوت درجات الأولياء يوم القيامة إنما هو بالعلم بالمكنون.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:9]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110].

والثاني: إنه نبّأني حضرة الشيخ في بعض تحريراته بلوغه إلى سن النبي ﷺ وهو ثلاث وستون، وقد انتقل من هذه الدار قبل البلوغ إلى تلك المدة بما دون الستين، فإن صح هذا الذي عرف إليه في القول فيه؛ فإن الجاهل عن أحكام النسخ والقبض والبسط يحمله على بطلان المكاشفة؛ لعدم مطابقتها للواقع.

فأقول: أيها المقصور نظره على الحس، والغائب عن حقائق عالم المعنى، قد سمعتُ من فم حضرة الشيخ أنه قال: قد جاء لي الفتح المطلق، والإمداد الملكوتي في هذه السنة، وهي سنة اثنتين ومائة وألف التي مات فيها في السابع عشر من ذي الحجة يوم الثلاثاء قبل العصر بساعة.

وقال: أرى موتي قريبًا، فإني وإن كان لي قريب من السنة مذ قدمت إلى هناك لكني عشت ثلاث سنين في الحقيقة، فهذا قطع منه، وجزم لموته في السنة المذكورة ففيه نسخ الحكم الأول بناء على ظهور الفائدة المترقبة من ذلك العمر المقدر، قبل البلوغ إلى غاية، والشيء إذا علق حصوله بوجود أمر وحصول ثم قبل حصول المطلق له ينسخ حكمه التعليق وطي الزمان والمكان، وكذا بسطهما معروف عند الصوفية المحققين، وكذا عند من آمن بوجود الكرامات، ولم ينكره، ولا يلزم التغير في التقدير؛ لأن الأجل المسمى واحد عند الله، والتعليق فيه المبني عن التعدد لا ينافي وحدته؛ فإن الأول: بالنسبة إلينا، والثاني: بالنسبة إلى الله.

قال ابن الكمال في شرح الأربعين حديثًا: العمر الذي قدر له العمر الطويل يجوز أن يبلغ حدَّ ذلك العمر، وألا يبلغه فيزيد عمره على الأول، وينقص على الثاني، ومع ذلك لا يلزم التغيير في ذلك التقدير؛ لأن القدر لكل شخص هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المعدودة، انتهى.

ولا خفاء إنما الأنفاس تختلف سرعة وبطئًا، فيجوز أن يعيش المرء في سنة واحدة مقدار ثلاث سنين باعتبار سرعة الأنفاس، وقبض الزمان فافهم، فهذا حق لا فيه مرية، وهذا من مزالق الأقدام فقد نبهتك، والسلام.

والثالث: إنه أخذ عن الحس قبل موته بأكثر من نصف يوم وهذا لا يقدح في يقظته بالنسبة إليه وإلى أمثاله، بل يشعر بكماله؛ فإن الرسل والورثة، لا يموتون إلا على التجلي والانكشاف التام.

وعن أسماء بنت عميس – رضي الله عنها: «**كان رسول الله ﷺ إذا نـــزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه**»[1]، أي: يقرب من حال المغشي عليه لتغيره من حالته المعهودة تغيرًا شديدًا، والجنون لا يعرض إلى الأنبياء لكونه من صفات النقصان، بخلاف الغشي، وإليه الإشارة بقوله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف:143].

وأما ما نقله الزندوسي عن معاذ أنه كان يدعو ويقول: «اللهم خذ عقلي قبل موتي بثلاثة أيام» فقيل له في ذلك فقال: ولو جرى على لسانه غير الإسلام فلا يكون مأخوذًا، ولا يجري على العلم فظاهره، وإن كان يدل على طلب الجنون، لكنه ناشئ عن الخوف الغالب على نشأته كما تمنى الحسن البصري خروجه من النار في ألف سنة، وهو من سوء الظن لنفسه كما هو شأن العباد، ولعلمه قال: في أوائل حاله، وأواسطه؛ فإن للعشاق، وأهل المحبة معاملة أخرى مع الله تعالى.

والتحقيق: إن أول ما يراه الأنبياء – عليهم السلام – هو الصور المثالية المرئية في المنام، ثم يترقبون إلى أن يرى الملك في المثال المطلق أو المقيد في غير حال النوم لكن مع فتور ما في الحس، ومع بقاء العقل والتمييز، وهو المعبر عنه بالانسلاخ، وكانوا يستلقون على ظهورهم وقت مجيء الوحي؛ لأن الوارد الإلهي الذي هو صفة القيومية إذا جاءهم اشتغل الروح الإنساني عن تدبير البدن، فلم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده، فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض.

وفي الاستلقاء فائدة لبعض النفوس المطمئنة كما حُكِيَ أن الإمام محمد استلقى ليلة على ظهره إلى الصباح واستخرج ألف مسألة من كتاب الله تعالى، وكان يظن أنه نائم فإذا ثبت الانسلاخ والاستلقاء في الأنبياء ثبت في الأولياء من حيث الوراثة، فحضرة الشيخ لا

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (297/2).

يشك في وراثته بعلامات سبقت، استلقى على ظهره حين الموت، وأخذ عن الحس بطريق الانسلاخ، وكان عقله وتمييزه حاضرًا عنده بالوجه الذي يعرفه الخاصة فقبض على الشعور التام واشتغل عن الموت وملك الموت رحمة اختصاصية من الله تعالى، واتصل بمقامه من العالم العلوي [...][1].

وما ذكرنا هو حال النائم، وكذا حال المريض المأخوذ عن الحس، وذلك أنك لو حركته أو خاطبته وجدته غير مجيب لك، إذ لا شعور له بحال نفسه فكيف بحال غيره، ثم إذا استيقظ أو أفاق تقول له: حركتك وخاطبتك بكذا وكذا وأنت ما شعرت لا بمقامي عندك، ولا بمقالي وهو يقول لك: كُنتُ وقتئذٍ في بساتين طيبة أجتني من ثمارها، وأشم من ريحانها وأزهارها، وأشرب من ماء أنهارها.

فانظر، إنه أخبر عن بقاء عقله في العالم الذي دخل فيه، وعن تنعمه، وطيب حاله مع كونه مسلوب الحس والشعور في الظاهر، وحال الغيبة من الأحوال العجيبة عند الصوفية.

ألا ترى أن يوسف عليه السلام خرج بغتة على النسوة فقطعن أيديهن لما أصابهن من الحيرة في شهود جماله، والغيبة عن أوصافهن، كما قيل:

في مشاهد في البرية أبدع   غابت صفات القاطعات أكفها

وقِس عليه حال كل محب مع محبوبه، فإذا كان حال الغيبة في مشاهدة المخلوق هكذا، فما ظنك بمن غاب في مشاهدة الخالق، ولعلك فهمت المقام على حقيقته، وما فات عنك شيء من دقيقته، وبذلك سَلِمت من سوء الاعتقاد في حق الأولياء، وقياسهم على من عداهم من أهل الكبر والرياء.

نعم، إن للموت سكرات بحسب البشرية، يشترك فيها العام والخاص، وعن عائشة - رضي الله عنها: **«ما أغبط أحدًا يهون الموت بعد الموت الذي رأيت من شدة رسول الله ﷺ»**[2].

وقد يكون تشديد الموت على البعض تربية، للبعض الآخر، كتشديده على الصبيان؛ فإنه تربية للأبوين لا لأمر في نفس الصبي إذ هو طاهر باق على فطرته الأصلية،

---

(1) كلام غير عربي.

(2) رواه الترمذي (901).

ومنه تشديد الموت على النبي ﷺ فإنه تربية للأمة كما لا يخفى.

والرابع: إنه قد سبق أن حضرة الشيخ أخذ عن الحس من السحر الأعلى إلى أن يجوز بنفسه قبل العصر بساعة ففات عنه صلاة الفجر والظهر، وسره ما سبق منا تفصيله، وهو أن رعاية الظاهر سبب للصحة مطلقًا، وأن فوت من فات إنما هو من ترك الصلاة، فلَما نفد عمر حضرة الشيخ، وبلغ الكتاب أجله اقتضى الحال أن يفوت شيء من الصلاة تحصيلاً للمطلوب وهو الموت، وفرق بين أكامل الناس وغيرهم، وكذا بين الأنبياء والأولياء، كما لا يخفى على الدرَّاك والكاشف من السُّلاك، ونظيره أنه يظهر في الصين آخر الزمان شخص من هذا النوع الإنساني يصير خاتم الأولاد، ويكون له كمال في نفسه يتحد النهاية بالبداية، ويرجع الآخر إلى الأول فيدعو الرجال والنساء إلى الله تعالى فلا يجاب إذ لو أجيب لتأخر قيام الساعة إذ لا تقوم إلا على الأشرار، ولحفظ العالم من الفناء، وهو خلاف مراد الله فيفوت الإجابة بحصول موت العالم الصوري، فكذا يفوت التوجه الصوري، يحصل موت الجسد الصوري الذي هو صورة العالم وقيدت التوجه بالصوري، وهو ما يحصل في صورة الصلاة المفروضة والمندوبة؛ لأن الواصل إلى الله تعالى دائم في توجهه لا ينقطع عنه ولو لحظة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23].

ألا ترى أن النائم ينقل من مطالعة الحس إلى مطالعة المثال فيبقى في مشاهدة الصورة فكذا الكامل، يتحول من حال إلى حال لكنه يثبت على معاينة المعنى، وإنما التغير في الحال لا في المقام، بل أقول: إن التوجه نسبة من النسب، والحاصل عند الله من صفرة المقربين لا نسبة فيه ولو كانت الوصلة، وإنما لفظ التوجه ونحوه للتفهيم، فقد أشرت إليك؛ فكن من العارفين [...][1].

وأراك لولا مشاهدة هذا الدليل قد زلق قدمك في هذا البحث الجليل، فإياك أن تغفل عن سرِّ ترك الصلاة وفوتها، ولا تغفل عن معنى فناء الأجساد وموتها.

والخامس: إن حضرة الشيخ ابتلي بوجع السن خمسًا وعشرين سنة كما سمعت من فيه ﷺ، وهو إشارة إلى فنائه عن جميع اللذات، ولذا من رأى في المنام أن واحدة من أسنانه قد انقلعت جاء تعبيرها بفناء لذة من اللذات، وذلك عند أهل السلوك لا

(1) كلام غير عربي.

عند العامة.

وابتلي في آخر عمره بالحمى المحرقة تسعة أيام ومات؛ لأنها مما اختاره النبي ﷺ لأصحابه ﷺ كما جاء في بعض الأحاديث: «**أتاني جبريل** عليه السلام **بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام**»[1].

وكونها محرقة إشارة إلى قوة الآخرة وذلك؛ لأن الأجر بقدر التعب، ومقاساة الشدة، ولا شكَّ أن الحمى المحرقة لا تقاس على غيرها من أنواع الحمى فإنها خفيفة بالنسبة إلى هذه الحمى، وقد جاء أن «**حمى ليلة كفارة سنة، ومن حُم يومًا كان له براءة من النار وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[2].

وفيه إشارة أخرى، وهي أن هذه الحمى أحرقت جميع أوصاف الشيخ حتى أشغلته عن الشعور بجسده، فبقى مع مولاه في عالم السرِّ، والمعنى، وشرب كاسات الشراب الطهور من أيدي تجليات الأسماء، وقيل له: اركض برجلك أرض الفناء، هذا مغتسل بارد وشراب لأهل البقاء، فقبض ريان، وقد برد وجوده من حرارة الكون، ووصل في ظلمة الموت إلى ماء الحياة الحقانية عند جبل العين فهذا سر وفاته من الحمى.

والسادس: كان آخر ما تكلم به حضرة الشيخ: صلاتي صلاتي، مرتين أي: أعينوني على إقامة صلاتي؛ فإن في الجسد فتورًا عظيمًا، كما كان آخر ما أوصى النبي عليه السلام: «**الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»[3]، ثم صلى العشاء، ولم يتكلم بعدها إلى أن جاء بنفسه الكريمة، فعلم منه أنه ختم المجلس بالذكر بل أقول لا حاجة إلى الذكر اللساني في حق مثله؛ فإن اللسان جزء من جزئيات الوجود، وقيد من قيوده، وإنما هو لتصحيح ظاهر الشرع، وكل عضو من أعضاء العارف لسانه على حدة، بل كل جزء بل كل شعرة كذلك يدل عليه سره الساري، وتوحيده المنبسط، وكشفه الواسع، فمن رسخ في الذكر وصار عين الذكر والمذكور لم يحتج إلى ما احتاج إليه العامة من التذكير والذكر.

وقد قيل: ليس في الجنة ذكر؛ لأنه طرد الغفلة، فافهم المقام؛ فإنه من مزالق الأقدام، ولا تقل: ماذا قال الشيخ في آخر نفسه النفيس؟ فإنه يكفي كون نفسه تسبيحًا وتوحيدًا

---

(1) رواه أحمد في مسنده (19839)، والطبراني في «المعجم الكبير» (391/22).

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (197/7)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (440/1).

(3) رواه أحمد (11725)، وأبو داود (4489)، وابن ماجه (1614).

ولا حاجة إلى ذكر آخر إذ الشؤونات مختلفة، وكل شأن فهو تجلي من الوهاب الفياض، فأين المحبوب من الواصل؟! وأين الواصل من الحاصل؟!

ورأيتُ في آخر مكتوب كتبه حضرة الشيخ قبل موته بأيام إلى ابنه الكبير في القسطنطينية أنه ختم الوصايا بقول حضرة الشيخ محمود الهدائي - قدس سره - في بعض إلهياته التركية [...][1]، وهذا من جملة كراماته الظاهرة عند من له أدنى الإذعان.

وكان لحضرة الشيخ أيضًا كلمات تركية لكن كان بحسب الكمالات المحمودية، ولا يأذن للقوال أن يقول مقالات غيره ماعدا مقالات شيخه ومقالات باقتادة، ويؤنس أمره، وكان يقول: كلمات هؤلاء الكبار من مرتبة الكمال، وكلمات غيرهم مشوبة بالجمال والجلال غالبًا.

والسابع: ذهب جمع من أهل السنة منهم الغزالي، والإمام الرازي وفاقًا للحكماء، والصوفية إلى أن الروح أثر مجرد غير حال بالبدن يتعلق به تعلق العاشق والمعشوق، ويدبر أمره على وجه لا يعلمه إلا الله تعالى.

أقول: تحقيق المقام أن الروح سلطاني وحيواني.

الأول: من عالم الأمر، ويقال له: المفارق أيضًا لمفارقته عن البدن، وتعلقه به تعلق التدبير والتصرف، وهو لا يفنى بخراب هذا البدن، وإنما يفنى تصرفه في أعضاء البدن، ومحل تعينه وتعقله هو القلب والعقل والنفس أيضًا، وهو سار في جميع أعضاء البدن إلا أن سلطانه قوي في الدم، فهو أقوى مظاهره، ومحل تعينه هو الدماغ، وهو إنما حدث بعد مغلق الروح السلطاني بهذا الهيكل المحسوس، فهو من انعكاس أنوار الروح السلطاني، وهو مبتدأ الأفعال والحركات؛ فإن الحياة أمر مغيب مستور في الحي، لا يُعلم إلا بآثارها كالحس، والحركة، والعلم، والإرادة وغيرها.

ولولا هذا الروح ما صدر من الإنسان ما صدر من الآثار المختلفة؛ لأنه بمنـزلة الصفة من الذات فكما أن الأفعال الإلهية تُبتنى على اجتماع الذات بالصفة، كذلك الأفعال الإنسانية تتفرع على اجتماع الروح السلطاني بالروح الحيواني، وكما أن الصفات الإلهية الكمالية كانت في باطن غائب الذات الأحدية قبل وجود هذه الأفعال والآثار كذلك هذا الروح الحيواني كان بالقوة في باطن روح السلطاني قبل تعلقه بهذا البدن.

---

(1) كلام غير عربي.

واعلم أن جوهر الإنسان حقيقة واحدة في الفطرة الأولى، وذات قوى كثيرة، وهو المسمى عند الصوفية: روحًا وقلبًا، وعند الحكماء: نفسًا ناطقةً، فإذا تعلق البدن انتشرت قواه واختفى نوره، وحصل له مراتب كثيرة، وعند احتجابه بغواشي النشأة، واستحالته بالأمور الطبيعية يسمى: نفسًا، وعند تجرده وظهور نوره يسمى: عقلاً، وعند إقباله على الحق، ورجوعه إلى عالم القدس ومشاهدته يسمى: روحًا، وباعتبار إطلاعه ومعرفته للحق وصفاته وأسمائه جمعًا وتفصيلاً يسمى: قلبًا، وباعتبار إدراكه للجزئيات فقط، وإلصاقه بالملكات والهيئات التي هي مصادر الأفعال يسمى: نفسًا، فإذا عرفت هذا وقفت على معنى قوله ﷺ: «**أولياء الله لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار**»[1].

وذلك لأن المقصود الأصلي هو إحياء القلب وأخلاقه، وإماتة النفس وأوصافها، وذلك بالمجاهدات الكثيرة، والرياضات الشاقة التي يعبر عنها بالطريقة والسلوك؛ فإن غايتها الانسلاخ عن الأوصاف البشرية، والاتصاف بالأخلاق الملكية بل بالصفات الإلهية، وصاحبه بلغ الغاية التي لا غاية وراءها، وجاوز عن مرتبة الخوف الرجاء والحزن التي هي أحوال من بقي في الطريق دون الوصول إلى المنـــزل؛ فهو بالموت لا يصل إلا ما وصل إليه في الحياة بما يعبر عنه بالانسلاخ، فالفرق بين حياته ومماته ليس إلا بمفارقة الروح مطلقًا عن بدنه الذي يحصل الانتقال من عالم الشهادة إلى عالم البرزخ فهو كأنه انتقل من دار إلى دار من غير أن يتغير حال الحياة، فافهم فإن بينه وبين من لم يكن كذلك فرقًا كثيرًا.

والمراد بالولاية في الحديث: الولاية الخاصة لا العامة؛ فإن المطلق مصروف إلى الفرد الكامل وليس إلا الفاني في الله، والباقي بالله، اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين، آمين.

والثامن: إن حضرته – قدس سره – أشير إليه بعد وصوله «ماغوسة» بترك ألوان الأطعمة أي: الأدام، وهو ما يؤكل مع الخبز غالبًا، والاكتفاء بالخبز والماء، فاستمر عليه إلى وفاته وذلك أكثر من سنة، وحين دخلت أهديت له بعض المطعومات من البقل وغيره فقبل واعتذر إليّ في عدم أكله، وفرّقه بين الأحباب.

وكان عادته كل ليلة أن يفطر قبل الصلاة ومعه الحاضرون، ثم صلى فقعد في مكانه

---

(1) ذكره الفخر الرازي في تفسيره (469/4).

يذكر الله، ويسبح وبيده سبحة إلى أن يقرب العشاء، ويقوم أهل الغفلة من مائدتهم فحينئذٍ يجيء الخادم بالخبز الحواري المبلول بين يديه في وعاء من خزف، وبالماء أيضًا، وفي آخر منه فيجلس عليه ومعه آخر ألبتة؛ فإنه كان لا يأكل وحده، وإذ صلى العشاء نام قليلاً، وقام إلى التهجد، وكان طول قنوته بحيث لا يوصف؛ فإنه كان يقرأ الحواميم كلها في صلاة التهجد، ويطيل صلاة الضحى أيضًا ساعة أو ساعتين، وكان سكونه في القيام بحيث لو وقع على رأسه طائر لما طار.

قال في شرح النصوص - بالنون - :«زالت مشقة التكاليف الشرعية عنهم لفرط محبتهم إياه سبحانه، ولتبدل مجاهدتهم بالحب الإلهي؛ لأنه ظهر شرف تلك التكاليف، وبهر كونها تجليات إلهية» انتهى.

ولا شكَّ أن رياضة حضرة الشيخ في آخر عمره تشير إلى موته؛ فإن بها تزول العفونات البدنية الموجبة للتفسخ، وينبع الجسد غضًّا طريًا يوم ينفخ في الصور.

والأصل في هذا الباب إن كان هو التوحيد الحقاني كما سبق تحقيقه مفصلاً إلا أن للاحتماء الظاهر مدخلاً فيه أيضًا، فسبحان من نفى أجساد أوليائه عن الأخلاط والفضلات المنافية للاعتدال، وزكّى نفوسهم عن الأغراض والأوصاف الرديئة الموجبة للإحراق بنار الجلال، وطهَّر قلوبهم عن المقاصد الفانية الزائلة على كل حال، وجَلى أرواحهم بمصاقيل تجليات أسماء الجمال والجلال، وصفّى أسرارهم بلمعات نور القدم، وصانها عن ظلمات الحدوث، وكدورات الأوهام والخيال.

والتاسع: إن غسل الميت شريعة ماضية لما في «آكام المرجان» عن أُبي بن كعب ﷺ أنه قال: «إنَّ آدم عليه السلام لما احتضر اشتهى قطفًا من عنقود عنب الجنة؛ فانطلق بنوه ليطلبوه؛ فلقيتهم الملائكة، قالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قطفًا من عنب الجنة؛ فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه، فانتهوا إليه؛ فقبضوا روحه، وغسلوه، وحنطوه، وكفنوه، وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة، ودفنوه، وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم»[1] انتهى.

وغسله فرض كفاية إلا أن يكون معينًا له، ولا بدَّ من النية ليسقط الفرض عن ذمته وذمة غيره من المكلفين بغسله؛ فيقول: نويت الغسل لله تعالى .

---

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (594/1)، والبيهقي في «الكبرى» (404/3).

وروى النسائي: أن النبي ﷺ قال: **«ما من ميت يموت إلا ويجنب عند الموت»**[1]. واختلف في معناه:

فقيل: إنه من شدة النـــزع ينـــزل.

وقيل: إذا فارقته الروح من شدة النـــزع التذ وأنزل؛ فوجب على الأحياء غسله.

أقول: مذهب الشافعي أن خروج المني كيفما كان يوجب الاغتسال حتى لو حمل حملاً ثقيلاً فخرج منه المني وجب الغسل عنده لا عند الإمام الأعظم؛ إذ الموجب عنده خروجه على وجه الدفق والشهوة، ولم يوجد في الميت، فالوجه عنده ما في «جامع الفتوى»: «من أن الميت يغسل لتنجسه بالموت كسائر الحيوانات الدموية إلا أنه يطهر بالغسل كرامة له، وقيل: لا ينجس؛ لأنه مؤمن، بل الغسل لأجل أنه على غير وضوء» انتهى.

ولي رؤيا تؤيد الثاني وهي: إني رأيت حضرة الشيخ ليلة الأحد، وهي أول ليلة من ليالي شهر ربيع الأول من سنة ثلاث ومائة وألف على غاية من الانبساط والنشاط، يتهلل وجهه كالبدر التام، فسألت عنه بعض ما يتعلق بالموت، فقال: كنت على طهارة كاملة إلى آخر النفس، فلما قبض روحي دخلت فجًا يجري فيه ماء توضأت منه؛ لأنه وقع الحدث عند النـــزع ثم عُرِجَ بي إلى السماوات ثم رجعت إلى جنازتي، فصليت مع الناس الحاضرين للصلاة؛ فقلت له: هل يبقى العقل والإدراك الذي في هذه النشأة الدنيوية على حاله؟

قال: نعم، يبقى على ما كان عليه قبل، ثم أخذ بيدي وهو مبتسم فقال لي: **كن معتقدًا لي بهذه العبارة مرتين، كأنه أظهر السرور من حسن اعتقادي له، فاستيقظت.**

ففي هذه الرؤيا أمور:

منها: إن الوضوء ينقض عند النـــزع، كما نقل من «جامع الفتاوى» وعليه يبنى مشروعية الغسل، والمؤمن الكامل طاهر في حياته ومماته فلا يتنجس، والحدث غير متنجس، ولو سلم فهو بالنسبة إلى الناقص، والحاصل أنه يغسل الكامل غسل الناقص؛ لأنه على غير وضوء بحسب الظاهر، ولأنه في هذه النشأة الدنيوية تابع للناقص فيما يتعلق بالأمور الظاهرة كما سبق تحقيقه.

---

(1) لم أقف عليه.

ومنها: بيان بقاء العقل والإدراك على حاله؛ لأن العقل والإيمان والولاية ونحوها من صفات الروح، وهو لا يتغير بالموت.

ومنها: إن الروح الكامل يشهد جنازته فيكون أسوة للناس في الصلاة، وصلاته على نفسه إشارة إلى أن الكامل هو الساجد والمسجود في مرتبة الحقيقة، فعبادته له لا لغيره، فافهم جدًّا.

وصلاة الناس عليه إشارة إلى سجود الملائكة لازم، ولهذا شرع صلة الجنازة مطلقًا تحقيقًا لهذا السرِّ العظيم، ولا ينافيه كونها دعاء وثناء في مرتبة الشريعة إذ لكل مرتبة حدٌّ يجب الوقوف عنده.

ومنها: إن حسن الاعتقاد يورث علة ما نافعة بحيث لو اجتهد أهل الإنكار سنين كثيرة فيما هم عليه من الرسوم ما شموا رائحة من هذه العلوم، فعليك بالإيمان، وحسن الاعتقاد، وإياك والإنكار والعناد.

والعاشر: إن حضرة الشيخ دُفِنَ في قلعة «الماغوسية» أو كان ترابه منها، كما قال أبو هريرة ﷺ: «**خرج علينا رسول الله ﷺ يطوف ببعض نواحي المدينة فإذا بقبر يحفر؛ فأقبل حتى وقف عليه، فقال: لمن هذا؟ قيل: لرجل من الحبشة، فقال: لا إله إلا الله، سيق من أرضه وسمائه حتى دفن في الأرض التي خلق فيها**»(1) كما في تذكرة القرطبي: «**وتقول الأرض يوم القيامة: يا رب هذا ما استودعتني**»(2).

وأنشدوا:

إذا ما حِمامُ المَرءِ كانَ بِبلدة دَعَتهُ إلَيها حاجَةٌ أَو تطَرُّبُ(3)

وذلك أن ملك الموت كان قد قبض قبضة من وجه الأرض كلها، ولذا جاء: «بنو آدم مختلفين في الألوان منهم الأحمر والأسود والأبيض»، كل ظهر على لون ترابه قابلية ثم دفن فيما خلق منها، قالوا: ما ضم أعضاءه الشريفة ﷺ من أرض المدينة أفضل بقاع الأرض بالإجماع حتى من العرش والكرسي.

فإن قلت: قد صح أن مكة أم القرى، وأنها أفضل بقاع الأرض كلها فكان الظاهر

---

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (521/1)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (173/7).

(2) رواه ابن ماجه (4253)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (172/7).

(3) البيت من الطويل، وهو لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه من قصيدة البيت مطلعها.

أن يؤخذ تراب النبي ﷺ منها، ويدفن فيها.

قلت: إن الطوفان مرج تلك التربة المكرمة عن محل الكعبة حتى أرساها بالمدينة فهي من جملة أرض مكة في «إنسان العيون».

واعلم أن تربة كُمَّل الورثة مأخوذة في الحقيقة من أرض مكة مما يلي تربة النبي ﷺ بحسب التفاوت في الوراثة، ثم رزقها ريح التقدير، وذرها تدبير التقدير، فكانوا كأيادي سبأ، فجزء منهم حوته الدَّبور، وجزء حوته الصَّبا، فهذا سر إذاعته قصة التمويج والطوفان لقلب هذا العبد الداخل تحت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26].

ومنه يعرف سرُّ دفن حضرة الشيخ في قلعة «ماغوسة»، وسرُّ ترابه، وأيضًا في وفاته منفيًا إشارة إلى ورثته لسرِّ صاحب مذهبه، وهو الإمام الأعظم - رحمه الله؛ فإنه مات مسجونًا، ويتعين محل المحق والمبطل من أتباعه؛ فإنه عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، والتفرق الظاهري بالنسبة إلى الكامل محك تام، قال الحافظ: [...][1].

وليعلم الناس أن حال الدنيا على التفرق دون الانتظام، فتعبروا من الشيخ؛ فإنه إذا كان حال الكامل هكذا فما ظنك بالناقص، ولينبئ عن حقيقة الحال وهي أنه لو استمر على انتظام الحال، وكثر ورثته أدى ذلك إلى الختمية في الطريقة الجلوتية - بالجيم - ؛ لأن بكمال المتفرد من أهل عصره استحق تلك الرتبة مطلقًا أي: في الظاهر والباطن، لكن لعدم استعداد أكثر أهل زمانه، وتعرف حال أتباعه وإخوانه أدى إلى الفرقة صورة فاختفى أمر خلافته وختميته، وبطن وظهر في ظاهره التفرق حتى ترك الوطن فبينه وبين حضرة الهدائي - قدس سره - فرق، وهو أن لحضرة الهدائي سر الختمية والجمعية الصورية، فهو في هذا المعنى أتم، ولحضرة الشيخ - شيخي وسندي - سر إلى الختمية والجمعية المعنوية فهو في هذا المعنى أكمل فالغالب على النشأة الأولى ذلك، وإن كان له قدم في المعنى، والغالب على النشأة الثانية هذا وإن كان له قدم في الصورة، ولعلك فهمت المراد؛ فلا تقع في العناد؛ فإن حضرة الشيخ وحضرة الهدائي وحضرة افتادة - قدس أسرارهم - كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

والحادي عشر: إن حضرة الشيخ كان يوصي كثيرًا بألا يبنى على قبره بناء لكمال فنائه عما سوى الله، وستجيء أوصافه الشريفة في فصلها، وكان الغالب عليه إخفاء الحال

---

(1) كلام تركي.

حتى قال في كتاب «اللائحات البرقيات»:

«الأولياء مأمورون بالكتمان، وعلمهم بسلامتهم يكفي لهم، ولا حاجة بعلم غيرهم ،وأما الأنبياء - عليهم السلام - فهم يخبرون بسلامتهم لكونهم شارعين فلا بدَّ لغيرهم من العلم بسلامتهم حتى يؤمن ويقبل دعوتهم» انتهى.

فإذا كان سرُّ الحال غالبًا عليه كان سرُّ الوجود أيضًا كذلك إذ الصورة تابعة للمعنى.

وكتب في مرض موته وصايا متعلقة بالأحوال الظاهرة والباطنة، وأرسلها إلى أهل بيته في القسطنطينة؛ فخولني في كلها من جهة بعض المداخلين في أموره، فلما سمعت عجبت من أخلاقهم عقيب وفاته، وانتقل الخاطر إلى ما ينبغي أن يفشى.

والثاني عشر: إن حضرة الشيخ مات في القلعة الماغوسية من القلاع القبرصية منفيًّا من مرض الحمى المحرقة يوم الثلاثاء قبل العصر بساعة، وهو السابع عشر من ذي الحجة المنتظم في سلك سنة اثنتين ومائة وألف.

ومن الاتفاقات الغريبة أنه - روَّح الله روحه - كان أرسل ورقة فيها استدعاء قدوم هذا الفقير إلى جانبه كما سبق تفصيل الذهاب والإياب، فوصلت إليَّ في اليوم الرابع من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين ومائة وألف فمُلئت سرورًا وفرحًا بحيث لا يوصف.

ثم لما دارت السنة، وكمل أمر الزيارة، وجاء اليوم الرابع من شهر ربيع الأول من ثلاث ومائة وألف إذا بورقة من بعض الأحباب فيها نفي لحضرته فمُلئت غمًّا وحزنًا بحيث لا يوصف وأنشدته قوله:

ويومًا نُسَاْ ويومًا نُسَر فيومًا لنا ويومًا علينا

وإلى الله عاقبة الأمور.

ولي واقعة غريبة حين وفاته، وهي أني أرى كأن فوق السحاب مسجدًا جامعًا، وله سلم من الأرض على سبع طبقات بعضها أصعب من بعض، كل طبقة مشتملة على سبع درجات، فأخذ الشيخ يصعد بسرعة من غير تعب، وأنا خلفه وخلفي عشرون أو ثلاثون من أتباعه، حتى إذا انتهينا إلى رأس الطبقة السادسة رأيت أن لها سبع درجات من حديد كلٍّ ما بين الدرجتين مقدار ذراعين بل أزيد، وليس بينهما شيء بحيث لو مدَّ رجله من إحداهما إلى الأخرى فلم تصل وقع على الأرض، فرأيت أن حضرة الشيخ مدَّ رجله فوصلت إلى القدمة الأخرى كأن ما بينهما شبر بالنسبة إليه، فخطا من الأولى إلى الأخرى

بسرعة ثم حتى إذا وضع قدمه على الدرجة السابعة، وكان باب الجامع هناك انفتح الباب، ودخل هو، وغاب، وبقيت أنا متحيرًا في رأس الطبقة السادسة، وليس عندي أحدٌ، فاستيقظت فزعًا مرعوبًا.

ولهذه الرؤيا تعبير نفسي وآفاقي، والأظهر الجمع بينهما، وفيها دلالة على أن ما بقي من عمري أقل مما مضى، والله أعلم، وأنا الآن ابن أربعين والمتولي من الله تعالى العواقب بالحسنى، ويشرف بالوصول إلى المقصد الأسنى.

ورأيت ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر كأني في قلعة «ماغوسة» التي دفن حضرة الشيخ هناك، وكان ما مات فما أُسعدت بلقائه.

قال: إن لي ذوقًا عظيمًا في البرزخ بحيث لا يوصف، ولو قررته لما فهمتموه.

فقلت: هل البرزخ من عالم الدنيا أم لا؟

قال: من عالم الدنيا باعتبار.

قلت: هل يقدر أن يتمثل أهل البرزخ بصور أهل الدنيا؟

قال: نعم، يتصور بكل صورة أراد، ثم استيقظت أي: من المنام.

ورأيت حضرة الشيخ على هيئته التي كان عليها في الدنيا، قد قعد على جانب من طريق واسع، وكأنه صار [خصافًا] بالفارسية [بينه دوز][1] يخيط الأخلاق، ويخصف النعل فلما مررت عليه أعطاني عصوين طويلتين معوجتين، وقال: ادفعهما إلى المريدة الفلانية في «بروسة»؛ فإني قد قطعتها بيدي من الجبل، وتقويمهما أسهل لرطوبتهما، فقلت في نفسي: أُبشر أهل «بروسة» بأن حضرة الشيخ لم يمت، وأنه عاد إلى النشأة الدنيوية، وإني رأيته لم يعيني في اليقظة التامة، وكأني أريد بذلك أن هذه الحالة الجليلة الموهوبة لحضرة الشيخ من الآثار النادرة التي لم يؤت لأحد من الأولياء الماضين، ثم استيقظت.

وبناء هذه الرؤيا لا يخفى على الخبير البصير، وقد قال بعضهم: [...][2]، وهو إشارة إلى مضمون قوله عليه السلام:

«إن الله ينـــزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، فيقول: هل من تائبٍ فأتوب عليه،

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

وهل من مستغفرٍ فأغفر له»[1][2].

فالمراد من لفظ يسر: جناب القدس، كما قال عليه السلام:

«رأيت ربي ليلة المعراج في صورة شاب أمرد»[3] وكونه خصافًا: إشارة إلى كونه غفارًا للذنوب، ستارًا للعيوب، محولاً الأحوال، مجددًا الشؤون والأفعال، وإذا كان هو [خصافًا] بما يناسب لشأنه العالي؛ فليكن مظاهر الكمل أيضًا كذلك؛ فإن التخلق بأخلاق الله تعالى من شأنهم العظيم، والحمد لله تعالى على أن حضرة الشيخ من أهل هذا المقام الكريم، وذلك في النشأة الدنيوية، والبرزخية، والتأثير في حياتهم ومماتهم؛ إذ ليس مماتهم إلا الانتقال كما سبق، وعليه سادات الصوفية - قدس الله أسرارهم.

قال الصائب: [...][4].

ذهب بعض أهل التفسير عند قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:5] في سورة النازعات إلى أن النفوس الفاضلة بعد خروجها من ظلمة الأجساد، واتصالها بالعالم العلوي لا يبعد أن يظهر منها لشوقها وقوتها آثار في هذا العالم السفلي؛ فتكون مدبرات.

---

(1) رواه البخاري (1077)، ومسلم (1265)، والترمذي (306/2)، وأحمد (419/2).

(2) وقال سيدي علي وفا: اسمع: جاء في الحديث: «ينزل»: أي يتجلى بأنواره المرسَلة منه على قوابلها الموضوعة بالاستعداد لحملها، «ربُنا»: أي وجودنا المدرك الحكيم، «في كل ليلةٍ»: أي صورة مادية، «إلى سماء الدُنيا»: أي إلى مجمع مداركها، «في ثلث الليل الأخير»؛ لأنها ثلاثة أثلاث: الدائرة الرأسية للنفس النفساني فعلاً وانفعالاً، والدائرة القلبية للنفس الحيواني كذلك، والدائرة الكبدية للنفس النباتي كذلك، فمن أيّها ابتدأت العدد وثُنيت بآخر كان المبتدأ به ثلثًا أول من ليل الصورة، والثاني ثلثًا أوسط، والثالث ثلثًا أخيرًا.

وقد ورد التنزيل الربّاني في الأثلاث الثلاثة، وذلك الدهر كله، ومن ثَمَّ قامت الأنوار الإدراكية فعلية وانفعالية بجملة الصورة وجهاتها الناطقة والحيوانية والنباتية، هذا حقيقة هذا الخبر من حيث التنزل الإمدادي الوجودي، وأما من حيث التنزل الزماني فلا مانع من ذلك؛ لأن هذا التجلّي لا تغير له ولا زوال باعتبار نفسه، وإنما التفاوت والتغير بحسب استعدادات القوابل، فلعل هذه السموات الأثيرية الجوية يقتضي لها تغير استعدادها بحسب أوضاعها الحركية، أن يحصل لها عند ثلث من أثلاث الليل الزماني تنزلات تستمر عليها أحكامها وإشراقها إلى مثل ذلك الوقت من الليلة الزمانية الثانية، فإن الصور المادية كلها متهيئة لذلك، سواء سميتها أفلاكًا أو بسائط أو متولدات، أو مهما شئت نحو هذا.

(3) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (214/11)، وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (363/2).

(4) كلام غير عربي.

ألا ترى أن الإنسان قد يرى في المنام أن بعض الأموات يرشده إلى مطلوبه، ومن غفل عن هذا المعنى خاض في الطعن على أولياء الله تعالى، والمنع عن زيارة قبورهم، والاستمداد من روحانيتهم، وحواليه حمقى العامة يضمون إلى كلامه الفاحش؛ فيكفرون بقدرة الله تعالى، والله على كل شيء قدير(1).

(1) قال الشيخ شمس الدين الرملي: «كرامات الأولياء مشاهدة لا يمكن إنكارها، فالذي نعتقده ثبوت كراماتهم في حياتهم وبعد وفاتهم ولم ينقطع بموتهم، ويخشى على جاحد ذلك المقت والعياذ بالله تعالى».

وقال الشيخ الشوبري- رحمه الله تعالى-:

«ويترتب على من منع جميع ذلك التعزيز اللائق بحاله الرادع له، ولأمثاله عن الخوض في مثل هذه المسائل، وتهوره بمثل ذلك، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وقد نقل العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعراوي أن بعض مشايخه ذكر له أن الله تعالى يُـوكل بقبر الولي ملكًا يقضي حوائج الناس، كما وقع للإمام الشافعي والسيدة نفيسة وسيدي أحمد البدوي.

وتارة يخرج الولي من قبره بنفسه، ويقضي الحاجة؛ لأن للأولياء الإطلاق في البرزخ والمراح لأرواحهم».

قال: «وإذا خرج شخص منهم من قبره على صورته، وقضى حوائج الناس يكتب له ثواب ذلك كحكم صلاتهم في البرزخ» انتهى.

ونقل صاحب «بدائع الزهر في وقائع الدهر» عن ابن الجوزي:

«إن الخضر عليه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم وقت الصبح يتعلم منه علم الشريعة، فلما مات أبو حنيفة سأل الخضر ربه تعالى أن يـرد إلى أبي حنيفة روحه في قبره حتى يتم له علوم الشريعة.

فكان يأتي كل يوم وقت الصبح على جري عادته يستمع منه مسائل الفقه والشريعة من داخل القبر، وأقام على ذلك خمس عشرة سنة حتى أكمل علم الشريعة له بعد موته» انتهى.

وقال الشيخ عفيف الدين اليافعي: «الأولياء ترد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت السماوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات، كما نظر النبي ﷺ أبي موسى في قبره قال: وقد تقرر ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدي قال: ولا ينكر ذلك إلا جاهلٌ، ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة فلنكتف بهذا، والأخبار الواردة عن حاله، وحال الأنبياء في البرزخ مصرحة بأنهم ينطقون ويتزاورون كيف شاءوا لا يمنعون من شيء، بل وسائر المؤمنين الشهداء وغيرهم ينطقون في البرزخ بما شاءوا غير ممنوعين من شيء.

ولم يرد أن أحدًا يمنع من النطق في البرزخ الا من مات عن غير وصية».

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: «حياة الأنبياء والشهداء في القبركحياتهم في الدنيا، ويشهد لهم صلاة موسى عليه السلام في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسدًا حيًا، وكذا الصفات المذكورة ليلة

=

وفي «المثنوي»: [...][1]

ثم إن لي في وفاة حضرة الشيخ تواريخ تركية وعربية.

فمن الثانية: هذا المصراع الكامل وهو:

مات قطب الكون إن الموت حق

وهو إشارة لحساب الحروف المنطوقة فقط، ومثله:

= الإسراء كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدُّنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شكَّ أن ذلك ثابت لهم، وكسائر الموتى» انتهى.

وفي«الجوهر المنظم»: ثبت أن حياة الأنبياء ولا شكَّ أنها أكمل من حياة الشُّهداء، مع أ نَّا نعتقد ثبوت نحو السمع والبصر لكل ميت، وعود الحياة له في قبره، كما ثبت في السُّنة ،ولم يثبت أنه يموت بعد، بل ثبت نعيم القبر وعذابه، وإدراكهما مشروط بالحياة لكن يكفي حياة جزء يقع به الإدراك، ولا يتوقف على حياة البنية خلافًا للمعتزلـــة. وأما أدلة حياة الأنبياء فمقتضاها حياة الأبدان كحالة الدنيا مع الاستغناء عن الغذاء، ومع قوة النفوذ في العالم، وقصة سماع ابن المسيب للأذان والإقامة من القبر الشريف مشهورة.

وقال: «نحن نُؤمن ونصدق بأنه ﷺ حيٌّ يُرزق، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، وكذا سائر الأنبياء، والإجماع على هذا قيل، وكذا العلماء والشهداء والمؤذنون.

وصحَّ أنه كشف عن غير واحد من العلماء والأولياء، فوجدوا لم تتغير أجسادهم نعم الظاهر من الأدلة أن حياة الشهداء أقوى من حياة الأولياء للنص عليها في القرآن، ودون حياة الأنبياء؛ لأنهم بها أولى وأحرى، والتفاوت فيها بمعنى التفاوت في ثمراتها غير بعيد، وفي حصول هذه الحياة لشهداء الآخرة فقط كالغريق والمبطون توقف.

وأكّد جمهور العلماء على أن حياة الشهداء حقيقية.

وقيل: للروح فقط، وقيل: للروح والجسد بمعنى أنه لا يبلى وأنه تستمر فيه أمارات الحياة من الدم وطراوة البدن، وهذا هو المشاهد في أبدانهم، كما صح أن جابر بن عبد الله، وعمرو بن الجموح، وهما من شهداء أُحد حفر السيل قبرهما بعد ست وأربعين سنة، فوُجدوا لم يتغيروا، وكان أحدهما جُرح، فوضع يده على جرحه، فأميطت ثم أرسلت، فعادت كما كانت، وأصابت المسحاة قدم حمزة بعد خمسين سنة، فسال منه الدم» انتهى.

وبالجملة: فصرائح الأخبار والآثار والروايات، ونصوص جمهور العلماء سلفًا وخلفًا في دوام كرامات الأولياء، ووقوعها في حياتهم، وبعد مماتهم لا تنحصر. انظر: كتابنا جمع المقال (ص 455).

(1) كلام تركي.

مقام الشيخ فردوس وطوبى.

ومنها هذا المصراع التام وهو:

قدس الله تعالى أبدًا سرٌّ عزيز

وحروفها محسوبة مطلقًا منقوطة أو مقفلة، لكن فيه زيادة واحدة، والتاريخ إنما يتم بطرحها وإخراجها فعليك بالطرح والحساب، وكن من أولي الألباب.

هذا آخر الكلام في فصل الوفاة.

الفصل الخامس عشر /
في شكل حضرة الشيخ وشمائله

اعلم أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلاّ حسن الاسم، حسن الصورة، فزانهم بالكمالات والهيئات المرغوبة، وصانهم عن الأوصاف والأمور المنفرة، فلهم الزينة الذاتية والصفاتية، والبهجة الصورية والمعنوية، خلع الله عليهم خلعة الوجود الحقاني، وبيض وجوههم بأنوار ذاته، وكحل عيونهم بنور التوفيق لرؤية كمالات ذاته وصفاته، أحسن إليهم بحسن ذاتي، حسن يوسف شعاع من أشعة نوره، ولمعة من لمعات ظهوره كما قال المولى الجامي: [... وشرَّفهم بحسن صفاتي تطأطأ، والفرسي][1] وللورثة حظ أوفى من الاكتساء بكسوة صورهم وأشكالهم، والاحتظاظ من مشارب حقائقهم وأحوالهم.

أما حسن الاسم فهو حسن المسمى؛ لأن الاسم عند الصوفية تعين ذات المسمى لا ما دار على الألسنة من الألفاظ المجردة، فاسم الله تعالى تعين ذات المسمى باعتبار صفة وجودية كالعليم، أو عدمية كالقدوس، وحسن اتصافه بالكمالات الذاتية التي لا يحصيها العد، وحسن مسمى غيره اتصافه بالأوصاف الكمالية وتخلقه بالأخلاق الإلهية، وكان خلق رسول الله ﷺ القرآن، وهو صفة الله القديمة أي: الامتثال بأوامره، والاتصاف بما فيه جمعًا وتفصيلاً.

وأما حسن الصورة فلدلالته على قربة النسبة إلى أمر الصورة التي هي الصورة الإلهية، وتمام كشفها؛ لأن في كل صورة من صور التنـــزلات، وشكل من شكل التعينات في العالم العلوي والسفلي، معنى من المعاني الغيبية، وحقيقة من الحقائق الإلهية، والكاشف عنه هم الأنبياء والورثة، فاقتضت حكمة الله أن يكونوا على كمال حسن الصورة مع أنه مدار لقبول ما دعوا إليه من الوحي والإلهام، إذ قبيح الصورة مبعود عنه غالبًا، وإن كانت نغماته رخيمة، وكلماته مستقيمة.

وأما حسن الصورة؛ فلأنه صورة النفس الرحماني، وحظ الروح الإنساني، وصاحبه محبوب في القلوب كصاحب الصورة، فإذا اجتمعا ازداد رغبة، وكثرة الميل والمحبة وقوي الداعي والتوجه، ولا تحصل الاستفاضة إلاّ بتعظيم المفيض.

---

(1) كلام فارسي.

ولذا سُئل بعض الأولياء: الإلهية في قلوب الناس وهمًا أي: حسن الصورة والصوت من أسباب التعظيم، فانظر في هذه الأمور والمعاني؛ فإن وجه حسنها لا يخفى على ذوي الإلهام الرباني، فإذا انتقش على صحيفة الخاطر ما ذكر من ذكر الفاطر.

فاعلم أن حضرة الشيخ طويلُ القدِّ، عَليُّ الاعتدالِ، مهيبٌ في أعين الرجال، أبيض في صفرة، خفيف اللحم واللحية، تزهر عيناه من النور الإلهي كأنهما الشمس والقمر، وكانت تلك الحالة الآن نصب عيني، وأظن أنها لم تنكشف لغيري، فلله الحمد.

وكان لبعض المشايخ مريد يرى على رأس الشيخ نورًا - قدس الله سره - ولا يراه غيره، وذلك لأن عين الاعتقاد وهي التي ترى ما خفي على الغير من المحاسن.

وكان حضرة الشيخ لا يستطاع النظر إليه في أوائله وأواسطه لما دهم على وجهه من الهيبة الغالبة، وغشي عليها من العظمة القاهرة، وكان ذلك من آثار التجليات الواردة على قلبه الشريف، إذ كل إناء يترشح بما فيه ثم صار في آواخر أمره وعمره كأنه النور المحض لعلـــة اللطافة والاعتدال ولاستيلاء أنوار الجمال إذ كان الحال الأول من مقتضيات الفناء الكلي وتجلي الجلال، والثاني من آثار البقاء الذاتي، وتجلي الجمال وبين الحالين تفاوت عظيم، فانظر إن العود الهندي يتدخن إلى أن يفنى عن وجوده، ثم يصير بحيث تبقى رائحته الطيبة، ولا يرى شيء من الدخان، فاعرف فقد رمزت إليك بعين القلم بل أبرزت عين الحياة من غريب العلم.

وكان إذا خرج لحاجة لوعظ أو لغيره لا ينظر إلاَّ على ما فوق النعل تأدبًا بما جرى عليه السلف حين المشي من الأدب عملاً بحياء عثمان ﷺ، وغضًّا للبصر عن منكرات الناس، وكان يلحظ بمؤخر عينيه، فإنْ أحدٌ من المسلمين المارين يتأهب للسلام أو أخره يلتفت إليه قليلاً فيسلم أو يأخذ ويرد وإلاَّ يمشي على هيبة؛ فإن سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن.

وكان لا ينظر إلى الناس أثناء الوعظ بل يغمض عينيه، ويخاطب، وهو الأدب لوعاظ أهل السلوك، وكذا لا ينظر إلى النسخة حين الدرس بل يقرر عن ظهر القلب، وينظر إلى المخاطب.

وكان يحب النظر إلى الآثار، ويتلو قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، ولم يقع نظره على زهر موضوع على عمامة أتباعه إلاَّ أمر بإخراجه وتركه حذرًا من زينة، واكتفاء بشمه، والزهر - بفتح الزاي وسكونها - يقال له

بالفارسية: «شكوفه»، مثل الورد والشقائق، والنرجس، والريحان ونحوها.

وكان يلبس عمامة كبيرة، ولم أر عليها شيئًا من الأوراد والأزهار دعاه السلطان محمد الرابع ليلة العيد ليعظه ويذكر ففعل، ثم دعاه إلى مجلسه الخاص فلما دخل عليه قام ومد يده للمصافحة فصافح، فنظر حضرة الشيخ إليه مرة واحدة لا غير، وكنتُ قريبًا منه فتفكرت في أمره فعرفت أن العين الناظرة إلى الله لا تنظر إلى ما سواه إلاّ قدر ما تندفع به الضرورة، واستعمل في أواخر عمره ما يقال له بالفارسية: «جشمد»، لضعف العين بحسب البشرية.

ولم يستمع إلى اللهو بل لو مرَّ من الطريق وبلغه وهو في بيته اشتغل بالذكر، وابتلي به مرة أو مرتين كما ابتلي حضرة الإمام الأعظم فصبر.

وذلك أنه حضر دعوة بعض الكبار من ندماء السلطان، وفي المجلس شخصان من طريقة المولوي جلال الدين صاحب «المثنوي» - قدس سره - فاستأذنوا من حضرة الشيخ في أن يضرب الشخصان المذكوران المزمار المعروف الذي يقال له بالفارسية: «ناي»، ولضاربه نافخه: «ناي زن»، فسكت حضرة الشيخ، ثم أعادوا فسكت، فقال: رئيسهم إن السكوت من الإذن فأمر بضربه، وكان الشخصان أبًا وابنًا، والأب شيخ كبير، فإنه قد خضَّب لحيته ويديه فنفخ ابنه، وقرأ هو بعض الأشعار، ونحن في المجلس حُضَّار فعجب من كبر ذلك القارئ، ومما تصدى به من قراءة الشعر الذي لا مناسبة له بها بوجه ما، ومن خطابه لأجل الدنيا، ثم قام حضرة الشيخ من المجلس قال: كيف يصدر مني الإذن للحرام؟ ثم قال: عجبًا لقوم يطلبون الذوق في المزامير والأوتار، انتهى.

وقد كشف النقاب في بعض تحريراته عن وجه التفصيل حيث قال: «ميل يتولد من مطالعة الطبيعة للصوت الحسن عند السماع فهو شهوة، وميل يتولد من النفس في مطالعة النغمات والألحان عند السماع فهو هوى، وميل يتولد من القلب بسبب مطالعة نور صفاته وأفعال الحق فهو محبة عند السماع فهو عشق، وميل يتولد من الروح بسبب مطالعة نور صفاته تعالى فهو محبة وحضور وسكون، وميل يتولد من السرِّ بسبب مشاهدة نور ذاته تعالى فهو أنس، والأولان من السماع لا شبهة في حرمتهما؛ لأنه شيطاني، والثالث حلال مطلقًا؛ لأنه رحماني» انتهى.

أقول: يعرف منه أن حرمة الآلات المطربة ليست عينية كحرمة الخمر والزنا، فإن استعمل على وجه اللهو واللعب بأن كان الالتذاذ منها من مرتبة الطبيعة والنفس كانت

حرامًا كما يفعله العامة، وإن استعمل لا على ذلك الوجه بأن كان الالتذاذ منها من مرتبة القلب، والروح، والسر، ولمصلحة داعية إليه كضرب الطبل في الجهاد، وطريق الحج كانت مباحة، ومنه ما فعله صاحب «المثنوي» فليس ذلك حجة لأتباعه، وذوق المزمار ونحوه عارض زائل، والمقصود الأصلي التوحيد الذي ذوقه باقٍ.

فمن وصل إلى هذا الذوق الكلي استغنى عن الأذواق المرئية مطلقًا، ومنه يعرف أن قراءة الإلهيات التركية أو القصائد العربية إنما هي لتحريك الساكن، وتسكين المتحرك؛ لأنها كالمنفحة لتحصيل حرارة الحديد، لكنها لما كانت من الاشتهار، وعُدم لها الأهل من القوال والسامع تركها حضرة الشيخ قبل وفاته بثلاث سنين، وأمرني بتركها أيضًا.

فإذا كان العرفاء يعدون قراءة الإلهيات شهرةً وحجابًا في هذا الزمان النازل فما ظنك بالمزمار ونحوه مما هو أسباب الاشتهار التام وازدحام العوام.

وفي «المثنوي»: [...][1].

وفي الحديث: «**إن العبد لينتشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب، ولا يزن عند الله جناح بعوضة**»[2] كما في «حياة الحيوان».

قال القشيري: الاستدراج انتشار الذكر دون خوف المكر، وقد بلغ الزمان إلى حيث ينشيء كل شاعر إلهيًا تقليدًا للمشايخ المحققين، وينشد الذكر في المجالس كلُّ سكران، ويدخل في حلقة التوحيد كلُّ شيطان، وأذم من الشعراء مَن هو في زي المشايخ وهو يقول الإلهيات، ويدعي لنفسه دعاوى كاذبة ﴿**أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ**﴾ [المجادلة:19] في تجارتهم حيث حسبوا اشتهارهم عند الناس، وجمعيتهم عندهم، وإنشاءهم الإلهيات الكاذبة أسباب الزهد والتقرب عند الله تعالى: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر:47].

وقالوا عند فحائل فتوح الدنيا: ﴿**هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ**﴾ من الشهوات، ﴿**رِيحٌ**﴾ وهي ريح الهوى، ﴿**فِيهَا عَذَابٌ**﴾ الفرقة عن طريق الهدى ﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ من الأخلاق الحميدة ﴿**بِأَمْرِ رَبِّهَا**﴾، ولكلِّ مظهر رب خاص، وهو اسم المؤثر فيه ﴿**فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ**﴾ [الأحقاف:24، 25] أي: أشخاصهم

(1) كلام تركي.

(2) ذكره الغزالي في الإحياء (66/1)، والدميري في حياة الحيوان (124/1).

خالية عن الأخلاق، والآداب، والأعمال الصالحة، وقلوبهم فارغة عن الصدق والإخلاص والرضا والتسليم.

وفيها إشارة أخرى وهو أن السكنى قبورهم وما بني عليها من القباب العالية فيظن الرائي أن فيها وليًا من أولياء الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:31] وهم المعرضون عن الحق، والمقبلون على الباطل، وكان جزاؤهم الباطل، والصورة لا الحق والمعنى، والعياذ بالله تعالى من الخذلان.

وكان حضرة الشيخ يستمع إلى الكلام الحق، وربما يقول له بعض أولاده الصغار أثناء قراءته عليه فيسمعه ثم يقول: هل تمّ كلامك؟ فيقول: فأقروا، وذلك للتوسع عليه في باب التعليم، وتنشيطًا لخاطره من حيث إنه صبي لا يحتمل التضييق، وكان بعض من لا وقوف له على حاله من بعض أتباعه المقلدين يقولون في حقه ما حكى الله تعالى عن المنافقين بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة:61] أي: محمد ﷺ يسمع كل ما قيل، وكان مقصودهم به المذمة ثم إنه تعالى أهل ذلك القول على ما هو مدح له، وثناء عليه؛ فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ والمعنى: أذن لكنه نعم الأذن؛ فإنه من يسمع العذر ويقبله خير ممن لا يقبله؛ لأنه إنما ينشأ من الكرم وحسن الخلق، وقد ورد: «**التغافل من أخلاق الكرام، والمؤمن غرٌّ كريم، والمنافق خبٌّ لئيم**»(1).

إلاّ حضرة الشيخ كان يشدد على المريدين في أوائل حاله وأواسطه ذلك بعد التنبيه مرات، وفي بعض ليالي الذكر لم يحضر بعضهم فاستدعاهم بعد تمام المجلس، فاعتذروا فقبل من كل منهم اعتذاره، ولما انتهت النوبة إلى المولى محمد الدبروي وكان رجلاً ظريفًا قال له: لم تركت المجلس هذه الليلة؟ فقال: يا سلطان اتبعتُ نفسي الأمارة، فلم يستمع إليه بل قال: لا ينبغي لمن كان مريدًا أن يتبع هوى نفسه كل زمان فبكته، وعزره تعزيرًا خشنًا لتكسير نفسه، وتذليل جموحه، وجذب شكيمته.

ووقع لي ولشريكي السيد محمد القرين أبادي مثله مرة، وذلك أنه كان لحضرة الشيخ ولد صغير مسمى بعبد الله، بطيء الذهن والأخذ جدًا، وكان حضرة الشيخ فوّض تعليمه إليّ وإلى شريكي المذكور؛ فلما كان بعض أيام فنسي درسه من بعض الاشتغال، فأحضره حضرة الشيخ بعد العصر فلم يدر درسه، فسأل عنه، فقال: إنهما لم يعلماني

(1) رواه أحمد في مسنده (8755)، والترمذي (1887)، وأبو داود (4158).

اليوم، فأحضرنا الشيخ، وأدبنا تأديبًا خشنًا، فوالله ما تغير لوني ولا خاطري من ذلك، وهو من حكم الوقت ثم مات السيد عبد الله مطعونًا بعد أيام واستخلف شريكي في بلدة «سيروز» من البلاد الرومية، ومات هناك.

وكان حضرة الشيخ في أوائله وأواسطه يسمع من قراءته المخصوص من الصوفية ويحب إلهيات حضرة الهدائي، وقصائد الشيخ الأكبر - قدس الله أسرارهم - ولما انتهى القول يومًا إلى قول الهدائي في بعض إلهياته التركية: [...][1] بكى بكاءً شديدًا، وكان يقول: إن إلهيات الهدائي واردة على أحوال السلوك عروجًا ونزولاً.

وقال لي: يومًا إن كان لا بدَّ من أن يقرأ في مجلسك القوال شيئًا من الإلهيات فاختر كلمات الشيخ الشهير بـ«اقتادة البرسوي»، والشيخ الشهير بالهدائي الإسكداري، يونس أمره - قدس الله أسرارهم، فإن كلماتهم حقانية محضة، وكمالية صرفة بخلاف كلمات غيرهم؛ فإنها مشوبة بالجمال والجلال، ومنها كلمات ابن الأشرف الأزنيقي.

وقال: كلمات يونس أمره وإن كانت تركية لها سلاسة في أكثرها، لكنها مما يشم منها رائحة الكمال، وكونه أميًا بحسب الظاهر لا يقدح في شأنه؛ إذ المقصود معرفة الله، يعني: بأي وجه كان، والله تعالى لا يتخذ الرجل وليًا إلاَّ بعد تعليمه، وللتعليم طرق شتى تنتهي إلى محل واحد وهو المآل منه.

قال الإمام الغزالي في «شرح أسماء الله الحسنى»: «من عرف الله تعالى فهو حكيم، وإن كان ضعيفًا، لكنه في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان، قاصر البيان فيها» انتهى.

وكان حضرة الشيخ يقطع الكلام ويترك المطالعة عند الأذان، ويستمع إليه ويقول أول ما يسمعه: لبيك يا دعوة الحق ثم يجيبه إلى آخره، وكان في قلعة «ماغوسة» مؤذن من الشبان يؤذن في جامع قريب من دار حضرة الشيخ له نَفَس داودي جهوري مؤثر جدًا، وكان حضرة الشيخ يتعجب منه ويحب آذانه، وكان لا يحب في آواخره أن يقرأ الإمام على المقامات الموسيقية؛ لأنه قد فني عن كل حركات وسكنات، ودواعي اللذات، وسمع في أوائله مزمارًا فبكى، وغلب عليه الحال كما كان يغلب على حضرة مولانا من كثرة ورود الأسرار والمعاني على القلب؛ لأنهم أخذوا من كل صورة سفلية معنًى من المعاني العلوية، وفي كل صوت من الأصوات الجزئية والكلية رمزًا إلى حقيقة من

---

(1) كلام تركي.

الحقائق الإلهية، كما قال العاشق المحقق: [...][1]، وإنما كان صوته حكاية لا شكاية؛ لأن العاشق لا يتحمل غير الحكاية، ولذا قال في المجلد الأول [...] [2].

وكان حضرة الشيخ جهوري الصوت عاليه، وكان في أوائله وأواسطه يترنم ويقرأ على هيئة عظيمة لم أسمع مثل قراءته من أحد قط، ويقرأ الإلهي في مجلس الذكر مع القوال مع صوت رفيع مهيب، وضرب على ديباجتي مرة، وعلى ديباجة من تحتي من الذاكرين القوالين بحيث سال الرعاف، وكان لا يطاق بمجلسه الذكري، ثم فرغ عن الكل في آخر عمره، وكان يحب أن يؤم غيره ويقرأ بمقام موسيقي؛ فإن اقتضى المقام أن يؤم هو نفسه تلا بغير نغمة، وعلى اعتدال تام بحيث لو أراد الكاتب أن يكتب وأعاد الحروف لأمكن، وهو المراد بالترتيل المأمور في القراءة.

وأما ما قاله الشيخ الأكبر - قدس سره - من أن الذكر إذا كان بنغمة لذيذة فله في النفس أثرٌ كما للصورة الحسنة في النظر، فإنما هو للمبتدئ وللمتوسط، ولذا أباح أبو حنيفة وجماعة من السلف القراءة بالألحان؛ لأن ذلك سبب الرقة، وإثارة الخشية، واللحن التطريب، وترجيع الصوت، وتحسينه بالقرآن، وأما المنتهي فيغنى عن اللذات الداخلة من الخارج فرقًا بين المقامين؛ فإنه ليس في كلامنا ريب ومين.

ولم أسمع أن حضرة الشيخ أذَّن، واختلف هل أذَّن ﷺ بنفسه؟

فقيل: نعم، أذَّن مرةً في السفر على راحلته، وأقام وصلى بهم وهم على رواحلهم يومئ إيماءً يجعل السجود اخفض من الركوع، وذلك لأجل المطر والطين.

وقيل: ما أذَّن، وإنما أمر بلالاً بالأذان كما في «إنسان العيون».

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: **«إنما لم يؤذِّن كان إذا عمل عملاً أثبته»** أي: جعله ديمة، وهو كان لا يتفرغ لذلك لاشتغاله بتبليغ الرسالة، وهذا كما قال سيدنا عمر ﷺ: **«لولا الخليفة لأذنت»**[3].

أقول: لو ثبت أذانه ﷺولو مرة من حيث إنه شارع، ثبت من الورثة أيضًا للتأسي به، إذ هم يحبون الاستنان بسنته عليه السلامتحققًا بما في كل منها من التجلي المخصوص.

---

(1) كلام تركي.

(2) كلام غير عربي.

(3) رواه البيهقي في «الكبرى» (426/1)، والعلجوني في «كشف الخفاء» (212/2).

ألا ترى أن حضرة الشيخ الأكبر أتى بجميع سنته ﷺ غير واحدة، وهي أنه كان يقبل في بعض أيام في دار ختنه عليّ رضي الله عنه ولم يكن لحضرة الشيخ بنت عند الزوج حتى جاء إلى داره وزار ونام فيها، وأظن أن إتيان جميع السنن غير واحدة من الاختصاصات الأكبرية كما أن الختمية التي أُوتيها إذ كان خاتم الولاية المحمدية، ولم يؤت هذا المقام لواحد لا قبله ولا بعده، ولذا أظهر الله عنه من علوم الحقائق والأسرار ما لم يظهر من غيره على ما تشهد به كتبه الشريفة، وكان سلطان زمانه – قدس سره.

وأما غيره من الأولياء فكانوا غير مأذونين ببيان الحقائق لا بالعبارة وبالكتابة، بل اكتفوا بالإشارات والرموز، وأكثر ما وقع منهم بيان لسان المعارف كـ «إحياء العلوم» ونحوه، فهو من حيث تحققه بمقام الختمية أكبر من الشيخ أبي يزيد البسطامي ومن غيره، وفي عدم إتيانه بسنة واحدة إشارة إلى تفاوت ما بين النبيِّ والولي والمتبوع والتابع ولو درجة.

وكان حضرة الشيخ يقول الحق ولا يبالي في مجلس السلطان، والمجلس الوعظي ونحوهما.

وكان إذا بدأ بالكلام يسرد بحيث يتحير الحاضرون، وكان مجلس صحبته أجمع من مجلس وعظ، وكان لا ينتهي كلامه النفيس إلا إن أراد الله قطعه.

قال معلم السلطان عبد الحليم الشهير بـ «عرب زاده»: وكان متعينًا في زمانه بالعلم والفضيلة، نحن مع العلم الكثير لا نقدر أن نتكلم في مجلس السلطان، وعند اجتماع الوجوه للمشاورة، ولا يجري على لساننا شيء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فبارك الله للشيخ يريد به حضرة شيخي وسندي؛ فإنه يفوق الكل في المجلس الذي هو فيه، ويحقق آيات وأحاديث كأننا لم نسمعها من قبل، فكل كلامه مبني على الكتاب.

أقول: وذلك لأن علم الشيخ حضوري، وعلم علماء الرسوم حصولي، والحاضر لا يغيب؛ لأنه ذاتي بخلاف الحاصل من الخارج فإنه يجيء ويذهب، والله يؤيد أولياءه بالإلهام فلا يحتاجون إلى استحضار؛ فرضي الله عنهم، وجعلنا منهم.

ولم يكن في كلمات حضرة الشيخ تكلف أصلاً، إذ كان لا يحب التكليف في جميع الأمور، ولم يصدر منه شيء ولم يصدر منه التكلم بشيء من لسان الفارسي، وسببه ما سمعت من فِيه حيث قال: دخلت في القسطنطينية مع شيخي في سفينة صغيرة فأخذ الملاح ينشد أبياتًا فارسية، فقال لي حضرة الشيخ: يا بني لا تتعلم العلم الذي وقع في لسان

هؤلاء القوم، وكان الملاحون مشهورين بالرذالة، والسفالة، والسفاهة.

قال: فلم يقع في خاطري تعلمه منذ ما سمعت هذه المقالة من لسان شيخي، وهو الشيخ الشهير بـ «ذاكر زاده».

أقول: سمعت من حضرة الشيخ أنه **قال:** الخلق خلقان: عرب، وعجم، واللسان لسانان: عربي، وعجمي، والدار داران: جنة، ونار.

فأعطى لأهل الجنة اللسان العربي، ولأهل النار اللسان العجمي.

فإن قلت: ما تقول في قوله ﷺ: «**لسان أهل الجنة العربية والفارسية الدرية**»[1]، وهو حديث مصحح لا غبار عليه، مذكور في الكتب المعتبرة كـ«الكافي» ونحوه.

وأيضًا قد رغّب حضرة مولانا في تعلم اللسان الفارسي والتكلم به، كما يدل عليه قوله: [...][2]، ويؤيده قول الحافظ الشيرازي: [...][3]، وهما من عظماء علماء الشريعة والحقيقة فلا بدَّ لكلامهما من وجه صحيح.

قلت: المذكور في الحديث، وعند الشيخين لفظ الفارسي دون العجمي، ولسان الفرس جزئي من جزئيات لسان العجم؛ فإنه إذا أطلق العجم يتناول الألسنة المختلفة ماعدا العربي، والمقابل للسان العرب وهو لسان العجم، لا ما هو قسم منه وهو الفارسي؛ فإنه يجوز أن يكون لسان أهل الجنة بطريق الاستثناء.

وتحقيقه: إنَّ الله تعالى ألحق الفارسي من بين ألسنة العجم بالعربي، ويدل عليه قولهم: اثنان وثلاثون حرفًا، فإن حروف التهجي هي الحروف العربية ثمانية وعشرون، وألحق بها أربعة أخرى من الحروف العجمية وهي [(پ)، و(چ)، و(ژ)، و(گ)] بالباء، والجيم، والزاي، والكاف الفارسية؛ فصار المجموع اثنين وثلاثين حرفًا على عدد الأسنان ومفاصل الأصابع العشر في اليدين؛ فكان اللسان الفارسي ملحقًا بلسان أهل الجنة.

ومن ثمَّ تكلم به عرفاء العجم، ودونوا دواوين، ورغبوا فيه، وإلا فكيف يتصور من كبار الأولياء أن يتكلموا بلسان أهل النار، ولم يكاشفهم الله تعالى عن حقيقته.

---

(1) رواه ابن المبارك في «الزهد» (1857)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (54/1)، وهو مشهور بنصفه الأول، ولم أقف على تخريج الجزء الثاني من الحديث وهو الشاهد.

(2) كلام فارسي.

(3) كلام فارسي.

قال في «أسئلة الحكم»: ما الحكمة أن الملائكة بأسرها [....] ليلة نـزول القرآن من حضرة اللوح المحفوظ إلى حضرة بيت العزة في سماء الدنيا؟

والجواب: إن الله تعالى إذا تكلم بالرحمة تكلم بالفارسية، والمراد بالفارسية: لسان غير العرب سريانيًا كان أو عبرانيًا، وإذا تكلم بالعذاب تكلم بالعربية فلما سمعوا العربية المحمدية ظنوا أنه عقاب فصعقوا، انتهى.

وقال في «التأويلات النجمية» عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنـزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:2] في أول سورة يوسف أي: إنا كسونا القرآن كسوةً عربيةً، ﴿لعلكم تعقلون﴾ حقائق معانيه وأسراره وإشاراته بها، إذ هي لغتكم كما أنـزلنا التوراة على أهلها بلغة العبري، والإنجيل بلغة السُّرياني، يشبهه به إلى أن حقيقة كلام الله تعالى منـزهة في كلاميته عن كسوة الحروف، والأصوات، واللغات، ولكن الخلق يحتاجون في تعقل معانيها إلى كسوة الحروف واللغات، انتهى.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يتكلم بغير العربية، وهي العبرية: لغة اليهود، والسُّريانية: لغة النصارى.

وأما أنه هل تكلم بالفارسية الدرية أم لا؟ فلم أره في الكتب العبرية، وقد شاع أنه يقول كل يوم مرتين: [...][1].

والعلم عند الله، والدرية منسوبة إلى «در»، وهي ناحية من نواحي «شيراز»، موصوف أهلها بالفصاحة والبلاغة في ذلك اللسان كبعض قبائل العرب في اللسان العربي، أو إلى «در» بمعنى: الباب، وهو باب «بهرام كور» ملوك الفرس؛ فإنه كان يأمر بكتابة المنشور ونحوه باللسان الفارسي الفصيح فنسب إلى بابه.

والحاصل أنه قد دلت الشواهد على أن الفارسية الفصيحة من لغة أهل الجنة، وإن كانت العربية أفضل منها لنـزول القرآن الذي هو أفضل الكتب الإلهية بتلك اللغة، وإن الله تعالى قد تكلم بكلِّ لغة في مرتبة التنـزلات والاسترسالات، لكن لا يلزم منه أن تكون كل لغة هي لغة أهل الجنة، كما لا يلزم أن يكون أهل كل لغة من أهل الجنة.

ولما كانت العربية أفضل لما ذكرنا آنفًا؛ فإن الفارسية اشتركت فيها الأداني والأعالي في هذا الزمان؛ اختار حضرة الشيخ العربية جريًا على الغالب وإلا فالنبي عليه السلام

---

(1) كلام غير عربي.

تكلم بالفارسية، ولو على القلة بيانًا بجوازها، والتحاقها بالعربية؛ فإنه ما جرى على لسان أهل الجنة ألبتة.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «رآني رسول الله ﷺ وأنا أشكو من وجع بطني، فقال: «**يا أبا هريرة**، «**أزنتكم درد**» يعني: أيوجعك؟ قلت: نعم، يا رسول الله، قال: «**قمْ فصل فإن في الصلاة شفاء**»[1] كما في «الأسرار المحمدية» لابن الرومي.

وهذا المبحث لم أجده مفرغًا في قالب على هذا الأسلوب، لكن الله تعالى هداني فأبرزت منه ما خفي على بعض أهل القلوب.

وكان حضرة الشيخ يقرأ كل يوم جزءًا من القرآن، وداوم عليه إلى آخر عمره، وكذا داوم على الورد الذي لقنه شيخه في أوائل سلوكه، وأوصاني بتلاوة الجزء المذكور على أن يكون وردي، وأنا الآن مواظب عليه، والحمد لله تعالى.

وكان يقول بعد آخر كل مجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، استغفرك وأتوب إليك**»[2].

وكان أكثر كلامه عند التعجب: «**لا إله إلا الله، سبحان الله**».

وكان يصلي على النبيِّ ﷺ أعقاب الصلوات المكتوبة إحدى وأربعين مرةً على ما هو الموصى به في الطريقة الجلوتية.

وكان يستعمل السواك عند كل وضوء وصلاة، ويقول إذا قال المؤذن: «قد قامت الصلاة»: أقامها الله وأدامها، ويقرأ المسبعات العشر قبل الصلاة، يحتمل بعد الصبح مع سائر الأوراد، وكان أكثر القرآن في حفظه.

وسمعت منه وهو يقول: إن الله تعالى وفقني لحفظه مقدار جزء من الأدعية المأثورة بل أكثر، وكان إذا دعا لأحد دعا بالألفاظ التركية غالبًا، ولا يتكلف في الدعاء أصلاً بل يدعو بما يخطر بباله، وكان دعاؤه جامعًا على أسلوب غريب يتحير عنده السامع إذ كانت كلماته من الواردات المختصة، فأعجز الخلق في زمانه بتقريره وتحريره، وفاق الكل بإلهامه ورأيه وتدبيره، وهكذا يكون المقلد من عند الله تعالى.

وعن عمر ﷺ أنه قال: «يا نبي الله ما لك أفصحنا؟ فقال ﷺ: «**جاءني جبريل**؛

---

(1) رواه أحمد في مسنده (8715)، وابن ماجه (3449).

(2) رواه مسلم (606).

فلقنني لغة أبي إسماعيل»[1].

وكان حضرة الشيخ يكتب من الخط النسخ والتعليق، وكان إذا كتب لا يترك في الكاغد بياضًا لمزاحمة المعاني الواردة على قلبه.

وكتب مرة إلى سلطان الإقليم القديم سليم كراي خان مكتوبًا عريضًا طويلاً لا يكون مقدورًا إلا لمثله وخطبته هذه: «بسم من اختفى واستتر واحتجب سره في مخافي الحسيات، وسائر الخيالات، ومحاجب الوهميات عن العقول، والفهوم، والعيون، والأبصار.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:103] وليس ذلك إلا لكمال الظهور، وتمام البروز، ونهاية الاتضاح، وتجلى، وبرز، وانكشف نوره في مجالي الكماليات، ومظاهر الجلاليات، ومرائي الجماليات للقلوب، والبصائر، والأرواح، والأسرار، وكذلك قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ﴾ [النور:35] فأبصر مَنْ أبصر، وعمي مَنْ عمي ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18] وبعد إلى آخره، وأنشأ يومًا لبعض خلفائه، وكان طويلَ القدِّ، بل طول خطبته طويلة الفقر، وكتابي، وفي طرف من الصحيفة بطريق المدح: هذه قطعة طويلة يقرأ بقراءة قصيرة» انتهى.

وعنوان الخطبة المذكورة قوله: الحمد لله الذي تجلى في مجالي الذات، والصفات، والأفعال، والأسماء، فأظهر الكمال، والجلال، والجمال في مظاهر الجلاء والاستجلاء، فسبحان من تفرد في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه بالعظمة والكبرياء، ووجد بآثاره، وأحكامه، وتصرفاته، لا شريك له في الأرض ولا في السماء إلى آخرها.

وله عندي من المكاتيب الواردة عليّ بعد إذنه بالخلافة، من السطر إلى الثلاثين، بعضها بالعربي، وبعضها بالتركي، كتاب شريف أتى من شريف بلفظ عجيب، وخط لطيف، [...][2].

وكان ﷺ لا يكتب، ويعلم الخطوط، ويخبر عنها، وعن الصحائف المكتوبة بما فيها، ووجهه أنه لو كتب لقيل: قرأ القرآن من صحف الأولين كما بينه عليه الحق ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:48] ولا حاجة لمن كان القلم الأعلى كاتبه، واللوح المحفوظ مصحفه، إلى تصوير الرسوم، وتمثيل العلوم بالآلات الجسمانية.

---

(1) ذكره الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (321/1)، والسخاوي في «المقاصد» ص (16).

(2) كلام غير عربي.

وجاء في التوراة في حق هذه الأمة: «**أناجيلهم في صدورهم**»[1] أي: يحفظون كتابهم كما في «إنسان العيون».

وقال في «أسئلة الحكم»: إن أمته ﷺ بين أسماء الروحانيين، وصفهم سبحانه وتعالى في الإنجيل بقوله: «نواميسهم في صدورهم» لولم يكن رسم الخطوط لكانوا يحفظون شرائعه ﷺ بقلوبهم لكمال قوتهم، وظهور استعداداتهم.

ولحضرة الشيخ إلهيات تركيات كثيرة متفرقة مجموعة؛ فإنه يكتب حيثما وجد الأوراق البيضاء، ولا يدخر لنفسه شيئًا منها، وهذا كان في أوائله وأواسطه، ثم صار بحيث لا يكتب حرفًا إلاّ أن يكون له داعية في ذلك، وهي المعبر عنها: بالإذن الإلهي.

وعَرضتُ يومًا على حضرته مجموعة ساذجة من النقوش ليكتب لي فيها بعض الوصايا.

فقال: إن وصاياك في قلبك لا حاجة إلى الكتاب، فاجتهد في العمل؛ فإن سيد الطائفة جنيد البغدادي – قدس سره – قال: «علمنا هذا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسنة»[2] أي: العمل، وله معنى آخر: أن الواردة التي ترد على القلب لا تُقبل إلاّ بشاهدين: الكتاب والسنة، وإن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، فظاهره يدل على ما فسره العلماء، وباطنه يدل على ما حققه أهل التحقيق بشرط أن يكون موافقًا للشريعة وتشهد عليه بالحق؛ فإن كل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب والسنة فهي إلحاد وزندقة لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام:59].

وكان حضرة الشيخ يغلب عليه الإعياء والملال في بعض الأوقات من كثرة الكتابة بحسب الاقتضاء، فلما رجع من الحج الثاني في الحادي والتسعين بعد الألف ودخل القسطنطينية أمر هذا الفقير بإنشاء اثني عشر مكتوبًا بعضها بالتركي وبعضها بالعربي.

أما المكاتيب العربية فإلى الشيخ شاهين، وهو شيخ الشيوخ في مصر، وإلى الشيخ إبراهيم اللقاني ونحوهما من أفاضل علماء مصر.

وأما التركية فإلى والي مصر، وصاحب الدفتر ونحوهما من أعيان مصر، وكانوا قد

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (89/10)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (400/2).

(2) انظر: اللمع (ص 144)، والرسالة (107/1)، وتاريخ بغداد (243/7)، وسير أعلام النبلاء (14/ 67)، ومدارج السالكين لابن قيم الجوزية (119/3)، وروضة الحبور (ص 121) بتحقيقنا.

التمسوا من حضرة الشيخ مكاتيبه بعد وصوله إلى وطنه، وأخذوا منه العهود على ذلك فأنجز الوعد، واستنسخ علماء مصر بعض تأليفات حضرة الشيخ التي استصحبها في سفر الحج، وأحبوه حبًّا شديدًا، ورغبوا في تأليفاته، واستفسروا عن الشيخ مسائل مشكلة حاروا فيها فجاءت مُنحلة بإذن الله تعالى.

وقال لي يومًا: لي فتور وملال، أريد أن أستعملك في خدمة.

فقلت: سمعًا وطاعةً، فأمر بإنشاء مكتوبين؛ أحدهما: عربي، وهو إلى سلطان تاتار سليم كراي خان، وكان رجلاً صالحًا مستعدًا يفهم العربية، وكان وقتئذٍ في بلدة «أدرنة» متأهبًا للغزو مع الوزير الشهير بـــ «ابن كوبريلى».

والثاني: تركي وهو لكاتب السلطان المولنكور.

فكتبتُ بلا توقف وتأمل، لكنه لما وصى بكون العبارات سهلة المأخذ، غير وعرة المسلك ما وقفت في التعبير في مكتوب «تاتار خان»، وعنوان هذا: حاوي الفضائل الجمة مدار الأمور المهمة ناصر الدين أبو الغزاة والمجاهدين حضرة الولد المحبوب المبجل عند الناس وعند الله، الأجل لازالت ألوية نصره وغلبه مرفوعة، وبأنواع الفتوح والغنائم مشفوعة، [صاحب] الخاطر، المطيب بالنفحات الأنسية، والقلب المملوء بفيض المشاعر القدسية، حفظه الله سبحانه باسمه الحفيظ عن موجبات الأكدار، وجعل ساحته مبرأة عن الغبار، وصير عنايته، وكذا شفاعة الأنبياء - عليهم السلام - وهم الأولياء وأدعية الأحباء مقرونة مصحوبة بجنابه الرفيع الأشفق، ويجنده الحق إلا ألحق بالنصر المطلق، إلى آخر المكتوب.

وكان حضرة الشيخ يرسل يديه حين المشي، ويضعهما على فخذه حين الوعظ، ولا يحركهما ولا يشير بهما، كما يفعله عامة الوعاظ، ويلزم الأدب ويراعيه في كل شيء لا يلتفت إلى يمين وشمال فضلاً عن الالتفات إلى ما ورائه، وكان يخرج في أوائله وأواسطه يوم التعطيل - وهو يوم الثلاثاء - إلى خارج البلدة يطالع آيات الله وآثاره، وقد يخرج في بعض أيام الجمعة بعد الصلاة إلى الساحل الخالي عن الناس.

ويقول: عينوا يوم الثلاثاء ويوم الجمعة للتعطيل لينفس الطلاب فيها بالتفرج إلى حيث أرادوا أي: بعد الإذن من صاحب الطريقة؛ لينحل بذلك ما عقد الإنـــزواء في البيت، وكثرة الاشتغال من العقد القلبية، ويحصل النشاط الجديد الباعث على زيادة الجِد

والطلب؛ فإنه ورد: «يسروا ولا تعسروا»[1].

وكان يمشي إلى حوائج بعض الفقراء، ويجيب الدعوة، ثم انقطع عنها في أواخر عمره، فكان بحيث لا يجيب لا إلى غني، ولا إلى فقير، ويسلي الداعي مجيبًا من أعذاره.

وكان إذا مشى للوعظ أو لغيره لا يمشي خلفه من الصوفية لا واحد أو اثنان، بل يمشي وحده في أكثر الأيام.

وكان بعد التجمل والتكلف عليه من عذاب جهنم.

ولم يركب دابة وخلفه جمع من المريدين إلا نادرًا بحسب الاقتضاء لضعف المزاج، وبعد الطريق.

وكانت له قوة بدنية بحيث لم يحتج إلى الدابة إلى آخر عمره، وهذا من كراماته الظاهرة لمن له بصر وبصيرة، إذ بعد مضي عمره بالرياضات الشاقة، والصوم الدائم كيف يقوى على المشي حين اشتعل الرأس شيبًا لولا تأييد الله تعالى وتقويته! ويدل عليه كثرة نكاحه إلى آخر وقته.

وكان إذا دخل الجامع للوعظ لا يرضى أن يقوم له أحد، وربما يأخذ نعله بيده ويضعها تحت الكرسي.

وكان يحب الشفاعة سواء قُبلت أم لا، فتارة يشفع بالكلام، وتارة بالورقة.

وكان لا يعرف الحيلة أصلاً، ولا يظن إلا خيرًا، وجاء يومًا فقير مستندًا على عصا، وهو عند الباب، وقد خرج لحاجة، فقال الفقير :يا سلطاني، كانت لي سابقًا وظيفة من بيت المال فقطعوها، فقال حضرة الشيخ: اذهب إلى الوزير، واعرض عليه حالك؛ فإنه يرحم لك، فاعتذر إليه الفقير في ذلك، فأجاب الشيخ بوجه آخر، ولم ينتقل ذهنه النقاد إلى أنه سائل، وإنما يستعطف بما مهده من المقدمات ثم وثم حتى صرح الفقير وقال: يا سلطاني، أنا فقير سائل محتاج إلى الصدقة فارحموني بشيء من الدنيا، فقال حضرة الشيخ مبتسمًا: يا آدم، لِمَ لا تقول هكذا، وأنا ما عرفت مرادك من سوق كلامك؟ ثم أعطاه درهمًا.

وكان في محلة الشيخ شخص من أهل الإنكار كبير في السن جدًا، فكان لا ينظر إلى إنكاره، ويرحم لكبره وبشيبه، فيجوز عليه في كل أسبوع خبزًا وشيئًا من الدراهم، فكان

---

(1) رواه البخاري (76)، ومسلم (3264).

يتردد إلى مجلس الشيخ مستندًا على عكازته، ولم يكن لحضرة الشيخ مجلس متعين في داره بل يجلس في كل مكان، ولا يتربع بل يجلس على ركبتيه دائمًا إلاَّ وقت الضرورة القوية.

وكان التغافل من أخلاقه الكريمة، وربما رأى واحدًا من أتباعه وغيرهم على أمر مكروه فيغمض عينيه، ولا يلتفت إلى جانبه، ويراه كأنه لم يره أصلاً إلاَّ أن يقتضي المقام التنبيه على فعل ذلك.

وكان لا يلتفت في اللباس، ويلبس العمامة الكبيرة على تاج لحضرة جلوتية، ولا يتكلف في تكويرها، ولا ينضح في تدويرها، ويلبس الخرقة البيضاء والخضراء من جوخ، ومن صوف، ومن قطن، ولا يلبس السوداء، ويخالف بين النعل والخف، فكان يلبس الخف الأصفر دائمًا على ما هو رسم الطريقة الجلوتية - بالجيم - بالنسبة إلى المشايخ، ويلبس النعل مرة أصفر، ومرة أحمر، والأكثر الأحمر.

ورأيت في بعض مرآة الزمان نعلاً أسود، وخفًا أحمر، وهو موضوعاتهم، وكأنه يلبس بطريق المجاهدة، وليس بشيء لمخالفة السلف.

وكان حضرة الشيخ لا يخرج إلى الحمام، ويكتفي بما في داره منه.

وكان يحلق رأسه بعض جواريه.

وكان له أربع زوجات، وجوارٍ أخر كلهن للفراش، وخَلف بعد وفاته أربعة بنين؛ الأول: حضرة الشيخ محمد الجودي، الذي استخلفه في مقامه في القسطنطينة، وهو أكبر أولاده الموصوف بالفضل، والكمال، والمعروف بالرشد التام بين الرجل.

ومات حضرة الشيخ وحضرة الجودي من السن الثامنة عشرة، ثم السيد مصطفى، وهو أصغر منه بسنتين، ثم السيد أحمد، ثم السيد عبد الله.

وخلف أربع بنات: صالحة، وحنيفة، وخديجة، وعائشة.

وكان يعاشر أولاده وأزواجه وجواريه معاشرةً حسنةً، وينشد أحيانًا قوله:

يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام[1]

وهو مع ذلك يشدد في التربية والتأديب بحسب الاقتضاء، أو يستوي عنده من في الداخل والخارج في التربية، فربما كان يعزر صوفيًا له لحية كبيرة يستحي منها؛ وذلك لأن التأديب من أسباب الغيظ وجميع المقترفات.

---

(1) انظر: «أخبار النساء» ص (325)، و«مجمع الأمثال» ص (2812).

وكان له في كل من زاويته صاحب طريق يستأذنون منه فيما يأتون ويذرون، وخفف في آخر عمره ما كان يحمل عليهم في أواسطه كالسقاية ونحوها، ولم يخلف مالاً إلا يسيرًا من أثاث البيت؛ فإنه قد أعطى كل ذي حق حقه في حياته، مما يتعلق بالمهور وغيرها.

ووهب أكثر أثاث البيت لمن في البيت من الأزواج والجواري، وأفرز نصيب كل منهن، وقطع عروة النـــزاع.

وكان منكاحًا ومطلاقًا كالإمام الحسن ﵁ وقد سبق سره، فتزوج أكثر من عشرين، وتسرى أكثر من ثلاثين وهو من آياته الكبرى، ووقع الطلاق والنكاح من قبل النساء غالبًا، وطعنه بعض الناس في ذلك، ولم يدر أن كثرة النكاح من أسرار النبوة، وخصائص خواص هذه الأمة، كما أشار إليه قوله ﵇: **«حبب إليّ من دنياكم ثلاث»**(1) ونعوذ بالله من الطعن فيما أذن المشرع الشريف، واستمر عليه الأنبياء والأولياء.

وكان حضرة الشيخ متعبدًا جدًا، ومحبًا للخلوة والعزلة؛ فإن اقتضى الحال أن يخرج إلى بعض الزوار خرج وصحب صحبة دينية، ودعا دعاءً جامعًا لعدل السلطان، ونصرة عسكر الإسلام ونحوها، ثم يعود مقامه.

وكان يأمر بالشُّربة لمن أراد من الزُّوار.

وكان مضيافًا في أواسطه حتى طوى بساط الصحبة بالكلية، فكان لا يدعو ولا يجيب، ويلازم خلوته في بيته.

وكان يفطر قبل المغرب، ثم إذا أداها اشتغل بالذكر، والتوحيد إلى قبيل العشاء، وكان ذلك عادته دائمًا.

ووصى هذا الفقير بإحياء ما بين العشائين أيضًا، يسر الله تعالى.

ورأيت في بعض تحريراته القديمة أنه قال: رزقت بحب ثلاث: تجديد الوضوء لكل صلاة، والحضور إلى الجماعة في كل وقت، والتمسك بالكتاب والسنة في كل عبادة، انتهى بعبارته.

وحجَّ حجتين مرة في أوائله، ومرة في أواخره، وكان يخطر بباله الحج الثالث،

---

(1) رواه أحمد في مسنده (11845)، والنسائي (3878).

وزيارة مشهد الإمام الأعظم لكنه لما نُفِيَ إلى قلعة «ماغوسة» اشتغل بنفسه تجردًا تامًّا، وجعل سفره ذلك بدل سفر الحج، والزيارة المذكورة.

وكان ينتظر قدوم ذي الحجة من سنة اثنتين ومائة وألف؛ فإنه أشير إليه أنه ينتقل فيه إلى دار الآخرة كما سبق بعض ما يتعلق به.

وكان يقول في آخر عمره: قد حصل المراد من الدنيا، والآخرة، والعلوم الظاهرة والباطنة فلم يبق شيءٌ لم أقل إليه إلا أني مقصر في الشكر والعبودية.

وكثيرًا ما يبكي ويقول: إن البكاء ابتلاء من الله تعالى، والله يعامل عباده بما شاء، ويبليهم بما أراد.

وكان شجيعًا بحيث لا يطاق، ثم صار في أواخره إلى حيث يقول: وأي حلم، وتحمله كالحليم يكون نبيًّا.

ولو لم أره ولم يوفقني الله لصحبته لكنتُ ممن قرأ الكتاب، ولم يدر معناه؛ فإن الله تعالى عرفني أخلاق أنبيائه، وعلومهم، وسيرهم بأخلاقه، وعلومه، وسيره، وإن كان بين النبي والولي فرق كثير؛ فإن علم الولي بالنسبة إلى علم النبيِّ كالقطرة بالنسبة إلى البحر، ولو لم أجده اختل أمري من كل وجه، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ لغلبة الجهل على أهالي الزمان، واستيلاء التقليد والدعوى من غير برهان، وظهور الزندقة والإلحاد بين المتصوفة، ونعوذ بالله من الخذلان، ولكن الله تعالى أرسل روحًا من أرواحه الطيبة، وأوحى إليه ما شاء من العلوم الباطنة، والظاهرة فعمَّ دعوته، وخصَّ الهداية بمن يريد كما قال الله تعالى:﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:25].

وقد سبق أن حضرة الله أعطى حضرة الشيخ مصحفًا شريفًا، وأمر بدعوة عباده إلى جنابه فطوبى لمن أجاب الداعي بقلبه وقالبه ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ [الأحقاف:32] (1).

---

(1) قال الشيخ المصنف: قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:31].

إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى =

=

الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم**».

حيث أثبت اللذَّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلُف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

نعم فرق بين نعيم الملائكة، والجن، والإنس.

أمَّا الملائكة: فنعيمهم روحاني لا غير؛ لأنهم خُلقوا من النور، وغلبت عليهم اللطافة الروحانية؛ فصاروا في الأجسام اللطيفة؛ كالأرواح؛ ولذا كانت موتتهم غشية لا كموتة مَن عداهم؛ وهي مفارقة الأرواح من الأجسام الطبيعية كما دلُ عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:35].

ثم إن نعيمهم الروحاني؛ هو حضورهم مع الله بقدر مراتبهم، وأمَّا ثواب أعمالهم فللمؤمنين كما ورد في النصوص.

وأمَّا الجن: فنعيمهم جسماني وروحاني جميعًا؛ لأنهم وإن شاركوا الملائكة في دخولهم تحت الاسم اللطيف؛ لكنهم فارقوهم من حيث إنهم خُلقوا من مارجٍ من نار، فإنه ثبت لهم الأكل الجسماني، فلهم بعض الكثافة من حيث خِلقتهم، وكونهم من أهل الأكل الجسماني، وإن كان مأكولهم عَظمًا ونحوه.

ولا شك أن مَن يأكل، ويشرب، وينكح في الدنيا؛ فله ذلك في الآخرة على تقدير إيمانه؛ لأنه لا نعيم للكافر في النار؛ بل طعامه الزقُوم، وشرابه الحميم والصديد، ومَن كان له نعيم جسماني في الدنيا؛ فله نعيم روحاني فيها أيضًا؛ لأن نفخ الروح لا يختصُ بمؤمن، ولا كافر؛ ولذا صحَّ بعض الأحوال الروحانية للكافر أيضًا في الدنيا كما حُكي عن بعض الفلاسفة، وأهل الرياضات، ومَن كان من أهل النعيم مطلقًا في الدنيا، وهو مؤمن؛ فله ذلك في الآخرة أيضًا، ومن جملة ذلك الرؤية.

نعم فرق بين نعيم المؤمن من الإنس، وبين نعيم المؤمن من الجن؛ لأن الإنس أكمل في العلم والعمل من الجن؛ فنعيمهم صورة ومعنى بقدر حالاتهم ومراتبهم؛ كالملائكة، وأمَّا الإنس فلهم النعيم مطلقًا، ونعيمهم أكمل من نعيم الجن؛ لكمالهم في باب العمل، وبلوغهم الغاية القُصوى في المعرفة الإلهية، وذلك لجمعية نشأتهم.

وكذا نعيمهم الروحاني أكمل من نعيم الملائكة؛ لأن الملائكة على جناح واحد إذ ليس لهم ما للإنس من الجمعية، فأين ذو الجناح الواحد من ذي الجناحين؟ وإذا عرفت هذا عرفت أن الله بين الملك، والجن، والإنس صورةً، ومعنى، فمَن قصد إدخال الجن في جنس الملائكة، وجعل سعداءهم، وأشقياءهم؛ كسعداء الإنس، وأشقيائهم؛ فهو لم يعرف حقيقة الحال، وجهل بالمقام،

=

وقد ألزم الله تعالى بـــ «حجة»، وقال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾: [النساء:165]، ودخل الورثة في الرسل؛ لأنه ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنــزِلَ إِلَيْهِ

وإن كان له شأن بالأمر.

وقال في موضع آخر: قال حضرة الشيخ: صدر الدين القونوي قُدِّس سرُّه في تفسير الفاتحة: وأمَّا الجن فنحن لا نشك أنهم يجازون على أفعالهم؛ لكن لا نتحقق إنهم يدخلون الجنة، وإن المؤمن يجازى على ما عمل من خير في الآخرة، فإنه لم يرد في ذلك نص، ولا نعرف من جهة الذوق في هذه المسألة ما يوجب الجزم، فقد يجنون ثمرة خيرهم حيث شاء الله تعالى انتهى.

وقال شيخي، وسندي السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه في شرح التفسير المذكور: وقد عرفت من جهة الذوق حيث يجنون ثمرة عملهم الخير بإذن الله وفيضه؛ لكن لم أكشفه؛ بل أكتمه بتعيُّنه لمَن كتمه، ولم يكشفه انتهى.

يقول الفقير: أفاض الله عليه سجال فيضه الكثير: هذا من المسائل التي توقَّف فيها أكثر الأئمة والعلماء لِما أن ظاهر قوله تعالى: (وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)، يدل على أنهم لا يدخلون الجنة، وإلا لنصَّ الله عليه بعد ذكر الإجارة؛ كما فعله في حق المؤمنين من البشر في مواضع من القرآن.

والظاهر أن الاقتصار على الإجارة؛ كالاقتصار على الإنذار في نحو قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:2]: أي قم فأنذر الكفار بعذاب النار، فإن إجارتهم منه موقوفة على إنذارك، وانتفاعهم به؛ وذلك لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية، وذلك لا يقتضي انحصار حالهم في الإجارة.

فكذا في حق الجن فإنهم إذا كانوا تابعين للبشر في الأحكام، والتكاليف؛ كان حكمهم حكم البشر في كل من الإجارة، والإثابة موطنها المبشر به الجنة، هذا وكأنهم أخرجوهم عن حكم البشر في ذلك لأمرين: الأول: قصورهم في باب الأعمال، والمعارف الإلهية بحسب نشأتهم النارية، والثاني: إنهم داخلون تحت الاسم اللطيف؛ كالملك؛ لغلبة الروحانية عليهم؛ ولذا كان غذاؤهم الاسترواح، والاستشمام، ونحو ذلك لا على نحو الغذاء البشري.

فلمَّا كانوا على جناح واحد من الأمر؛ فإنهم جلاليون فقط، كما أن الملائكة جماليون فقط، وكان الغالب على نشأتهم الروحانية؛ اقتضى الذوق أن يكون نعيمهم غير النعيم الحسِّي؛ بل الخيال المتصل بعالم المثال المطلق، وذلك في مقام الأعراف؛ فإن الأعراف كما أنه سور بين الجنة والنار؛ باطنه في الرحمة، وظاهره من قبله العذاب الناري بحسب نشأتهم النارية؛ فكذا عالم الخيال المقيَّد، والمثال المطلق؛ برزخ بين العالم الروحاني، والجسماني، فنعيمهم روحاني من حيث تجرُّدهم، وخيالي من حيث تلبُّسهم بالجسم اللطيف؛ كالملك.

كما أن نعيم البشر روحاني، وجسماني حسِّي من حيث تعلُّقهم بالجسم الكثيف، وإن كانت أجسامهم تتلطَّف هنالك بتلطيف العناصر، والخيالي غير الحسِّي؛ فإن الحسي أقوى منه.. هذا ما أُلقي في البال، والله أعلم بحقيقة الحال. انظر: مرآة الحقائق (370).

مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:285]، وآمن وارث الرسول أيضًا بما أُلهم إليه من ربه، والمعتقدون فلكل منهم حظ من الدعوة والإرشاد، وإلزام الحجة على العباد.

ولحضرة الشيخ أوصاف غير محصورة فقد أدرجنا في هذا الكتاب ما ينبئ القليل منه عن الكثير، كما أن الحفنة تدل على البيدر الكبير قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:126]، وكان الله تعالى محيطًا لا محاطًا، فكذا من تجلى له بهذه الصفة، فكيف يحيط به نطاق البيان! والله أعلم بحالة أهل العرفان.

الفصل السادس عشر /
في انتساب هذا الفقير إلى حضرة الشيخ

اعلم أن هيولي العالم كله روحانية وجسمانية، وهو النَّفَس الرحماني وهو التجلي الوجودي يتعين ويصير أعيانًا موجودة، كما أنَّ هيولي صور الحروف والكلمات والكلام هو النَّفَس الإنساني المنبسط على تلك الصور، ولولا هذا النَّفَس شرفهم ما كان في عالم الإمكان، وقد خلق الله تعالى في سماواته وأرضه مظاهر لهذا النَّفَس النفيس، وشرفهم بجعلهم رأس كل رئيس.

ألا ترى أنه خلق ملوك الأرواح ونصب لهم ملكًا مسمى بروح القدس، فلمَّا كانت الأبدان تجلى بالروح الإنساني كذا الأرواح تجلى بالروح القدسي الرحماني فإنه لا بدَّ من وساطة نفخ الروح في الحياة الحقيقة الحقانية.

ولما أراد الله تعالى أن يتعين روح الله أمر روح القدس بالنفخ في جيب مريم؛ فانبسط في رحمها؛ فتكون عينًا، وإن شئت قلت: روحًا؛ للطافة جوهره، وبساطة هيولاه، فانظر إلى الرحم القابلة لفيض الروح ما أشبهه التراب الطاهر القابل لفيض الغيث فمر بها فحييت كما أن فرس الحياة لا تمشي كانت لا تمر بشيءٍ، أو تمر بشيء، ولا يجد شيءٌ ريحَها إلا حيٌّ.

ومن هنا ورث روح الله من الحياة، وسر النفس والنفخ، ولذا قال الحافظ: [...][1]، وقد أصاب في ذلك فالكلام في الفيض والقابلية له، وظهور أثر هذا الفيض هو الولادة الثانية كما قال عيسى عليه السلام: «لن يلج ملكوت السماوات مَنْ لم يولد مرتين»[2] ففي الولادة الأولى الجسمانية مرَّ بصور السماوات، وظواهرها، وصور العناصر، وصور المواليد حتى تعين نطفة، ثم علقة، ثم مضغة أي: تعين في كل نشأة بحسب صورتها؛ فعند تمام الخلقة في الرحم نفخ الله الروح كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29][3] وهو عبارة عن تعين الروح ولظهوره لظهور النار من روحي، وهو عبارة عن

---

(1) كلام غير عربي.

(2) ذكره الألوسي في تفسيره (473/1).

(3) قال المصنف: فإنما أفرده؛ لأن ذلك راجع إلى الذات، وهي واحدة بخلاف الصفات، والمراد بالروح؛ النفس الرحماني؛ لأن كل ذي روحٍ إنما يتنفس بالروح؛ لكن إضافة إلى نفسه؛ لأن المراد =

تعين الروح غير إيقاد، والتعبير عنه بالنفخ للتفهيم؛ لأنه المفهوم عند الناس، والعقل قاصر عن دركه فتمَّ إنسانًا، واحتجب بلباس البشرية، وهو لباس الصورة؛ فبعد عن المعنى مع قربه.

وفي الولادة الثانية انخلع عن ملابس الصور، وولج الملكوت، وهو باطن كل شيء وسره.

فالأولى حصلت بإلقاء بذر النطفة في أرض الرحم.

والثانية بإلقاء النفس الإرشادي في رحم استعداد الطالب، فمنْ تمَّ له المدة بعد التقلب الكثير في أطول المجاهدات الشاقة، والرياضات الشديدة قبل نفخ الروح من تربية المرشد، وظهر ظهورًا ثانيًا في عالم الملكوت، وجد ولد قلبه، وشم منه رائحة الحقيقة؛ فصار طفلاً بعدما كان جنينًا، وصار شابًّا بعدما كان طفلاً.

وهكذا إلى أن يلهمك له العلم بالله، والتحقق بجميع المراتب؛ فإن هذا العلم إنما استكمل بعد سنة من أول ظهوره، كما أن العقل إنما يستكمل في الأربعين، يعني: إن التحقق بالفناء التام، والوصول إلى الغاية التي لا غاية وراءها إنما يحصل في تلك المدة.

وقد أجرى الله عادته على ذلك، فلا يطمع أحدٌ فيه قبلها؛ فإن العلم وإن كان متقدمًا لكن التحقق متأخر مع أن درجات العلم متفاوتة، وليست البداية، فقد عرفت أن الروح إذا مرَّ بشيءٍ حيا من قوة تأثيره.

وليس حال الأولياء أدون من فرس الحياة؛ فإنها صورة السر الذي أودع الله فيهم، فهم إذا سكنوا في قرية، أو مروا ببلدة حيا ببركة أنفاسهم الطيبة ما قضى الله له الحياة أيًّا كان بقدر استعداده لظهور النفس فيه.

وقد صرحتُ فيما مضى أن حضرة الشيخ – قدس سره – استخلفه شيخه بإشارة من الله تعالى في قصبة «آيدوس» التي هي مسقط رأس هذا الفقير سُمِيَ الذبيح إسماعيل

بــه الروح الإنساني الذي هو مظهر سرِّ الإلهي، لا الروح الحيواني الذي هو مدار الحسِّ والحركة، فإن ذلك من شعبه.

ويــشارك الإنسان فيه جميع الحيوانات بخلاف الروح الإضافي، والملك وإن خُلق من نور؛ لكن لــيس لــه مــن الروح ما للإنسان منه؛ ولذا أضافه تعالى إلى نفسه؛ لأن الإنسان هو الذي صار خلــيفة الله، وجمع جميع الأسماء على جناح الجمال فقط، والجن على جناح الجلال فقط، وسائر الأشياء دون ذلك في الأسرار بالفعل، وإن كان في كل ذرة ما في الكل.

حقي - أصلح الله حاله، وجعل إلى الحيز مآله - وكان والدي مصطفى ﷺ ساكنًا في القسطنطينية قبل الحريق الكبير، فلمَّا وقع الحريق، وعمَّ حتى احترق داره وكانت في الجانب الشهير بـــ (آق سراي) انتقل منها إلى القصبة المذكورة ببعض العلاقات الواقعة بينه وبين أهاليها، وتوطن فيها، فكان ولادتي هناك.

وكان لأبي وأخي الكبير إبراهيم معارفة قوية بل ألفة شديدة مع حضرة الشيخ حتى كانوا يخرجون في بعض الأوقات إلى المصلى يرمون السهام ويتناضلونه، وكان أبي يذهب بي إلى حضور الشيخ وأنا ابن ثلاث سنين، وكان يلاطفني ويمازحني، ولذا قال - قدس سره - يومًا: أنت أكبر أولادي، وأقدم تلاميذي وخلفائي؛ فإنه لي معارفة بك منذ كنت ابن ثلاث، ولي نظر عليك من تلك المدة.

أقول: فكان يعرفني زمان طفولتي، ثم لما نقله الدهر من دار إلى دار، وبلغت سبع سنين ماتت والدتي - رحمها الله - فكنت عند حضانة جدتي.

وأرسل حضرة الشيخ إلى القصبة خليفة مقامه، يقال له: الشيخ أحمد، قرأت عليه بعض الكتب الصوفية.

وكان لحضرة الشيخ خليفة في بلدة «أدرنه» يقال له: الشيخ السيد عبدالباقي، وكان متعينًا في زمانه عند السلطان، ومن دونه رباه حضرة الشيخ حين كان في قصبة «أيدوس»، وله قرابة نسبية به، ومعرفة بأبي أيضًا وبي وبإخوتي.

وكان قد شدَّ الرحل لزيارة أقاربه في بلدة مسماة بـــ «شمنى» وهي بلدة الشيخ أيضًا، فلمَّا اجتاز بالقصبة، ورآني قد ماتت والدتي طلبني من أبي وجدي؛ لأجل التعليم فرضيت بذهابي معه إلى «أدرنه»، فاستصحبني وأنا ابن إحدى عشرة سنة، ولي خط مقروء، وقرأت في بعض العلوم؛ فإن الله علمني القرآن وأنا صغيرٌ جدًّا، وكان أخي الكبير يتلمذ مني مع مشي إلى الكُتَّاب بنحو عشرين شهرًا.

فكنت عند الشيخ السيد عبد الباقي في بلدة «أدرنه» سبع سنين قرأتُ عليه الصرف، والنحو، وحفظت الشافية والكافية من الأول إلى الآخر، وقرأت رسائل المنطق مع الاستظهار التام، والملتقى من الفقه، وشرح العقائد في الكلام مع شرح رمضان، وحواشي خيالي حلبي، ورسائل من فن الآداب، ومفتاح العلوم للسكاكي في المعاني والبيان، وشرح المنار في الأصول، ورسائل كثيرة من الفنون الجزئية، والثلث الأول من تفسير البيضاوي، وكان أكثر كتبي بخطي.

وورثت من والدتي اثني عشر ألفَ درهمٍ، صرفت بها إلى الكتب، وبعضها إلى معاشي.

وقرأت على خليفة آخر لحضرة الشيخ بعض الكتب من الفقه والكلام، وأرسلت اللحية في «أدرنه» وأنا ابن ست عشرة.

ثم كتب الشيخ السيد عبد الباقي كتابًا إلى حضرة الشيخ في القسطنطينة، وأرسلني إليه لاستكمال ما بقى من التربية، فعند دخولي عليه قرأ الكتاب، وسأل سائل ثم أعطاني البيعة في ذلك المجلس، وعيَّن أورادًا، ووصَّى بالصوم الدائم، وكان وقتئذٍ يقرأ عليه بعض الطلبة في الآداب، فجعلني أحد شركائهم نقرأ هذا الفن، والكلام، وعلمَ الفرائض مرتين، ثم قرأت عليه المطول، وعلق حاشية عليه وقتئذ.

وكان من دأبي أن أحرر بعد الدرس كلَّ تقريرٍ صدر منه أثناءه حتى ملأت من الأوراق المتفرقة كيسًا كبيرًا، وعرفت أن تحرير الأستاذ كالسوط لتلميذه، ومن ثمَّ أُخذ مُسند كلِّ عصر في التحرير تجديدًا للعلم؛ فإنه قد يخلق ويبلى، وتنشيطًا للطالب، وتحريكًا لذهن السالك، وإبقاءً للآثار النافعة مع أنه قد قيل: كم ترك الأول للآخر علمًا كثيرًا ترك المتقدم للمتأخر.

فلا يزال أهل الفطنة يزيدون في وجوه العلم، وأنظاره إلى يوم القيامة؛ فإن علومهم مرتبة النفس الملهمة، والقوة الوهمية، والخيالية بتعالم الظنون والشكوك، وبتلاطم أمواج الأفكار.

وأما علوم أهل العيان فخالصة عن شوائب الأنظار والاختلافات، إذ هي من صنيع واحد هو فيض الله، ومحل واحد هو مرتبة النفس المطمئنة وما فوقها، ومخالفة بعض مشايخ الحقيقة للبعض إنما هي من بقية النفس الأولى، فافهم تفُزْ.

ثم قرأتُ من حضرة شيخي «التنقيح في الأصول» وهو كتاب غامض جدًّا، ومثله «التوضيح والتلويح»، وكان لحضرة الشيخ شرح على التنقيح كما أسلفناه.

وقرأتُ علم التجويد على - فريد الورى - الشيخ محمد القراء، وكان متعينًا في وقته، ماهرًا في العلوم كلِّها، واعظًا في بعض الجوامع الواقعة في سواحل القسطنطينة.

وقرأتُ الفارسية على بعض الأساتذة، وطالعت دواوين الحافظ، وكتاب «كلستان وبستان» مع شروحه، وكتاب «بهارستان» للجامي، و«نكارستان» لعَلامة الروم ابن الكمال، و«المثنوي»، والكتاب فيه ما فيه، و«تفسير الحسين» للواعظ المتلقب بالكاشي،

ودواوين أُخر من هذا الفن كديوان «ظهير الفاريابي»، والحكيم الأنوري، وكمال الحميدي، والمولى الجامي، وغيرها من المنظوم والمنثور.

ورأيتُ أنَّ حُسن الخط من أسباب الرزق مع ما فيه من منافع أُخر، فرجعت إلى [مهرة] [1]، وصرفت شطرًا من الزمان إليه، لكن عاقتني الاشتغالات المدرسية عن تكميله ولا ضير؛ فإنه ليس من قبيل المقاصد بل من الزين، كما قيل: الكتاب بستان، والخط نرجسه، أي: زينته؛ لأن زينة البستان إنما هي بالأوراد والأزهار، ونعم ما قيل: أجود الخط أبينه، فمن كان له خط أبين نسخًا أو تعليقًا فقد أخذ حظه من حُسن الكتابة، وإن لم يكن في مرتبة الخطاطين.

وكان أصل الخط النسخي هو الخط الكوفي في نقله إلى طريقة العربية وزير المقتدر وهو المعروف بـــ «ابن البواب» وزاد في تعريب الخط ثم جاء ياقوت المستعصمي الذي بطل بعزائم قلمه سحر هاروت، وتجلت الرقاع من كتبته، واسمه الدر والياقوت، وأكمل الخط العربي، وزاد في حسنه العرضي؛ فكان خطه خاتمة الخطوط، فله سر الختمية في هذه الصناعة.

فهؤلاء مظاهر سر القلم الأعلى، واللوح المحفوظ بقدر مرتبتهم، ويتبعهم من يقلدهم في صناعتهم.

وقد ذكر الله تعالى في مواضع من القرآن القلم والكتابة، وكل معرفة، وصناعة، وفيض إلهي، وتجلٍ خاص رحماني أبرزه في مظاهره لإشاعة كمالاته، وإذاعة شؤوناته، علمه من علم، وجهله من جهل.

وكان لي صديق من أكابر القسطنطينة فوهب لي يومًا صحائف لطيفة فارسية واستدعى مني أن أكتب على بعضها بعض القرائح لتكون تحفة له، ومخزونًا عنده، فأجبته إلى ذلك، فحررت من علم التوحيد، والمفارق، واللطائف ما يبلغ أجزاؤه إلى العشرة، فهو أول ما أفرغته في قالب السطور، وقد وقع في دار السلطنة القسطنطينة، فهو الآن عندها.

ثم إني رأيت قبل انتسابي إلى حضرة الشيخ وبعده منامات صادقةً تدل على نعم الله تعالى عليَّ.

(1) هكذا في الأصل.

فمنها: ما رأيته وأنا مراهق أن شخصًا ناولني إبريقين كبيرين في أحدهما ماءٌ، وفي الآخر شربةُ عسلٍ، فاخترت الذي فيه الشربة، فقال: أصبت.

ومنها: ما رأيته بعد البلوغ، وهو أن شخصًا بيده كتاب من كتب الأحاديث قال لي: خذ، فلمَّا أخذته خطر ببالي التفاؤل، ففتحت من النصف - وخير الأمور أوسطها - فإذا رأس الحديث في السطر الأول: يا إسماعيل كمِّل المرتبة الإسماعيلية؛ فإن الإبراهيمية فوقها.

ومنها: أن حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - قَبَّلَ فمي، وقَبَّلتُ رجلَه، وقد سبق تحقيقه في فصله.

ومنها: أني رأيت أبا البشر آدم عليه السلام على جمل وحوله أناسٌ كثيرون، وهو على هيئته في الدنيا، وله لحية كبيرة جدًّا فمَرَّ من طريق المعتبرة، وأنا ناظر إليه فكأنه دخل دار السلطان، فتبعت أثره فدخلت فيما دخل ثم انتبهت، ودلت هذه الرؤيا على اشتراكي به في بعض الأحوال العارضة؛ فإنه ابتلي بالخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، وقاسى شدائد كثيرة، ووقع لي أيضًا ابتلاءٌ ببعض الأشرار، ونقل من دارٍ إلى دارٍ، وسيأتي تفصيله.

ومنها: أني رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الناس: إن وجودك الشريف كيمياء، فهل لهذا المقال حقيقة؟ قال: نعم، لكن يظهر أثره بعد الألف.

ثم قلت: قد قالوا أيضًا: إن تحت الأرض بحرًا فيه ألفُ مدينةٍ، فماذا تقول أنت يا رسول الله فيه؟ قال: هو واقع كما قالوا، فرأيت كأني متوجه إلى تلك المدن بالخلافة.

ومنها: ما لا أذكره، أمر عظيم لا تقبله الأذهان السقيمة، ومحصوله الاشتراك بحضرة شيخي في بعض ما أوتيت من جلائل أحواله.

ومنها: ما رأيت صورًا سبعًا كل منها إشارة إلى مرتبة من المراتب السبع، وأعلاها الذهب فأشار إليَّ بعض أولياء الله تعالى بأن هذه مراتبك، والذهب إشارة إلى مرتبة الحقيقة؛ لأن الناس كالمعادن، وأعلاها الذهب ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:5].

ومنها: أني متُّ، وفنيتُ؛ فجاءت الروح حدًّا بالجسد، فعرفت كيفية السؤال والجواب.

ومنها: ما رأيت كأن القيامة قد قامت، وجرني إلى موضع الحساب فسأل سائل من مسائل شتى فما توقفت في الجواب بعون الله تعالى، ثم جاء حضرة الشيخ وفي يده خبز

فغمسه في عسل في إناء فعض نصفه وناولني نصفه الآخر، قال: كل هذا واجب عن كل مسؤول في الظاهر، فعرفني الله بعده أسرار أسمائه، ومظاهره على التفصيل، وسر الخلافة على التخصيص، فلم يبق مسؤول إلا أجبت عنه.

ومنها: ما رأيت في السنة الخامسة والثمانين بعد الألف، وكنت أقرأ «المطول» على حضرة الشيخ وهو أنه - قدس سره - قال لي: ادن مني وتعال يا إسماعيل، وهو مشير بيده حتى أرى هل جاء لك استعداد في طريقتنا هذه؟ فدنوت منه، فأخذ رأسي على حجره، فوضع يده عليها كوضع العائذ يده على رأس المريض، فقال: جاء لك، فقرأ سورة الفاتحة، ونفخ عليَّ من القرن إلى القدم، ثم قال: استخلفتك في مدينة «بروسة»، فاستيقظت، وقد وقع لي في عالم المثال المطلق والحس أيضًا ما يبشرني بالسعادة الأزلية لا أذكره للعهد المأخوذ من أهل هذا الشأن، والحمد لله المنعم المحسان.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:58] والفضل واسطة، والمقصود هو الله، فبالله فافرح لا بغيره.

ثم إنه لما تمَّ أمر النظر والاستدلال غسلت الكتب بالماء، وجعلت النظر إليها، وفيها نسيًا منسيًا، وذلك حضرة الشيخ - روَّح الله روحه - دعاني يومًا إلى حجرته الخاصة، فقال بعد الملاطفة الكثيرة لما كانت عادته معي: قيل إنك غير محتاج إلى الخلوة والرياضة كسائر الصوفية إذ ما حصل لغيرك بها حصل لك بدونها، والحمد لله، ولكن أشير إليك بالخلوة تسعين يومًا لبعض المنافع الصورية والمعنوية، فقلت: سمعًا وطاعةً، فقال: فاذهب إلى جامع «زيرك»، وتخل في زاوية منه إلى تمام تلك المدة، وكان الفقراء يتخلون فيه بعد تحصيل العلم، فقد سبق أن القبة المتصلة بالجامع المذكور كانت خانقاه لحضرة الشيخ، فقبَّلت يده المباركة بعد أخذ شرائط الطريق، ووصايا الخلوة منه، وذهبت إلى الجامع واحتجرت في زاوية منه لحضرته، ومعي في الخلوة شريكان لي كل منهما في زاوية على حدة؛ أحدهما: المولى علي الدبروي وكان رجلاً مجاهدًا، والثاني: السيد محمد القرين أبادي.

واشتغلت بذكر الله آناء الليل والنهار بقدر الطاقة والاقتدار، فرأيت في الليلة الأولى كأني عند باب السلطان أنتظر ركوبه فطلع الشمس، وأشرقت الأرض بنور ربها، وإذا السلطان قد ركب ومعه ندماؤه وجنده، وفي خارج الباب طرق ثلاثة:

أحدها متعارف مسلوك، والآخران بخلافه، فلما خرج أخذ واحدًا من غير مسلوك

فسلك فيه.

فقلت: إنه غير مسلوك، فقيل لي: بدايته وإن كانت ضيقة غير مسلوكة، لكن نهايته صحراء واسعة، موضع الصيد والانبساط.

فما زلت ألازم بابه حتى عاد يومًا إلى داره، ودعاني إلى حرمه، فلما تشرفت بمجلسه كلفني أن أقرأ إلهيًا، فقرأت واحدًا من مدائح النبي ﷺ فاحتظ غاية الاحتظاظ، وأعطاني دينارًا كبيرًا مدورًا قدر الكف، بل أدور، وأبسط، فانتبهت.

فلما جمعني المجلس مع حضرة الشيخ عرضت عليه الرؤيا؛ فقال: إن السلطان هو الروح السلطاني، والجند قواه، والطريق المتفاوت المسلوك طريق الشريعة، والطريق المتفارق هو المعرفة والحقيقة، وهما وإن كانا ضيقين في أول الأمر في مرأى الناس لكن السالك يجدهما في نهاية الأمر واسعين جدًا، ولكونه في أول الأمر كذلك نرى الناس لا يتخذونها سبيلاً، ويصدون عنها صدودًا، وإليه الإشارة بما ورد: «**حُفت الجنة بالمكاره**»[1].

ولسلطان الروح صيود كثيرة في منتهى ذلك الطريق، وهي الأسرار التي اطلع عليها بمظاهر الأسماء كما قال في «المثنوي»: [...][2].

فإن الخيالات هي المظاهر التي يعبر عنها بالكون، والخيال والوهم ونحوها، وهي مصيدة الأولياء؛ فإنهم يصيدون في كل منها سرًّا من الأسرار، فيرون الإنسان مظهر الاسم الجامع، والجن مظهر الاسم اللطيف، والملك مظهر الاسم القوي، والحيوان مظهر الاسم المذل، والنبات مظهر الاسم الرزاق، والمعدن مظهر الاسم العزيز، إلى غير ذلك.

وهذه المظاهر كلها عكس صفات الذات الإلهية؛ فإنها كالظل الذي أظل، وسلوك السلطان إشارة إلى العروج والصعود، وعودة إلى النــزول والهبوط.

ومديح النبي ﷺ إشارة إلى المحبة له، وأنه هو الوسيلة إلى وصول المطلب الذي هو الحقيقة المعبر عنها بالذهب.

وسعة الدينار إشارة إلى سعة دائرة الحقيقة الموهوبة لك.

ثم قال: لا تنظر إلى حال الرؤيا كثيرًا بل اجتهد أن يحصل لك المطلوب في عالم

---

(1) رواه مسلم (5049).

(2) كلام تركي.

التعين والمثال المطلق.

أقول: كان دأبه – قدس سره – ألا يلتفت إلى الرؤيا إلا قليلاً، وكان يقول: أنا لا أرى الواقعات الحسنة بل إذا بدا مني سوء أدب، وعيب يدخله الله في عيني، فهذه رؤياي.

أقول: وكان السلف يرون انكشاف العيوب أولى من ظهور خوارق العادات، إذ رب أهل كشف لا خبر له عن عيب نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:9، 10]، وهذا معنى غفل عنه أكثر الناس بل أكثر السُّلاك، وكذا رغبوا في أهل الكشوف، ورغبوا عن أهل الفناء، والعلم بالله الذي هو المقصود الأصلي من النـــزول إلى رتبة الإنسانية، لا كشف ما هو من الكون دون الإله.

ثم إن حضرة الشيخ أمرني بخدمة الفقراء كطبخ طعامهم، وكنس الزاوية، وغسل الأواني بعد الطعام، ومسح السفرة ونحوها، ثم أمرني بالوعظ مقامه.

ثم أرسل شريكي المولى علي الدبروي إلى قصبة «أشتب» بالخلافة، وهي قصبة كبيرة لطيفة من القصبات الرومية، وظهر منها الشيخ المعدلي، والشيخ محيي الدين رومي، وكانت بين القصبات الرومية كمدينة «بروسة» بين المدن الأناطولية استولى عليها الكفار خلال المائة الأولى من الألف الثاني، فكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:259].

ثم اجتمعت شرذمة من الناس فعمروا بعض أماكنها، وكان بعض الأمراء أراد أن يبني لي فيها زاوية، وذلك قبل الاستيلاء بسنين، فأبيت إذ الخليفتان في محل واحد من شيخ واحد خلاف دأب السلف؛ لأنه كروحين في بدن واحد.

وأرسل شريكي السيد محمد القرين أبادي إلى بلدة «سيروز»، وهي بلدة كبيرة معمورة من البلاد الرومية، وفيها قبر الشيخ بدر الدين محمود المصلوب في زمن السلطان محمد الأول، وقضيته مذكورة في التواريخ، وله جامع «الفصولين»، وكتاب «الواردات»، وسألت الشيخ عن كتاب «الواردات» فقال: ليس بشيء، وفيه سقط كثير، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:3].

وقال: الفيض الكامل هو الخالص من الخطور والخيالات والشكوك، والمؤيد بالكتاب والسنة.

ولم أر في هذا الباب مثل الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين قونوي – قدس الله أسراهما – فإنهما كاملان في الفيض الخالص، مؤيدان بالكتاب والسنة، ومثلهما في

المتأخرين حضرة الشيخ اقتادة وحضرة الشيخ الهدائي - قدس سرهما - فإنهما وإن لم يكن لهما كثير كلمات في المدن لكن إشاراتهما تفصح عن حقيقة حالهما في أمر التمكين، والذوق الصحيح، والمشرب الخالص.

أقول في مدحهما، ومدح حضرة الشيخ:

كـــل من كان على الأرض فان　　أيهـــا الكاملـــون في المعـــرفة
ذكـــرهم لا يمـــوت كل زمان　　عـــند أهـــل العـــناية العظمـــى
فاعلمـــوا هـــم الإنـــسان　　غيرهـــم لا كـــلام نـــسناس
ثم شـــيخي ومرشـــدي عثمان　　مـــنهم اقـــتاده ثم محمـــود
جلوتـــيون نـــسبة في الـــشان　　هـــؤلاء الأجلـــة العـــرفان
في الـــشيوخ الـــذين في الدوران　　لم يـــر الدهـــر مـــثلهم أصـــلاً
لمقـــالي جديـــرة الـــبرهان　　خـــتم الله بهـــم أهـــل ولاء
في لـــسان وزمـــان ومكـــان　　فانظـــروا بعـــدهم إلى الآثـــار

والخليفتان المذكوران ماتا في «الأشتب»، و«سيروز»، واستخلفني حضرة الشيخ في بلدة «الإسكوب».

وكان مخالفًا في أول الأمر لما أسلف من استخلافه لي في المنام الصادق في مدينة «بروسة»، لكن الله صدقه بعد إحدى وعشرين سنة كما سيأتي بيان الهجرة على التفصيل.

وبلدة «الإسكوب» من أعظم بلاد الروم، وفيها أنهارٌ جاريةٌ، وحدائقٌ لطيفةٌ، وفواكه لذيذة، ولكن أهلها طاغون، كأهل سبأ كافرون بأنعم الله كما قلت، فنعم الدار «إسكوب»، ولكن وجدنا في مساكنها كلابًا كفردوس يروق ناظريه، ولو أقبلت صادفت ذبابًا.

وتفصيل القصة: إن حضرة الشيخ لما دعا لي دعوة جامعة، وأرسلني بنَفَسِهِ الرحماني الذي لا يخيب مصيبه - دخلت سفينة في سفائن البحر الأسود؛ فمررت على وطني الأصلي وهو قصبة «آيدوس»، وهي وإن كانت غير ساحل لكنه قريب منها، وكان والدي مصطفى حيًا فلاقيته، واستمددت من دعائه الخير ثم عزمت على الرحيل فشيعني الوالد مرحلةً ثم افترقنا.

وأخذت بالسير حتى دخلت «الإسكوب» يوم السبت وهو غرة شهر ربيع الآخر

من سنة ست وثمانين وألف، وقلت في تاريخه لفظًا، دخلت أنا، ونـــزلت في رباط من رباطات البلدة ومعي ثلاثة رجال من الصوفيين، ثم ارتحلت منه إلى حجرة في حريم جامع اشتهر بالمداح، وجلست يوم الأربعاء بمجلس الوعظ والتذكير، ثم يوم الجمعة بالمرادية، ثم في الجمعة الأخرى بالجامع العتيق، ثم في الأخرى بجامع يحيى باشا، ثم إسحاق بك، ثم عيسى بك، ثم مصطفى باشا، ثم سائر الجوامع.

وكثر الناس في المجالس بحيث خرجوا عن العدِّ، فمكثت في الحجرة المذكورة إلى أوائل الخريف من تلك السنة، وكانت البلدة شديدة الشتاء؛ فنقلت إلى دار في المحلة، فأقمت فيها إلى أن أحيا الله الأرض بعد موتها، وأرى آثار قدرته على قدرته على وجهها، وكانت في البلدة زاوية في يد بعض التجار قد خربها وربط الدواب في محاربها، فتكلم أهالي البلدة في ذلك، فرضي المفتي والقاضي ومن دونهما، فانتزعوها من يده، وأسكنوني فيها، وعمروا مسجدها وحجراتها، وكنت برهة من الزمان فيها، ثم إن امرأة متمولة بَنَت زاوية جديدة، ووقفت أموالاً كثيرة، فنقلت إليها، ووهبت الأولى لبعض الرفقة.

ثم بنى أحد الأمراء في بعض القصبات زاوية جديدة، واستدعاني إليها فلم أجب، ثم بعض الزعماء في قصبة أخرى فلم أجب، ثم بعض أهل الخير في أخرى فلم أجب، وجه عدم الإجابة: مراعاة نفس حضرة الشيخ إذ ما عينه لي بإشارة من الله أحب إليَّ من جميع الدنيا، وزواياها، وأموالها، هذا بيان السكنى إجمالاً.

وأما بيان المعاش فخارج عن دائرة الضبط، والله هو الباسط.

وأما بيان تأهلي؛ فإن الله أراد أن يزوجني بنت الشيخ مصطفى العشاقي، وكان شيخًا كبيرًا صديقًا في قومه متشرعًا متأدبًا، فأخفيت الحال حتى رأى هو رؤيا تدل على المصاهرة؛ فكان أول داعٍ إلى النكاح والعقد فأجبت، والقضاء لا يتغير، وكنتُ حينئذٍ ابن أربع وعشرين، ومات العشاقي في بلدة «الإسكوب» خلال سنة تسعين وألف، وقبره في حريم زاويته، وكان بنى قبرًا لنفسه قبل موته بسنة بما أُشير إليه في بعض حالاته.

وأما بيان الدرس؛ فإن حضرة الشيخ قد كان وصاني بالتدريس، فاشتغلت به، وتلمذ جمع كثير من العلوم لا سيما علم التجويد، ولي على مقدمة الجزري تعليقة بقيت في المسودة إلى الآن، وجمعت أيضًا في المحاضرات كتابًا سميته بـــ«نتيجة اللطائف» وهو الآن عند حضرة الفاضل محمد القاضي الديمتوقوي، وكان صديقًا لي من قديم، ولذا جعلت ذلك الكتاب معنونًا باسمه، وأهديته إليه، وما أبقيت عندي نسخةً منه.

وأما حال الوعظ والتذكير، فإني صدعت بالحق على أسلوب قصم ظهور الجبابرة، وما ترك الحق لي من صديق، وذلك لأن المفتي ومن دونه من قضاة البلدة وأئمتها وخطبائها حتى مَن في زي المشايخ، وهم كثيرون كانوا مكبين على الشهوات، منهمكين في الملذات، شاربين للخمر، تاركين للجماعات، مفتخرين بالآباء والأمهات، لو اطلعت عليهم لرأيتهم أكثر مَن في الأرض فسادًا، وأشدهم حسدًا وعنادًا، اندرس العلم وآثاره، وانقطع الراوي وأخباره، فظنوا أن العلم هو مجموعة الغزل؛ فاستصحبوها كأنها فيض الأول، وأنجزتهم أمرًا يتحادى في الغَي إلى أن غلقوا أبواب مكاتيب بل ملأوها بعلف الدواب، وفتحوا سدد بيوت الخمر بين محلات المسلمين من شيخ وشاب، وأشد منه منع الطالبين من تعلم العلم، وإذلالهم، وزجر الراغبين في طريق الحق، وإذلالهم خصوصًا المفتي كان أظلم خلق الله، ودونه الحجاج، ورئيس المجاهرين والمعاندين لا يقاوم له الحجاج، ظنَّ أهالي «الإسكوب» أنه فرعون لما استعبدهم كبني إسرائيل، وأنه لا يموت لما استمروا على البلاء من الزمان الطويل من مخائل صحتها فيه، وفيمن يليه من النفوس السقيمة.

قلت: إني رأيت في المنام أبا البشر آدم عليه السلام وهو في الابتلاء علم، فكان ما كان، وجفَّ القلم، قد وجب عليَّ أن أسلَّ السيف الصمصام، وأقاتل هؤلاء الشياطين الطغام لئلا يكون للناس على الله حجة، والابتلاء محجة لي ولآبائي آية محجة، فلمَّا رأى المفتي وأعوانه أن تقع المقارعة، هاج ونصب لواءه، وإن جند الله رماهم عن قوس الباب الذي رجع وراءه، طفقوا يرمون سهام الرد، وأخذوا يهددون بالقتل والضرب والنفي وسائر الآلام.

وقد جرأني الله على الكلام معهم بحيث لا يقال، وكلم قلوبهم بألسنة حديد المقال، [...][1] ثم اتفق كلامهم على إنشاء محضر فيه أكاذيب، فأرسلوه إلى حضرة الشيخ في القسطنطينية، فأرسل حضرة الشيخ إلى هذا الفقير ورقة فيها الأمر بالمداراة بمقتضى قوله عليه السلام: **«أمرت بمداراة الناس كما أمرت بالفرائض»**[2] كما قال الجامي:

(1) كلام فارسي.

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (351/6)، والمناوي في «فيض القدير» (242/1).

[...][1] فسكتُ عن الكلام زمانًا عملاً بنصيحة الشيخ، كما قال الحافظ: [...][2] ثم وقعت واقعة أخرى فرد عليهم بعض الوزراء، وسلمت أنا بعون الله تعالى وإمداده.

ثم اجتمعوا عليَّ قضاتهم وشيوخهم الحساد، ومن تبعهم من أهل البغي والفساد، فدعاني إلى جمعيتهم بعض سفرائهم السفهاء من قبلهم أن يكون لهم عليَّ الحجة.

فقلت - كما قال الزمخشري:

لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنث إن قومي تجمعوا وبنقضي تحدثوا

وأردت أن أُجيب، وأحضر ناديهم لكن منعني بعض الإخوان قائلاً: بأن الذهاب إلى الجمهور ممنوع، فأرسلت إليهم كاغدة فيها ما هو أشد عليهم مما تحويه المجالس الوعظية من الكلمات الزاجرة، المقيمة على رؤوسهم الطامة الكبرى، حتى أرادوا أن يقتلوا السفير [ثم يذرهم الله أيادي سبا][3]، فلم يكونوا على شيء، فاستمر النزاع بيننا ست سنين.

وأُس نزاعي هو مخالفتهم الكتاب والسنة، وأُس نزاعهم مخالفتي لما ألفوا عليه آباءهم الضالين.

وكان رجل ممن قيل: لا خير في الأصغر إمامًا في بعض المساجد ومتوليًا على أوقاف الزاوية، وكان يقرأ عليَّ بعض العلوم، فوقع منه يومًا مخالفة عظيمة في بعض المواد فنبهته عليها مرارًا فلم يقلع بل ازداد تعصبًا وتعنتًا، فرأيت كأنه محتاج إلى التأديب كما قال بعضهم: [...][4] فأشرت إلى بعض المريدين، فأخذوه وصرعوه، فجلدته بالخشب عشرين وثلاثين ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ [الأحزاب:38].

فاستند إلى جانب الحسَّاد، وبذل لهم المال؛ فنصروه كما قيل: «البراطيل تنصر الأباطيل، والدراهم لخروج الدهر مراهم».

فاجتمع من كبرائهم جمع في المحلة، والنائب محمود الثقالي من أهالي بلدتهم وأخلائهم؛ فأجبت ووجدت جمعًا من الطلبة المترددين إلى عند باب المحكمة فأخبروني

---

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

(3) هكذا في الأصل.

(4) كلام غير عربي.

بالقصة، فقلت لهم: اسكتوا، وأقيموا عند هذا المكان، وأنا مجيب لهؤلاء الأشرار بفضل الله تعالى، فلما دخلت عليهم انتصب المتولى المذكور مدعيًا بأن هذا - يشير إلى الفقير - قد ضربني.

فقال النائب مخاطبًا لي: هل ضربته؟

قلت: قد ورد: «**من علمني حرفًا؛ فقد صيرني عبدًا**»[1] فلو ضربته وأنا معلم له أو بعته ماذا تقتدرون أن تقولوا؟ فاختلط الكلام بيننا، فإذا الطلبة بأيديهم سكاكين يريدون أن يقتلوا المخالفين أن لهم أذى، فلما رآهم الجمع تفرقوا خوفًا على أنفسهم، وفيهم أشخاص كانوا قد قَروا عليَّ، وأشخاص بقروا أولادهم في الوقت، فاعتبر من هذا القدر، والكفران والعياذ بالله من الخذلان.

ثم أعطى النائب إلى الخصم حجة يقول: من رآها من أهل الخلال والأمان، ما هذا إلا اختلاف، ثم ألحوا على المفتي من أن يكون معهم، ويعطيهم فتوى في حق الضارب، ومن أعانه، فساعدهم فيه بعد أخذ الرشوة.

وقال: إن للتعزير مراتب، هي حق على الضارب، يكفي القول المجرد على حسب مرتبته، وأما في حق من أعانه فافعلوا ما شئتم.

فهجموا على الزاوية، وأخذوا المريدين، وذهبوا بهما إلى المحكمة، وفيها كل من عصى الله ورسوله؛ فعزروهما وحبسوهما، ثم اتفق رأيهم على أن ينشِئوا محضرًا فيه أكاذيب، وعرضا فيه ما فيه، ففعلوا على أن مرادهم أن ينفوني من البلدة بعد أخذ المنشور من السلطان، وأرسل المتولي وبعضًا منهم بالحجة، والعرض والمحضر إلى طرف السلطان، وكان وقتئذٍ في القسطنطينة، فرأيت أن الحركة أولى من السكون، وأن ما قضى الله تعالى لا بدَّ وأن يكون.

فشددت الرحل إلى حضرة الشيخ فأرسلني إلى شيخ الإسلام اختبارًا بأنه ماذا يقول في هذه القصة الهامة، وكان شيخ الإسلام وقتئذٍ عليًّا الشهير بـ«ابن الشيخ» وكان صديقًا لمفتي «الإسكوب» لأنه تجيء منه إليه الهدايا والتحف كل سنة مرارًا، فذهبت إليه وفي يدي ورقة عربية مختصرة بليغة أنشأتها بإشارة حضرة الشيخ، فلما دخلت عليه ناولته الورقة، فنظر إلى أول سطر منها ثم طواها وألقاها على طرف الوسادة.

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (265/2).

ثم قال متكبرًا ومتعظمًا: قلْ مرادك لسانًا، فحصل لي من عدم التفاته إلى الورقة استهزارًا فتلعثمت، فقال معاتبًا: أنت رجل منقبض، لِمَ لا تتكلم؟

فقلت: إن الأمر كذا وكذا، فقررت ما جرى بيني وبين أعيان «الإسكوب» من التخاصم والتشاجر.

فقال: اذهب؛ فإني مرسل إلى القاضي مكتوبًا فيه الوصية بعدم الجفاء لك.

فرجعت إلى حضرة الشيخ، ونقلت له ما جرى من أوضاع شيخ الإسلام، وفي المجلس جمعٌ من الزوار؛ فقال لهم: اعلموا أن هذا - يشير إلى الفقير - قد كتب كتابًا لو رآه الكافر لأسلم، ثم مدح شيخ الإسلام الأسيري، وكان مفتيًا في أوائل حضرة الشيخ، وقال: إنه كان يتفقد حال الغني والفقير على السوية، ولم يكن له كبر، ولا عار، ولا تعبس، ولا انقباض، وكان يعرف قدر أهل المعرفة، ويكتب بخط يده على الفور ما مست الحاجة إليه.

ومن عجائب حكم الله تعالى أتى بجلس الوعظ لهذا الفقير في الجامع، فمدح تقريري بالانبساط والسلاسة، فخطر ببالي قول الصائب: [...][1] فهو قد وصفني بالانقباض، وعي اللسان فيما مضى، ثم آل الأمر إلى أن مدحني بالانبساط وحسن التقرير، وهو يعرف أن الذي جرى بيننا فيما مضى ما جرى لطول العهد، وتبدل الهيئات.

ثم نرجع ونقول: إن حضرة الشيخ أرسل ورقة إلى الوزير مصطفى باشا الأسود المقتول، وأعلم القصة، ووصَّى بأن يستمع على وفق الشرع الشريف لا على القانون، فأرسل الوزير أمامه إلى حضرة الشيخ يقول له: إن الأمر الموصى به على الرأس والعين، وإنه يحصل على المراد إن شاء الله تعالى.

فدخلتُ على الوزير في مجلس حكومته يوم الثلاثاء، ولا خبر لي عن الخصم، فلما قرأ الكاتب ما في يدي من الورقة أشار الوزير بإحضار الخصم، فإذا هو من الطرف الآخر قد نشر الصحف، وهي: الحجة، والعرض، والمحضر، فلما قرأ من المحضر سطرًا واحدًا قال: اذهبا وأتيا يوم الجمعة ليستمع قاضي العسكر دعواكما، فخرجنا من عنده ثم أتيت إلى قاضي العسكر بورقة عربية، وهو ابن البياضي، فقال: لا شيء عليك في ضربك تلميذك، فأت يوم الجمعة ولك السلامة.

---

(1) كلام غير عربي.

فلما كان يوم الجمعة أتيت إلى دار الوزير، وإذا الخصم فيها فتوسط بيننا بعض خواص الوزير ومنعونا عن المرافعة، وقالوا للخصم: لا ينبغي لك أن تجر أستاذك إلى باب الوزير بمجرد ضربك، فاذهبا إلى حضرة الشيخ يصلح بينكما.

فأتينا إلى حضرة الشيخ فبكى بعد كلمات زاجرة للطرفين ثم دعا المصافاة ثم أمر بالاعتناق مرتين؛ فاندفع الخصام في ظاهر الحال، فمضيت على حالي.

ثم إن الخصم وبعض الأشرار التزموا مجلس شيخ الإسلام إرادة أن ينفوني من البلدة، وكان فاسد الباطن، وإن كان في صورة الصلاح، فمال إليهم رعايةً لخاطر مفتي «الإسكوب» الذي لم يجئ في الدهر شيطان أعلم منه.

وكنت يومًا عند الباب البراني لحضرة الشيخ، فإذا هو قد خرج من الباب الجواني، فقال مشيرًا بيده إلى صدره: إن الله تعالى قد ألقى الساعة هاهنا مهاجرتك من بلدة «الإسكوب» إلى قصبة «الجسر».

ثم قال: مثل هذا الإلقاء القوي الذي بحالي وقوعه وقوع المطر الشديد قد وقع لي مرتين، مرة في هذه المدة، ومرة في أوائل حالي، وهو أمر من الله تعالى بالهجرة، وإن لي خلفاء كثيرين لم يتيسر لهم ما تيسر لك؛ فإن مثل هذه المهاجرة بعد الأذى والجفاء الكثير يحاكي ما وقع للأصحاب من الهجرة والأذى، وإن هذه الإشارة إلى إرث معنوي، وقد وقع هكذا، فقلت: سمعًا وطاعةً؛ فإنه إذا كان بأمر الله، فالله لا يضيع عبده كما لم يضيع إسماعيل بعدما وضعه أبوه إبراهيم عليه السلام في مكة المكرمة، وهي وقتئذٍ أرض قفراء.

وأمر حضرة الشيخ بأن أذهب إلى «الجسر»، والخليفة الذي في الجسر إلى مقامي في «الإسكوب» فسرت من القسطنطينية حتى إذا دنوت من «الإسكوب» مرحلةً انحرفت عن طريقها، وسلكت طريق «الجسر»، وهي قصبة بمسيرة يوم من «الإسكوب» بين جبلين يجرى بينهما نهر كبير له جسر عظيم، وكان قد بنى فيها بعض أهل الخير زاوية بنية هذا الفقير، فاستدعاني فلم أجب رعايةً لنفس حضرة الشيخ، ثم أرسلت كاغدًا إلى حضرة الشيخ في أنه يرسل إليها خليفة، ففعل فنــزلت إلى الزاوية المذكورة، وهاجر الخليفة مع عياله إلى «الإسكوب»، وأرسلت لنقل عيالي من «الإسكوب»، فاشتد عليهم النقل بحيث لا يوصف، فقاسيت شدائدهم مدة إقامتي في الجسر، وهي أربعة عشر شهرًا.

ثم إن أهالي قصبة «استرومجة» أرسلوا إلى حضرة الشيخ محضرًا فيه استدعاء هذا الفقير إلى قصبتهم، فرضي به حضرة الشيخ، وأرسل إليّ ورقة فيها الأمر بالنقل.

وقلت: سمعًا وطاعةً، وكنت طيب الحال في هذه القصبة مستريحًا من غلغلة السفهاء، وولولة الكتفاء، ولم يكن لي ابتلاء غير جوع العيال في الليل والنهار، وقد وفقني الله فيها لشرح رسالة المولى الشهير بـــ«طاش كوبرى زاده» في فن المناظرة والآداب، وهو شرح مشتمل معتبر متداول الآن في «القسطنطينة» و«بروسة» وغيرهما، والحمد لله تعالى.

ثم إن جمعًا كثيرًا من أهالي «استروبجة» جاءوا بالدواب والعجلة للنقل، فنقلت منها إليها، وهي قصبة كبيرة في مرحلة من «الأشتب»، وفي المرحلتين من «الجسر»، وفيها يقوم السوق الشهيرة بـــ«دوليان».

وفيها أعيان وأهل ثروة فبعد استقبالهم كلهم أنزلوني مع العيال في دار مشروطة للصلحاء تعرف بـــ «دار العشاقي القاضي» فعمروا داخلها وخارجها، وزادوا في بنائها، وأرسلوا من أنواع المعاش ما يكفي سنتين، وأهدوا ثيابًا وبساطًا، وعينوا وظائف كثيرة؛ فاشتغلت فيها بالوعظ والتدريس، وجمعت فيها شرحًا بسيطًا على الفقه الكيداني، وأقمت ثلاثين شهرًا، ليس لي من الابتلاء إلا اضطراب العيال؛ فإنهم ما نسوا «الإسكوب»، وكان ميلهم إليها، وغفلوا عن معنى قوله: [...][1]، وعن سر قوله في «المثنوي»: [...][2]، وما رأيتُ في الدهر شيئًا أشد عليَّ من الابتلاء بالعيال؛ فإن الابتلاء بهم أنساني سائر الابتلاءات، فليبك على هذا البلاء؛ فإنه من عظيمة لا يتحمله إلا أهل الولاء.

فإن قلت: ألم يعرض لك ألم المهاجرة؟

قلت: بلى، لكن الله تعالى أيدني بالطاقة، فأزال عني تعب الهجرة، وألم المفارقة بعدما ابتلاني به مقدار ستة أشهر، وذلك أني ضاق بي الحال بعد الهجرة إلى الجسر فصرت في الاضطراب أشد من أهل البيت، فأرسلت إلى حضرة الشيخ ورقة فيها الاستئذان من النقل إلى «القسطنطينة»؛ فإنه كان يقدر قدمًا أن يسكنني فيها، فأرسل ورقة فيها قوله: إذا ساعدك الوقت والزمان فلك إذن المجيء والإتيان، والسلام على من اتبع الهدى، والملام على من اتبع الهوى، انتهى بعبارته.

فعزمتُ على النقل لكن عاقتني منه عوائق خصوصًا كان أهل البيت في الاضطراب

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

التام، وعليَّ تقدير النقل إلى «القسطنطينة» التي هي أضيق السجون بحسب الظاهر، اشتد الحال.

ثم اتفق أن زرت حضرة الشيخ فجرى بيننا كلمات كثيرة، ثم عدت إلى «الجسر» فأراحني الله تعالى فيها عن ذلك الألم الذي قصم ظهري ذلك ببركة نفس حضرة الشيخ، ووفقني الله للرياضة شهورًا فأمسكت عن الطعام، وضيافات الناس مع إلحاحهم، وطاب وقتي بحيث كنت أدور في الليل في فناء الدار إلى الصباح، في يدي سبحة أذكر الله تعالى، وأشاهد آياته الكبرى في الأرض والسماء.

ثم اتفق أهل «الجسر»، و«الأشتب»، و«استروبجة»، و«قراطوه»، وغيرها من القصبات الواقعة في تلك الناحية، وإنشاء محاضر، ومع كل محضر عرض من قاضي القصبة، وفيها طلب الفتوى لهذا الفقير، والتقلد بها، فلما وقف حضرة الشيخ على المحاضر والعروض وطالعهما تفصيلاً.

قال: إن المفتي يصير أهل الفتوى، ولا يصير أهل التقوى مفتيًا يفتي بما يترك المفتي طريق الفتوى، ويسلك التقوى؛ فإن الترك الذي هو من باب العزيمة فوق التقلد بالفتيا الذي هو من باب الرخصة، وطريق الصوفية طريق العزيمة والتقوى دون طريق الرخصة والفتوى، فالشيخ لا يكون مفتيًا أبدًا إلا أن تكون الضرورة داعية ولا ضرورة في هذا الزمان فأي مناسبة بين الشيخوخة والفتوى والقضاء، وغير أبي حنيفة قال: إني خاتمة الثلثين من سلسلة الطريقة الجلوتي - بالجيم - ولا أعرف أن أحدًا منهم تقلد الفتيا.

فلم يرض حضرة الشيخ بتقلدي الفتيا، وكتب كتابًا منه: «بسم من خصكم بخدمة التقوى، وصدكم عن خدمة الفتوى، حفظًا من الهلاك والضر والشر، وجذبًا إلى النجاة والنفع والخير... إلى آخر المكتوب»، وكان في أوائل شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وتسعين بعد الألف.

ثم لما هاجرت إلى «استروبجة» ومكثت فيها مقدار ثلاثين شهرًا ورد كتاب من حضرة الشيخ وفيه الدعوة إلى بلدة «أدرنة»، وكان وقتئذ فيها يطلب السلطان محمد الرابع إياه لأجل الوعظ والتذكير فلما لاقيت، ومضت أيام إذ وصل إليه ورقة من بلدة «بروسة» فيها نفي خليفة فيها الشيخ صنع الله الأماسوى واستدعى خليفة آخر له حظ

أوفى من العلوم الكلية، والمعارف الجزئية[1].

فقال حضرة الشيخ: إن أخاكم الشيخ صنع الله قد مات - رحمه الله تعالى - فأخذ يمدح بلدة «بروسة» إذ كان له مشيرًا إليها في أوائل حاله.

وسمعت من فِيه أن نسخة الأنفس انكشف له حين خرج في السحر الأعلى من السفينة التي ساحل قصبة «بدانيه» التي بينها وبين بلدة «بروسة» مسيرة نصف يوم، وقد سبق تفصيل النسخ كلها لكن ليس الخبر كالعيان، ومن لم يذق لم يعرف، حققنا الله وإياكم بحقائق التوحيد، وأوصلنا وإياكم إلى سرِّ التجريد.

ثم بعد مضي أيام كرر حضرة الشيخ مديح البلدة المذكورة فتفطنت أن مراده إرسالي إليها مقام الشيخ صنع الله.

فقلت: لا كلام في حقي؛ فإنه ليس لي إلا التسليم، وإنما الكلام في حق أهل البيت؛ فإنها في الجزع إلى الآن، ولا تريد إلا «الإسكوب»؛ فإن كان لكم إذن أذهب إلى «استروبجة»، وأشاورها في هذا الخصوص، وأسرد لها كلامًا من كل جانب، لعل الله يهديها إلى الرضا والتسليم، ويجذب عنانها إلى جانب الصراط المستقيم.

قال: فافعل فعدت من «أدرنة» إلى «استروبجة»، وشاورت أهل البيت في خصوص النقل، فقالت: معاذ الله أن أهاجر إلى ما وراء البحر فلم يلزمها الحجة بطريق من الطرق، وانقطعت حيلتي، وآيست من إجابتها لي.

فاعتذرت إلى حضرة الشيخ بمكتوب بسيط، واشتغلت بحالي فرأيت ليلة في المنام كأني وحضرة الشيخ في دار عالية واسعة نظيفة، وفي وسطها عين ماء تجري؛ فأقام الشيخ وأشار إليَّ بالإمامة، وليس معنا أحد إلا الله، فلما قمت إلى الركعة الثانية.

قال حضرة الشيخ: لِمَ لا تصلي صلاة السفر؟ فرأيت أنه سال الرعاف من أنفي، فقلت: انتقض الوضوء، فتوضأت أنا وهو من ماء العين، ثم أقام ثانيًا وأشار إليَّ أيضًا بالإمامة، فلما صليت ثانيًا قعدت وسلمت على رأس الركعتين على أنها السفر، فاستيقظت وغصت في بحر التفكر، وما يخطر ببالي الرؤيا التي رأيتها في خمس وثمانين، وأنا أقرأ على حضرة الشيخ وقتئذٍ كتاب «المطول»، وقد سبقت فلما كان الضحوة الصغرى، وإذا بورقة من حضرة الشيخ فيها المعاتبة على ترك النقل، وبعض الإشارات، ولما طالعتها

---

(1) هكذا في الأصل.

مطالعة عميقة أخذت قلبي، ونسخت جميع أحوالي الماضية وكأني ولدت ولادة ثانية وكأن جبلاً عظيمًا عليَّ قد أزاحه الله عني وأراحني عن حمله، وهذا أول ما شرفني الله به من جلائل الأحوال بعد إلقائه في ورطة الابتلاء، والقهر والجلال، وليس الخبر كالعيان.

وكان وصول الورقة في أواخر صفر الخير من سنة ست وتسعين بعد الألف، وأنا أشرح لك بعض كلمات تلك الورقة ليطمئن قلبك لتعتقد أن أولياء الله تعالى لا يأمرون إلا بالخير، ولا يتبعون إلا ما ألقي في روعهم، وأن الله تعالى يصدقهم ألبتة، وهي العبد يدبر والله يقدر.

فيه إشارة إلى أن الهجرة مقدرة، وأن الله تعالى قد كشف لحضرة الشيخ عن أحوال عيني الغائبة، فوجد الهجرة منها، وأنه لا ثمرة لتدبيري في تركها، والحذر لا يغني من القدر، وقد وقع كما قال، وهذا من جملة كشوف حضرة الشيخ وكراماته - روح الله تعالى روحه - ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:216] الأمر المكروه هنا طبعًا ونفسًا هو: النقل والهجرة من المكان المألوف إلى خلافه، وهو خير؛ لأن فيه فوائد خمس:

منها: ما أشير إليه في قول الشاعر:

فخلف لديباجته فاعتبرت مدده   وطول مقام المرء في الحي

وفي قول الشافعي - رحمه الله تعالى:

تَغَرَّب عَنِ الأوطانِ في طَلَبِ العُلا   وَسافِر فَفي الأسفارِ خَمسُ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ   وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ
وَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَمِحنَةٌ   وَقَطعُ الفَيافي وَاِكتِسابُ الشَدائِدِ
فَمَوتُ الفَتى خَيرٌ لَهُ مِن حَياتِهِ   بِدارِ هَوانٍ بَينَ واشٍ وَحاسِدِ(1)

ومنها: الخروج عن النفس؛ لأن في الحركة العمل بخلاف هواها، والوقوف عند إشارة الله تعالى ورأي الرشد.

ومنها: الوصول إلى سرِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ [الأنعام: 94] فإن الهجرة تقطع العلاقات كلها سواء كانت علاقة الأموال أو علاقة الأحباب أو غيرها،

(1) الأبيات من الطويل للشافعي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

وترشد إلى الموت بالاختيار قبل الموت بالاضطرار، [...][1] وقد قاسى أحباب «الإسكوب» خصوصًا التلامذة ألم الانقطاع مني بعد الهجرة منها، وقاسيت ألم الانقطاع منهم حتى مَنَّ الله تعالى عليَّ نصرة إلى حال استوى عندي الفرقة والوصلة.

قال ابن الفارض:

وودِّيَ صَدِّي وانتهائي بَدايتي[2] فوصلي قطعي واقترابي تباعُدي

﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:216] الأمر المحبوب هنا طبعًا ونفسًا هو: الإقامة في المكان المألوف، وهو شرٌّ إذ فيها خلاف ما ذكر من الفوائد، وقد ورد: «من فَرَّ بدينه شبرًا وجبت له الجنة»[3].

ولا نشك أن بلدة «بروسة» أفضل من «استروجة» لأنها إحدى البلاد الثلاث، وقد سبق تحقيقها، ولا خير في اختيار المفضول على الفاضل، والفاضل على الأفضل، فالمهاجر كالمتميل إلى ظلمات فيها ماء الحياة [...][4]، والمقيم كآكل السكر الذي دُسَّ فيه السم، فأين هذا من ذلك!

وقد شاهدت هذا المعنى بعد خمس سنين من الهجرة إلى بلدة «بروسة»، وأن الهجرة التي قدرها الله تعالى لي جاءت خيرًا محضًا في حقي وحق من تبعني، وذلك أن كفار «انكروس» استولوا على البلاد الرومية خلال المائة بعد الألف فأغاروا على «الإسكوب»، وأحرقوا جوامعها ومساكنها بالكلية، وهلك من فيها من الأعداء الذين كانوا قد تسلطوا عليَّ.

أما المفتي فمات قبل الوقعة ميتة جاهلية، وأما من دونه فهلكوا في الطريق فارّين خائفين منقطعين عن الأموال، باكين على قهر الله الملك المتعال، وتفرق بقية السيوف في أقطار الأرض أيادي سبا: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137].

---

(1) كلام غير عربي.

(2) البيت من الطويل، وهو لابن الفارض في ديوانه من قصيدة مطلعها:

وَكَاسي مُحَيَّا مَن عَنِ الحُسنِ جَلَّتِ سَقَتني حُمَيَّا الحُبِّ راحَةَ مُقلَتي

(3) لم أقف عليه.

(4) كلام غير عربي.

فعلمت أن الله تعالى أخرجني من بينهم قبل وقوع هذا الأمر الهائل رحمة وفضلاً، وأخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار سخطًا وعدلاً فقيل لي: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:25]، وقيل لهم: ﴿هَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:44]، فـ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:52]، وعمَّ الاستيلاء المذكور إلى قصبة «استروبجة»، وكانت الطامة الكبرى قد قامت على الناس بحيث أذهلت كل مرضعة عما أرضعت، وهلك أكثرهم بأنواع الهلاك.

ومن العجب ما صدر مني بعد الهجرة من «الإسكوب» من قولي في آخر شرحي على الفقه الكيداني الذي جمعته في «استروبجة»، جعلها الله أي: الإسكوب من المؤتفكات، وخسف بها في أقرب الساعات، وأرسل عليها حجارة من سجيل، وأوقعها في ويل طويل، انتهى.

وكأن الدعاء أصاب فخره، وصادف وقته، فكان ما كان[...][1]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:36].

فيه إشارات:

منها: أن نقلي من «استروبجة» إلى «بروسة» قد أشير إلى حضرة الشيخ؛ لأن الأنبياء يعملون بالوحي، والأولياء بالإلهام.

ومنها: أن المريد هو من لا إرادة له أي الذي فني عن إرادته، وتبع مراد المرشد سواء كان محبوبًا عنده أو مكروهًا.

ومنها: أن قضاء الله وقضاء الرسول قضاء واحد، وكما أن لا خيرة لأحد فيما قضاه الله وكذا فيما قضاه الرسول والوارث؛ لأن الله تعالى قال في حق الرسول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:3، 4]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح :10] فانظر في هذه الإطلاقات بعدنا لأن المراد صريحها وإن كان في حق الرسول لكن إشاراتها إلى كل وارث له في قوله وفعله وحاله، ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن، وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

(1) كلام غير عربي.

رجوع إلى الجمع بعد الخطابات الفرقية، وفي مشيئة الله ومشيئة العبد تفصيل مستور، ولا كلام أن مشيئة الله تابعة لمشيئة العبد في عالم العلم، ومشيئة العبد تابعة لمشيئة الله في عالم العين، ولذا قال تعالى في بعض المواضع: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:83] بتقديم العليم على الحكيم، وفي بعضها بالعكس ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله﴾ أي: لا تحول عن معصية المخالفة، وهى ترك الهجرة التي أمرها الله بها، ﴿ولا قوة﴾: على طاعة الموافقة، وهى فعلها إلا بالله الذي بيده أذمة الأمور، ومنه التوفيق للمكاشفة، والحضور، وترك الاعتراض، والاشمئزاز والانقباض، ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه:47] أي: السلامة الحقيقية التي هي التخلص عن الطبيعة وهوى النفس، ﴿عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾: الذي هو الإشارة الصحيحة في النقل والهجرة.

وفيه السلامة الظاهرة أيضًا كما سبق؛ فإن الأعداء هلكوا في قبضة الجلال، ولاطفني بيد الجمال، فكان أول أمرهم سلامة، وآخره شماتة، وأول أمري شماتة، وآخره سلامة، والحمد لله رب العالمين[...] [1].

الفقير الحقير المعلوم هذا ما أمضى به حضرة الشيخ آخر كتابه، ولم يكن ذلك من دأبه في المكاتيب التي وصلت منه إليّ من قبل، فترك اسمه الشريف من باب التربية ينبه من له دربة في أساليب الكلمات الواقعة بين المريد والمرشد.

ومعنى الفقير: المحتاج إلى الله دون الغير؛ وهو عين الغنى؛ لأن الفقر إذا تمّ استغنى العبد بغنى الله تعالى، فلم يحتج إلى أحد أصلاً، فافهم وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام بقوله: «الفقر فخري».

والحقير: ضد العظيم، والحقارة البشرية لا تنافي العظيم الحقيقي؛ فإنها إما باعتبار عين المخالفين أو باعتبار التواضع وهضم النفس واستقصار العمل، وذكر الحقير من باب التربية أيضًا؛ فإن الشيخ إنما يعظم في عين المريد إذا عمل بإشارته وإرشاده، والمعلوم إما معلوم باسمه وصورته أو بمسماه وحقيقته أو بكليهما، وحقيقة الولي لا يعرفها إلا مثله.

فإذا تحققت هذا؛ فاعلم أنه لما وصل إليّ هذا المكتوب، وعزمت على النقل والهجرة أردتُ أن أضم التفاؤل إلى ما أراني الله من الشواهد الأنفسية والآفاقية تضعيفًا للاطمئنان، وتكميلاً لله تعالى ففتحت بعد التسمية من تفسير البيضاوي فجاء قوله تعالى:

---

(1) كلام غير عربي.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:15] فشهد شاهد القرآن على المدعي أيضًا، وزاد وضوح الحق ولم يبق إلا العمل به.

وقلت لأهل البيت: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الصافات:99] فإن أنت رضيت فنعم وإلا ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78].

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:14] وسفري هذا سفر الآخرة، فكما أن سفر الدنيا لا بدَّ فيه من الحذر من الأعداء وهم قطاع الطريق، فكذا في سفر الآخرة، وعداوة النفس، والشيطان، والأهل، والأولاد، والأموال، وأتيت بمهرها وما يتعلق من الحقوق لقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:229]، فلما رأت مهرها، وعلمت أني ما يلومني عن الهجرة صارف بكت، واشتد عليها أمر المفارقة، مع وجود ولدين في البين، ورفع الله الساعة عن قلبها كل ما لها من الميل إلى وطنها، والحنين إلى دارها، وصارت أشد مني في طلب الهجرة فتحيرت في قدرة الله، وتحويل قلبها، وعلمت أن للنفس وصدق التوجه والهمة أثرًا في الأمور عظيمًا، والحمد لله على ما صدق نفس حضرة الشيخ، وتوجهت، قال الحافظ: [...] [1].

ثم إني عملت بما ورد من قوله: «استر ذهبك، وذهابك، ومذهبك» إذ علمت أن الخلاص من أيدي أهالي القصبة مشكل لمحبتهم الغالبة، فخرجت بنية زيارة حضرة الشيخ، وأبقيت أهل البيت في القصبة لشدة الشتاء، وقاسيت في الطريق من شدة الشتاء ما يتحير عنده السامع، وهذا لأن الطريق طريق الولاء، وهى عين الابتلاء، ولذا قال الحافظ: [...][2].

وساعدني رفيق التوفيق حتى وصلت إلى «أدرنة»؛ فلما رآني حضرة الشيخ تبسم، وسأل عن وجه القدوم مع قرب عهد الزيارة، فقلت: إن الأمر كذا وكذا، حتى أثبت عن آخره، فاحتظ غاية الاحتظاظ، وعين لي موضعًا مخصوصًا من داره، فاشتغلت بالصحبة كل يوم، وبقراءة «الفصوص» عليه حتى إذا مضى أكثر من شهرين، واخضرت الأرض

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

بنباتها، وهب نسيم الربيع، أرسلت إلى أهل البيت فهاجرت من «استرومجة»، وجاءت إلى «أدرنة».

ثم بعد أيام دعا حضرة الشيخ دعاءً جامعًا فارتحلنا حتى نـــزلنا بلدة «تكفور طاغي»، وكان الموسم هو الموسم المشهور بين الناس بـــ«روز خضر»، ثم دخلت إلى السفينة وسرنا يومين وليلتين على سلامة، ثم خرجنا إلى قصبة «مداينة»، ثم دخلنا مدينة «بروسة» يوم السبت، وهو الثاني من جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين بعد الألف، ونـــزلنا فيها بيتًا، ثم طلبنا دارًا بالكراء فلم توجد إلا الدار المشروطة لبعض أئمة الجامع الكبير فاشتغلنا فيها وإليها.

ثم لما جاء الشتاء اشتد الحال من البرد، فانتقل أهل البيت في محلة أخرى، وبقيت أنا في دار الإمام ومعي ثلاثة رجال من المريدين، وكنت في بعض الأيام أزور الأولاد، وأسأل خواطرهم، وكان في مختاري دار واسعة، فكلما مررت بها خطر ببالي أمر السكنى وضيق حالي في خصوصه لأن الكبار قالوا: لا بدَّ من المكان أولاً، ثم الزمان، ثم الإخوان، ثم صفاء الخاطر، فعلمت أن الله تعالى هيأ لي تلك الدار، وذلك أن بعض أهالي البلدة أخذوا يطلبون لي سكنى من الدار المشروطة للعلماء، فقال أحد: الأعيان إن دار السيد محمد الشهير بـــ «سيزي» من الدور الموقوفة على العلماء، وقد سكن فيها الآن أخوه، وهو غني عنها، فأخبروا القاضي بذلك فاستدعى الساكن وهو السيد أحمد فرضي على طوعٍ، فإنه كان له في جنب تلك الدار دار أخرى مملوكة له فانتقل إليها، وقصر اليد إلى الأولى، وأحيا وقف أخيه، ووقف أيضًا جانبًا منها كان في ملكه، وانتقلت أنا والعيال إليها، واسترحنا فيها، والحمد لله تعالى هذا حال السكنى.

وأما حال المعاش فإنه لم يكن عندي درهم ولا دينار إذ ما ادخرت شيئًا مما فتح الله تعالى عليَّ في الديار الرومية، وابتلاني الله بالفقر بعد الغنى حتى بعت ما عندي من الآثار، وبعض الكتب بل والسبحة أيضًا لمعاش الأولاد ولنا في الداخل والخارج تبعة، والزمان زمان قحط جدًّا، وأيدي الناس مقبوضة من الخير مطلقًا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ﴾[فاطر:2] فالقابض والباسط، والمانع والمعطي هو الله، ولا نظر للعبد مع الحق إلى المنع والعطاء بل نظره إلى المتجلي بها مع أنه عادة الله قبض الأيدي في بلدة فيها رائحة السلوك لئلا

يستأنس فقراء السلوك بأهل الثروة، ولا يعتمدوا عليهم بل يتوكلوا على الله الذي له خزائن السماوات والأرض.

قال الشيخ بدر الدين العطار - قدس سره: [...] (1).

فنمت ليلة على فكر طويل بحسب البشرية، فرأيت حضرة الشيخ في المنام وهو يقول لي: الصبر سنتين، فقلت: لِمَ لا أصبر، ولا تدارك لي غير الصبر، فاستيقظت، وعرفت أن الابتلاء يمتد إلى نهاية السنتين المذكورتين، فزدت اجتهادًا بحيث لا يوصف، وكان أكلي أكل المريض، ونومي نوم الغريق، وكان لي صومعة مظلمة أتعبد فيها فلما دنا الزمان، ابتليت باختلاج العين اختلاجًا شديدًا قدر أربعين يومًا، ولم أدر ما الحكمة في ذلك؛ فإذا ابنة لي بنت تسع مرضت من الطاعون وماتت منه بعد أيام، وكان لي بها بعض علاقة فضاقت عليَّ الدنيا أيامًا، وألقى الله تعالى عليَّ حزن يعقوب عليه السلام ابتلاء منه [...] (2).

ثم فتح عليَّ بعض الفتوح، وجدد حالي، كما وقع لحضرة شيخي وسندي مرة، وهو أنه قبل توطنه بالقسطنطينية، مَرَّ بها مع مريدين على قدم التجرد فدخل جامعًا والمريدان معه، ووصاهما باشتغال الذكر في الليل والنهار، فإن فتح الله شيئًا من المعاش وإلا يستمرون على حالهم إلى ثلاثة أيام ثم يخرجون ويفطرون، فاشتغلوا في اليوم الأول فلم يفتح الله شيئًا، وكذا في الثاني والثالث؛ فلم يبق لهم قوة على حركة، واستطاعة على القيام حتى إذا كان سحر الليلة الرابعة دق باب الجامع فجاء واحد من المريدين حَبْوًا وانتهى إلى الباب؛ فإذا شخص مَدَّ مَبرزًا فيه عنب وخبز طري، وقال: كلوا هذا، ثم غاب، فأتى به إلى حضور الشيخ فغلب عليه وعلى من عنده البكاء حتى إذا قضوا منه الوطر أكلوا من الطعام، وجددوا الشكر للملك العلام، ثم ساحوا في الأرض.

وفي هذا التفصيل فوائد لك كثيرة إن كنت من أهل الحق وأهل العبرة خذ منها الاعتبار واصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

ومنها: إنه ما لم يقطر من كبدك ألف قطرة من الدم لم تجد قطرة من مد المدد، وهكذا عادة الله بكل من أراد أن يلج في ملكوت السماوات، ويستفيض عن أسرار الجبروت.

---

(1) كلام غير عربي.

(2) كلام غير عربي.

ومنها: أن معنى الخلافة هو القيام مقام الحق في الدعوة، والإرشاد إلى تحصيل أسباب الدنيا بالتزيي بزي خواص العباد، كما هو شأن أهل التقليد في هذا الزمن، فواعجبًا لقوم جل بضاعتهم هَم الدرهم والدينار بل جمعها مع الادخار، ثم يدعون لأنفسهم التوكل والصبر والموت الاختياري والقبر، أما بلغهم قوله ﷺ: «**الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا**»[1] وهما حرامان على أهل الله، وأهل الله خاصة هم الذين اختاروا الله بدل كل شيء فوهبهم سبحانه وتعالى كل شيء أيضًا؛ لأن من وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء، فعليك بطريق الأصحاب حتى تعيش عيش الأحباب، والله عنده حسن المآب، وفي الحديث: «**طالب العلم تكفل الله تعالى له برزقه**»[2].

قال صاحب «التنوير في إسقاط التدبير»: «المراد العلم النافع القاهر للهوى، القامع، وذلك متعين بالضرورة؛ لأن كلام الله تعالى وكلام رسوله أجل من أن يحمل على غير هذا، ويشمل النافع العلم بالله، والعلم بما به أمر الله، إذا كان تعلمه لله» انتهى.

أقول: يحمل قوله ﷺ: «**اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**»[3] إذ هذه القوانين الرسمية التي كتب الناس عليها بعد قرن التابعين بمعزل من الإرادة لكونها غير مقصودة بالذات، ويظن علماء الرسوم أن المراد بالحديث ما في أيديهم من الكراريس المشتملة على العلوم المجعولة المتخيلة الموهومة، وأن لهم من حيث علمهم بهذه الكراريس فضلاً على العباد الذين ليس لهم العلم بها، فما أبعد هؤلاء القوم من العلم والمعرفة، وما أشد جهلهم بالذات والصفة، نسأل الله العلم النافع الذي هو علم الأنبياء والأولياء، وأن يحفظنا عن الاغترار بما اغتر به أهل الكبر والرياء.

وفي «المثنوي»: [...][4] وعليه يحمل قوله ﷺ: «**دم على مطلق الطهارة قالبية أو قلبية يوسع عليك الرزق مطلقًا جسمانيًا أو روحانيًا**»[5].

---

(1) رواه العجلوني في «كشف الخفاء» (493/1)، وأبو شجاع في «الفردوس بمأثور الخطاب» (2/ 230).

(2) ذكره المناوي في «فيض القدير» (175/6).

(3) ذكره حقي في تفسيره (407/7).

(4) كلام غير عربي.

(5) لم أقف عليه.

هذا، وأما حال التدريس بعد القدوم إلى بلدة «بروسة» فقد منعني منه حضرة الشيخ، وكان قد وصًى به في أوائل حالي وأراني قول بعضهم: كلما اشتغلت بالدرس زدت بعدًا عن درك الحق، والفرق أن ذلك كان بحسب الاقتضاء فبُني الأمر عليه ثم لما تمَّ الابتلاء به صار حال الانقطاع، ومظهر التفاوت بين الحالين والمقامين أشار بأخذ الأهم فرضي الله فأرضاه.

ولعلك يختلج في خاطرك أن الاشتغال بالدرس من أهم المهمات، فكيف يزداد به المرء بُعدًا عن إدراك الحق؟ وهل هذا إلا كقول بعض الأميين ليس في طريق العلم والدرس؟

فأقول: هذا المقال يحتاج إلى تفصيل بسيط يزداد به وضوحًا في الأمر، وهو: أنَّا على حقيقة معاشر الصوفية لا نقول بترك العلم أبدًا، فحاشا أن يصدر هذا ممن وقف على حقيقة الحال، بل الدرس درسان: درس في الأوائل، ودرس في الأواخر:

أما الدرس في الأوائل؛ فهو بمعنى التدرس، والتلميذ من الأساتذة إلى أن يحصل علم الحال، ويزول الجهل، وإلى هذا أشار رئيسنا، وأعلمنا حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر - بقوله في كتاب «الطريقة» له: «أول ما يجب عليك طلب العلم الذي به تقيم طهارتك، وصلاتك، وصيامك، وتقواك، وما يفرض عليك طلبه خاصة لا تزيد على ذلك، وهو أول باب السلوك، ثم العمل به، ثم الورع، ثم الزهد، ثم التوكل» انتهى.

فهذا هو الذي يقال له: علم الحال، وهو ما يجب عليك في الحال والوقت، وهو المراد بقوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1] فإذا دخل وقت الصلاة مثلاً تعين أن تعرف الطهارة، وما تيسر من القرآن، فإن أدركك رمضان وجب عليك أن تنظر في علم الصيام، وإن أخذك الحج وجب عليك حينئذٍ علمه، وإن كان لك مال حال عليه الحول تعين عليك علم زكاة ذلك الصنف من المال لا غير، وإن بعت واشتريت وجب عليك علم البيوع والمضاربة، وهكذا سائر الأحكام لا يجب عليك إلا عند الوقت، وتعلق الخطاب؛ فإن قدمت العلم عليه أخذت بالأحوط، ولما غلب الجهل على الزمان جعلوا تعلم بعض القوانين كالواجب وهي العلوم الجزئية الموصلة إلى علم التفسير والحديث مثل الصرف والنحو ونحوهما، وإلا فالمقصود الأصلي هو المعرفة سواء كان

---

(1) رواه ابن ماجه (224)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (253/2).

حصولها بالسماع المجرد - كما هو الغالب على حضّار مجالس الوعظ، أو بالتعلم من الكتب العربية والتركية من غير الوقوف إلى الغوامض والزوائد.

قال في خزانة الأدب: «يُكره قراءة كتب الأوائل من المحيط، وإقليدس، والمنطق، وكتب النجوم؛ فإن قراءة هذه الكتب تستدرج صاحبها إلى الجحود بما أنـزل الله على أنبيائه - عليهم السلام» انتهى كلامه.

وأما الدرس في الأواخر؛ فهو بمعنى التدريس والتعليم للناس؛ فإن كان المدرس صاحب الوصول إلى الحقيقة، وأهل الجمع، والفرق، ومنشرح الصدر للحق والخلق فلا يزيد الدرس بعدًا عن درك الحق إذ ليس في الطريق حتى يبعد عن المنـــزل بل ممن قيل فيه الصوفي: من لا مذهب له، ومن حصل في عين العرب أمن من البعد، وأدرك الحق إدراكًا يعتريه الجهل والنسيان أبدًا؛ لأن علمه صار حضوريًا فهو كبحر لا يتغير أصلاً سواء تموج وهاج كما قيل: من عرف الله طال لسانه، أو سكن وانـــزوى كما قيل: من عرف الله كلُ لسانه.

فالتدريس وتركه سواء عنده لكنه يختار لله على ما يطلق عليه اسم الغير إذ هو مقتضى الحضرة التي وصل إليها، ومواضع الضرورة مستثناة، وبه عمل حضرة شيخي وسندي زمانًا حيث اشتغل بالتدريس سنين مسترًا للحال، وإحياء للطريقة المثلى بالعلم مطلقًا، وإن كان المدرس صاحب بداية وتوسط، وهو لا ينافي إلا حزبه من وجه لأنها إضافية فافهم، فهو والتدريس ضدان لا يجتمعان؛ لأن السالك لا بدَّ له من العزلة عن الناس، وابتناء الخلوة على الملأ؛ فإنه على قدر بعده عن الخلق يكون قربه من الحق ظاهرًا وباطنًا، فلو اشتغل بالتدريس قرب من الخلق، وفرق خاطره إليهم، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:4] والوصول إلى الحق أهم من التدريس، والاشتغال؛ لأن الفلاح المطلق فيه دون غيره كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9].

والتزكية طريق الرسول، فإذا أفلح المزكي أفلح الواصل، فلا بدَّ للسالك بعد علم الحال من التخلي، والانقطاع، وترك الكلام، والسماع، وافتراغ الباطن من العلائق، ولو كانت قوانين ورسومًا، وطرح المشاغل الخارجية الآفاقية والأنفسية خصوصًا وعمومًا فيقول بعضهم: بنفي الاشتغال لأهل السلوك يبتنى على هذا المعنى لا على الترك رأسًا، كما يزعم الجهلة، نعوذ بالله من القول به، وعقد القلب عليه، والعلم نور المفتي يستضيء

به، وهو أشرف مقاصده ومطالبه، ولعلك وصلت إلى الحق، واندفع عنك القيل والقال، فعليك به وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأما أمر الوعظ والتذكير؛ فقد قال الشيخ - قدس سره: لا نتركه؛ فإن السلف واظبوا عليه، وعند الإعذار، وحال الشيخوخة نصبوا مقامهم واحدًا من اتباعهم يذكر للناس بمبدئهم ومعادهم، وفرق بين وعظ أهل السلوك ووعظ غيرهم؛ فإن لهم معرفة بالمراتب، وإن هذه الآية متعلقة بمرتبة الطبيعة، وتلك بمرتبة النفس وهكذا، ومن لم يعرفها فقد وعظ على جهل وعمى، والأعمى لا يكون قائدًا للناس.

فإن قلت: ما الفرق بين الوعظ، والدرس وكلاهما متعلق بحال المخاطب؟

قلت: الدرس عقلي ونقلي، فالعقلي غذاء العقل، والنقلي غذاء القلب والروح، والوعظ نقلي وكشفي؛ فالنقلي للعامة، والكشفي للخاصة، وفائدتها أتمُّ من الدرس العقلي مع أن الواعظ السلوكي يغمض عينيه حال النقل والخطاب فلا يشتغل برؤية الخلق التي هي عين الحجاب.

والدرس يحتاج إلى إدارة الكلام من الجانبين ونظر كل منهما إلى الآخر، فأين هذا من ذاك؟!

أقول: علمت توصية حضرة الشيخ بعد القدوم إلى «بروسة» فطويت جريدة القيل والقال كما قال الحافظ: [...] [1].

ودفعت من طلب مني الدرس بأحسن دفع، واخترت الجلوس بمجلس الوعظ، فجلست في الجامع الكبير يوم الأحد بعد العصر، ونقلت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119] وهو أول ما نقلته في ذلك الجامع، وهو خامس الجوامع الخمسة الكعبة المكرمة، ومسجد المدينة المنورة، والمسجد الأقصى، وجامع بني أمية في الشام، والجامع الكبير في «بروسة»، وكان موضع بيت لعجوز لم تدرك سفينة نوح عليه السلام فحفظها الله تعالى فيه من الطوفان هكذا انكشف لبعض أهل الله تعالى، ثم بناه من السلاطين العثمانية السلطان بايزيد الأول الشهير بـ«بلدم»، وطرح أساسه بيده المباركة حضرة الشيخ محمد البخاري الشهير بـ«حضرة أمير» - قدس سره الخطير.

---

(1) كلام غير عربي.

وقد اتفق على بركة هذا الجامع الشريف، وروحانية فضيلته كل من نشأ في بلدة «بروسة» من أهل الله تعالى في كل قرن وكذا غيرهم.

وأقول فيه: جمع فيه فيض نور الله، معبد فيه رمز سر الله ونفس الله، فيه للأرواح وكذا للنفوس والأشباح لموت القلوب فيه علاج، دواء مرضاتك أيها المحتاج وله من بنائه عشرون، وله مبنى عليه شومان، محرابه هيكل كهيكل نور لعمر الله كبيت معمور، ركنه عين عماد الإسلام، فعليه تحية وسلام.

ثم لما نكروا الوعظ والتذكير أشير إليّ بالبدء من أول القرآن، فبدأت بنقل النظم الكريم على الترتيب في شعبان المعظم المنتظم في سلك شهور سنة ست وتسعين وألف، وحررت كل مجلس على أسلوب غريب، وأدرجت فيه كلمات التصوف، ومزجت التقرير بالأبيات الفارسية حيثما ساعدها المحل، وسميته بـــ«روح البيان في تفسير القرآن» فجاء في آخر سورة التوبة مجلدًا كبيرًا، والحمد لله، فعزمت على أن أجعله ثلاثة مجلدات إن أحرزني الله تعالى منذ ما شرعت فيه سبع سنين أسأل الله تعالى أن يجعلني صحيحًا مستقيمًا؛ فإن المقصود من مقدمات العوالم الكلية، والجزئية، والعلوية، والسفلية، وازدواج إناث النفوس، وذكور الأرواح هو نتاج المعرفة وتولدها ونشوها، ولها ذكور وإناث، فالإناث هي: المعرفة، وآثارها في نفس العارف، والذكور هي: الظاهرة في نفسه، وفي الآفاق، فالأول الكامل صاحب السلوك، والثاني الأكمل صاحب التسليك، ولا شكّ أن الخير المتعدي أفضل، فطوبى لمن أنتج مقدماته، وبقي بعده أولاد آثاره إلى يوم القيامة ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:61]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:26]، ومن الله الأعالي، والتوفيق وإليه رجوع الأمر على التحقيق.

الفصل السابع عشر /
في بعض الكلمات الواقعة بيني وبين حضرة الشيخ

هذا خاتمة الفصول، وبه يتم الكتاب، وإنما جعلته على هذا العدد رعاية لسن سلوك حضرة الشيخ - روح الله روحه - فإنه سلك هذه الطريقة وهو ابن سبع عشرة كما سبق تفصيله.

اعلم أن لي زيارات كثيرة لحضرة الشيخ سأذكرها من الكلمات في هذا الفصل هي كلمات الزيارات السبع الواقعة في أواخر عمره بعضها في بلدة «أدرنة»، وبعضها في القسطنطينة، وبعضها في جزيرة قبرص حين كان منفيًّا في قلعة «ماغوسة» المشتملة هي عليها فجاءت عدد الأسماء السبعة.

الزيارة الأولى

وقعت هذه الزيارة في بلدة «أدرنة»، وكان حضرة الشيخ مدعوًّا من طرف السلطان محمد الرابع للوعظ والتذكير، وكنت وقتئذٍ في قصبة «استروبجة» من القصبات الرومية كما سبق تفصيلها فأرسل إليّ ورقة فاستدعاني إلى أدرنه فلما قدمت مرضت من الحمى أيامًا لكثافة الهواء، فلم يتفق لي الصحبة على المراد لما أشير إليه بنقلي وهجرتي إلى بلدة «بروسة» أشار بالعود إلى القصبة، ونقل البيت منها إليها؛ ففعلت وحين مجتازي بـــ «أدرنة» أقمت عند حضرة الشيخ نحوًا من ثلاثة أشهر أقرأ عليه «الفصوص» كل يوم، وجرى بيننا كلمات من المراتب فما كان منها للسر سترته، وما كان بخلافه أبرزته وأظهرته كما قال في «المثنوي»: [....][1].

قال حضرة الشيخ: الحياة طبعها الحار، والعلم طبعه الرطب، الإرادة طبعها البارد، والقدرة طبعها اليابس فهذه الطبائع الأربع لها حكم وأثر في هذه الصفات والأسماء الإلهية عند أهل الحقائق، لكن الصفة التي طبعها الحرارة مثلها تشتمل على باقي الطبائع ولو بالقوة؛ فالحرارة في الحياة الظاهرة غالبة، والباقية باطنة مغلوبة، وكذا التي طبعها الرطوبة

---

(1) كلام غير عربي.

بالنسبة إلى باقي الطبائع، وعلى هذا قياس الآخرين، ولكون هذه التعينات مظاهر هذه الطبائع والصفات بحسب الغلبة، والعقل، والمغلوبية، والقوة جاءت مختلفة الآثار.

ألا ترى أن بعض الأولاد صورية أو معنوية جاء قابلاً مستعدًا لغلبة الحرارة والرطوبة في منشئه، وبعضهم بخلافه لغلبة البرودة واليبوسة فيها، وعين ما اقتضاه عينه الثانية، ولذا أظهر الله في هذه النشأة على ما هو عينه من الحال في عالم العلم،﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّه وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:117].

قال حضرة الشيخ: الألسُن ثلاثة: لسان ظاهر، ولسان حال، ولسان استعداد؛ فلسان الظاهر في الفم، وسؤاله السؤال للفظي، ولسان الحال في الروح وسؤاله السؤال الروحي، ولسان الاستعداد في أعيان الثابتة وسؤاله السؤال الاستعدادي، فهذه مراتب الألسن، ومراتب الأسئلة فلكل سؤال مقال.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:21] وهي الأعيان الثابتة فلا يفيض شيء إلا منها، فارجع في سؤالك إلى عينك الثابتة؛ فإن كنت ممن وقف على سر القدر، وما سألت إلا ما اقتضته، وإلا فما بعثك على السؤال إلا استعمال الطبيعي.

والمراد بالقدر هو القضاء الإلهي، والشأن الغيبي، ويسره ما اقتضته العين الثابتة.

قال حضرة الشيخ: إن الصور الحسية مظاهر الصور المثالية، وهي مظاهر المجردات، وهي مظاهر الصور العلمية، وهي مظاهر الأعيان الثابتة، وهي مظاهر الأسماء، وهي مظاهر الصفات، وهي مظاهر تجليات الذات الأحدية؛ فالحقيقة كانت جمعًا قبل هذه الآثار، وصارت فرقًا بعدها ثم كنت جمعًا في آدم عليه السلام؛ لأنه المظهر الكامل الجامع بين الجمال والجلال.

ثم كانت فرقًا في أولاده ألا ترى أن قابيل كان مظهر الجلال، وهابيل مظهر الجمال، ثم ظهرت الجمعية الأولى في شيث، ولذا جعله آدم عليه السلام وصيًا.

فسنة الله مذ تجليه بأسمائه وصفاته إظهار الباطن، وإبطان الظاهر، إلى انتهاء العالم، فآدم هو الكون الجامع، وهو بمرتبة الذات الأحدية، وحواء بمرتبة الصفات، والأولاد بمرتبة الآثار، فالأثر يقع مرة جامعًا بين سوء الأبوين، ومرة فارقًا بعينه بأن تكون الغلبة في نشأته للذات أو الصفة، والجمال، والجلال، والذات الأحدية لها المرتبة العليا، والصفة لها الفضيلة العظمى، ومرتبة الجمع لها الجمعية الكبرى؛ فلآدم عليه السلام المرتبة العليا؛ لأنه

بمنـــزلة الحمد لله، ولحواء الفضيلة العظمى؛ لأنها بمنـــزلة رب العالمين لتربية رحمها، وشرف الصفة أيضًا لا يخفى.

ولذا ذهب أهل الحقائق إلى أن المرأة وإن كانت عند أهل الشريعة ناقصة لا يصح الاقتداء بها، لكنها عند أهل الحقيقة كاملة وإلى كمالها يشير قوله تعالى في قصة حفصة وعائشة - رضي الله عنهما: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:4] حيث جعل الله تعالى نصرته، ونصرة جبريل، وصالح المؤمنين، والمقابلة تظاهر امرأتين، وهو من شواهد كمالها، وقدمها في الغاية.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] المثل عند أهل الظاهر زائد لئلا يستلزم وجود المثل له تعالى، وليس بزائد عند أهل الحقيقة فإن الهاء إشارة إلى الهوية الذاتية، والمثل إشارة إلى التجلي الأول أي: تجلي حضرة الاسم الجامع جميع الأسماء والصفات؛ فإن أول مثال من هذه التمثلات آفاقية ونفسية فالمعنى ليس كالتجلي الإلهي الذي هو أول التجليات شيء إذ هو محيط بكل التجليات الباقية المرتبة، وهي كلها تحت حيطة.

واعلم أن تعين التجلي الذاتي من الحضرة الإلهية لا من الذات الأحدية؛ فإنه لا رسم ولا اسم فيها.

قال حضرة الشيخ: ورد في القرآن: ﴿خلقت﴾، و﴿خلقنا﴾، و﴿جعلت﴾، و﴿جعلنا﴾ بالإفراد والجمع.

وسرُّه: إن الإفراد بالنظر إلى الذات، والجمع بالنظر إلى الأسماء والصفات.

وقال حضرة الشيخ: الولاية المطلقة تختم بعيسى عليه السلام وعند ذلك يتسارع الفساد إلى عالم الكون لكن بقاء الكفار أيامًا بعد عيسى عليه السلام إنما هو لقرب مفارقة الكون من الروح الذي هو الإنسان الكامل.

ألا ترى أن الجسم يبقى أيامًا في القبر بعد مفارقة الروح لقرب عهد المفارقة، فالبقاء من تأثير الروح، ثم يتسارع إليه الفساد فيبلى يومًا فيومًا، وتنحل أجزاؤه إلى أن يصير كأن لم يكن شيئًا مذكورا، وأمرًا موجودًا معلومًا.

قال حضرة الشيخ: إن أبا بكر رضي الله عنه لما تصدق بجميع ماله في غزوة تبوك حين حث النبي عليه السلام الأصحاب على الصدقة، وتجهيز الجيش، وجاء النبي عليه السلام وليس عليه إلا

سترة خَلقَة من السرة إلى الركبة، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: الله ورسوله»**، ثم جاء عمر وقد تصدق بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ ما قال لأبي بكر، فقال عمر: أبقيت نصفه، فقال عليه السلام: **«ما بينكما كما بين كلاميكما»**[1].

ومنه يُعرف فضل أبي بكر رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه لكن الفاضلية من وجه آخر ألا ترى أن أسارى بدر رأي أبي بكر فيهم أخذُ الفدية منهم والإطلاق، ورأي عمر فيهم ضرب رقابهم فأنـــزل الله الآية موافقة لرأي عمر وهو قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [الأنفال:67] فظهر من هذا الوجه فضل عمر على أبي بكر، ومن هذا الباب قصة تأبير النخل، فانظر التقدم والتأخر في رتب العلم بالله لا في الكشف والكرامات الكونية، وإصابة الرأي في الأمور، وظهور الفِراسات.

أقول: العلم بالله أعلى من كل كشف وكرامة، ويكفي هو شرفًا للولي سواء صدر منه خارق للعادة أم لا؛ فإن صدوره ليس من وظائف الولاية، وأكثر ما يصدر من أهل البرازخ، ومن هنا يقع لهم اليقين من جهة العامة لمكان المناسبة بينهم ولو في الجملة بخلاف العلماء بالله أهل الفناء؛ فإنهم لما انقطعوا عن علاقة كل اسم ووصف، وتجاوزوا عن حد الجمهور، وبمجانستهم انقطعت العلاقة بينهم وبين العامة، فإن اتفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال.

قال الشيخ: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فأخذت أمص من فِيه عليه السلام حتى شبعت، قال: فبينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ إذ طائفة من الهرات وبجنبها طائفة من الكلاب فأخذت الهرات تشير بأيديها إلى كلمة الشهادة، والكلاب ساكتة، فعرفت منه سر قوله عليه السلام: **«حب الهرة من الإيمان»**[2] وسر إخراج الكلب من البيت، وعدم الاعتناء به؛ لأنه ظهر منه أن الهرة مؤمنة بالله وبرسوله ﷺ ولذا كان حبها من الإيمان؛ لأن حب المؤمن من الإيمان، وأن الكلب خلاف ذلك، ولذا أمر بالكراهة، وعدم الحب؛ لأن بعض أهل البدعة والكفر أيضًا.

قال حضرة الشيخ: أهل الدعوى وهم المتشيخون سوف يغشيهم الحياء يوم تبلى السرائر، ويرهق وجوههم قترٌ وذلة؛ فإنه لا معنى لادعاء التحقيق بما ليس له.

---

(1) رواه أبو داود (1429)، والترمذي (3608)، والدارمي (1601).

(2) ذكره علي القاري في «المصنوع» (91/1)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (415/1).

قال: انظر إلى كلمات حضرة الشيخ الهدائي - قدس سره: حيث لا دعوى أصلاً، ولا رائحة إلا نية قطعًا، وقد كفى الله مؤنة الإظهار في حق الأخيار من غير دعوى وإقرار.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124] ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص:26] فما عرف من عرف إلا إظهار الله وعلائمه.

قلت: ما معنى قول الهدائي في بعض إلهياته التركية:[...][1].

قال: هو ليس بدعوى بل هو كالشرط والجزاء، والمراد هو الجسد فكما أن الميت المقبور في لحده قد فنى ذاته وأفعاله وصفاته فلا يصدر منه لفظ ولا ينبئ عن شيء فكذا الحي المقبور في جسده، وهو الذي مات بالاختيار قبل الموت الاضطراري ولم يبق له أثر من ذاته وصفاته وأفعاله، بل وصل إلى عالم المحو والمحق، لكن لما أخذ الله منه الفناء أعطى بدله البقاء، فذهبت الحياة الحيوانية، وجاءت الحياة الحقانية، وفني اعتبار الوجود، وبقي الوجود عين الجود، وانطمس آثار الصفات البشرية النفسانية، وتجلى أنوار الكمالات المتانية.

قال حضرة الشيخ: ينبغي للعارف أن ينظر إلى الخلق بنظر الجمع والتوحيد، وإلى نفسه بنظر الفرق والشريعة، فإذا فعل ذلك سلم من الكور، والأذى؛ فإن هذا النظر يمنعه عن الإطالة، فيسلم الناس من لسانه ويده، وينظرون أيضًا إلى فرق وشريعة فيسلمون من الاعتراض، فيحصل النفع لكلا الجانبين، هذا مما ينبغي أن يحفظ بين أرباب الطريقة.

قال حضرة الشيخ في قول حضرة الشيخ الشهير بـــ «اقتاده» - قدس سره - في بعض إلهياته التركية: [أهل عرفان ديديلرسن جقما ينجه اره دن بلمزسن كيمدد كندني ينهان ايلين][2].

المراد بقوله: «سن» الإضافة إلى الكون، والمراد من قوله: «جقما ينجه» إسقاط تلك الإضافة؛ لأن التوحيد إسقاط الإضافات مطلقًا وجودًا وذاتًا، وصفةً وفعلاً، فافهم.

وأيضًا المراد بقوله:«سن» هو النسيان كما هو مذكور فيه بطريق التضمن، وهو برزخ بينك وبين المعرفة، فإذا خرج من البين ظهر العين وانفتح العين وارتفع العين،

---

(1) كلام تركي.

(2) كلام تركي.

وليس للعبد حجاب غير الغفلة والنسيان.

قال حضرة الشيخ: الجمع في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:54] هم مظاهر الأسماء الجزئية، وجملة هذه تحت حيط اسم الله؛ فمكر الله غالب؛ لأنه يحيط ويحير؛ لأنه يمكر من حيث لا يدري الممكور، والممكور يمكر ولا يدري أنه يأخذ ذلك المكر من الماكر الحقيقي فأين هذا من ذلك!

قال حضرة الشيخ: التوحيد جحود في الحقيقة وإنكار؛ لأن توحيده سبحانه يوهم أن يكون له شريك ونظير وليس الأمر كذلك، فالنفي في كلمة:(لا إله إلاّ الله) نفي الموجود المتوهم من الكثرات، أما في نفس الأمر فلا نفي ولا إثبات، ورأي بعض أحباب حضرة الشيخ في المنام حضرة الهدائي فقال له: إن قولنا (لا) بالنسبة إلى عالم الفرق، فليس له أي: لـــ«لا» وجود في الحقيقة؛ لأن النفي متوهم.

قال حضرة الشيخ: النفس مطية كل سالك، وحق المطية أن يُعطي عافها في الليل والنهار بعد قطع الطريق في النهار، وكذا النفس يُعطي حظها من الغذاء على الاعتدال في الليل والنهار بعد الإمساك في النهار.

فالمطية الأولى تقطع الطريق الصوري على أقدام الصورة فتصل إلى المنــزل.

والمطية الثانية تقطع الطريق المعنوي على أقدام المعنوي فتصل إلى المطلوب، فلا بدَّ من الحركة؛ فإن الفرق في السكون.

كنت عند حضرة الشيخ في ساحل النهر في دار السلطان محمد الرابع قبيل المغرب، وكان مدعوًا للوعظ والتذكير، فقلت: الحمد لله على أنه ليس لي رائحة لدعوى أصلاً وإنما بضاعتي الآن العجز والافتقار.

فقال حضرة الشيخ: نعوذ بالله من النفس ودعواها الجلية والخفية، فتفطنت على الفور أن في كلامه هذا نوعًا من التأديب لي خفيًا، وذلك لأن مكر النفس وحيلها أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء، فالدعوى عدم الدعوى، و«القول ما قالت حذام»[1].

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه من حيث إنه إجمال لتفصيل العالم، وفيه ما فيه، وعرف أن الأكوان صور الأسماء الإلهية عبارة عن الذات المطلقة عرف ربه عرفانًا لا

(1) انظر: جمهرة الأمثال ص (1131)، والمستقصي ص (473).

يتداخله وهم ولا خيال، ولا يعتريه شرك ولا ضلال.

وقال حضرة الشيخ: التلوين تلوينان: تلوين قبل التحقيق وهو تلوين أهل الحجاب، وتلوين بعد التحقيق وهو تلوين أهل الكشف.

والتمكين أيضًا تمكينان: تمكين في التحقيق بعد التلوين وهو تمكين أهل الفناء، وتمكين في التلوين بعد التحقيق وهو تمكين أهل البقاء.

قال حضرة الشيخ: إن المريد في الشريعة من لا إرادة له؛ لأن الشريعة تثبت الإرادة لغير الله تعالى، والمريد في الحقيقة من لا إرادة له لأن الحقيقة في الباطن، وأثبت ما أثبته الشريعة في الظاهر، وأنفي ما نفته الحقيقة في الباطن حتى يكون عبدًا معتدلاً متوسطًا على مشرب الأنبياء العظام، ومذهب الأولياء الكرام من السابقين المقربين، لكن اجتهد في أن تكون مريدًا في الحقيقة فانيًا عن إرادة الدنيا والعقبى مطلقًا حتى تكون عبدًا مخلصًا وفانيًا عن إرادة المولى حتى تكون عبدا مخلَصًا بالفتح، فإذا كنت كذلك كنت عبدًا حقًا مطلقًا حرًا عن الرق جميعًا معدومًا بنفسه، موجودًا بربه، وكيلاً له ربه في الإرادة مطلقًا، يريد له ربه الدنيا والعقبى والمولى ،ويحصل له الكل بلا احتمال هلاك، ولا خطر، ومن كان كذا فأولئك هم المفلحون الفائزون الناجون مطلقًا، وهم الخالصون المخلصون ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:3] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] وهم الذين ورد فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:42].

قال حضرة الشيخ: إن إبراهيم عليه السلام له الإحدار بجميع مراتب التوحيد من الأفعال، والصفات، والذات، وذلك؛ لأن الحجب الكلية ثلاث هي: المال والولد والبدن، فتوحيد الأفعال إنما يحصل بالفناء عن المال، وتوحيد الصفات بالفناء عن الولد، وتوحيد الذات بالفناء عن الجسم والروح، فتلك الحجب على الترتيب بمقابلة هذه المقامات عن التوحيد، فأخذ الله عن إبراهيم المال تحقيقا للتوحيد الأول، وابتلاه بذبح الولد تحقيقًا للتوحيد الثاني، وبجسم الروحي حين رُمي به في نار نمرود تحقيقًا للتوحيد الثالث؛ فظهر من هذا كله فناؤه في الله، وبقاؤه بالله.

قال: واستلام الغنم أقوى من استلام سائر الحيوانات، وكذا كان الكبش فداء إسماعيل عليه السلام ولذا أيضًا من رأى في المنام شاة من أرباب النهاية والوصول فرؤياه تدل على كمال الانقياد والتسليم، ومن رآها من أرباب البداية، فذلك يدل على حال الطبيعة والشهوة؛ لأن الطبيعة غالبة في الشاة، ومن رآها من أرباب التوسط؛ فإن أردت أن

يحصل له الترقي والانجذاب إلى ما فوق مرتبته فعبرها بالاستلام، وإن أردت أن يحصل له الطهارة والتزكية فعبرها بالطبيعة.

ومثل هذا من اللطائف الجارية بين المريد والمرشد فشاء المريد الاستلام التام لشيخه كاستلام الشاة للذبح حتى ينال الفيض والحياة الحقانية.

قال حضرة الشيخ: جميع الأطعمة والأشربة يعبر بما هو كثيف ولطيف، فالكثيف إشارة إلى العلم الظاهر؛ لأنه مكون كالقشر من اللب كثيف، واللطيف والألطف إشارة إلى العلم الباطن؛ لأنه كاللب من القشر لطيف، ووجه التعبير بذلك هو أن الأغذية الجسمانية تقوي البدن على الأعمال والطاعات.

والأغذية الروحانية تقوى القلب والروح على التوجه إلى حضرة الذات.

والعلم الصوري كالغذاء الجسماني من حيث إن نفعه في ظواهر الأحكام.

والعلم الحقيقي كالغذاء الروحاني من أن نفعه في بواطن الأمور، فشرب اللبن في المنام بالنسبة إلى علماء الرسوم يعبر بزيادة العلم من حيث الظاهر، وبالنسبة إلى علماء الحقيقة يعبر بزيادة من حيث الباطن، ويعبر النفس اللبن بالنسبة إلى الطائفة الأولى، والزائد المشتمل هو عليه بالنسبة إلى الثانية.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:27]: إن السنن النبوية مستنبطة عن الكتاب، وسنن أهل الولاية من السنة، والمقصود من الكل استكمال النفس علمًا وعملاً.

فإن قلت: ما وجه الزيادات الصادرة من مشايخ الطريقة؟

قلت: لأنه لما تباعد العهد منه ﷺ بعدت الأفهام عن درك الحق، وتضاعفت الحجب، وقست القلوب، وضعفت الاستعدادات، فزادوا هذه الزيادات عونًا للضعفاء على تحصيل مطالبهم، وإرشاد إلى ابتغاء الوسيلة بحسب المراتب، وما فعلوها من عند أنفسهم بل بإلهام الله تعالى، ولذا قال بعض الكبار: ما يصدر عن الواصل من الأفعال شريعة، وكذا الباقي فاعتبروا حفظ الإجمال لتنقل منه إلى تفصيل الحال.

قال حضرة الشيخ: المرئي في المرآة هو الوجود الظلي، والمرآة مجلاة، لكن الوجود الظلي أيضًا مرآة لحال المرآة من الاستدارة والاستطالة وغيرهما، فكما أن الوجود الظلي لا يدرى إلا في المرآة فكذا لا يشاهد حال المرآة إلا في الوجود الظلي، ومن هنا قال العلماء بالله: إن الأكوان مرائي للوجود الظلي للأعيان الثابتة، فلا يشاهد فيها إلا ظل

تلك الأعيان.

وكذا الموجودات الظلية مرائي للأكوان فلا تعطي إلا حالها وصورتها، والوجود واحد في كل مظهر، لكن بحسب الرائي تختلف الأحوال فاختلافها لا يستلزم اختلاف الوجود، فكل من الوجود الظلي ومرائي خيال معدوم في حد ذاته كالمرآة والمرآة فيها، وإنما الوجود الحقيقي للأعيان بل للذات الأحدية فافهم.

ولا يتوهم أن الوجود قد انتقل من الأعيان إلى الأكوان والمرائي هو الوجود الحقيقي؛ فإن الأعيان على ما كانت عليه، وليس في البين إلا الظل والخيال.

وقال حضرة الشيخ: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وكانت مدتها ستة أشهر على ما هو أدنى مدة الحمل، ثم جاء الملك فعبر عن المثال المقيد إلى المثال المطلق، ولذا تقول: إن تعبير الرؤيا إنما هو في النفس الأمارة واللوامة، فإذا وصل السالك إلى المهمة قل احتياجه إلى التعبير؛ لأنه حينئذ يكون ملهمًا من عند الله كما هو صريح قوله تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس:8] فمرتبة الإلهام له كرتبة مجيء الملك للرسول ﷺ.

ويقال لعالم الرؤيا: عالم المثال المقيد بالنوم لتمثل الأشياء فيه، ويطلق على عالم الأرواح أيضًا لكنه لطيف بالنسبة إليه، كما أنه لطيف بالإضافة إلى عالم الأجسام.

واعلم أن الخيال هو في لسان القوم هو الحقيقة، فالخيال المطلق، والمثال المطلق شيء واحد، وهو ما تراه في اليقظة بالبصر، وهو العرش وما دونه من العناصر والمواليد، وكذا الخيال المقيد والمثال أمر واحد وهو عالم المنام وعالم الانسلاخ وعالم البرزخ، والانسلاخ قرن المنام في الرتبة؛ فإنه حال الكُمَّل.

ثم كان رسول الله ﷺ لا يأخذ الوحي إلا في حضرة الخيال المطلق أو المقيد بالانسلاخ، إلا أنه لا يبقى لأهل الانسلاخ إحساس لمعنى عنده أصلاً، ويعرض لجسده فتور، فإذا تم الأمر رجع إلى حاله وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ [البقرة:245] فالقبض إشارة إلى الانسلاخ، والبسط إلى العود إلى الحياة الأولى، فإذا قبضه بالانسلاخ بسط في حضرة المثال القيد، وإذا بسط بالرجوع قبضه في حضرة المثال المطلق، أو نقول: يقبضه من المثال المطلق، ويبسط في القيد، ويقبض في القيد، ويبسط في المطلق.

سألت حضرة الشيخ عن التوفيق بين قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾

[هود:56] وبين قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الملك: 22] الآية.

فأفاد: إن الأول إطلاقي حقيقي، والثاني تقييدي إضافي بالماشي مكبًا على وجهه على صراط مستقيم في الحقيقة، يمشي به ربه إلى غاية ما، وإن كان في الصورة على الضالية دون الاستقامة، والحاصل أن الفرق يعتبر الضلال، والجمع يرفع الإشكال، والأول بحسب البداية، والثاني بحسب النهاية، ولا يلزم من الضلالة في البداية عدم الهداية في النهاية؛ فإن البداية والنهاية واحدة، كما أشار إليه قوله:«**سبقت رحمتي غضبي**»[1].

وقول حضرة الشيخ الهدائي في بعض الإلهيات التركية: [...][2] وفيه تفصيل عجيب يحال على الذوق، فافهم، واثبت على الصراط المستقيم، ولا تكن من المكبين على وجوههم، واعتبروا الضلال ضلالاً، والهدى هدى؛ فإن الشريعة هادية إلى كل منهما، وإياك سوء الظن في حق الصوفية؛ فإن مقالاتهم تحصيل معاني لا تدرك بالعقول، وإن كانت مستنبطة من النقول، والله الهادي، وعليه اعتمادي واستنادي.

قال حضرة الشيخ في قوله ﷺ: «إن الله فرد يحب الفرد»[3]: إن مقام الفردية يقتضي التثليث، فهو ذات وصفة وفعل، وأمر الإيجاد يبتني على ذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] إرادة وقول، والقول بعد الإعلان باللقاء، فليس عند الحقيقة هناك قول، وإنما هو لقاء الموجِد - اسم فاعل - بالموجَد - اسم مفعول - وسريان هويته إليه، وظهور صفته وفعله فيه، فافهم هذه الدقة فإنها إرادة عن مقام الحقيقة.

قال حضرة الشيخ: إذا قلت: **لا إله إلا الله**، فشاهد بالشهود الحقاني فناء أفعال الخلق، وصفاتهم، وذواتهم في أفعال الحق سبحانه، وصفاته، وذاته وهذا مقتضى الجمع والأحدية، وتلك الكلمة في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة.

وإذا قلت: **محمد رسول الله** فشاهد بالشهود الحقاني أيضًا بقاء بأفعالهم وصفاتهم وذواتهم بأفعاله تعالى وصفاته وذاته، وهذا مقتضى الفرق والواحدية، وتلك الكلمة أيضًا في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة، فإذا كان توحيد العبد على هذه المشاهدة فلا جرم أن

---

(1) رواه البخاري (6998)، ومسلم (4940).

(2) كلام تركي.

(3) ذكره حقي في تفسيره (25/7)، و(421/11).

توحيده يكون توحيدًا حقيقيًا حقانيًا لا رسميًا نفسانيًا، وفي تحت هذه العبارة من الإشارات الخفية ما لا تعد ولا تحصى، هدانا الله وإياكم إلى فتحها وذوقها.

وقال حضرة الشيخ في قول الهدائي - قدس سره - في بعض إلهياته التركية: [غالب اولوب حب وطن، وحدت ديارنه كيدن، صيغمز ارايه جان وتن سريله سيرايتمك كرك] (1) المراد بلفظ «جان»: عالم الأرواح، وبلفظ «تن»: عالم الأشباح، وبلفظ «السر»: عالم الأمر الإلهي الذي يقابل الخلق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ [الأعراف:54] أشباح من الأجسام لكثافتهما بالنسبة إليه فلا يمكن سيره والدخول فيه إلا بعين السر أو القدم، فلا يصل إلى اللطيف إلا الألطف.

قال حضرة الشيخ: الليل إشارة إلى النفس الأمارة، والصبح الصادق إلى اللوامة، والإسفار جدًّا إلى الملهمة، وطلوع الشمس إلى المطمئنة.

وآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53].

وآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:2] قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ [الشمس:8] وآية الرابعة قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:27] ولا يصل السالك إلى مرتبة النفس المطمئنة إلا بعد التجلي اليقيني الذي هو كطلوع الشمس، فكما عند طلوعها لا يبقى أثر من ظلمة الليل أصلاً فكذا عند التجلي العيني لا يبقى أثر من ظلمة النفس جدًا بل تنكشف الحقيقة كما هي، وتطمئن النفس اطمئنانًا تامًّا كما قال عليّ - كرم الله وجهه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»(2) وذلك؛ لأن غطاء الكثرة لا يحجب الواصل عن مشاهدة الواحدة؛ لأنه قيامه دائمًا، وأنه يرى عرش الرحمن بارزًا، والنعيم والجحيم ظاهرًا، فالتجلي العيني يعطى هذا الكشف والشهود بخلاف تجلي العلمي؛ فإن له برازخ كثيرة، وصاحبه لا يأمن العاقبة؛ لأنه لم يتخلص من ظلمة ليل النفس قطعًا فله بقية النفس مطلقًا، وإذا تيقنت هذا فاعلم أن سلوك الأنبياء - عليهم السلام - النفس المطمئنة إذ آخر مراتب الولاية أول مقامات النبوة، ولا يكون الولي وليًا إلا بعد التجلي العيني، وهو مرتبة النفس المطمئنة، وهذا لا ينافي أن تكون نفوسهم أمارة بالقوة.

---

(1) كلام تركي.

(2) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (203/10)، وذكره علي القاري في «المصنوع» (149/1).

ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام:﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53]، وقول نبينا عليه السلام: «فإن شيطاني قد أسلم»[1] وكل منهما قرين الآخر.

أقول: زل في هذا أقدام أكثر السلاك، ويؤيد ما ذكرنا ما في «التأويلات النجمية» عند قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:159] وهو أن النفس أمارة بالسوء، وإن كانت نفس الأنبياء - عليهم السلام - انتهى.

وكذا قول المولى الجامي في قوله تعالى:﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70] يعني: في الحكم؛ فإن الأعيان أنفسها لا تتبدل، ولكن تنقلب أحكامها، انتهى.

أي: كما ينقلب النحاس عن النحاسية إلى الفضية، والفضة منها إلى الذهبية بعلم الإكسير والعين واحدة، ومن فهم هنا رزق علمًا كثيرًا، هذا، ولا مراء مع أهل المرية، وليس وراء عبادان قرية.

قال حضرة الشيخ: الكامل الواصل إلى الله الفاني والباقي به مجرد عن كل لباس ومع ذلك فهو عند أهل لباس جسمانيين أو روحانيين، وهو التفاوت الحقيقي الذي صاحبه في الدرجة العليا من الجنة، كما أن صاحب النفاق الأصغر الحجازي في الدرك الأسفل من النار، وبين رفيع الدرجات وخفيض الدركات تقابل تام.

فإن قلت: ما معنى النفاق الحقيقي؟

قلت: إظهار الوجود المختلفة لتعينات المتكثرة بحسب نشأته، وإحاطة أسمائه وصفاته كما أن النفاق الشرعي إظهار الإيمان بوجه آخر.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى:﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾: إن الله تعالى كان عنده، وهو وكيله، وخليفته في جميع أموره مما يأتي به ويذر، ومقتضى آداب العبودية أن يترك التصرف لله تعالى، ولا يتحرك همته إلى شيء لا إلى جانب وجوده، ولا إلى جانب عدمه، فاشتغال بعض الرجال بالاسم القهار مثلاً لحصول بعض آثار القهر كهلاك شخص ومرضه ونحو ذلك من الأغراض الفاسدة، والمطالب النفسانية ذهول عن حقيقة الأمر، ونزاع الملك، والعياذ بالله تعالى.

أقول: اتفق لي مرة في دار السلطنة القسطنطينية أن أجلس بمجلس الوعظ في مجمع

(1) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (331/3).

عظيم من مشايخ وفيهم حضرة الشيخ فصدر مني كلمات زاجرة تكلم منها النفوس والقلوب القاسية، فتألم منها بعض أهل الدعوى من الشيوخ الذين لهم الشهرة التامة الكاذبة.

وقال: أما يخاف هذا الواعظ الشاب وله شيبة من توجهنا المستأصل له، فبلغني ذلك منه، فقلت: ما أخاف؛ فإن المحيي والمميت هو الله، ودمر الله بالباطل منا، فلم يلبث الخبيث كثيرًا حتى نفاه السلطان محمد الرابع بعد أن أراد قتله لكلمات كفرية صدرت منه ثم هلكه الله، ودفع ابتلاء الناس به فإنه كان قد أفسد قلوب كثير من المسلمين.

قال حضرة الشيخ في القول الشهير: «من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان»: الليل بمثابة الأم كما قيل: الليلة حبلى، والنهار بمنـــزلة الأب، فالليلة كأنها حاملة، فإذا أصبحنا فكأنها ولدتنا، وسلمنا إلى تربية النهار، فلا يزال المرء يتقلب في نهاره على أنواع من التربية إلى مجيء الليل، فمن لم يؤدبه أبواه في الليل والنهار يؤدبه الحق فيما يقتضي الجمال والجلال.

سأل المولى خليل الشهير بـــ«عرب زاده» من علماء بلدة «أدرنة»: لم كان الكمال الملكي حضوريًا، وحصوله وقعيًا خلقيًا لا مكتسبًا والكمال الإنساني تدريجيًا اكتسابيًا؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن كمال الإنسان بجميع الجمال والجلال، دون كمال غيره، وأسماء الله تعالى إما جمالية متعلقة باللطف، وإما جلالية متعلقة بالقهر، وظهور أحكام الأسماء في الإنسان الكامل تدريجي لا دفعي ألا ترى أن الله تعالى لما تعرف لآدم بالإيجاد ناداه:«يا قدير» ثم تعرف له بتخصيص الإرادة، فناداه:«يا مريد»، وهكذا فكمال الإنسان الكامل تدريجي يعني بالنسبة إلى النشأة العنصرية دفعي بالاعتبار إلى النشأة الروحانية، ومنه يعرف كون العلم حضوريًا وحصوليًا؛ فإن كونه حضوريًا بالنسبة إلى مرتبة الروح، وكونه حصوليًا بالنسبة إلى مرتبة الجسم، وإلى الأول يشير قوله تعالى حكاية عن إقرار العبودية: ﴿قَالُوا بَلَى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة :31]؛ فإن هذا التعليم تذكير لما نسبه بعد تعلق الروح ببدنه ونـــزوله من عالم الأمر إلى عالم الخلق، فالعلم والكمال موجود بالفعل في الروح بالنسبة الأولى، وبالقوة بالنسبة الثانية، وبالكسب يتوصل إلى إخراجه بالقوة إلى الفعل.

ثم سأل: ماذا يطلق على النطفة الملقاة في الرحم نفسها جنينًا؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن من أسمائه حينئذٍ الأحد الجامع، والظاهر، والخالق، والباري وغيرها مما يناسب لتعينها، ونعني بالنطفة ما فيها من المادة الإنسانية قدر خردلة؛ فإن تلك الحبة هي التي يحصل منها العلوق، ولولا ذلك في أجزاء النطفة ما تكون الولد، وكذا عجب الذنب، وهو جزء من الأجزاء الإنسانية قدر خردلة بل أصغر لا يبلى ولا يفنى، وإن فنى سائر الأجزاء، ومنه يبدأ التركيب في النشأة الآخرة؛ فسبحان القادر القوي أنشأ الإنسان في النشأتين من جزء لا يتجزأ إشارة إلى أحديته، وتطبيقًا للآخر بالأول.

وإلى هذه الحبة إشارة في قوله تعالى:«**كنت كنـــزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف**»[1] فإن لفظ «**أحببت**» مشتمل على الحبة، ونفي بالحبة ذلك الجزء قدر أصغر خردلة[2].

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (173/2)، والمناوي في «التعاريف» (568/1).

(2) قال المصنف: كان تعالى «كنـــزًا مخفيًا» قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا.

فالأول: مرتبة الجلاء.

والثاني: مرتبة الاستجلاء.

فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [آل عمران:18].

فالهويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنـــزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته.

ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلي إلا بالمحلّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانيّ، وآية مثالية، وسورة جسمانية.

وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله مجلّي لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمي عنه فقد عمي، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لمُسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك =

قال حضرة الشيخ: المعرفة والمحبة يتفاضل أحدهما على الآخر بالاعتبار، فبينهما فرق، وذلك أن المعرفة بحسب التنـــزل الرحماني كما يشير إليه قوله:«كنت كنـــزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف»(1) له تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] لي تفسيره بـــ «يعرفون»؛ فكونه تعالى معروفًا باعثًا للمحبة، وعلة غائية للخلق، والمحبة باعتبار الترقي الإنساني، وكون المرء عبدًا حقًا، ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله فلا رتبة فوق كون العبد محبوبًا لأن المحبة باعتبار الفناء، والمحبوب باعتبار البقاء، وللبقاء فضيلة عظمى.

قال حضرة الشيخ: الفرق والجمع على مراتب، فأهل الغفلة والحجاب في الفرق الأول، وهو شهود الخلق بلا حق بعد الجمع والفناء الأول، وهو شهود الحق بلا حق، ثم بعده الفرق الثاني والبقاء الأول ثم بعده جمع الجمع والفناء، والبقاء الثاني وهو شهود الخلق في الخلق، وشهود الخلق في الحق من غير احتجاب بأكثر عن الوحدة وبالعكس، وعنده يظهر سر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] وهذه – أي: مرتبة جمع الجمع – مرتبة جمع الذات والصفات، والأفعال بالفعل، والتحقق بأسرارها.

قال حضرة الشيخ: إن إسرافيل مظهر الحياة، وجبرائيل مظهر العلم، وميكائيل مظهر الإرادة، وعزرائيل مظهر القدرة، وكذا الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة على الترتيب والحياة بمنـــزلة الذات بالنسبة إلى سائر الصفات؛ لأنه لا واسطة بينها وبين

=

من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة.
فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى.
وليس لله تعالى تجلٍ إلا في مرآتهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت؛ فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم.
ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع.
فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام.
واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين. انظر: مرآة الحقائق (ص 434).

(1) سبق تخريجه.

الذات، والباقي تابع لها.

واعلم أن أكثر الأسماء إضافية، فالأول باعتبار الآخر، وبالعكس، وعلى المظاهر باعتبار الباطن وبالعكس، والمنتقم باعتبار العفو والغفور وبالعكس، وعلى هذا، وفي الحقيقة لا اسم ولا رسم ولا نعت، ومن هنا يقال: البحث والمجهول المطلق، وغير ذلك.

فإذا حصل للسالك الكمال التام، ووصل إلى مرتبة المخلصية بالفتح يجرد عن جميع الألبسة المعادية، وتعرى عن جميع الأسماء، ولكن المجازية فذاته إذًا غنية عن العالمين لأنه عبد من كان غنيًا عن العالمين، ومن كان عبد الغني فلا جرم يكسب من غناه غنى يستغني به عما سواه، وإذا ارتفع الكثرات اتحد الحضرات، وإذا اتحد الحضرات ارتفع الظهور والخفاء فكان في عماء ما فوقه هواء ولا تحته هواء، وصلنا الله وإياكم من العلم والغنى، وجعلنا وإياكم بمجمع البحرين، وكشف عنا وعنكم غطاء الوجود، وحققنا وإياكم بحقيقة الشهود إنه مفيض الخير والجود.

وقال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]: إن كل ما دخل تحت الوجود من الجماد والنبات والحيوان والملك والجن والإنس وغيرها فهو مرسل من الله تعالى، أرسله بالفيض الأقدس الأقدم أي: عالم المعاني ثم بالفيض المقدس المقدم إلى عالم الأرواح والمثال والأجسام، فأهل التوحيد والشهود لا يفرقون في الحقيقة بين أحد من هذه الرسل؛ لأنها آثار، والآثار تستند إلى الأفعال، وهي إلى الصفات، وهي إلى الذات المرشد، فلم يبق إلا الهوية السارية في جميع الموجودات سريان المطلق في المقيد، لا على جهة الحلول والاتحاد، فلا موجود إلا هو.

قال حضرة الشيخ: في قول الهدائي - قدس سره - في بعض إلهياته التركية: «ايتمزسنك عاشقلرك ملك سليمانه تظروا»[1]: إنما لا يتعلق نظر العاشق الصادق إلى مُلك سليمان لأنه لا يليق بشأنه أن يؤثر المفضول على الفاضل، والسوى على المولى؛ فإن آثر فقد زاغ بصره وطغى، فلم يتحقق بالمعراج الحقيقي الأعلى في مقام: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: 9].

أقول: وداود عليه السلام لم ينظر إلى ملك سليمان، ولذا رجح التسبيحة على ملكه العظيم، فهو في ملكه في عين التجرد، وأما التلبس بحسب الظاهر فقد كان بإرادة الله

---

(1) كلام تركي.

تعالى، ومن دخل في أمر الحق فهو بالحق دائمًا فلا يشغله شأن عن شأن.

وأما صاحب المحمدية: «دانه كيم يدى كركوهرا ولسه ياتيم، ايتميم هركز نظر كوررايسم زرين جبال»[1] فلا يقدح في شأن آدم ﷺ كما يزعمه بعض العامة.

المقصود من هذا الكلام بيان همته العالية، وكذا قول الحافظ: «يدرم روضة جنت بدوكندم بفروحت ناحلف باشم لكز من بجوى نغروشم»[2]، فإنه يشير إلى أن المطلب الأعلى هو الوصول إلى الله تعالى، فمن كان مطمح نظره ذلك فهو لا يلتفت إلى الجنة ونعيمها، فضلاً عن الدنيا ونسيمها؛ فإن ما سوى الله لا قدر له عند الله إلا قدر ما أذن الله، فافهم ومنه يعرف معنى قول الشيخ الشهير بـــ«يونس أمره»: «جنت جنت ديدكلرى برقاج اوله، برماج حورى اسنينه وبرسون إلى بكاسنى كرك سنى»[3].

فإن مراده تعظيم المولى الذي أنشأ ما شاء، لا تحقير الجنة، فمن قنع بالدنيا خسرت تجارته، ومن قنع بالآخرة ربحت صفقته، ومن قنع بالله عظمت بضاعته، واتسعت دولته، واستغنى غناء يستصغر عنده الدهر وقيمته، وإياك والطعن في أولياء الله؛ فإن تحت عباراتهم معاني مقصودة، وإن كان تنبئ بعض العبارات على غير ما ينبغي بالاعتبار الظاهر.

قال حضرة الشيخ: كان السلف يعدون سوء أخلاق نسائهم من سوء أخلاق أنفسهم، وذلك لأن المرأة إشارة إلى الطبيعة، والنفس والرجل إلى القلب والروح، والقلب قطع الوجود الإنساني، فمتى صلح صلح الجسد بجميع قواه، ومتى فسد فسد الجسد كله بجميع قواه أيضًا، فسوء الأدب من طرف المرأة إشارة إلى بقية الوجود في طرف الرجل، فيحتاج إلى المجاهدة القوية إلى أن تحصل التزكية المعنوية والموافقة الأنفسية والآفاقية، ألا ترى أن النبي ﷺ لما قوي توجهه بروحه إلى التسبيح والتحميد، سرى ذلك إلى أعضائه وقواه في الخارج، فلا جرم كانت تسبح تسبيحه ﷺ.

قال حضرة الشيخ الأكبر – قدس سره الأطهر: قد يظهر من الخليفة الأخذ لحكم من الله ما يخالف حديثًا ما في الحكم فيخيل أنه من الاجتهاد وليس كذلك، وإنما هذا

---

(1) كلام تركي.

(2) كلام تركي.

(3) كلام تركي.

الإمام لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي، ولو ثبت الحكم به، وإن كان طريق الإسناد العدل بمقصوم الوهم مبدأ السهو والنسيان، ولا من النقل على المعنى الذي هو مبدأ التأويلات والتحريفات، فمثل هذا يقع من الخليفة اليوم، انتهى كلامه.

قال حضرة الشيخ في هذا المقام من كلام الفصوص: إن المريد الحقيقي لا يتخلص عن حقيقة الاعتراض إلا بعد إيمانه الكامل بأن مرشده هذه الخلافة والكشف؛ فانه يجوز أن يكون المرشد ممن له حظ أوفى من هذا المقام، فما يأتي ويذر إلا بما أعطاه الكشف الصحيح.

أقول: ذكر أن حضرة الشيخ المدعو بـ «وفا القسطنطينة» - قدس سره - كان يصلي الظهر في آخر وقتها، وكان يجهر بالبسملة في الجهرية مع كونه حنفي المذهب لكن شأنه العالي يأبى أن يخالف الظواهر، فإنما فعل ما فعل بحسب الكشف الإلهي لا من عند نفسه، وكان فوق الكل في زمانه، فالطعن لمثله لا يثمر إلا التعب في الدنيا، والتنـــزيل في العقبى، عفا الله المولى.

قال حضرة الشيخ: الكلام مقلوب الكمال فآخر الكمال الكلام، كما أن أول الكلام الكمال؛ لأن أول التعينات الإلهية هو الهوية[1] الذاتية، وآخرها الكلام، ولذا يقال الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام على الترتيب إلا أن أول ما

(1) والهوية بضم الهاء: يُراد بها عند الحكماء: الحقيقة الجزئية؛ لأن ما به الشيء هو هو، إن كان جزئيًا تسمّى بذلك. وإن كان كليًا يُسمّى بالماهية، وإن لم يعتبر فيه كلية ولا جزئية كان حقيقة، فهي أعم منها. وهذا المعنى وإن كان صحيحًا في نفسه عند السادة حيث أن الوجود الحق عندهم جزئي لا كلي: أي هو شيء واحد ظهر بكثرة إلا إنهم: أي السادة اصطلحوا على الهوية بأنها الوجود الحق الذي لم يؤخذ بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فإن الوجود كما قدمنا إما أن يؤخذ لا بشرط شيء، وهو الذات البحت.

وإما أن يؤخذ بشرط شيء ولو كثر، وهو مقام الجمع المعبر عنه بالواحدية، وإما أن يؤخذ لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وهو هذه الهوية السارية بكل شيءٍ، أي شيء كان، وهي الوجود الحق المذكور، والمراد بالسريان الظهور في المظاهر: أي ظهور هذه الهوية في كل شيءٍ، كما يشاهده العارفون فإنهم صرَّحوا به، لا يكون الكامل كاملاً حتى يرى هوية الحق سارية في كل شيءٍ، بل وهويته كذلك؛ إذ هي هي، ولا يظن الحلول بقسميه، بل ولا يتوهم أن لا إثنينية أصلاً، بل شيء واحد تعين بتعينات حسية وغيرها رجعت إلى عدم محض. وانظر: كشف الأسرار لصلاة سيد الأبرار للعطار (ص 125) بتحقيقنا.

يبدو في الجنين حسن السمع، ولذا منع في الشرع من وطء الحامل المطلقة أو المتوفى عنها زوجها إلى أن تلد؛ لأن بالوطء يزداد حس الجنين، فيكون كالسقي لحرث الغير، ثم بعد أن ولد يظهر حس البصر والكلام فآخر ما يظهر بعد الولادة هو البيان [...][1].

يجرى في عالم الغيب، ومن فقد حسًّا فقد علمًا، ومن فقد علمًا فقد عيانًا، ومن لا عيان له لا حضور له، ومن لا حضور له لا حلاوة لطاعته.

قال حضرة الشيخ: النور والنار حقيقة واحدة إلا أن النور إذا اشتد ظهوره يسمى نارًا، فالنار مؤنث، والنور مذكر، وكما أن في آدم وحواء - عليهما السلام - سر البطون والظهور، وإن اختلف التشخص، فكذا في النور والنار، وإن تنوعت الصور، يعني أن حواء بطنت في آدم ثم ظهرت بزيادة صفة، والنار بطنت في النور ثم ظهرت كذلك، واختلاف صورتها لا يقدح في كون أحدهما عين الآخر في الحقيقة، وهنا سر عظيم في حق أهل النار ينفهم من قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**»[2] ففي النار والغضب بطن النور والرحمة؛ لأنه في الفرع ما في الأصل، فافهم.

قال حضرة الشيخ: إن سهل بن عبد الله التستري - قدس سره - تمَّ له أمر السلوك في صباوته لكمال لطافة حجابه، فلم يحتج إلى مدة طويلة بمجاهدة ورياضة عريضة، فإنه يختلف السلاك في الوصول إلى الله سرعةً وبطئًا بحسب لطافة الحجاب وكثافته، فروح الكامل سريعة التعلق ببدنه في التنــزيل الرحماني، فلا يمكث في العوالم مكث أرواح الناقصين ثم إذا تعلق ببدنه لا يسرع له الانتقال إلى المقصود من غير تعب، كما قال حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره - : المجذوب من اختار الله له في الأزل البلوغ إليه بلا كسب ولا تعمل فوقع مفطور مع الفطر إليه بلا اجتهاد بدفع غيره عن مقتضى قصده، والمجذوب بعد السلوك هو من شغلته الأغيار عن الله زمانًا فلم يزل في علاج وجودها بتوفيق الله حتى أفناها، ولم يبق له سواه سبحانه، انتهى الكلام الأكبر في كتاب «تلقيح الأذهان».

قال حضرة الشيخ: الجلال عند الصوفية ما جاء من حيث لا يحتسب، بحيث لم يكن في حصوله حركة لا صوريه ولا فكرية، ولا يشترط فيه أن يكون من صالح أو غيره،

---

(1) بياض بالأصل.

(2) سبق تخريجه.

وإليه الإشارة بقول حضرة الهدائي: [كله بريسنه كيم من غير طلب انى حقدن بيلور ارباب ادب] [1].

قال حضرة الشيخ في قول الهدائي في بعض إلهياته التركية: [كجوب فرما نيله بونجه عوالم كنوركن عالم انسانه كلدك] [2]: إن الإنسان يعبر إلى المنازل حين نـــزوله إلى هذا العالم، ويتعين بتعينها، ولا يقدح هذا التعين في حقيقته، ومثاله الأصلي، وآخر ما يصير إليه بعد عبوره من المولدات النطفية، والمتعين بتعينها، ثم يسويه الله بتركيب خاص في رحم الأم.

قال حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر: قرأ بعض أصحابه «إحياء العلوم» في مكة المكرمة، وأنه خطأ الإمام الغزالي في موضع من الإحياء مما يتعلق بالاعتقاديات، لكن يدل هذا التدريس والقرآن على عظم شأن ذلك الكتاب ومؤلفه، ولا يقدح فيه القدح المذكور بناء على تفاوت مقامات العارفين، وقد شهد له في بعض كتبه بأنه من رؤساء هذه الطريقة.

قال حضرة الشيخ: الاسم الثاني مجازي من حيث كونه ملفوظًا ومكتوبًا، وحقيقة الأطعمة والأشربة والمعاجين المتخذة للمريض من العقاقير المختلفة، كما أن قطب الوجود نفسه هو الاسم الأعظم في الحقيقة؛ فإن الاسم في الحقيقة هو التعين، والله تعالى مبجل في كل تعين بما يناسبه من الأسماء والصفات.

أقول: من أعجب ما قيل في هذا الباب قول «يونس أمره» الذي شهد له الرجال بالكمال في بعض كلماته التركية: [بتوردم يوسفي كنعان ايلنده بولندى يوسفم كنعان بولنمز][3].

فإنه يريد بهذا الكلام أنه قبل أن ينكشف عنه الغطاء كان محجوبًا عن إدراك جمال يوسف الحقيقي في أرض كنعان الكثرة، فلما ارتد بصيرًا بإلقاء قميص تجلى أنوار الجمال على وجه يوسف، ورأي جماله المنير، وغابت عنه كنعان يعني لم ير بعد هذا التجلي في المظاهر إلاَّ الهوية السارية في جميع الموجودات، ففقد ما وجده، ووجد ما فقده، بل كان

---

(1) كلام تركي.

(2) كلام تركي.

(3) كلام تركي.

المفقود عين الموجود، والموجود عين المفقود، وما ثم إلا كشف الغطاء، وإزالة الحجاب.

أقول: ضرب لهذا مثل، وهو أن الحيتان قال بعضها لبعض: سمعنا أن في المحل الفلاني حوتًا رأى الماء، فاجتمعت عنده، وسألت عنه: إنه قيل في حقك أنك رأيت الماء؟ فقال: أروني أن في هذا المحل غير الماء حتى أُريكم، فافهم الإشارة؛ فإنه ليس وراء عبادان قرية.

اشتكيتُ إلى حضرة الشيخ يومًا عن كثافة الحجاب فقال - من وجه العتاب: هذا ليس من كلام أهل الطريقة، وإنما اللائق بك أن تنظر إلى قوله تعالى: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [الأعراف:29] فتعبده وأنت عبد حق لا أن تعبده لإزالة الحجاب، وظهور الحرارة للقلب، وحصول الكشف والعلوم والأذواق؛ فإن دنيا أهل الطريقة العلم الظاهر من القوانين والرسوم، وآخرتهم العلم الباطن من الأذواق والكشف والتقيد بكليهما.

حجاب الأول: حجاب ظلماني، والثاني: حجاب نوراني، وأهل كل منهما محجوبون عن الحق، فإن الدنيا والآخرة حرامان على أهل الله، وإنما المنع والعطاء بيد الله، وينبغي لعبد الحق أن يكون المنع والعطاء سواء عنده، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد:23] فإن جذب المحبوب، ودفع المكروه من الشهوات عند أهل الله، فاترك التصرف بتصرف الحق فيك بما أراد، اللهم اجعلنا عبيدًا مطلقين، وبحقيقة العبودية متحققين.

قال حضرة الشيخ - بطريقة التوجه: عليك بالصوم كل يوم؛ فإنه طريقة أهل الحق، وحافظ على أوقاتك لا سيما الغدو والرواح فلا تغفل عن التوجه الإلهي عند الصباح إلى وقت الضحى، ومن العصر إلى وقت المغرب بمقتضى ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الإنسان:25].

فإذا جاء زمان الإفطار افطر بما تيسر لك من الحلال الطيب، ثم صلِّ المغرب صلاة الأوابين، ثم لا تشتغل بعدها إلاَّ بالذكر والفكر بالقلب الهيولاني الوجداني، وأخِّر الأكل إلى أن يقوم أهل الغفلة عن مائدتهم، وعنده كُلْ قَدر ما يعتدل به مزاجك، ويسكن قلبك، ويقوي بدنك عن الطاعة إلى المساء الآتي، وما بين العشائين وقت شريف وزمان فتح وفيض ينبغي أن يصرف إلى المعاد لا إلى المعاش، وأن مخالفة الجمهور في وقت الطعام فهي مفيدة لنا إذ لا بدَّ من مخالفتهم في عاداتهم وأحوالهم؛ فإن طريقنا طريق الأصحاب ﷺ لا طريق أهل العرف.

قال حضرة الشيخ: إني إذا وصلت إلى مدينة «بروسة» فالزم مكانك ثلاث سنين وأَخِّر الزيارة إلى تمام هذه المدة؛ فإن في التثليث سر الفردية ومن ثبت نبت.

أقول: كان يوصي بهذا جميع الخلفاء رعاية لهذا السر، وربما نسخ هذا بحسب المصلحة كما سيجيء، ووصَّى أن يكون وردي كل يوم جزءًا كاملاً من القرآن على ما هو عادته الشريفة، وهذا ما عدا الأوراد التي عينها لي حين المبايعة، وسمعت منه قبل وفاته بشهور أنه قال: لم أترك إلى الآن الورد الذي ألزمنيه شيخي، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل ولا أعرف لنفسي رتبة وفضلاً، وإن طال الأمد وكان ما كان.

أقول: انظر إلى هذا الكامل كيف نظر إلى نفسه بالنظر الأول، وكيف حافظ على العهد المأخوذ إلى آخر العمر، فإن الطريق طريق النفس، وملازمة العلم والعمل واتباع الشيوخ وفي مدة العمر.

وفي الحديث: «**أفضل الأعمال أدومها وإن قل**»[1].

قال حضرة الشيخ: إذا تمَّ الحركات يحصل السكون، وعنده يعد السالك كاملاً؛ لأن أول الأمر كان سكونًا محضًا، وإلى أوله يرجع آخره قال تعالى في الحديث القدسي: «**كنت كنـــزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف؛ فخلقت الخلق**»[2] فالخلق إنما يكون بحركة معنوية، فمنه يعتبر الحركة، وأما ما قيل لم يصل إلى سرِّ المبدأ.

واعلم أن عبارة السكون والحركة إنما هي للتفهيم وإلا فليس هناك شيء منها.

الزيارة الثانية

هـــذه الزيارة وكذا ما بعدها وقعت بعد استيطاني في بلدة «بروسة»؛ فإن حضرة الـــشيخ استخلفني منها، وحدد الزيارة ثلاث سنين، ثم لما مضى سنة ونصف نسخ ذلك وأشـــار إليَّ بالقدوم ،فسرت إلى جانب القسطنطينية فلما وصلت إليها لم أجده - قدس ســـره - في داره، وصادفتُه في ساحل القلعة المعروفة بـــ«حصار روم إيلي» وهو يتهيأ لدخول السفينة لحضور دعوة في بعض السواحل؛ فلما رآني تبسم واستبشر ورحب ودعا لي بالخير هنا؛ فقبَّلت يده الشريفة، ودخلت معه في السفينة، ثم سرنا إلى المقام المعروف بـــــ«يوشع» والحديقة المعروفة بـــ «توقات» وسأل عن أحوالي وأحوال أهالي بروسة؛

---

(1) رواه البخاري (5983)، ومسلم (1305).

(2) سبق تخريجه.

فشكرت الله في ذلك، فقال: لا تكن زمانيًا ولا مكانيًا ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115]، وسأل عن كيفية الوعظ، فقلت: تبعثني نفسي في بعض الأحيان على مقابلة بعض الوعاظ في مقالاتهم الفاسدة، قال: لا تفعل؛ فإن الله هو الذي يتولى الرفع، فادفع العمل باختيارك، وفوض أمرك إلى الله تعالى، ولا يصح إليهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:112]، فإذا جاء الوقت يرتفع الكدور بالكلية بأمر الله، دخلت مع حضرة الشيخ والمخاديم الكرام، وبعض الخواص في السفينة بعد العصر لزيارة بعض المقامات الساحلية فلمّا غربت الشمس، قال: هذا الوقت إشارة إلى التنزل من المطمئنة إلى مرتبة الملهمة، وما بين العشائين إشارة إلى التنزل إلى مرتبة اللوامة، ثم ما بعده إشارة إلى التنزل إلى مرتبة الأمارة، ووقت الشافعي إشارة إلى الترقي من الأمارة إلى اللوامة، ووقت الحنفي إشارة إلى الترقي إلى الملهمة، ووقت الطلوع إشارة إلى الترقي إلى المطمئنة بحسب مراتبها إلى أول الغروب، ثم يعود الأمر على ما كان عليه، قال: آخر الليل إشارة إلى السكون الذاتي، والنهار إلى الحركة الصفاتية؛ فعند الليل يحصل التنزل الجمال الذاتي، وعند النهار يحصل الترقي الصفاتي؛ لأن كل شيء يترقى من السكون إلى الحركة.

قال حضرة الشيخ: اعلم أن الخلق في إثبات ما سوى الله ونفيه على أربعة أقسام:

قسم يثبتونه مطلقًا اعتبارًا وحقيقةً على أنه غير الحق مطلقًا: أي: على أنه ليس الموجود أصلاً لا حقيقةً ولا اعتبارًا، وهم العارفون المكاشفون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتبارًا على أنه أصل الحق سبحانه، وهم المشاهدون والمعاينون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتبارًا أيضًا لكن على أنه عين الحق سبحانه، وهم المحققون الواجدون، وهذا من مزالق الأقدام قبل التحقق بحقيقة هذا المقام هدانا الله وإياكم إلى قوم سبيل السلام، وبيده أزمة الأمور والأحكام.

قال الشيخ: كن هيولانيًا ووحدانيًا ثم انتظر الفيض الإلهي، ولا تنظر إلى شيءٍ أصلاً حتى مقامات الأنبياء والأولياء؛ فإنها تجليات بحقيقة، بل توجه إلى عالم الإطلاق، وصف باطنك عن علاقات الأنفس والآفاق؛ ليحصل تجلي الجزيل بحسب استعدادك، وأفض من الظاهر قدر مبلغ علمك كالبحر المالح، وأفض من الباطن حسبما يساعده عرفانك كالبحر العذب، ولكن كُن غنيًا عن الجملة غير الله تعالى ألا ترى أن الله تعالى أفاض على كلِّ شيءٍ من الأشياء الموجودات ما هو مستعد له بحسب مرتبته مع أنه غني مطلق.

قال حضرة الشيخ: المرشد الكامل كتاب ناطق فما دام أمكن الوصول إليه وإلى صحبته ينبغي أن يكتفي بالكتاب الساكت؛ فإن تأثير الناطق أبلغ، وشكوت عن سوء الحال، فقال: لا تقل فإني تفكرت مرة في أحوال الكُمَّل فهان عليّ نفسي، واستولى عليّ الخوف العظيم، واستمر مقدار شهرين، وقيل لي وأنا في سُنة الجمعة: لا تخف؛ فإن الله تعالى لو لم يرد بك الخير لما وفقك لرؤية جمال وليه، وقد كنت خادم نعله زمانًا، وصحبت به أعوامًا، واعتقدته اعتقادًا تاما فذلك من العناية الأزلية في حقك يا حقي، فزال عني ما بي من الخوف الغالب، واعتدل حالي، والحمد لله تعالى، وأراد بالولي من هو مستغن عن التعريف - أعني: حضرة الشيخ قدس سره.

قال حضرة الشيخ: هذا الزمان زمان سكوت؛ فإنه قلمًا يوجد من يصلح للمكالمة من الفناء والصرف، ونظر إلى الأشجار في حول البحر؛ فقال: إن هذه الأشياء على ما كانت عليه في القدرة العلمية لا يجوز أن يكون على خلاف ما هي عليه فيها، لكن كان ظاهر الحق باطنًا في الحضرة العينية، وباطنه ظاهرًا فظاهر الخلق باطن الحق، وباطن الخلق ظاهر الحق، ثم قال: انظر إلى هذه الأشجار؛ فإنها ثابتة في مكانها منذ ما خلقت، وهي على هذه الحالة إلى وقت فنائها، فلا بدَّ من ترك الحركة الإرادية في طريق الحق، ذكر حضرة الشيخ مراتب النفوس ومثَّل لها بالأوقات المخصوصة من الليل والنهار ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:190 - 191]، فقال: المراد بالذكر القيامي توحيد الأفعال، وبالقعودي توحيد الصفات، وبالجنوبي توحيد الذات وتحقيقه أن القيام المستلزم الحركة إشارة إلى ما أشار إليه النهار، والقعود والاضطجاع المستلزمين للسكوت إشارة إلى ما أشار إليه الليل وقد سبق.

وسرنا إلى حصار روم أبلى في القسطنطينية فأمرني حضرة الشيخ بالوعظ والتذكير في جامع في السواحل فامتثلت، ثم لما تمَّ المجلس وكان حاضرًا فقبَّلت يده الشريفة فدعا لي بالخير ثم دخلنا السفينة، فجاء وقت المغرب فخرجنا إلى بعض السواحل فأشار إلي الإمام، ولما فرغنا من الصلاة أخذ يتكلم من المعارف، وأنجز الكلام إلى ذكر السلطان، واختلال الزمان بالظلم والعدوان والفساد والطغيان، وقرب زمان المهدي، وانقراض السلاطين

العثمانـــيين، فصلينا في جامع الحصار الذي بناه السلطان محمد الفاتح[1] على شكل اسمه محمـــد، وأمر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين أن يعظ الناس في ذلك الجامع ففعل فلمّا جئنا إلى المنزل أحضر الشيخ جملة الإخوان، وقرأ عليهم رسالتي التي ألفتها في حق حضرة مخدومـــه الـــسيد محمد الجودي - أبقاه الله تعالى - فسرَّ واستبشر، ودعا لجملة الإخوان بالخير والسعادة، ثم قال مخاطبًا الخليفة المذكور: أنتما كعيني هاتين، وأشار بيده إلى عينيه المباركتين، ثم أمرني بقراءة القرآن ثم بقراءة بعض الإلهيات الهدائي، ثم بالتلاوة ثانيًا ففعلنا فلمَّـــا جـــاء وقت الدعاء توقفت فيه، وعرضت ذلك على جنابه حتى يكون هو الداعي والباقي هو المؤمن؛ فقال: لا تفعل فإني استخلفتك، ومن مواضع الخلافة مثل هذا الدعاء؛ فقـــبلت، وكان له في ذلك اليوم زيادة انبساط، فكان يوم عيد لنا أعطاني حضرة الشيخ ريحانة، وقال: فكن روحًا وريحانًا إلى أن قال: تكن بالله إنسانًا، ورمى حضرة الشيخ إلى بعـــض الـــوادي حـــصاة، وذلك بعد الإياب من بعد السير، فرميت أيضًا حصاة تحقيقًا للمتابعة والاقتداء جعلني الله تعالى وإياكم من السابقين في عبادة الاتباع، وساقني وإياكم إلى منازل الاتفاق والاجتماع.

واعلـــم أني لم أكتب في هذه الزيارة إلا قدرًا يسيرًا لقصر المدة؛ فإن حضرة الشيخ إنما استدعاني للملاقاة المحضة ثم أشار بالعود بعد ثلاثة أيام مع أن الكلمات ما هو مطوي عن البين لله الحمد [كده جان من معتكف حضرة....][2].

الزيارة الثالثة

وقـــت هذه الزيارة في أوائل شوال من سنة ثمان وتسعين وألف، ووجدت حضرة الشيخ في البيت الفوقاني من مسكنه الجناني، فقال ما قال من المعارف، والنصائح الجليلة بعد سؤال الخاطر، وأفاد أن السلطان محمد رغب له وهو رغب عنه، وإن التعزز والتمدح بالملـــوك وصـــحبتهم لا يغـــني شيئًا؛ فإن العزة لله ولرسوله، ولن تمسك بما أمر به لا للمعرضـــين عن الحق والقاصرين نظرهم إلى ما سواه أقول كان أكثر علماء القسطنطينية المنتسبين إلى السلطان مفتخرين به غافلين عن الله حتى ألقوا على التزين بالزِّي المتلونة في

---

(1) انظـــر: فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح لعلي الصلابي، وفتح القسطنطينية لمحمد مصطفى، ومحمد صفوت، ومحمد الفاتح للرشيدي، ولعبد السلام فهمي.

(2) كلام تركي.

مراكبهم وملابسهم ومساكنهم، ورأيت منهم من يقيم في داره ليلاً ونهارًا؛ ليجدوه عند الطلب من قبل السلطان ولوزرائه أحد يقول مفتخرًا: هذا البساط اللطيف مثلاً أعطانيه السلطان أو الوزير، والحمد لله على تجرد حضرة الشيخ؛ فإنه لم يقبل من أحد شيئًا ولو حصيرًا فإنه بلي حصير البيت الخارج فأراد بعض الزوار أن يجدده فلم يقبل فبقي إلى أن مات - روح الله روحه - وإنَّ السلطان محمد أراد أن يبني له خانقاها فلم يقبل، فقال: يكفيني ما أنا فيه من المسكن، وإن بعض أمراء البحر كلفه مرة بأن يدخله في سفينته الصغيرة المخصوصة به فلم يدخل لكونها مزخرفة منقشة بماء الذهب، وأنواع الأصباغ، وقال: يدخل فيها مَن كان حظه من الاسم الظاهر أوفر كالأمراء والأعيان، ولم أره قد ركب مركبًا وحوله جمع من الصوفية احترز عن الاحتشام واحتقار الدنيا، ولا قدر لها ولأهلها عند الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: اكتب ما لاح ببالك، ولكن احترز شهرة الكلام والكتاب؛ فإن الخاطر بالبال يقتضي الظهور في وقت من الأوقات كالمطر سواء وقع في بلدة طيبة أو لا فلك إظهاره فقط.

قال حضرة الشيخ: إنَّ الكدر لا يرتفع عن الدنيا، وإنما يرتفع الكدر من قلوب أهل الحضور والصفاء. مثلاً: إن النار لا يرتفع إحراقها، وكذا الماء وإغراقه كما في حق إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35] المراد بآدم وحواء - بطريق الإشارة - هو آدم: الروح، وحواء: الطبيعة، وقد نهاهما الله عن التقرب من شجرة تدبير النفس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:19] فإنه ظلم، فظلمه كما قال تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52] فإن تدبير النفس تدبير سيئ وتدبير حسن فلا بد للسالك من أن يخرج عن تدبيره، ويكل الأمر إلى الله فيعرض عن المعاش، ويقبل إلى المعاد تمسكًا بالشريعة، وإلا فالعارف مجرد عن الأدبار في الأمر نفسه.

وقال: إذا وقع القحط والغلاء؛ فإن الله تعالى يفتح من خزائن غيبه قدر ما يكفيه كما كان يفتح له حال الرخص؛ فإن المنة لله تعالى، ولا ينبغي للعبد أن يتوكل في فكر المعاش، ويغتم له؛ فإنه من الفضلة.

قال حضرة الشيخ: إنه محيط بالعوالم كلها، وهو أول ما ينكشف للسالك، قال: إنَّ سورة الإخلاص إشارة إلى حال النزول، وهو حال المجذوب فأولا بقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَـدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ...﴾ [الإخلاص: 1 – 4] إلى آخر السورة، وحال الصعود يعتبر من الأخـراني جانب، «هو» فيقول أولاً: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4] ثم يترقى إلى أن يقول: «هو» لكن لا ينبغي للسالك أن يكتفي بوجدان هو في القرآن بل ينبغي له أن يترقى إلى القرآن الفعلي فيشاهد هو في القرآن(1).

---

(1) قـال الشيخ المصنف في مرآة الحقائق: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل﴾ خاطب به النبي ﷺ مع أن القائـل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دلّ عليه بعض الإطلاقات وهو ينظر الأمر بالعلم في قوله: ﴿فَـاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: 19]؛ لأن العالم أيضًا هو ذاته تعالى، ففي كل منهما إشارة إلى ذنـب مـستغفر عنه في قوله: ﴿وَاستَغفِرْ لِذَنبِكَ﴾، فلا بد من إزالة النسبة من البين؛ ليظهر اتحاد العين.

قـوله تعـالى: (هو) كلمة مركبة لفظًا وبسيطة معنى؛ لأن المراد بها الهُويَّة الذاتية الأحدية؛ ولذا جعلـوها مـن الأذكـار الغيبـية الليلية، وأدخلوا عليها اللام فقالوا: عالم الهوى ولا مناقشة في الاصـطلاح، ووجـه التـركيب من الهاء والواو؛ إن الهاء من مبتدأ المخارج، كما أن الواو من منتهاها.

فكما أن الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت يمرُّ بالمخارج كلها إلى أن ينتهي إلى الواو شفوية؛ فكذا سـر الهُويَّة التأدِّي في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلَّى في العوالم كلها إلى أن ينتهي إلى الإنسان؛ فيكون الإنسان وحقيقته أجمع الحقائق.

كما أن الواو أجمع الحروف من حيث مرورها بجميع الحروف ومخارجها؛ فصارت صورتا الحرف والفعـل متطابقتين، فكون لفظ هو ضميرًا يدلُّ على الغيب، وكونه اسمًا يدلُّ على الشهادة؛ لأن المـراد مـن الأسماء التعيُّنات؛ وهي من عالم الشهادة إضافية، أو حقيقية؛ ولذا كان أجلُّ الأذكار عـند الأقطـاب المكاشـفين من حيث مكاشفتهم، وإن كانت كلمة الشهادة خير الأذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم.

وفي الابـتداء بالهاء؛ إشارة إلى رجوع الكل إلى تلك الهُويَّة، كما قال: وإليه ترجعون، فكل هاء تـدور علـى هـذه الهـاء كما أن قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، ناظر إلى (قُلْ) [الإخـلاص:1] الواقـع في هذه السورة؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وفيها مجد وجلالة، كما أن هذه السورة مما يصرِّح بذاته العليَّة، وصفاته الجليَّة.

قـوله تعالى: (الله) اسم دال على الأُلوهية؛ لكن الأُلوهية لمَّا كانت سنام الصفات الإلهية؛ أُخذت مـع الـذات، وجُعلت مستجمعة لجميع الصفات، ففي هذا الاسم دلالة على تـنـزل الذات من مـرتبة الهُـويَّة إلى مـرتبة الصفات؛ ليكون وسيلة إلى سرِّ الربوبية كما قال: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2].

وكـل منـزل من التنـزلات الأسمائية منطبق على ما فوقه، ومن ذلك الهاء في آخر هذا الاسم؛ لأن الصفات مشتملة على الذات، كما أن الشجرة مطوية على النواة، فكل نهاية راجعة إلى البداية

=

بمـــا اشتملت عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الرجوع بواسطة أو بغيرها، والعارف يمشي على المراتب صورة، ويجري على التجريد معنى، ففيه السلامة.

(أحد): أي في ذاته؛ ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لـــذي ظـــل واحـــد، وإليه الإشارة بقوله: «السلطان ظل الله»: أي ظلُّ الحقيقة الإلهية، فانطبق المرآتان، واستبان سرُّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11].

فهنا رب وعبد فقط، كما أن هناك ظلاً، وذا ظل لا غير، فإذا كانت الهُويَّة أحدية في ذاتها؛ كانت الألوهية وصورتها أيضًا كذلك، وإلى هذا أشير بما ورد: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»، وإنما أمر بقتل الآخر وإزالته؛ لأن الشركة إنما نشأت منه، فإذا قتل، رجع الأمر إلى وحدته.

ومنه: كلمة الشهادة نفيًا وإثباتًا، فاعرف.

ثم إن التصريح بالأحدي؛ إنما هو لأزالة الأوهام، وإبطال الخيالات، وإلا فلا وجود في الحقيقة إلا لموجـــود واحد؛ لأن الظل تابع لذي الظل، فلا وجود له في نفسه إلا صورة، والصورة لا تزاحم المعـــنى، كمـــا أن البدن لا يتعدد مع الروح، إذ ليس هنا إلا ذات واحدة؛ وإنما التعدد مبني على الاعتـــبار؛ ولذا قال مَن قال لنا: (من أمره) روح وجسم؛ حيث جعل كلاً من الروح والجسم من الأمر مع أن الجسم من الخلق إذ لا يختلف الأمر من اختلاف الخلق؛ بل هما متحدان بالذات، وإن كانا مختلفين بالصفات.

ومـــن هـــنا قالوا: أصل العالم أمر واحد، فإذا تقرر هذا عندك؛ عرفت أن كلاً من الأسماء الثلاثة؛ وهـــي: (هو)، و(الله)، و(أحد) ذكر على حدة مشتمل على حقيقة من الحقائق، وإن كان الكل يـــرجع إلى حقيقة الحقائق من حيث لا تعيينها، فمن كان محجوبًا؛ كان (هو) عنده ضميرًا؛ لأنه غائب عن الحقائق، وتجلياتها غيوبية الضمير.

ومَـــن كان مكاشفًا؛ كان (هو) عنده اسمًا؛ لأنه عند الحقائق وحاضر لديها؛ فهو (عنده) بمنـــزلة (الله أحـــد) فكن عندك، وخذ بما لك، ولا تتعد إلى حاضر غيرك نفيًا وإثباتًا، وإلا فأنت جاهلٌ بالحقائـــق، ذاهلٌ عن الحق الصريح، وإن كنت من أهل التقليد الحقيقي، فأنت إذًا غائب حاضر، فأفعل بذلك فلا ضير والله الهادي إلى جنابه.

قـــال تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2]: كُرر الاسم؛ لأن الأول راجع إلى الذات، وهذا ناظر إلى الصفات؛ ومعنى الصمد: المصمود إليه.

ومـــنه: حال السلطان الظاهر في صورته؛ لأن الخلق من حيث كونهم رعاياه محتاجون إليه، وإليه الإشـــارة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: 15]: أي إلى الله الفرد الذي هـــو الحقيقة الجامعة لجميع الحقائق، فإنه مبتدأ أول لجميع التأثيرات الواقعة في الأكوان، وكذا إلى القطـــب الفرد الذي هو المظهر الأولى لتلك الحقيقة من حيث الاسم الباطن، وكذا إلى السلطان الفرد الذي هو ظل ذلك المظهر من حيث الاسم الظاهر.

فمـــا من اسم من الأسماء إلا وفيه معنى الصمد؛ لكن فرق بين اسم واسم، ومن هنا ظهر التفاوت

بين الخلق، فكان الرجوع إلى السلطان في المهمات أولى من الرجوع إلى مَن دونه من أهل المراتب، كما أن الرجوع إلى القطب من حيث مظهريته على وجه أتم؛ أعلى من الرجوع إلى السلطان الظاهر؛ ولذا كان العلاج الروحاني أنفع من العلاج الجسماني في أكثر المواد.

وقس على ذلك الرجوع إلى الله تعالى في مقام التفريد، وأنى ذلك لكل محجوب مرتبط بالأسباب والوسائل؛ ولذا قلّ استجابة الدعاء؛ فالمقصود إنما في جانب الداعي فبقدر حضوره في مشهده؛ يجد المطلوب، ويصل إلى المراد.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: 3].

لأنه لو كان والدًا؛ لكان متعلقًا، ولو كان متعلقًا؛ لجرى عليه الحل والحرمة، ومن ثمة قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:40]، فكان الحبيب من أهل هذا المقام، وهو لا ينافي كونه أبا الأرواح، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6].

فالروح والد (الجسد) بواسطة، ووالد الروح؛ هو النور الإلهي بلا واسطة، كما أن والد القمر؛ هو الشمس، ووالد الشمس؛ هو ذلك النور؛ لأن نور الشمس من نور الله تعالى لا بواسطة بخلاف سائر الأنوار.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:3].

لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر عليه السلام من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجودًا، أو ليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4].

إذ لا أحد هنا غيره حتى يكون كفوًا له؛ إذ الموجودات كلها مظاهر أسمائه، ومجالي صفاته، وههنا كلام آخر رمزنا إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] كما سبق، فتفطّن فإن المقام من المزالق، ومن الله التثبيت والتمكين.

قال الله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:3].

اعلم أن العبد على صورة المولى وسيرته.

أمَّا الأول: فقد دلّ عليه قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»؛ وهي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وأمَّا الثاني: فدلَّ عليه قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم؛ فتجلّى فيه»: أي ظهر فيه بكمالات هَويَّته.

ولذا ورد: «تخلقوا بأخلاق الله»: أي اظهروا تلك الأخلاق والأوصاف التي أودعها الله فيكم حين التجلّي؛ وذلك بالمجاهدات.

كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69]: أي سبل المعرفة والمشاهدة؛ فإن المشاهدات تُورِّث المشاهدات.

عرضـــت علـــى حـــضرة الشيخ بعض اللوائح فدعا لي، وقال: جعل الله خيالك ولسانك مورد الكلام الإلهي، ولكن احترز أنت عن شهوة الكلام، قرأ القوال عند حضرة الـــشيخ الهدائـــي في بعض الإلهيات التركية: [كجوب صحراى عالمدن كذر قيل عرش اعظمدن خلاص أول درد ايله غمدن دكل ياهو وبامن هو]؛ فقال: المراد من العبور من صـــحراء العالم هو التجاوز عن عالم الملك وسيره، وهو العالم الظلماني، ومن المرور من

=

ولا شـــك أن المـــشاهدة موقـــوفة على المعرفة الصحيحة، فظهر إن المجاهدة لها ثمرتان؛ المعرفة الإلهـــية، والمـــشاهدة: أي إذا كانـــت مجاهدة من طريق السنة كما دلّ عليه لفظة: (في)، فخرَج مجاهـــدات الفلاسفة ونحوهم؛ لأنها من طريق العقول، والتصرُّفات النفسانية لا من طريق الذكر، واتّباع الأنبياء وسننهم، فليس لها ثمرات يقينية مفيدة.

ولـــذا ضـــلُّوا في طريقهم، ورُدُّوا إلى أول منازلهم؛ وهو منـــزل الطبيعة التي لا نفع منها؛ فكانت رياضاتهم بمنـــزلة الاشتغال بالمأمور الخسيسة الطبيعية، فكما أن هذا الاشتغال حجب أربابه عن الوصول الروحاني؛ فكذا الرياضة المذكورة، فاعتبر من هذا إن كان لك عقل سليم.

ثم إن الإنـــسان الكامل الذي هو العبد الحقيقي لم يكن والدًا ولا مولودًا في الحقيقة؛ لكونه على صـــورة مـــولاه، وإنما قيل: له مولود؛ لقوله ﷺ: «أنا من الله»، فأورد كلمة من؛ إشارة إلى مبدأ الظهـــور، فليس هناك الأخفاء دلّ عليه قوله: «كنت كنـــزا مخفيًّا»، وظهور دلّ عليه قوله: «إن الله خلق آدم؛ فتجلّى فيه»؛ وهو التجلّي النوري البرقي.

وإنمـــا قيل: له والد؛ لقوله ﷺ: «يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»، فإذا كان أبًا لهذه الأمة؛ كان أبًـــا لِمن قبلها أيضًا؛ لأن هذه الأمة؛ هم الآخرون السابقون كما ورد في الحديث: «والغمدة في الأمة؛ هم الذين كانوا من إله الحقيقة، وأهل بيته المعنوي».

كمـــا دلّ علـــيه قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

ومـــن هذا المقام كان سلمان ﷺ من أهل البيت، والتحق به المطهَّرون جميعًا؛ لأنهم الذين مسُّوا القـــرآن الحقيقـــي، كما قال: لا يمسه إلا المطهرون: أي من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقًـــا، ودلّ على ما قلنا قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ معناه فيه ما فيه، فمَن لم يكن سرَّ أبيه؛ لم يوجد فـــيه مـــا فيه، فهو لم يكن من أولاده، ورحم الله أكامل الناس حيث قدّموا الأولاد المعنوية على الأولاد الصورية الذين تجرَّدوا عن المعنى.

ومـــن ثم قـــسموا الهاشمـــية على أقسام، فإن كان الإنسان الكامل على هذه الصفة التي قررناها؛ فالجهـــل بحقائقه أقرب من العلم بها، فلا يعلم ما الله إلا الله، ولا يعرف الإنسان الكامل أيضًا إلا مَـــن كـــان في طبقـــته من المظاهر الكلية، فأين العوام والمحجوبون من هذه المعرفة؟ وهي أعمق الأشياء، وأغرب الأحوال.

العــرش الأعظم هو التجاوز عن عالم الملكوت وسيره، وهو العالم الروحاني، والكل من الكــون في التعــبد بكل منها كدر وغم لكونه ما سوى الله، والحضور في الوصول إلى المــولى، والتجاوز إلى حضرة اللاهوت، ولذا قال: [خلاص أول دردله غمدن] ثم مدح حضرة الشيخ الهدائي، وأقواله الجامعة، وأثنى عليه بما يليق بمقامه، ثم أنجز الكلام إلى أن قال: إن النفس الأمارة نفس النفس الكافرة، والمؤمنون من أهل العموم ترقوا منها بإيمانهم إلى اللوامة، وعلماء الظاهر من أهل النظر والاستدلال عمومًا بقوا في اللوامة والملهمة، ولم ينحطوا إلى المطمئنة؛ لأنها نفس الأنبياء وكمل الأولياء، فإنهم تشرفوا بالوصول إليها، وإلى الراضية المرضية والصافية والفانية والباقية ثم تلا قوله تعالى:

﴿فَادْخُلِــي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29 – 30]، وقال: المراد من دخول الجنة: هو بقاء نفوس الكُمَّل لكونها فانية في الله باقية بالله هي النفوس الباقية، ولا أقول شموسهم في الدارين.

وقرأ البعض قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 115]؛ فقال: أي: المشرق الروحاني والمفرد الجسماني فأينما تولوا وتوجهوا وجوهكم من تنسمك بالجهتين مشمة ذاته المتجلية بجماله وجلاله.

قال حضرة الشيخ: من ولد في الليل يكون مظهر الذات الأحدية؛ لأن الليل محل الفــناء والــسكون، ومــن ولد في النهار يكون مظهر الصفات؛ لأن النهار محل الظهور والحركة، وقد اختلف في أن رسول الله ﷺ ولد في الليل أم في النهار.

ثم قــال: اليمين مظهر سر النهار؛ لأن أكثر البطش والأخذ بها، واليسار مظهر سر الليل، ولذا قل عملها وكفا الجنة مع النار والبدن مع الروح حيث إن الجنة والبدن مظهر الظهور في النار، والروح مظهر خلافه؛ فافهم جدًا.

قــال حضرة الشيخ: لا تحصل هذه الطريقة بالفنون بل بالجنون، ولا بد للسالك مــن الموت قبل الموت، والدخول في البرزخ والحشر والجنة حتى يحصل البقاء، ثم قال باللسان التركي: [بيلمك بولمق، والمق] الأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

سأل بعض الجلساء عن أحوال السفر؟

فقــال حضرة الشيخ: النصر بيد الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:25]، وقال: إن لفظ «من» عام يتناول المؤمن

والكافـــر، فتارة يمتحن المؤمنين، وتارة يشدد البلاء على الكافرين، وفي كل ذلك حكمة ومصلحة كما قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:26]؛ فإنه لا شر بالنسبة إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلى العباد، وجاء رجل يدعي تكميل الفنون؛ فسأل عن قوله ﷺ في دعاء الاستخارة: «إن كنت تعلم»[1].

فقـــال حـــضرة الشيخ: إن هذا الشك بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الله؛ فإن العلم بالنسبة إليه وجد إذ لا رابط لا يطرأ عليه النسيان والشك.

ومعـــنى العـــبارة المذكورة: إن تعلق علمك وإرادتك، فلمّا كان تعلق هذا العلم مشكوكًا بالنسبة إلى العبد عبر بكلمة الشك فسكت المدعي المنصف كأن القمر الحجر الصلد[2]، وفي فتح الباري: قوله: «اللهم إن كنت تعلم»[3] فيه إشكال؛ لأن المؤمن يعلم قطعـــا أن الله تعالى يعلم واجبه بأنه تردد في عمله ذلك أهل له اعتبار عند الله تعالى أولاً فكأنه قال إن كان عمل ذلك مقبولاً فأجب دعائي انتهى.

فمـــا فضلوكم بهما من الغدوة تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99].

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال:29].

وقـــوله تعـــالى: ﴿وَمِـــنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [الإسراء:79] فقال: إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى ما يعود إلى جانب العبد حيث أسند إليه العبادة والتقوى والتهجد، وإلى ما يعود إلى جنابه تعالى، وهو إتيان اليقين منه والجعل والبعث؛ فلا بد للسالك من التقيد بما أمر به سواء حصل الموعود وهو مضمون الجزاء، ولم يحصل، مثلاً لو فرض أن عمره ألف سنة وأمر بالعبادة خمسمائة سنة ولم يحصل في هذه المدة اليقين في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99] ينبغي ألا يجـــد لذلك في قلبه كدرًا أصلاً لمقتضى قوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد:23].

ولـــو حـــصل له ذلك في الخمسمائة الأخرى إلى تمام الألف ينبغي ألا يجد لذلك

---

(1) رواه البخاري (391/1).

(2) هكذا في الأصل.

(3) تقدم تخريجه.

صفاء قطعًا، يوافق قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:23] فالمنع والعطاء بيد الله، وليس للعبد إلا العبودية المحضة، ثم قال: ولقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99]، وأمثاله فائدة، وهي التشريف.

قال حضرة الشيخ: علم الظاهر دنيا أهل السلوك، وعلم الباطن عقباهم، فلا بُد من الفناء عن الكل؛ لأن مطمح نظر أهل الله هو الله بل لا مطمح هناك؛ فإنه القيود، ثم قال: أهل الدنيا كثير وأهل العقبى قليل، وأهل المولى أقل من القليل وذلك كالسلاطين والملوك فإنهم أقل بالنسبة إلى الوزراء، وهم أقل بالنسبة إلى الأمراء، وهم أقل بالنسبة لسائر أرباب الجاه، وهم أقل بالنسبة إلى الرعايا.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي مدة إقامتي في داره العالية في هذه الزيارة وذلك يوم الخميس بعد العصر، فجلس إلى قريب من المغرب، وقال ما قال من المعارف العربية، ثم قال في آخر المجلس: قلت محبة مني إليك، ولذا جئت هناك يشدني بإرشاده يكفيني في الدنيا والآخرة، ودعا لي بالخير، ورأى حضرة الشيخ عندي مجموعة فيها بعض منظومة لي فقال لي: ما هذا؟ قلت: إنه لا مضايقة لي للكلام المنظوم والمنثور إلا أنه مزخرف؛ فقال: لا تقل هكذا؛ فإنه كفران للنعمة التي أنعم الله بها عليك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، وقال: كل ما خطر ببالك من علم[1] فاكتبه منظومًا أو منثورًا، ولكن لا تلتفت إليه، فإن المطلب غيره: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5] وتخلص من مصائب الطلب.

قال حضرة الشيخ: لا علي إلى صحبة أحد إلا أن يكون الإقبال من جانبه فاصحب به حينئذ لكن دع في الصحبة ما يليق بمقامه من الكلام وغيره؛ فإن الحضور فيه، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96].

جلس حضرة الشيخ مجلس الوعظ والتذكير في جامع السلطان سليم الأول يوم الجمعة من شوال لسنة ثمان وتسعين وألف؛ ففسر قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100]؛ فقال: أمر الله تعالى حبيبه ببيان عدم مساواة الخبيث، وهو المال الحرام بالطيب، وهو الحلال؛ لأن الحرام مردود، والحلال مقبول فهما لا يستويان أبدًا فكما أنهما كذلك فكذا

---

(1) في الأصل: من غير تعمل، وبآثار المخطوط كشط.

طالبهما إذ طالب الخبيث خبيث، وطالب الطيب طيب، والله تعالى يسوق الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث كما قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: 26] والله تعالى لا ينظر إلى قلة الخبيث والطيب، ولا إلى كثرتهما، وإنما ينظر إلى الجودة فالطيب جيد وإن كان قليلاً، والخبيث رديء وإن كان كثيرًا.

ثم قال: والإشارة أن من العلوم والأخلاق والأعمال ما كان خبيثًا وما كان طيبًا فلا يستوي ما كان منها خبيثًا بما كان طيبًا كالعلم الغير النافع والنافع، والأخلاق الحسنة وغير الحسنة والأعمال الصحيحة والفاسدة.

ثم قال بعد كلام طويل: إن الطيب في عرف أهل التصوف ما كان بلا فكر ولا حركة نفسانية سواء سبق من طرف صالح أو من طرف طالح لأنه ذَوق من حيث لا يحتسب وهو مقبول وخلافه مردود، ولا يعد في هذا الآن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم قال: رائحة الجنة تُشم من مسيرة خمسمائة عام، ولكن مجرد الشم لا يستلزم دخول الجنة، وكذا جنة الحقيقة تُشم رائحتها من بعيد وبمجرده لا يلزم الوصول إلى الله تعالى؛ فإن بداية هذا الأمر ترى نهايته مع عدم التحقق بحقيقة بعد، والخلاص من النفس والشيطان على الحقيقة إنما يحصل في الدائرة السابقة وهي النفس الفانية، وهذا إنما يحصل في أربعين سنة، فلا تظنوا أيها الصوفية أن الأمر سهل.

أقول: كان المجلس روضة من رياض الجنة وأرجو من الله ألا يحرقني بنار الجلال، فإن داخل رياض الجنة ينبغي أن يكون أمينًا على كل حال.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39]: هذا ترتيب أنيق؛ فإن الذات الأحدية تدفع بوحدتها الكثرة، وبقهرها الآثار فيضمحل الكل فلا يبقى سوى الألوهية.

قال حضرة الشيخ: أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، وإنه يفعل من قبيل لا علة ويرد لا لعلة ويتوهم القاصرون من ترتب بعض الأمور على بعض من حيث الظاهر كونها معللة لكن الأسباب لا تعتبر عند الحقيقة؛ لأن الأمور أسبابها مقدرة أزلاً فلا تأثير للأسباب الاستقلال.

قال عند ذكر بعض الحاضرين امرأة محبوسة في السجن: فأفاد أولاً أن كونها محبوسة

مقــدر أزلاً وإن لم يكن لها جرم، والحبس وإن كان له سبب صوري عند العوام لكن لا علة له عند الخواص.

ثم قال ما قال حضرة الشيخ في قوله: إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه مثلاً إذا أراد الله نصرة قوم يجعل لهم وزيرًا له قابلية الغالبية وكذا أتباعه، وإذا أراد هزيمتهم يجعل لهم واليًا له قابلية المغلوبية.

ثم قــال: إذا وقــع الفتح والنصرة ترى الناس فرحين مستبشرين، وإذا وقع خلافه تــراهم مغمــومين منقصين وليس لهم في الحقيقة إلا الشكر عند ظهور اللطف والجمال والصبر والاستغفار عند ظهور القهر والجلال؛ فإنهم مأمورون بهذا لا بالفرح والغم على خلاف غيرها.

ثم قــال: هذا آخر الزمان الذي يغلب الجلال فيه على الجمال، ولا حضور فيه إلا للمجرد رأى لصاحب تجريد[1] وتفريد[2] وهو الكامل المنتهي في المراتب؛ فإنه ينظر إلى القضاء الأزلي، وإن الله تعالى يحكم في ملكه دون ملك غيره وأنه لا يجري في ملكه إلا ما يــشاء، ويقول الناس: إن مرادنا لم يحصل من جهة الفتح، وينقبضون من وقوع خلاف مــرادهم مع أن الدافع من الكون مطلقًا هو ما تتعلق به الإرادة الإلهية فيلزم الاتباع بمراد الله تعالى فإنه خير محض كما قال تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: 26] أراد بالخير ما سبق من الإيتاء والنــزع والإعزاز والإذلال فالكل بالنسبة إليه تعالى خير محض وإن كان الإيتاء

---

(1) قــال سيدي علي وفا: التجريد الوجودي التحقيقي إيجابي، والتجريد البياني اختياري، فلا تطلب في الأول مــا تطلــب في الثاني من مقارنة القصد والتعمل، وقسْ على هذا كل أمرٍ وقع في دائرة الإيجاب تارة، وفي دائرة الاختيار أخرى، ولكل مقامٍ مقال، ولكل مجالٍ رجال.

(2) قال سيدي محمد وفا: التفريد هو صفة توجب تمييزًا لا يصح حكم الاشتراك فيما بين المتغايرين؛ لنفــي المماثلــة في صفات نفس، أو هو تميز بسلوب من كل واجبٍ للتمييز في المراتب، فتميزه ســلب التمييز، ولا يُقال على موصوفه: موصوف بزيادة؛ لما فيها من فحوى الثنوية وإن لم يكن تكــثيرًا في الــذات، بــشرط إثبات وجود خارجي، فهو كثرة معقولة في داخل الذهن، وتصور الخــارج بمجــاز كل شيء، فلا يُقال بالذات؛ لأنه لا يقدر صفة نفسه إلا بالذات، فذاته توجب ذاتــيات لا يُقال عليها غير لامتناع الاستقلال فيها، ولا مثل لشمول الوحدة الحقيقية عليها، ولا هــي صــفة؛ لأن الــصفة مــشروطة بموصوفها عند تقدير الوجود، فهي شيء يُلحظ بملاحظة المعجوز.

والإعزاز خيرًا بالنسبة إلى الناس والنـزع والإذلال شرًّا.

قـال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [1] [الأنعام: 65]: لم يقـل ليذيق الكافرين بأس المؤمنين، أو ليذيق المؤمنين بأس الكافرين، أو ليذيق الكافرين بعضهم بأس بعض أو ليذيق المؤمنين بأس بعض، بل أطلق في النظم ليتناول كل فـريق، فإن الكل في ملكه، وهو يحيي ويميت أيًّا من كان في أي بلدة كان، فالمؤمنون

---

(1) قال الشيخ المصنف: أي: بالقتل والصلب وقطع الأعراق كما فعل بابن منصور، قالوا: وكان قد جرى من الحلاج -قدس سره- كلام في مجلس حامد بن عباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر فأفتى بحل دمه، وكتب خطة بذلك وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، وقال له الحلاج: ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا عليّ بما يبيحه وإنما اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة -رضى الله عنهم- ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين، فالله الله في دمي، ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه وانفضوا من المجلس وحمل الحلاج إلى السجن وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله، فليسلم إلى صاحب الشرطة وليتقدم بضربه ألف سوط، فإن مات وإلا فيضرب ألف سوط آخر، ثم ليضرب عنقه فسلمه الوزير إلى الشرطي، وقال له ما رسم به المقتدر. وقال أيضًا: إن لم يتلف بالضرب يقطع يده، ثم رجله ثم يحز رأسه وتحرق جثته، وإن خدعك، وقال لك: أنا أجري لك الفرات ودجلة ذهبًا وفضة، فلا تقبل منه ذلك ولا ترفع العقوبة عنه فتسلمه الشرطي ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من سنة تسع وثلاثمائة، فأخرجه إلى باب الطاق وهو يتبختر في قيوده واجتمع من العامة خلق لا يحصى عددهم وضربه الجلاد ألف سوط ولم يتأوه، ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة، ثم جزّ رأسه، ثم أُحرقت جثته، ولما صار رمادًا ألقاه في دجلة ونصب الرأس ببغداد على الجسر وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل ولكن أُلقي شبهه على عدو من أعداء الله تعالى، كما وقع في حق عيسى -عليه السلام- والأولياء ورثة للأنبياء. يقول الفقير: لهذا التشبيه والتخييل نظائر في حكايات المشايخ يجدها من تتبع قصدي ومرادي: بيان جوازه لا اعتقاد أنه كان كذلك، فإن قلت من حق ولاية الحلاج ألا يحترق ولا يكون رمادًا.

قلت: ذلك غير لازم فإن الأجساد مشتركة في قبول العوارض والآفات، ألا ترى إلى حال أيوب ويحيى وغيرهما من الأنبياء- عليهم السلام- وقد ذكر أهل التفسير في أصحاب الرسّ أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين إليهم وأكلوا لحومهم تمردًا وعنادًا ورسوا بئرهم بعظامهم، نعم قد يكون في هذه النشأة أمور خارجة عن العادة خارقة كأحوال بعض الأنبياء والأولياء الذين قتلوا مثلاً، ثم أحياهم الله تعالى واما في القبر فقد ثبت: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ومن يليهم. وانظر: تفسير روح البيان (455/3).

والكافرون كاليدين لا ترجيح لإحداهما على الأخرى، ولا تأثير في الغلبة إلا بمرجح، فالله تعالى تارة يشدد المحنة على المؤمنين، وأخرى على الكافرين لحكمة ومصلحة كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 141] أي: ليميز المؤمنين من الكافرين والمخلصين من المنافقين على حسب أحوال بمقتضى علمه الأزلي القديم.

ثم قال حضرة الشيخ ليلة بعد الطعام: هذا الطعام ينبغي أن تراهُ العين وقت الأكل، ولا يخطر بالبال قبل الحضور إلا لكان شركًا خفيًا، وربما رأى في المنام ما يتعلق بالمعاش، ولا يظهر أثره لكون مبناها الحركة الفكرية، وهي خفية جدًا فربما ينكرها لخفائها، ذكر بعض الخلفاء بلدة صوفية وكون بعض النفوس الشرر متسلطًا على أهاليها؛ فقال حضرة الشيخ: إن التسخير مكر لأهل الشر خير لأهل الخير أقول في عبارته الوجيزة لطافة؛ لأن المكر قلب الكرم.

قال حضرة الشيخ: حروف التهجي بمرتبة الوجود في الشأن الغيبي، والحروف المركبة إلى أبجد بمرتبة الوجود العلمي، وأبجد بمرتبة الوجود في عالم الأرواح، وسائر المركبات بمرتبة الوجود في عالم الأجسام.

قال حضرة الشيخ: سلوك بعض السالك مرتب كما في بعض الرسائل للشيخ الأكبر وسلوك بعضهم غير مرتب فالانفتاح أولاً على تقدير الترتيب يبدأ من عالم الكون والفساد واستماع كلام الجماد والنبات والحيوان وحركات الأفلاك والملائكة ثم يظهر عالم الغيب، والمعاني والمعتبر هو هذا الظهور الثاني؛ لأن ما عداه يتعلق بكون، فلا لطف في الكثافة بل هو قيد للأكثر.

ثم قال: وقد وقع سلوكي على غير ترتيب حيث انفتح أولاً حقائق الأفعال والصفات والذات وسر الحياة السارية في جميع الأكوان.

قال حضرة الشيخ: النار ترق في صورة التنزل؛ لأن باطن الجلال جمال فأهل النار أحديون، والجنة تنزل في صورة الترقي لأن باطن الجمال جلال، فأهل الجنة صفاتيون؛ لأن التنعم من مرتبة الصفات، وهي دون مرتبة الذات.

قال حضرة الشيخ في شرح بعض أهل الذوق جَفْر سيدنا عليّ رضي الله عنه وكرم وجهه – وقع الاتفاق على أن الله تعالى **«يبعث في رأس كل مائة سنة من يجدد**

هذه الأمة أمر دينها»[1] كما في الحديث، وهم أهل الخير والتقى، وصاحب السيف، قال: إذا ظهر صاحب السيف يدفع فتنة القوم أولاً ثم الكفار، وأراد بالقوم السلطان وأتباعه السفهاء الأشقياء الظالمين المصادرين.

قال الشيخ: إن آدم كاشف عن شأنه الذاتي فسلك طريق الأدب حيث قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23]؛ فأسند الظلم إلى نفسه.

وأمَّا إبليس فلم يكن له ذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16] حيث أسند الإغواء إلى الله مع أن تلك العداوة كانت تأتيه في عينه العلمي وشأنه العيني فاقتضت فلذا أظهرها الله، ومن المحال أن يظهر الله ما ليس بثابت ولا مقدر. وقولهم: السعادة الأزلية والعناية الرحمانية قولُ من طريق الأدب، وجاء على طريق التفهيم وإلا فالاقتضاء أن تظهر لا محالة من الأزل إلى الأبد يعمل على شاكلته.

قال حضرة الشيخ: لا يصح الاقتداء بالجُنب، ويكره بالأعمى لعدم شرائطه وإنما يصح بالجنب الباطني، والأعمى بصيرته لوجود الشرائط في الظاهر، وقد ورد: «صلوا خلف كل برٍّ وفاجر»[2].

قال حضرة الشيخ: الجيش جيشان؛ جيش في الظاهر، وجيش في الباطن، فجيش الظاهر صنفان؛ مؤمن وكافر فهما على التقابل والمقاتلة دائمًا.

وكذا جيش الباطن نوعان: ملك، وشيطان، ونفس فهما أيضًا على التضاد مهما يجد أحدهما الفرصة في ميدان القلب يستولي عليه.

قال حضرة الشيخ: سرُّ الإنسان يلزم من طور إلى طور إلهيا كان أو كونيًا إلى أن يتعين سويًا ويأخذ من جميع الأطوار خواصها وكيفياتها، وينصبغ بانصباغها فهذا هو النزول الأول، وفيه غفلة لغلبة الأحكام إلى الصبغ بها في مردوده على الأطوار ثم السالك الموفق يترقى من طور إلى طور، ويؤدي في كل طور ما أخذ منه قبل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:58] ويصل إلى الفناء في الله وهو الخلوة مع الله، ومنه طريق الخلوتية فمن واقف هناك كأبي يزيد البسطامي، ومن نازل، والنازل أعلى من الواقف وبالعكس فعند نزوله يسير الأطوار

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (168/1).

كلـــها لكن بالوجود الحقاني فيحرز في مرتبة فنائه مرتبة الله أحد، وهي في بقائه مرتبة الله الـــصمد، فالفناء هو الجمع والبقاء هو الفرق الثاني، ويقال للمرور الأول على الأطوار: التحـــصيل؛ لأنه ينحل عن وجوده جميع ما عقد عليه قبل من الخواص، وللنـــزول الثاني: التقيـــيد؛ لأنـــه يعقد عليه جميع ما حل عنه قبل، ثم مَثَّل مثالاً بالهلال؛ فإن أول ما يبدو إشارة إلى الفناء، وكذا البدر إلى البقاء، ولا يزال في كل شهر من كونه هلالاً وبدرًا، وكذا لا يزال الكامل من الفناء والبقاء والصدر والنـــزول فحاله عين مظهر التجليات فيه حال الجلال حيث ينمحق عنه آثار الخلق وحين أفاقته وعوده منها حال البدر[1].

---

(1) قـــال المصنف: قول الجلوتية - بالجيم - أن السير بالخلوتية بالخاء المعجمة في البرزخ؛ معناه: أن الجلوتية بالجيم لا يشتغلون بالأسماء؛ بل سلوكهم بالتوحيد والمجاهدة، كما هو طريقة الأصحاب.

فالمجاهـــدة والرياضـــة تُصفّي المحلَّ، وتهيِّئه للتجلّي والتوحيد تجلّي الموحَد بالفتح في المحلّ، فهناك ثلاثة أمور: المحلُّ، والسبب، وظهور المسبَّب في المحلّ، وليس في ذلك برزخ وواسطة أصلاً.

والحاصـــل أن مقـــصود السالك ظهور الموحَد بالفتح له، وهو الموحِد بالكسر من غير واسطة، وذلك إنما يحصل بالمجاهدة والتوحيد.

وأمَّـــا الخلوتية بالخاء المعجمة؛ فسلوكهم بالأسماء الإلهية؛ وهي درجات متفاوتة إلى المسمَّى، فإن منها نازلة، ومنها عالية، والكل برازخ المسمَّى.

كما قالوا: احتجت الذات بالأسماء؛ وهي بالصفات؛ وهي بالأفعال.

فالأفعال: حجاب على وجه الصفات؛ وهي حجاب على وجه الأسماء؛ وهي حجاب على وجه الذات.

فالـــذات: مـــن حيث نفسها عارية عن الحجب، وأمَّا من حيث المراتب والأطوار؛ فمحتجبة بما ذُكر، ولا حجاب بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الأسماء أسماؤه، والصفات والأفعال أفعاله.

ولا شـــك أن أسمـــاء الشيء مثلاً ليست بحجاب عليه، كما أن القناع ليس بحجاب على وجه العروس بالنسبة إليها بخلافه بالنسبة إلى غيرها.

فالعبد لا يزال في حجاب مادام في سير الأكوان، وفي سير الأفعال والصفات والأسماء؛ لأنها كلها بـــرازخ للمـــسمَّى، فإذا وصل إلى الذات؛ خلص عن الحجاب، فكان من أمره التواضع، كما أن الـــنبي ﷺ لمَّا تجاوز عن مقام قاب قوسين، ودخل على الله في مرتبة أو أدنى قال: أنا العبد لا إله إلا الله.

فطوبى لمَن كان جامعًا بين الفناء والبقاء بحيث لم يحتجب بأحدهما عن الآخر؛ وهو معنى شرح الصدر في الحقيقة؛ وهو الذي طلبه الكُمَّل؛ وهو الاستغراق الدائم بعد الرجوع إلى سِدرة الكثرة، وســـترة قاب قوسين؛ وهو الذي أشار إليه الحديث: «وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم أبدًا دائمًا سرمدًا».

=

وقـــال: إن الكامـــل ينـــزل من الفناء إلى البقاء، ويقال له: الخلق الحقي، ثم قال بطـــريق اللطف: فاجتهد أنت يا حقي حتى تكون هكذا، ثم تبسم، وقال: إن شاء الله لا يضيع مخلصك الخفي، وفي كونك متلقبًا به حكمة ومصلحة.

وقـــد كنت قرأت عليه شيئًا من المعارف فأخذ يقرر الأسرار من العصر إلى صلاة المغرب حتى امتلأت القلوب والصدور بالذوق الروحاني والحمد لله تعالى.

قال حضرة الشيخ: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم، خف مني كما تخـــاف مـــن السبع الضاري - وذلك أن السبع الضاري يفترس من غير تفرقة بين نفاع وضـــرار، ومن غير مبالاة، والله تعالى إذا قدر شيء وأمضاه في الأزل؛ فإنه يجريه في عالم التدبير من غير مبالاة، ولو على ولي أو نبي عند تنفيذ قضائه يستوي الكل، ثم تلا حضرة الـــشيخ قـــوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: 1].

فقـــال: الحين حينان: أزلي وأبدي فهو لم يكن شيئًا مذكورًا في الحين الأزلي إلا أنه لا ينافي كونه شيئًا غير مذكور، يعني أنه وإن كان مذكورًا إلا أنه كان شيئًا ولذا أرسله الله

فإن اللَّذة لا تكون في الفناء الصِرف؛ بل في البقاء، فالمحقق في الشهود الدائم أبدًا؛ لأنه لا حجاب له أصلاً؛ لأن مقام قاب قوسين؛ كالمرآة له، ولا شك أن المرآة ليست بحجاب للمرئي والرائي. فالخلوتية إذًا - بالمعجمة الفوقانية - ناقصون؛ لوقوفهم في البرزخ، وقصر سيرهم على الأكوان، وآثار الأسماء التي هي طرائق المكون والمسمَّى.

قلت: لا شك أن أصحاب الطرق الحقة كلها كاملون بعد الوصول على الحق سواء كان وصولهم مـــن طـــريق الأسماء، أومن طريق غيرها، كما أن مَن قصد الحج من البَرِّ، ومَن قصده من البحر؛ مـــتفقون في الوصول إلى الكعبة، وإن كان سيرهما مختلفين متفاوتين بالقرب وبالبعد، وبالسهولة وبالمشقة.

وأمَّـــا قبل الوصول فلا شك أن كمالهم إضافي، وربما يكون سالك أَوْلى من سالك من حيث قوة الـــسلوك، وتوثـــيق سببه، وعلو وصوله، فكم من فرق بين واصل وواصل، كما أنه من فرق بين سالك وسالك، فإن قلت: كيف هذا لتفاوت، ولا تفاوت في النظر إلى الكعبة؟ قلت: هذه دعوى لا يقوم عليها دليل، فإن الأنظار متفاوتة، وكشف الحقائق لا يتجلَّى لكل بصيرة، والحق وإن كان وجهًا لا قفا فيه؛ فله وجوه مختلفة تنظر إليها نظرًا متفاوتًا من الجهات، وعلى هذا أهل الاجتهاد؛ كالأئمة الأربعة فإنهم وإن كانوا كلهم واصلين إلى الله لكن أحوالهم متفاوتة في ذلك تدبُّر تدبُّرهم. انظر: مرآة الحقائق (ص 278)، بتحقيقنا.

تعالى إلى حين الأبد ليكون شيئًا مذكورًا.

قال حضرة الشيخ: عبد الله فوق عبد الرحمن، وهو فوق عبد الرحيم، وهو فوق عبد الكريم، ولذا جعل رسول الله ﷺ عبد الله، وكذا عبد الحي وعبد الحق أفضل الأسماء؛ لأن بعض الأسماء الإلهية يدل على الذات، وبعضها على الصفات، وبعضها على الأفعال، والأول أشرف من الثاني، وهو من الثالث.

قال حضرة الشيخ: بعضهم يسكر من الشرب من بيت الخمر، وبعضهم من رائحة الخمر، وفرق بين من يسكر من الخمر عينها، وبين من يسكر من رائحتها؛ فأهل البداية من أهل المكاشفة لم يسكر من الرائحة، وكذا كثير فيهم المدعون.

قال: الأفعال حجب ظلمانية، والصفات نورانية، والمتجاوز عن كلها واصل إلى الذات.

قال: ولا سلامة إلا في علم الصوفية؛ فإنه حق كله، بخلاف ما عداه؛ فإنه مشوب بالصواب والخطأ، وأكثر من ضلَّ من الفرق الضالة فهم أبعد من الحق خصوصًا المعتزلة، وأقرب من الحق هم المتكلمون.

قال حضرة الشيخ: ليس كل من رأى رسول الله ﷺ وكان مخاطبًا عرف حقيقة المراد منه، وإنما عرفه الخواص فكيف من بعد من القرون الأولى فجاء في آخر الزمان وأواخر القرون فاستشمامه رائحة الحق، ووصوله إلى السر المطلق بعيد إلا من ساعدته العناية الأزلية.

قال حضرة الشيخ الأكبر: إن حضرة القرآن قد بقي بكرًا ومراده بالنسبة إلى علماء الظاهر؛ فإن الذي فهموه من القرآن إنما هو ظاهره ومفهومه الأول وأما علماء الباطن فانتقلوا من المعاني الأولى إلى الثواني ثم إلى الثوالث ثُمَّ وثُمَّ إلى أن وصلوا إلى الباطن السبعين، وعلماء الرسوم يحتاجون إلى ترتيب المقدمات فعلمهم تفكري، وعلماء الحقيقة لا احتياج لهم إليه فعلمهم تذكري، ثم مثَّل مثالاً بأن الطالب للماء، فإما أن يصل إلى الماء أو لا، فإن وصل فإما أن يكون ذلك الماء مالحًا أو عذبًا، فعلى تقدير كونه عذبًا فليس كالمطر بلا أسباب؛ فإنه طيب خالص فالأنبياء والأولياء ملهمون من عند الله تعالى ولا خطأ في الوحي والإلهام، ولذا نقول: إن علم التصوف هو العلم الصواب الحق كله ثم وصَّى بخلوص المحل وألا يكون العبد أجيرًا بل عبدًا محضًا كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:109] فالعبد الحق لا يرجو الأجر من عمله ولا يترقبه، بل

من ربه، والأجير يرجوه من عمله ولو علم الأجير أنه لا يعطى لترك العمل ولو علم العبد ذلك لا يترك فهو من الخدمة والعبودية سواء أعطي أو منع.

قال: ومن السالك من يأخذه الله في أوائل عمره، وبعضهم يجذبه في أواسطه، قلت لحضرة الشيخ: ذهب العلماء إلى صدور بعض السهو عن النبي ﷺ كما نقل تلك الغرانيق الأولى، وأن شفاعتهن لترتجي ونحو ذلك، فقال: يفعل الله بهم ما يفعل: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:23]، ولم يقع سهو منه ﷺ في الحقيقة، وكونه سهوًا بالنظر إلى أرباب النظر لا يستدعي كونه سهوًا بالنظر إلى أصحاب الأعيان.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي في داره العالية، وكنت مفطرًا بعذر الضيافة فجاء بعض المسافرين، ووضع كوز الماء في جنبي، فثقل ذلك علي، وأحسَّ الشيخ منه كوني مفطرًا، ثم لما حضر الطعام بعد المغرب وجلست جنب حضرة الشيخ على الوجه المعتاد، قال في أثناء الطعام مخاطبًا لهذا الفقير: كُلْ من الطعام على نية الصوم، والصلاة، وإحياء الليلة فعرفت أن فيه تأديبًا لي وتنبيهًا لطيفًا.

قال المولى الجامي: [....][1].

قال الشيخ: الآخرة قلب الدنيا، فالبصيرة الباطنة ظاهرة، وسألت عن قولهم في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾[2] [الأعراف:143] أي: ببشريتك ووجودك؛ فقال: إن البشرية

(1) عبارة تركية.

(2) قال الشيخ المصنف في تفسير هذه الآية: أي قال الله تعالى لموسى ﷺ حين طلب الرؤية: لن تراني يا موسى وأنت موسى؛ وإنما تراني إذا كنت محمدًا، ولن تكون محمدًا أبدًا؛ لوجوب اختلاف التعينات بالحكمة؛ فهو: أي محمد ﷺ يراني ببصره وببصيرته؛ لأنه لا حجاب له من كون لا جسمًا ولا روحًا؛ لأن اللطيف لطفه، وجُعل نورًا محضًا، كما قال: «واجعلني نورًا»، وأنت يا موسى تراني ببصيرتك في الدنيا، وأنا رؤيتك ببصرك، فلا تحصل لك إلا في الآخرة، كما لسائر المؤمنين.

ولذا قال: «وأنا أول المؤمنين»: أي بوقوع الرؤية في الآخرة لا في الدنيا، وبالبصيرة لا بالبصر.

فإن البصر قيد؛ والقيد لا يزول؛ لقوة العناصر والأركان، وأنا محمد ﷺ، فبصره ليس بقيد له؛ ولذا كان يرى من جميع الجهات، وهو في الصلاة؛ للمجازاة الإلهية، والله تعالى وجه كل لا قفا فيه، فكذا محمد؛ لأنه مظهره التام، ومجلاه الكامل؛ وهو القمر ليلة البدر إن عُكس إليه نور الشمس الذات؛ فامتلأ به.

وأمَّا النجوم؛ فقد أخذت أنوارها من القمر بقدر استعداداتها وصفا لها في جرمها، ودلَّ على هذا

تـــنافي الرؤية، وموسى عليه السلام سأل الرؤية بالنظر إلى ظاهر البشرية والوجود وهي لا يمكن أبدًا بل لو تعلقت الرؤية بذات الله تعالى لتعلقت حالة الفناء في الله، واضمحلال الوجود والبشرية[1].

=

الكمـــال قـــوله يوم القيامة: «أُمتي أُمتي»؛ لأنه لا حجاب له أصلاً، وأمَّا غيره فيقولون: نفسي نفسي.

ولمّـــا كان كمال المتبوع ساريًا في التابع؛ كان أكامل الأمة أيضًا كذلك؛ لأنهم أيضًا أهل التجلّي الـــذاتي، ولا يلـــزم مـــنه فضلهم على الأنبياء؛ لأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الأولياء والحال لا تُوصف، ولسان الشرع لا يدور إلا بهذه القدر، ولا يجري إلا على مقتضى استعداد أهل العصر.

فظهر أن الله تعالى مشهود أبدًا؛ لكن من مرآة رداء الكبرياء الذي هو وجود العبد، وبعد شهوه، فالمـــشاهدون على تفاوت الدرجات في ذلك حسب تفاوت درجات البصر في الظاهر، فشهود بعضهم أقوى من شهود البعض؛ لكونه بالبصر وبالبصيرة جميعًا، كما لحضرة النبوة.

ولمّا كان كل من الحجاب والكشف يُورِّث الحيرة؛ كان المحجوب في حيرة؛ هي حيرة ممدوحة؛ لكونها حيرة تلوين بعد الكشف والتمكين، فبين الحيرتين تفاوت عظيم، كما بين التلوينين.

ومنه يُعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198].

حـــيث عبَّر عن شهوده ﷺ بالرؤية؛ فإنه أهل الرؤية سواء نظر إلى الأحباب، أو إلى الأعداء، وأمَّا هم؛ فهم أهل النظر الحسِّي لا من أهل الإبصار الحقيقي، ولو كانوا من أهل الإبصار الحقيقي؛ لِما جعلـــهم الله في حكـــم العمي؛ فهم رأوا محمدًا بصورته لا بمعناه ويقرأ في الحيرة المذمومة حيث اســـتبعدوا النبوة في البشر والحق في صورة بني آدم، وقد قال: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»: أي بذاته وأسمائه وصفاته.

والمـــراد منه: آدم الحقيقي الذي هو محمد ﷺ، فإن الغاية القُصوى من الكون من إيجاد أبي البشر داخـــلاً في محمـــد لا بالعكس، فإن الله لمّا كان النور المحمَّدي من نوره؛ جعل نور أبي البشر في نـــوره، فما ظهر إلا بنور محمد كما أن محمدًا ما ظهر إلا بصورة أبي البشر، فكان روح آدم تابعًا لروحه، وجسمه متبوعًا لجسمه، ولمّا كان الشرف الحقيقي، والكمال الإنساني للروح في الحقيقة؛ ما نقص متابعة محمد لجم آدم من كماله شيئًا.

ومـــنه: قـــال: «**إن الله لا ينظـــر إلى صوركم وأعمالكم**»: أي إلى ظواهركم؛ «**وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم**»: أي إلى بواطنكم، فانظر واشهد لعلّ الله يعطيك رؤيته بالمنَّة لا بالجهل.

(1) اعلـــم أن الـــرؤية على ثلاثة أقسام: أحدها: الرؤية الذاتية وهي شهود الحق في كماله الذاتي وغناه الـــذاتي ذاته بذاته رؤية ذاتية غير زائدة على ذاته وشهود أسمائه وصفاته ونعوته وتجلياته في قبضة قهر الأحدية رؤية ذاتية أيضًا.

والـــرؤية الثانية: رؤية أسمائه، وهي التي وقعت بظهور الأسماء في العوالم التي هي مظاهرها، فهذه

=

فقلت: يرد عليه ما وقع ليلة المعراج؛ فقال: إن حبيب الله عليه السلام رأى ربه في تلك الليلة بالسر والروح في صورة الجسم هناك؛ لأنه تجاوز في سيره من عالم الأجسام كلها بل من عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر، فقلت: يرد أن الأنبياء والأولياء مشتركون في الرؤية بالبصيرة حالة الفناء فلا فرق إذًا بين موسى عليه السلام ومحمد عليه السلام فأي فائدة في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143].

وأيضًا في عروجه عليه السلام إلى ما فوق العرش؛ فإن تلك الرؤية تحصل في مقام العينية والقلبية لا في الغيرية والقالبية؛ فقال: إن أمر الرؤية وإن كان محتاجًا إلى الانسلاخ التام عن الأكوان مطلقًا إلا أن الانسلاخ بالقلب والقالب مختص بنبينا عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام لو رأى ربه بالانسلاخ رأى قالبه في عالم العناصر، وأمّا محمد عليه السلام فقد تجاوز بالقلب والقالب عن عالم العناصر، ثم من عالم الطبيعة فأنى يكون هذا الخيرة، وفي هذا المقام تحقيق آخر جرى بيني وبين حضرة الشيخ، وذلك أن حضرة الهدائي - قدس سره - قال في مجلسه الشريف: استدل المعتزلة على مذهبهم بما ورد في الصحيحين عن أبي موسى: «جنتان من فضة لبنتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم

=

الرؤية موقوفة على إظهار أعيان الأسماء المستهلكة في الأحدية عوالمها ومظاهرها.

والرؤية الثالثة: الرؤية الواقعة في الكون الجامع، وهي جامعةٌ للرؤيتين الذاتية والأسمائية، فخلق الحق تعالى جميع العوالم من العقل الأول إلى النوع الإنساني الكمالي الجمعي وكل شيء من العوالم مظهرًا لاسم خاص من الأسماء الإلهية، ومجلى الصفة من الصفات الجزئية أو الكليَّة، فظهر الحق في كل شيء بحسب استعداد ذلك الشيء وقابليته، ولم يظهر بصورته الجمعية الإلهية، فما حصل الظهور الكلي بالصورة الإلهية الأسمائية في شيء أعيان الموجودات العلوية وأشخاص المخلوقات السفلية لعدم قابليته لها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان﴾ [الأحزاب: 72]، فخلق للظهور الكلي الأحدي الجمعي الكون الجامع، فأظهر فيه أعيان جميع أسمائه الحسنى، وظهر بالظهور الكلي الأحدي الجمعي، والتفصيلي فيه، فرأى جمال ذاته تعالى فيه كما قال الأستاذ قدس سره في فصوص الحكم: لما شاء الحق حيث أسمائه الحسنى التي لا يبلغها إلا الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت: أن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، إلى آخر ما قال قدس سره، وآدم الحقيقي نبينا محمد ﷺ فهو أظهر المظاهر وفوقها.

وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه[1]».

قالوا: إن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا يمكن الرؤية، ولكنهم حجبوا من أن المرتدي لا يحتجب عن الحجاب إذ المراد بالوجه الذات، وبرداء الكبرياء هو العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامعة للخلائق الإمكانية والإلهية والرداء هو الكبرياء وإضافته للبيان والكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله فافهم انتهى كلام الهدائي في نفائس المجالس.

وحله على ما تلقفت من حضرة الشيخ أن قوله: ولكنهم حجبوا من أن المرتدي يحتجب عن الحجاب معناه أن المرآة لا تكون حجابًا للناظر، كما أن اللباس كذلك بالنسبة إلى البدن نفسه إذ لا واسطة بينهما، فالرداء من المرتدي بمنزلة المرآة من الناظر، وكذا المرتدي من الرداء بمنزلة الناظر من المرآة، إذا المراد بالوجه الذات بطريق إطلاق اسم الجزء على الكل كما في علي - كرم الله وجهه - ونحوه فالمرتدي هو الذات لا يحتجب عن حجابه عن الغير كالقناع للعروس، فإنه كشف بالإضافة إليها إذ لا حائل في البين وحجاب بالنسبة إلى غيرها لكونه مانعًا عن رؤية وجهها وبرداء الكبرياء هو العبد، وهي الحقيقة المحمدية التي هي حقيقة الحقائق، ولكل موجود حصة من تلك الحقيقة بقدر قابليته لكنها في نفسها حقيقة واحدة إذ الواحد لا يصد عنه إلا واحد، وهي الوجود العام الشامل والهوية السارية في جميع الموجودات كالحيوان الناطق؛ فإنه معنى واحد عام شامل لجميع أفراد الإنسان، وكثرته بالنسبة إلى الأفراد لا تنافي وحدته الحقيقية وبالاستثناء في قوله عليه السلام:

«وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء على وجهه» صورة إنتاج تفيض المقدم على تقدير استثناء نقيض التالي؛ فمعناه إلا رداء: الكبرياء إن كان ذلك حجابًا لكنه ليس بحجاب فما بينهم وبين النظر حجاب أصلاً أي: لا حقيقة كل منهم التي تجلى الذات فيها بحسب صفاء مرآتها ومعرفتها وتلك حقيقة ليست بحجاب بين القوم وبين الذات الأحدية إذ ما وراء تلك الحقيقة مع قطع النظر عن التجلي فيها وكونها مرآة له إطلاق صرف لا يتعلق به رؤية راء أيًا كان فكل ناظر ينكشف له جمال الذات من حقيقة ينظر إليه من تلك الحقيقة، وهي ليست بحجاب للنظر ولا للذات إذ هي كالمرآة للناظر

---

(1) رواه البخاري (2710/6)، ومسلم (163/1).

فالنظر الظاهري قيد تام، وما وراء تلك الحقيقة من الذات إطلاق بحت فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه، وتلك الحقيقة بين التقييد والإطلاق برزخ جامع لها كما قال عليه السلام:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] فالعارف إذا لم يتعلق عرفانه بنفسه الكلية وحقيقته الجامعة لا يتأتى منه عرفان ربه؛ لأن ربه مطلق عن القيود والنسب، والإضافات، وهو بهذا الاعتبار لا تتعلق به المعرفة.

وأما نفسه المتجلي فيها الرب بحقائق أسمائه فيتعلق بها تلك الرؤية من حيثية التجلي، فيكون حقيقة نفسه ومعرفتها مرآة ربه ومعرفته هذا، وإنما غلط من غلط بقياس الغائب على الشاهد، وهو ممنوع باطل إذ فرق بين الملك والملكوت، وكذا بين الملكوت والجبروت واللاهوت والكبرياء رداؤه الذي يلهمه عقول العلماء بالله أي للتفهيم لا لمعنى آخر، فلا رداء هناك حقيقةً، والعجب أن مثل هذا الإطلاق التشبيهي كثير في القرآن والحديث، وقد فهمه العرب بسليقتهم ولم يترددوا في ذلك أصلاً، ثم إن أهل الاعتزال قالوا لعمي بصيرتهم وسوء فهمهم ما قالوا؛ فأولئك هم المحرومون من الجمال الحقيقي إلا أنهم في مرية من لقاء ربهم.

الزيارة الرابعة

الزيارة في شوال من سنة تسع وتسعين لما دخلت السفينة من قصبة مدانية[2] غلبني القيء، فعرفت أن زيارة حضرة الشيخ كما أنها سبب لزوال الأمراض الباطنة، كذلك سبب لزوال الأمراض الظاهرة؛ لأنه يحصل لي من قيء الصفراء المجتمعة على خفة بدن واعتدال مزاج.

ولما دخلت على حضرة الشيخ وذلك وقت تهيئة للجمعة قبيل الزوال عامل معاملة جميلة وذهبت معه إلى جامع السلطان سليم، فلما خلع نعليه عند باب الجامع أخذهما بيديه ورفعهما ووضعهما تحت الكرسي، وذلك من دأبه في أكثر الأيام فأشار به إلى أمور.

الأول: أنه فعل ذلك توصفًا كما فعل مثل هذا رسول الله ﷺ على ما هو اللائق بخلقه العظيم.

والثاني: إرشاد في رفع الكبر.

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (208/10).

(2) هكذا في الأصل.

الثالث تربية لمن خلفه من الصوفية فكان ذلك صورة غضب لما أن بعضهم تحادثوا خلفه ولم يك ذلك من الآداب، ولما جلس بمجلس الوعظ قال عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:15]: إن المراد هو الإيمان المطلق سواء كان رسميًا بيانيًا أو شهوديًا عيانيًا.

فالأول: إيمان أهل الشريعة.

والثاني: إيمان أهل الحقيقة، وكلاهما معتبر مقبول يمنع لصاحبه عن المهالك.

وقال أيضًا: القيام الصلاتي إشارة إلى التقدير الأزلي، وهو التفويض والركوع إشارة إلى التدبير الأبدي، وهو التسليم والسجدة إشارة إلى الفناء الكلي عنهما إذ كما لا بدّ من التخلق بمثل هذه الصفات لا بد من الفناء عنها.

دعاني حضرة الشيخ يوم السبت قبل الظهر إلى بيته الفوقاني، فسأل عن أحوالي فأظهرت الشكاية عن ضعف البدن وبعض الموانع الصورية؛ فقال: إن هذا حكم الوقت، والشيء إذا ثبت ثبت بلوازمه، وكل ذلك من لوازم ذلك.

ثم قال: اجتهد في طريق الحق حق الاجتهاد، وقُلْ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:33]. وكُنْ يوسف ثانيًا؛ فإن تفرقك سبب لانتظامك وجمعيتك، وما دبَّر الله لك من الاضطراب فيعود إن شاء الله إلى السكون ويكون عاقبتك خيرًا.

عرضت على حضرة الشيخ بعد طعام العشاء قدومه الشريف إلى مدينة بروسة؛ فقال: لا، لا والنفس، وإن كانت تأمل ذلك وتحتظ منه إلا أنه ليس من حظ الروح وإلى الآن لا يقدم لي إلا الإقامة في داري وقد حصل لي ملال من الخروج؛ فقلت: أحبابكم منتظرون، فتبسم، وقال: من الأحباب فاتهم؛ لأنه واحد لا اعتبار لهم، ثم قرأ قول حضرة الهدائي في بعض الإلهيات التركية [...] فقلت: كلامهم حق، فإن أهالي بروسة وإن كانوا على محبة في الظاهر لكن ليس في هذا الزمان قابل الألفة والاختلاط، فقال: منتقلاً إلى أسلوب آخر: لا نرجو الألفة والأنس من الخارج؛ فإنها لا تفني شيئًا بل تضمحل جميعًا، واجتهد أن تجد ذلك في نفسك؛ فإن من وجد ذاته واستأنس به لم يبق له حاجة إلى الخارج أصلاً بل يفنى عن السموات والأرض وما فيها ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «إن الله

اتخـذني خليلاً»[1] وهو في الحقيقة اتخاذ ذاته في ذاته خليلاً ووجد أن ذلك الحضور في باطنه.

سأل حضرة الشيخ عن الأولاد، وقال: لِمَ لَمْ تجئ بولدك إسحاق؟

فقلـت: إن والدته تمنعني من ذلك لصغره ولأنها لها علاقة به، ولقد كان لي علاقة بابـنة لي، وكـان يخطر ببالي إلى أن رأيت الانكسار من كل وجه، ووجدت كل ألم في الدنيا غير ألم موت الأولاد وانكساره، فماتت تلك البنت أيام هذه الخاطرة، فوجدت منه ما وجدت، فقال: تلك الخاطرة كانت من الرحمن؛ فإنه يحرك القلب ويفيض إليه أشياء، ويصدقه بعد ذلك وله الحكم في كل أمر.

قـال حضرة الشيخ: الطريق الأسلم هو أن تحسن الظن إلى كل أحد، فإن كنت صادقًا فهو صادق، وإن كان كاذبًا فقد نجوت أيضًا وهلك هو.

قال حضرة الشيخ: الوصول في هذه الطريق لا يحصل إلا بالإخلاص ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:3]، قال: ابن الوقت لا بدَّ له أن يلازم وقته ولا ينظر إلى ما بين يديه وما خلفه، والسالك وإن كان يلاحظ التحرز عن كل شيء ولكن لا بدّ له من وقت في المستقبل فما دام لم يجئ وأنه لا يتخلص عن الاضطراب فالاضطراب واقع، ولكن السكون مرهون بوقته لا يحصل قبله وإن قاسى كل شدة فإذا كان بالوقت فله التصرف في كل شيء والزمان تابع له حينئذٍ، وشكوت عن تعنت أهل البيت، فقال: إن الله يحملك على الصبر، والتحمل، فإذا تزكى نفسك عن الرذائل، واتصفت بالفضائل يرتفع الموانع مطلقًا.

سـألت حضرة الشيخ أحوال أولاد المشايخ الكرام وأحفادهم حيث إنهم يقولون: إنَّـا أولاد فلان العزيز فهل لهم فائدة في الافتخار بمجرد كونهم ذوي القربى من غير أن أحـسابهم كأنسابهم؟ فقال: أما تعرف قوله تعالى في حق كنعان بن نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46].

وفي المثنوي في حقه: [....][2].

قلت لحضرة الشيخ: هل يكون خليفتان في محل واحد؟

---

(1) رواه مسلم (377/1).

(2) كلام ليس بعربي.

قال: ليس هذا من دأب السلف؛ لأنه كنفخ روحين في جسد واحد.

أقول: هذا إذا كان الخليفتان لشيخ واحد، وإذا كان لشيخين فلا بأس.

قلت لحضرة الشيخ: يجب الهجرة في رأس المائتين؛ لأنه يقرب فناء العالم حينئذٍ.

قال: الأصح أنها في رأس المائة الثالثة بعد الألف.

وقال: إن أمر الدنيا كالبدر وكالهلال من آدم إلى نبينا ﷺ ثم امتلأ الهلال فصار بدرًا، ثم عاد إلى مرتبة الهلالية قليلاً قليلاً، ولهذا ترى العالم على الاضطراب والفناء والزوال.

وأظهر حضرة الشيخ وجع السنّ والنزلة؛ فقال: إن الله ابتلاني به منذ ثلاثين سنة، وذلك من تجلي الجلال.

فقلت: إن حضرة الشيخ الشهير باقتادة – قدس سره – ابتلي بوجع الكعب إلى آخر العمر، فقال: إن الله تعالى مرة يتجلى بالجمال، وأخرى بالجلال، وكلٌ من بديع صنعه محبوب بكل وجه.

قال حضرة الشيخ: الكامل لا يخرج عن حكم الطبيعة والقلب والروح كسائر الناس لكن لا تلذذ بالنسبة إليه، ولا تألم بل هو مجرد عن القيود مستقر في مقام السر المحيط بالكل، قال: أول الأمر تجريد وآخره تجريد بل تفريد، ولا يُخلق شيء أصلاً إلا أن يكون أهل برزخ وحجاب فيعلق.

قلت لحضرة الشيخ: أريد أن أقرأ عليكم «مفتاح الغيب» للصدر القونوي – قدس سره – فقال: لا حاجة فإنه للتشريف، وقد أعطاك الله الفهم والذوق فعليك بمطالعته.

قلت لحضرة الشيخ: إن الجلوتية في بروسة خلطوا الدور والرقص بطريقتهم فغيروها عن أصلها، فهل يكون دور الصوفية في هذا الزمان ورقصهم توحيدًا على الصفة التي كانوا عليها؟ فقال: لا فإن من لا أهلية له للدور مثل المرد وأهل الهوى كيف يكون فعلهم توحيدًا؟ وقد خلطوا الهوى بالهوى فاسد منه الحال.

أقول: كان حضرة الشيخ يرى الدور، ولكن ينكره في هذا الزمان، ويقول: قلَّ الأهل من القوال، وأهل التوحيد. ولذا ترك الكل في أواخر عمره، فلم يلتفت لا إلى الأقوال، ولا إلى عقد مجلس الذكر والتوحيد.

قال حضرة الشيخ: إن التمكن والسكون بعد اليقظة والوصول، فأهل الغفلة والدعوى يضربون الحديد البارد وتلذذهم مشوب بحكم الطبيعة والنفس، وهو حرام ولا

اعتبار للعلم والعرفان القالي بل للحالي، وتقليد أهل الحقيقة في حكم الطبيعة مقبول؛ لأنه لــدين مستحـــسن مجرد عن الحظوظ بخلاف تقليد أهل الطبيعة في حكم الحقيقة، فإنه مردود؛ لأنه تلوين مستقبح مشوب بالحظوظ، والتلوين غير جائز.

قال حضرة الشيخ: من كان متوجهًا إلى الله فالإمامة والخطابة ونحوها قيد له مانع عـــن توجهه، ومن استأنس بالحق تعالى لم يحتج إلى الاستئناس بالخلق؛ فالواعظ المعرض عن الحق يطلب كثرة الخلق في مجلس الوعظ، وكذا المدرس في حلقة درسه وكذا غيرهما، وأمَّا المقبل إلى الحق فليس له حاجة إلى الخلق أصلاً سواء قبلوا أولم يقبلوا.

أعاد حضرة الشيخ وجع سنه، وقال: إن الله تعالى حفظني عن الأمراض مطلقًا إلا وجع السن فابتلاني؛ لأن به وفيه حكمة بالغة له فانظر من أين يجيء هذا الوجع؟ وكيف يجيء؟ وكيف ظهوره في أسنان الإنسان؟ فقد أسهرني ثلاث ليالٍ بحيث ما نمت قط إلى الصباح.

قال حضرة الشيخ في حق خليفة الشيخ حسين الفرائضي: وقد كان هاجر مع أهل بيته وقت استيلاء الكفار على [البلاد الرومية][1] فاستخلفه في قصبة إزميدان الآن في علم المجاهـــدة وحكمة التجلي بالقبض، فإذا جاء وقت البسط يبسط الله بحيث يسخر الروح، والـــنفس إذا كانـــت مغصوبة بقي فيها أثر غضب لا يخلوها عن الانقباض، وإذا كانت مرحومة بتوسع رزقها من الاسم الرحمن.

قـــال حـــضرة الشيخ في وعظه عند قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: 11]: لما أن الله تعالى كف شر الأعداء عند همتهم علـــى الأنبـــياء، كذلك كف عن الأولياء فلكل ولي حصة من هذه الآية، وهو داخل في حكمها.

أقول: قرر حضرة الشيخ المقام بحيث أنفسهم منه أن ظلمة الزمان لا يقدح دون أن يهمـــوا إلـــيه بالقتل وكان كذلك؛ فإن الله عصمه من كيد الأعداء إلى آخر عمره مع زيـــادة جسارته على الكلام الحق من غير تفرقة بين وزير وسلطان وقاض وأعيان، ولذا كان يمدحه بعض الوزراء في خلواتهم بالشجاعة.

فإن قلت: كيف عصمه الله، وقد نُفِيَ في آخر عمره ومات منفيًا؟.

---

(1) في الأصل باللغة التركية، وتم ترجمته.

قلـــت: حفظُ البدنِ كاف في العصمة، وقد اضطر النبي ﷺ إلى الهجرة مع العصمة والورثة كالرسل في أكثر الأحوال.

قـــال حضرة الشيخ بعد الطعام والدعاء ليلة الجمعة: مرضت مرة في سالف أيامي فـــرأيت كـــأن الـــروح تخرج من الجسد، فكان هو في محل والجسد في محل، ورأيت أن العلاقـــات جمـــيعًا انقطعت عني وأن القوانين والعلوم الرسمية، فارقتني فلم يبق في دائرة الوجود شيء يشار إليه، وهكذا يكون وقت الاحتضار؛ فإن الرسوم تفنى وقتئذٍ بالكلية، وما يقال: حسن الخاتمة وسوء الخاتمة؛ فهو إشارة إلى الأُنس والوحشة عن الله فلا بدَّ من التجـــرد عمـــا سوى الله بالكلية، وهو ما كان غير الذات مطلقًا سواء كان من التعينات الإلهـــية والكونية، فإن التعينات الإلهية يقال لها أيضًا ما سوى ولو بالنسبة فكل ما يطلق عليه ذلك قيد في نفس الأمر، ويظهر كونه قيدًا ولو بعد حين.

قال: وإنّا نرى أكثر أهل الطريق في هذا الزمان ممكورين بحسب الأتباع والكراسي والوظائف والخانقاهات [......](1) ولم يتخلص إلا الذين جازوا الأوهام إلى العلوم، ومن المعلـــوم إلى العرفان، ومن العرفان إلى العيان، ومن العيان إلى العين، ومن العين إلى الحق؛ فمـــا دام لم يصل السالك إلى الحق اليقين فهو ناقص، وإن كان كاملاً بالإضافة إلى غيره، والكامـــل والأكمل الذاتي هو أهل الهناء والبقاء فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون فتح العلم والعرفان الغير الحالي ثم تبسم، وقال قول الهدائي في بعض إلهياته[....](2) .

وقـــال: فأنت يا إسماعيل حقي تسمي نفسك سمي الذبيح، فهل كنت كذلك؟ ثم تبسم، وقال: تكون كذلك إن شاء الله تعالى.

قـــرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِـــبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُـــونَ لَـــوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:54] ثم قال: انظر كيف ذكر الله الموصوف وهو القوم فوصـــفه بالمحبة المطلقة وبغيرها من الأوصاف الجميلة وتخصيصها يستدعي أن أهل الحق هو من اتصف بها وخلافه من تخطاها.

ذكر حضرة الشيخ كرامات بعض الأولياء حتى قال: يحكى أنه في مرقد إبراهيم بن

---

(1) بياض في الأصل.

(2) كلام غير عربي.

أدهم[1] - قدس سره - ثقبة يخرج منها نحل، ويدخل غيره، فإذا أراد بعض ظلمة البلدة

(1) هـو الحـازم الأحـزم العـراف الأعزم، كان عن المقطوع المرذول ذاهلاً، وبالمرفوع الموصول متـشاغلاً، وكـان شرع الرسول منهاجه، واختياره عليه الصلاة والسلام مزاجه، ألف الميمون الموصول، وخالف المفتون المخذول.

وقـد قيل: إن التصوف، التكرم والتظرف، والتنسم والتلطف، أصله من أولاد ملوك بلخ، فخرج يتـصيد فهـتف بـه هاتف من قربوس فرسه: ما لهذا خلقت ولا به أمرت، فنـزل عن فرسه ونـزع ثـيابه، ولـبس جـبة وساح، وفي رواية أنه بينما هو يركض فرسه سمع صوتًا فوقه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115]. اتق الله، وعليك بالزاد ليوم المعاد فرفض الدنيا وعمل للآخرة، وهام بالبادية.

وفي روايـة أنه لما سمع النداء نـزل عن فرسه ودفع ثيابه لصياد، وأخذ ثياب الصياد ومرّ هائمًا فرأى على الأثر إنسانًا وقع عن قنطرة فقال له وهو في الهواء: قف، فوقف في الهواء لا يسقط ولا يـصعد حـتى وصل إليه فأخذ بيده وألقاه على القنطرة سالمًا، وما ذاك إلا لكمال صدق توبته وعظيم حسن نيته، فأعظم بها من كرامة ما أسناها، ومرتبة ما أعلاها!

ولقـي الخضر عليه السلام بالبادية فعلمه الاسم الأعظم وقال له: لا تدع به على أحد بينك وبينه عداوة فـتهلكه في الدنيا والآخرة، واعبد ربك على تحقيق المشاهدة والمراقبة واعلم أنه أقرب إليك من حـبل الـوريد. ثم دخل مكة وصحب الفضيل وسفيان الثوري. وكان لا يأكل إلا من عمل يده كالحـصاد، وحراسـة البـساتين. ومرَّ به جندي، وهو يحرث كَرْمًا فاستطعمه عنبًا فأبى، فعلاه بالسوط، فطأطأ رأسه وقال: اضرب رأسًا طالما عصى الله فأعجز الرجل منه.

وكان يخلط الدقيق بنحو الثلث رمادًا ويعجنه ويقول: هيهات أن يقوم أحدنا بقيراط من شكره.

وكان به علة البطن فقام في ليلة واحدة نيفًا وسبعين مرة، وفي كل مرة يتوضأ ويصلي ركعتين.

وكـان يلـبس مرقعة زنتها ستون رطلاً، ونام ليلة عن ورده فتكدر فنودي في سره: كن عبدًا لنا تسترح، فإن أقمناك قم، وإن أنمناك نم وليس لك في الوسط شيء.

قـال الغزالي رحمه الله: وكان ابن أدهم والثوري -رضي الله عنهما- يطويان ثلاثًا ثلاثًا، ويأكلان في الرابع.

قال: وليس ذلك خارجًا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالمجاهدة.

ولمـا قـدم سفيان الثوري رضي الله عنه الرملة أرسل إليه ابن أدهم -رحمه الله- أن تعال فحدثنا فجاءهم فقيل له: تبعث إليه بمثل هذا هكذا قال: أردت أن انظر كيف تواضعه.

وسـئل عن لبس المرقعة فقال: إن قلت اختيارًا تكون دعوى، أو اضطراراً تكون شكوى ولكن لبستها عارية.

وصـحبه رجل فلما أراد مفارقته قال: يا إبراهيم، إن رأيت فيَّ عيبًا فنبهني فقال: لم أره فيك لأني لحظتك بعين الوداد فاستحسنت منك ما رأيت فاسأل غيري.

وسمع قارئًا يقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:1] فاضطربت أوصاله وارتعدت.

=

ومرّ براعي غنم فقال: هل شربة من ماء أو لبن قال أيهما أحب إليك؟ قال: الماء فضرب بعصاه حجرًا فانبجست منه الماء فشرب فبقي متعجبًا فقال الراعي: لا تعجب، إن العبد إذا أطاع مولاه أطاعه كل شيء.

ومن فوائده: إن الرجل الحر الكريم من تخرج نفسه عن الدنيا قبل أن يخرج منها.

وقال: لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ولذة العيش وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف طلبوا الراحة والنعيم فأخطؤوا الصراط المستقيم.

وقال: من قال لأخيه: أعطني من مالك فقال: كم تريد؟ فما قام بحق الأخوة، ومن دعاه أخوه إلى حاجة فقال: إلى أين؟ فما قام بحق الصحبة.

وقال: طلب الملوك شيئًا ففاتهم وطلبناه فوجدناه ما يجاوز همي كسائي.

وقال: تعلمت المعرفة من راهب دخلت عليه صومعته فقلت: منذ كم أنت هنا؟ قال: منذ سبعين سنة قلت: ما قوتك؟ قال: يا حنفي حِمصةٌ كل ليلة، قلت: أتراها تكفيك والبلد بحذائك؟ قال: إنهم يأتوني كل عام يومًا فيزينون صومعتي ويعظموني لذلك فكلما تشاغلت عن العبادة تذكرت تلك الساعة فأحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنفي جهد ساعة لعز الأبد.

وقال: ذهب السخاء والكرم والجود، فمن لم يواس الناس بذلك فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق.

وقال: قال لقمان عليه السلام: لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا في الحرب ولا الإخوان إلا عند الحاجة.

وقال: من لؤم الرجل أن يرفع يده من الطعام قبل أصحابه.

وقال يومًا وهو على جبل مع أصحابه: يبلغ المؤمن من كرامته على الله أن لو قال للجبل تحرك لتحرك فتحرك الجبل فقال: ما إياك عنيت. وفي رواية ضربه برجله وقال له: اسكن إنما ضربتك مثلاً لأصحابي.

وسافر في مركب فأشرفت على الغرق فخافوا، فسمعوا صوتًا من الجو: أتخافون وفيكم إبراهيم؟

وسافر فيه مرة أخرى فأشرفت السفينة على الغرق وأيقنوا به فرفع رأسه وقال: يا حي حين لا حي، ويا حي قبل كل شيء، ويا حي بعد كل شيء، يا حي يا قيوم، يا محسن يا مجمل، قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك. فهدأت السفينة فورًا وسلموا.

وقال: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر.

وقال: من تعود أفخاذ النساء لا يجيء منه شيء.

وهاجت ريح عاصفة في البحر فقال له أهل السفينة: ما ترى هذه؟ قال: إنما الشدة الحاجة للناس.

وقال له إبراهيم بن بشار: أذهب اليوم أعملُ في الطين. قال يا بشار: إنك طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب ما يفوتك، أما رأيت حريصًا محرومًا وضعيفًا مرزوقًا؟ فقلت: إن لي

=

دانقًا عند البقال قال: تملك دانقًا وتطلب العمل؟

ومـــن مناجاته: اللهم إني لم آت الذنوب جراءة عليك ولا استخفافًا بحقك، ولكن جرى بذلك قلمك ونفذ به حكمك والمعذرة إليك.

ولقـــيه جندي بالبادية فقال: دلني على الديار والمدينة فذهب به إلى المقابر فأوقفه عليها، وقال: هـــذه الديار فضربه على رأسه فأدماه فرفع رأسه وقال: اللهم إني أعلم أنك تؤجرني وتؤازره، فلا تؤجرني ولا تؤازره.

وبكـــى رحمـــة له فعرفه بعد ذلك فجاءه مستغفراً معتذرًا فقال له: الرأس التي تحتاج إلى اعتذارك تركته ببلخ. أي أن نخوة الشرف وكبر الرياسة كان في رأسي حين كنت أجول في ميدان الخيلاء على فرس حب الجاه وزينة الدنيا في بلخ، والآن خرج ذلك من رأسي.

وقـــال: وقفـــت على قبر فانشق عن شيخ خضيب. فقال: يا إبراهيم، سل، فإن الله أحياني من أجلك قلت: ما فعل بك؟ قال: لقيته بعمل قبيح فقال: لي غفرت لك بثلاث لقيتني وأنت تحب لي من أحب، ولقيتني وليس في صدرك مثقال ذرة من حرام، ولقيتني وأنت خضيب وأنا استحي من شيبة الخضيب أن أعذبها بالنار، ثم التأم القبر عليه.

وقـــال: مـــا على أحدكم إذا أصبح وأمسى أن يقول اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا

وقـــال: إيـــاكم والغرة بالله ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ [لقمان:33].

وقال: الفقر مخزون عند الله في السماء يعدل الشهادة لا يعطيه إلا من أحب.

وسئل عما كان بين علي ﷺ ومعاوية فبكى كثيرًا ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: من عرف نفسه اشتغل بها عن غيره.

وقـــال: طلـــب الناس الدنيا بالرضا والغضب فلم ينالوا منها حاجتهم، وإنه من أراد الآخرة كان الناس منه في راحة.

وقال: الصائم القائم المصلي الحاج الغازي من أغنى نفسه عن الناس.

وقيل له: إن فلانا يتعلم النحو فقال: هو إلى تعلم الصمت أحوج.

وقال: حب لقاء الناس من حب الدنيا، وتركهم من ترك الدنيا، ومن أحب الشهوة لم يصدق الله في أعماله.

وقال: ما أغفل أهل الدنيا عنا! ما في الدنيا أنعم عيشًا منا.

وقال: إذا بات الملوك على اختيارهم فبت على اختيار الله لك وارض به.

وقال: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب.

وقـــال كـــل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص بمنـــزلة واحدة، وكل عالم لا يكون ورعًا فهو والذئب بمنـــزلة واحدة، وكل من يخدم سوى الله فهو والكلب سواء.

=

وقال: مررت براهب في صومعة على عمود على قمة جبل، كلما عصفت الريح تمايلت الصومعة، فناديته: يا راهب فلم يجب، فكررت وقلت: بمن حبسك في صومعتك إلا أجبتني؟ فقال: كم تنوح، سميتني باسم لست له بأهل قلت: يا راهب، وإنما الراهب من رهب من ربه، قلت: فما أنت؟ قال: سجّان سجنت سبعًا ضاريًا قلت: ما هو ؟ قال: لساني، إن أرسلته مزق الناس يا حنيفي، إن لله عبادًا صمًّا سمعًا، بكمًا نطقًا، عميًا بصرًا سلكوا خلال ديار الظالمين، واستوحشوا مؤانسة الجاهلين، وشابوا ثمرة العلم بنور الإخلاص، وكحلوا أبصارهم بسهر الليل، فلو رأيتهم وقد نامت العيون وهم يناجون من لا تأخذه سنة ولا نوم. يا حنيفي عليك بطريقتهم.

وقال في بعض الكتب الإلهية: من أصبح حزينًا على الدنيا أصبح ساخطًا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه.

وقال: أطب مطعمك ولا عليك أن تقوم الليل ولا أن تصوم النهار.

وقال: رأيت ملكًا نزل من السماء فسألته لم نزلت؟ قال: لأكتب أسماء المحبين كمالك بن دينار، وثابت البناني والسختياني، قلت: هل أنا منهم؟

وقال: لا، قلت فاكتبهم واكتب تحتهم محب المحبين، قال الساعة أمرت أن أكتب في أولهم.

وقال: رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن التوبة بالتواني، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني، وقيل له: لِمَ لا تكتب العلم؟

وقال: شغلني ثلاث، شكر النعمة، وخوف العاقبة، والعمل لما بعد الموت.

وقال: إنك تلقى ما أسلفت ولا تلقى ما خلفت، فمهد لنفسك فإنك لا تدري متى يفاجئك أمر ربك.

وقال: لي عشرون سنة أطلب أخًا إذا غضب علي لم يقل إلا الحق فلم أجده.

وقال: أعربنا الكلام فلم نلحن ولحنا في الأعمال فلم نعرب.

وقال: لا تطمع في الأنس بالله مع الأنس بالخلق ولا في الحكم مع ترك التقوى.

وقال: سبحان من نظر إلى من يحب بالوصف الذي يحب فأحبه به.

وقال: اتخذ الله صاحبًا، وذر الناس جانبًا ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:91].

وقيل له: إنا ندعو فلا نجاب، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60] فقال ماتت قلوبكم في عشرة أشياء، عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، وقرأتم كتابه فلم تعملوا به، وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته،وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه، وقلتم: نحب الجنة ولم تعملوا لها، وقلتم: نخاف النار ووهبتم أنفسكم لها، وقلتم: الموت حق ولم تستعدوا له، واشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا فأنى يستجاب لكم.

وقال: لا تنال درجة الصلحاء حتى تجوز ست عقبات، تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة، وتغلق باب العز، وتفتح باب الذل، وتغلق باب الراحة، وتفتح باب الجد، وتغلق باب النوم،

=

وتفـــتح باب السهر، وتغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر وتغلق باب الأمل، وتفتح باب التأهب للموت.

وقال: إن أحببت أن تكون وليًا فلا ترغب في شيء من الدارين وفرغ نفسك لله وأقبل عليه يقبل عليك.

وقال: علامة نور القلب أن يكون أكثر هَم صاحبه العبادة وأكثر كلامه الثناء على الله وحكايات الصالحين.

وقـــال: أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وفى بالعمل، وفي له بالآخرة، ومن لا عمل له لا أجر له.

وقال: كن ذنبًا ولا تكن رأسًا، فإن الضربة أول ما تقع في الرأس.

وقـــال: لقـــيت الخـــضر ﷺ بمكـــة فقدم لي قدحًا أخضر فيه سكياج وقال لي كُل فرددته، فقـــال:سمعت الملائكة تقول: من سئل ولم يأخذ سأل ولم يعط، وكان يبول الدم من شدة الوجد ويقول في بسطه: إن كنت وهبت لأحد من محبيك ما يستريح به فهب لي.

أسند عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين أحاديث متعددة.

وروى عن يزيد الرقاشي، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومالك بن دينار.

وعنه أبو إسحاق الزاري، وشقيق البلخي وبقية، قاله الذهبي ووثقه النسائي والدارقطني، وقال في التقريب: صدوق خرج له البخاري في الأدب والترمذي.

ومـــن كراماته: أنه كان في رفقة فعرض لهم سبع فجأة فجاء إلى السبع وقال: إن كنت أمرت فينا بـــشيء فامـــضه، وإلا فارجع فرجع، وأراد ركوب سفينة فأبى الملاح إلا أن يأخذ دينارًا فصلى ركعـــتين، وقـــال: اللهم إنهم سألوني ما ليس عندي، وهو عندك كثير، فصار الرمل دنانير فأخذ واحدًا ودفعه لهم ولم يأخذ غيره.

ونام يومًا في بستان فأتى حية بطاقة نرجس فصارت تروح عليه بها حتى استيقظ.

مات بالجزيرة سنة اثنتين وستين ومائة، وحمل فدفن بصور.وقبره بها مشهور.

وقال ابن عساكر: غزا في البحر، فمات فيه، فدفن في بعض جزائر البحر في بلاد الروم ﷺ .

فائـــدة: قـــيل لإبراهيم بن أدهم ﷺ: لو جلست لنا ساعة، حتى نسمع منك شيئًا ينفعنا الله به. فقـــال: إنـــني مـــشغول بأربعة أشياء، لو تفرغت منها لجلست لكم. قيل: وما هي؟ قال: أولها: تفكرت في يوم الميثاق، حين أخذه الله على بني آدم، ثم قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي» فلم أدر في أي الفريقين كنت؟

والـــثاني: تفكـــرت بأن المولود إذا قضي الله أن يخلقه في بطن أمه، ونفخ فيه الروح، قال الملك المـــوكل به: «يا ربي، أكتبه شقيًا أم سعيدًا؟» فلم أدر كيف خرج جوابي؟ والثالث: حين ينـــزل ملك الموت، فإذا أراد أن يقبض الروح قال: «يا رب، أقبضه على الإسلام أم على الكفر؟» فلم أدر كيف يخرج جوابي؟

بسوء يتسلط ذلك النحل عليه إلى أن يتوب ويرجع عمّا كان نوى صُنعُ الله عجيب.

قال حضرة الشيخ بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5] (1): إن السالك إذا وصل إلى الحق لا يبقى له سوى الحق ويصير علمه جهلاً

=

والرابع: تفكرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59]، فلا أدري مع أي الفريقين أكون؟

فائدة: قيل: إن سبب توبة إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه كان يومًا خرج إلى الصيد، فنزل منزلاً، وبسط السفرة ليأكل الطعام، إذ جاء غراب، وأخذ من السفرة خبزًا بمنقاره، وطار في الهواء، فتعجب إبراهيم من ذلك، وركب فرسه، وذهب خلف الطائر، حتى ذهب الطائر إلى الجبل، وغاب عن إبراهيم، فصعد إبراهيم خلفه يطلبه، فرآه من بعد، فلما دنا طار ذلك الغراب، فجاء إلى محله فرأى رجلاً مشدودًا بحبل، مضطجعًا على قفاه، فلما رأى إبراهيم ذلك الرجل على هذه الحالة حل عقدته، وسأله عن حاله وقصته، فقال الرجل: إني كنت تاجرًا فأخذني قطاع الطريق، وأخذوا ما كان معي من المال، وضربوني وشدوني وطرحوني في هذا الموضع، فصار لي سبعة أيام، وفي كل يوم يجيء الغراب بالخبز، ويجلس على صدري، ويكسر الخبز بمنقاره، ويضعه في فمي، وما تركني الله جائعًا هذه المدة، فركب إبراهيم فرسه، وأردفه خلفه، وجاء به إلى الموضع الذي كان نزل به، وتاب إبراهيم حينئذ، ورجع إلى الله، ونزع ثيابه الفاخرة، ولبس الصوف، واختار الآخرة، وأعتق عبيده، ووقف عقاره، وأخذ بيده عصا، وتوجه إلى مكة بلا زاد، ولا راحلة، ولا يهتم بأمر الزاد حتى لقي الله تعالى ﷺ. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (40) بتحقيقنا.

(1) قال الشيخ المصنف: نكَّر- تعالى - العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا؛ هو علمه بالله تعالى؛ فهو أجلُّ العلوم، كما أن الله تعالى أجلُّ المعلومات؛ يعني: إن أجلَّ العلوم؛ هو ما تعلّق بأجلِّ المعلومات، وأمّا ما عده مما تعلّق بغير الله تعالى؛ فدونه. فظهر أن علم التصوُّف أجلُّ العلوم، ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم، وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان؛ بل كانت عُلوية متعلّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم.

وإنما نُكِّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد، فإذا اتّحد العلم؛ اتّحد الأشياء، ولمّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها، وإنما خُلقت كتلوُّن زوال، وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء، فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء. انظر: مرآة الحقائق (247).

فيضمحل عنه اعتبار ما سوى الله تعالى وهو أرذل العمر في الحقيقة، فما دام لم يفن السالك عن القيود والاعتبارات، فهو ليس بهالك ولا يرى له كل شيء هالك، ثم قرأ قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [......].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88] (1).

قال: المراد بالملك ملك الذات وملك الوصلة؛ فإنه لا يقدر أحد خذه عن يد صاحبه، ثم قرأ قوله أيضًا [..............].

وذكر حضرة الشيخ وفاة أبيه وحاله عند الاحتضار؛ فقال: بلغ إلي حيث لم يحس من نفسه أصلاً، وكانت والدتي تقطر في فِيه بقطن مبلول ففتح والدي عينيه، وقال: يكفي يكفي مرتين؛ فإن الأنفاس قد نفدت، ثم قال: يا الله، وقبض تلك الساعة، قال: في الوجود الإنساني بذل خفي من الشهوات يظهر الشيطان عند الاحتضار ويمنيه نعوذ بالله من ذلك إلا أن يكون قد قطع عرق كل هوى وشهوة فلم يبق له تمنٍ أصلاً.

قال حضرة الشيخ: جاءني بائع من مدينة إزمير يحكي أنه وقع فيها في هذه السنة زلزلة عظيمة وإحراق كثير، وانهدام الأبنية بحيث بقي الخمس منها تحتها عشرون ألفًا من الرجال والنساء، قال: هذا من آثار قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ [الإسراء: 58] (2)، والقهر الإلهي لا بدّ منه إذا

---

(1) قال الشيخ المصنف: أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هي الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5].
وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.
فلك الرحمة والقلب، فلك الحياة، فكل منهما استوى على عرشه، فكان الإنسان صورة العالم من كل وجه، ومَن نازع في الذي ذكرناه؛ فعليه كلامه؛ لأن الإنكار من سوء الفهم؛ وهو حال العقل القاصر، والقلب السقيم، رحمنا الله وإياكم برحمته مطلقًا، وجعل إيماننا وتصديقنا يقينًا حقًا.
وانظر: مرآة الحقائق (59/1).

(2) قال الشيخ إسماعيل حقي: أشار بالقرية إلى قرية القالب الإنساني التي يسكنها القلب؛ فإنها تُخرَّب بالموت الطبيعي الذي هو القيامة الصغرى قبل أن تقوم القيامة الكبرى، كما تُخرَّب القرية بما هو في حكم الموت من الآفات، وهذا الخراب لا يقبل العمارة أصلاً؛ لأنه لا حياة بعد الموت.

=

وبالنسبة إلى العادة الإلهية كما قال حكاية عن عزير عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:259]؛ ومعنى العذاب إصابة الشدائد، ومسُّ المحن والمكاره، فإن ذلك في حكم العذاب الأخروي، فكما أن العذاب الأخروي لتخليص الجوهر عن الكدورات؛ فكذا الابتلاء الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:21].فالعذاب الأدنى هو: العذاب الدنيوي، كما أن العذاب الأكبر هو: العذاب الأخروي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25] بعد قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ•فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية:23، 24].

فلا رجوع عن الكفر والمعاصي بعد الوقوع في العذاب الأكبر؛ بل إنما يتحقق ذلك في العذاب الأدنى، فإن تحقق؛ فذلك رحمة في صورة العذاب، وإلا فذلك رجزٌ وغضبٌ من الله؛ كالطاعون حيث كان رحمةً وشهادةً للمؤمن، وغضبًا وإهانةً للكافر، فهذا العذاب ليس في حكم الخراب بالكلية، فقد يرفعه الله بعد تمام الابتلاء؛ فيكون القالب والقلب معمورين على حالهما.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي: إن خراب القالب عبارة عن خراب القلب بالفناء الكلي؛ لأن المراد بالفناء هو زوال التعلُّق بالتعينات، وتعيُّن القالب أظهر من تعيُّن القلب بالمعقولات؛ وهذا حال الكُمَّل فإنهم بعد إصلاح الطبيعة بالشريعة، وإصلاح النفس بالطريقة؛ عرجوا إلى درجة المعرفة، والحقيقة بإصلاح الروح، والسرُّ بقطع العلائق عن الكون.

وأمَّا التعذيب فحال مَن دونهم من أهل السلوك الذين شدَّدوا على أنفسهم بأنواع الرياضات والمجاهدات لكنهم لم يصلوا إلى الموصول إليه الكُمَّل من الفناء الكلي؛ بل بقوا في بعض مواطن السلوك إلى أن انتقلوا بالموت الطبيعي من هذه النشأة، فحصول مرادهم بيد الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء:100].

فكما أن المتوفَّى في طريق الحج المعنوي؛ فإنه يلتحق بالكُمَّل من حيث قصده، فإن الذُّرِّيَّة الصالحة يلتحقون بآبائهم على ما نطق به الكتاب، وهم أشرف الذُّرِّيَّة؛ لكون نسبهم نسب التقوى.

وقد ورد: «كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي».

فالنسب الذي لا ينقطع؛ هو نسب التقوى وأهله؛ وهو الهاشمي حقيقة، وأهل البيت حقًا كما أشار إليه قوله: «سلمان منا أهل البيت».

ولن يتشرف بهذا المقام على حقيقته إلا مَن أذهب الله عنه الرجس، وطهَّره تطهيرًا، فلا يطمع فيه الطامعون إلا من طريقه، فإنه طمعٌ فارغٌ، ولشرف هذا المقام؛ قدَّم الله القرية الهالكة على القرية المعذَّبة؛ لأن المقصد من التعذيب هو التخريب.

وقد قال بعض الكبار: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهارًا علنًا؛ يعني: لا بد من تخريب الهيكل الذي تعيُّنه أشدُّ من سائر التعينات، وتخريبه إنما هو بالرياضات الشاقة بحيث تفنى الطبيعة

قدر مضيه ونفاذه، وأهل التسليم لا يرون إلا القضاء والقدر.

وقـــال حضرة الشيخ: أحب لجميع الناس ما أحب لنفسي حتى أني أرضى لنفسي ولم ينـبغِ من الأهل والعيال الجوع والفقر، ولا أرضى لسائر الناس، فقد امتلأ بهذا المعنى صدري، ولا أقول إلا حقًا.

قـــال حضرة الشيخ: ففوض أمرك يا بُنيّ إلى الله تعالى لكن على حقيقة الإسلام والإيمان لا على مجرد العلم والعرفان؛ فإن الشيطان قادر على أن يفسر القرآن سبعين مرة مع أنه لا يغني عنه ذلك شيء ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الــدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:19] عين حضرة الشيخ خليفة هو عـثمان الجانيقي للقصبة التي يقال لها – بكى شهر – في نواحي بروسة، وقال لي بطريق المـــزاح: اذهب به إلى بروسة، وطهره تطهيرًا، وقد فوضت أمره إليك فاكسر أنف نفسه بالتربية.

قـــال حضرة الشيخ لبعض خدامه من الصوفية: قد يجيء إلى هنا بطريق الزيارة، بعـــض الـناس المتعممين بالسواد، فلا تردوهم على أعقابهم خائبين، وكانوا كالبحر في التحمل ولا يضرنا مجيئهم.

أقـــول: وجـــه هذا أن بعض المتعممين بالأسود ممن له شهرة كاذبة كان يجيء حـــضرة الشيخ أحيانًا فدفعه بعض الصوفية مرة أو مرتين فشكا هو إلى الشيخ من معاملة الخدام فقال ذلك.

قـــال حضرة الشيخ: حادث كل شخص مبني على قديم فلا انقباض أصلاً، قال: الكامل من الإنسان يحيط بجميع المراتب فتارة يدخل في الظلمات وتارة يخرج إلى النور مع أنه لا يتقيد بشيء من ذلك أصلاً.

مـــثلاً: ينـــــزل إلى مـــرتبة الطبيعة والنفس، وهي ظلمة ويترقى إلى مرتبة القلب والروح، وهي نور مع أنه مطلق من الكل؛ لأن الله تعالى مطلق بالإطلاق الذاتي الحقيقي فلو تجلى على هذا الإطلاق لم يظهر وجود بل هو يتجلى على حسب حال المتجلي له.

وقـــال: الكامل لو لم يدخل في مراتب أهل القيود بل جلس في مرتبة الإطلاق لم

=

والـــنفس عن الشهوات والهوى؛ بل الروح عن الميل إلى المعارف، والتغيُّر عن الالتفات إلى شيء مما سوى الله تعالى. انظر: مرآة الحقائق (ص 261).

يظهر تربية وتكميل أصلاً.

وقال: لو أن الله تعالى أدخل الليل في النهار، فجعل كل زمان نهارًا وكذا لو أدخل النهار في الليل فجعل كل وقت ليلاً لم يحصل للإنسان الكامل تلذذ ولا تكدر أصلاً؛ فإنه مطلق عن الكل قاعد في مقام التسليم.

قال حضرة الشيخ: قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:72] إن جعل التنوين للعوض يكون المعنى: ورضاء العبد من الله تعالى أكبر.

الزيارة الخامسة

سببها أن حضرة الشيخ دعاني على العجلة إلى جنابه، وذلك في أوائل جمادى الآخرة لسنة مائة وألف؛ فلما قدمت وجدته قد ذهب إلى جامع السلطان سليم للوعظ والتذكير فوقفت عند الباب حتى جاء؛ فقبّلت يده التي هي يمين الله، ثم صلى العصر وسألني عن الشيخ إبراهيم خليفة في قصبة بودابنه، فقلت: إنه مات مقتولاً في محاربة حسين باشا مع كدك باشا في الجبل الذي وراء بروسة، فأشار بيده إلى أن كونه مقتولاً قد كنت رأيته على اللوح الأزلي، ثم قال: قد حملني على دعوتك الاشتياق إليك، ولكن إنما أحبك حقيقة إن كسرت صنمك ثم كسر الله صنمك ثم تبسم، وقال: هلا تدعوني بهذا الدعاء أيضًا، قرأ قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

قال حضرة الشيخ: لا ينبغي في ديارنا أكل السخلة قبل إدراك الموسم الذي يقال له: روز خضر؛ لأن لها مع أمها علاقة كلية فذبحها قبل وقتها قبيح.

وسئل عن حضرة الشيخ هل يحل أكل حرام يتبدل وصفه؟.

قال: إن تبدل الوصف وإن كان في تبدل العين في الفتوى، فإذًا يحل أكله لكن عند التقوى خبيث؛ لأن تبدل الخبيث خبيث.

وسُئل أيضًا: إن التكاليف السلطانية التي يأخذونها من الناس هل تقع موقع الزكاة إذا نـواها أصحابها؟ قال: إن كان بطريق الكره والغصب كما في زماننا يصرفون إلى من ليس بمستحق له.

قال حضرة الشيخ: هل لك علاقة من بروسة أم أنت بائن منها؟

قلت: أسعى في البينونة والفراق عن كل شيء سوى الله تعالى، قال: كن هكذا ولتكن علاقتك صوري بحسب الاقتضاء.

قرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: 113] ونرجو منه تعالى أن ينزعه، ويلبس لباس الأمر.

أقول: وجهه، وقع القحط في القسطنطينية سنين ثم رفعه الله، ووقع استيلاء الكفار على البلاد الرومية فلم يندفع إلى هذا الجمع.

قال حضرة الشيخ: أنا راض عنك أشد الرضا منذ قدمت إلى بلدة بروسة؛ لأنك اخترت طريق الفقر وتركت الترفه والتنعم، وطريقتنا هذه ليست طريقة الزينة والشهرة والعيش والعشرة؛ فإن بقيت على هذه الحالة فسترى ما ترى.

أقول: لما أراد الشيخ أن يستخلفني في بلدة الإسكوب من الديار الرومية، وهي بلدة كبيرة كما سبق، دعاني ودعا لي ووصى لي بوصايا غريبة حتى تلا قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]؛ فقال: أنا أوصيك بالحق والصبر كما أوصى بها السلف، ولا أقول لك: اذهب إلى الإسكوب واطلب المعاش، واتخذ الضيعة والحديقة والرحى، وابنِ خانقاها، وأكثر الأتباع، وكن إمامًا أو خطيبًا أو نحوهما؛ فإنه ليس بطريق الأصحاب - رضي الله عنهم - بل أقول لك: كُنْ على الحق واصبر كما صبر واظفر كما ظفروا؛ فإن انسدت طرق المعاش فاخدم للناس بالأجرة قدر ما يندفع به الضرر، وكن مستغنيًا عما في أيدي الناس، وعليك بالإبكار في كل مادة، فإن وسع الله عليك الدنيا فالبس من الحلال ما شئت بعد أن كان لباس الطريقة التجريد، واجعل زينتك لباس التقوى، وإني أرجو منك خدمة في باب الدين عظيمة.

ولما قدمت بلدة الإسكوب ساق الله إليّ أرزاقًا كثيرة من حيث لا احتسب، وكنت وقتئذٍ ابن ثلاث وعشرين فأخذت ألبس لباس الرخصة على ما رخص لي حضرة الشيخ بمقتضى الحداثة والشبيبة، وصبوة الشبيبة، واستمر ذلك عشر سنين إلى أن زرت حضرة شيخي في بلدة أدرنه، وعليّ ثياب جُدد وألبسة فاخرة، فأراني يومًا شرحه على مفتاح الغيب للقونوي، وقال: طالع هذا إلى آخره؛ فانكشف لي أثناء المطالعة بعض المعاني الغيبية، وأخذني مرض مجهول، فكنت لا أقدر على الحركة أيامًا، وأراني الله وقتئذ رؤيا غريبة متعلقة بسر الخلافة، فكتبتها كتابة غريبة على ورقة، وعرضتها على حضرة من بيده بعد الخلفاء إذ كنت في بيت آخر بسبب المرض، فاستحسنها غاية الاستحسان، وتعجب من حسن الاستعداد، ومدحني عند الحاضرين لطفًا وكرمًا، وقال: ما أشغلته بها عن الله إلا أنه له حب الزينة الآن، فبلغني ذلك؛ فقلت: قد كان أجاز لي قبل عشر سنين

من لباس الرخصة، فأخذت بقوله، فإن هو أمر بالترك ولم يرض بالزينة، فأنا عامل بإشارته قائل بوصيته، فنويت إن عافاني الله من مرضي إذ أستبدل بما علي الذي هو خير منه، فلما شفاني الله وعدت إلى مهاجري ومراعي قصبة (ستروبهة) خلعت ما علي كله، واخترت العباء ثم لما هاجرت إلى مدينة بروسة ووقعت الزيارة القبرصية كما سبق.

قال حضرة الشيخ: لا يخرج من هذه العباء على آخر العمر، وكان عليَّ عباء أسود أكاسني بالكسوة البالية تحت عبائي همم عالية، إن ثيابي صوف من المثال، وهمته كالدرة الغالية.

ونقل حضرة الشيخ حسد الأعداء له حين كان بمدينة (فلبه) حتى اجتمعوا له مرارًا فلم يغن ذلك منهم شيء، ثم بين ما أضره من الفقر مع مجيء النقود والهدايا من الأطراف وأنه لم يقبل من الدنيا غير عباءة بالية.

قال حضرة الشيخ: ترك أبناء الزمان خصوصًا منهم المشايخ العمل بالكتاب والسنة وجعلوا قراءة الإلهي بدلاً من تلاوة القرآن وإلى الأمر على أن كل شاعر أحدان ينشأ إلهيًا، فاقتضى الحال أن نترك السنن التي كانت شعارًا لأهل البدعة والهوى والعرف والعادة، قال: ولذا تركت الرسوم.

قال حضرة الشيخ: الفرق بين الولي وغيره هو أن الولي كالمتيقظ الذي يحفظ متاعه من السارق فكذا أهل الغفلة.

قال حضرة الشيخ: الإنسان الكامل كالبحر فمن أذاه واغتابه أو قصد إليه بسوء فإنه تحمله، ولا يكون مراعاة خاطره مغيرًا منه، ألا ترى أن البول إذا وقع في البحر فالبحر لا يتنجس منه، وكذا من أجنب إذا دخل واغتسل فيه؛ فإنه يطهر ولا يتغير البحر فهو حاله في الطهارة.

قال: قد شابت لحيتنا فلا يليق بنا أن نتألم من شيء أصلاً، قال: ليكن مطمح نظرك الحشر؛ فإنك ترجع إليه ثم ليكن الصراط لأنك تعبر عنه، ثم ليكن الجنة لأنك تدخلها، ثم ليكن الكثيب الذي يكون عنده الزيارة الكبرى فهو الغاية ثم اجتهد أن تكون في دائرة الفناء التام فإن المقصود هو المعية مع الله لا بالجنة وغيرها.

قال: من أخذ السلوك يكون غريبًا في العالم كما قال ﷺ:

«كنت يتيمًا في الصغر، وغريبًا في الكبر فطوبى للغرباء»(1).

وقد انتخب النبي ﷺ الخلفاء الأربعة، ثم انتخب منهم الوزيرين، ثم أعرض عن الكل؛ لأن الله تعالى اتخذه خليلاً فلم يبق إلا الله.

قلت لحضرة الشيخ: أنا قد رأيتكم لكن رؤية اعتقاد، لا رؤية عمل وحال، قال: هذه الرؤية باب لرؤية العمل والحال والمقام؛ فإن العمدة هي الاعتقاد التام، فإذا حصل للمرء فقد وصل.

قلت: أنا لا أطلب الاستقلال في الدنيا والآخرة، ويكفي لي شرفًا أن أكون تحت لوائكم، قال: إن الاستقلال مخصوص بالله تعالى، والشرف في الاتباع، ولا زمان بدايتي اشتغل به الآن، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل، قال: الاعتقاد أمر عظيم حتى أن المرء يعرف الله ولا يعرف البشر، ومن سبَّ الله تعالى ربما تقبل توبته ولا يقبل توبة من سبَّ النبي ﷺ، والله تعالى يعرف بوساطة دلالة الأنبياء والأولياء، وحقيقتهم لا تعرف إلا بعد الوصول إلى الله، ثم قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ناظر إلى الصورة والظاهر، وأمَّا في الحقيقة فمن عرف ربه عرف نفسه إذ لا يعرف النفس إلا بعد معرفة الله.

قال: إن الله إنما ستر الأولياء وحجبهم عن أبصار الخلق رحمة منه لهم، إذ لو عرفوهم لوجب عليهم الاعتقاد والإقرار والاتباع بهم وعلى تقدير عدم القبول يلزم الهلاك ففي كونهم محجوبين عنهم رحمة لهم.

قال حضرة الشيخ: هل لك حضور في بروسة وأُنس بأهلها؟.

قلت: كان في اعتقادي أن أموت فيها، ولا يقع هجرة أخرى، وقد أذنتم في المهاجرة إلى المدينة أو مكة - شرفها الله تعالى - قال: ليكن القسطنطينية وبروسة وغيرها للخلائق، واجتهد ألا يكون لك أُنس بغير الله، وليكن نظرك إلى هنا، وأشار إلى صدره المنشرح؛ فإن ألهمك الله الإقامة فأقم وإلا فهاجر؛ فإن العمل في الطريقة بالإلهام والاستخارة لا بوساوس النفس الأمَّارة.

قلت لحضرة الشيخ: لم يبق لي ابتلاء غير المرأة وسُوء خُلقها، وأنا لا أريد أن أخلو عن الابتلاء بالمرأة؛ فإنه من باب التربية، قال: نعم فاصبر؛ فإن الصبر مفتاح الفرج.

قلت: فقد انقطع عني داعية التأهل منذ ما قلتم في السنة الماضية اختر التجرد أن

(1) لم أقف عليه هكذا.

تحب أهلك.

قال: ذلك من فضل الله حيث وفقك الله لقطع التعلقات، وجذبك بجذبات العناية، فأنت غالب على شهوتك، وهو مُراد الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: إنكار العوام للأولياء كالشرك الجلي، وإنكار الخواص - يعني: أتباع المشايخ - كالشرك الخفي والاجتناب واجب عن كل منها، ولا يصدر مني إلا ما يستعلق بمرتبة كل أحد؛ فإن بعضه من بعض في صدر اتباعنا غلب عليه إنكار لنا، فلذا وجب السر.

قلت: حفظني الله تعالى من عنفوان عمري عن إنكار شيء من أقوالكم وأفعالكم؛ فإنه قيل: كل ما يصدر عن الواصل فهو شريعة، فاعتقادي على أن كل ما يصدر منكم فهو شريعة جديدة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة:49] وكيف لا نقبل هذه الشريعة الجديدة؟ وقد فضّلنا الله بإرسالكم إلينا، فتبسم حضرة الشيخ، وقال: أنت من هذه الطريقة على حقيقة فلا نكتم منك شيئًا.

قلت: كلامكم معي من تربيتي فيجوز أن تكتموا ما فوقها، وهو مرتبتكم، فتبسم أيضًا، وقال: الواصل هو الحاصل عند الله، وهو حقيقة الوصول وكل سالك إنما يتصور مرتبة الوصلة بقدر معرفته وحاله واستعداده، وأمن له فوت ذلك؛ فإن معنى الحصول لا يعرفه إلا من تحقق بهذه الرتبة، وكثير من السلاك يحل له العلم والعرفان، ولكن التحقق بالمقامات أمر آخر لا يتيسر إلا لواحد بعد واحد والمقصود هو المعرفة لا مجرد المعرفة.

قال حضرة الشيخ: الإيمان هو الله تعالى؛ لأنه اسم، وقد أعلم الله في هذا الشتاء كفري على الحقيقة.

قلت: هذا الكفر مما يغبط به أهل الإيمان قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة:256] فتبسم، وقال: إن مرتبة الصلاح مرتبة عظمى ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

قال حضرة الشيخ: لا يزول الابتلاء ما دام الإنسان في عالم الإمكان قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف:168] فكما أن الإمكان لا يزول فكذا الابتلاء لكن محله الدنيا فالإمكان لا يزول عن الممكن ولو كان في الجنة إلا أنه لا ابتلاء فيها، فباطن الإنسان الكامل وإن كان على سير غير سير العوام لكنه في الظاهر دائرتهم،

فلذا يبتلى بما ابتلوا به من الأمراض والأوجاع والموت والحشر.

جـاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي في داره العالية، فجرى ما جرى من الصحبة، ثم قال: هل لك مسواك؟ قلت: نعم، قال: إن لم يكن لك مسواك أعطيتك مسواكًا رقيقًا لطيفًا يناسب ظرافتك ولطافتك؛ فإني أستعمل غليظًا.

قلت: أعطوني فإني أتبرك به بل أوصى بأن يجعل في كفني بعد وفاتي تبركًا؛ فإنه قد مس يدكم المباركة التي حرمها الله على النار؛ فقال ما قال، والحمد لله الملك المتعال أقول: ذلك المسواك الشريف النظيف عندي الآن جعلت عليه علامة ليجعل في كفني، قال في «الأسرار المحمدية»: لو وضع شعر رسول الله ﷺ أو عصاه أو سوطه على قبر عاصٍ لنجا ذلك المذنب ببركات تلك الزخيرة من العذاب، وإن كان في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها، وإن لم يشعروا به ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن فيها.

قال الإمام الغزالي: إذا أردت مثالاً في الخارج؛ فاعلم أن كل من أطاع سلطانًا وعظم، فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهمًا أو سوطًا له، فإنه يعظم تلك البلدة وأهلها فالملائكة يعظمون النبي عليه السلام فإذا رأوا زخائره في دار أو بلدة أو قرية عظموا صاحبه، وخفضوا عنه العذاب، ولذلك السبب ينفع الموتى بوضع المصاحف على قُبورهم، ويُتلى عليهم القرآن ويكتب القرآن على القَراطيس، وتوضع في أيدي الموتى انتهى.

قال حضرة الشيخ: العلم في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28].

وفي قوله عليه السلام: **«العلماء ورثة الأنبياء»**[1] مصروف إلى الفرد الكامل، وهو علم الشريعة والحقيقة معًا؛ فإن حقيقة الخشية وحقيقة الوراثة إنما تحصل من جمع بين العلمين فهو العالم حقيقة ومن سواه من علوم الرسوم عالم صورة، والعالم الحقيقي يرى جميع ما في الكون كأعضاء بدنه فلا يقصده بسوء ولا يحسده؛ لأن المرء لا يرضى أن يعرضه آفة

(1) رواه أبو داود (317/3)، والترمذي (48/5)، وابن ماجه (81/1). ومعناه أي: العلماء بالله؛ لأنهم بالإرث أقرب للزوم الخشية لعلمهم، والعلم الذي لا خشية معه ليس صاحبه أهلاً لأن يكون وارثًا لانتقال العلم المورث إليه على غير الصفة التي كان عليها عند المورث، وحقيقة الإرث انتقال المورث إلى الوارث على الصفة التي كان عليها عند المورث، ولا يستلزم الخشية إلا العلم بالله، فالعلماء بالله هم الوارثون حقًا، والبواقي تبعٌ.

على عضو من أعضائه، وأن يزول نعمته، والعالم الصوري ليس كذلك.

وعظ حضرة الشيخ في جامع السلطان بايزيد الواقع في القسطنطينية فحقق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة:11]، ورغّب الناس إلى الجهاد ترغيبًا بليغًا، وقال: إن الله تعالى جعل ذاته مشتريًا، وعباده المؤمنين لا الكافرين بائعين، والأنفس والأموال سلعة بيعه والجنة ثمنًا، ووعد وهو لا يخلف وعده كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:111] ولا كلام فيه، وإنما الكلام في وفاء العباد؛ فإنهم قبلوا هذا العقد في عالم الأزل والأرواح ثم نقض من نقضه، قال: لا يكفي للمرء أن يقول: أصف بالله تعالى بدون أن يحقق إيمانه بما أمر به من قبل الله تعالى من الجهاد وغيره؛ فإذا امتثل إلى الأمر، وخرج إلى الجهاد، ووفى بعهده فقد خرج عن عهده الذي ألزم عليه فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه، فلذا لا حساب على الشهيد ولا سؤال؛ لأن الملكين أنما يسألان الشخص عن دينه وما يتعلق به، فإذا كمل دينه لم يبق للسؤال وجه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: العرش وما حواه من العوالم كلها تعينات جسمانية، وما فوقه تعينات روحانية وكل منها حادث، وما فوقها مرتبة الأعيان الثابتة، وما وراءها عالم الغيب والشؤون، قال: الهوية المنفهمة من قوله تعالى «هو» في:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، وهو الله محيط بالكل إحاطة لا يحيط بها إلا أهل المكاشفة والمشاهدة والمعاينة، لكن لا تعين ولا تعين في الحقيقة؛ فإن الله تعالى منزه عن كليهما كما قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهيات التركية[...].

قال المولى الكبير الشيخ محمد الجودي ابن حضرة الشيخ مخاطبًا له: يا أبي إن إسماعيل حقي يُشير إلى هذا الفقير قد وعظ اليوم في جامع سلطان سليم مقامكم كما أمرتم، قال داعيًا: جعله الله مباركًا وأيده وقواه وجعله من أهل عنايته، ثم التفت إليّ فقال: كنت قبل الهجرة إلى بروسة في طرف يمني والآن في سويداء قلبي، يعني: كملت العلاقة والمحبة بسبب تلك الهجرة، وأخذك بطريق الفقر والفناء، والمأمول منك هو الخير يعني: الإيمان والإسلام الحقيقي، فاجتهد حتى تتخلص عن القيود الظاهرة والباطنة، وكُنْ فانيًا عن جميع ما سوى الله، ثم دعا لي مرارًا، وقال: إن شيخي قد دعا لي، وقال مرة: يجيء منك أنفاس الشيخ الأكبر - قدس سره - والحمد لله تعالى قد يسر الله لسان الشيخ، وأسلكني مسلكه، ثم قال مخاطبًا لي: جعل الله حالك وقولك فوق هذه وأشار إلى حاشية

في يده المباركة، وهي حاشية تفسير الفاتحة للقونوي كما سبق.

قال حضرة الشيخ: راع المراتب مما سماه الله تعالى غيرًا، وعلى التعينات والظهورات فسمِّه أنت أيضًا غيْرا، وما سماه الله تعالى عينًا، فسمه أنت أيضًا عينًا، ولا يخلو أحدهما بالآخر، وراع الجمع والفرق حتى لا تقع في ورطة الإلحاد والزندقة، ثم قال: أيدني الله تعالى من أول سلوكي إلى الآن بالكتاب والسنة؛ فعلمي هو العلم الظاهر والباطن لا غير، ولم يقع مني بفضل الله إلحاد غير أنه وقع لي مرة محو الفرق في الجمع، وكان مقدار طرفة عين، ثم أُيدت من عند الله، فجئت إلى الفرق، ثم قال: فإن كنت تسأل عن شيخك وحقيقته، فإن له كرامات علمية لا مكاشفات كونية فليس لي اطلاع على أحوال أهل القبور، ولا على الضمائر ونحوها، ولا أعرف مني بعزل السلطان أو الوزير أو غيرهما ومتى يموت، ولا أعرف ماذا يكون غدًا؟ قال: إن واحدًا من السادات أراد أن يعلمني علم الجفر فلم أرد؛ لأنه لا بفائدة في معرفة ما سيقع بعد أربعين سنة، وكان حضرة الشيخ الأكبر جفارًا وفاقًا جدًّا لو كان حيا، وأراد أن يعلمني الجفر والوِفق ما طلبت؛ لأنهما وأمثالهما لا يتعلقان بالعلم الإلهي، ولم يخلق الله في قلبي ميلاً إلى مثل هذا أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إني لا أرى رؤيا حسنة إلا قليلاً، رأيت النبي ﷺ مرة، ورأيت حضرة الشيخ الهدائي مرتين، قال في الأولى: أنا راضٍ عنك يا بني؛ لأنك أحببت طريقي ومسح يده بظهري، سألت في الثانية عن قوله في بعض إلهياته التركية: [..........].

قال حضرة الشيخ: إذا أراد الله أن يُخلِّص عبدًا من الأغيار يؤيده ويفتح له الطريق وإن لم يكن له مرشد، وإنما بغى من بقي في وسط الطريق وفي الحيرة لعدم الاستعداد للأخذ من الله بلا واسطة، قال: اختر الفناء التام؛ فإني الآن كالذي كنت زمن شيخي في بابه، إني معترف بعجزي وقصوري فمن وفق لهذا العجز فسيهديه الله وإلا فلا، ثم قال: هذه الحاشية، وأشار إلى حاشية على تفسير الفاتحة في يده، ليست عندي كجناح بعوضة، وإنما أذن الله لي في ذلك، فكيف ثم لا يخطر ببالي أصلاً؟

قال: إن الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي - قدس سرهما - لا يجيء مثلهما أبدًا، وإن كان الله قادرًا على مثلهما، وتفسير الفاتحة بديع جدًّا في أسلوبه وترتيبه ومعانيه وحقائقه، وإنما علقت عليه الحاشية بحسب مرتبتي لا بحسب مرتبته.

قال حضرة الشيخ: الأولياء متفاوتون بعد الوصلة كالسلاطين بعد الجلوس؛ فإن منهم من له سطوة غالبة وقدرة كاملة ومعرفة كلية مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان

سليم الأول والسلطان سليمان الثاني من الخواقين العثمانية، ومنهم من ليس له ذلك كسلطاننا، وأشار إلى السلطان سليمان؛ فإنه كان على الفتور والضعف في ضبط الممالك، وحفظ الأقطار، وتفتيش الأمور، وتمييز الخير والشر؛ لقلة عقله ورشده.

طلب الابن الكبير لحضرة الشيخ جرموقًا جديدًا وألح؛ فقال حضرة الشيخ: إن هذا الإلحاح باطل، فقال ابنه مشيرًا إلى الفقير: إن الحقي يشفع في هذا، فقال حضرة الشيخ: الحقي منسوب إلى الحق لا إلى الباطل، فقاموا إلى صلاة العصر.

قال حضرة الشيخ: نسبة الخلوتية إلى «لا إله» ويندرج فيه الإثبات، ونسبة الجلوتية إلى «إلا الله» ويندرج فيه النفي.

ومعنى الخلوة: ترك ما سوى الله، ونفيه، واندرج في النفي الصفات السلبية.

ومعنى الجلوة: التنوّر بنور الله، واندرج في إثبات الصفات الثبوتية.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لهذا الفقير: قد كتبت حاشية تفسير الفاتحة بخط خفي، فكيف تقرؤه إذا صرت إلى الشيخوخة؟ قلت: لا احتياج حينئذٍ إلى القراءة من الكتاب، قال: تكون أنت كتابًا إن شاء الله تعالى، قال: صلى بنا حضرة الشيخ صلاة المغرب، وبعد الفراغ منها ومن صلاة الأوابين دعا، ثم تأوه فقام وخاطبني، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: 125]، وقال: فليكن نظرك إلى هاهنا، وأشار إلى الصدر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: 1 - 2] ثم ذهب إلى جانب الحرم.

أقول: قول الهدائي عامة وخاصة؛ فالعامة هداية الكافر إلى الإيمان، والعاصي إلى التوبة، وهو الإيمان والإسلام الصوري، والخاصة هداية المؤمن المطيع إلى الإيقان والمشاهدة والعيان، وهو الإسلام الحقيقي، يعني: أن الله إذا أراد أن يهدي عبدًا من عباده إلى جنابه؛ يشرح صدره للقبول والتسليم، ويجعله على صراط مستقيم، فبذلك الشرح يرتفع عند الانقباض والاعتراض، فيقبل على الحق بالقبول، ولا يطرأ له إنكار أصلاً فيكمل انقطاعه، فيتصل بالله تعالى.

قال حضرة الشيخ: الجلوتية - بالجيم: ثمرة الخلوتية بالخاء المعجمة؛ لأن التجلية بعد التخلية، وكلا الطريقين واحد في الحقيقة إلا أن المقلد كثير، والمحقق قليل، قال: لا إلحاد ولا زندقة في طريق حضرة الهدائي - قدس سره - وقال: إن الوصول إلى الله لا يحصل إلا بالتقلد لمذهب إمام من الأئمة الأربعة فكل ولي لا بد له من التقلد، قال: إن

الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي - قدس سرهما - أفضل الأولياء، وكتبهما أدق الكتب، وقد عرفني الله لسانهما بعد ثلاث وثلاثين سنة.

قال: إن محبتي إنما هي إلى القرآن والحديث، وإرشادي أيضًا بهما، فعلمنا هذا أي علم حقائق القرآن لا يحصل لكل سالك ولا اعتبار بالكرامات الكونية، وعدم الاحتراق، والغرق في النار والماء، والمشي في الهواء ونحوها ليس بشيء عند أهل الله تعالى؛ لأنه يقدر عليه الشيطان والكافر.

قال حضرة الشيخ: إن لنا ميراثين من أبينا آدم عليه السلام؛ العصيان والاستغفار، فإذا عصينا يلزم علينا التوبة والاستغفار، وأكثر الناس يعصون ولا يستغفرون، نسأل الله الطهارة الكبرى والعناية العظمى.

الزيارة السادسة

وقعت هذه الزيارة في جمادى الآخر من سنة إحدى ومائة وألف، خرجت من السفينة يوم الأربعاء بعد العصر، فوصلت إلى دار حضرة الشيخ قريبًا من المغرب فلما صليت المغرب في الغرفة التحتانية أقبل حضرة الشيخ، وجامل في المعاملة، وسأل عن السفر وحال البحر؛ فقلت: بهمتكم العلية دخلت السفينة وقت الضحى، وخرجت بعد العصر من هذا اليوم، فاستبشر ثم سأل عن التنور الذي كان قد أرسله من صوفيا في دفع تكاليف داري في بروسة، فقلت: قد وصل، فقال: هل كان معمولاً به؟ فقلت: نعم، استبشر به أهل المدينة كلهم فضلاً عن أهالي المحلة، ثم أقبل إلى خليفة بودانية المسمى بـ «قُرة مصطفى أفندي» وكان رفيقي في هذا السفر، فسألت عن حاله ثم ذهب إلى حرمه.

ولما كان يوم الخميس دعاني بعد الإشراق إلى غرفته، فقبلت ركبته، فأشار إلي بالجلوس إلى جنبه، فكان أول كلامه: دينك غالب أم دنياك؟ فقلت: بل دنياي؛ فقال: جعل الله دينك غالبًا على دنياك، وسأل عن صيامي وقيامي؛ فقلت: صومي صوم الدهر إلا أن يقع الإفطار بعذر، وقيامي دائم إلا إذا ضعف البدن يمنعني من طول السهر، فقال: **«أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها[1]»**.

فإذا كنت أدمت هذا، فقد حصل المقصود، ثم سأل عن أحوال الدرس والوعظ.

فقلت: قد رفعت الدرس من قدومي إلى بروسة فهو من عنايتكم الكبرى؛ لأنه

---

(1) رواه أحمد في مسنده (267/6)، وأبو نعيم في المسند المستخرج على مسلم (375/2).

غسل التعلق بالعلم الظاهر عن لوح الخاطر، وازداد التوجه إلى تلاوة آيات التوحيد مع أن الوجود ليس الوجود الأول، فقد ضعفت الأركان والقوى.

وأما الوعظ فقد تركته مقدار شهرين لأختبر تعلق نفسي به، فلم أجد الميل إليه والحمد لله، فاستبشر حضرة الشيخ وحمد الله، ثم قال: كيف تجدك؟

فقلت: أجد نفسي ألا تعلق لها لا بالخانقاه ولا بالوظائف ولا بالصوفية والأحباب، ولكنني أبكي دمًا من أخلاق النفس، فقال: إصلاح الأخلاق مما يتعلق بالباطن وهو صعب جدًّا، ثم أنجز الكلام إلى ذكر أهل البيت.

فقلت: شكايتي منهما كلية عظيمة، وإنما أشتكي إليكم لا إلى الغير، فقال: اصبر قليلاً؛ فإن الله تعالى سيجعل لك فرجًا ومخرجًا، فإن هذا الوقت وقت الصبر، فإن من ذهب بغير صبر يكون بعده متأسفًا على فواته، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء:19].

وقال: إن الله تعالى لم يرد بك إلا خيرًا فلو رفع هذا الابتلاء لابتلى بنوع آخر، وإني الآن تزوجت سبع عشرة وثماني عشرة فلم أجدهن عليَّ إلا ابتلاء، ثم دعا فقال: ليجعل الله بلاءك مباركًا، ومعنى المبارك: أن يكون موفقًا لصبره؛ فإن البلاء الغير المبارك هو البلاء الفارغ لصبره.

ثم قال: مات الشيخ السيد عبد الباقي في أدرنة، وهو أول خلفائه.

فقلت: كيف وجدتموه عند مجتازكم إلى أدرنة من صوفيا؟

قال: كان قد نحل جسمه، وضعف من وجع الصدر، وظني أن له حسن الخاتمة لبعض الأمارات من الانقطاع والاستسلام.

فقلت: قد كان بيني وبينه تباغض قديم مع أنه كان أستاذي سبع سنين.

قال: إني أعرف ذلك أنه لم يكن من جهة نفسك بل من جهة الغيرة الإلهية؛ فإنه كان له بعض أمور متفرقة.

قال: كُنْ شاهدًا أني وهبت له جميع الحقوق من حيث أني أستاذه وشيخه، وإني لا أريد أن يكون معذبًا أو مسؤولاً لأجلي؛ فإني أريد أن أدخل الجنة بفضل الله لا بأخذ الحق من الناس، وقد شاب رأسي ولحيتي فلا يليق بمن في هذا السنّ أن يكون بصدد طلب الحقوق.

قال: وأشهد أيضًا أني وهبت لك ما كان قديمًا وحديثًا من الحقوق بل إلى آخر العمر، فلا تكن مسؤولاً من جانبي أصلاً، فقبّلت ركبته.

وقلت: أرجو شفاعتكم، وقد قام ديني ودنياي لكم.

قال: شفاعتي الدعاء بالخير، والمتصرف في الكل هو الله، وما أنا إلا واسطة من الوسائط، وحقيقة الأمر أنك إن شئت كن مقرًا أو إن شئت منكرًا، فلا احتياج لي إلى الإقرار والإنكار، واللائق أن يكون المرء بريئًا مما سوى الله لكنك اشكر الله على نعمة الوفرة في حقك، فقد هداك إلى الإيمان بطريقة أهل السلوك، وكشف القناع في هذا، والإيمان أمر عظيم.

قلت: أجد الانسلاخ من الكون صعبًا.

قال: إذا كان الله جعلك طالبًا له فهو يتولى الصالحين، وسينتهي الطلب والبرهان إلى المطلوب والعيان، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها والمزيد في الشكر فكن شاكرًا راضيًا.

قلت: إني أظن أن يقع لي الهجرة خامسة؛ فإن هجرتي إلى بروسة رابعة.

قال أيضًا: إني كذلك قد هاجرت أربع مرات لكني الآن لست بمأذون إلى الخروج إلى أرض الحجاز أو غيرها؛ فإن أذن الله في ذلك بشيء جريت عليه فكن أنت أيضًا على ذلك، وأخرج من الباطن فكر الغير؛ فإنك الآن في أرض السلامة، ومن فعل أمرًا بنفسه لا بإذن من الله وجد عقيبه ابتلاءً عظيمًا.

قال حضرة الشيخ: العلم قيد، والحكمة إطلاق.

أعني بالعلم: علم الشريعة والأدب، فإذا نظرت إلى اللغو والعبث أي: بنظر العلم كنت منكرًا، وإذا نظرت بالحكمة كنت سالمًا، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:72]، ذكر حضرة الشيخ شيخه عبد الله أفندي الشهير بذاكر زاده، ومدح تقريره وتفسيره عند الوعظ والتذكير، وقال: إنه كان غالبًا في ذلك على الشيخين أعني: محمد باقتادة، ومحمود الهدائي - قدس سرهما، قال: ولكنه لم يوفق للتحرير.

وقال: إن الله يعامل بعض عباده بالفضل فيبسط له التقرير والتحرير، وبعض عباده بالعدل فيقبض له ذلك، والمعتبر هو العلم بالله؛ فإن علم الظاهر وسيلة لعلم الحقيقة، وهو مقصود بالفرض كالإيمان، وعلم الحقيقة مقصود بالذات كالسلف ولا يعلم الذات حقيقة إلا الذات الأحدية فمن عرف أن نسبة العلم له عرضة سَلِمَ، ومن ظن أصالتها هلك، فإذا

سلَّم السالك الذات إلى الذات، والصفات والأفعال إلى الأفعال كان فانيًا عن الكل ومؤديًا أمانــته إلى صاحبها، فإذا جاء الموت الصوري لم يبق له سؤال ولا حساب ولا أخذ ولا إعطاء؛ فإنه دخل في دنياه في الجنة المعنوية، واستراح من كمد المكاليب[1].

قـــال: إن الســالك لا يصل إلى الله حقيقةً إلا بعد أربعين سنة؛ فإن الخلاص عن الأكــدار مطلقًا، إنما يحصل بعد هذه المدة كما أن كمال العقل وتحصيل الصوري أيضًا إنمـا هــو بعدها، ثم وصى بالمجاهدة إلى أن يأتي اليقين، وهو الموت ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ...﴾ [النساء:100] الآية.

قال حضرة الشيخ: إن إبليس لما أبى عن السجود، قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]، قال إبليس: قضاؤك، قال الله: لو شاهدت سر القضاء قبل الوقوع لقبلتك، ولكن كان قولك هذا بعده.

قال حضرة الشيخ: انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُــمْ إِلَــهٌ وَاحِــدٌ﴾ [الكهف:110] كيف أثبت الشركة في البشرية، وجمع ثم فرق بالوحــي، فالإلهام جبريل الأولياء وتمييزهم غيرهم من الأغيار، وعن أحكام أهل البشرية الغالبة.

قال حضرة الشيخ: إن الواصل إلى الله تعالى لا يتكدر من شيء أصلاً، ألا ترى إلى قــوله تعالى: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40] كيف علل عدم الحزن بالمعية فهي دافعة للحزن أينما كان المرء من سهل أو إلى جبل أو بر أو بحر أو حديقة أو شوك فعلى المرء ألا يطمع في شيء سوى الحضور مع الله؛ فإنه لو لم يكن مع الله لم يحصل له مطلبه.

قال حضرة الشيخ: إن الموجود موجود، والمفقود مفقود؛ فمن فرق بينهما فرقًا تامًا ولم يثبت للموجود فقدًا ولا للمفقود وجودًا واصل إلى الصفا والحضور، وتخلص عن الكدر والشرور.

قـــال حضرة الشيخ: سمعت مرة من أقوال ابن الأشرف الأزنيقي: [ينم أول دائم

---

(1) قال الشيخ حقي: فإن البشرية مما يلي جانب الخلق، والوحي مما يلي جانب الحق، فالخلق ظاهر، والحق مستور عند المحجوب، والأمر بالعكس عند المكاشف.

ولــذا قال في كل حال: لا إله إلا هو، اللّهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، والمبصرين للصورة. انظر: مرآة الحقائق (ص 255).

وباقي كورندم صورتا إنسان[1]] وكنت وقتئذٍ في بلغراد، وكان الحال غالبة علي فكوشف لي بسر قوله:

«قال الله تعالى على لسان عبده: سمع الله لمن حمده[2]».

وهو قرب الفرائض بحيث امتلأ وجودي من نور ذلك التجلي ثم غلبني البكاء الشديد بحيث تحير الحاضرون في المجلس، قال: ولعل ابن الأشرف قال القول المذكور عند غلبة الحال، ومثله لا يبحث عنه إلا في الخلوة وعند أهل الحضور والقبول؛ فإني أتنفر عن كلام الحقيقة مع الأغيار أشد من تنفر من النجاسة.

قال: وكان شيخي يتكلم من المعارف عند الوعظ بقدر ما يقبله العقول، ولا يذكر شيء في مجلس في بيته، سألت حضرة الشيخ عن النوافل التي يشتغل بها الصوفية؛ فقال: المعتبر عند كبار السلف كما رأيت في وصايا الفتوحات أن صلاة التهجد اثنتا عشرة ركعة، وصلاة الإشراق أربع، والضحى ثمان، وصلاة الأوابين ست، لكن مع سنة المغرب على الاختلاف الواقع فيها، قال: إن أهل الأدب يشتغل بالعمل إلى الموت؛ فإن طريق العمل الأنبياء والأولياء، وليكن بشرط حضور القلب، وأدنى الحضور في الصلاة أن يعرف ما يقرأ، قال: إن بعض السلف كان لا يخطر خاطر كوني أصلاً لغلبة الخاطر الإلهي فاللازم على المتوجه عند وجود الوسوسة رفعها من طريقه؛ فإن الحضور روح العمل، ولا خير في جسد لا روح فيه.

قال حضرة الشيخ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 255]: هي الأبديات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255]: هي الأزليات.

قال حضرة الشيخ: هذا زمان الاضطرار؛ فادع الله بالاضطرار خصوصًا في أمر ألا

---

(1) كلام تركي.

(2) رواه مسلم (588/2) بنحوه، وأبو داود (276/1).

وقال سيدي علي وفا: ألسنة العارفين بالله الحق المبين هي ألسنة معروفهم، قال الله بلسان عبده: «سمع الله لمن حمده»، «ولسانه الذي ينطق به»، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4] لسامعه، فمن سمعه فقد أُوحي إليه، فأحرف الشك إذا أتوا بها في خطابهم ليست لشكهم ولا لترددهم، فيما يعبرون عنه، ولكن للتوسعة على السامعين؛ إذ فيهم من لا يسع إدراكه إلا أحد أمرين، فيقولون: الأمر كذا وكذا؛ ليصوبوا لكل مدركٍ ما وسع فهمه. المسامع (ص 257).

تسرى إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62]، ودعاء الاضطرار إنما هو بالذلة والافتقار، ودعاؤنا مشوب بالعزة، ولذا لا يظهر أثر الإجابة.

ثم حكى قصة الجنيد مع امرأة حيث جاءت إليه، فقالت: يا شيخ، قد أسر ولدي، فماذا ترى؟ فقال: اذهبي واصبري [فمضت، ثم عادت فقالت له مثل ذلك] إلى أن جاءت مـرة، وقالـت: يـا شيخ، لم يبق لي طاقة بعد هذا، فقال: إن صدقت فقد جاء ولدك؛ فذهبت فوجدت ابنها في البيت[1].

أقول: وفيه تعريض لهذا الفقير؛ فإني كنت قد اشتكيت إلى حضرة الشيخ قبل أيام سُوء خلق أهل بيتي، وادعيت أنه قد بلغت القصوى في المحنة، فأمر حضرة الشيخ بالصبر، قـال: اصبر؛ فإن هذا زمان فسيجيء زمان متأسف فيه على عدم صبرك حين يذهب الله بليتك.

قـال حضرة الشيخ: كل كلمة تخرج من فَي الواعظ تحفظ وتنشر صحيفتها بين يديه يوم القيامة، وأقسم بالله أنه لو عرفت قبل عشر أو عشرين أن الأمر هكذا، وأن أمر الآخـرة فوق ما يعرفه عامة الناس لما قبلت الوعظ، ولا الشيخوخة، وقد عزلت نفسي منها إنما أدري إذا يطلب الناس مني، وأنا من أفراد الناس عاجز.

أقـول: شـدد في الأمـر حتى تبرد في قلبي من الموعظة والتذكير، وعزمت على الانقطاع التام، وكان حضرة الشيخ قال ما قال من إرشاد إلا أنه خائف من البرازخ.

قـال حـضرة الشيخ: إن الله تعالى سلب من قلبي الميل إلى اللسان الفارسي منذ أربعين سنة، وملأه بالعربية، فأنا الآن لا أدعيه أصلاً.

قال: إن المكروه طبعًا بداية يكون محمودًا حقيقة نهاية، فعلى المرء أن يتقيد بالصبر والهضم ولا يجري على مقتضى طبعه.

قال: بلغني عنك قول مستحسن هو أنه واحد من أتباع خليفتنا في صوفيا أراد أن يكـون عندنا فلم يرض الخليفة، فقلت له أنت: إنك يا شيخ لا ترضى أن يكون مرادك مريدًا لشيخك، فمتى تكون أنت مريدًا له؟ ثم قل هذا القول منك إلهام من الله وكلهم حق والأمر كذلك، ثم خاطب ابنه الكبير محمد الجودي بأن تعلم الفارسية أنت، وكن معمورًا

---

(1) انظر: الرسالة القشيرية (526/2)، وروضة الحبور (ص 110) بتحقيقنا، وكتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص 200).

من كل جانب، ثم استأذنه ابنه أن يذهب إلى بروسة ويقيم هناك شهرًا بطريق التفرج والزيارة فلم يرض حضرة الشيخ.

وقال: ليس هذا أوانه؛ فإنه زمانه الطلب لا زمان السير فإذا جاء أوان السير فلتفعل.

قال حضرة الشيخ: لا راحة قبل الموت، فإذا جاء الموت ارتفع الكدر، ألا ترى إلى حال أهل القبور ليس لهم انقباض ولا انبساط، ولو كان العالم مملوء منهما.

سألت حضرة الشيخ عن غاية الأمر أن اختلاف الزمان بالظلم والهزيمة إلى ماذا ينجر، هل كَتَبَ علماء الحقيقة شيئًا يفصح عنه غاية الأمر ولو تقريبًا؟

قال: يا ولدي سلب الله من قلبي الميل إلى مراجعة الكتب في مثل هذا، فالله يفعل ما يشاء وإنَّا نفرُّ من قهره إلى لطفه، فإن كان القضاء هو القضاء المطلق فيدفعه الله عنا، وإن كان هو المبرم فلا دافع له ألا ترى إلى أهل الابتلاء من الأنبياء والأولياء كزكريا ويحيى والحسن والحسين وأمثالهم – عليهم السلام – لكن الاحتياط لازم في مرتبة الشريعة، وقد فقد الناس السلطان في هذا الزمان ونصبه واجب عليهم جعلوا السلطنة ميراثًا مع أن لها شرائط ولوازم، ولفقدانها وقع ما وقع من كل بلاء.

قال: وقد رأيت المكتوب المرسل إلى السلطان من جانب أمير الكفار المسمى بقرال، وفيه: أيها السلطان، إن كان لكم عسكر كثير، فحسبنا الله ولا اعتماد لنا على عسكرنا، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: 21].

ولا شك أن هذا إنطاقٌ من الله تعالى؛ فإن الكفار، وإن كانوا مردودين في مرتبة الشريعة لكن محركهم في الحقيقة هو الله.

قال: إذا أراد الله شيئًا لا يحول بينه وبين مراده شيء فيجري قضاؤه على الأنبياء والأولياء فلا يمنعه عزيمة أولى العزم، ولا رسالة الرسل، ولا معرفة العرفاء، ولا إيمان المؤمنين اليوم، وهو يوم الإثنين آخر جمادى الأخرة من سنة ألف ومائة وواحدة.

ونكح حضرة الشيخ عندي وعند خليفة إزميد الفرائضي وابنيه محمد ومصطفى من زوجته المطلقة، وهي الوالدة الكبيرة والدة ابنه الكبير محمد الجودي، وكان طلقها قبل أربعة أشهر لسبب يطول شرحه، وجعل المهر إثني عشر ألفًا.

قال حضرة الشيخ: ظهور النبي ﷺ وانشقاق القمر من الأشراط الأولى، وهذه الأشراط التي ظهرت في زماننا هي الأشراط الوسطى، لكنها قريبة من الآيات الكبرى،

وكان الناس قبل هذا اليوم بقدر، والقسطنطينية، وإرامة سلامة، فلهذا كان المهاجرون من الأقطار إليها، وأما الآن فيرتحلون عنها إلى الأطراف.

قال: وفتنة هذه البلدة لا يقاس عليه فتنة أخرى؛ فإنها تشابه الحشر والنشر، فقال خليفة الشيخ حسين الفرائضي: كنا نرى حين الهجرة من [أينة بختي] أن كثيرًا من الناس طرحوا أولادهم على الطرق لاشتغالهم بنفوسهم، فقلت: لعل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير:8]؛ لأن هاهنا خطرين، وهلاك الأولاد ليس بأهون من هلاك نفسه، فقال حضرة الشيخ: نعم ينبغي للآباء والأمهات أن يسعوا في إخراج الأولاد من المهلكة بأي وجه كان، وإني لرعاية جانب الأولاد أقيم الآن في هذه البلدة، ولولا ذاك ما أقمت ساعة، لكني إلى أين أذهب مع الأولاد والجم الغفير؛ فنسأل الله العفو والعافية.

قال حضرة الشيخ: ما وقع في هذه السنين من القتل والهزيمة في جانب المسلمين قصاص لما فعلوه سنة الخروج إلى طرف قلعة بج؛ فإنهم أسرفوا وقتئذٍ في القتل بغير موجب شرعي.

وقد قال تعالى: في سورة بني إسرائيل:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ [الإسراء: 33]، فلا يسرف في القتل أنه كان منصورًا.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض كتب الشيخ الأكبر - قدس سره - أنه قال: لكل نبي دعاء مخصوص به، والدعاء المخصوص بنبينا ﷺ قوله تعالى في آخر البقرة: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286].

قال حضرة الشيخ: ما يقال في ألسنة القوم مرتبة الإنسان هي عدم وقد تجلى الله للإنسان في تلك المرتبة بالوجود فكما أنه ليس مثله تعالى في القوة والبطش، فكذلك مثل الإنسان في العجز والضعف، فوجوده ظلي، فكما بسط الظل كذلك يقبض، فأهل الشهود يرى الحركة في القبض والبسط من الله؛ فإنه هو الفعال فلو أراد أيضًا يكون كل ذرة مظهر اسم القهار، ولا يمنعه شيء.

قال: وقد أمر الله بالصبر حيث قال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ [النحل:127]، ولكن قال بعده:

﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: 127].

فأشار بالأول إلى الوجود الظلي الذي يرى منه الحول والقوة.

وأشار بالثاني إلى أن الصابر في الحقيقة هو الله تعالى، فتارة يجذب عبده إلى عالم القدس فيخلع عنه كل صورة.

وتارة يرسل إلى أسفل السافلين وهو عالم الحس والدنس فيبتليه بأدنى حيوان ذلك العالم كالبعوض الداخل أنف نمرود فعلى العاقل ألا يستند إلا إلى الله.

ويقول دائمًا لا ملجأ ولا منجى إلا منك.

قال: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ [البقرة:131]: هو أمر بالصفة والحقيقة، وكذا قوله تعالى في الجواب: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ [البقرة:131] فوجد المجازات الكاملة بين الصفتين في الظاهر والباطن، ولذلك رُمي بالمنجنيق، ولم ينفعل أصلاً فلو أراد العبد دفع القضاء المبرم لا يجد إليه سبيلاً فلا سبيل إلا الاستسلام.

قال حضرة الشيخ: تجلى الله في آدم بالولاية، والنبوة تعين خاص، وكان لبعض عباده سمعًا وبصرًا، فشاهد العوالم بعد مرتبة علم بتلك السمع والبصر، ولكن كذلك لا يدفع القضاء المبرم ألا ترى أن حبيب الله لم يكن له عديل في مرتبة الحقيقة مع أن ذلك لم يدفع عنه إشقاق العقب، وكسر السن في غزوة أحد.

قال: ﴿مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:9]، وإنما أعرف الآن، قال: ورد إذا جاء القضاء عمي البصر، فإذا جاء القضاء يفعل الله بعبده فلا ينفعه نبوته ولا ولايته إذ كل مقضي لا بد أن يكون، ثم أنشد قول الهدائي في بعض إلهياتة التركية [.....][1].

قال: إن أهل البصيرة والشهود يرتعدون عند ميدان القضاء كالأوراق وقت الخريف لما يعلمون كمال بطشه وقوته، وأما أهل الغفلة فلا قدرة لهم على مشاهدة الجلال في صورة الجمال اليوم وهو اليوم الثاني من رجب سنة إحدى ومائة وألف.

دعا حضرة الشيخ كاتبًا من طرف نائب محكمة أخي جلبي الواقع في القسطنطينية ليكتب حجة متعلقة بابنته الصغيرة السيدة خيفة، وذلك أن حضرة الشيخ كان زوجها الحاج صالح من أتباعه، ثم صدر منه قبل الدخول خيانة عظيمة فأراد الشيخ تطليقه لابنته

(1) كلام تركي.

فاختفى ولم يفعل، فشهد خليفة الشيخ عبد الله الساكن في القسطنطينة وهو أعلم خلفائه وأزهدهم، وكذا الابن الكبير لحضرة الشيخ أن الحاج صالح كان قد صدر عنه ما يوجب تجديد النكاح قبل أيام، فراجعنا في تجديد النكاح، فلم يتفق لنا ذلك بحسب الموانع، فبقي الأمر على حاله إلى الآن، فلا ضرر في اختفائه، فإن زوجته كانت مطلقة قبل مجيء الكاتب، فادعى حضرة الشيخ ذلك، وشهد شاهدان بذلك فكتب حجة بالأخبار؛ فقلت للشيخ عبد الله: ما فائدة هذه الحجة الإخبارية؟ قال: فيها ثلاث فوائد:

الأولى: أن فيها حفظًا للمقال أي مقال الحاج صالح بأنه قد صدر مني ما يوجب تجديد النكاح.

والثانية: أنها حل لها التزوج إلى آخر.

والثالثة: أن فيها إلقاء الرعب في قلب الخصم.

قلت: أهم حضرة الشيخ في باب البيت المذكور حتى أرسل مكتوبًا من جزيرة قبرص حين نفي إليها في آخر عمره، وفيه عدم رضائه بإنكاحها إلى الحاج المذكور بحيث إنه فعل ذلك حضرة الشيخ في حبيبه يوم القيامة.

قال حضرة الشيخ: هل لك مرض جسماني؟ قلت: نعم، قال: إن الصحة الكاملة تسقط المرء إلى المرتبة الطبيعية والنفس، وأنا مبتلى من قديم بريح البواسير، قال: العبد عبد ليس فيه شوب من الربوبية، والرب رب ليس فيه شوب من العبودية؛ فالكامل الأكمل الذي فرق بينهما فرقانًا ما ولم يخلط بين المراتب، ولذا كان الأكمل أعجز العاجزين صورة فكما كان بصيرته وروحانيته في غاية العلو هكذا كانت جسمانيته في غاية السفل فهو لا يدري أوضع من نفسه وعجز في الخلائق؛ فالفيض الكامل يعطي التعبير بالشريعة والأدب بحيث يجد صاحبه لذة كاملة في العبادة لا يشبهها شيء من اللذات، ثم مَثَّلَ الفيض؛ فقال: كما أن صاحب الزراعة ينبغي له التقيد بكِراب الأرض، وهو لا يدري حتى ينزل المطر فكذلك صاحب المجاهدة ينبغي له التقيد بالأعمال والأخلاق، وهو لا يدري حتى ينزل الفيض؛ فإذا نزل يصيب مُحزَّة، فمن تجل في آن غير منقسم لكنه يعطى علومًا غير متناهية، ومن تجل في يوم وأسبوع وفي شهر وفي أزيد يعني يمتد، وكل ذلك ليس في يد العبد، فكما أن في المطر الصوري رعدًا وبرقًا، فكذا في الفيض المعنوي ما يشبهها، والتجلي على أنواع؛ فتارة ينكشف أسرار النسخة الإلهية، وتارة أسرار النسخة اللفظية المكتوبة المنقولة عنها بالقرآن اللفظي، فهذه أربعة مصاحف

غايتها الرابعة، فلذا ترى الكُمَّل لا يشتغلون في أواخر أعمارهم إلا بالقرآن، وليس شيء يصلح أن يكون مورد فيضهم وعلومهم سِوى القرآن.

ثم قال: وقد أعطاني الله في هذا الكتاب إيمانًا كاملاً بحيث لو اتفق الملأ الأعلى والأسفل على خلافه ما زاغ قلبي ما دام التثبيت من الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران:8].

قال: إن شيخي كان رجلاً ساكنًا متأدبًا لا يغره بما يغر به أرباب الدعوى في هذا الزمان، وهو المقبول عندي أيضًا.

قال حضرة الشيخ: إن بعض الناس يطلب مني خارق العادة، وليس عندي غير الكرامات العلمية الباطنية وبعض من الخواص يعطى له الطرفان لكن المقبول هو ما يتعلق بالباطن والإله، لا بالظاهر والكون، فمن أراد أن يكون مريدًا إلي فليقبلني بهذه المرتبة، ومن أراد الخوارق والكشوف فليطلب من غيري، فإني لست بشيخ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:9] قال: ما أدري ما يتعلق بالكون إلا أن يشاء الله، وأنا في ذلك كسائر الناس.

قال حضرة الشيخ: المريد والمرشد لا يتفقان في المشرب غالبًا، وإن كان بينهما نوع مشابهة كما أن الابن لا يكون عين الأب من جهة الصورة، وإن كان بينهما نوع مماثلة فكل شخص لا يعطى إلا بقدر حاله واستعداده الأزلي والمرشد واسطة في البين وله التربية والعقول[1].

---

(1) قال الشيخ المصنف: اعلم أن المرشد الكامل كالملك الذي ينفخ الروح في الجنين؛ فإنه ينفخ روح الفيض في الجنين الذي يشتمله رحم استعداد المريد، والمراد بالنفخ؛ صورة اشتعال حطب الجسد بنار الروح، ولمّا كان ظهور تلك النار في المحلّ من تربية النافخ؛ جُعل المرشد كالنافخ، وليس إلا المظهر، ففيه سرُّ الخلافة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ، وإنما كان الله أحسنهم؛ لأنهم إنما يُخلقون على صورة ما خلق الله؛ فهم الفرع في ذلك، والله هو الأصل والمبدأ.

فظهر أن المريد ولد المرشد وفرعه: أي في الظهور؛ لأنه لولا ظهور المرشد قبل ظهور المريد، كما أنه لولا ظهور الحق بذاته لذاته في ذاته؛ لما ظهر الخلق أبدًا ، فكان ظهور الحق؛ هو المبدأ في جميع الظهورات؛ ولذا وصف نفسه بالأولية والظاهرية، ولمّا كان ظهور الإنسان بالمعنى أولى من ظهوره بالصورة؛ لأن المعنى حق، والصورة خلق؛ كان الأستاذ أحق بالتعظيم من الأب، والمرشد أولى بالتقديم من الوالد.

قال حضرة الشيخ: فرق بين الحضور والاستحضار، فالحضور لأهل النهاية والاستحضار لأهل البداية؛ فإنه لا نسيان للفرقة الأولى أصلاً فلهم الجمعية الكبرى، وأما الثانية فإذا طرأ عليهم النسيان يستحضرون، وعلامة الحضور مطلقًا الانجذاب من طرف الخلق والكون إلى طرف الحق والإله ومصداقه بالعبودية الكاملة فمن لا تعبد له فهو نسيان كامل لا حضور معه أصلاً فله سوء الخاتمة وهو فكر الغير، وخروج الروح معه، ومن له تعبد ناقص فهو في حضور ناقص وأهله على خطرٍ أيضًا، ومن له تعبد كامل بلا تكلف فله حضور تام، وكيف لا يكون له الحضور الباطني يعطى ذلك التعبد بالأعمال والأخلاق

=

ومن العجائب أنه كما أن للمرشد والوالد فضلاً على المريد والابن من حيث التربية والوالدية؛ فكذا للمريد والابن فضلاً على المرشد والأب؛ لأن كلاً منهما في حكم المعين لهما؛ فالمرشد مثلاً كالأنثى الحاملة، والمريد المستعد كالقابلة، فإن ما يلد منه إنما يلد بمباشرة المريد، ولولا المريد لِما وُلد مولود من المرشد، ففيهما سرُّ قول مَن قال من بعض الأكابر: فلولاه ولولانا؛ لِما كان الذي كان.

فظهر أن مرتبة الأُلوهية من الإضافات؛ فإنها نسبة بين الإله والمألوه، والنسبة لا ترتفع مادامت المرتبة باقية، ومنه يعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿فاعلم أنهُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:19]؛ يعني: إن علمك إنما يتعلَّق بمرتبة الأُلوهية. وأمَّا ما فوقها من مرتبة الغنى عن العالمين؛ وهي مرتبة الذات البحت؛ فلا يدخلها علم؛ لأنه لا اسم، ولا وصف، ولا رسم هنالك؛ ولذا يُقال: إن الله هو المحيط بكنهه.

ومما قررنا يُعرف سر طلب مقام الوسيلة لنبينا ﷺ؛ فإن ذلك من باب الغَيرة الإلهية؛ فهو كنصب السلطان من قِبل الرعية مع أن السلطان؛ هو الحاكم الآمر الناهي، فليس الكمال المطلق إلا لله تعالى؛ ولذا كان أعلم مطلقًا.

وأمَّا النبي ﷺ فقد قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:85]. وإن كان علم الكائنات بجنب علمه ﷺ قطرة من سبعة أبحر، ولم يزل الإنسان الكامل في الدنيا يطلب مرآة لكماله، فإن بتلك المرآة يظهر لكماله في المريد، وأيضًا يحصل صورة كمال من المريد ينتفع به المرشد، وقد جُرِّب إنه كلَّما كان المريد أكمل استعدادًا، وقرر عند الشيخ أمرًا من أموره؛ فإن للشيخ ترقيًا بحصول معارف زائدة من تقريراته.

وإن كان المريد لا يعرف ذلك، ونظيره علم الكيمياء فقد يدخل المتحيِّر في العلم من تقرير بعض مَن لا يقدر على علمه، وبيد الله الحل، والعقد، والقبض، والبسط، والعطاء، والمنع، ونحن نستفيد إلى الآن من الأرواح الطيبة، ولهم الاستفادة منَّا أيضًا بما شاء الله تعالى. وانظر: مرآة الحقائق (ص 692).

في الظاهر ثم وصى بالعبودية إلى أن يخرج الروح من الحلقوم.

وأمرني حضرة الشيخ بالإمامة في صلاة الرغائب ليلة الجمعة الأولى من رجب لسنة إحدى ومائة وألف، فلما صلينا المغرب، قال مخاطبًا للحضار من الخلفاء أو غيرهم: ما تقولون في حق القرآن؟ فقلت: تخفيفًا لبعض الضعفاء، فقرأ في الأولى الفاتحة وسورة القدر، والثانية بسورة الإخلاص مرة، وهكذا إلى أن تم اثنتا عشرة ركعة.

وقال بعض الخلفاء مخاطبًا لحضرة الشيخ: رأيته يعلمكم سورة القدر ثلاث مرات، وسورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، وذلك في كل ركعة منها.

فقال حضرة الشيخ: هذا على وجوه لكن المختار الأولى والأقوى الذي هو العزيمة والتقوى فأمر بما كتبه؛ فقال بعضهم: هل يلزم المنذر؟ قال: لا، بل هو لإسكات العوام لكن لا بأس بالنذر فصلوا بأي وجه شئتم، فصليت على هذا الوجه إمامًا لمن تبعني ممن حضر في دار حضرة الشيخ من الخلفاء وغيرهم، فلما تمَّ الصلاة والدعاء، قال حضرة الشيخ: تقبل الله ووصَّى أيضًا لوكيله في جامعه قبل أن يصلي هذه الصلاة هناك.

ثم قال حضرة الشيخ: صلِّ بنا بعد العشاء صلاة التسبيح.

فقلت: نعم، فصلينا بالحمد لله، والرجاء الواثق على أن هذه الليلة كانت ليلة المغفرة والرحمة لأنا قد وجدنا ببركة حضور الشيخ خفة في الأبدان، وتوجهًا في الأرواح، ورقة في القلوب، وطمعًا في عفو الذنوب، واعلم أن صلاة الرغائب والبراءة والقدر صلاها العلماء الكرام والمشايخ العظام إلى هذا الآن، وحكم الإمام الغزالي باستحبابها، وأمر السلاطين في منشور أوقافهم أن يصليها أئمة جوامعهم بعد الإجماع من علماء زمانهم، والأمة لا تجتمع على الضلالة، و«**ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**[1]»، فلا يضر بك الألفاظ المموهة لأهل الإنكار؛ فإنهم يزيدون في طنبورهم في كل عصر نغمة وصوت الطبل، وإن كان يبلغ بعيد الكنه مجوفًا خاليًا.

قال حضرة الشيخ: أصل السماع حق، ولكن هذا الوقت ليس وقت السماع[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال الشيخ عبد الغفار القوصي: وللسماع أثر كبير في ورود الحقائق، إذ جعل الله تعالى على العبد التكليف بالأسباب والاكتساب، فهذه الحواس الخمس: السمع والبصر واللمس والشم والذوق.
ولهذه الخمسة الظاهرة خمسة باطنة- وليس هذا موضع الكلام فيها- فإذا طهرت نفس السالك وحصل له تصريف من الله تعالى كانت جوارحه كلها فعّالة، وتنوب كل جارحة عن غيرها =

فيسمع بعينه ويبصر بأذنه وكل الجوارح كذلك، وإياك ثم إياك والإنكار في هذا الموطن فتهلك فيه وتحرم الوصول إليه بحجاب الإنكار.

والسّماع لا يقتصر على نوع من الأنواع، إذ لكل كلمة معنى لطيف من سائر الكلمات، ولها سرٌّ من الأسرار مطلِعُ الله تعالى عليه من جعله لذلك أهلاً وأسمعه أحسن القول في كل موجود، كهبوب الرياح وتمايل الأشجار وطنين الذباب وصرير الإيوان ونغمات الأطيار وحسن الأوتار وصفير المزمار وسماع الأنين وصوت الحزين وصياح الصائح ونوح النوائح، وللسامع بحسب ما وجد، وللعابد ما عبد فهو في كل ذلك طروب.

والسماع يختلف بحسب المواجيد والواجد والأحوال والطباع والمسمعين والمستمعين، وبحسب كل شخص، وقد تكلم العلماء في السماع كلامًا كثيرًا، فمنهم من قال بالإباحة ومنهم من قال بالتحريم ولا وجه له في ذلك في نفس السماع، إلا أن يكون لعلة واردة فيه بحسب القصد والنية والهوى.

وقد صنّف الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في ذلك مصنفًا، ونقض أقوال من قال بالتحريم، وجرح النقلة للحديث بالتحريم، وذكرهم وأسماءهم وذكر من جرحهم، واستدل على إباحة السماع واليراع والدف والأوتار بالأحاديث الصحيحة، وجعل الدف سُنة، واستدل بآيات من كتاب الله تعالى، وسمعنا ذلك بقراءة ابن أبي أسامة الدمشقي على الشيخ الإمام الحافظ شرف الدين الدمياطي عن جماعة بإجازته عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني بسماعه من المصنِّف رحمه الله تعالى، ولا حاجة إلى تكثير الكلام، ولا يشك أحد في صحة حديث الوفد من الحبشة الذين كانوا يرفقون ويرقصون بمسجد رسول الله ﷺ وهو يُري عائشة -رضي الله عنها- قال: أكتفيت أو كانت هي التي تمل.

وأيضًا أحاديث جمّة في ذلك غير مختلفة في صحة ذلك، وإن اختلفت بعض الطرق، وكذلك فإن الناس لا يشكون في نغمات الأطيار كصفير البلابل والهزارات والشحارير والكروانات وكل طير حسن الصوت والصفير والهدير والنواح، فإن ذلك مباح لم يختلف فيه اثنان، وإن رسول الله ﷺ سمع الشعر وربما أجاز عليه، والحديث في الفتاة التي أهدتها عائشة رضي الله تعالى عنها أو أنكحتها في الأنصار، وقوله ﷺ أهديتم الفتاة قالوا: نعم، قال: أرسلتم معها...

قال أبو محمد: كلمة ذهبت عني-، قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ:

«إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو أرسلتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيّانا وحيّاكم».

وفي حديث جابر لما سأل عن الفتاة فقال: نكح أحد الأنصار واحدة من أهل عائشة وأهدتها إلى قباء فقال لها رسول الله ﷺ: «أهديت عروسك»؟ قالت: نعم قال: فأرسلتِ معها مغنيًا فإن الأنصار يحبونه؟ قالت: لا قال فأدركيها يا زينب — وزينب هذه امرأة كانت تغني في المدينة- ورواه الزبير بن مسلم المكي عن جابر.

وكذلك حديث فضالة بن عبد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد أُذنًا إلى الرجل الحسن

الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته».

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب «المستدرك»: وهذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، وأخرجه عبد الله بن ماجه في سننه عن راشد بن سعد الزينبي عن الوليد بن مسلم والله أعلم.

ووجه الاحتجاج من هذا الحديث أن النبي ﷺ أثبت أن الله ﷻ يستمع إلى حسن الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القينة إلى قينته، فأثبت دليل السّماع، فلا يجوز أن يقاس على محرم، ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه.

وفي حديث جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمًا ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا خطبتين، فكانت الجواري إذا كان نكاح يمررن فيضربن بالدّف والمزامير، فينسل الناس ويدعون رسول الله ﷺ قائمًا، فعاتبهم الله -عز وجل- بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة:11].

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن عبد بن حميد عن خالد بن مخلد عن سلمان بن بلال والله ﷻ عطف اللهو على التجارة، وحكم المعطوف حكم ما عطف عليه، وبالإجماع تحليل التجارة فثبت بهذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية، لأنه غير محتمل أن يكون رسول الله ﷺ حرّمه ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله ﷻ من ترك رسول الله ﷺ قائمًا وخرج ينظر إليه ويسمع، ولم يُنزل في تحريمه آية ولا سنّ رسول الله ﷺ سُنة فعلمنا من ذلك بقاءه على حاله.

ويزيد ذلك وضوحًا حديث عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها زفّت امرأة من الأنصار إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: «ما كان معك من لهو لأن الأنصار يعجبهم اللهو» وهذا حديث صحيح أورده البخاري في كتابه في كتاب «النكاح» في باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

ومما حدّث به ابراهيم بن عبد الله وكان الناس يتبركون به قال: حدثني المزني قال: مررنا مع الشافعي ﷺ وإبراهيم بن إسماعيل رضي الله تعالى عنهما على دار قوم وجارية تغنيهم:

خليلي ما بالِ المطايا كأننا ... نَراها على الأعقابِ بالقومِ تنكُصُ

قال الشافعي: ميلوا بنا نسمع، فلما فرغت قال الشافعي ﷺ لإبراهيم: أيطربك هذا؟ قال: لا قال: فما لك حس.

وفي حديث الفرغاني عن صالح بن أحمد بن حنبل -رضي الله عنهم- قال: كنت أحب السماع، وكان أبي يكره ذلك، فواعدت ليلة ابن الخنارة فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام فأخذ يغني، فسمعت حشفة فصعدت فرأيت أبي فوق السطح يسمع ما يغنى وذيله تحت إبطه وهو يتبختر على السطح كأنه يرقص.

وقد رويت هذه الحكاية أيضًا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل -رضي الله تعالى عنهم- قال: كنت

أدعو ابن الحنارة، وكان أبي ينهانا عن الغناء، ولما ناب إليه الأمر قال كالمعتذر منه: إن الكريم طروبٌ[2] ولا خير فيمن لا يطرب.

وكان يحيى بن خالد يقول: خير الغناء ما أشجاك وأبكاك وأطربك.

وقال غيره- سامحه الله تعالى-: وكنت إذا كان عندي كتمته عن أبي لئلا يسمع قال: فكان عندي ذات ليلة، وكان يقول، فعرضت لأبي حاجة عندنا، وكانوا في زقاق، فجاء وسمعه يقول فاستمع، فوقع في سمعه شيء من قوله، فخرجت لأنظر فإذا بأبي يترجع ذاهبًا وجائيًا، فرددت الباب ودخلت، فلما كان الغد قال: يا بني إذا كان مثل هذا نعم الكلام .

ومما أخبر به أبو محمد التميمي رحمه الله قال: سألت الشريف أبا علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي عن السماع فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن بن عبد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه وحضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين، وأبو القسم الداركي شيخ الشافعيين، وأبو الحسن طاهر بن الحسين شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين، وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة.

فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق من يشبه واحدًا منهم يفتي في حادثة، ومعهم أبو عبد الله غلام تام، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حسن-وربما قال شيئًا- فقيل له: قل لنا شيئًا، فقال وهم يسمعون بأجمعهم:

رسالةٌ بعبير لا بأنفاس ... خطت أناملُها في بطنِ قِرطاسي

فإن حبُّك لي قد شاعَ في الناس ... أنْ زرْ فديتك لي من غير محتشم

قفْ لي لأسعى على العينين والراس ... فكان قولي لمن أدّى رسالتها

قال أبو علي: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني لأن أفتي بحظر ولا إباحة.

وهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى في هذا الباب من وجوه الاستدلال بالأحاديث الصحيحة وتأويل الآيات، ولم نعلم في زماننا هذا من أهل العلم وأهل الصلاح من أنكره، وكانوا أجلاء كالشيخ مجد الدين القشيري بن دقيق العيد[2]، وولده الشيخ الإمام تقي الدين قاضي القضاة - قدس الله تعالى روحيهما-، وكان يسمع السماع، والشيخ جلال الدين الدشنائي ولم يُسمع من أحد منهم إنكار، والشيخ محب الدين الطبري والفقهاء الذين عندنا كلهم يحضرون السماع، ومشايخ الصوفية من الزمان المتقدم وإلى الآن لم ينكره واحدٌ منهم إلا إن وقع ما يوجب الإنكار فيه، فلم يكن ذلك في السماع نفسه، وإنما هو لعلة دخلت فيه.

والذي أراه في ذلك أن السماع على ثلاثة أقسام:

- منه ما هو محرم كالاستماع لأرباب اللاهوية المحرمة من عشاق النسوان والفتيان وحضورهم في المكان والآلات المحرمات، فإن ذلك يحرك دواعيهم ويهيج نفوسهم وأشواقهم حتى يرتكبوا

=

المحارم ولا يقفون عند مانع ولا يحجبون برادع؛ لأن الشهوات النفسانية إذا احتدت وقوي شغفها في محبوبها ومطلوبها لا تندفع عنه إلا بالموت، فالسماع على هذه الصورة حرام على السامع والمستمع له إذا علم بذلك؛ لأن الداعية إلى الحرام حرام؛ وما لا يتوصل إلى الحرام إلا به فهو حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما كان يتوصل للحرام به فهو حرام وإن كان له دواعي غيره، فكيف إذا كان هذا الداعي هو أقواها وأشدها وأسرعها إلى ارتكاب المحارم.

- ومنه ما هو عندي واجب، بل واجب الواجب، وذلك أن السماع إذا كان لأقوام قد أسطلهم الحب في الله تعالى، وأقلقهم الشوق إليه، وزهقت أرواحهم من العطش منه، وتهالكت نفوسهم في ذاته، وتقطعت قلوبهم على قربه ووصاله، وطاشت عقولهم في معرفته، واستغرقت أسرارهم في سريان سرّه في بحر ديموميته إذا أطرق أسماعهم ذكر محبوبهم على أنواع من صفات جماله وكماله، ولاح لهم بارق دلائله وأنوار حقائقه طارت أرواحهم إليه طيران العقبان، بل أسرع مما يوصف به الطيران، وانخرق سماع قلوبهم بذكر محبوبهم فأجذبهم إليه دواعي الوجدان ساروا إليه في قلبك المدارج والأطوار بالمذاقات والوجدان، وساقهم سائق الشوق بأسرع السرعة لا كسابق الإطعان، ويشتاق القوم إلى لقائه، كما أن الأقرب إليه هو السابق بالعرفان ممن واصل ومَن ذاهل ومن مأخوذ ومن واجد ومن عارف ومن سابق ومن سائل ومن ولهان، والكل إليه هائمون وعلى طبقاتهم في وصولهم متعاونون وإليه ذلك الوقت راجعون.

وكل العلوم والمعارف والحقائق واللطائف والأمن والخائف، فإنما وضعت للعلوم والمعارف وكل ما تقدم ذكره إلا ليعرف به الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] قيل: ليعرفوا، والله تعالى هو غاية الغايات ونهاية النهايات والمعرفة به هي واجب الواجبات، فالسماع على هذه الصورة واجب، وإن كان ذلك في حكم النادر إلا أن له أهلاً، وهم بحمد الله تعالى موجودون، وإنما يعرفهم من معرفة الله تعالى بهم؛ لأن القلوب مستورة بالجثمان، ومحجوبة عن العيان، وفيها أسرار الملك الرحمن، فلا يطلع عليها سواه، ولا يعلم بحقيقة ما أودعه فيها إلا إيّاه.

- ومنه ما هو مباح على أصله إذ لم ترد فيه آيات في القرآن ولا أحاديث صحيحة في التأخير ولا في التقديم، كصفير الأطيار وتمايل الأشجار ورؤية الأزهار وهدير الأنهار وغير ذلك من هذا الشأن، فإذا خلت قلوب المستمعين من الحالة الأولى المحرمة للسماع، ومن الحالة الثانية الموجبة للسماع وكان خليًا من ذلك كله، فسماعه للألحان كسماعه لنغمات الأطيار ورؤيته لجريان الأنهار وألوان الأزهار.

وقد كان عبد الله بن جعفر مع جلالته وعظم شأنه ليسمع ويعلم جواريه، ويسمعهن في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وكانت له جارية تسمى عمارة وكان معجبًا بها فسمعها يزيد بن معاوية، فوقعت في قلبه فأحبها وعشقها فاطّلع على ذلك أهل سرّه وبطانته، فأشاروا

=

عليه بالكتمان وألاّ يطلع والده على ذلك، فإن عبد الله بن جعفر ما يبيعها ولا يُكره عليها.

فكتم ذلك حتى مات معاوية وأفضيت إليه الخلافة، فتحدث مع أهل سرّه وبطانته في ذلك فقالوا له إن ابن جعفر ما يكره ولا يبيع، فقال: فما الحيلة؟ فقالوا:ما بقي إلا التحايل فقال: وكيف ذلك؟ فقالوا: هنا رجل عراقي.

فطلبه وعرض عليه ذلك، فقال له: إن عبد الله بن جعفر ما يبيع ولا يكره على ما في يده، وليس منها إلا الحيلة، وإن كان واحد يحتال فأنا.

فأعطاه ما يريد من المال، وتجهّز إلى المدينة، وشرّع ما يحتاج إليه من الراحلة وغيرها، وتوجّه في صورة تاجر إلى منزل في رحبة لما وصل إلى المدينة بالقرب من دار عبد الله بن جعفر، والرحبة له، فقيل لعبد الله بن جعفر: رجل تاجر نزيل عندك، فقال: أكرموه. -وكان عبد الله بن جعفر مشهورًا بالكرم، وهو من المعدودين من الكرماء في العرب- ثم استأذن على عبد الله فأذن له، فسلم عليه وقال: فيكم والمحبة لكم وجئت قاصداً، وبقي يلازم مجلسه حينًا.

ورأى منه عبد الله بن جعفر من المنادمة والملازمة والفضيلة ما عظم به عنده، ثم إنه أرسل إلى عبد الله لطائف وطرائف من لطائف الشام وظرفها وبغلة، وكتب معها ورقة وذكر فيها أنه لم يكن له حاجة بالمدينة إلا الولاء فيهم والمحبة، وقد أرسل لطائف وظرفًا من لطائف الشام وبغلة خفيفة الركاب.

فبالله عليك يا ابن رسول الله لا تخجلني أو لا توحشني بالرد، فأمر عبد الله بن جعفر قَيِّمَه أن يقبض ذلك منه، ثم إنه استمر على الملازمة حتى عاد عبد الله بن جعفر إذا جلس وعنده عمارة تغني يكون العراقي حاضرًا عنده، وكان عبد الله بن جعفر معجبًا بعمارة كثيرًا، فغنت ذات ليلة فأعجب بها عبد الله بن جعفر فقال للعراقي: هل رأيت مثل عمارة؟ فقال: لا والله يا ابن رسول الله ﷺ، حسن صورة وحسن صنعة -أو قال جودة صنعة- فقال: كم تساوي عندكم؟ فقال: يا ابن رسول الله، أنا رجل تاجر، أضم الفلس إلى الفلس أو الحبّة إلى الحبّة، والله لو أعطيت لي بعشرة آلاف أخذتها -أو قال دينارًا- فقال له: هي لك بعشرة آلاف -على سبيل الدُّعابة.

فقام العراقي، وأتى بعشرة آلاف دينار وضعها بين يدى عبد الله بن جعفر، فقال له: ما هذا؟ فقال: ثمن عمارة.. فقال له: ويلك، ومثلي يبيع مثلها؟ قال: يا ابن رسول الله، أنا رجل غريب، وما لي عليك يد غير أني أستحلفك عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ويلك، أتحلفني عند قبر رسول الله ﷺ فيقول الناس أظهر ضيفه؟ والله لأحتسبن صبري في الله تعالى، جهزوا عمارة. فجهزوها بثلاثة آلاف دينار.

وقال: بئس والله الضيف أنت، وجعل أهل المدينة يقولون هذا الضيف المشؤوم. قال: فأخذتها وخرجت، فلما خرجنا من المدينة كشفت وجهها فقلت لها استري، فما أنت والله لي، وما كنت بالذي آخذ حبة قلب ابن رسول الله ﷺ لنفسي، لكني دسيس من يزيد بن معاوية.

وسافر حتى إذا وصل إلى دمشق وهو داخل من بابها، وإذا بجنازة يزيد خارجة من الباب، قال:

فدخلت وأقمت ثلاثة أيام، وتحايلت في دخولي على معاوية الصغير- وكان رجلاً صالحًا- فلما دخلت عليه وحكيتُ له الحكاية فقال: المال والجارية رد عليك ولا تبيتنَّ في البلد الليلة.

قال: فخرجت، فكشفت وجهها فقلت لها: تستري، فأنت والله ردٌّ على عبد الله بن جعفر.

فلما وصلنا إلى المدينة نزلت الرحبة، فقال أهل المدينة: جاء الضيف المشؤوم، وبلغ عبد الله بن جعفر نزولنا فقال: أكرموه، ثم طلبت الإذن فأذن لي، فجئت إليه وحكيت له الحكاية وأحضرت عمارة وقلت له: والله يا ابن رسول الله، لم يصل لها يد ولا عين، فكانت في الدار ضجة عظيمة يقولون: عمارة عمارة، وأمر عبد الله بن جعفر قيّمه فباع له غنمًا بسبعة عشر ألف درهم فأعطاها للعراقي.

فهؤلاء السادة كانوا يسمعون وهم في مثل هذا المنصب مع جلالتهم وعلو مناصبهم وعلومهم وكرمهم وقربهم من رسول الله ﷺ، وفي حكايات مشايخ الرسالة في ذلك كفاية، لم يذكر أحد منهم تحريم السماع إلا لعلة.

كما ذكر أن الجنيد ﷺ سمع أن أبا الحسن النوري يدور على قدم واحدة ويقول الله ثلاثة أيام فقال: قوموا بنا إلى أخي أبي الحسن، إما نفيده أو نستفيد منه، فقاموا فوجدوا الشيخ أبا الحسن على تلك الحال فقال له الجنيد: يا أخي أبا الحسن، إن كنت قائلاً الله الله بالله فلست أنت القائل، وإن كنت أنت القائل فأنت باقٍ مع نفسك، فما معنى الوله؟ فرجع عن حاله وقال: نعم المؤدب أنت.

وفي حكاية غير هذه أن المشايخ كانوا مجتمعين، وقوّال يقول شيئًا، فقام واحد وتواجد فقال له أحدهم: والذي يراك حين تقوم.

وقد ذكرنا ما حكي عن القرشي ﷺ أنه كان عنده قوّال فقال شيئًا.

وكان في طبقته التي بدرب ابن القسطلاني بمصر، قال: فارتفع أبو يوسف الدهماني إلى أبندارية المكان، وبقي يدور حتى أتى مقابل سجادته فنزل وجلس عليها، فقال له القرشي: الذي يغلب حاله عليه لا يحضرنا.. والمشايخ المتقدمين والمتأخرين لم يسمع بإنكارهم السماع.

وحكي عن الشيخ شهاب الدين السهروردي ﷺ أنه سمع شيئًا فقال: وفينا وإن طال الزمان بقية.

وسيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ كان له في السّماع ما يذكر فيه عنده، وذكر الرقص في كتاب ابن كرار وقال فيه ما قال ﷺ وإلى زماننا هذا أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، كالشيخ علم الدين والشيخ أبي يحيى.

وحكي أن فقيرين من أصحاب الشيخ أبي الحسن حضرا سماعًا، فقام أحدهما وصاح، فقال له صاحبه: تكذب إن كنت صادقًا فاثبت.. قال فجلس فمات. فقيل أن الشيخ سأل صاحبه عن ذلك فقال صاحبه: هو كشف له عن أمر، فضاق عنه فقلت له: إن كنت صادقًا فاثبت ولم يطق فمات.

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر أن الشيخ أبا الحجاج الأقصري كان عند الشيخ أبي يحيى في السماع،

وكان يصيح: يا حبيب يا حبيب، وخرج وبقي يمشي في الطريق ويصيح: يا حبيب يا حبيب، والشيخ مفرح ﷺ أيضًا كان يحضر السماع ويعمل عنده.

وحكى لي الفقيه عميد الدين أن الشيخ مفرح كان في طبقة له وكان في بيته السماع والقوّال يقول:

و أنا وحدي شربتُ ذلك الباقي ... كان للقومِ في الزُّجاجةِ باق

فنزل الشيخ من طبقته ودار دَورَاتٍ وعاد إلى مكانه ﷺ.

وقد ذكرنا من مات في السّماع من الوجد، كالشيخ عمر بن عبد الحميد السخاوي مات من السماع في بلبيس حكاه الشيخ عبد العزيز وحكاه لي نجم الدين ابن ناشيء قال: حضرته وكان إلى جانبي.

وحكاه لي الصاحب فخر الدين بن الخليلي- حرسه الله تعالى- قال: حضرته وكنت في السّماع، ورأيته كما حكاه اللّذان قبله، وموت السّراج الإسكندراني وغيره والذي جعل رأسه على الأرض مكان قدميه، كل ذلك في زمننا ووقتنا.

وذكر لي الشيخ يعيش -رحمه الله تعالى- قال: كنت أنا -وربما قال القليب السخاوي يمشي، وربما قال: كنا نقول شيئًا- وإذا بامرأة راكبة على بغلة ومعها الخدّام، فطلبتنا إلى بيتها فسرنا ودخلنا دارًا محتشمة، وإذا هي تغني للسلطان، ولها في الطرب والموسيقى صناعة جيدة، وكان السلطان قد أخذ ابنها وبقي عندها شوق إليه فغنت على عود وهي تبكي، وإذا طائر وهو البلبل جعل يترنم ويتدلى من دور القاعة، وجعل يتقرب بالنزول من جهة إلى جهة حتى نزل وقعد على رأس العود الذي تغني به ونحن جلوس، وأقمنا في ضيافتها ثلاثة أيام.

وحكى لي الأمير علاء الدين إدريس بن الصوافي قال: كنا في سماع لنا وعندنا قوّال، ونحن وأصحابنا خلوة، قال: فجاء قمري وقعد في طاقة في القاعة يستمع، ثم نزل وجلس على رأسي والجماعة جلوس وسكتت له، فمكث ساعة والمغني يغني، فحين فرغ المغني من الغنا طار وراح.

فانظر رحمك الله إلى هذا السر الذي جذب هذا الطائر! فكيف بأرباب الضمائر والسرائر والحقائق والخواطر، والمحبين للأول والآخر والظاهر والباطن؟

ولما طلب ذو النون المصري، وأرسل الخليفة إلى الفاضل بطلبه، وقال: إنّا سمعنا أن ببلادكم من يقول بما يقول به الحسين الحلاج فأرسله إلينا، فأرسل إلى أخميم فأحضره وأرسله إلى بغداد، فقال له الخليفة: ما الكلام الذي تقوله: فقال ما أعرف ذلك إلا عند السماع، فأحضروا قَوّالاً فأنشد القوّال:

فكيفَ بهِ إذَا احتنَكا ... صغيرُ هواكَ يتمنّى

إذَا نامَ الخليُّ بكا ... أما تراني لمكتئب

قال: فانتفخ ذو النون حتى بقي كالفيل، وقطرت كل شعرة منه الدم، فقال الخليفة: والله ما هذا عن باطل، ثم أكرمه وردّه إلى مكانه.

قال: هلا نكتب شرحًا على الطريقة المحمدية لمحمد البركوي، ثم قال: لا حاجة في هـــذا الـــزمان، فسكت من كان عنده، وقال: الحق ظاهر لأهله، قال: أهل الحق لا يرى الباطل، والدنيا عند أهل الحقيقة تبقى في مقام الاعتبار لا مقام الحقيقة.

أرســـل حضرة الشيخ دراهم إلى الفقير في محلته، فقال: إن هذا وقع في قلبي هذه الليلة، فهذا الرزق لها من الوجه الذي لا يحتسب، فهو حلال طيب.

ورأيـــت هـــذا الصباح يوم الإثنين كأني صليت التراويح في جامع كبير على رأس جـــسر عظيم، فخرج حضرة الشيخ من الجامع فتبعته، فلما أخذنا نجرُّ إلى الجسر التفت إليَّ، وقـــال: أنـــا أريد منك أن يكون خدمتك لي كخدمة الأولياء للأنبياء فتفكرت أن الخدمـــة أشق فوجدتها متابعة الشيخ، وذلك؛ لأنه كان من دأب الشيخ أن يصلي التهجد فـــيه ثم يخرج عابرًا الجسر إلى البلدة العظيمة التي كانت مقره، وهي في الرأس الأخير من الجـــسر، فعزمت على أن أتابع حضرة الشيخ في الصلاة والقيام ثم الخروج معه إلى تلك

=

وفي حـــديث أبي مصعب لما سأل مالكًا ﷺ عن السّماع فقال: ما أدري إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا عامي غبي جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع.
وفي حـــديث الأصـــمعي عن عمرو بن أبي زائدة قال: مرّ الشعبي بجارية وهي تقول: فتن الشعبي لما.. فلمّا رأت الشعبي سكتت، فقال لها الشعبي مكملاً: رفع الطرف إليها.
وأخـــبرني فقير قال: كنا بالروم نقيم سبعة أيام نسمع ليلاً ونهارًا ونحن قيام لا نأكل ولا نشرب، ورأيـــت الشيخ أبا الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن ﷺ إذا حضر السماع أو أسمع الشبابة لا يملك نفسه ويتمرّغ في المجلس كلّه، وكان الشيخ ناصر الدين لا يحمّله.
فهـــذا رحمك الله تعالى أقوال السلف وأحوالهم فيه من الصحابة وعزّهم من التابعين وغيرهم من تابـــع التابعين وأقوال الصوفية المتقدمين والمتأخرين، مع ما عضد ذلك من الأحاديث الصحيحة والاعتضاد بالآيات الواردة في القرآن العظيم، فليس لأحد أن يحرم ما حلل الله تعالى ولا يحلل ما حرم الله تعالى، وأعرف فقيرًا كان يتغذى السماع، وربما أقام اليوم والثاني والثالث.
وأمّـــا المأخـــوذون فهم في ذلك على طبقاتهم وقوة خرق سماع قلوبهم يغنيهم ذلك عن الشراب والطعـــام والحـــلال والحرام والنور والظلام والليالي والأيام حتى يردهم إليه ويجمعهم في قربات العارف عليه ويؤنسهم بشواهد تجليه، فلا يرون شيئًا إلا ويرون الله فيه.
فإياك والإنكار على أهل القلوب في السماع ولا سوء الظن عند الأقوال في الاستماع، فإنما أنت بمـــا ملت إليه واعتقدته، فأنت المطلوب عنك بك والمسؤول عمّا فيك لك، والله تعالى عند ظن عـــبده به، فإن يك خيرًا عاد إليك، وإن يك شرًا فلا تلومنّ إلا نفسك. وانظر: الوحيد في سلوك أهل التوحيد (101/2)، بتحقيقنا.

الـــبلدة من ذلك من الجسر، فلما قرب انتهاء الجسر ورؤى البلدة التي وراءه استيقظت، والحمد لله على ما في هذه الرؤيا من بشارة المتابعة التي هي دين الأنبياء والأولياء أجمعين.

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه فقد عرف ربه: صعود.

وقولنا في العكس: من عرف ربه فقد عرف نفسه: نــــزول.

فالأول إشارة إلى حال الفناء، والثاني إلى حال البقاء.

قـــال حـــضرة الشيخ: للمريد أن يتزوج بنت شيخه شريعة وطريقة، وأما نكاح زوجته مطلقة أو متوفىً عنها زوجها؛ فهو وإن كان له مساغ شرعي لكن ليس له مساغ طريقـــي، ولا يجد الناكح ميمنة في ذلك النكاح أصلاً في الدنيا والآخرة ومثله الأستاذ في الصناعة؛ فإن الأستاذ والشيخ هو الأب المعنوي، وقد قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6].

قـــال حـــضرة الشيخ الأكبر – قدس سره – في أواخر «مواقع النجوم»: احترام الـــشيوخ واجب، ومن احترامهم ألا يلبس ثيابهم، ولا يقعد في مكانهم، ولا ينكح المريد امـــرأة شـــيخه إن طلقها أو مات عنها، ولا يرد في وجوههم كلامًا، ويبادر لامتثال ما يقولـــون، ومن احترامهم تعظيم من عظموه، فعظم من عظم شيخك، وتلمذ له إن قدم عليك، وإن كنت أعلم منه؛ فإن الشيخ أعرف بالمصلحة لك منك، ولا يحجبك ما ترى من بعضهم عن تقديم الشيخ له عليك وتهذيبه انتهى.

قـــال حضرة الشيخ: يا إسماعيل، إنك ذبيح، ولا بد في الذبيح من التسليم، وليس لنا حقيقة التسليم لكنا نجتهد إلى الموت، ومن مات في الطريق؛ فقد وصل.

قـــال حـــضرة الشيخ: في هذا الباب شيخ وخادم؛ أما الشيخ فحقه التربية، وأما الخادم فشأنه الخدمة بالصدق والخلوص، ثم قال: إن شيخي أراد مرة أن يرسل واحدًا من المريدين إلى الكرم فاختفى كل واحد منهم كراهة للخدمة، فخرجت من الحجرة؛ فقلت: أرسلوني، فقال شيخي: يا سيدي، إن لك درسًا فيضيع وقتك، فقلت: لو علمت أن جميع العلـــوم تنكشف لي اليوم ما اخترت إلا الخدمة، فاستبشر ودعا لي واستخدمني، فكان ما كان بمقابلة هذا الخلوص والصدق.

قـــال: والرضا لا يدركه إلا من حصل له ثمرته، ثم قال: إن محمدًا دده كان رجلاً معـــتمدًا عليه في أوائل حاله فاستصحبه الشيخ حين خرج إلى الغزو، فلما وصل إلى بلدة صوفية وقع محمد دده في الطمع، فأخذ ليلة سرق دراهم من كيس حضرة الشيخ.

قال حضرة الشيخ: فاطلعت عليه وهو قد ظنَّ أني نائم فأمسك بيده، فخجل، ثم انقطـــع عـــن الشيخ، وتغير حاله، وذلك أن بعض الأمراء كان قد أسرت له بنت، فوعد لمحمد دده حين كان في خدمة الشيخ أن يزوجه بنته أن خلصها الله من الأسر فخلصها الله تعالى وأنجز الأمير وعده لكن ماتت البنت قبل الدخول؛ فلحق محمد دده ببعض القرى، وتغير دينه ودنياه نعوذ بالله، وقد سبق نظيره.

قـــال حـــضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب أن حضرة شيث - عليه السلام - مرض مرة، فأرسل إليه حُورية بطبق من مأكولات الجنة، وزوجها إياه؛ فوُلِدَ، فكان أصل العرب جميعهم.

فقلـــت: هل يقع الازدواج بين أهل الدنيا وأهل الجنة في هذه النشأة كما يقع بين الإنس والجن؟ قال: نعم.

أقـــول: الملائكـــة والحـــور والجن أرواح لطيفة بينها وبين الكثيفة نوع تباعد؛ فالازدواج بين الإنس والجن والحور يحتمل أن يكون بعد التلبس بملابس هذه النشأة كما أن حكومة الملكين هاروت وماروت كذلك.

وأمـــا آدم عليه السلام كـــان يأتي حواء في الجنة، وأن قابيل كان من أولاد الجنة؛ فليس بـــصحيح عندي إلا أن يحمل الجنة، على الجنة الأرضية كما عليه أهل التحقيق إذ الأولاد إنمـــا كانـــوا بعد الهبوط والعلوق للتعارف الذي لا يحتمل النشأة الجنانية، ويدل عليه أن حواء كانت لا تعرف ما المنكر قبل الهبوط كما في روضة الخطبية.

كلف حضرة الشيخ خليفته الشيخ حسين الأزميدي أن يقرأ في محضر شريف ابنه الكبير السيد محمد الجودي الفارسي فتوقف ولم يجسر عليه، وزعم أن النسخة مختبطة، فجرى ما جرى من الكلمات بيننا حتى قال الشيخ متبسمًا: إنكم أشغلتمونا، وكان السيد المذكور يقرأ: «يندعطار» فبدلوا بالنسخة السقيمة المستقيمة، أو «يندعطار بوستان، أو كلدستان» أو غيرهما؛ فقال بعضهم: إن في «يندعطار» يمنًا وبركةً؛ فإن التواتر على أن حضرة الشيخ ابن العطار - قدس سره - دعا لمن ابتدأ الفارسية بكتابة ذلك: أن يكون عارفًا في ذلك اللسان، فقال حضرة الشيخ: بخٍ، بخٍ؛ فقام إلى الحرم، فقال حضرة الشيخ: بعض الناس وقع لي الهيبة فاستولى عليه الخوف، وبعضهم في الأنفس فاستولى عليه الرجاء والاعتدال إلى أن يكون المرء بين الخوف والرجاء لكن الله تعالى يفعل ما يشاء، استأذن بعض الفقراء في الذهاب إلى مكة المكرمة فدعا له بالرشد، وقال له: قل حين خروجك:

﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: 80].

وحين النزول: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29] (1)، وهكذا في كل مرحلة، ثم قال ممثلاً: إن أهل التجريد الصوري

---

(1) قال الشيخ المصنف: قوله: منزلاً مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهو السفينة النوحية ههنا؛ لأن الخطاب لنوح ﷺ، فكانتِ السفينة منزلاً مباركًا له، ولمَن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البَر كان منزلاً غير مبارك لمَن عصاه من المشركين حيث أُغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منزلاً مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا محضًا، وهلاكًا صرفًا.

فكما أن دخول السفينة كان خيرًا محضًا؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكان الأرض أيضًا منزلاً مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾ [هود:44]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها.

والحاصل أن كلاً من السفينة والأرض؛ كان منزلاً مباركًا في وقته؛ لأنه كان فيه نوح المبارك، وما كان مستصحبًا للمبارك؛ كان مباركًا، فنعم المنزل ما سكن فيه الأخيار، ووضع فيه قدمه الأبرار.

ولما كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعوَ نبينا ﷺ هذا الدعاء لنزّله الله المنزَل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكلٌ منهما منزَل مبارك لمَن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلّقًا به تعلّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة.

فكان للروح خير كثير من جهة البدن، كما أنه كان للبدن نفع، وفيه من جهة تأثيرات الروح، ومن ثم كانت أبدان الكُمّل محترمة مباركة طيبة؛ بل ما يتعلّق بها أيضًا من الألبسة بسبب الاتصال، فإذا كان للألبسة والأكيسة شرف زائد بسبب ذلك التعلّق؛ فما ظنك بحال المتعلّق بهما تعلّقًا حقيقيًا.

ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُلّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن

كالذباب يليق بفمه من غير تلطيخ رجليه فتسليم فإذا لطخ رجليه منع الطيران؛ فأهل التجرد يطير إلى حيث شاء كالذباب، قال: قيل للحطاط أرجل؟ فوضع أبرمة على رأسه فرجل، ولو حيل بلا جواب الذي علق بلباس بدنه اخلع لباسك، هان عليه ذلك؛ فإنه تعلق به كالغير.

قال: التجرد الصوري مدار للتجرد المعنوي، وأما قوله: لا يضر التعلق الصوري إذا وجد تعلق المعنوي فسقط من وجه.

ثم قـــال: أنت من أهل الهداية حيث كنت وراء البحر، ونحن من أهل الخبرة حيث كنا هاهنا، والخوف غالب علينا؛ لأن هذه البلدة محل الخطر الآن.

أقول: هذا الكلام صدر منه بحسب المقام فليس له خوف عمًّا سوى الله.

قـــال حضرة الشيخ بعد صلاة العصر مخاطبًا لابنه الكبير السيد محمد الجودي: إن الأب أصل، والابن فرع، والأب فرد، والابن جمع، والأب مظهر يد الله، والأبناء مظاهر الأبـــد والأيدي، وإن كانت في غاية القوة بحسب التظاهر والتجمع لكنها إنما يستفيض القـــوة كأغصان الشجرة من الأصل كما قال الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]؛ فخافـــوا من الأب، فإن الحل والعقد والرد والقبول في يده بالنسبة إلى الأبناء لا في أيديهم أقول هذه الكلمات، وإن جرت بحسب الملاطفة لكنها في نهاية المعنى.

قـــال حـــضرة الشيخ: إن الدنيا دار ناز يعني: من طرف الله، ودار نياز يعني من جانـــبك والجنة دار ناز، فلك ناز، ومن الله نياز يعني: الإنعام والإحسان، والمتوجه إلى جنابك هكذا قال: ناز باللسان الفارسية.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب المعتبرة أن الغزو فرض والحج فرض إذا اجتمعا يرجح الأول، ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36].

=

الصراط المستقيم.

ومـــن المـــنازل العالـــية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنـــزل فيها، وله برزخية جميع الكمـــالات الإنـــسانية، ومَـــن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفات الـــشكوك والظـــنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر. انظر: مرآة الحقائق (ص 290).

قال حضرة الشيخ: ذلة الأنبياء - عليهم السلام - وافتقارهم أشد من غيرهم، فهم الكُمَّل الظاهر في الباب والأعز منهم وأقدرهم أشد خوفًا من الله من غيرهم ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 44]؛ فقال: إنما ينهى عن الخشية من الناس؛ لأنهم صور وأشكال ولا ينبغي الخوف من الصور، وأما الله سبحانه فهو المحرك بتلك الصور فينبغي الخشية منه؛ فإنه إذا أراد أن يوصل البلاء من وجه ذرة وبعوضة، وهو على ما يشاء قدير.

قال حضرة الشيخ: دعاء العبد إنما هو لإظهار العبودية والذل والافتقار والامتثال لأمر الملك الغفار لا لحكم على أحكام الله ومداخلة أمر من أموره؛ فإن الله لا معقب لحكمه، ويفعل ما يريد.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لخليفة الشيخ حسين الأزميدي: إن اللسان شريعة، والجنان حقيقة، والنظر إلى الظاهر في مرتبة الشريعة؛ فمن ادَّعى من أهل بيتك محبة الله ومحبة رسوله وأجرى كلمتي الشهادة على لسانه فاحببه أنت، سواء أحبك أو لا، ومن لم يحب الله ورسوله بل أبغضهما فابغض إليه أنت، سواء أبغضك أم لا؛ فالأول: هو الحب في الله، والثاني: هو البغض لله؛ فمن أحببته لحبك، فهذا هو الحب للنفس لا لله، ومن أبغضته لبغضه لك؛ فهو البغض للنفس لا لله، وكلاهما مذموم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]؛ فالخالص هو الأولان، والمشوب هو الأخيران ثم فرق بين الخالص، والمخلِص بكسر اللام، والمخلَص بفتح اللام ورجح الأول؛ لأنه خالص أصلي بالنظر إلى أنه ثلاثي، والمجرد مقدم على المزيد، وهو المتخلص والمخلص.

ثم قال: صبيان الحقيقة كالخنثى فله ذكورة وأُنوثة، واللائق أن يكون المرء من الرجال لا الخناثي والإناث ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران: 36]، وقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[1] [النساء: 34].

---

(1) قال الشيخ المصنف: اعلم أن الرجال هم الذين قَويت هممهم؛ فاجتهدوا في الله حتى وصلوا إلى الله، سواء كانوا ذُكورًا من حيث الصورة، أو إناثًا؛ ولذا ذكروا النساء العارفات مع الرجال العارفين، وعبَّروا عن الأبدال الأربعين بالنفوس لا بالرجال، لما أن بعضهم من النساء، وأن النساء هم الذين ضعفت هممهم فتقاعدوا حتى لم يصلوا إلى الله سواء كانوا ذكورًا أيضًا من حيث الصورة أو إناثًا.

ولذا جعلوا للكرامات الكونية حيض الرجال؛ فجعلوهم من حيث تقيدهم بتلك المرتبة في حكم =

النساء؛ ولذا أسندوا إليهم ما أُسند إلى النساء من الحيض؛ فظهر إن المراد بالرجال هم الكاملون أيًا كانوا من النفوس البشرية الفاصلة، وإن المراد بالنساء هم الناقصون أيًا كانوا من النفوس البشرية المفضولة، فإن الأولين جمعوا بين الصورة والمعنى؛ فكانوا إنسانًا حقيقيًا أحياءً ظاهرًا وباطنًا، وإن الآخرين لم يتجاوزوا عن الصورة؛ فكانوا إنسانًا حيوانيًا أحياءً صورةً وأمواتًا معنى، فكما أن الحيوان جزء من عالم الصورة، وأن الميت صورة الإنسان لا حقيقته، فكذا الناقصون، وكمال الإنسان إنما هو بالخلافة؛ لأنها هي الميراث من آدم عليه السلام.

وإنما تقوم الخلافة بعلم الأسماء أولاً كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ [البقرة:31]، ثم بالوصول إلى حقائق المسميات، ثم بالترقي إلى حقيقة الحقائق التي هي المسمى الحقيقي بأن يكون ظاهرًا بأسمائه الحسنى، ومتجليًا بصفاته العليا، ومتحققًا بحقائقه المثلى، فإن الخليفة لا بد وأن يكون على صورة المستخلف؛ كالوزير مع السلطان، وإليه الإشارة بقولة مَن قال: من أكبر أكابر الرجال سبحان مَن أظهر الأشياء وهو عينها يعني: أظهر آدم وهو عين صورة الحق في الظهور بالحقائق.

ولذا قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»: أي على صورته الحقيقية إذ لا صورة لله تعالى إلا من حيث تنزُّلاته واسترسالاته، وكذا أظهر الوزير وهو عين السلطان في رتبته وحكمه وظهوره، وذُلَّ هنا قدم مَن قال: كيف يكون الحق عين الأشياء، وهو من حيث وجوب وجوده، والأشياء من حيث إنها حقائق وماهيات ممكنة؟.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213]. فالشمس شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممروض.

والحاصل: إن الكمال الحقيقي إنما هو بالوصول إلى مقام الخلافة والنبوة، وليس ذلك إلا للرجال من النساء دون النساء، فكمالهن كمال إضافي: أي بالنسبة إلى سائر النساء؛ ولذا لم يقل أحد من أرباب الحقائق: بخلافة النساء ونبوتهن؛ لأن الله تعالى لمَّا جعل الرجال قوَّامين على النساء ببعض الوجوه في مرتبة الشريعة؛ اقتضت الحكمة الإلهية أن يكونوا قوَّامين أيضًا عليهم في مرتبة الحقيقة، وذلك لا ينافي كمالهن الإضافي.

وقد أشار إلى ذلك معنى الآية، فإن ما به التفضيل اثنان: الأول: موهبي؛ وهو الكمال اللائق بالرجال، والثاني: كسبي؛ وهو الإنفاق من المال، إذ لا شك أن المتفق عليه يكون من عيال المتفق وجزئياته، والجزء: إنما يقوم بالكل، فالكل قائم عليه قيام آدم على الضلع اليسرى، ثم على حواء؛ لأن حواء كانت ضلعًا من أضلاع آدم، ولمَّا سوَّاها الله تعالى حواء تسوية النجار الخشب لم يكن هناك إلا تبدُّل الصورة، فكان آدم قائمًا عليها على كل حال.

ألا ترى أن الروح بمنزلة الزوج، والنفس منزلة الزوجة، والقوى الخارجة والداخلة بمنزلة الأولاد، والقائم عليها هو الروح دائمًا، إذ لو فارق الجسد؛ لتعطلت وبطلت جميعًا، فهو المنفق عليها، والمقيض، وأيضًا إنها بمنزلة الأموال الميل الروح إليه في أوائل حاله، ثم إن ينفقها أيضًا:

أي كمـــا ينفق عليها، فيغني عن الكل، ويبقى حقائقها مندرجة في مرتبة الروح، فكما أن الروح هو قيُّوم الوجود الأنفسي؛ فكذا الرجل الكامل هو قيُّوم الوجود الآفاقي، والكل كأنه من أجزائه، ولكمـــال الرتبة في الرجل؛ كانت مريم عليها السلام مع كونها صديقة تصوم يومين، وتفطر يومًا واحدًا بخلاف داود عليه السلام فإنه كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا.

وبهذا ظهر إن مرتبة الخلافة إنما هي للرجال، وكذا النبوة العرفية، فإن باب النبوة التحقيقية مفتوح للرجال، والنساء جميعًا، وكذا بقوله ﷺ: **«خذوا ثلثي دينكم من عائشة»**.

حـيث لم يقـل: كمـــال دينكم؛ لأن كمال الدين إنما هو للرجال، وأمَّا النساء فناقصات العقل والدين، وكانت مرتباتهنّ الثلاث من الدين لكن لمّا كانت عائشة رضي الله عنها من سائر النساء بمنـــزلة الذكر من الأنثى؛ كان لها مثل حظ الأُنثيين.

فـــإن قلت: إن النبي ﷺ شهد بكمال أربع من النساء: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة رضي الله عـــنهن، وأيضًا إن قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] يقتضي أن تدخل النساء في حمل الأمانة الكبرى، قلت: المراد بالكمال المذكور هو: الكمال الإضافي، فهن لا كمال فوق كمالهن بالنسبة إلى سائر النساء.

ولـــذا كانت كل واحدة منهن من متعلّقات النبي الأكمل الذي هو نبينا ﷺ؛ لأن فاطمة رضي الله عنها بضعة منه، وخديجة رضي الله عنها زوجته في الدنيا والآخرة، ومريم وآسية رضي الله عنهما زوجـــتاه في الآخـــرة على ما شهدت به الأخبار،؛ ولهذا قال ﷺ: **«أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة»**؛ فكانت فاطمة من أمهات المؤمنين إلى يوم القيامة فاعرف الإشارة.

وأمَّـــا المـــراد بالإنـــسان فهو: آدم عليه السلام أصالة؛ لأنه هو الذي حمل الأمانة الكبرى أولاً، وأخذ الفـــيض من الله تعالى بلا واسطة، وقد سبق أن حواء كانت ضلعًا من أضلاعه؛ فكان حملها تابعًا لحمله.

والحاصـــل أن آدم هـــو الحمَّال معنى، وأمَّا حواء فهي الحاملة صورة؛ ولذا لم تزل النساء حوامل الـــرجال؛ فهـــن المحمول فيهن في الحقيقة لا الحوامل، فتفطن لذلك فظهر أن الإنسان المطلق هم الرجال، وأمَّا النساء فمن لواحقه وتوابعه وأجزائه؛ كالملائكة والجن وغيرهم.

ثم إن هـــذا بيان المراتب كل من الفريقين، وإياك وسوء الفهم، فكل أهل كمال من أهل الجمال مطلقًا، كما أن كل أهل نقصان من أهل الجلال مطلقًا.

ثم اعلـــم أن النساء أمهات، والأزواج آباء، فقد يكون الولد خيرًا منها نظيره في الأفاق هو النبي ﷺ؛ لأنـــه خير من آدم وحواء ومن سائرهما جميعًا؛ لتحققه بالجمعية الكبرى، وظهوره بالمرتبة العليا، ولا حاجة إلى بيانه في هذا المحل، فالتقدُّم والتأخُّر لا يمشيان في هذا الباب.

وإنما يجري الظهور بالخلافة العظمى، ونظيره في الأنفس هو القلب؛ فإنه خير من الروح في نهاية سلوكه، وإن كان الروح خيرًا منه في البداية؛ فالقلب هو خليفة الله في أرض الوجود الأنفسي، أو بكمالـــه الحقيقي صار مَن صار خليفة في أرض الوجود الآفاقي أيضًا؛ بمعنى أنه كان مدادًا لبقاء

وقـــوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، وبعد بسط كثير الكلام[1].

العـــوالم بصورتها ومعناها بخلاف الملوك والسلاطين؛ فإن قطبيتهم إنما هي لصورة العالم إلا أن يكونـــوا مـــن الخلفـــاء؛ كالخلفاء الاثنى عشر الذين أخرجهم المهدي المنتظر ﷺ، فالخلفاء ذوو الظل، والملوك الظل.

ولـــذا قال ﷺ: «السلطان ظل الله»: أي ظل الحقيقة الإلهية؛ كالصورة المرئية في المرء، ولا شك أن الظـــل تابع لذي الظل، ومن ثم لم يفلح من السلاطين أحد إلا مَن بايع الخليفة فهم المبايعون فاعرف.

ثم قـــد يكـــون النساء من الأقوياء؛ ولكن قوتهن لا تقتضي الخلافة؛ وإنما يقتضيها الضعف، أمَّا الأول: فـــلأن درجـــة الأنوثة، وإن كانت نصف الحقيقة في الظاهر؛ لكن قوة الأنوثة قوة مرتبة الجلال.

ولمَّـــا كـــان الجـــلال أغلب وأقهر قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:4]؛ حيث قابل مظاهرة عائشة وحفصة بمظاهرة هؤلاء؛ ولكن هي في الحقيقة مظاهرة الجلال بالجمال، كما لا يخفى على أولي الألباب.

فـــإن الهُويَّة، والروح، والقوى الروحانية الجمالية لا شدة فيها؛ وإنما الشدة في الصفات النفسانية، ولا شـــك أن آدم بمنـــــزلة الذات، وحواء بمنـــزلة الصفات؛ فهو منها بمنـــزلة النور من النار، وأيـــن الـــنور من النار في الشدة؟ فالنساء مظاهر الصفات الجمالية في الصورة، ومظاهر الصفات الجلالية في المعنى؛ ولذا كن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

وأمَّـــا الثاني: فإن المراد بالضعف هو الضعف الروحاني الذي به ينكسر سورة الصفات الإنسانية، ويستعذبه الإنسان للخلافة كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28].

وقد سبق أن المراد بالإنسان هو آدم أصالة، وحواء تبعية.

فإن قلت: فقد اندرجت حواء في الضعف، فهي ضعيفة.

قلت: قد يكون بعض القوى قوية، كما أُشير إليه آنفًا؛ فحواء من هذا القبيل.

والحاصـــل أن العلويين علويون صورة، وسفليون معنى، وإن السفليين سفليون صورة، وعلويون معـــنى؛ كالتـــراب فإنه أعلى الحقائق؛ ولذا أُخذ آدم منه؛ فكان أعلى فيه صورة الكل، وإن حواء أُخذت من الأعلى؛ لكن لمَّا كانت من الضلع القصير فصارت درجتها عن درجة آدم في الحقيقة، وحكمـــت عليه في الظاهر؛ لأن الضلع قوة متينة، وكان انحناء آدم وحنوه أشد من انحناء حواء حـــنوها في الـــصورة، وبالعكس في المعنى، والله أعلم بالحقائق والعلوم، ومنه جلاء كل معقول ومعلوم. انظر: مرآة الحقائق (ص 131).

(1) قال الشيخ المصنف في تفسير هذه الآية ما نصه: «فإنه صريح في جريان التمني بين فريقي الرجال والنساء، والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده،

قال حضرة الشيخ: هذه الكلمات ببالي وقت السلام الصلاتي، فأردت أن أخاطبك بها يعني هذا الفقير ثم صرفت العنان إلى الشيخ حسين، أقول ذلك؛ لأن الشيخ حسين كان ضجورًا متنفرًا من أهل بلدته إزميد، فأراد حضرة الشيخ تربيته بهذه الكلمات فخاطبه، وكان الشيخ حسين مهمومًا من حيث إن واحدًا من أتباعه كان ذهب إلى مدينة أدرنه لمصلحة له مهمة فعند تكلم الكلمات ورد البشير والورق بأن المصلحة قد تمت، فاستبشر حضرة الشيخ والحاضرون، فقرأ حُسين أفندي قوله تعالى: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

=

وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره، فإن ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور {واسألوا الله من فضله} اى لا تتمنوا ما يختص بغيركم {إن الله كان بكل شيء عليمًا} فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان، ففضله عن علم وحكمة وتبيان.

وفى الحديث «لن يزال الناس بخير ما تباينوا» أي: تفاوتوا «فإذا تساووا هلكوا» وذلك لاختلال النظام المرتبط بذلك. وقد يقال معناه أنه لا يغتم لتفاوت الناس في المراتب والصنائع بأن يكون مثلاً بعضهم أميرًا وبعضهم سلطانًا وبعضهم وزيرًا وبعضهم رئيسًا وبعضهم أهل الصنائع لتوقف النظام عليه.

واعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية كالذكاء التام والحدس الكامل والمعارف الزائدة على معارف الغير بالكمية والكيفية كالعفة والشجاعة وغير ذلك، وإما بدنية كالصحة والجمال والعمر الطويل فى ذلك مع اللذة والبهجة، وإما خارجية ككثرة الأولاد الصلحاء وكثرة العشائر وكثرة الأصدقاء والأعوان والرياسة التامة ونفاذ القول وكونه محبوبًا لقلوب الناس حسن الذكر فيهم فهي مجامع السعادات، والإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل حاصلة لإنسان ووجد نفسه خاليًا عن جملتها أو عن أكثرها، فحينئذ يتألم قلبه ويتشوش خاطره، ثم يعرض هاهنا حالتان إحداهما أن يتمنى زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان، والأخرى ألا يتمنى ذلك بل يتمنى حصول مثلها له والأول هو الحسد المذموم، لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه، والإحسان إلى عبيده والجود إليهم وإفاضة أنواع الكرم عليهم فمن تمنى زوال ذلك فكأنه اعترض على الله فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين وأيضًا ربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الإنسان فيكون هذا اعتراضا على الله وقدحا في حكمته وكل ذلك مما يلقيه في الكفر وظلمات البدعة ويزيل عن قلبه نور الإيمان وكما أن الحسد سبب الفساد في الدين فكذلك هو سبب الفساد في الدنيا، فإنه يقطع المودة والمحبة والموالاة وينقلب كل ذلك إلى أضدادها فلهذا السبب نهى الله عباده عنه بقوله {ولا تتمنوا} الآية فلا بد لكل عاقل من الرضا بقضاء الله تعالى. كما في روح البيان (453/2).

لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:40].

وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58].

قال: تمت مصلحتك ولو لم تكن مهمومًا لها تجده خيرًا لك؛ فإن الأمر بيد الله، وتدبير النفس لا يغني شيئًا وما تعده عسيرًا فهو يسيرٌ بالنسبة إلى الله تعالى، بل العسر واليسر بالنسبة إلى العبد واللازم على العبد تفويض الأمر إلى الله تعالى فلو أدخله في الجحيم ينبغي أن يعدها نعمة؛ لأنه بصنع الله الذي هو المبتلي لا بصنع الغير.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]: من جهة المال في مرتبة الشريعة كذلك من جهة العلم في مرتبة الحقيقة؛ لأن الذكر الحقيقي هو أهل الحقيقة الوارثون لعلم الظاهر والباطن والأنثى الحقيقية هي الشريعة الوارثون لعلم الظاهر فقط فالرجال حقيقتهم الذكورة وإن كانوا في صورة الإناث كمريم وآسيه وفاطمة وخديجة - رضي الله عنهن - ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12] حيث لم يقل: من القانتات إشارة إلى بلوغ مريم مبلغ الرجال.

ثم قال: إن الله يفتح لبعض الأولياء من العلم اللدني ما لم يفتحه للأنبياء، ولكن لا يلزم من ذلك كون الولي أفضل من النبي؛ لأن كماله كمال من وجه دون جميع الوجوه، ولا يوجب إلى ذكر عائشة - رضي الله عنها، وكلام الشيخ الأكبر - قدس سره - في حقها، وفي حق سائر الصحابة - رضي الله عنهم - فقال: إن الشيخ مأذون في الكلام في حق الكُمَّل أنبياء أو أولياء، وليس لغيره ذلك الإذن.

قال حضرة الشيخ: عالم الدنيا خيال بالنسبة إلى عالم الآخرة، وهو أيضًا خيال بالنسبة إلى عالم الأمر؛ فاليقظة في الدنيا نسبية وكذلك في العقبى واليقظة الحقيقية وراء ذلك، وإنما قيل: لعالم العقبى عالم اليقظة من حيث إنه ناظر إلى عالم الأبد باق كبقاء الأرواح وإلا فالإمكان لا يزول، وإن كان المرء في الجنة.

قال حضرة الشيخ: ليس لله تعالى ند ونظير إذ هو عين واحدة وشيء واحد، ولا وجود للأعيان والأشياء والأعيان، وإن كانت متضادة من حيث التعينات لكن ليس بين التعين والتعيين ضدية كالموصوف له أوصاف يضاد بعضها بعضًا لكن لا تضاد بينها وبين الموصوف فإذا لم يكن في الوجود سواه تعالى فيكف يوجد له نظير وند، ثم قرأ قوله

تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:54] أي: لقاء العين بالمتعين وغافلين عن ذلك، ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] لأن صور الموجودات تعيناته تعالى لا تعينات الغير نسأل الله اليقظة والشهود والوصول إلى معرفة وحدة الوجود، أقول: هذا المعنى قد انكشف لي سابقًا فعرفت به بطلان قول من قال: إن الله عالم بالكليات لا بالجزئيات، وذلك لأن الآثار المختلفة مستندة إلى التعينات، وهي ملاقية بالتعين الذي هو الفاعل الحقيقي فلا يعزب عن دائرة علمه وإحاطته تعالى مثقال ذرة في السماوات والأرض، فكما أن الله يعلم ذاته فكذا صفاته المتجلية بها في صور الموجودات مطلقًا وأفعاله الصادرة عنها في كل زمان وهو كل يوم في شأن، وهذا مذاق معنوي عياني لا مدرك عقلي برهاني، ومن هنا يعرف وجه كمال هيبة الأنبياء والأولياء وخشيتهم من جلال الله تعالى ولو في صورة الفطرة والذرة إذ هي كالبحر وكالشمس مجلي ومظهر لسانه من الشؤون الإلهية، فلذا كانت مراقبتهم دائمة باقية، ثم إنه لا بد للسالك من الله بين هذا الموجود الساري فيه لئلا يرد وما هو أخس المظاهر الكونية مع أنه قيل لا تنكر البال في طوره؛ فإنه بعض ظهوراته فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام.

فرق حضرة الشيخ بين الكسب وبين أكل الوظيفة المتعينة، فرجح الأول على الثاني؛ لأن الأول يقول حين تعوده في حانوته مثلاً: يا رب أرسل إليَّ من يشتري متاعي، فيذكر الله دون غيره.

وأما أهل الوظيفة فيعدون الأيام، ويعمدون على ما عين لهم من المال، ولا يتكلمون على فضل الله الملك المتعالي.

قال: رأيت في «شرح المناسك» للشيخ على الفناري أنه قال: ارتحل أهل الله من الحرمين منذ ظهرت صلاة السلاطين للفقراء السالكين حينما صلى حضرة الشيخ صلاة المغرب والأوابين ليلة المعراج من سنة إحدى ومائة وألف؛ فقال مقبلاً على الأتباع: ليجعل الله ليلتكم هذه مباركة عليكم فرددناه بما قال، وقال: أوصلنا الله إلى سرِّ المعراج، وهل تدرون ما سره؟ مثلاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: 8 - 9].

وقال: قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إشارة إلى العروج والوصول ليلة المعراج، وقوله: ﴿فَتَدَلَّى﴾ إشارة إلى النزول والرجوع.

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ بمنزلة النتيجة إشارة إلى الوصول إلى العالم المشار

إليه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2].

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ إشارة إلى الوصول إلى عالم الذات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، وذلك في سورة الإخلاص.

ثم قال: هذا المعراج كان في الليلة دون النهار؛ لأن الليل سر الفناء كما أن النهار سر البقاء، وكان أيضًا في صورة الصعود والهبوط؛ لأنه وقع بالجسم والروح معًا، ثم فصَّل وقال: المعراج إما بالجسم والروح معًا، أو بالروح والعلم، والأول مخصوص بالنبي ﷺ؛ فإنه عرج بروحه ثلاثًا وثلاثين مرة، وبجسمه وروحه مرة، والثاني يوجد في الأولياء أيضًا إلا الضعفاء؛ فإنهم يعرجون في المنام والأقوياء في اليقظة حال الانسلاخ التام، ومنهم من لا ينفك عن المعراج كل لحظة، وذلك بالعلم الإلهي الكلي؛ فإنه تعالى يكاشف عن أسرار آياته الأنفسية والآفاقية؛ فيريها له كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، والرائي في المعراج الروحاني عين البصيرة لا عين البصر فإن للكاملين عينين ظاهرة وباطنة فيرى بالظاهرة عالم الملك والشهادة ويعطي بها ما يستحقه ويرى بالباطنة عالم الملكوت والغيب ويعطي بها حقه أيضًا مثلاً ينظر إلى أهل الظاهر بالعين الظاهرة ويعاملهم بما يناسب حالهم، وينظر إلى أهل الباطن بالعين الباطنة ويجاملهم بما يناسب بحالهم فلا يحجب بواحدة منها عن الأخرى كما احتجب أهل الظاهر عن رؤية أهل الحقيقة؛ لأنه ليس له العين الباطنة، وأهل الباطن احتجوا عن رؤية أهل الظاهر؛ لأنه ليس له العين الظاهرة أي: النظر الكامل بمرتبتها والكمال فإن صاحبه ينفق على كل واحد من الفريقين حقه.

ثم قال: المرء إما واصل، وإما غير واصل إلى هذه الأسرار.

أما الواصل فلا كلام فيه.

وأما غير الواصل؛ فإن كانت عزيمته على عدم الانقطاع من المجاهدة إلى الموت فذلك كالواصل؛ لأنه في طريق الوصول.

ثم قال: الصلاة إما لأجل الثواب أو لله تعالى فما كان للثواب لا يكون لله تعالى، وصاحبه أجير، وما كان لله فصاحبه عبد حق وأجره أوفر وأكثر[1].

---

(1) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: فللنفس في منازلها الطورية صلاة تختص بكل منزل منها سفلي وعلوي، ملكي وملكوتي، جسماني وروحاني، ظلماني ونوراني، فللجسم صلاة في طوره

الجسماني، وللنفس صلاة في طورها النفساني، وللصدر صلاة في طوره الجبروتي، وللقلب صلاة في طوره الملكوتي، وللروح صلاة في طورها الروحاني، وللسر صلاة في طوره النوراني، وللفؤاد صلاة في طوره الرضواني، فصلاة الجسم تشتمل على أوصاف من القيام، منتصبًا متوجهًا نحو الكعبة حيثما كان، في بقعة من بقاع الأرض رافعًا يديه في تكبيرة الإحرام، محركًا لسانه بدراسة القرآن، راكعًا رافعًا ساجدًا جالسًا آتيًا بصفات الصلاة الشرعية، ظاهرًا كما صلى رسول الله ﷺ في ظاهر الأمر الصلاة المشروعة التي أمر بالإتيان بها ظاهرًا، فقال ﷺ: «**صلّوا كمَا رأيتموني أصلّي**[1]»، فتلك صلاة الأجساد المكتفى بها في ظاهر الشرع، وأما صلاة النفوس فهي أن تضم لما وصفناه من أفعال الجسم، قراءة ما تيسر من القرآن بعد الإتيان بالفاتحة؛ إذ لا تصح الصلاة إلا بها على رأي أكثر الأئمة الراشدين، كالإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وعامة علماء الدين رضي الله عنهم أجمعين، وينطق بالتكبير قبل القراءة وبعدها في كل أفعال الصلاة من الركوع والرفع منه، والسجود والرفع منه، والقيام، وإن تكرَّر منه ذلك، والتسبيح، والتحميد، والتمجيد، والدعاء، والتحيات بكمالها، والتشهُّد، والصلاة على رسول الله ﷺ فيه، وضم الصلاة على آله؛ للصلاة عليه في التشهُّد الأخير، والنطق بالسلام على أهل اليمين عند الخروج من الصلاة، والسلام على ملائكة اليسار مع المحافظة على إخراج الحروف في تلاوة القرآن؛ إذ ذاك شرطٌ في صحة الصلاة المشروعة، فإذا أتى بجميع ما ذكرناه فقد أدى صلاة النفس مع صلاة الجسم، وأما صلاة الصدر فهي التهيؤ للتسوية والتعديل للانشراح لقبول الواردات، والخروج عن وصفيْ الضيق والحرج، فيضم لما وصفناه من صلاتي الجسم والنفس الانشراح والانبساط، والاستسلام لحقيقة الإسلام، وتلقي أنواره، وقبول وارداته، فيقوم بنشاط في التوجُّه والبسط لصلاته، فيرتل القرآن ترتيلاً، ويتفهَّم ما يتفوَّه به من التنزيل، وما ينطق به من التكبير[1] والذِّكر والتسبيح والتحميد، فهو بأفعاله في صلاته سالك منهاجه بنورٍ من ربِّه، فلا يضل في طريقه، ولا ينسى القيام بواجب حقه، فثمرة صلاته الانشراح بعد الحرج، والضيق والانبساط بعد الحصر في الفج العميق.

وأما صلاة القلب فهو أن يضم لما وصفناه من الصلوات الثلاث:

حضور النية عند الدخول في الصلاة، ولزوم الأدب، والخضوع، والخشوع، والخوف، والخشية، والتذلل، والتواضع، والتصاغر، والتضاؤل، ولزوم الحضور في جميع الصلاة، وألا يلتفت فيها يمينًا ولا شمالاً، وأن يعلم من يناجي في صلاته، فيضيف لما وصفناه في قراءته تدبُّر القرآن، فيتدبره بعد ترتيله، فإذا مرَّت به آية فيها تخويف تواضع وتذلل وتصاغر وأناب واستغفر ونوى التوبة عن ذنبه، واعتذر لربه، وأقلع عنه، وأذل نفسه واستحقرها، وقمع أوصاف الكبرياء، والعجب والدعوى، والتعزز والخيلاء، وفرغ محله من السوى، وامتثل ما ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام، كقوله على لسان داود النبي عليه السلام:

«**يا داود فرِّغ لي بيتًا أسكنه**» وأن الحق تبارك وتعالى أراد بذلك: فرِّغ قلبك من سواي

وملاحظة غيري.

وقول النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

والقلوب أوعية فأتقاها أوعاها للخير، فإذا صلّى القلب هذه الصلاة تنزلت عليه لطائف الأنوار، وتنزلت عليه السكينة، ولبسه الوقار، وكتب فيه سطر الإيمان، واستوى وتعدل لقبول واردات الإحسان، واستغرقته الأنوار الإيمانية، وأشرقت عليه إضاءات الروحانية، وسرى في الملكيات، وعرج في درج الملكوتيات، وأفاق بعد صعقه لسماع كلام رب الأرضين والسموات، فتشرق أنواره على المصلين دونه، فيكسون حلل أنوار جلال وهيبة وكمال، فهم المنعوتون في كتاب الله العزيز بالشهداء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:19].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد:12].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69].

فالصالحون هم المسلمون، والشهداء هم المؤمنون، والصديقون هم المحسنون، فهذه صلاة القلوب.

وأما صلاة الروح فهو أن تضم لما وصفناه من صلوات الحقائق الثلاث.

وهم: القلب، والصدر، والنفس، خارجًا عن صلاة الجسم؛ فإن صلاة الجسم مشهودة للأبصار بخلاف الحقائق الثلاث، فصلاة الروح انضمام الفرح والسرور بقدوم أوقات أداء الفرائض؛ إذ هي أوقات التجليات والتنزلات، وإعلان الداعي بالبشرى، والتهيؤ للحضور للمخاطبات والمكالمات والمناجاة، والتفكُّر بعد التدبُّر في أسرار الآيات المنزلات، والتسوية والتعديل لنفحة الرحمانيات، والخروج من حصر التعلقات بنيل الجزاء والثواب، وحلول الدرجات، وتلقّي الإفاضات الرحموتيات بلطائف العلوم الكشفيات، والفهوم الغيبيات، والتنعُّم في رياض الجنات، فيلبس حللاً رضوانيات، ويرقى معاريجَ قدسيات، ويتوّج تيجانًا ربانيات، ويحل بمقعد الصدق، ويشرف بمكالمة الحق، ويشهد جمال حضرة الربوبية، ويتمحَّض بصفة العبودية، فكلما تلا في صلاته آية وتفكُّر فيها وتفهَّم معانيها عرج روحه النوراني إلى أفقٍ أعلى، ومقامٍ أسنى، ومشهدٍ أضوأ، ومقعد صدق أزكى وأبهى، فيرى في معراجه ذلك أنه بلغ سدرة المنتهى، وإلى مقام أعلى من ذلك الأفق الأعلى، فعند انتهائه في نظره وبلوغه في استيفاء رزقه في مرامي فكره تنفهق عليه أنوار الآية التي تلي الآية التي قرأها، وتفكر فيها وتبحُّرها، فيرى ما لم يكن رأى، ويشهد ما لم يكن لَه بمرأى، فيرجع ببصر بصيرته خاسئًا حاسرًا، فعند رجوع بصره كرة ثانية يكشف لَه عن سر معراج الآية الثالثة، فيشهد من انفهاق الأنوار الرحموتية، والأسرار الرهبوتية، ما لم يكن في وسع الصفة البشرية حمل جزئه فضلاً عن كله، فيفجأ نظره انفهاق الأنوار، ولطائف الأسرار،

=

فيستغفر الله ﷻ مما كان وقف عند ظنه، وبلغ حده فهمه ووهمه، ووقر في باطنه أنه الغاية القصوى في ذلك المقام، والنهاية في دار السلام، ومحل الأمان والإكرام، فإذا استغرق المصلي في حقيقة هذه الصلاة الروحانية، والحقيقة الرضوانية، واستوفى ما قدر له، وقسم من الرزق الروحاني في المقام الرضواني والطور السنوراني كملت صلاته الروحية، وفاضت عليه أنوار المقامات الصديقية، وهو مقام الإحسان، فعند ذلك ينتهي في معراجه الروحاني، ومنتهى مقامه الرضواني.

وأما صلاة السر فهي أن تضم لما وصفناه من صلوات العوالم الطورية، واللطائف الظهارية والبطانية دوام المراقبة والحضور للمشاهدة والمخاطبة، فلا تلحقه غفلة، ولا تمسه لفتة، ولا يتعلّق بعلاقة روحانية، ولا ملكوتية، ولا جبروتية، ولا نفسانية، ولا جسمانية، فيكون دائمًا على صلاته، ذاكرًا لله ﷻ في خلواته وجلواته، قائمًا بمأموراته ومنهياته، مستغرقًا في فكر الآية ونعمائه، حامدًا لله تعالى بجميع محامده ومبتغياته، طالبًا منه نوال عطائه وإفضاله، وتنزلات إفاضات رحموتياته، طالبًا للفتح المبين في فهم أسرار آياته، مشاهدًا تصاريف القدرة الربّانية في براياه ومخلوقاته، مستغرقًا في فهم أسرار ملكوتياته وروحانياته، كاشفًا، ينزل الأعمال على لطائف جوارح العباد، وعجائب صنعته في مبتدعاته، ملاحظًا تصريف المشيئة الربّانية في اللطائف السمائية، والحقائق النورانية، وتنزل الأملاك العلوية النورية بإرسال الغيث بالقطر النازل، وافتراق قطراته، وحكمة الحق تبارك وتعالى في إحياء الأرض الميتة بوروده في وقت الحاجة، وكفه عند الاستغناء عنه، وإرسال الرياح بين يديه مبشرات بتنزل الغيث، وسوق الماء في البحار والأنهار إلى الأرض الجرز، وما تخرجه من النبات والأقوات، والفواكه المختلفة الطعوم والألوان، وما تشتمل عليه من النفع والضر للحيوان والإنسان، وما يكون منها غذاء لأهل الجنان ولأهل النيران، وما لا يدخل تحت حصر حيطة علم إنسان، ولا ملك ولا جان، ولا يطيق حمل معرفته الثقلان، فسبحان الملك العظيم الشأن، فإذا صلى السر هذه الصلاة الطورية، وقام بها في السرية والجهرية نال مقام العرفان، وشهد محل الرضوان، وكان للأنبياء والرُسل من خواص الأتباع المحبين الإخوان، تلو العلماء المصطفين من عباد الله المتقين.

فهذه لطيفة من أبعاض صلاة الأسرار، فمن صلّى سره هذه الصلاة المرضية، وقام بحقيقة هذه الأوصاف السنية، وبلغ بفهمه الثاقب، ودركه الصائب، ونوره الساطع، وحسامه القاطع إلى أفق هذا المقام العلي، وسنا برقه البهي، فوقف على باب الرحمة طالبًا إفاضات الفضل الإلهي، والرحمة الربّانية، سائلاً ربه العفو والغفران، والإعانة على الخروج عن التعلّق بحبال الجزاء والثواب، والالتفات لنعيم الجنان ودار الرضوان، فإذا تأدّت هذه الصلاة بكمالها من أقوالها وأفعالها وأحوالها انهالت عليه إضاءات الأنوار الرحمانية البطانية للطور السابع، بعد ختم صلوات العوالم الست، فيبدأ العالم السابع بإتيان صلاته وتمحضه بالخروج عن مقاماته وغاياته، فيرقى في معاريجه الإخفائية، والأفئدة الاصطفائية الاختصاصية، برئًا من حوله وقوته، مجردًا من أثواب إنيته، ممحوًا رسمه واسمه بين العالمين، حاضرًا بحقيقة الافتقار لأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، متابعًا للقدم

=

ثم قال: أيكم يؤم لنا ويصلى بنا صلاة التسابيح بعد العشاء، وقد قال قبل يوم: أيكم يصلي بنا ليلة المعراج صلاة التسابيح؟ وكنت قد اعتذرت بالزكام فاختاروا هذا الفقير فصليت بهم تلك الصلاة على الرواية الراجحة، وهي التي ليست فيها جلسة الاستراحة بعد السجدة الثانية من الركعة الأولى، والحمد لله تعالى.

ذكر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين الإزميدي؛ فقال: إنه قد دخله الشك في أمر الرزق والتردد والإنكار في الاعتقاد، ولكن يلزم للمريد الطاعة لأمر الشيخ والثبات في الأرض التي استخلفه فيها؛ فإن الشيخ من أولى الأمر للمريد، ولا بد من المتابعة للقضاء والاقتفاء والتسليم ولا يكون القضاء تابعًا له، والمريد من لا إرادة له والمؤيد من عند الله تعالى، وإن وقع اضطراب من جهة النفس في بعض الأحيان كما يقع لأرباب النفوس البشري لكنه لا يستقر عليه بل يتحول إلى السكون والأنس وهذا غير مضطر في طريقه لقبوله الزوال، وإنما ذلك تربية له، ثم تلا قوله تعالى على هذا التأويل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: بالله عما سوى الله ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف: 201] إما بحسب الدنيا أو بحسب العقبى، والشيطان، والنفس، والحلال أمر واحد في الحقيقة، لكن الأول بحسب الشريعة.

والثاني بحسب الطريقة.

والثالث بحسب الحقيقة إذ لكل مقام عبادة مخصوصة به ولا بدّ من الاعتبار، فنصوا بحسب الظاهر إذ لا تردد في اعتقاده فقد تمسك ما تمسك باعتبار أنه حق وصدق واقع بخلاف التردد؛ فإنه مذبذب وليس ذلك إلا بمقتضى استعداده، ثم أخبر عن نفسه فقال:

= النبوي المحمدي، موافقًا مرافقًا للطيف الأحمدي، عاريًا من كسوة الأغيار، لابسًا حلل الأنوار، غريقًا في بحر الوحدانية، مستهلكًا في زمان الفردانية، معدومًا للأكوان، مشهودًا للرحمن، مسوًّى معدلاً لقبول فيض التنزلات الربّانية، والانفهاقات الرحمانية، ثابتًا تحت أحكام الأقدار، فقيرًا من جميع الأغيار، حاضرًا بالله مع الله، شاهدًا لله بالله، سامعًا كلام الله بالله، تاليًا للقرآن بالله، عالمًا بالله، كاشفًا بالله، ذاكرًا لله بالله، مصطلمًا في نور الله، آخذًا بكله كلا من الله، فلا يرى سوى الله، ولا يفوه إلا بالله، ولا يشهد في الكون إلا الله، ولا يرى ضرًّا ونفعًا إلا من الله، ولا قبضًا وبسطًا إلا من الله، ولا ظهورًا وبطونًا إلا لله، ففي صحوه يشهد الله وهو بمقام العبودية، واضعًا قدمه على أثر القدم المحمدي، والنعت الأحمدي، سامعًا كلام الربوبية بحقيقة العبدانية، فَأَرَتْهُ كلامها الرباني، وتنزلها الرحماني بالأفق الأعلى، انظر: المعاريج (ص 204) بتحقيقنا.

إني كنت ابن سبع عشرة حين دخولي في الطريق، ومنذ قد دخلت انحل العقد الأول بالتقوى لأمر الله تعالى، وأن الله إذا أراد بعبده خيرًا وجذبه إلى جانبه زاد في تجرده وانقطاعه إلى آخر العمر، قال: لا نفع له من إقرار واحد كما لا ضر من إنكاره.

وقال: المريد لا يعرف حال شيخه ولا يعتقده حق الاعتقاد ما دام لم يصل إلى مرتبته إلا أن يعرفه الله قبله، وهذا الشأن لا يكون من خارج بل من داخل فلا بد للعبد من الافتقار ورد التردد والإنكار من العلم والعرفان والشهود والعيان والتذكير والبيان وكثرة الصوفية والإخوان قيد لأهل الحق ولا بد من التجرد من القيود، قال: من وصل إلى الله فهو قائم بالحق، دائر بأمره مستمر، فلو أدخل الله كل الخلائق الجنة دونه لم يتألم منه أصلاً؛ لأن الأنس بالله لا يتفاوت بالدخول والخروج والمقصود هو الأنس.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء لا يزول إلى آخر العمر، وإني إلى الآن مرة ابتليت بالبسط ومرة بالقبض والانقباض؛ لأن الكل قضاء الله تعالى، قال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه:40] (1).

قال أحد العلماء: أي: وطحناك طحنًا، قال: إن يونس عليه السلام كان له إذن في أمر الخروج بحسب الحقيقة لكنه لما لم يكن مقارنًا بالإذن الصوري ابتلاه الله بالحوت فالاحتياط لازم.

قال: إن بعض المريدين بل الخلفاء لو أظهرت لهم ما أنعم الله به عليَّ من الأسرار

(1) قال الشيخ المصنف: أي قبل هذا؛ لأن باحتمال الشدائد؛ يحصل النجاة، وبمقامات المحن؛ يوجد المنحة، ويمكن أن يحمل الفتون والاختيار على ما بعد نجاة القلب من أثر النفس والقالب، وذلك لأن النبوة، وكذا الولاية التي تقتضي البقاء؛ تقتضي التبليغ الذي لا يخلو عن معالجة الناس ومعاملتهم؛ وهم هم في الركون إلى الشهوات، والميل إلى الأمور الطبيعية، والمعارضة بالمخالفات النفسانية، وذلك من حكم الاسم الظاهر، وإن صفا الباطن، وزال الكدورة عن مرآة القلب.
والحاصل: إن الأسماء الجلالية لا ترتفع أبدًا؛ كالنار، فالقالب في النار، والخليل سالم، فعليك بهذه المرتبة حتى تكون أكمل الناس وأسعدهم، وعلى كل حال فالمحقق يأكل السُّم، والحنظل، والعارف يأكل الحلواء.
وقد فسَّره ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: وطحنَّاك طحنًا، كان الإنسان الكامل كحبة القمح لا يزال يُطحن تحت حجارة القهر والجلال، وذلك من أحكام هذا الموطن.
وأمَّا موطن الآخرة: فليس هنا للأكامل إلا اللطف، والجمال قالبًا وقلبًا، ظاهرًا وباطنًا، فاصبر إن وعد الله حق، فلا خلف فيه أبدًا. انظر: مرآة الحقائق (ص 303).

والحقائق لفروا مني كما يفرون من الأصنام لعدم ثباتهم في أمر الاعتقاد، ولا بد من الفرار إلى الله تعالى من كل قيد وعلاقة وترك الحق خلفه كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المدثر:11] فإن الحضور في ذلك.

قال حضرة الشيخ: إن بعضهم يتسارع انكشافه وبعضهم يحصل له على التأني ثم أنشد قول الهدائي في بعض مفرداته التركية [....].

قال حضرة الشيخ: رأيت شيخي الصغير في المنام، وقلت: هل أنت راضٍ عني؟ قال: نعم، فكررت اطمئنانًا فلم يزل يشير بالرضا ثم أمرني باجتناء من بعض ثمرات حديقة، فاستيقظت.

قال حضرة الشيخ: أولاد العرب أشد كبرًا وفخرًا من غيرهم فمن قابلهم بالتقدم أخروه، ومن قابلهم بالتأخر قدموه، وفيه سر «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله».

فقلت: هذه المعاملة تحتاج إلى سعة الأخلاق؛ فإنه لا يتحمل أوضاعهم إلا القليل من أفراد الرجال، قال: نعم، وجاملناهم غاية المجاملة حين مررنا بمصر في طريق الحج فعظمونا، وبجلونا وشيعنا حين الخروج منها قريب من أربعمائة من شيوخهم وعلمائهم، خصوصًا إبراهيم اللقاني شيخ الحديث، وصاحب السلسلة، ومختار الكل، وبكوا علينا بكاء شديدًا.

وتلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، وقال: إن أهل الإسلام كثيرون بالنسبة إلى الجانبين كما ترى أن كفار «نمجة» وهم كثيرون بالنسبة إلى كفار فرانسز، فأسوته تشير إلى الجانبين كما ترى، وكما أن كفار نمجة محاربون مع فرانسز، كما كانوا محاربين مع أهل الإسلام، وقد هزموا أهل الإسلام مرات وهزمهم - أي: نمجة - كفار فرانسز مررًا، والكل بيد الله.

قال حضرة الشيخ: ليس الوصلة بيني وبين خلفائي إلا من الوصية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] فالوصية بالحق والصبر لا بد لي منها في حق الكل خصوصًا في حقهم.

قلت لحضرة الشيخ: أصعب شيء عندي أمر إصلاح الأخلاق.

قال: أين نحن من ذلك؛ فإن المصلح هو الله ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 49]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدا﴾ [النور: 21] فالكل من عند الله.

كان حضرة الشيخ قد أشار إلي بالمكث إلى آخر رجب فلما تمت المدة عين يوم السبت للخروج، وهو الرابع من شعبان فقبلت يده الشريفة بعد صلاة الفجر من ذلك اليوم فدعا لي دعاء جامعًا دنيويًا وأخرويًّا، وقال في آخره: هذه العبارة التركية [.........].

الزيارة السابعة

هذه الزيارة آخر الزيارات وهي قبرصة وقعت في هلال سنة اثنتين ومائة وألف، وقد سبق سببها، وبعض كلماتها على التفصيل فلا نعيده ولا علينا أن نشير إلى البعض الآخر منها.

قال حضرة الشيخ: إن استناد الكفار إلى الأحجار ألا ترى على القلاع والحصون، واستناد المؤمنين إلى لا إله إلا الله ألا ترى أنهم لا يتحصنون بحصن سوى التوكل عليه تعالى وهو يكفيهم، قال: «**لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي**»[1].

قال حضرة الشيخ: إن حسام أفندي المدفون في «إستانكوي» من أجلة مشايخ الطريقة، وقد مضى منذ مات قريبًا من المائة، وهو أستاذي المعنوي؛ لأنه قد قرأت منه في المنام.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: 14] الآية إشارة إلى أصحاب الشمال، وقوله تعالى بعده: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14] إشارة إلى المقربين من أصحاب الميمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ [آل عمران:15].

الآية إشارة إلى الأبرار من أصحاب الميمنة، ومقام العندية المأخوذة من قوله تعالى، والله عنده أفضل وأعلى كأنه تعالى أشار بتعقيب الجنة بذلك أنكم أن كان لكم ميل إلى ما سوى المولى فليكن ذلك إلى الجنة لا إلى متاع الحياة الدنيا.

قال حضرة الشيخ: لا ينفخ الروح ما لم يكمل الجسد والجسد هو الشريعة والطريقة والروح هو المعرفة والحقيقة فإذا كمل شريعة السالك وطريقته فليرتقب نفخ

(1) رواه القضاعي (323/2)، والديلمي في الفردوس (251/5).

روح المعرفة والحقيقة وإلا فلا.

قال حضرة الشيخ: أستاذ المرء وشيخه أعلى وأفضل من الأب الطيني؛ لأن الأب الطيني موجود للكفار وأهل الإسلام مشتركون فيه، ويمتاز المسلمون منهم بالأب الديني، وهـو المعلـم والمرشد، ثم قال: خير الآباء من علمك، ووصى حضرة الشيخ بأن يقرأ المؤذن بعد إحدى وأربعين الصلوات على النبي ﷺ في أعقاب المكتوبة على ما في وصايا حـضرة الهدائي فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، و﴿شَهِدَ اللَّهُ ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: 18 - 19].

و﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنـزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26 - 27] ثم يسبح ويحمد ويكبر، وذلك في دُبر كل صلاة على ما في معالم التنزيل.

قال المشايخ: اتخذوا الخانقاهات لأجل أن يشتغلوا فيها بإتباعهم بإحياء مثل هذه الأمـور، ومعنى الإحياء: ترك الإهمال، والأخذ بالاستعمال، ثم وصى بترك القيل والقال، وتـرك أسباب الاشتهار، وبأخذ الخمول والمجاهدة مع النفس والطبيعة، وقال: إن القوى الطبيعية والنفسانية ككفار الإنس والجن، والقوى القلبية والروحانية كمسلميهم، والملك فكمـا أن الجهـاد في الظاهر بين المسلم والكافر ماضٍ إلى يوم القيامة، فكذا الجهاد في الباطن بين القوى، وإن الله لا يجرد العبد من كل علاقة في كل زمان، بل يسلبه في بعض الأحيان، وإن كان إنسانًا كاملاً يبقى على المجاهدة؛ فإن الإنسان لم يترك سدى.

قال حضرة الشيخ: معنى نداء المؤذن: صلوا على النبي عليه السلام إحدى عشرة صلاة، أن الأفلاك سبعة وبالعرش والكرسي واللوح والقلم، يصير المجموع أحد عشر، والصلوات بعـدها إشـارة إلى نـزول الفيض من هذا المذكور، ولا تعين فوق هذا روحانيًا أو جـسمانيًا، ولهـذا انحصرت الصلوات عند البعض في العدد المذكور، ثم حضرة الهدائي اخـتار إحـدى وأربعين مرة فنحن على الامتثال، ولا شغل لنا غير الطاعات والأعمال؛ فاجتهدوا أنتم حتى تكونوا متبعين لنا في هذا الباب، وحتى يقول الرسول ﷺ يوم القيامة: [خـوش كلدك]؛ والله تعالى [خوش كلدك خاصة قوله] فإن المراد بإحياء ما أهمله الناس

من السنن والمستحبات أن يكون المرء عبدًا خاصًا صاحب عزيمة وتقوى، والله تعالى قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] إشارة إلى أرباب الرخصة من المؤمنين.

وقال أيضًا: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102] إشارة إلى أصحاب العزيمة منهم فكل ضرر في الدنيا والآخرة إنما يأتي من الإهمال، ثم دعا مرتين دعاءً جامعًا.

جاء إلى حضرة الشيخ واحد من الأطفال بخبرين فلاطفه، وقال: إن الطفل قريب العهد إلى عالم الذات، وفيه رائحة ذلك العالم، ولذلك يستأنس به الشيوخ، وينزلون إلى مرتبته في التكلم وغيره.

جمع حضرة الشيخ الصوفية، وهم أربعة أنفار غير ولده السيد مصطفى والفقير؛ فقال: اعلموا أن أول من ابتلى بالاحتلام أبونا آدم عليه السلام فإذا وقع لأحد منكم فاغتسلوا تحت هذه الغرفة في المحل المهيأ للوضوء والاغتسال، ولا تستحيوا، وارفعوا التكلف من البين في الدخول والخروج؛ فإني لا أرضى بغير ذلك، أقول: إن روح الله روحه تنزل نفسه في أواخر عمره منزلة واحد من الناس - يعني: عند أتباعه - فلذا رفع الكلفة بل الخدمة؛ فإنه كان لا يستعين أحدًا في وضوئه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إن عالم الفناء[1] عالم القدس، والتجرد بخلاف الرد إلى

---

(1) قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26].
ويقول تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27].
منزع: حقيقة الفناء محو واضمحلال، وذهاب عنك وزوال.
وإن شئت قلت: فناء المريد طهارة النفس من التدنيس، وفناء المراد تخلُّقه بأوصاف التقديس.
وإن شئت قلت: فناء السالك عن السكون إلى الأنوار، وفناء العارف عن شهود لمحة الأغيار.
وإن شئت قلت: الفناء محو النية، وذهاب الأنيَّة.
وإن شئت قلت: الفناء التخلي لنور التجلِّي.
مشرع: فناء عوام الطريق بهجة أهل التحقيق، فإن حصلت لهم العناية، سلكتهم مسلك الهداية.
منزع: فناء المحب بمحبة الحبيب، وفناء المحبوب بالوصل عند غيبة الرقيب.
مشرع: اجتاز قوم ببعض طرق الفناء، ولم يحصل لهم ما طلبوا من المنى، وإنما حرموا الرشاد لعدم الاسترشاد.
منزع: أهل الصدق في الإرادة في باب الأعمال فانون أدبًا مع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات:96].
وأهل المعرفة فناؤهم في حضرة الصفات والأسماء وذلك لهم أسمىَ؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17].
=

=

مـــشرع: فـــناء المـــريد بشهود التوحيد، وفناء المراد بالخروج عن المراد، وفناء العارف بشهود الأحدية في حضرة الواحدية، وفناء الفرد بتجلّي الأحد بالغيبة عن كل أحد.

منـــــزع: كـــوْن مشهد الحسّ هو محلّ جريان الشمس، إذا استوت شمسك عند الزوال أفنت ما كان موجودًا من الظلال، فاحرص على استواء شمسك بذهاب ظل غمامة حسّك.

كــــان لي ظـــل رســــوم ... فاســـتوت شمـــسٌ فـــزالا

عـــشت بالمحـــبوبِ حقّـــا ... بعـــد مـــا كانـــت خـــيالا

مـــشرع: أفْنىَ التائب المهلكات، وأفنى السالك العادات، وأفنى المسلك القواطع، وأفنى العارف المطامع، وأفنى الواصل الأكوان، وأفنى الموصّل ما سِوىَ حضرة الإحسان.

منـــــزع: إذا غلـــب الفناء بشهود التجلّي، عند صدْق التخلّي، لا ترى الأكوان إلا كالخيال في حضرة هذا المثال.

إنمـــا الكـــون خـــيالٌ ... وهـــو في حـــقِ الحقـــيقةِ

كـــل مَـــن يـــشهد هـــذا ... حـــاز أســـرارَ الطـــريقةِ

مشرع: فناء الفناء أعلى من الفنا؛ لأنه دهليز البقا عند أهل التقى، فإياك أن تقف مع بداية الفنا؛ فتقع في الخلط والدعوى، وتخالف أهل الأدب والتقوى.

وانظر حال الحسين الحلاج لما قنع ووقف عند أوائل الفناء، كيف وقع في العناء[1].

بقوله: ها هو أنا ومَن أيْسر أقواله ما أعرب به عن بعض أقواله.

عجـــبت مـــنك ومـــني ... أفنيـــتني بـــك عـــني

أدنيـــتني مـــنك حـــتى ... ظنـــنت أنـــك أني

قـــوله: (حتى ظننت أنك أني) فيه شعور بأدب فناء الفَنا، لكنه لم تكمل له حقيقة هذا المعنى؛ إذ لو كملت لتخلّص من غلظ البشرية، وتأدب بكمال الأدب مع الربوبية.

يـــا نـــزهتي في حـــياتي ... وراحـــتي بعـــد دفـــني

مـــا لي بغـــيرِك أنـــسٌ ... إذ كـــنت خـــوفي وأمـــني

منـــــزع: الفاني المحقق عند المحققين؛ من شَعر بوجوده عند الغيبة والحضور، وعلمه وإن لم يشهد في ظلمة فناء ذلك الديجور.

ألا ترى أن من طلعت عليه الشمس فاشتغل بصره بنور شهودها لا ينكر بقاء نور الكواكب، وإن لم ينظـــر حقيقة وجودها، كذلك الفاني إذا غلب عليه شهود أنوار الحق، استشعر وجوده ووجود الخلق، فذلك سلوك الكُمّل الأنبياء، والسادات الأتقياء.

مشرع: قال غير واحد في الفناء (أنا) وفي البقاء قالوا: (أنت)، فقيل: يا فاني في الأول ما كذبت،

=

الـــبقاء(1)؛ فـــإن الله تعالى يبتلي صاحبه بما يبتلي به أصحاب الطبيعة، والنفس لكنه على

ولكن في الثاني أحسنت.

منـــزع: مقام الفناء به الوصول إلى المنى، كلما توالى على صاحبه دَنّا، واصطلمه السنا في المقام الأسنى.

ويَزيدني تلفًا فأشكرُ فعله   كالمسكِ تسحقه الأكفُّ فيعبقُ

مـــشرع: الفـــناء هـــو أساس الطريق، وبه يتوَصَّل إلى مقام التحقيق، ومَن لم يجدْ بمَهر الفنَاء لم يستجْل طلعة الحَسْنَا، وليس له في غد واليوم نصيب مع القوم.

(1) قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 73].

قاعدة: البقاء مقام يملك حقيقة الشهود على بساط الأدب مع الشهود.

فائدة: بقاء البقاء أكمل من البقا، وصاحبه هادٍ مهتدٍ بكمال التُّقى.

قاعدة: متى وجدَ البقاء وجِد الصحو، وإذا ذهب جاء السكرُ لصاحب المحو.

فائدة: الباقي فاني، وليس كل فانٍ باقي.

قاعدة: مقام البقاء جامع حيطة الجمع، وبقاء البقاء جامع حيطة جمع الجمع.

فائدة: الجمع غير الجمعية؛ الجمع شهود وحدانية النور، والجمعية غيبة مع الحضور.

فالجمعـــية غيبة عن الخلق مع الحضور بالحق، والجمع شهود الحق بلا خلقٌ، فمقام الجمعية أكمل من مقام الجمع.

قاعدة: القيام بحقيقة الجمع دون الشريعة زندقة، والقيام بمقام الفرق دون الجمع تفرقة.

فائـــدة: الحقـــيقة خفـــيّ الباطن، والباطن جليٌّ الظاهر؛ لهذا كان في المصطلح: الباطن حقيقة، والظاهر شريعة.

قاعدة: لا يصلح مقام البقاء إلا بعد فناء الفناء.

فائدة: في مقام البقاء يعطي المولى التمكين، وفي مقام بقاء البقاء ينصرف بالتمكين في التلوين.

قاعـــدة: وصـــف الـــبقاء للباقي يختلف بحسب ما تقدم من الفناء؛ لذلك اختلفت المقامات، وتباينت الحالات.

فائـــدة: من الرجال من لا يجد البقاء، إلا بعد الفناء وهذا هو الأكثر، ومنهم من يجد البقاء لأول وهلة رقيقة يجدها أهل الخصوصية من حقيقة الأنبياء، وهؤلاء هم الكُمَّل الورثة.

قاعدة: البقاء يقتضي وجود الفناء بعدم أوصاف البشرية التي يجب التقديس منها، والبُعد عنها.

فائدة: البقاء مرآة التجلّي، كما أن الفناء بساط التخلّي، كما أن الباقي على منصة التجلّي.

قاعدة: بقاء القديم غير بقاء الحادث، وإن حصل للسالك طريقة؛ فهو مجاز حقيقة.

فائـــدة: لا يحـــصل رفع البقاء إلا بخفض الفناء، فقم في باب نصب البدل، واترك حروف العلل تبلغ ما أملته من الأمل.

اليقظة والعرفان وأصحابهما على الغفلة والجهل يعني: أن المردود إلى البقاء وإن كان مبتلى بأنـــواع البلايا لكنه على الله مع الله، فلا يعتريه جزع ونحوه بل يحمد على النعمة والمحنة ويستغفر عند الذلة بخلاف غيره من الباقين في الفرق الأول، ثم قال: كما أن الوجود لله تعالى حال الفناء فكذا حال البقاء، وإن كان مضافًا إلى العبد صورة ألا ترى أن من ركب دابـــة، فقد يقال: إن له دابة، لكن ليس له دابة فكما أنه مسلوب عنه تلك الإضافة حال عدم الركوب، فكذا في حال الركوب وهذا من مزالق الأقدام، قلت: هل ترفع الانقباض مـــن أخلاق النفس؟ قال: لا ولو كان نبيًّا؛ فإن الله تعالى لا يدع العبد في الدنيا على يد واحدة وهي الجمال الصرف، وإنما يكون ذلك في الجنة إذ الابتلاء يرتفع هناك، وكل ورد التزم يحتمل السقوط إلا ورد الاستغفار؛ فإنه باقٍ إلى آخر العمر بمكان الابتلاء بالمجاهدة ما دام حيًا ولو عين رسول الله ﷺ الاستغفار كل يوم مرة وعرف أنه يستغفر ربه كل يوم هذا العدد، قال: ومن هذا ظهر أن الاستغفار ليس في ترتيب الأسماء السبعة لعدم خلو كل مقام عنه ولو كان فيه بخلاف نفسه عن بعض المقامات وليس كذلك.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:6] إشارة إلى أهل اليقظة حسناتهم غالبة على سيئاتهم[1].

قاعـــدة: وصـــف البقاء في الأنبياء عصمة وهداية، وفي الأولياء حفظ ورعاية، وكل من حصل له وصف البقاء أمن من الشقاء.

فائدة: الراقي درجة الفناء يشاهد أول مقام البقاء، ويبشر هناك في بدايته بما سيكون له في نهايته؛ لأنها أول خلع القبول في مقام الوصول.

(1) قال الشيخ المصنف: اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقـــدر دلَّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال.

وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلَّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوي في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة.

وفـــيه إشـــارة إلى أن الأعمـــال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهـــبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن اُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:8] إشارة إلى أهل الغفلة لما أن سيئاتهم غالبة على حسناتهم والحكم للغالب في الفريقين فظهر أنهم مشتركون في فعل السيئة ولو بحسب مراتبهم، ولا يرتفع ذلك الابتلاء عنهم، ولذا قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه:

«يا عليُّ، إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة»[1] لما أنه مقتضى اسم الغفور.

وقد كان عليه السلام يعلم أنه يعمل السيئة، ولو في بعض الأحيان، ولو بحسب الفكر، ولذا وصى بالحسنة، وإنما قلنا بحسب الفكر؛ لأن ما يدور في جنان أرباب العزيمة مأخوذ به.

ثم قال: والحاصل أن توارد الليل والنهار إشارة إلى توارد السيئة والحسنة فكما أن

=

الجسم هو الذي يتّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها.
فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلّق بها، فاجتمع ثقيل وهو العمل، وخفيف، وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.
والحاصل: إن روح العمل؛ كروح الجسد، فلا يقوم إلا به، وأمَّا وجود الطالحات فهو عدم الصالحات، والعدم وإن كان لا يقتضي الثقلة والخفة لكن صاحبه أثقل الثقلاء؛ ولذا كان ضرس الجهنّمي كأُحد، وبدنه مقدار مسافة ثلاثة أيام؛ لغِلظة حجابه، وكانت تلك الغِلظة معنوية في الدنيا، ثم تكشّفت صورة في الآخرة، فاجتمع أيضًا ثقيل وخفيف، فغلب الثقيل فأهوى بصاحبه إلى السافل الذي هو السجّين.
والحاصل: إن ثقلة العمل، وخفة الروح مقبولتان، وأمَّا عكس ذلك بأن يثقل الروح، ويخفُّ العمل فغير مقبول، فخفة الروح وثقلته هما عاملان في الإصعاد والإهباط لا خفة العمل وثقلته، فإن ذلك تابع لخفة الروح وثقلته؛ وإنما لم يكتفِ بإخبار أن أمه هاوية حتى وصفها بكونها نارًا حامية؛ لأن مجرّد الهوى والسقوط لا يقتضي النار الحامية، وعلى تقدير استلزامه للتعذّب بالنار، فالنار قد تكون شديدة، وقد تكون خفيفة، فوصفها بالحامية؛ ليدلَّ على شدّتها كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:30]، فلو عذّبوا نفوسهم في الدنيا بنيران الحرارات، وزادوا فيه بأنواع الرياضات؛ والمجاهدات، لمَّا زاد الله عذابهم في الآخرة؛ بل لم يعذّبه، فإن المعذَّب لا يُعذّب مرتين، وفي العذاب معنى آخر من طريق الذوق، العذاب يعرفه أهله.
وانظر: مرآة الحقائق (422).

(1) رواه الطبراني في الكبير (175/20)، بنحوه عن معاذ.

الدنيا لا تبقى على الليل وحده أو النهار وحده بل هما على التعاقب دائمًا فكذا العبد المؤمن لا يخلو من نور العمل الصالح وظلمة العمل الفاسد والفكر الفاسد فإذا كان يوم القيامة يلقي الله الليل في جهنم والنهار في الجنة، فلا يكون في الجنة ليل كما لا يكون في النار نهار. يعني أن النهار في الجنة هو نور إيمان المؤمن ونور عمله الصالح بحسب مرتبته، والليل في النار هو ظلمة كفر الكافر وظلمة عمله الفاسد فكما أن الكفر لا يكون إيمانًا فكذا الليل لا يكون نهارًا، والنار لا تكون نورًا فيبقى كلٌ من أهل النور، والنار على صفته الغالبة عليه، وأما القلب وحاله بحسب التجلي فهو على عكس الحال الغالب؛ فإن نهاره المعنوي لا يتعاقب عليه الليل، وإن كان يطرأ عليه استتاد في بعض الأوقات.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:24]: إن من حيلولته تعالى بين المرء وقلبه أن يحب بعض العباد الشغل بالعلم والمعرفة وغيرهما وبعضهم الشغل بخلاف ذلك ولو عرض على أحدهما شغل الآخر لتنفر وأعرض، وقلب المرء بين أصبع من أصابع الرحمن.

قال حضرة الشيخ: أنا في عالم الغربة عند ست سنين، قلت: ورد فطوبى للغرباء، قال: من هو في عالم الغربة كمن بقي وحده في البحر المحيط، وإلى هذه المرتبة أشار ﷺ: **«كنت يتيمًا في الصغر، وغريبًا في الكبر»**[1].

قال: ومعنى الغربة أن ينسلخ عن كل صورة ومعنى وينقبض عن جميع الاستهالات والتنزلات ليبقى وحده.

قلت: هل شيء وراءها يكون مطمحًا للعارف؟ قال: هي غاية الغايات، ولا مطمح وراءها.

قلت: الغربة كحال النقطة حيث يضمحل عندها تفاصيل تعينات الحروف والكمالات والسطور، قال: نعم وإنما يحصل ذلك فوق التعينات علمية أو عينية، قال: وفقني الله من أسرار الحروف المقطعة على ما لا يوصف، قال: إني ما وجدت علم الظاهر والباطن إلا بخدمة الشيخ، وحسن الاعتقاد؛ فإن تأثير الخدمة وحسن الاعتقاد فوق تأثير المطالعة والاجتهاد.

---

(1) تقدم.

قال حضرة الشيخ: فسَّر ابن عباس ﷺ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114] أي: إيمانًا ويقينًا بك[1]، وهو أجل التفاسير وأدقها، وذلك لأن علو الإيمان واليقين به دون غيره، وهو أصعب الأمور.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لهذا الفقير: كيف حالك؟ قلت: طيب.

قال: في السكون أو في الحركة؟ قلت: في الحركة.

قال: البركة مع الحركة، وكنت عند هذه المقاولة أكتب كلماته الشريفة التي سمعتها منه في ذلك اليوم وذلك وراء سبحات الذي كان عينه لي في بيته المنيف توضأ حضرة الشيخ فمسح ذراعيه لأمن إسالة الماء الجديد عليها فخطر ببالي منع الفقهاء من ذلك وأن المناسب بحال حضرة الشيخ وصًى التقيد بأحكام الشريعة غاية التقيد أن يكون على خلاف ما رأيت منه وهذا قد مر على خاطري من غير اعتراض؛ لأنه لم يكن من شأني الاعتراض قديمًا لكنه لما كان في صورة الاعتراض أراني الله في المنام تأديبًا وتربية كأني مشرف من محل مرتفع، وإذا مدرس مذموم بين الناس استقبلني من الطريق، وأرى أن لحية حضرة الشيخ كأنها مصفرة وكذا لونه، وقد كان أبيض فانتبهت فعرفت الحال، وأستغفر الله الملك المتعال؛ فالمدرس إشارة إلى المسألة الشرعية التي خطرت ببالي، واصفرار اللون إشارة إلى النظر بالنقصان وعلى الله التكلان، ونعوذ به من الخذلان.

طالع حضرة الشيخ حاشية على تفسير الفاتحة التي نسختها من نسخته المباركة، ثم قال بطريق الملاطفة: شددوني وضربوني مائة سوط؛ فإن الله تعالى أنعم عليَّ بمثل هذه النعمة الجليلة، وأنا على كفران نعمة.

قلت: إن وقع ذلك فقد ذكركم الله نعمة السابقة، فقال: أستغفر الله من الكفران والعصيان.

قال: إن السالك لا يخلو من إجمال وتفصيل إلى آخر عمره، وحقيقة التفصيل تظهر عند احتضاره ثم هذا التفصيل إجمال بالنسبة إلى التفصيل البرزخي وهو إجمال بالنسبة إلى التفسير البرزخي وهو إجمال بالنسبة إلى التفصيل الكشفي الذي يظهر عند الرؤية ثم لا نهاية للتفصيل.

(1) رواه الطبراني (185/10).

شكوت إلى حضرة الشيخ من أخلاق النفس، قال: لا يتخلص العبد من الانقباض من أخلاق النفس إلا في مرتبة الأحدية الذاتية؛ فإن فلكها واسع وإحاطتها كاملة وعندها ينجلي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:247]، وكلُ خيرٍ وشرٌ تعين في جميع التعينات إلى أن ينزل إلى تعين جنانه أو لسانه أو أعضائه فيظهر الفكر والذكر والفعل فأصحاب تلك الرتبة الأحدية بدون ذلك ولا يتأذون في صورة الشر؛ لأنه أمر فاشٍ من استعداده خارج من كيس تعينه، والله تعالى لا يتأذى أصلاً، وهو أصبر على أذى يسمعه فكذا من ذاق من مشرب المرتبة المذكورة، وأما مرتبة الواحدية الصفاتية فليست في الإحاطة كالأولى.

قال: إن حقيقة الإسلام أمر مشكل صعب لا يتحقق به إلا الأفراد فلا تعجل إذا كان إيمان بأرباب هذا الشأن؛ فإن الله تعالى لما عجل في إظهار وجودك في هذه النشأة وكل أمره تدريجي فترقب المقصود ولو بعد حين ويلزم عليك الآن حسن الاعتقاد في الباطن والقيام والصيام في الظاهر فوظيفة الظاهر التعبد بأحكام الشريعة ووظيفة الباطن قطع الميل إلى ما سوى الله، وعند وقوع زيغ أو ذلة يلزم الاستغفار.

قال حضرة الشيخ: إن الله أيدني فلم يصدر مني ما يخالف ظاهر الشرع مع غلبة الحال المحرقة سنين، ثم قرأ قوله ﷺ: **«إن الله أدبني فأحسن تأديبي»**[1].

قال: إني أحب سماع تلاوة بعض السور كسورة والضحى والانشراح والنصر؛ فإنها جاءت على حسب حالي، والله تعالى وفقني لمطابقة القرآن أنفسًا وآفاقًا، وأعطاني ما أعطاني من جهة القرآن.

قال حضرة الشيخ: إن الملك والشيطان كالقلمين اللذين يرسم أحدهما بالمداد الأبيض، والآخر بالمداد الأسود وحركتهما مستندة إلى الكاتب، ولا صنع لهما في الحقيقة؛ فالله تعالى يحول بين المرء وقلبه وقلم الخير وقلم الشر بيده والملك والشيطان من قبيل الوسائط لكن الأدب إسناد الشر إلى النفس والشيطان والخير إسناده إلى الله الملك المنان وهذا الفرق لا ينافي ذلك الجمع بل هو عين التوحيد والمراتب متفاوتة فمن مشى على المراتب أمن من العثور.

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (72/1).

أقـول: رأيت في المنام حضرة الشيخ، وهو يقول: إنه من لم يقاسِ مشاق هذه الطريقة فهو يموت بلا دين ولا إيمان.

فقال خادمه القديم علي دده مثالاً لذلك: الحمار يتحمل مشقة الحمل الثقيل مع كـونه حيوانًا كذلك الإنسان إذا لم يتحمل المشقة مع كونه إنسانًا يكون أنـزل درجة منه.

قـال حـضرة الشيخ: رأيت في المنام حضرة الشيخ الأكبر مع ابنه صدر الدين القونـوي - قدست أسرارهما - واعتذرت إليهما بأني أريد أن أزوركما لكن لا أعرف مكانكمـا فأشـار أن اثبت في مقامك ومكانك أننا لا نفارقك أين كنت فقلت: رأيت حضرة الشيخ الأكبر بقلنسوة (ناتارية)، يقال لها بالتركي: [قلياق].

قال: لا ضير إنه مجرد عن كل لباس، وظاهر في كل صورة، وصى حضرة الشيخ الصوفية الحاضرين بالاستغفار قبل الغروب؛ لأن المرء لا يخلو يومًا مما يخالف رضاء الله تعالى، وذلك اليوم شاهد على ما فعل.

قـال حضرة الشيخ: حالة النوم وحالة الانتباه إشارة إلى الغفلة ويقظة البصيرة فـوقت الانتباه كوقت انتباه القلب في أول الأمر، ثم قال: الحركة إلى الوضوء إشارة إلى التوبة والإنابة ثم التكبيرة الأولى إشارة إلى التوجه الإلهي فحاله ومدة الانتباه إلى هنا إشارة إلى عـبوره عـن عالم الملك، وهو الناسوت ودخوله في عالم الملكوت، ثم الانتقال إلى الركوع إشارة إلى تجاوزه إلى الجبروت، ثم الانتقال إلى السجدة إشارة إلى وصوله إلى عالم اللاهوت، وهو مقام الفناء الكلي، وعند ذلك يحصل الصعود الكلي إلى وطنه الأصلي ثم القـيام إلى الـسجدة إشـارة إلى البقاء؛ فإنه رجوع الولاء ففي صورة النـزول عروج وبـالعكس فافهم، والركوع مقام قاب قوسين وهو مقام الصفات أي: الذات الواحدية، والسجدة مقام أو أدنى، وهو مقام الذات الأحدية، والحركات الست هي حركة القيام إلى الـركوع ثم مـنه إلى السجدة الأولى ثم منها إلى الجلسة ثم منها إلى السجدة الثانية ثم إلى القـيام إشارة إلى خلق الله السماوات والأرضين في ستة أيام فالركعة الواحدة من الصلاة محـتوية على أول السلوك وآخره وغيره من الصور والحقائق الدنيوية والأخروية والعلمية والعينية والكونية الإلهية.

قـال حـضرة الشيخ: أمهات الأسماء سبع وهي: الحي والعليم والقدير والمريد والـسميع والبصير والمتكلم، وكل منها ينقسم إلى سبعة باعتبار أنه الحي يؤخذ فيه الحياة

والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والتكلم لكن لما كان الصفة الغالبة هي الحياة أخذت هي لكونها بالفعل ولم يعتبر المقلوب وبالقوة فإذا كان الحي سبعة بهذا الاعتبار فقس البواقي عليه.

فالسبعة بسبع مرات يبلغ إلى تسعة وأربعين ثم باعتبار الظهور والبطون يكون المجموع ثمانية وتسعين ثم باعتبار المجموع والإفراد يصير تسعة وتسعين ثم باعتبار أحدية المجموع والإفراد يصير مائة؛ فالأول إفراد حقيقة وعدد حقيقي، والثاني والثالث فرد وعدد اعتباريان.

ثم قال: والسماوات السبع بإزاء هذه السبع، وهي ما ذكر في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:14].

فهذه الشهوات السبع المفصلة قد جعلها خمسًا في آية أخرى، وهي قوله تعالى: في أواسط سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الحديد:20].

ثم جعل هذه الخمس في أمرين وأدرجها في آية أخرى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:40] جامع لأنواع الشبهات، فمن تخلص عن الهوى فقد تخلص عن كل قيد مانع للسالك من الوصول إلى المطلب الأعلى.

خاطب حضرة الشيخ هذا الفقير بلسانه أن حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي، قد أعجبتني فإني منذ صنفتها لم أطالعها إلى الآن، وإنها جاءت بحمد الله كدرر منظومة بحيث لا تُوصف، وإنها من فضل الله وقد صنفتها في مائة وعشرين يومًا، وبقي ورق من أوراق من آخر التفسير غير محشي؛ لأنه وقع لقلبي الأستار هناك فأمسكت عن التحرير، وكان فيض الله عليَّ حين التحرير بحيث لا يوصف فلم ينقطع عن تلك المدة ولو لحظة.

قال: إني أُحب خطك لتعليقي، لكن هذه النسخة التي بخطي.

قلت: الكل لكم، ثم قلت: قد استغرب حضرة الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره - فهم تفسير الفاتحة فضلاً عن تعليق الحاشية عليه، وهذا التفسير من قد صنف، وهو أكثر من أربعمائة سنة بقي بكرًا إلى الآن، وإن الله فتح على يديكم.

ثم قال: إن خلفائي كثيرون بعضهم في الحياة، وبعضهم قد مات، وإن هذه النفَس والتأثير يصل بعدي إليك لا إلى غيرك؛ فإن لك إحاطة بهذا العلم، ولك تحريرًا لطيفًا،

قال: وإني وجدت ما وجدت بنفس شيخي ودعائه وقد أعطيتك هذا النفَس والدعاء بإذن الله تعالى، فسارعت إلى تقبيل طرف ذيله وأخذت دعاءه ونفسه النفيس ويكفيني شرفًا وسعادة في الدنيا والآخرة، وقد كرر حضرة الشيخ المقال المذكور في مجالس مختلفة في أواخر عمره وعد زياراتي له في جزيرة قبرص من الوراثة.

وقال: إنك لم تبلغ الآن إلى نصف من السلوك ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5]، والحمد لله حمدًا كثيرًا يستوعب الأوقات ويستغرق جميع الحالات.

قال حضرة الشيخ: المجاهدة طريقة مسلوكة لأهل البداية والنهاية، أما أهل البداية فيجتهدون تربية، وأصلاً، وأما أهل النهاية فشكرًا، ولذا قال عليه السلام:

«**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1] فالفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى الحيوانية، وتضعيف القوى الروحانية مع أن السالك مأمور بالإمداد إلى طرف الروح؛ فإنه كالإمداد إلى عسكر الإسلام في الظاهر، منهي عن الإمداد إلى طرف الجسم، فإنه كالإمداد إلى جيش الكفار في الظاهر، وكل منها مذموم، وإنما الممدوح إلى ظاهر الدين الحق وباطنه إلى أن يغلب أهله عدوه في الظاهر والباطن، والنشاط ليس بشرط في المجاهدة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ [التوبة:41].

قال: وأرى بشرتك غير ما رأيتك قبل.

قلت: وقع الفتور في المجاهدة منذ سنة بسبب أني أفرطت فيها؛ فقيل لي: [هداي أو ليحق تقدير كار ايلمز اكاندبير][2]؛ فقال: كن على الاعتدال في كل حال من غير إفراط وتفريط وليكن همتك في العبودية التذلل المحض دون ظهور فيض أو غيره؛ فإن العمل الصالح هو ما ابتغي به وجه الله تعالى دون غيره من العلوم والمعارف والأسرار والحقائق وغيرها، وكل نشأة فهو بذر ما يليها كالدنيا؛ فإن من حرث فيها يحصد في الآخرة ومحصول هذا البذر الدنيوي ظهر في النشأة الأخروية، قال: إن كل نشأة فهي بذر ما يليها كالدنيا تخالف ما قبلها وما بعدها؛ فإن الله لا ينشئ شيئًا مرتين في صورة واحدة، فإنه عبث، وهو منزه عنه؛ فهذا الظهور الدنيوي إذا ذهب إلى البطون فلا يعود أبدًا بل ينتقل على المثال البرزخي وهو تخيل آخر ثم المثال البرزخي ينتقل يوم النشر إلى الوجود

(1) رواه البخاري (380/1)، ومسلم (185/1).

(2) كلام تركي.

العيني الحشري، وهو غير البرزخي باعتبار إذ اتحاد الحقيقة في كل نشأة كحقيقة الإنسان لا ينقلب إلى حقيقة أخرى لا ينافي الغيرية، ولو من وجه فحقيقة الوجود متحدة، والظهور مختلف فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام، قلت: لم أدرك كيفية الوجود البرزخي هل هو كما في الدنيا؟ قال: نعم؛ وإنما الفرق أن البطون في هذه النشأة يكون ظهور هناك فيكون الغيب شهادة، والشهادة غيبًا.

قال حضرة الشيخ: أصل كل شيء هو الحرف، فإذا انضم إليه خاصتان له يصير كلمة إما اسمًا أو فعلاً أو حرفًا، وهذا التركيب جارٍ في العوالم.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى ألقاني هنا، ومن قلعة ماغوسة كلمة بديعة له أني كنت أرجو أن يظهر من السلطان أو الوزير أو غيرهما واحد فتنصح بكلامي ويصلحني ويكون سببًا لنظام العالم فالآن عرفني الله أن ليس في سلطان الزمان وأتباعه استعداد لقبول النصح ومداراته لحياة العالم، فجردني عن القسطنطينية وأهلها تجريدًا لا يوصف غير أن الأطفال في البيت يمرون على الخاطر في بعض الأوقات التي لست بمغلوب، وإنما يجيء الخاطر، ويذهب من غير توقف.

قال حضرة الشيخ: بأن الله تعالى رآك لا بقاء بلدة بروسة فاشكر الله؛ فإن العزيز الكبير مدفون هناك، وهو حضرة الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره - والعزيز الكبير وهو خليفة حضرة محمود الهدائي الإسكداري القوجحصاري نشأ فيها وقد ورثك الله تحريره ثم دعا دعاء جامعًا حلوًا يحيى من أتباع الفقير رأس حضرة الشيخ يوم الجمعة.

قلت: احتجم[1] النبي ﷺ مرة فشرب بعض الأصحاب - رضي الله عنهم - ما خرج من الدم، وهو ممنوع من حيث ظاهر الشريعة، ولذا حمله بعض العلماء على الإفراط، قال: إن سكت النبي ﷺ بعد شرب الدم؛ فهو إذن له وإلا فإن كان من أهل الفرق ففعل ذلك محظور، وإن كان من أهل الجمع ففعله مباح.

وقد ذكر العلماء أيضًا أن من خصائص ﷺ طهارة ما هو غير طاهر من غيره ولو كان فضلاته.

وأيضًا إن الله طيب، والرسول أيضًا طيب بجميع أجزائه من غير تفرقة بين جزء

---

(1) أي: تداوى بالحجامة، وهي تشريط موضع الألم وتسخينه لإخراج الدم الفاسد منه.

وجـــزء، وظهر من رأس حضرة الشيخ بعض دم من الموس[1] فمسحه، وقال: يجيء يوم يبلى هذا الرأس وجميع أجزاء الوجود، فقلت: لا تبلى إن شاء الله، قال: بأي دليل تقول؟.

قلــت: لأن التوحيد الحقاني يزيل العفونة البدنية الموجبة للتفسخ، فتبسم، فخطر ببالي أن حضرة الشيخ لو قال: ما علامة الوصول إلى التوحيد الحقاني؟

فــإذًا أقــول له: فخطر من تلعثم أن نور وجهك المبارك وكمال تعبده بالأحكام الظاهرة وتخلقه بالأخلاق الحميدة الباطنة وكراماته العلمية التي عجز عنها مشايخ الزمان ومــشاهيرهم فضلاً عن إتيان مثلها أهل الرسوم فكل ذلك علامة للمقصود، والحمد لله تعالى.

دعا حضرة الشيخ لهذا الفقير بعد رؤية بعض آثاري؛ فقال: جعل الله قلبك واسعًا ولــسانك جامعًا، وجاء في هذا اليوم - أي: يوم الجمعة - درويش من الفقراء القادرية بطــريق الــزيارة، فــسأله الــشيخ عن أحواله وسياحته، ثم قال: [اكر تلرار لره ايرمش اوتوراتلرار لرايمش] [2] وكون المرء رجلاً كاملاً أولى من كونه واصلاً إلى الرجل الكامل.

ثم قــال حضرة الشيخ: الحدث أصغر وأكبر، وهما في الشريعة ظاهران، وأما في الطريقة فالحدث الأصغر هو حب العقبى، والحدث الأكبر هو حب الدنيا، وأيضًا الأصغر حــب العلــوم الباطنة والتقيد بمرتبتها، والأكبر هو حب العلوم الظاهرة، وأيضًا الأصغر الشرك الخفي، والأكبر الشرك الجلي.

وأيضًا الأصغر الميل إلى التعينات الباطنية الروحانية.

والأكبر الميل إلى التعينات الظاهرة الجسمانية.

وأما في مرتبة الحقيقة فالأصغر الارتباط بالشؤونات الغيبية التي هي مرتبة الأحدية، والأكبر التعلق بالتعينات العملية التي هي مرتبة الواحدية كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِــي كِــتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:77 - 78] فالكتاب هي مرتبة الواحدية التي ترتسم في مــصحفها نقــوش مرتبة الأحدية التي هي القرآن الإجمالي فأهل الميل إلى شيء مما ذكر كونية أو إلهية عينية أو علمية أهل الركون إلى ما سوى الله يلزم ترك صحبه؛ لأنه جنب في مقامــه المطلق عن رق كل قيد هو أهل الحق وهم المخلصون بفتح اللام، وهم أعلى من

(1) في الأصل: الموسي، وهو الآلة الحادّة المعروفة بالموس.

(2) كلام تركي.

المخلصين بكسر اللام قيد الإخلاص ونسبه إلى نفسه بخلاف المخلص بالفتح بل هو حر عن جميع القيود، فيكون الحق إذا طاب للحق في مرتبة العبد، وعابدًا له في مرتبة فيضمحل جميع النسب فلا يبقى إلا الحق ومجملاً.

ولذا قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهياته التركية: [حقي حقله شهودايت أي كوكل] (1) فإن الوجود والشهود قيد بالنسبة إلى العبد؛ فإذا فنى عن إضافة الكون كان الشاهد والمشهود هو الله لا غير كما كان هو لا غير، قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] أي: لا يمس الهوية إلا المطهر عن جنابة التعلق بكل من المقامات المذكورة(2)، والمطهر بالفتح لا بد له من المطهر بالكسر، وهو الله تعالى فالعبد لا يطهر نفسه ولا يزكيه، وإنما يطهره الله تعالى ويزكيه، قال: قطع الله عن قلبي كل علاقة حتى أني صاحبت السلطان سنين، وكان انقطاعي في تلك المدة أشد من الانقطاع قبل الصحبة فلله تعالى الحمد على ذلك، وقد غير مثل هذه الصحبة حال كثير ممن تزيًا بهذا الزّي.

قال حضرة الشيخ: أعجبني حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي أنها من النوادر.

قال: وهذا الفيض فضل الله العظيم عليَّ حيث أنعم بمثل هذا على مثل هذا الفقير، قال: قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:285] بالنسبة إلى الوحي الظاهر، وأما بالنسبة إلى الإلهام؛ فنقول: صدق وارث الرسول ما ألهم عليه من ربه، والمؤمنون به.

قال حضرة الشيخ: النظر الصحيح يؤدي إلى معرفة الحق وذلك بالانتقال من معلوم إلى أن ينتهي إلى الحق لكنه طريق التصور والفكر لا يتخلص من الاثنينية، وأما المكاشفة فليس منها الانتقال المذكور وطريقها المذكور، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:91] كيف قدَّم فيه الذكر على الفكر؛ فطريقة الإشراقيين تخالف هذا؟ قلت: إن صاحب الكشاف خاتمة أهل العربية حيث لم يأت بعده بمثل عربيته، قال: نعم، ولكن

---

(1) كلام باللغة التركية.

(2) قال المصنف أيضًا: أي لا يسر سر الهُويَّة الذاتية إلا المطهَّرون عن أدناس التعلُّقات مطلقًا.

وقال أيضًا: أي من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقًا.

القشر المجرد لا يفيد كثيرًا؛ فإن العلم هو الذي أخذ من الداخل؛ لأن الخارج علم علماء الرسوم مأخوذ من الخارج، وعلم علماء الحقيقة مأخوذ من الباطن، والمرء إذا لم يأخذ البيان من الله كيف يفسر القرآن ويؤوله بل هو في حجاب وخجل يوم القيامة من مقاله، ولو نجا برأسه لكفى، قال: مثل أبي السعود وغيره، له عين واحده لا عينان والمعنى في الحقيقة هو الذي له عينان، قال: علماء الرسوم كالعميان يستند بعضهم ببعض.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء جار في زمان آدم عليه السلام إلى هذا الآن، وإن النبوة عينها معه من الابتلاء، ولا تحول بينه وبين النبي عليه السلام، وكذا الولاية ألا ترى إلى حال الحسن والحسين - رضي الله عنهما، قال: إن الشبلي[1] - قدس سره - بكى مرة لوفاة ولده

---

(١) هو دُلف بن جَحدر أبو بكر الشبلي: قيل: اسمه جعفر بن يونس، حكاه السلمي وقيل غير ذلك، إمام اشتهر شرفه وسمَتَ في جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانته، وهو خراساني الأصل بغدادي المنشأ، كان وليًا بنهاوند وبالبصرة، وكان والده حاجب الحجاب للموفق، ثم نائب صاحب الرجة.

وصحب الجنيد والطبقة وصار أوحد وقته علمًا وحالاً، تفقه على مذهب الإمام مالك وكتب حديثًا كثيرًا ثم شغلته العناية عن الرواية، وكان يأخذه الوله ويُرد في أوقات الصلوات إلى حسّه حتى لا يفوته شيء مما يتوجه عليه من التكليف كما يتوجه على العاقل الذاكر، فإذا فرغ من صلاته أخذه الوله فلا يعقل.

وسمع بياعًا يقول: الخيار عشرة بدرهم، فصاح وقال: إذا كان الخيار عشرة بدرهم، فكيف الشراء؟ ودخل خربة فوجد بها جارية فاصح بأعلى صوته: يا للمسلمين، أدركوني، فأتاه الناس فقالوا له: ما الخبر؟ فقال: خفت على نفسي من الخلوة بهذه.

وكان إذا أعجبه نحو صوف أو عمامة أوثوب خرقه.

ومن كلامه، وحكمه التي وشحها بألفاظه وأقلامه ونضد عقودها بأحكام إحكامه وملأ بجيوشها صدور مهامه:

قال: لا يكمل فقير حتى تستوي حالاته سفرًا وحضرًا وغيبة ومشهدًا.

وقال: وقفت بعرفة فطالبت الناس بما يجب من الحضور والإجلال، فرأيت الغالب عليهم التقصير فرحمتهم وقلت: إلهي، إن منعتهم إرادتك فيهم فلا تمنعهم مناهم منك.

وقال: الدنيا قدر يغلي وكنيف يملأ.

وقال: كل صديق ليس له كرامة فهو كذاب.

وقال: العارفون نيام والجاهلون أموات.

وقال: ذلي عطل ذل اليهود.

وقال: من ذاق ذرة من التوحيد عجز عن حمل نملة لثقل ما حمل.

=

وقال: إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم، ولولاها ما تعلقت بهم تسمية.

وقال: العارف لا يكون بكلام غيره لافظًا، ولا للغير لاحظًا، ولا يرى غير الله حافظًا.

وقال: سمعت الحق تعالى يقول: من نام غفل ومن غفل حجب، فلذلك اكتحلت بالملح لئلا أنام.

وقال: المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك.

وقال: من عرف الله تعالى حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينيه، ومن لم يعرفه لو تعلق به جناح بعوضة ضج لحمله.

وقال: الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب.

وقال: الحزن ملك، فإذا سكن محلاً لم يرض أن يساكنه آخر.

وقال: يقول أحدهم: توكلت على الله وهو يكذب عليه، لو توكل عليه رضي بفعله.

وقال: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

وقال: من خرج من ماله كله لله فإمامه أبو بكر، ومن خرج من بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه عليّ، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

وقال: إذا أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها فانظر إلى مزبلة، وأن تنظر إلى نفسك فخذ كفًا من تراب فإنك منه خلقت وفيه تعود، وإن أردت أن تنظر ما أنت فانتظر ما يخرج منك ودخولك الخلاء، فمن كان هذا حاله فلا يتكبر.

وقال لتلميذه الحصري: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد تأتينا، وكان يأتيه كل أسبوع مرة.

وقال: أهل البلاء أهل الغفلة عن الله.

وقال له رجل: كثرت عيالي وقلت حيلتي، فقال: ادخل دارك، فكل من رأيت رزقه عليك دون الله فأخرجه.

وقيل له متى تستريح؟ قال: إذا لم أر الله ذاكرًا، إني لا استريح إلا إذا دخلت حضرة الشهود؛ لأنها لا ذكر فيها استغناءً عنه بالشهود؛ لأن الذكر إنما هو للغائب.

وقال: ليس لمريد فترة، ولا لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لصادق دعوى ولا لخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار.

وقال: ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور.

وسئل عن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5] فقال: الرحمن لم يزل والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى.

ودخل على ابن الجراح الوزير وعنده ابن مجاهد فقال: سأسكته يا أبا بكر، أين في العلم إفساد ما ينتفع به؟.

وكانت عادته إذا لبس ثوبًا خرقه قال: فأين فطفق مسحًا بالسوق والأعناق، يا ابن مجاهد، أين في

القرآن الحبيب لا يعذب حبيبه، فسكت، فقال الشبلي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:18] قال ابن مجاهد: كأني ما سمعتها قبلاً.

وقال: إنما يحفظ هذا الجانب بي -يعني من الديلم- فمات يوم الجمعة، وعبر الديلم الجانب الغربي يوم السبت، واستولوا على بغداد، فنال الناس مصيبتان: موت الشبلي وعبور الديلم.

وسئل أي شيء أعجب؟ قال: من عرف الله ثم عصاه.

وقال: لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن.

وقال: من عرف الله لم يكن له غم.

وقال: إلهي، أحبك الخلق لنعمائك وأنا أحبك لبلائك.

وقال: ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا لمسها، ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان.

وقال: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حال له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلاء، وسمع قارئًا يقرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:86] فأغمي عليه فلما أفاق جعل يقول: بمثل هذا تخاطب الأحباب.

وقال: ليس الكامل من يوصل كل يوم ألفًا من العوام، بل من يوصل فقيهًا واحدًا في مائة عام، وفي قصة موسى والخضر كفاية لكل معتبر.

وقال: الإفلاس يا ناس الاستئناس بالناس.

وقال: الزم الوحدة، وامح اسمك من القوم، والزم الجدار حتى تموت.

وقال: لو كان لي في القيامة أمر لسألت الله أن يملأ جهنم مني وحدي لئلا يبقى فيها متسع لغيري لأفدي بعض أمة محمد، فرأى في نومه الله يقول: أما تستحي أن تقول ما قلت؟ إن كنت تتكرم على خلقي بما يضرّك فأنا خالق الكرم وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضرني، فقلت: وعزّتك قد تهتُ فلم أدرِ ما أقول.

وجاءه رجل فقال: أي الصبر أشد؟ قال: الصبر في الله، قال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فالصبر لله، قال: لا، قال: فأي شيء؟ قال: الصبر عند الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه أن تخرج، ثم أنشد:

ألا عليك فإنهُ لا يجملُ ... الصبْرُ يجمُلُ في المواطنِ كلْها

وحج فلما رأى الكعبة أغمي عليه، ثم انتبه فسمع قائلاً يقول:

يكونُ له علمٌ بها كيف تنزِلُ ... أسائلُ عن ليلى فهل من مُخبِرٍ

فصاح وقال: والله ما عنه في الدارين مخبر.

وسئل هل تظهر صحة الوجد على الواجدين؟ فقال: نورًا مقارنًا لنيران الاشتياق، فيلوح على الهياكل آثارها.

وأذّن مرة فلما تشهّد قال: لولا أنك أمرتنا بهذا الذكر ما ذكرنا معك غيرك.

وقال الجنيد: من كان الله همه طال حزنه، فقال الشبلي: لا، بل من كان الله معه زال حزنه.

وقال: طرح الأمال قد خاب إلا إليك، وعلو الهمم قد تقطعت إلا عليك، ومذاهب المعارف قد استدت إلا إليك.

وقال: مرَّ بي بهلول المجنون وهو خارج إلى المقابر ومعه قصبة جعلها فرسه وبيده مقرعة وهو يعدو فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى العرض على الله. فجلست حتى رجع وقد انكسرت القصبة واحمرت عيناه من البكاء فقلت له: ما كان منك؟ قال: وقفت بين يديه على أن يكتبني من الخدم، فلما عرفني طردني.

وقال: الوفاء والإخلاص في النطق واستغراق السرائر بالصدق.

وقال له الجنيد: لو رددت أمرك إلى الله استرحت، قال: لا بل لو رد الله أمري إليه لاسترحت، فقال الجنيد: سيوف الشبلي تقطر دماء.

وقال: كيف يصح لك شيء من التوحيد، وكلما ملكت شيئًا من الدنيا ملكك، وكلما أبصرت شيئًا صرت أسيره؟

وسئل عن الزهد فقال: تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء.

وقال: التصوف ضبط حواسك مراعاة أنفاسك.

وقال: طرح العادات وصول إلى الكرامات، ومن حقق رقة لمولاه استوحش مما سواه.

وقال: لسان العمل أفصح من لسان العلم.

وسئل هل يبلغ الإنسان بجهده إلى شيء من طرق الحقيقة أو الحق؟ فقال: لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، لكنهما لا يوصلان إلى شيء من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد، وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة وهداهم لما أحبوه.

وقال: ألا شاجٍ بحنين إلاّ رنة بأنين من قلب قريح حزين، ألا شارب بكأس العارفين إلاّ غارق في بحار المحبين، ألا هائم في ميدان العاشقين إلاّ منتبه من رقدة الغافلين. يا مسكين، ستقدم فتعلم، سيكشف لك الغطاء فتندم، كيف بك وقد كشف الغطاء وتجلى الجليل الفصل القضاء يا مسكين، لِمَ تبكي وتصيح؟ دع المعاصي تستريح، لم هذا البكاء والانتحاب؟ قف في الدياجي على الباب.

وقال: المحبة اتباع أوامر المحبوب وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص وكتمان الحال، مع بذل الجهد في المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58].

وسئل عن أرجى آية في القرآن فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:38].

وقال: فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر لا إله إلا الله مرة واحدة، أترى من واظب عليها طول عمره كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟

وسئل عن كمال العقل وكمال المعرفة، فقال: إذا كنت قائمًا بما أمرت تاركًا لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت بالله متعلقًا بأعمالك غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة.

وسئل: ما الحكم في أنه تعالى ذم الاستهزاء والمكر ثم فعلهما؟ فقال:

فتفعلُه فيحسنُ منك ذاكا ويُقبَحُ من سواك الفعلُ عِندي

فقال السائل: أسألك عن القرآن فتجيب بالشعر؟ فقال:لم أجب به إلا لتعلم أن في أقل قليل أدل دليل، تخليته تعالى بينهم وبين الاستهزاء، والمكر مكر منه بهم، إذ لو شاء لمنع.

وقال: من جاع خمسة أيام فحس بالجوع فأمروه بالحرف والمضاجع كالعوام، فإن مثل هذا لا يصلح للطريق.

وقال: كنت أمكث الشهر كاملاً لا أتذكر الطعام ولا الشراب إلا إن حضر بين يدي.

وقال: مساكين هؤلاء المماليك، نظروا بعيونهم إلى ملكوت المخلوق ورضوا بالجنان المخلوقة فبقوا معها خالدين فيها، وأما الملوك فلم يرضوا بها فنظروا بقلوبهم إلى مالك الملوك فبقوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقيل له: تراك جسيمًا بدينًا والحجة تضني فأنشأ يقول:

ولو درى ما أقامَ في السِّمَنِ أحبُّ قلبي وما درَى بدني

ورئي خارج مسجد يوم عيد، وهو يقول:

فَما أصنعُ بالعِيد إذا ما كنتَ لي عيدًا

كجري الماءِ في العُود جرَى حبُّكَ في قلبي

وكان يقول في مناجاته: «إلهي، إن هربت منك طلبتني، وإن قصدتك أتعبتني، فليس لي معك راحة، ولا مع غيرك أنس، فالمستغاث منك إليك».

وجلس عند جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون فقال: كفى حزنًا بالواله العبد أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرًا.

وقال: الأنس وحشتك من جميع ما يقطعك عنه واستغراقك.

وقال: سهو طرفة عين عن الله لأهل المعرفة شرك.

وقال: المحبة نتيجة الهمة، ومن علت همته ضعفت محبته.

وقال: المحبة بحار بلا شاطئ، وليل بلا آخر، وهم بلا فرح، وعلّة بلا طبيب، وبلاء بلا صبر، ويأس بلا رجاء.

ووقع له أن ناوله رجل لبنًا فقال: أخاف يضرني. فأقام سنين يقول في مناجاته: يا رب اغفر لي، فإنك وعدت بالمغفرة من لا يشرك بك، وأنت تعلم أني لم أشرك، فقيل له: ولا يوم اللبن؟ فخجل، وذلك لإضافته الضرر إليه.

وجاءه نصراني فأسلم، فقال: ما سبب إسلامك؟ قال: إسلامك، قال: كنت حال النصرانية أُكرِم =

فتنبه أن مثل هذا البكاء إنما يصدر من النساء، فحلق لحيته حياء من الله تعالى، قال: إن الله تعالى إذا أراد لعبده الترقي يتجلى له في يوم واحد بألف صورة ويبتليه بأنواع البلايا، وإذا أراد له التنــــزل يبقيه أربعين سنة على حالة واحده.

قال حضرة الشيخ: علم الشريعة يبقى هناك لأن متعلقه على الفناء، وإنما يذهب إلى الآخرة ثوابه بحسب العمل بالإخلاص.

وأما علم الحقيقة فيذهب إلى الآخرة؛ لأنه على البقاء، وهو أزلي أبدي لا زوال له في كل موطن ومقام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى الحق هذه الدار أهل اليقظة الواصلين بأهل الغفلة

=

ديـــن النصرانية فرزقت دين الإسلام ببركة إكرامي ذلك الدين فصاح الشبلي وقال: إذا كان من يكرم الدين الباطل يرزقه الله الدين الحق فمن يكرم الدين الحق ألا أنْ يرزقه الله الرحمة والمغفرة؟.

وقـــال لــه رجـــل: لم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أستحي من ذكر كلمة النفي في حضرته، قال له: أريد أعلى، قال: لا أبغي به ضدًا، قال: أريد أعلى، قال: لا أخشى أن أؤخَذَ في وحشة الجحد.

وفي روايــة: أخاف أن أموت عند الإنكار فلا أصل إلى القرار- قال: أريد أعلى، قال الله تعالى: ﴿قُــلْ هُــوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] فصعق الرجل ففارقته روحه، فتعلقت أولياؤه بالشبلي، وادَّعَــوْ علــيه بــثاره، فخرجت الرسل من الخليفة فسأله عن الجواب فقال: رُوحٌ حنَّت فرنت فدعيت فأجيبت، فما ذنب الشبلي؟ فصاح الخليفة خلّوه فلا ذنب له.

وجــاءه جمع فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من الشام، نريد الحج ونسألك الخروج معنا فأبى، فألحوا فقـــال: بثلاثة شروط: لا نحمل معنا شيئًا، ولا نسأل أحدًا شيئًا، وإن أعطينا لم نقبل. قالوا: أما الأولان فـنعم، لكن إن أعطينا لم نقبل، كيف نفعل؟ قال: كأنكم خرجتم متوكلين على من أوفد الحج لا على الله، روحوا إلى شغلكم.

مـــات ســنة أربــع وثلاثين وثلاثمائة عن سبع وثمانين سنة ودفن بمقبرة الخيزران وقيل له عند النـــزع: قل « لا إله إلا الله» فقال:

غــــيرَ محـــتاجٍ إلى الســـرُّاجِ   إن بيـــتًا أنـــت ســـاكنُهُ

ورئـــي في الـــنوم فقـــيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رآني آيسًا تغمدني برحمته.

ولم يتزوج قط فقيل: إنه رُئي أيضًا فقال: قال لي: ما كنت أحب أن تلقاني عزبًا رضي الله عنه.

وانظر: الكواكب الدرية (335)، وكتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

المحجوبين في التعبد والتقيد بالأحكام والآداب، ولذا وجب الاغتسال من غير تفرقة بين أهل الجمع والفرق.

وأما في الدار الآخرة فعكس الأمر بأن ألحق أهل الحجاب بأهل الكشف في دفع القيد، ولذا لم يُوجب الاغتسال في الجنة، ولو جامع كل يوم ألف مرة.

أقول: هذا من لطائف الأسرار وفَيضه عن الأغيار.

قال حضرة الشيخ: وراء الجسم روح مجرد فوقه عين مجردة، وفوقها سر مجرد، ومنه يظهر قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [...].

قال حضرة الشيخ: من قال في حقنا قولاً فاحشًا أو إذا آذنا بفعله أو تركه فهو في حل؛ فإن إرادة الانتقام له أو وقوعه في أمر مكروه من باب الشرك في طريقنا فنحن لا نلتفت إليه أصلاً بل إلى ما دبر الله لنا في علمه، وكل تدبيره خير ومحبوب، وإن كان في صورة المكروه؛ فإنه قد أخفى جماله في جلاله، ولطفه في قهره، ونوره في ناره، ألا ترى إلى حال إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] أي: التسليم في جميع المراتب بالقلب والقالب واللسان كما قال تعالى: في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131]؛ فهذا القول بالإسلام إنما كان بالإسلام بالقالب والقلب والروح والسر، وإلا فالإسلام القولي لا يفيد، ألا ترى أن كثيرًا من الناس يقول: إني أسلمت لله تعالى، ولكن عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان؛ فجميع الابتلاءات إما لإظهار الغل والغش، وهو لأرباب التسليم الصوري، وإما لإظهار الخلوص والانقياد، وهو لأصحاب التسليم الصوري والمعنوي؛ فإن بالابتلاء يظهر من معادن نفوسهم جواهر هي عند الله على الجواهر كما أن من معادن نفوس غيرهم يظهر ما ليس عند الله بشيء بل موجب لسخطه وغضبه كالغضب والاضطراب والقول الفاحش بالدعاء لسوء وغيرها.

قال حضرة الشيخ: إذا ما مت فافعل ما بدا لك؛ فإن الأمر إذًا بينك وبين الله، وقد انقطع القيد الصوري، وهو الاستعداد.

أقول: ظهر من هذا أن الشيخ ما دام حيًا، فالرجوع إليه في المهمات فنفسه النفيس كالوحي الظاهر بالنسبة إلى المريد؛ فإن الأنبياء - عليهم السلام - يبلغون الوحي في الباطن من الوجه الخاص أولاً، ثم يجيء جبرائيل عليه السلام من الوجه العام ثانيًا، وهم ينتظرون ذلك المجيء فالشيخ كجبرائيل للمريد وجبرائيل عليه السلام مرشد لرسول الله ﷺ، ألا ترى أنه

أرشده إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى، ثم انقطع ذلك وكان الأمر بينه وبين الله صورة ومعنى؛ فإن سر العبد لا حكم عليه لأحد إلا لله، ولهذا جاء في أدب أهل الطريقة أن المريد إذا أراد أن يذهب لحاجة ولم يجد الشيخ في مكانه يتوجه إلى روحانيته ويستأذن من الباطن، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولمقصود المتابعة، وهي حاصلة في كلتا الصورتين أي: في صورة وجود الشيخ وعدمه؛ فإن انعدام وجوده في مكانه في الظاهر لا يستلزم عدم وجوده في الخارج، والحاصل أنه فرق ما بين الحياة والممات، وإن كان الأنبياء والأولياء أحياء عند الله في جميع النشآت.

قال حضرة الشيخ: العلم يسوق إلى العرفان، وهو إلى المحبة، وهي إلى التعبد؛ لأن من له محبة الله يجهد في خدمته ويعبده لا لغرض، والمجاهدون في سبيل الله أفضل من القاعدين بالنص، قال: صاحب شيخي بعد ظهور هذا العلم - أي: علم الطريقة والمعرفة لقلبي ثلاث ثم استخلفني فصرت غريبًا وبقيت يتيمًا لكن الله ألبس وأنعم وأغنى وله الحمد، ألا ترى أن أحوال اليتامى في الخارج متفاوتة؛ فمنهم من يبقى على الغداء والجوع، ومنهم من يخلف له من يحتضنه فيراعيه كما يراعي الأبوان أولادهما، وإن الله حفظني عن الرخصة إلى الآن، وذلك في المطعم والملبس وغيرهما، وحبب إليّ الزهد وبغض التجمل، ومع هذا فأين نحن من كبار السلف في المجاهدة من تقليل الطعام والكلام والمنام والتكثير في الصيام والقيام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يبتلي بعض العباد بالطلب من تحصيل المطلوب، وبعضهم يبتلى به مع حصول المطلوب المشروط به إما مقارنًا بطلبه، وإما بعده؛ لأن وقت الدعاء قد يفارق حصول المطلوب فيستجاب الدعاء في وقت ويحصل المطلوب في وقتٍ آخر، وبعضهم لا يبتلي به بل يرسل فيضه بلا طلب ولا شيء، والثاني طلب وشيء، والثالث شيء ولا طلب.

قال حضرة الشيخ: كما أن الرزق الصوري ينقطع عند الموت الصوري وليس بعده إلا الحياة الأبدية كذلك الرزق المعنوي ينقطع عند الموت وليس بعده إلا الحياة الباقية، يعني: أن السالك إذا وصل إلى الفناء الكلي يستكمل حظه من جميع المقامات، ويأخذ نصيبه من جميع التعينات، وهي تجري مجرى الغذاء لروحه؛ فإذا استوفى من كل مقام حظه كان كأن قد مات وآل إلى صورة أخرى لا تشبه حاله الأولى أصلاً، وذلك إنما يكون بعد أربعين سنة من أول سلوكه حين تسخير قواه الطبيعية والنقصانية بالكلية ومجيء

الإمداد الملكوتي فليس المراد من هذا الفناء هو الذي يحصل قبل الفناء بل بعده فافهم.

قال: وهذا كما أن أهل الجنة يصلون لمقتضى الاستثناء الذي هو فعله إلا ما شاء ربك إلى مقام لا يشبه بالذي قبله أصلاً وذلك بعد طول العهد من دخول الجنة وعنده يظهر سر الأزل في مرآة الأبد، فكما أن مبدأ التعينات وهي الشؤونات الغيبية هو أزل الأزلين كذلك ما بعد هذا المقام الذي وصلوا إليه بالتجلي المخصوص هو أبد الأبدين فالأبد المضاف هو ما بعد هذا التجلي والمضاف إليه ما كان قبله مذ دخولهم الجنة، وكذا الأزل فإن ما فوق هذا المبدأ هو الأزل المضاف وما تحته هو الأزل المضاف إليه، وهذا السر جار على أهل النار لكنهم أهل الجلال ومقام الفردية، ولذا تزوج لهم ولا تنعم بنعم أهل الجنة أهل الجمال ومقامهم مقام الصفة مقتضاها التنعم والتلذذ؛ فالفرق بين أهل الجنة وأهل النار أن لأهل الجنة ظهورًا بالصفات، وفي الظهور بطون، وهو سر الذات، وأن لأهل النار بطونًا، وليس في البطن ظهر.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يُشاهد الأشياء بعين الإنسان الكامل، وإن الإنسان الكامل إذا انتقل إلى البرزخ بالموت الصوري يزداد حظه من مقامه فهو في الترقي أبدًا في كل موطن[1].

---

(1) قال المصنف فائدة: وذلك أن في الموت بأحد الوجهين حياة معنوية طيبة باقية دلَّ عليه بقاء الآثار، وعدم انحلال الصورة إلى يوم الحشر والنشر، وفي البقاء بالحياة الصورية موتًا معنويًا في الحياة الدنيا، وإلى آخر الأعصار؛ لأنها حياة فانية لا اعتداد بها أصلاً عند الحياة الباقية، وإن امتد زمانها.

والحاصل أن في الموت بالموت الاختياري حياة باقية، وإن قلَّ زمان الحياة الصورية، ولا حياة في الموت بالموت الاضطراري، وإن كثر زمان العيش الصوري؛ لأن الاعتبار بالباقي بالفاني، وفي الآية ترغيب إلى الموت بالموت الإرادي؛ ليحصل العيش الباقي، وترهيب عن البقاء بالحياة الصورية، فصاحب الأول إنسان حقيقي، وصاحب الثاني إنسان حيواني، ونسبته إلى الإنسانية نسبة الميت إلى الإنسانية؛ إذ لا إنسانية بعد الموت إلا صورة.

فكما أن الميت إنسان صورة فقط، فكذا الإنسان الحيواني، فهما مشتركان في الخلو عن أثر الحياة، وفيها أيضًا رمز إلى أن الإنسان الحيواني محبوب عنده الحياة الصورية؛ لانحصار نظره في آثارها، فلا يحب الموت والفناء عنها بخلاف الإنسان الحقيقي؛ فإنه يعلم أن الباقي يدلُّ عن الفاني؛ فيختار الباقي على الفاني، فيجتهد في الأسباب، ويتمسَّك بتوفيق رب الأرباب.

ثم إن الهارب عن الموت إنما هو هارب عن الحق؛ لأنه موصِّل إليه، فإذا بعد عن الموت؛ بعد عن الحق؛ لكنه قد يخلِّي ونفسه؛ فيزداد بعدًا إلى بعد، وقد يدركه التوفيق؛ فيقبل الحق إليه، فيمنعه

قلت: تأخر ظهور المهدي إلى رأس المائة الثالثة.

قال: أكثر العلماء على هذا؛ فالظاهر أن الله يريح عباده قرنًا وهو إلى ثلاثين سنة ثم يضعف الحال بعد الخمسين إلى أن يظهر ما يظهر إلى ظهور المهدي.

قال حضرة الشيخ: إن أهل الجمال يتنفرون عن أهل الجلال بما اختصوا به من عنايته وبالعكس فكل منهما محجوب عن صاحبه في هذه الدار، وكذا في الدار الآخرة، وأما أهل الكمال فلهم إحاطة وسعة في الدارين ليست لغيرهم، فالمقربون واقفون على أحوال الأبرار ومكاشفون عن مقاماتهم ومواطنهم وهم محجوبون عن حال المقربين وكذا الأبرار واقفون على أحوال أصحاب المشأمة، وهم محجوبون عنهم وعن كل واحد من الأبرار وصاحب المشأمة متنفر عن صاحبه بخصوص مقامه، محجوب عنه بما اختص به.

قال حضرة الشيخ: إن الشيخ في هذا الزمان يرشد المريد إلى طريق العلم والعمل ثم يستخلفه من غير استحكام الحال إذ ليس لأبناء الزمان ملازمة باب المرشد أربعين سنة لعسرتها فينتفعون بأقل قليل لكن الخليفة إذا ثبت في طريق الاجتهاد وصل إلى المراد ولو بعد حين، ومعنى زيارة الخليفة لشيخه النصح القولي والفعلي وتجديد النشاط لا تفرج البلدان ونحوه كما يفعله عامة الخلفاء في هذا الزمان، قال: هل وجدت مذ ما قدمت إلى الإسكوب وهو خمس عشرة سنة من يصاحبك على الحق؟ قلت: لا، قال: فعليك نفسك واستر حالك عن الأعيان ولا تكن من الخلفاء الذي يقبل الناس أيديهم، ويطمع لهم في الدنيا فينسون الحال التي كانوا عليه قبل فيردون إلى أسفل السافلين ولا يبقى عندهم من العلوم التي حصلت لهم في البداية إلا الخيال.

قال حضرة الشيخ: إن حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي لا يضيعها الله وسوف تكون مددًا لأصحاب هذا الشأن إن شاء الله المنان، وإن الله الأكبر أنعم على مثل

=

عن الهرب؛ فيكون طالبًا للحق بعد ما كان هاربًا منه.

وإليه الإشارة بقوله: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» فقوم يُقاد إلى الجنة نفسها بالإيمان والطاعة، وقوم يُقاد إلى رب الجنة بالعشق والمحبة، وكلٌ يجري على ما قضاه الله تعالى، فطوبى لأهل الإقبال، وكل الخسارة لأهل الإدبار، ومَن يُضلل الله فما له من هادٍ، اللّهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهَب لنا من لَدُنك رحمة إنك أنت الوهّاب».

هذا العبد الأقل الأفقر بمثل هذه النعم الجليلة[1].

قال: وإن أقل وأفقر إلى الله الغني الكبير؛ فالإضافة إليه لا إلى غيره، قال الإمام عليّ ﷺ: كفاني شرفًا أن تكون لي عزًا أو أن أكون لك عبدًا كما قال تعالى هو خالق العبد، فكذا جاعل للعبد عبدًا، وذلك يرفع هواه لا هو وهذا وقت الأصل، وهو وقت مبارك نسأل الله أن يجعل كل خاطر في المجلس عبدًا له حقيقيًا، ثم قال الفاتحة ثم بكى، وقال: لا تقنطوا من رحمة الله ألا ترون أن الصبي إذا لوث ثوبه وأرادت أمه وأبوه ضربه فإنه يلتجئ إليه لا إلى غيره فيرحمه ويغسل ثوبه ودرنه فنحن نلتجئ إلى الله بالتوبة والاستغفار كل حين وهما طهارة لنا عن كل دنس من الذنوب، ثم بكى شديدًا حتى قام إلى سنة العصر، وكان ذلك المجلس روضة من رياض الجنة، وقد شرف الله الحاضرين بدعائه المستجاب فلله الحمد.

دعا حضرة الشيخ من عنده للإفطار فجلسنا له، وبين أيدينا ماء وكعك مبلول؛ فقال بعد الإفطار: لهذا الخبز روح حقاني فظاهره يرجع إلى الجسد وروحه يرجع إلى الروح فيتقوى به الجسم والروح جميعًا، ولكل موجود روح إما حقاني أو حيواني؛ فجسد الميت له روح حقاني أي: غير روحه الحيواني الذي فارقه ألا ترى أن الله تعالى لو أنطقه لنطق بإنطاق الله تعالى إنما هو روح حقاني، وقد جاء أن كل شيء يسبح بحمده، وما هو ألا لكونه ذا روح سواء كان حجرًا أو شجرًا أو غير ذلك[2].

---

(1) قلت: نعم، فسيأذن الله بفضله ومنته الانتهاء من تحقيقها، وإخراجها إلى عالم النشر والطباعة على يدي العبد الفقير إن شاء الله تعالى، وهو الموفق والمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(2) قال سيدنا القونوي: قاعدة كلية تتضمن التعريف بكيفية تدبير الأرواح الأجساد وصورة الارتباط بين كل منها مع الآخر:

اعلم أن الارتباط الذي بين الروح الحيواني، وبين المزاج الطبيعيُّ الإنساني ثابت بالمناسبة، كما أن الارتباط بين النفس الناطقة وبين الروح الحيواني إنما صح وثبت أيضًا بالمناسبة، ولولا ذلك ما تـأتي للنفس تدبير المزاج البدني لما بينهما من المباينة من جهة بساطة النفس، وتركيب البدن، وفرط كثرة أجزائه، واختلاف حقائق ما تألُّف منه.

فالبخار الذي في تجويف القلب، وإن كان جسمًا فإنه ألطف أجزاء بدن الإنسان وأقربها نسبة إلى الأجسام البسيطة؛ وهو كالمرآة للروح الحيواني.

والروح الحيواني: من حيث اشتماله بالذات على القوى الكثيرة المختلفة المنبثّة في أقطار البدن،

والمتصرفة بأفانين الأفعال والآثار المتباينة تناسب المزاج البدني المتحصِّل من العناصر، وما يتبعه من الخواص المعدنية والنباتية والحيوانية، ومن حيث أنه قوة بسيطة متعلقة غير محسوسة مجعولة في ذلـك الـبخار القلبي الذي قلنا أنه كالمرآة له تناسب النفس الناطقة؛ وإنه أيضًا كالمرآة لها: أي للنفس.

ونـسبة النفس الجزئية الإنسانية إلى النفس الكلية، نسبة الروح الحيوانية إليها من جهة الافتقار إلى المـادة، والتقيُّد بها وملابسة الكثرة، ومن جهات غير هذه المذكورة كخواص إمكانات الوسائط من الأفلاك والنفوس والعقول والشؤون المعبر عنها بالأسماء.

ونـسبة النفس الكلية إلى القلم الأعلى المسمّى بالعقل الأول، والروح الكلي؛ نسبة النفس الجزئية إلى الـنفس الكلـية، ونسبة الروح الكلي المشار إليه إلى جناب الحق سبحانه نسبة النفس الكلية إلـيه؛ بل أقل وأضعف هذا وإن كان هذا الروح الكلي الذي هو القلم أشرف الممكنات، وأقربها نسبة إلى الحق، وأنه حامل الصفات الربانية، والظاهر بها علمًا وعملاً وحالاً.

فالـسير، والسلوك، والتوجه بالرياضة، والمجاهدة، والعلم، والعمل مع المحققين المتأصِّلين بأصولِ الـشرائع والتعـريفات الـربَّانية يثمر بعناية الله ومشيئته انصباغ القوى المزاجية بوصفِ الروح الحـيواني في الجمع بين خاصية البساطة والتجريد، وبين التصرُّفات المختلفة بالقوى المتعددة في فنون الأفعال، والتصريفات الظاهرة في بدنِ الإنسان بالقوى والآلات.

والـروح الحـيواني كماله الأول انصباغه بأوصاف النفس الناطقة، والنفس الناطقة الجزئية كمالها الأول تحقُّقهـا بوصفِ خازن الفلك الأول المسمّى في الشرائع بـ «اسماعيل»؛ وعند أهل النظر بالفعـال، وكمالهـا المتوسط ظهورها، وتحققها بوصف النفس الكلية، واكتساب أحكامها على وجهٍ يوجب لها التعدي منها إلى المرتبة العقلية والروح الكلي.

ثم الاتصال بجناب الحق والاستهلاك فيه بغلبة حكم الحقية على الخلقية، وزوال الخواص الإمكانية والتقيـيدية بأحكام الوجوب، وبقهر حكم الحق الواحد القهار كل حكم، ووصف كان يُضاف إلى سـواه، وهـذا القهر يرد على كل ما امتاز من مُطلَق الغيب الكليِّ الربانيِّ، وتلتبس بواسطة الأحوال الإيجادية بأحكام الإمكان والتقييدات الكونية المتحصِّلة من الشروط الوسائط.

فيـستهلك الجزء في كله، ويعود الفرع إلى أصله، مستصحبًا خوص ما مرَّ عليه واستقر فيه مدة، ووصـل إليه؛ كماء الورد كان أصله ماء فسرى في مراتب التركيب والمواد، واكتسب بسرايته ما صـحبه بعد مفارقةِ التركيب من طعمٍ، ورائحةٍ، وخواص آخر، ولا يقدح شيء منها في وحدته وبساطته.

وإذا عـرفت هـذا، فاعلم أنه يتحصَّل بين كيفيات المزاج الإنساني وبين ما يكون قلب الإنسان وذهـنه مغمـورًا به من المقاصد والتوجهات وغيرهما كانت ما كانت، وبين ما ارتسم أيضًا في نفـسه من العلوم، والعقائد، والأوصاف، والأخلاق في كل وقتٍ؛ هيئة اجتماعية. تلك الهيئة مع مـا ذكرناه أولاً في القاعدة بالنسبة إلى جناب الحق من جهة عدمِ الوسائط، وبالنسبة إلى سلسلة

=

الحكمة والترتيب، وما أودع سبحانه من القوى، والخواص، والأوامر، والأسرار في السماوات العُلا وما فيها من الكواكب والأملاك، وما يتكيَّف به من الأوصاف والتشكُّلات؛ كالمرآة يتعين فيها من تجلِّي الحق، وشأنه الذاتي، وأمره الترتيبي الحكمي العلوي، وما يتبعه جميع التصورات والتصرفات الإنسانية وما ينضاف إلى الحق من الأسماء والصفات والشؤون والآثار.

فمنها: أي من الأمور المتعينة المشار إليها: ما هي دائمة الحكم ثابتة الأثر.

ومنها: ما يقبل الزوال؛ لكن ببطء.

ومنها: سريعة الزوال والتبدُّل من حالٍ إلى حالٍ.

ومنها: ما نسبته إلى الحق أقوى وأخلص.

ومنها: ما نسبته إلى الكون أو الإنسان جمعًا وفرادىً من حيث ظاهر المدارك غالبًا أحق وأنسب.

ومنها: ما يفيد معرفة الاشتراك بين الحق وما سواه من إنسان وغيره.

ومنها: ما يقضي بالاشتراك بين الحقِّ والإنسان فقط.

ولست أعني بالإنسان هنا نوع الإنسان؛ بل يُعنى به الإنسان الحقيقي الذي هو بالفعل إنسانٌ كاملٌ الذي من جملة مناصبه مقام النيابة عن الحقِّ، وكونه واسطة بين الحق وما سواه في وصول ما يصل من الحق إلى الخلق في عصره، هكذا كل كامل في كل عصرٍ.

وهذا المشهد لما رأيته عرفت منه سرَّ التجدُّد بالأمثال، وبالأضداد، والمتخالفات، وأعني بالتجدد تجدُّد وجود الكون، والخواطر، والتصورات ونتائجها في كل زمان، وظهور الخلق الجديد الذي الناس منه في لبسٍ كما أخبر تعالى. وقوله الحق: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:15].

ورأيت تعين الوجود المطلق بصورِ الأحوال؛ وهي ذات وجهين، فكلها إلهية من وجهٍ، وكونية من وجهٍ، وصادق على الجهتين باعتبار آخر.

ورأيت تعين الأسماء، والصفات الإلهية والكونية بحسب تلك الأحوال.

ورأيت كيف ينتج بعض الأفعال، والعقائد، والأحوال الإنسانية سخط الحق ورِضَاه، وأحكامه وتعدد أثره الوحداني مع عدم تغير أمر في ذلك الجناب الأقدس؛ بل رأيت بعض الأفعال والتصورات العلمية والاعتقادية من الإنسان، إذا اقترن بحالٍ مخصوص من أحواله؛ استجلب بحكم علم الله السابق فيه، وتقديره اللاحق؛ تعينًا جديدًا من مطلق غيب الحق يظهر بحسب تلك الهيئة الاجتماعية المتحصلة كما قلنا من التصورات العلمية الروحانية، أو الاعتقادية الذهنية الظنية، والكيفيات المزاجية، والنقوش والتعشُّقات النفسية، والأوصاف والأخلاق الشريفة والدنيئة.

فإن كان أثر ذلك الأمر الظاهر التعين شيئًا موافقًا لما سبق به التعريف الإلهيّ بلسان الشريعة، وما تدرك العقول، والفطر السليمة وجه الملائمة والحسن فيه؛ أضيف إلى الحق؛ بمعنى أن ذلك أثر رضاه ورحمته، وإن كان الأمر بالعكس أضيف إلى الحق بمعنى أنه أثر غضبه وقهره، سلمنا الله منهما.

=

وإن كان الغالب على مزاج تلك الهيئة المتحصلة من اجتماع ما ذكرنا؛ حكم حال الإنسان؛ أعني: الحال الجزئي الحاكم عليه؛ إذ ذاك كان ذلك السخط أو الرضاء أو الحكم الإلهي المتعين في الإنسان بحسب حاله الحاضرة؛ قابلاً لزوال بسرعة، وكان قصير المدة.

وإن كان الغالب على الشخص، والجالب ما ذكرنا حكم العقائد، والعلوم الراسخة، والأوصاف والأخلاق الذاتية الجبلية، والمكتسبة الثابتة؛ ثبت الأثر والحكم أو تماديًا المدد الطويلة شرًّا كان أو خيرًا.

وكذلك إن كان الغالب فيما ذكرنا من الإنسان حكم صورة مزاجه، وقواه البدنية الطبيعية، والأوصاف والأحوال اللازمة للبدن وقواه؛ انقضى الحكم بمفارقة هذه النشأة العنصرية.

وإن كانت الغلبة للأمور الباطنية النفسانية، وما بعدت نسبته من عالم الشهادة؛ بقيَ الأثر والحكم مصاحبين إلى حين ما يشاء الله.

وإن كان الغالب فيما ذكرنا الأمور الذهنية الخيالية الظنية؛ تمادى الحكم في النشأة البرزخية أيضًا حتى يشاهد ما قُدّر له أن يشاهده ممَّا كان يتصوَّره على خلاف ما كان عليه، وإليه الإشارة بقول الله تبارك تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:47] وحتى تظهر غلبة أحكام الروح، وعلمه، وحكم صحبة الحق بالمعية الذاتية، وسره على حكم المزاج، وتخيلات صاحبه التخيلات الغير المطابقة لما عليه المتصور.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30].

ثم اعلم أن كل نشأة ينتقل الإنسان إليها بعد الموت، فإنها متولدة عن هذه النشأة العنصرية، وإن في ضمن هذه النشأة ما يدوم ويبقى، وإن تنوّعَ ظهوره، واختلفت كيفياته، وتراكيبه؛ وفيه ما يفنى بالموت، وفيه ما يصحب الروح في البرزخ من الفاسدة والتصورات الرديئة، والمقاصد القبيحة المستحضرة، والباقي من لوازم ما ذكرنا من صور الأفعال، والأقوال الإنسانية بموجب القصد والاستحضار المذكورين.

وأما النشأة الحشرية فإنها باطن هذا الظاهر فيبطن هناك ما ظهر الآن، ويظهر ما بطن على وجه جامع بين جميع أحكام ما بطن الآن، وظهر وما نتج من هذا البطون والظهور، والجمع والتركيب.

ثم عند الصراط يفارق السعداء ما يبقى فيهم من خواص هذا المزاج، والدار مما هو عنصريٌ غير طبيعيٍّ، وتبقى معهم أرواح قوى هذه النشأة وجواهرها الأصلية المتركّبة بالتركيب الأبدي الطبيعي الغير العنصري، وصورة الجمع والتأليف الغيبي الأزلي.

وأهل الشقاء ينفصل عنهم ما قد كان يبقى فيهم من أرواح القوى الإنسانية والصفات الروحانية، وتتوفر في نشأتهم صور الأحوال المزاجية الانحرافية والصفات الرديئة والكيفيات المردية الحاصلة في تصوُّراتهم وأذهانهم، والتي ترتبت عليها أفعالهم في الدار الدنيا وأقوالهم.

وينضم إلى صورهم ما تحلّل من أجزائهم البدنية في هذه النشأة، فإن كل ما تحلّل من أبدانهم يعاد إليهم، ويجمع لديهم بصورة ما فارقهم عقلاً، وعلمًا، وحالاً، وعملاً، وما يقتضيه ذلك الجمع والتركيب الذي يغلب عليه حكم الصورة على الروحانية.

وأهل الجنة بالعكس، فإن أكثر قواهم المزاجية، والصفات الطبيعية، وما تحلّل من أبدانهم ينقلب بوجه غريب شبيه بالاستحالة صورًا روحانية مع بقاء حقيقة الجسم في باطن صورة السعداء، فالباطن هنا مُطلَقٌ، والظاهر مقيَّدٌ، والأمر هناك بالعكس؛ حكم الإطلاق في ظاهر النشأة الجنانية، وحكم التقييد في باطنها؛ وغالب الحكم والأثر فيما ظهر هناك لما بطن هنا وبالعكس.

والنشآت المشار إليها هنا أربعة:

أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.

وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنها منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج المتحصِّل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركِّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة. فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرْ، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.

ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة؛ كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيبِ قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وورد في المعنى في الحديث الصحيح: إن في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنةٍ عرضُها السَّمَاوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُدٍ».

وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.

والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرفٍ من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحية؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.

ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».

وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.

قال حضرة الشيخ عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]: إن مشيئة الله وحدة، ومشيئة العباد كثيرة، والوحدة مبدأ الكثرة فكل مشيئتهم من مشيئة الله وتحريك قلة ليس بأهون عليه من تحريك جبل بل الكل عنده سواء.

قال حضرة الشيخ: ميقات الحج إشارة إلى الحد الفاصل بين عالم الملك والملكوت فمنه إلى الحرم ملكوت أفعالي، ومن الحرم إلى الكعبة صفاتي، والكعبة إشارة إلى الذات والحجر الأسود إلى النقطة، والمراتب الكونية مرتبة على ترتيب المراتب الإلهية فهذه الرسوم والآثار موافقة لتلك المعاني والأطوار فالتعين الأول الذي هو تعين بالقوة وهو مرتبة الشأن الغيبي لا غاية وراءه في الإلهيات كما لا غاية للكعبة في الكونيات والتوجه إلى القبلة رعاية للأدب الشرعي، وإلا فالحق مطلق عن الجهات والعارف متوجه بظاهره إلى الكعبة وبباطنه إلى الله تعالى فهو مطلق عن كل قيد في الحقيقة وفات عن إضافة كل مرتبة حتى عن التعين الأول فلا يبقى بالنسبة إليه إلا الله.

قال حضرة الشيخ: الظاهر والمظهر وجود الفارق، وهو الشريعة والعمل ولا فرق في الحقيقة والعلم الشريعة والعمل يصعد إلى جميع الحقيقة والعلم ولا جمعها ينزل إلى فرقها وبه يتخلص السالك عن الإلحاد والزندقة ثم ساق كلامًا آخر لا أذكره للعهد المأخوذ.

قال حضرة الشيخ: الشريعة فرقت بين الطيب والخبيث؛ فإن أكل الخبيث عائق من العروج إلى المبدأ، ولذا اختار السلطان التقوى والتزهد في المطعم؛ فإن له نفعًا لأنفسهم ولما ولد من أصلابهم.

قال الشيخ: لا بد للسالك من أن يكون في التجرد كتجرد الجنين في الرحم، وأما الكُمَّل فظهر بعضهم بالاسم الظاهر، وهو بإذن الله، ألا ترى أن حضرة الهدائي – قدس سره – كان في الظهور التام بالنسبة إلى شيخه الشهير باقتادة – قدس سره – وهو في الخمول، وإنما جاءت الشهرة له من شهرة خليفته وهو الهدائي وظهورهم وتجملهم ليس لحظ النفس إذ ليس فيهم النفس الأمَّارة حتى يكون لها حظ بل الذات الأمارة فافهم.

=

و«الكُمَّل المقرَّبون في حاق الوسط»؛ برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية والكونية، فافهم. وأما الباقيان من النشآت: فأحدهما: «النشأة الحشرية».
وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين». وانظر: النفحات الإلهية (ص 93) بتحقيقنا.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:35] حكاية عن سليمان عليه السلام مبني على هذا؛ فإن الله تعالى خلق الداعية في قلب سليمان عليه السلام لهذا الدعاء فدعا به فاستجاب الله تعالى دعاءه وأعطاه الملك والسلطنة كما أعطاه الخلافة والنبوة، وهو قد امتثل لأمر الله تعالى في ذلك؛ فقيل: في الدنيا، وقيل: دخول الجنة بعد خمسمائة سنة من دخول الفقراء، ولم يطمع في الدخول معهم وامتثل في ذلك لأمر الله.

قال: وأما أنا فقد سلب الله عن قلبي التجلي بالكلية حتى أني لو ركبت دابة ومعي جمع من الصوفية كان ذلك أشد عليَّ من عذاب جهنم؛ لأن الله تعالى لم يخلق الداعية له.

قال حضرة الشيخ تحديثًا لنعم الله تعالى عليه: إن الله تعالى لم يعط لحضرة الهدائي ما أعطاني من الآثار؛ فإن الله تعالى وفقني لتصنيفات في علم الشريعة والحقيقة وبث مني خلفاء يزيدون على مائة كلهم قادرون على الوعظ والتدريس، وإحياء الدين بحسب ظاهره وباطنه بقدر الإمكان وذلك لطف عظيم من الله تعالى إذ كان العلم قد مات في هذا الزمان في أكثر البلدان فأحياه الله تعالى بي؛ فالحمد لله على ذلك.

قال: إن مثلك لم يظهر بين خلفاء الهدائي أقول هذا الكلام إظهارًا للطف في حقي، وأنا بفضل الله أفتخر لا بغيره، وأسأل الله ألا يوقعني في ورطة الكبر والعُجب.

قال تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ (1) [الأحزاب:8] أي: عنده لا عندهم كذا فسره الجنيد، وهو معنى لطيف؛ فإن الصدق والإسلام عند الخلق سهل، ولكن عند الحق صعب؛ فنسأل الله أن يجعل إسلامنا وصدقنا حقيقيًا مثل حضرة الشيخ التعينات بقوله: إذا قلنا الكلام إما خبرًا وإنشاءً، كان أصل الخبر الكلام، فله تعين بالكلامية لكن

---

(1) قال الشيخ ابن عجيبة في البحر المديد (5 / 70): هذا سؤال تشريف لا تعنيف، وإيجاب لا عتاب، والصدقُ: ألا يكون في أحوالك شَوْبٌ، ولا في اعتقادك ريب، ولا في عملك عَيْبٌ، ويقال: من أمارات الصدق في المعاملة. وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة، وفي الأحوال: تصفيتُها من غير مداخلة الحجاب، وفي القول: سلامته من المعاريض، فيما بينك وبين نفسك. وفيما بينك وبين الناس: تباعدٌ في التلبيس والتدليس، وفيما بينك وبين الله: إدامة التبرِّي من الحَوْل والقوة، ومواصلة الاستقامة، وحفظ العهود معه على الدوام. في التوكل: عدَم الانزعاج عند الفَقْد، وزوالِ البِشْر بالوجد، وفي الأمر بالمعروف: التحرُّز من تخلل المداهنة، قليلها وكثيرها، وألاَّ يترك ذلك لِفزَعٍ ولا طَمَعٍ، ولكن تَشْرَبُ مما تَسقي، وتتصف بما تأمر، وتنتهي عما تَزجُر. ويقال: الصدق: أن يهتدي إليك كل أحد، ويكون عليك، فيما تقول وتضمر، اعتماد. ويقال: الصدق: ألا تجنحَ إلى التأويلات انتهى كلام القشيري.

الكلام في نفس الأمر مجرد عن هذا التعين في صورة الخبر فقس عليه حال التعين الأول مع التعينات الأُخر.

قال حضرة الشيخ: إن السالك حين صعوده إلى المبدأ الأعلى ينحل عن كل عقد وقع له في المراتب والأطوار، وهو عقد التعين بتلك المرتبة إلى أن ينتهي إلى التعين الأول ثم ينسلخ عنه فيحصل له الفناء التام؛ فإن أعيد إلى حيث ما ابتدأ منه يتلبس بلباس البقاء ثم يمر على تلك المراتب جميعها فلا يبقى له غير وجود الحي ولكونه عين الحق فيبصر به وسمعه يسمع به وهكذا فالعابد والمعبود والشاهد والمشهود إذا هو الله لا غير.

أقول: ظهر من هذا سر قولهم: الفقير لا يحتاج إلى الله، وذلك لأن مثل هذا الفقير كان غنيًا بالله أو لا وجود له سوى وجود الله فلا غناء له إلا غناء الله فيرتفع إضافة الاحتياج كما أن من كان خزانة السلطان بيده كيف يحتاج إلى شيء بل إلى السلطان غناهما غناء واحد، والشيء لا يحتاج إلى نفسه فافهم؛ فإنه مزالق الأقدام.

قال حضرة الشيخ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26] فإذا كان «من» فانيًا فكل ما يتبع «من» فهو فانٍ أيضًا.

ثم قال: [.....] قال: من خدم، خدم أي: في الدنيا والآخرة؛ فإن الله تعالى لا يضيع الخدمة، استأذن يعقوب دده الإسكوبي من أتباع هذا الفقير للذهاب إلى حضرة الكعبة من البحر وقد جاء معي من بروسة إلى زيارة حضرة الشيخ في ماغوسة، فقال حضرة الشيخ: هل لك مائة دينار؟ قال: لا، قال: فاسمع، إن الشيطان إذا لم يقدر على إضلال الإنسان وإذلاله من طريق الباطل؛ فإنه يجيء من طريق الخير مثلاً يعلم لو كلفك بالقتل وشرب الخمر ونحوهما أنك ما تساعده في ذلك فيوسوس في الحج ليقطعك عن طريق العلم والعمل؛ فإنك قبل أن تصل إلى مصر يحصل لك ملال من الطريق فيتشوش البدن والخاطر، ثم يزداد ذلك يومًا فيومًا فيحصل الفتور في العبادات بل تترك بعض الأوراد المعتادة فلو أقمت في حجرتك وكنت على العلم والعمل مواظبًا لكان خيرًا لك؛ فإن ما أردت من ثواب الحج يحصل في تلك الحجرة أيضًا والمقصود العبودية والاشتغال بالعلم والعمل والحضور أعون شيء لذلك.

ثم قال: جاء إلى شيخي مرة واحد من العلماء من أتباعه، يقال له: مصطفى أفندي فاستأذن للخروج إلى مكة كما استأذنت أنت، فقال له: يا مصطفى أفندي ما دامت هذه

النفس وصفاتها فيك لا يفيد لك الكعبة، ولو اتخذتها حجرة تسكن فيها صباحًا ومساءً، فالمـــرء بإصلاح النفس يستريح لا بغيره، ولها مكر خفي لا يقف عليه إلا من وقفه الله تعالى.

قال: احمد الله تعالى يا يعقوب دده على أن وفقك لتلاوة كتابه، وجعل مشيئتك إلى مثل هذا، وأشار إلى الفقير وجردك عن علاقة الأهل والأولاد في هذا الزمان الهائل.

ثم قال: هل قبلت؟ قال: قبلت، واستسلمت؛ فإن المقصود هو الرضا.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى إذا أراد إظهار شيء يجعله من جهة المظاهر أي: إن القلم لا يكتب بنفسه، وإنما يكتب به الكاتب فالقلم آلة لظهور فعل الكتابة، فإذا أراد الكاتـــب تـــبديل الكتابة بكتابة أخرى يأخذ قلمًا آخر ويترك القلم الأول أو لا يترك بل كتب به غير ما كتب في المرة الأولى.

أقول: أراد أن الله تعالى أرسلني إلى هنا لا لوزير وهو بمنـــزلة القلم في ذلك؛ فإذا أراد نقلي من هنا يجدد الوزير فيكون الجديد بمنـــزلة القلم في الآخر ويليهم إليه من غير تجديد فيجدد الكتابة في حقي بأن يكتب الإثبات بدل النفي.

تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُـــصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ [الحديد:20] (1) فدعاني فأراني نباتًا مصفرًا في محل مرتفع؛

(1) قال الشيخ ابن عجيبة في تفسير هذه الآية: أي: الحُرّاث، من: كَفَرَ الحبَّ: ستره، ويقال: كفرت الغمامُ النجومَ: سترتها، أي: أعجب الزراع {نباتُه} أي: النبات الحاصل منه، {ثم يَهيجُ} أي: يجف بعد خضرته ونضارته، {فتراه مُصْفرًا} بعد ما رأيته ناضراً مونعًا، وإنما لم يقل: ثم تراه؛ إيذانًا بأنّ اصفراره مقارن لجفافه {ثم يكون حُطامًا} متفتتاً متكسراً، شبَّه حالَ الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلة جدواها بنباتٍ أنبته الغيث، فاستوى وقوي، وأعجب به حُرّاثه، أو: الكفار الجاحدون لنعمة الله تعالى فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة، فهاج، واصفرّ وصار حطاماً.

وهذا المثل هو لمَن اشتغل بالدنيا، والجري عليها، وأمّا ما كان منها في طاعة الله، أو في الضرورات التي تُقيم الأولاد، وتُعين الطاعات، فلا يدخل في هذا المثل، وهذا مثال للإنسان ينشأ شابّاً قويّاً، حَسَن المنظر والهيئة، ثم يأخذ في النقص والهرم، ثم يموت، ويضمحل أمره، وتصير الأموال لغيره.

=

فقال: كان هذا قبل قدومك إلى هنا أخضر غضًّا يعجب الرائين الناظرين، فآل أمره إلى ما ترى.

أقول: إن قلت: ما فائدة البيان وهو معلوم؟.

قلت: إن الرؤية ليست كالإراءة، وفي الإراءة سر قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت:53] فافرق بين الخبر والنشأة هذه الإراءة.

قال حضرة الشيخ: إن أهل النار يدخلون النار بقدر طاقتهم أي: عذابهم فيها؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وليس الأمر كما يزعمه أهل الرسوم.

قـــال حضرة الشيخ: لا تدعُ على أحد؛ فإنك إن تجاوزت الحدَّ فيه فأنت ظالم والمدعو عليه مظلوم، وإن عدلت وساويت؛ فهو رخصة كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:40]، وإن عفوت؛ فهو أولى الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:40]، ولا يجوز الشكاية من الحق إلى الحق ولا من الخلق إلى الخلق واللازم مشاهدة المؤثر الحقيقي؛ فإنه هو الفاعل لا غير.

قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهياته التركية: [.....] دخل فيه الأمير والوزير والواعظ والشيخ وغيرهم.

قـــال حضرة الشيخ: إن للإنسان أفكارًا مختلفة؛ فإن فكرًا غلب عليه، فهو على صـــورته يموت ويغلب عليه في حال احتضاره، والإنسان الكامل يختم له بالأُنس بالله إذ لـــيس له فكر غير الله، وهو الذي يراد بحسن العاقبة وحسن الخاتمة، وهذا آخر كلمات الشيخ روح الله روحه في الزيارة القبرصية، وقد اختصرت في كل زيارة على إنشاء بعض كلماته دون كلها إذ لا نصية الأوراق، وقبل هذه الزيارة أُخر لم أكتب كلماتها أصلاً، وإذا أردت أن أكـــتب مـــا هـــو أُنموذج الكلمات وثمرات معارف الشيخ والقطرة تدل على الغدير، وقد كتب قبلي حضرة الهدائي الكلمات الواقعة بينه وبين شيخه باقتادة البرسوي،

=

قال القشيري: الدنيا حقيرة، وأحقرُ منها قَدْرًا: طالبُها، وأقلُّ منها خَطَرًا: المُزاحِم فيها، فما هي إلاّ جيفة، وطلاب الجيفةِ ليس لهم حظ، وأخسُّهم مَن يبخل بها. وهذه الدنيا المذمومة هي ما شَغَل العبد عن الآخرة، فكل ما شغله عن الآخرة فهي الدنيا.. انظر: البحر المديد (252/6).

لكنها تشتمل على حشو وتكرار كثير، والحمد لله على ما أنعم به عليَّ في الباب؛ فإن كتابي هذا جاء مشتملاً على قواعد كثيرة من أنواع، فإن افتخر الأماثل بشيوخهم وكلماتهم، فأنا أفتخر بفضل الله تعالى، وقد أراني من الأولياء، ولو كان الهدائي وباقتادة في الحياة لكانا أول المبايعين له - فرضي الله عنهم، وعمن سلك مسلكهم، وتابعهم في طريقتهم - وشم رائحة من بساتين معرفتهم وحقيقتهم، وجعلني وإياكم من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، وأراني وإياكم آياته الآفاقية والأنفسية بالبصيرة والبصر؛ إنه الهادي ومنه التوفيق الخاص، والالتحاق بأهل الاختصاص، وقد وقع الفراغ من كتابه هذا الكتاب في غرة جمادي الأخرى من سنة 1332هـ على يد كاتبه عبد اللطيف المكنى بالروسي.

فهرس المحتويات